طرائف ومسامرات

شؤون أدبية واجتماعية وسياسية مما جرى في محيط الحياة في القديم والحديث

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق

شؤون أدبية واجتماعية وسياسية مما جرى في محيط الحياة في القديم والحديث

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم

دمشق

مقـــدمـــة

شذرات الذهب

١ ـ العلاّمة الغزّاوي

أثبت الشاعر الكبير الأستاذ أحمد بن إبراهيم الغزَّاوي أنه علاّمةٌ حقاً، بما دبّج تحت هذا العنوان بمجلة (المنهل) من غررٍ لامعة، تَطُوف في شتّى فنون الفكر العربي من أدبٍ، وتاريخ، وسيرة، واجتماع، وفلك، وأحياء، إلى ما لا أستطيع إحصاءه، وقد اكتمل تراثه الحافل من الشذرات في مجلَّدٍ ضخم، شارف الألف من الصفحات، فأحسنتْ مجلة (المنهل) أكبر الإحسان حين جمعتْ هذه الفرائد الغالية في عِقْدٍ ثمين، بل في عدّة عقود، وقد رأيتُ من الأنسب أن نُحْيي ذكرى الرجل الفاضل باحتذاء صنيعه، فنحاول أن نعيد عنوان (الشذرات) لنصلَ ما انقطع من الحديث، ومن يدري فقد يأذن الله فتمتدّ هذه الشذرات حتى تأتي بكتابٍ تالٍ، وهو أمل عزيز.

٢ ـ انفراد الشذرات

وقد انفردت (الشذرات) عن شبيهاتها المماثلة في التّراث الأدبي، بأنها لم تقفْ عند الأدب وحده، لأنَّ أكثر المجموعات التي نَحَتْ هذا المنحى القديم ـ وفي أكثر الحديث ـ قد جعلتْ أخبار الشعراء مع الملوك والرؤساء موضع الاهتمام، فإذا توسّعتْ وجاوزت هذا النطاق، فإنها تمتدّ إلى مفاكهات الأسمار، ونوادر الطرف، وأقاصيص الندماء عن الطفيليين والحمقى والبخلاء، ومن يجذبون الناس بأفاكيههم المستطابة، أمّا شذرات الغزاوي رحمه الله فقد وصلت الماضي بالحاضر، وجاوزت الأدب إلى الدراسات الفكرية المتشعبة، لتمتصَّ منها

ما يُقدَّم في طبقٍ شهيّ، بعيداً عن المصطلحات والمحترزات.

وقد امتدّ عمر الغزاوي فأدرك من المشهورين والمغمورين مَن حفظ عنهم شتّى المواقف، وله ذاكرةٌ جيدة، تُسعفه بما كان في الزمان البعيد، كأنه حادثُ الساعة، ومُؤرِّخ هذا العصر إذا أراد أن يكتب تاريخ الحجاز، وأن يُحيط ببعض نوادر أعلامه من رجال السياسة والأدب، فلا بدَّ أن تكون (شذرات الذهب) من مراجعه؛ لأنَّ الذي يكتب تاريخ العباسيين مثلاً لا يقتصر على (كتاب الطبري) في تاريخ الدول وأضرابه، بل لا بدَّ أن يرجع إلى مثل: (البخلاء)، و(عيون الأخبار)، و(الفرج بعد الشدّة) من كتب الأسمار والنوادر، وما يسلك هذا السبيل.

٣ـ نقل الأديب

وقد أشارت كلمة الأستاذ نبيه بن عبد القدوس الأنصاري التي عرَّفتْ بالشذرات في الغلاف الأخير إلى (نقل الأديب) التي كان ينشرها أديبُ العربية الكبير الأستاذ (محمد إسعاف النشاشيبي) على صفحات (الرسالة) وهي إشارةٌ نابهة، تذكِّر بعملٍ مشابهٍ، وقد وعى النشاشيبي كنوزَ العربية وعياً حصيفاً، فأخذ يقطف من روائعها، وقد امتازتْ (نقل الأديب) بحواشيها الهامشية، إذ كان صاحبها بارعاً في أفانين العربية من نحوٍ ولغة وبيان، فكان ينتهز الفرص، فيكتب في الهوامش نبذاً دقيقةً، يحتفل بها كبار العلماء، لأنها لا تُتاح إلّا لماهرٍ غوّاص.

وكانت هذه (النقل) قبل نشرها في مجلة (الرسالة) عدة أُمليات مختارة، جمعها النشاشيبي من (الكامل)، و(الأمالي)، و(العقد) وأضرابها، وقدَّمها هديةً إلى الأديب السوري الكبير الأستاذ (خليل مردم) فشغف بها حبّاً، وكتب للأستاذ النشاشيبي هذا الخطاب بعد الديباجة[1]:

«كنتُ أحبُّ أنَّ هدية الأستاذ (نقل) كاسْمِها، فإذا هي سحرٌ وخمرٌ ونقل، وذلك أنَّ عنوانها يستدرج القارئ، ويُوهمه أنَّه نقل فِكَهٌ ليس غير، وهذا لعمري

(١) مجلة الرسالة، العدد (١٩٧) سنة ١٩٣٧م.

أول أبواب السحر، فإذا جاز هذا الباب، أو جازت عليه تلك الحيلة، وجدَ نفسه في روضةٍ فردوسيّة بين أقداحٍ ونقل، فالنقلةُ تغري بالقدَح، والقدحُ يستدعي النقلةَ، وهكذا دواليك، حتى تستخفّه نشوة الطرب، وتتلاعب بنفسه ولبّه.

فسَقَوْني، وقالُوا: لا تُغَنِّ، ولو سَقَوْا
جبالَ حُنَينٍ ما سَقَوْني لغَنَّتِ

فياليت شعري كيف يستجيز مَن حرَّم الصهباء على نفسه، أن يغوي الناس بالخمر، ويفتنهم بالسحر».

٤ ـ نقل الحبيب

وقد اهتم بطرائف النشاشيبي في نقله، كثيرٌ من أدباء العرب، وحاكوه في اختياراته، وأذكر أنَّ وزير التعليم التونسي العالم الشهير (حسن حسني عبدالوهاب) أخذ ينشر في مجلة (الجامعة) التونسية شذراتٍ مماثلة، وقد استهلَّها بهذا الإهداء: «إلى سيد الكتَّاب، ومحيي الآداب العلامة الكبير محمد إسعاف النشاشيبي أدام الله حياته»، فبعث إليه النشاشيبي بخطابٍ قال فيه[1]:

«نقلُ الأديب للنشاشيبي ما هو إلاَّ من ذلك الميراث القديم العظيم، وقد ورث الأستاذ كما ورثتُ، وعرفَ مِن قدر ما ترك الأكرمون الأوّلون مثل الذي عرفت، بل أكثر مما عرفت، وما أنا بالمستأثر بكنوز القوم، وما أنا بالمستبدّ، وما أنا بالوارث الأوحد، وإنَّ هذا المال الموروث كَدَثْر كثير، ولكلٍّ في التدبير والتثمير والإنفاق منه طريقٌ. . . وليست تسميته وَلَدَه ـ وكتاب المرء ولدُه المخلَّد ـ باسم ولدي، (وقد زيدَ الحبيب) إلا تواضعاً، والعلماء الكبار يتواضعون، وعزوهُ الفضلَ إليّ، بإظهاره تلك الطرائف التونسية هو أدبٌ نفسيّ، فمرحباً مرحباً بنقل الحبيب إلى الأديب».

---

(١) مجلة الرسالة، العدد (٢٣٠) سنة ١٩٣٧.

٥ ـ أمالي الأزهر

كان الواعظ الشهير الأستاذ (سيد رجب) مشرفاً على تحرير مجلة (الإيمان) التي سُمِّيت فيما بعد بمجلة (نور الإسلام)، وقد جعل يقدِّم في كلِّ عددٍ طرائفَ ممتازةً، تنحو منحى (الشذرات) و(النقل) مع فارقٍ واضح، هو أنَّ (الشذرات) و(النقل) كليهما لا يتقيَّدان بموضوعٍ واحد في الفصلِ المستقل.

أمّا (أمالي الأزهر) فكان صاحبُها يتقيَّد بموضوعٍ واحد يجمعه من شتَّى المصادر، ويسوقُه مساق الأخبار المطّردة، ولو جُمعت هذه الأمالي في كتابٍ لهدتْ إلى خيرٍ كثير، وقد كانت المجلة محدودة الانتشار، فلم تَذعْ هذه (الأمالي) ذيوعَ (الشذرات) و(النقل)، كما أنَّ الأستاذ (سيد رجب) رحمه الله كان يُبدي علمَه، ويُخفي اسمَه، على عكس من يملؤون الصفحات بما لا يُفيد، ثم يمهرون كلامهم بأضخم الألقاب، وأطول الأسماء! وأما الزبدُ فيذهب جفاء.

٦ ـ حديقة الخطيب

من أعظم روائع المختارات الذهبية ما جمعه الكاتب الكبير الأستاذ (محب الدين الخطيب) في سلسلة (الحديقة)، وقد صدر منها أربعة عشر جزءاً من اللّباب الخالص أدباً وتاريخاً وتوجيهاً وحِكماً بالغةً، وقد قال في الجزء الأول: إنه يقرأ قطعاً جليلةً من شعرٍ متخيَّرٍ، أو نثرٍ مُصطفى، أو حكمةٍ توحي بها حقائق الحياة، فيتمنّى أن تُجمع هذه النوادر في كتبٍ سهلة المأخذ، تكون مسلاةً وموعظةً، وعوناً للنهضة الأدبية في تهذيب النفس، لذلك أخذ يجمع هذه النوادر، لتؤدي رسالتها أدبياً وإسلامياً.

وفي سلسلة أجزاء (الحديقة) مقالاتٌ طويلة، وقصائد رنّانة، حيث لم يكتفِ الخطيبُ بالشذور وحدَها، وقارئ هذه المقالات يجدُ بها لذّة النادرة، ودسامة المقالة، لأنَّ المنحى التوجيهي لدى الخطيب أوحى إليه ألاّ يكتفى بالنجوم دون الشموس.

ومازالت (الحديقة) تصدر قويّة بشذراتها ونوادرها ـ أمداً طويلاً ـ فلاقت

إعجاب القرّاء، وتحدّث الأستاذ محب الدين الخطيب في مقدمة الجزء الثالث عشر من (الحديقة) فقال:

إنّي بما أصدرتُ من أجزاءِ الحديقة حتى اليوم قد أقمْت البرهانَ على خطإِ من يذهبُ إلى أنَّ قراءنَا لا يحفلون بكتب الأدب ما لم تكنْ لسان الهوى، وصنّاجة الهزل، فعَلمَ من لم يعلم أنّ قراء العربيّة أكرمُ نفوساً، وأقومُ أخلاقاً ممّا وصمهم العابثون. فالحمد الله على ذلك.

٧ ـ الذخائر والعبقريات

ومن هذا الوادي ما جمعه الأستاذ الكبير (عبد الرحمن البرقوقي) صاحب مجلّة (البيان) في سلسلة (الذخائر والعبقريات)، ومجلة (البيان) هي التي أنشأتْ جيلَ العقاد والمازني وشكري والسباعي، وصالَ في أرجائها الرافعي صيال الفارس المغوار، وقد نشأتْ في وقتٍ لم يكن فيه للأدب الخالص ظهيرٌ يؤيده، فكابد البرقوقي في سبيل استمرارها عَناءً بَاعَ معه ما وَرِثه من عقار والده على كثرته، لأنّ الأديب الجاد يفلس ويَضيع، أما الذي يستهوي القرّاء بنزوات اللّهو وروايات الجنس، فيشتري الضِّياع ويبني القصور، وشرحُ البرقوقي لديوان المتنبي شاهدٌ بفضلِه، حيثُ جمع فيه خلاصة ما تقدّم من الشروح مع إضافة ما فتح الله عليه به.

أما (الذخائر والعبقريات) فموضع النقد فيها أنّها احتفلتْ بذخائر الأقدمين فقط، ولم تُضف من ثمار المعاصرين ما يمدُّ المجرى العذب في النّهر الصافي الرقراق، وفي الأدب المعاصر كنوزٌ تقف مع كنوز التراث دون أن تتخلّف عنه، ونوادرُ البشري، والبابلي، وحافظ، والمويلحي؛ ليست بأقلَّ من نوادر أبي العيْناء والجاحظ وأبي حيّان، وهذا ما فطن إليه الغزاوي ومحب الدين الخطيب، أما النشاشيبي فقد سار مع البرقوقي في العكوف على آثار السابقين، والفائدة محقّقة، في كلا الاتجاهين دون نزاع.

٨ ـ الأنابيش

ظهرت مجموعة (الأنابيش) في أكثر من عشرة أجزاء، وهي شذراتٌ أدبية مماثلة، جمعها الأستاذ عبد الرحمن الضبع، ولكنه لم يكن القائم على اختيارها، إذ طلب من القرّاء أن يُوافوه بما يعرفون من النوادر، لينشرها بجريدة (المصري) حينئذٍ، ثم يعقّب عليها، فانهال عليه سيلٌ زاخرٌ من محبّي الطرف، وقد يتّفق عشرةٌ من المراسلين على نادرةٍ واحدة، فتُكتب بأسمائهم جميعاً.

وتوالت الرسائل حتى ظهرت الأجزاء المتعاقبة في زمنٍ محدود، ولولا احتجابُ جريدة (المصري) لاتّصل السيل إلى أبعد مجراه، وكان من مراسلي هذه (الأنابيش) نفرٌ من ذوي الأقلام المشتهرة، والصيت المدوّي، مما يؤكد أنَّ حبَّ الطرائف الأدبية متأصّلٌ في كلِّ نفس، وأذكر أنَّ الشاعر الكبير الأستاذ حسن القاياتي أطرفَ (الأنابيش) بهذين البيتين:

تهاني الشعر يا مصرُ　　فعيشي حرَّةً عِيشي
كفى بحَّاثنا مجداً　　سموٌّ في (الأنابيشِ)

٩ ـ عودٌ إلى الغزاوي

لم أحظَ بلقاء الشاعر الكبير أحمد بن إبراهيم الغزاوي إلا مرةً واحدة، حيث عرفتُ مصابه في زوجته الراحلة، فتقدَّمتُ لتعزيته مع صديقٍ من كبار الأدباء في المملكة، وكان الرجلُ متماسكاً، عامر القلب بالإيمان، ولكنه شكا هجوم المحدثين من النقاد على شعره، وقال: إنه يبارك الجيل الجديد من الشعراء، ويتمنى أن يُعيدوا للمملكة عهود السالفين من شعراء الجزيرة الكبار، ولكنَّ احترام الآباء واجب الأبناء.

فقلت له: إنَّ شوقي أكبر شعراء العصر قد تعرَّض لمعاركَ طاحنةٍ من الجيل الخالف، وقد تضايق منها كثيراً، ولكنها لم تَحُلْ دون سبقه الشعري، وإمارته الذائعة، وكذلك الغزّاوي يناقشه أولادُه وأحفاده بما لا يراعون فيه حقوق الأبوّة، وهو أفسحُ صدراً، وأرحب ذراعاً من أن يضيق بكلامٍ متحمّسٍ عجول! . فضحك

الشاعر الكبير، وقال: يكفي أن تذكرَ شوقي، فقد أرحتَني، ثم قرأتُ له مِنْ بعدُ ما اتخذتُ منه مجالاً لمقالٍ نُشر في (المنهل) فأسعدَه كثيراً، وكتب عني في (الشذرات) ما أسعدني أيضاً، رحمه الله وأكرم مثواه.

١٠ ـ الدليل الثابت

وإذا كنتُ في هذه (الشذرات) المستأنفة، سأختار أجود ما أقع عليه، فإني أذكِّر نفسي بقول الشاعر المصري الكبير (إسماعيل صبري) في وصف (مختارات البارودي) وهي أقرب أدباً، وأمتُّ صلةً بما نختاره من (الشذرات):

يا رائدَ الشِّعْرِ لا تَقْرَبْ مَناهِلَهُ ... إلاّ وَرَاءَ دَلِيلٍ صَادِقِ النَّظَرِ
ما كلُّ شيءٍ تراهُ ناضراً زَهَرٌ ... شتّانَ بينَ هَشِيمِ الشِّعْرِ والزَّهَرِ
وإنْ حَفِظْتَ فَلا تَحْفَظْ سِوَىٰ كَلِمٍ ... غُرٌّ جوامِعَ مِثْلَ الآيِ والسُّوَرِ
لا تَأْخُذَنْ بتَلابِيبِ الكَلامِ وكُنْ ... مِنْ أنْ يَرُدَّكَ مَدْحوراً علىٰ حَذَرِ

* * *

عَظَمةٌ وإباء

١١ ـ ترفُّع نبيل

كان الشاعر الكبير (محمود سامي البارودي) يعرف أنه سيتعرَّض للنفي بعدَ انهزام الجيش المصري في موقعة (التل الكبير)، فاستدعَى أحد أصدقائه من أعيان مديرية (الغربيّة)، فأخبرهَ أنَّ في خزائنه أموالاً ذهبيّة كثيرة، وأنه يخشى أن تكون من غنائم الإنكليز، ويريُد أن يحفظها لديه، فإن حُمَّ مصيرُه في منفاه فهي له، وإن رجعَ سالماً فهي مناصفةٌ بينهما.

قال الراوي: ـ وهو الأستاذ (محمود فهمي النقراشي) رئيس وزارة مصر الأسبق ـ وبعد سبعة عشر عاماً عاد البارودي من منفاه، واتّصل بصديقه ليردَّ وديعته، فبالغَ في إنكارها، إذ يعلم أنَّ البارودي عاد مجرَّداً من رئاسته وسطوته.

وعلم الشيخ (محمد عبده) بما كان، فسافر إلى طنطا عاصمة الغربية، وقال للرجل: أنت فوق الثمانين، ولقاء الله قريبٌ، وحرامٌ عليك أن تحرم رجلاً فاضلاً من حقِّه، وهو يعاني مرارة الحرمان بالنسبة لسابق عهده، وما زال به حتى حصل منه على عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية، هي بحساب اليوم فوق المليون.

وجاء الأستاذ الإمام بالمال فرِحاً لصاحبه، ولكنَّ البارودي أبى أن يأخذ عشرة الآلاف! وقال في شمم: يجب أن تُرَدَّ الأموال إلى سارقها اللص ليُكوَى بها في نار جهنم حين يلقى الله! أيعتقد أنه يتفضَّل عليَّ بجزءٍ تافهٍ من مالي فيهدأ ضميره ويستريح؟! لا بدَّ أن أتركه نهباً لعذاب الضمير!!.

هذه نفسٌ عالية حقاً! ولكنَّ خطأَ البارودي لا يرجع إلى ردِّه المال وهو صاحبُه، قدر ما يرجع إلى اعتقاده أنَّ للخائن ضميراً يؤرّقه ويعذّبه! ولو وُجد عنده هذا الضمير ما أنكر الحق وخان الأمانة!!.

١٢ ـ طرفة أخرى

كان (البارودي) أثناء قيامه بأعباء الوزارة ملجأً لذوي الحاجات، فكانوا يكتبون إليه بما يرجون، فيبلغهم ما يريدون، وفي كرَّةٍ له عابرة بفناء قصره، لمح رجلاً يقف على الباب في انكسارٍ ورهبة، فتوجَّه إليه ملاطفاً، فأخبره أنه لا يجد قـوتَ يومه، ولو كان معه أجر القِرطاس والكاتب، لذهب لمن يكتب رجـاءَه للوزير كي يعطف عليه! فسأل عن اسمه وعنوانه، ووعده خيراً، وفي اليوم التالي تغيّر الجو السياسي، وذهب البارودي إلى مقرّ عمله، ليعلم أنَّ الوزارة ستستقيل قريباً، وربما بعد ساعات، فأرسل من يُحضر السائل إلى مقرّ الوزارة على عَجلٍ، فذهبت فرقةٌ من الشرطة لإحضاره، وارتاع الرجل المسكين، حين وجد فريقاً من رجال الأمن، إذ ظنَّ أنه ارتكب عملاً خطيراً، وكان عليهم أن يخبروه بأنه طلبةُ الوزير، ولكنَّهم لم يفعلوا، فلمّا بلغ مقرّ البارودي حنا عليه في رفقٍ، واستدعى رئيس قلم الموظفين بوزارة الحربية، وأمر أن يُعيَّن بوظيفة ساعٍ بأجرٍ شهري قدره خمسة جنيهات، وتسلَّم الرجل عمله فوراً، وتحقَّق ظنّ البارودي، فاستقالت الوزارة بعد ساعات، ورجع البارودي إلى منزله ليقول: الحمد لله، لو جاء هذا السائل المسكين بعد يومٍ واحد، ما استطعتُ أن أصنع له شيئاً!!.

يقول الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف: إنَّ مروءة البارودي ونخوته الواضحتين في شعره، صورةٌ حقيقية من سموّ نفسه، وارتفاع همته، فهو يصدر عـن طبعٍ خُلقي، لا عـن تكلُّفٍ بيـاني، وفي مواقفـه ما يـؤكده قول الدكتـور الصديق.

١٣ ـ بين البارودي وحافظ

ذكر الأستاذ (طاهر الطناحي) في كتابه (حياة مطران) ما فحواه، أنَّ (حافظ إبراهيم) حين رجع من السودان مُحالاً إلى الاستيداع، وقع في أزمةٍ مالية حادة، فاتّجه إلى البارودي، وكان قريبَ العهد بعودته من المنفى فمدحه بقصيدته التي مطلعها:

تعمَّدتَ قتلي في الهوى وتعمَّدا ... فما أَثِمَتْ عَيْني ولا لَحْظُهُ اعْتَدَىٰ
كِلانَا لهُ عُذْرٌ فَعُذْرِي شَبِيْبَتِي ... وعُذْرُكَ أنِّي هِجْتُ سَيْفَاً مُجَرَّدا

وقَدْ قال في هذه القصيدة بيتين لم يُنشرا بالديوان، وهما:

أتيْتُ ولي نَفْسٌ أَطلْتُ جِدالَها ... سَيَقْضي عَلَيْها كَرْبُها اليَوْمَ أو غَدَا
فَإنْ لَمْ تَدَارَكْها بِفَضْلٍ فَقَدْ أَتَتْ ... تُودِّعُ مَوْلاها، وتَسْتَقْبِلُ الرَّدَىٰ

فلما سمع البارودي هذين البيتين بكى بكاءً حاراً، وناشد حافظاً أن يحذفهما من القصيدة، ثم نهض من مكانه، وعاد وبيده ظرفٌ به أربعون جنيهاً، هي قيمة ما كان مقرَّراً للبارودي وقتئذٍ من المعاش، ثم قال لحافظ: إنني أبكي لأني عشتُ إلى زمنٍ يُقدِّم فيه مثلي إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل، وقد أجاب حافظ رجاء البارودي، فحذف البيتين حين نشر القصيدة للمرة الأولى.

١٤ ـ مطارحة شعرية

كان الأمير (شكيب أرسلان) في باكورة شبابه، يكتب مقالاتٍ أدبية في (الأهرام)، ويستشهد فيها ببعض شعر البارودي وهو منفيٌّ في (سرنديب)، فتأثَّر البارودي باهتمام الأمير الشاب به، على حين أغفله بنو قومه من المصريين، وكتب إليه هذين البيتين:

أَشَدْتَ بِشِعري بَادِئاً وَمُعقِّباً ... وأَمْسَكْتُ لَمْ أَهْمِسْ وَلَمْ أَتَقَدَّمِ
وما ذاك ضِنّاً بالوِدَادِ علىٰ امْرِىءٍ ... حَبَاني بِهِ، لكِنْ تَهَيبتَ مَقْدَمي

فتأثر شكيب تأثراً مماثلاً، وردَّ على البارودي بقصيدةٍ قال فيها:

أيعجبُ مِنْ تَنْويْهِ مِثْلِي بِمِثْلِه ... لَعَمْرُ الذي قَدْ شَقَّ في شِعْرِه فَمِي
لَقَدْ طَالَما حَدَّثتُ نَفْسِي وعَاقَني ... تَرَدُّدها ما بينَ أَقْدِمْ وأَحْجِمِ
لألفيتُ عِنْدي دَوْسَ مُشْتَجَرِ القَنَا ... وخَوضِيَ في حوضٍ من الدمِ مُفعمِ
أقلُّ لقلْبي في المواقِفِ هَيْبَةً ... وأهْوَنُ مِنْ ذَاكَ الجَنابِ المعظَّمِ

واتّصلت المراسلات الشعرية بين الشاعر الكبير، والشاعر الناشئ زمناً، وكان البارودي وهو في مرض الشيخوخة لا يضنُّ على شاعرٍ تقدَّم إليه بالتشجيع، فنظم مقطوعاتٍ شعرية في تشجيع حافظ إبراهيم، وعبد المحسن الكاظمي، ومصطفى صادق الرافعي، إذْ رأى من حقِّ المروءة لديه أنْ يأخذَ بناصر مَن يسمو إلى الصيت الأدبي عن طريق الشعر، فهل يفعل كبار الأدباء اليوم هذا مع النابتة من المتأدبين؟!.

١٥ ـ من بدائع خليل مطران

يقول شاعر الأقطار العربية (خليل مطران) عن (البارودي): أدركتُه وقد عاد من منفاه، فدخلت عليه وهو في صدر مجلسه، فحيّاني بذلك اللطف الذي كان لا يُفارقه الوقار، ولا تثبتُ معه الكلفة، ثم صار لي معه بعد ذلك ودٌّ وعهد، واتفق أنْ جئتُه ذات يومٍ وما بيننا ثالث، فتطارحنا الشعر، وتباحثنا فيه، ثم اقترحتُ عليه بيتين يرتجلهما، فاستوى يفكِّر، استوى ساكناً ساجياً، مسنداً ظهره إلى الحائط، وفكَّر غيرَ منقبض المُحَيَّا، ولا معنتَ الملامح، متهللةً سماحةُ وجهه اللامع بأنوار الزوال، بين بُلَجِ لحيته المستديرة، وقُتَمِ الناظرتيْن السوداويْن!

مرَّت بي وبه دقيقةٌ، وهو متمكِّنٌ في مجلسه، وأنا مسترسلٌ في خاطرٍ أخطرَتْه في قلبي رؤية الرجل على هذه الحال، فخيِّل إليَّ أني لدى تمثالٍ من تلك التماثيل التي أقامها صنَّاع اليونان لبعض المتقدمين من حكمائهم، وتبدَّلتْ في ذهني الناظرتان السوداوان بالظِّلَّيْن اللذين يحيطان بالعيون المطبقة في تلك التماثيل.

وبينما أنا مستغرقُ الحواس بتلك الذكرى، إذ تحرَّك الرجل تحرُّكَ من يعالج معنًى مستعصياً، فتنبَّه تنبُّه دهشةٍ، كأني بالتمثال وقد تحرَّك!.

وفي تلك الوهلة تذكَّرتُ لأولّ مرةٍ، أنَّ البارودي، وذلك رسمه، وتلك بشرته البيضاء، ليس بعربيّ النبعة، وقضيتُ عجباً لآية البيان التي تلتقي عندها فُروق الأصول والفروع والمكان والزمان.

١٦ ـ عبده الحمولي

يقول (أحمد شوقي) في رثاء المطرب الأشهر (عبده الحمولي):

يحبسُ اللحنَ عن غنيٍّ مُدِلّ ... ويُذيقُ الفقيرَ من مختارهْ
يا مُغيثاً بصوتِه في الرزايا ... ومُعيناً بمالِه في المكارهْ
ومُحِلّ الفقيرِ بينَ ذويْهِ ... ومعزَّ اليتيمِ بين صغارِهْ

والبيت الأول له شواهد كثيرة من مواقف (الحمولي) ومنها أنه كان ذات يوم بمدينة الإسكندرية، حيث يحلو له أن يتجوّل في الأحياء الشعبية وحيداً.

فمرَّ بزقاقٍ صغير، ليجد امرأتين تتنازعان، لأنَّ إحداهما قد آذت الأخرى برشِّ الماء في الزقاق، إذ اعتزمتْ أن تُقيم حفلاً متواضعاً لزفاف ابنها في الغد، فهي تسكِّن التراب بالماء لتمهيد الأرض، ولكنَّ الأخرى لم يُرضِها أن تهتمَّ جارتها بابنها هذا الاهتمام، فقالتْ لها: حفلةْ إيه ياشيخة! يَعْني (عبده الحمولي) جايْ عندك!! فردّت الجارة: ما يبْعدْش على الله! هوّ كريم!!

وسمعَ (الحمولي) هذا الحوار، فتقدّم إلى المرأة، ودفَع لها ثلاثين جنيهاً ذهبياً، وقال لها: أقيمِي السرادق في الشارع العام بهذه النقود وسيحضُر (عبده الحمولي) بنفسه لأنّه صديقي!.

وجُنَّت المرأة ولم تصدِّق ولكنَّ زوجَها قال لها: الرجل دفع ثلاثين جنيهاً ذهبياً، لازم واثق من صاحبه، وقام على الفور ونصب السرادق.

أما (عبده الحمولي) فقد اجتمع بأصدقائه في الإسكندرية، وأعلمهم أنه سيغني في مساء الغدِ (بباب سدرة) في الإسكندرية، وعلم الناس هذا النبأ السعيد، فذهبَ الجمهور المحتشد إلى المكان المحددّ، وازدحم الناس في الطرق المجاورة حين امتلأ السرادقُ بالخاصة والعامة، وشهدت الإسكندرية ليلةً من أجمل لياليها، ولما انتهى الحفل نادى الحمولي السيدة الوالدة، وقال لها: مبروك على العريس يا ستي!!.

١٧ ـ طرفة أخرى

أقام وجيهٌ كبيرٌ من وزراء العهد الماضي حفلةً لزفاف ابنه، ودعا (عبده الحمولي) لإحيائها، فجاء مع صديقه الصحفي (سليم سركيس) ولكنّ رجلاً كبيراً من زملاء الوزير تضايق لوجود سركيس، لأنه كتب مقالاً ينقده في جريدته، فطالبَ بإخراجه من السّرادق فوراً، ونظر (الحموليّ) فوجدَ صاحب الحفلة يُشير على (سليم سركيس) بالخروج، فرمى الأجر الذي أخذه من الداعي وقدرُه ألف جنيه ذهباً، وصاح: سأخرج معه، فهاج الجمهور.

وأحسَّ الداعي بأنّ ذلك فألٌ غير سعيدٍ، فقال للحمولي: سيبقى سركيس ولن يخرج، فصاح الحمولي: لن أغنّي حتى يخرج صاحبك الذي أهان صاحبي!!

وتمسّكَ الحمولي بموقفه، ورأى الداعي أن يستأذن صاحبَه ليخرج مرغماً، فانسحبَ في خجلٍ شديدٍ.

١٨ ـ من بدائع عبد العزيز البشري

تحدث الأديب الكبير (عبد العزيز البشري) عن (عبده الحمولي) فقال بعد أن أبدعَ في وصف مقدرته الغنائية: «لستُ بمستطيع أن أصفَ كيف صَدحَ الحمولي بالمقطع الأخير، لأنّي لا أدري، ولكني أستطيع أن أقولَ: إنّ طائفاً عنيفاً جداً من الكهرباء، سرى في الحشد المجتمع، فلم يسلمْ منه أحد، جمد الناس جميعاً، وتعلقتْ أنفاسُهم، وشَلّ كلُّ مناطٍ للحركة فيهم، فما تحسُّ فيهم إلا أبصاراً شاخصة، وأفواهاً مفغورة، لو اطلعتَ عليهم لخلتك في متحفٍ يجمع دُمًى منحوتةً لا أناساً يترقرق فيهم ماء الحياة، حتى القائمون بالخدمة قد مسّهم هذا الطائف، فجمدوا وثبتوا.. وقد ظلّتْ هذه الحال زُهاءَ عشرين ثانية.. وينفجر البركان الأعظم يتطاير عنه الحمم، ويموج الناس بعضُهم في بعض، ولا تسلْ كيف قُدّتْ الحناجر من الشهيق، ولا كيف بريت الأكفّ من التصفيق.

١٩ ـ من الشعر البديع

يقول محمود سامي البارودي:

قالتْ وقد سمعتْ شعري فأعجبَها ... إنـي أخـافُ علـى هـذا الغـلامِ أبـي
أراهُ يهتـفُ بـاسمـي غيـرَ مكتـرثٍ ... ولـو كَنَى لم يَـدَعْ للظنِّ مـن سـببِ
فكيـفَ أصنـعُ إنْ ذاعـتْ مقـالتُـهُ ... ما بين قومي وهم من سادةِ العربِ
تنـازعتْهـا فتـاةٌ مِـن صـواحبهـا ... قـولاً، يـؤلِّـفُ بيـن المـاءِ واللهـبِ
قالتْ: دعيهِ يصوغُ القولَ في جُمَلٍ ... من الهوى، فهي آياتٌ من الأدبِ
ومـا عليـكِ وفـي الأسمـاءِ مشتـرَكٌ ... إنْ قال في الشِّعرِ يا ليلى، ولم يَعِبِ
وحسبُـهُ منـكِ داءً لـو تضمَّنَـهُ ... قلبُ الحمامةِ ما غنَّتْ على عَذَبِ
فاستأنستْ، ثم قالتْ وهي باسمةٌ ... إنْ كان ما قُلتِ حقّاً، فهو في تَعَبِ
يـا حُسنَـهُ من حديـثٍ شـفَّ بـاطنُـهُ ... عـن رِقَّـةِ ألبستْنـي خلعـةَ الطـرَبِ

* * *

بين الشرق والغرب

٢٠ ـ العلاج النفسي ـ شرقاً

كان أبو منصور البلخي أشهر أطباء عصره، وكان من دَيْدَنِه أن يكون صديقاً للمريض، يجالسُه، ويكثر الحديثَ معه في المرض وغير المرض، قبل أن يبدأ العلاج الجسمي، إذ يرى في الحديث المتّصل أسباباً تمهِّد لمعرفة حالة المريض، ولعلَّها تكشف عن بواعث العلّة، فتصبح طريقاً للشفاء.

وقد مرض أحد وزراء خوارزم بالوهم، إذ تحرَّكت عليه أمعاؤه ذات يوم، وشعر ببعض الألم الموجع، فاعتقد أنَّ ثعباناً بداخل جسمه، وهو الذي يبعثُ على التحرك فالألم، وهو اعتقادٌ ساذَجٌ غافلٌ، لأنّ الثّعبان لا يعيش بداخل الجسم، إنما تعيش الديدان، وليست بذات خطرٍ كبير، ولكنَّ الوهمَ قد كبُر في ذهنه، وسبَّب لهُ مضاعفاتٍ كثيرة من الألم النفسي المر، وجعَل يُفضي للأطباء بما يحسُّ، ناشداً الحلّ، فكانوا يضحكون في نفوسهم مِنْ تخيُّل ثعبانٍ يعيش داخل الجسم، ثم يقولون للمريض: اطردْ هذا الوهمَ من نفسِك، فلا يزيدونَه إلاّ هياجاً وغضباً، ويرسِل في إحضار أطباء آخرين.

وجاءت نوبةُ أبي منصور البلخي، وقد عرف مأساة الوزير، قبل أن يتّصل به، فدخل إليه، وكأنه خالي الذهن من حديث وهمِه، وجعل يفحصُه في جدٍّ ملزم، ثم صاح صيحةَ المبهور، ما هذا؟ عجيبٌ! عجيبٌ! إنك يا سيدي تحمل ثعبانـاً في بطنك، ولا بدَّ من العمل على خروجه، فانطلق المريض يُثني على الطبيب، ويمدح تشخيصَه، ويقول: هذا ما أحسُّ به تماماً فما العمل؟.

قال أبو منصور البلخي: لا تأكل الليلة شيئاً، وسأحضر في الصباح بعض المسهّلات، لتشربها ويداخلها مايقتل الثعبان، فيخرج لفوره، ثم خرج ليبحث

عن ثعبانٍ صغير في الجبل، حتى عثر عليه وقتلَه، وحمله في جيبه، وحين حان الموعد، أعدَّ الدواء المقترَح، فتناوله المريض، ثم هيَّأ له إناءً للاستراحة، وضع به الثعبان في جانبٍ غير منظور، وفعل المسهّل فعلَه، فنهض المريض ليتبرَّز في الإناء، وسرعان ما فحص الطبيب ما رأى، وصاح: الحمد لله، قُتل الثعبان قُتل الثعبان! وهاهو ذا! فائتلق وجه الوزير بالبشْر، وأخذ يعانق أبا منصور، ويقبِّله قائلاً: الآن قد برئتُ وشفيت!.

يقول من يحكون هذه القصة: لم يكن الثعبان جاثماً في بطن الوزير، ولكنّه كان كامناً في عقله، ولن يطردَه غير احتيال طبيبٍ ماهر يعتمد على العلاج النفسي كأبي منصور.

٢١ ـ العلاج النفسي ـ غرباً

نشرتْ بعض الصحف الأمريكية أنّ الطبيب الشهير الدكتور (بروس بورتر)، دخلَ يوماً غرفةَ إحدى مريضاته، فوجدها تقرأ في إحدى الصحف يومياتٍ يكتبها مريضٌ أديب، أصيب بمرضٍ مماثل لمرضها فيصف تطورات هذا المرضَ، ويشرحُ آلامه ومتاعبه، فأسرع الدكتور بروس إلى إدارة الصحيفة طالباً أن يقوم هو بإتمام هذه المذكّرات باعتباره طبيباً، فهو أصدقُ نظراً من المريض، على أن يأخذَ الكاتبُ أجرهَ من الصحيفة كالمعتاد تعويضاً له، وبدأ الطبيبُ يكتبُ هذه المذكرات، ويشرحُ المرض مبيّناً عدم خطورته، وأنه سهلُ العلاج، ومازال يكتبُ على مدى شهرٍ، حتى ذكر في آخر حديثه أنّ المريض قد شُفي تماماً، واسترجعَ صحته كأيام الشباب.

وكان الطبيبُ إبّان انهماكه في كتابة هذه المذكرات، يُلاحِظُ التطـوّرات النفسية والصحية معاً، التي تطرأ على مَريضته، فأدرك أنها بدأتْ تتحسن شيئاً فشيئاً، تبعاً لما يبدو في المذكرات من تفاؤل، حتى إذا انتهتْ، كانت المريضة تأخذُ طريقها للشفاء.

وتذكر الصّحيفة الأمريكية، أنّ الدكتور (بروس) قدَّم تقريراً وافياً بهذه

التجربة إلى معهد الأبحاث الطّبية، شرحَ فيه العلاقة بينَ المذكرات، ونفسية المريضة، ورصد ما كان يطرأ من التحسن الملموس في صحتها، عقب كلّ مذكرةٍ تُوحي بالتفاؤل، وانتهى إلى توضيح الأثر النفسي، وأهميته في إتمام الشفاء.

٢٢ ـ المتردّد ـ شرقاً

ذكر الأستاذ أحمد حسن الزيات محاورةً بين رجلٍ متردّدٍ وبين زوجته كانت هكذا:

قال الزوج المتردّد وهو يهمّ بالخروج إلى عمله: يازينب! أتُشيرينَ عليَّ أن آخذَ المظلّة معي احتمالاً لسُقوط المطر اليوم؟.

زينب: افعلْ ماتشاء، فأمرُك بيدك.

الزوج: أتظنّين أنّ السماء ستمطر اليوم؟.

زينب: لا أدري، فقد تمُطر، وقد لا تمطر.

الزوج: سأخذها للاحتياط، فهل ترينَ ذلك؟.

زينب: قلتُ لك أمرُك بيدك، فافعل ماتشاء.

الزوج: ولكنّني سأتضايق كثيراً، إذا لم تُمطر السماء، وتصبح المظلّة عبئاً عليَّ!.

زينب: دعْها إذن ولا تأخذها.

الزوج: ولكنّ المطر إذا نزل بلّل طربوشي، وغسل حُلتي!.

زينب: خذْها إذن!

الزوج(حائراً): ما هذه الحماقة، ليسَ للبشير إلا رأيٌ واحد، وأنت مرّةً تقولين خذها، ومرّةً أخرى تقولين: لا تأخذْها، إني أرجّح أن آخذها.

زينب: حُلّت المشكلة، فهيّا!.

الزوج: ولكنّ الهواء دافىء، والسماءُ مشرقة، وأخشَى إنْ دام الجوّ كذلك، أنْ أذهل عنها فأفقدها، سأتركها ولن آخذها.

ثم سار يريدُ الخروجَ، فلمحها معلقةً على المشجب، فأخذها دون تفكير، وهبط السلم متباطئاً متردّداً، حتى بلغ البوابَ، فدفعها إليه، وقال له: اصعدْ بها للمنزل.

أما الزوجة، فتوقَّعتْ أن يعود، ليسألَ ثانيةً عن الجو، وهل يُنبئ بما يسبب المطر، فيحمل المظلة من جديد!.

٢٣ ـ المتردِّد ـ غرباً

يروي الكاتب الفرنسي (أرنست ليجو فيه) هذه الحادثة:

تلقَّى أحد المتردِّدين رسالةً من صديقيْن عزيزيْن يدعوانه إلى رحلةٍ معهما خارج الوطن للتنزّه والاستطلاع، وقد طلبا الردَّ السريع الحاسم، فوقف الرجل حائراً لا يدري أيرفض أم يقبل؟.

وحان موعد الردّ، فأخذ القلم ليكتب رسالته، ولكنه عجز عن تحديد موقفه، وأخذ يتساءل مرةً: كيف أمتنع عن رحلةٍ جميلة إلى بلادٍ جميلة مع صديقين عزيزين؟.

ثم يتساءل مرةً أخرى، أليس بالرحلة متاعب جسيمة وقد تُسبِّب أضراراً غير متوقَّعة؟ ولماذا يترك زوجته وأولاده مدًى قد يطول؛ وقد اضطرُّ إلى المبيت ليلةً في القطار دون مضطجعٍ مريح، أو أركبُ السفينة فأتعرَّض لدوار البحر، وبعد هذا التساؤل الأخير، كتب الخطاب معتذراً، وسلّمه للخادم كي ينطلق به إلى مكتب البريد.

وما كاد الخادم يسير بضع خطواتٍ، حتى تغيَّر موقف المتردِّد، فقال في نفسه: لقد تعجَّلتُ الرفض، إنني سأرى أماكن جديدةً، وسأُسعدُ باستطلاع المجهول، وسأنسى مرهِقات العمل اليومي الراتب، كيف أرفض هذه الفرصة

السانحة؟ ثم انطلق إلى مكتب البريد، ليأخذَ الرسالة من الخادم، وركب السيارة ليسبقه إلى هناك، وقد كان الخادم قد اتّخذ السيارة أيضاً فسبقه، وأدّى واجبه، فوقع المتردِّد في حيرةٍ، وشعر كأنه فقد كنزاً ثميناً، وجعل يفكِّر فيما نزل به من خسارة، فرأى أن يكتبَ تلغرافاً سريعاً بالموافقة وسيصل التلغراف قبل الرسالة، فيمحو أثرها، واستراح إلى هذا الخاطر، وكتب التلغراف وعاد إلى المنزل.

ثم طرأ عليه ما عكسَ الأمرَ في عينه، فجعل يتساءل، أليست الرحلة ذات نفقاتٍ ومتطلبات قد أكون في حاجةٍ إلى ثمنها اليوم أو الغد؟ لماذا أعجِّل [illegible] التلغراف هكذا؟ أما كان الأولى أن تصل رسالةُ البريد بالرفض، وتغلغل هذا الرفض في نفسه، فظلَّ حائراً، لا يستقرّ على حال، ثم رأى نفسَه يرتدي ملابسه، ليصل إلى مكتب التلغراف، فيكتب برقيةً جديدة تعلن الاعتذار، وتؤكد أنَّ رسالة البريد هي صاحبة الرأي النهائي! ولكنْ هل استراح بعد هذا؟ يقول الأديب الفرنسي (أرنست ليجو فيه): إنَّ المتردِّدَ لا يستريح!.

٢٤ ـ الحُمق ـ شرقاً

جاء في كتاب (المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرَف) للإبشيهي ما يلي:

تصاحبَ أحمقان في طريق، فقال أحدهما للآخر، تعالَ نتمنَّ على الله، فعسى أن يُحقِّق لنا ما نتمنَّاه، وبذلك نقطع الطريق في الحديث فلا نسأم، فقال أحدهما: إني أتمنّى أن يرزقني الله قطائعَ غنمٍ أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها، فردَّ صاحبُه يقول: وأنا أتمنى على الله أن أمْلكَ قطيعاً من الذئاب أرسلها على غنمك، حتى لا تتركَ منها شيئاً، فقال له: ما هذا الذي تقول؟ أوَ هذا حقُّ الصحبة وحرمة العشيرة، وتصايحا يتسابّان، ويلعن أحدهما الآخر.

واشتدّت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا على أن يحكم بينهما أوّل من يريانه من الناس، فطلع عليهما شيخٌ يركب حماراً، عليه زِقّان من عسل، فحدّثاه بحديثهما، فأنزل الزِّقّيْن، وهما مليئان، وفتحهما حتى سال العسل منهما على الأرض، ثم قال: أسالَ اللهُ دمي على الغبراء كما سال هذا العسل من الإناء إن لم تكونا أحمقين!! قال الراوي: فكان أحمقَ الثلاثة.

٢٥ ـ الحمق ـ غرباً

ولهذه الطرفة نظيرٌ في الأدب الإنكليزي إذ جاءت في كتاب (خمسون قصة مشهورة) هذه الطرفة المتعلقة بأهل (غوتام) وهي قريةٌ تُشتهر بالحمق، وتدور حولها النوادر المستطرفة، ومنها هذه النادرة:

تلاقى غوتاميّان على جسرٍ فوق نهر، فسأل أحدهما الآخر، أين تذهبُ؟ فأجابه: إني سأذهب لأشتري غنماً، فقال له:

ومن أين ترجع بغنمك بعد أن تشتريه؟ فقال: أرجع من هنا.

فنظر إليه رفيقه متعجِّباً وهو يقول: وكيف تعبر بغنمك هذا النهر، وهو مليئ بالماء؟.

قال صاحبه: أمشي على الجسر كما أفعل الآن.

فحدَّق الآخر في وجهه منفعلاً وصاح: كنت أقدِّر ذلك، ولهذا سألتُك، ولكني لن أسمح لك أن تعبر بغنمك الجسر، فهو لي وأنا صاحبه!.

فغضب السامع، وصاح: سأعبر النهر سائراً على الجسر، رغم أنفك.

فتعجَّل صاحبه يردّ: رغم أنفي، والله لو فعلتَ، وعبرتَ بغنمك لأدخلتُ إصبعي في عينيك، وضغطتُ بكفّي على رقبتك فأخنقُك لساعتك!.

ومرَّ بهما ـ وهما يتنازعان ـ رجلٌ مقبلٌ من طاحونةٍ قريبة، ومعه دابةٌ تحمل كيساً من الدقيق فقال: ما شأنكما؟ ولماذا تتخاصمان؟، فقالا: أنتَ الحكمُ بيننا، وعليك أن تصدر حكمك، ونحن مطيعان! ثم رويا سبب النزاع.

فنزل الغوتامي الثالث من فوق دابته، وطلب منهما أن يُعيناه على إنزال كيس الدقيق من فوق الدابة، حيث صار قريباً من حافة النهر، ثم فتح الخيط، وجعل يرمي بالدقيق إلى الماء حتى فرغ الكيس، ثم نظر إليهما قائلاً:

هل فرغ الكيس مما يحمل؟ فقالا: نعم، فصاح: وهكذا أنتما، فليس في رأسيكما دماغ! أنتما فارغان مثل هذا الكيس!.

٢٦ ـ بيت أبي العلاء

هــذي طبــاعُ النــاسِ معــروضــة فــوافقــوا العــالــمَ أو فــارقــوا

٢٧ ـ ملق كاذب

قرأتُ للأستاذ محمد محمد المدني رحمه الله ما يلي:

أعلنت الصحف ذات يوم أنَّ فلاناً سيتحدث ساعة كذا من المساء حديثاً علمياً، وفلانٌ هذا رئيسٌ مرجوٌّ مرهوب، يمتدّ سلطانه إلى الأقاليم، فحدثني صديقٌ لي أنَّ كثيراً من هؤلاء المرؤوسين، قد فرغوا لهذا الحديث، واحتشدوا حول المذياع، منهم من ينشد العلم، ومنهم من ينشد الملَق، وأزف الموعد وأرهفت الأسماع، ولكنَّ المذيع فاجأ الحاضرين بقوله: أيها السادة: لم يتمكّن الأستاذ الكبير (فلان) من الحضور، فنعتذر عن تأجيل الحديث.

وزرتُ الرئيس بعد يومين في مكتبه، وكنت أعرفُ سرّ تأخُّره عن إذاعة حديثه، فما راعني إلا كتابٌ يلقيه إليَّ، ويطلب مني أن أقرأه، فإذا هو من شخصين مرؤوسَين له في بلدٍ قريبٍ من القاهرة وإذا هما يقولان فيه: لقد أجدتَ في حديثك إجادةً ما نحسبُ أحداً وُفِّق إلى مثلها، وقد كنا نستمع إليك في جمعٍ من أصحابنا، مزهوَّين بك، والقوم من حولنا في نشوةٍ، فلما انتهى حديثك لم يبقَ أحدٌ إلا حيّاك ودعا لك، وأخذوا يثنون عليك!.

قلت: وقد أخذتْني الدهشة: أيَّ حديثٍ يريدان؟ قال: هذان شخصان ملِقان، تعـوَّدا أن يَلقياني في كلِّ مناسبةٍ بمثل ما ترى، وقد حسبا أني ألقيتُ الحديث في المذياع، فكتبا هذا الزور دون سماع.

٢٨ ـ موقف مماثل

قـال صاحبي: أصدرتُ كتابـاً تحت عنـوان (السيرة النبويّـة عند الروّاد المعاصرين) أدرتُ فيه الحديث على ما كتبـه رواد الأدب المعاصر حـول سيرة

رسول الله ﷺ، فتعرَّضتُ لكتب محمد فريد وجدي، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، وعباس محمود العقاد، وتوفيق الحكيم، ومحمد أحمد جاد المولى بإفاضةٍ وتحليل، بحيث أوضحتُ خطةَ كلِّ كاتبٍ ومنحاه، وحين ظهر الكتاب، كتب الطابعُ على الغلاف كلمة (السيرة النبوية) بخطٍّ كبير ملأ الواجهة المقروءة، وكتب تحتها بخطٍّ وسط، (عند الرواد المعاصرين) وذاع الكتاب مع باعة الصحف، واتّفق أن قابلتُ أحدَ الأصدقاء، فرأيتُ على وجهه كلاماً يهمّ به، فقلت له: ما لديك؟.

فقال: أنا صريحٌ، ولا أحبّ أن أجاملك، قلتُ: الصراحةٌ في الحق واجبةٌ، والسكوت عنها جريمة.

قال: لقد قرأتُ كتابك (السيرة النبوية) مِنْ أوّله إلى آخره واستغرق مني ليْلتيْن متواليتيْن، ولكني أسفتُ لأنك تحدثتَ عن سيرة رسول الله ﷺ مولداً، وبعثة، ودعوةً، وهجرةً، وغزواتٍ، حتى انتهيت إلى خاتمة أمره، والحديثُ عن رسول الله ﷺ وحياته الشريفة مكرَّرٌ مُعاد، فعندنا عشراتُ الكتّاب، بل مئاتُهم في الحديث والقديم كتبُوا عن رسالة محمد ﷺ وحياته، وأنتَ بعد هؤلاء لم تُضِفْ شيئاً! عليك يا أخي بالجديد!.

قلت متعجباً: هل قرأتَ الكتاب يا سيدي؟.

قال: نعمْ سهرتُ عليه في ليلتيْن متوالتيْن، فما وجدتُ جديداً، يُقال: إنّها السيرة، والسيرةُ معروفةٌ مشتهرة.

قلت: أنتَ ياسيدي لم تقرأ عنوان الكتاب صحيحاً، لقد قرأتَ نصفَه البارز الجهر وتركتَ النّصف الأخر، إنَّ الكتاب يسمّى (السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين)، وما هو بحديثٍ مباشر عن السيرة الكريمة، وحبّذا أن يكون، ولكنّه حديثٌ عن كتَّاب السيرة المعاصرين كهيكل، وطه، والعقاد، ووجدي، والحكيم، وقد بسطتُ الحديث العلمي عن صنيع هؤلاء، كما أراه مؤيَّداً بالدليل! فكيف قضيتَ ليلتين في قراءة الكتاب!.

ابتسم صاحبي على مضض، وقال: هذه أول مرة أتعجَّل فيها! لقد قرأتُ العنوان البارز، فقلت: إنَّ المؤلف لن يقولَ شيئاً جديداً!!.

قلت: وأين الليلتان الطويلتان؟.

قال: لا تدقِّق!!.

٢٩ ـ براعة حفني ناصف

كتابُ (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) هو أولُّ كتابٍ ألَّفه المؤرخ الكبير الأستاذ محمد الخضري رحمه الله، وقد جاء سرداً مباشراً لحياة الرسول ﷺ تقريباً لأذهان العامة من القرّاء، وقد قرأه صديقه وزميله الشاعر الأديب حفني ناصف، فلاحظَ أنَّ الفصل الأخير مأخوذٌ من كتاب (الشفاء) للقاضي عياض، دون أدنى إشارةٍ إليه في الطبعة الأولى، فكتب في صحيفةٍ يومية يقول ما موجزه:

نعلم أنَّ (اللوح المحفوظ) في الملأ الأعلى، يضمّ ما يفعل الناس وما يقولون، ومن محتوياته كلُّ ما كتبه وسيكتبه المؤلفون من لدن آدم حتى يقوم الناس لرب العالمين، كما نعلم أنَّ القاضي عياض مؤلف كتاب (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى) كان من كبار الأولياء المقرَّبين، وبفضل هذه الولاية اطَّلع على (اللوح المحفوظ) فقرأ كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) للشيخ الجليل محمد الخضري، وأعجب به إعجاباً شديداً، حتى حفظ الفصل الأخير، وكتبه برمَّته في كتاب (الشفاء) نقلاً عن الشيخ الخضري، وقِصار النظر من النقاد سيتوهَّمون أنَّ الشيخ الخضري قد نقل الفصل الأخير من كتاب (الشفاء)، لأنه قد تأخَّر عنه عدة قرون! هؤلاء هم قصار النظر، أما الأئمة العارفون فيفهمون أنَّ الشيخ الخضري منزَّهٌ عن السطو، بل عن الاقتباس، كما يعلمون أنَّ القاضي عياض هو الذي نقل وأخذ، فليفهم هذا خصوم الشيخ قبل أن ينتقدوه!.

وكانت دعابةً فكهة، دام التعليق عليها في الصحف وقتاً طويلاً.

٣٠ - السرقات الأدبية قديماً

كانت طريقة التأليف عند الأكثر من القدامى تعتمد على النقل دون عزوٍ، لذلك نجد تشابهاً كبيراً في المؤلَّفات، حيث ينقل اللاحق عن السابق، وكأنَّهما أخذا من مصدرٍ واحد.

وقد كتب السخاوي مؤلف (الضوء اللامع) ناقلاً عن شيخه ابن حجر تحت عنوان (فصلٌ فيمنْ أخذ تصنيف غيره فادّعاه لنفسه، ونقَّص منه قليلاً أو زاد، ولكنَّ أكثره مذكورٌ بلفظ الأصل).

قال ابن حجر: (كتابُ البحر) للروْياني أخذه من (الحاوي) للماوردي، و(كتاب الأحكام السلطانية) لأبي يعلى أخذه من كتاب الماوردي، وكتاب (الكلام على تراجم البخاري) للبدر ابن جماعة أخذه من تراجم البخاري لابن المنير باختصار، و(كتاب علوم الحديث) لابن أبي الدم أخذه عن علوم الحديث لابن الصلاح بحروفه وزاد فيه كثيراً، و(كتاب محاسن الإصلاح، وتضمين كتاب ابن الصلاح) لشيخنا البلقيني مأخوذٌ من ابن الصلاح، وكلُّ ما زاد عليه مأخوذٌ من (إصلاح ابن الصلاح) لمغلطاي، و(كتاب شرح البخاري) لابن الملقن جمع النصف الأول من عدة شروح، وأما النصف الثاني فلمْ يتجاوز فيه النقلَ من شرحَيْ ابن بطّال وابن التّين.

قال السخاوي: وقرأتُ بخطّه - خط العلاَّمة ابن حجر - أنَّ طبقات الشافعية لابن الملقن جمع فيها بين الأسنوي والتاج السبكي، ولم يزدْ إلا ترجمةً واحدة، و(كتاب الإصابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) للزركشي من كتابٍ لأبي منصور البغدادي، وللزركشي بعضُ الزيادات، و(كتاب شرح العُمدة) للبرماوي مشى فيه المؤلف على شرح ابن الملقن من أوَّله إلى آخره.

هـذا بعضُ ما كتب السخاوي ناقلاً عن شيخه العلامة ابن حجر، وإذن فالداءُ قديم.

٣١ ـ مكيدة وإيقاع

لا يسلَمُ قائلُ الحقِّ من أنيابٍ تعضُّه، وتبلغ به أقصى الجراح، بل تتـركه صارخاً يتأوَّه حتى يبلغَ به الأمر أن يندمَ على كلمة الحق، ويتمنَّى لو سكت!.

كان الفقيد العزيز الأستاذ (نقولا يوسف) من كبار المؤلفين بحثاً وإبداعاً، وله خُلقٌ نبيل يعصمه من الباطل، كما يدفعه ـ مع دبلوماسيَّته ـ إلى الجهر بالحق ولو كان مرّاً.

أُقيمتْ مسابقةٌ أدبية في القصة القصيرة بالإسكندرية، وتقدَّم إليها نفرٌ من شباب الأدباء، واختير الأستاذ نقولا للحكم على الإنتاج الأدبي مع نفرٍ من أدباء الثغـر، فقرؤوا القصص جميعها، واختـاروا ثلاث قصصٍ، لثلاث جوائز بعد فحصٍ دقيق.

وقد فزع الأستاذ نقولا حين وجد أحد أعضاء لجنة التحكيم ينشر قصصاً بتوقيعه، هي في مضمونها واتجاهها منهوبةٌ من القصص التي قُرئت، ولم تحظَ بالجوائز المرصودة، وظنَّ الأمرَ سينتهي عند قصةٍ أو اثنتين، ولكنه وجد النشر المنهوب يستمرّ، ولم تطاوعه نفسه أن يسكت، كما لم يجدْ من اللياقة الأخويَّة أن يعلنَ سرقة زميله، فذهب إلى زيارته في منزله، وأجرى الحديثَ في شؤونٍ شتّى، حتى انتهى إلى مقصده، فقال لزميله في رفق: إنه تأثَّر لا شعورياً بقراءة النتاج القصصي الذي كان عضواً في لجنة تحكيمه!.

فهاج الزميل وأنكر، فقال الأستاذ نقولا: أنا أقول: لا شعورياً بمعنى أنَّ المعاني قد اختزنتْ في نفسك دون أن تتعمَّد، فأنت تجهل عن يقينٍ أنك متأثِّرٌ بما قرأتَ، فهاج الرجل أكثر من هياجه الأول، وصاح بصاحبه: أنت حاقد! فقال في أدب: يـا أخي أنا لم أعلن الأمرَ في صحيفـة، ولكني أرعى أمانة الحق معـك، فجئتك هامساً.

وما كاد يمرّ يومٌ واحد، حتى فوجئ الأستاذ نقولا بدعوةٍ إلى التحقيق في أمرٍ سياسي، إذ زعمتْ شكوى مجهولةٌ أنه عضوٌ في جماعةٍ منابذة، وقد أثبتَ

براءته بعد جهد، ثم فوجئ مرةً ثانية باستدعائه إلى مصلحة الضرائب بدعوى أنه تكسَّبَ من أدبه، دون أن يُقدِّم كشفاً مالياً لحسابه، والرجل المسكين لم يَغْنم شيئاً، ثم فوجئ ثالثاً بدعوى أنه يوزِّع أسئلة الامتحان على الطلاب نظيرَ تفاهمٍ مشتركٍ خاص، لأنه ـ وقد كان ناظراً لإحدى المدارس ـ يستغلّ مركزه الخاص، والدعوى كاذبة، ولكنَّ التحقيق استمرّ أسبوعين!! وتأكَّد الأستاذ أنَّ زميله القصَّاص من وراء كلِّ هذه الأراجيف، فذهب إليه معتذراً أو كالمعتذر، ولسانُ حاله يقول: سأسكتُ ولن أتكلم عنك، فاسكتْ عني!.

٣٢ـ سرقة شعرية

ذكر ابن شاكر الكتبي في (فوات الوفيات) أنَّ قصيدةً شعريةً جميلةً تنازع عليها شاعران كبيران من شعراء العصر الأيوبي، هما شهاب الدين الخِيَمي، ونجم الدين بن إسرائيل، حيث ادّعى كلٌّ منهما أنه صاحب القصيدة وأنَّ غيره قد اغتصبها، ومال الكثيرون إلى أنَّ ابن الخيمي هو القائل، وأنَّ ابن إسرائيل هو المتَّهم، ثم اختاروا عمر بن الفارض للحكم، وكان مَطلع القصيدة المتنازع عليها:

يا مطلباً ليس لي في غيره أربُ ... إليك آل التقصّي، وانتهى الطلبُ
وما أراني أهلاً أن تواصلني ... حسبي علوّاً، بأني فيك مكتئِبُ
يمضي الزمان وأشواقي مضاعفةٌ ... يا للرجال، ولا وصلٌ ولا سببُ
يا بارقاً بأعالي الرّقمين بدا ... لقد حكيتَ، ولكن فاتَكَ الشّنَبُ

فتأمّل ابن الفارض طويلاً، ثم رأى أن ينظمَ كلٌّ من الشاعرين قصيدةً من البحر والقافية، ومَنْ تأتي قصيدتُه أقوى وأحكم، فهو صاحب القصيدة الأولى، وقام الشاعران بما أشار ابن الفارض فنظم ابن الخيمي قصيدةً مطلعها:

للهِ قومٌ بجرعاء الحمى غُيُبُ ... جَنَوْا عليَّ ولمّا أن جَنَوْا عتبُوا

ونظم ابن إسرائيل قصيدةً مطلعها:

لم يقضِ من حقِّكم بعضَ الذي يجبُ صَبٌّ متى ما جرتْ ذكراكُمُ يجبُ

واستمع ابن الفارض إلى القصيدتين فحكم لابن الخيمي، وقال لابن إسرائيل: «لقد حكيتَ ولكن فاتكَ الشنبُ» والشنب حلاوة الريق؛ وإذن فالعذوبة الرقيقة ليستْ له، وهو حكمٌ، صدَّقه الجمهور واطمأنَّ إليه.

ولكني لم أزلْ في شكٍّ من أمره، لأنَّ التفوق ـ على افتراضه ـ في القصيدة الجديدة لا يقطعُ بأنَّ المتفوق صاحبُ القصيدة الأولى، فقد يكون ذا ظرفٍ يمنعه إجادةَ القول عند الطلب! هذا رأيي.

٣٣ ـ ذمّ متحامل

كان السريّ الرفاء يتهم الشاعريْن الخالديّين بسرقة الشعر اتهاماً باطلاً، وقد علم أنهما سيسافران إلى العراق، فكتب لبعض أصحابه محذِّراً منهما، وكان مما قال:

بكرتْ عليكَ مغيرةُ الأعراب فاحفظ ثيابكَ يا أبا الخطّابِ
شنَّا على الآدابِ أقبحَ غارةٍ جرحتْ قلوبَ محاسنِ الآدابِ
لا يسلبانِ أخا الثراءِ وإنّما يتناهبانِ نتائجَ الألبابِ
نظرا إلى شعرٍ يَروقُ فتَرَّبا منه خدودَ كواعبٍ أترابِ
شَرباه فاعترفا له بعذوبةٍ ولرُبَّ عذبٍ عادَ سوطَ عذابِ
لفظٌ صقلتُ متونَه فكأنه في مُشرقاتِ النظمِ درُّ سحابِ
أعْززْ عليَّ بأنْ أرى أشلاءَه تدمَى بظفرٍ للعدوِّ ونابِ

والشاعر ظالم، والشاعران مظلومان.

* * *

في عالم الحيوان

٣٤ ـ الحيوانات تَعُود

كنا ونحن صغارٌ في الريف نتعجب كثيراً حين نحمل القطط إلى أماكن نائية، ونتركها هناك، تخلُّصاً من شرّها، ثم نجدها بعد ذلك قد حضرتْ تلقائياً إلى منازلنا، وكأنها تعرف الطريق كأناسٍ عقلاء، فلا نزال نتعجب وندهش، واليومَ نرى العلم يُثبت أنَّ للحيوان غريزةً خاصة تهديه إلى موطنه الأول، فيسرع إليه بعد ارتحالٍ جبري، دون أن يضلّ الطريق.

لقد أجرى العالم الكبير (باستيان شميد) تجربةً علميةً حول هذه الظاهرة، فنقلَ ثلاثة كلابٍ إلى سيّارات تحملها إلى غاباتٍ بعيدة، تفْصلُها عن المنازل الأولى غاباتٌ ووديانٌ وجبال، ثم أطلقها في يومٍ عابس شديد الضّباب، فلاحظَ أنَّ أحدها في أول الأمر أخَذَ يجري في كلّ اتجاهٍ ويتشمّمُ كلَّ رائحة، كأنه يختبرُ الاتجاهات المختلفة، ثم قفز إلى ربوةٍ عالية، ولَبثَ لحظاتٍ اهتدى بعدها إلى الاتجاه الصحيح، وأخذَ العالم الكبير يُراقب رحلة الكلب، فرآهُ يتجنّب الغابات والقرى، ويسلكُ الطرق الخالية، فلمّا صارَ على مقربةٍ من قريته الأصلية، رفعَ ذيله، واتّجه مسرعاً إليها قبل أن يبدُو له منزلٌ واحدٌ منها، ثم أجرَى العالم هذه التجربة مرّةً أخرى بعد ثمانية عشر يوماً، لامتحان قوّة الذاكرة عند الكلب، فلاحَظَ أنه أمْضَى وقتاً يسيراً جداً في تحليل الاتجاه إلى القرية، بالنسبة إلى التجربة الأولى، ثم سلكَ طريقه دُون أن يتردّد في اختيار الجهة، عند المفارق المتعدّدة، كما فعل في المرّة السابقة حتى وصل إلى موطنه في وقتٍ قصير.

٣٥ ـ تجربة مدهشة

وقد يُقال: إنّ للكلب قدرةً خاصة على تحديد الاتجاه، بوسطة حاسّة

الشّم، ولكنّ هذا الاحتمال يضْعُفُ حين نلمّ بهذه التجربة العلمية المدهشة:

يقوُل الأستاذ (جُوزيف سنيل) مؤلف كتاب (الحاسة السادسة) نقلاً عن زميلٍ له هو الدكتور (هردمان) أستاذ الأحياء في جامعة ليفربول: إنّه أجرى عدّة تجارب على نوعٍ من السمك الغضْروفي الذى يلتصقُ بصخور البحر، فكان يعمدُ إلى طائفةٍ منه، ويضعُ لها علاماتٍ مميّزة، ثم يحملُها بعيداً عن مواضعها، فلا تلبثُ أنّ تعودَ إلى مكانها الأول تلقائياً، وكانَ لهُ صديقٌ من الصيادين من عادته أن يحتفظ بما يصيدُه من السمك حياً في جوف صهريج، يطفو على سطح الماء، حتى يجتمعَ لهُ قدْرٌ كبير فيحمل السمك إلى دكّانه وهو حيٌّ يتحّرك، فصادَ في بعض المرات صيداً متوسط العدد، من مكانٍ خاصّ في البحر، ثم سار عدّة أميال، ليصطاد من مكانٍ آخر، فحمل الصندوقَ الممتلئ بالماء والسمك إلى السّاحل، ريْثما يجمُع سمكاً جديداً، ولكنّ ريحاً شديدةٍ هبّتْ على الصهريج، فأطلقتْ جميعُ ما فيه إلى البحر من جديد، وما كان أعظم دهشةَ الصّياد حين رجع إلى المكان الأول بعد أمدٍ قريب، فوجدَ خمسةً من كبار الأحجام بهذا الموطن، وكان من السّهْل عليه أن يتعرّف إليها، إذ كان من عادته أنْ يربط أظافر السّرطان البحري (نوع من السمك) بخيطٍ خاص، كيلا يؤذي بعضه البعض الآخر حين تجتمعُ الأسماك في الصّهريج الضيّق؛ وإذنْ فقد رحل السّمكُ إلى موطنه دون انتظار، وباهتداءٍ عجيبٍ.

٣٦ ـ من حديث الجاحظ

فلنترك الغرب إلى الشّرق، ونستمع إلى بعض ما يقوله صاحب (كتاب الحيوان) ببعض التصرف.

قال الجاحظ: ومن كَرم الحمام، الإلْفُ والنزاع والشوق، وبذلك يدّل على ثبات العهد، وصون ما ينبغي أنّ يُصان، وإنّه لخُلقٌ صدق في بني آدم، فكيفَ إذا كان هذا الخُلق في الطير، فنحن نجد الحمام يُحْمَل من موضع، فيُسترقّ ويظلّ محبوساً في قفص، وتُقصّ أجنحتُه، ويستمرّ عاماً وبعض العام، فحين ينبتُ

الجناحُ، وتتاح له فرصةُ الخروج من القفص رحَلَ إلى موطنه الأول، وإنْ كان الموطنُ الثاني أنفعَ له وأدفأ، كالإنسان الذّي لو أصابَ الخير من غير موطنه، لم يقعْ ذلك في قلبه، ونَزع إلى موطنه، وقد يبيعُ الرجلُ بعض الحمام إلى رجلٍ أخر، فيرحل به إلى موطن جديد، ولكنّ الحمام ينتهزُ الفرصةَ ليعود، قال المثنّى بن زهير: إنّ الحمامَ الذي أربّيه وفيٌّ لي تمام الوفاء، فربّما قصصتُ الطائرَ بعدَ أنْ صار عندي دهراً طويلاً، وبعثُه إلى غيري، فمتى نبتَ جناحُه كنباته الأوّل، لم يدعُهُ سوءُ صَنيعي إليه أن يترك من اشتراه، ويرجعَ إليَّ، فعلت ذلك كثيراً، والحمامُ يرجع إليَّ وفاءً لي! . . .

قال الجاحظ: وكان أبو إسحاق النظّامُ حاضراً يسمع، فقال للمثنّى بنُ زهير: إني أراكَ تذمّ نفسَك، وتمْدحُ الحمامَ، ولئن كان رجوعُه إليك من الكرم، فإنّ إخراجَك له من اللؤم الصريح، وما يعْجبني من الرّجُل أنْ يقطعَ صلته بطائرٍ أو بهيمة.

ثمّ صاحَ النظّامُ يقولُ متحدّياً: خبّرْني عنْ قولك: إنَّ الحمامَ يرجع إليك مرّةً بعد مرّة، وكلّما زهدتَ فيه كان أرغبَ، أترى الحمامَ رجع إليك أنتَ، أم رجع إلى موطنه هو؟ وإلى عشّه الذي درج منه؟ أرأيْتَ لو رجع إلى وكره ووجدك غائباً أو ميتاً أكان يرْجعُ إلى المكانُ الذي خلّفه، لأنّه لم يرك! إنّه لا يفكّر فيك، بلْ في موطنه هو!

وكلامُ النظّام في غاية اللدد والإفحام.

٣٧ـ ذكرى ثانية

وإذا كنتُ ذكـرتُ رحلة القطط إلى منزلها بعدَ أن أُبعدتْ عنـه قهراً، كما أسلفْت، فإني أذكر طرفةً أخرى شاهدناها صغاراً، وعَجزْنا عن تعليلها، فقد كانت المنازلُ لدينا تجُاورُ الحقول الزراعية، فتؤُمّها بعضُ الهوام الضارّة، ومنها الثعابين، التي تخْتبئ في شقوق الجدران المبنيّة وقتئذٍ باللّبن والطين، فيحتالُ أصحاب المنزلُ على إخراجها بحيلةٍ معهودة، هي أنّ يُحضروا صاحبَ مزمارٍ

ريفيّ ليوّقع بعض الألحان، فتبرز الثعّابين من الجحور، وتدبّ على الأرض من الشّقوق: هذا ما كنّا نشاهده رأيَ العين.

والذي شاهدناه ورأيناه رأيَ العين تَحدّث عنه الكاتب الفرنسي الكبير (شاتوبريان) فقال: كنتُ أقوم برحلةٍ في شمال الولايات المتحدة سنة(١٧٩١) فاتجهتُ إلى بعض القبائل المتوحشة مع رفقاء الرحلة، وضرَبْنا خيامَنا في صحراء كبيرة عند شاطئ نهر (جينتزي) فدخلتْ إلى المعسكر حيّةٌ عظيمةٌ، أوقعتِ الرّعب في صدورنا، ومعنا رجلٌ من كندا يجيدا العَزْف على القيثار، فلمْ يفزعْ، وظلّ مبتسماً، ثم انطلق يُغنّي بمزماره، فما سمعت الحّيةُ الصّوت حتى التفّتْ على نفسها، عدّة التفافاتٍ، ورفعتْ رأسها، وأخذتْ تحرّكه عجباً، وكأنّما قد سحرتْها هذه الأنغام الموسيقية فأذهبتْ شراسة عينها، والْتمع جلدُها بألوانٍ براقة جميلة، ثم أدارتْ رأسها مع أنْغام المزمار وكأنها تشاركه الإيقاع، وفي هذه اللحظّة خَرجَ الكنديُّ بمزماره، وهو يَصْدحُ، فتبعتْه الحيّة تسير وراءه شبراً شبراً حتى ابتعد بها خارج المعسكر، وهُناك تجمّع الأهلون ليروا الحيّة وقد التفّتْ على نفْسها تستمعُ في انشراحٍ وانجذاب، ثم سكت الموسيقيُّ بعد ساعة، فانصرفت الحيّة في هدوءٍ إلى موضعٍ غير بعيد، متخلّلةً الأعشاب دون أنْ يُفكّرُ أحدٌ في إيذائها، وكأنّ خروج الحيات عندهم إلى اجتماع اللّهو شيءٌ مألوف.

٣٨ ـ الفارابي وسيف الدولة

لم يكن الفارابيُّ فيلسوفاً يقتصرُ على بحوثِ الفلسفة، بل كان فنّاناً يعزفُ على الأوتارِ بقدرةٍ لا تتاحُ لمنْ تخصّصوا في العزف وحدَه، وقدْ وفدَ على حلب، حين كان سيف الدولة حاكمها الباطِش، فتقدّمَ إلى مجلسه الحافل بالعلماء والأدباء، وجعَلَ يناقشهم بلباقةٍ واقتدار، حتى ملك إعجابَ سيف الدولة إذ رأى الحضور من الأشياخ والأدباء يكتبون عنه ما يقول، فصرفهَم سيف الدولة، وخلا به ملاطفاً مع حاشيته الأقْربين وسأله: هل تأكل؟ فقال: لا، قال: هل تشربُ؟ فقالَ: لا، قالَ: هل تسمع؟ قال: نعم، فأمرَ سيف الدولة: بإحضار القيان لمجلسٍ قابل، فحضرَ أعيانُ الصنعة، وضربوا على أوتارهم، وأخذ الفارابيّ في انتقادهم.

فقال له سيف الدولة: أتُحْسنُ هذه الصنعة، فردَّ بالإيجاب، ثم أخرج من وسطه خريطةً فتحها، وأبرزَ منها عيداناً وركَّبها ثم لعب بها، فضحك كلُّ من في المجلس، ثم فكَّها وركَّبها تركيباً أخر، وغـنَّى بها فبكى كلُّ من في المجلس، ثم فكّها وغيّر ترتيبها، وحرّكها، فنامَ كلُّ منَ في المجلس حتى الحاجب، فتركهم نياماً وخرج.

ويقولُ صاحب عيسى بن هشام: كان أهلُ أسبرطة في فتنةٍ اشتدَّ لهيبها، وعظم شرُّها، فعمد جماعةٌ من الموسيقيين إلى مكان الزعماء المتخاصمين، فما زالوا يغنُّونهم حتى طربوا، فصفتْ أرواحُهم، ولانت عرائكهم، وانتهوا إلى الوفاق بعد الشقاق، وقام صياحُ الطرب مكان صياح الشغب.

وفي الحرب السويسرية كان الجنود يتركون الميدان إلى سماع موسيقى تصدحُ بها فرقُ الأعداء من بُعد، فتثير فيهم ثائرة الحنين إلى السلام، وتدفعهم إلى الدعوة للهدنة، وقد تكرَّر ذلك حتى قام المعتدلون من الفريقين بالدعوة إلى إنهاء القتال!.

أما العجيبةُ حقاً، فهي ما رواه المويلحي من أنَّ أحد الموسيقيين كان يريد العبور من شاطىءٍ على ساحل بحرٍ ممتدّ، فلم يتيسَّر له ما يُقلُّه من المركب، فأخذ يتلهَّى بقيثارته، فإذا بِدَرْفيلٍ يشقُّ أمواج البحر، ويدنو منه صاحب الصوت في طرب، ولم يزل يستمع حتى حاذى الشاطئ، وبدا عليه السكون التام، فأيقنَ المطربُ أنه استهواه بغنائه، وذلَّلهُ بقوة الطرب، فامتطاه فوق عباب الماء حتى بلغ به الشاطئ الآخر!.

وما لنا نتحدث عن طرب الدرافيل، ونحن نعهدُ الإبلَ تهيمُ بالحُداء، فإذا وَنَتْ عن السير بعد رحلةٍ شاقّة، حفَّزها الحُداء إلى مواصلة التَّرحال!.

٣٩ ـ بكاء أم غناء

يقول أبو العلاء المعري:

أبكَـتْ تلكـمُ الحمـامـةُ أمْ غنَّـتْ   علـى فـرعِ غُصنِهـا الميّـادِ

فالمعري يحار سائلاً عن صوت الحمامة، أغناء أم بكاء؟ والإجابة ترجع إلى معدن الصوت نفسه، فقد يكون غناءً ساعة الطرب، وبكاءً ساعة الحزن، وعلماءُ اليوم يذكرون أنّ غناء الطيور خاصٌّ في أكثره بالذكور لا بالإناث، لأنّ ذكر الحمام يحاول أن يتحبّب إلى صاحبته برقّة الصوت، وحلاوة الترجيع، فهو وسيلة جذبٍ أنثويّ رقيقة!..

أما البكاء فقد رُويت أسطورةٌ غريبة جميلة تقول: إنّ الهديل كان فرخاً من فراخ الحمام على عهد نوح عليه السلام، فمات عطشاً أو ضَيْعةً، أو صادفه طائرٌ جارح فالتهمه، فما مِنْ حمامةٍ جاءت من بعده إلا وهي تدعوه، وإلى هذه الأسطورة أشار كعب بن سعد الغنوي بقوله من قصيدة:

فإنّكِ واللومَ الذي ترجعينَه ... عليَّ، وما عذَّالةٌ بعَقُولِ
كداعي هديلٍ لا يجابُ إذا دعا ... ولا هو يسلو عن دعاءِ هديلِ

٤٠ ـ حميد بن ثور والحمام

من أروع قصائد الشعر العربي في بكاء الحمام قصيدة حميد بن ثور الهلالي، إذ اهتاجت عاطفته لصوت حمامةٍ أرّقها الحزن على فرخٍ لها جميل الصورة، ظلّت تتعهّده بالغذاء، حين يمدّ جيده إلى فمها، لِتزُقّهُ في حنان، فلما نما جسمه، وكساه الريش الأسود البرّاق، أُتيحَ له صقرٌ جارح، فنهشه نهشاً بالغاً، وطار صواب الأم المسكينة، فجعلتْ تنتقل من مكانٍ إلى مكان تنادي الحمامَ المجاورَ ليُسعفها بالعزاء، وترتجُّ على الغصن في ميلانه رائحاً غادياً وهي تنوح، فتُوجّع قلبُ الشاعر، وتعجّب كلّ العجب لعربيٍّ مثله شاقّه صوتُ طائرٍ أعجم! وكان الشاعر عاشقاً محروماً، فتعاطف الحزين مع الحزين فقال:

وما هاجَ هذا الشوقَ إلا حمامةٌ ... دعتْ ساقَ حرٍّ[1] ترْحةً وترنُّما

---

(١) ساق حر: ذكر الحمام.

تُنادي حمامَ (الجلْهتيْن) وترعوي إلى ابن ثلاثٍ أسحمَ الريّش أقتما

كـأنّ علـى أشـداقـه نسور حُنْـوةٍ إذا هـو مـدَّ الجيـدَ منـه ليُطعَمـا

فلما اكتسى الريشَ السّحامَ ولم تجدْ لـه معهـا فـي ساحـةِ العُشّ مَجثِما

أتيـحَ لهـا صقـرٌ مُسـفٌّ فلـم يـدعْ لهـا ولـداً إلا رِمـامـاً وأعْظُمَـا

فأوفتْ على غصنٍ عشاءً فلم تدعْ لبـاكيـةٍ فـي نَـوحهـا متلـوَّمـا

إذا حـرّكتـه الـريـحُ أو لعبتْ بـه أرَنّـت عليـه مـائـلاً ومُقـوّمـا

عجبتُ لهـا أنّـى يكـون غنـاؤهـا فصيحـاً، ولـم تفْغـر بمنطقهـا فمـا

فلـم أرَ مثلـي شـاقَـه صـوتُ مثلِهـا ولا عـربيـاً شـاقَـه صـوتُ أعجمـا

ولأبي بكر الشبلي مقطوعةٌ مماثلة، يصف بها ورقاء هتوفاً في الضحى ذات شجوٍ حزين، يجدها القارئ في كتب المختارات الشعرية، فتفسح له مجال الموازنة بين الشبلي وحُميد الهلالي.

* * *

عبر وعظات

٤١ ـ قصة ومغزاها

مما يُروى من حكايات الهند هذه القصة: مات رجلٌ عن ثلاثة بنين، وكان بين تركته بطيخةٌ جميلة اعتزّ بها الأولاد غاية الاعتزاز، لأنها من تراث أبيهم، وأبوا أن يملكها أحد، فحفظوها في مكانٍ حريز من المنزل، ولكنّ الزمن أفسدها، فانتشرت منها رائحةٌ خبيثة، وعمَّ النتنُ الحجرة، وجلس الأولاد الثلاثة يتشاورون فيما يصنعون إزاء هذه المشكلة.

أما أولهم فقال: لا بدّ من الاحتفاظ بها رغم فسادها، ولو جلبت الرائحة الكريهة لنا، لأنها من تراث أبينا، ولا نستطيع أن نفرِّط فيه.

وقال الثاني: وإذا كانت هذه حالتها، فإنَّ من المخجل أن نحتفظ بها على هذا السوء، ولنشترِ بطيخةً جديدة تكون مثلها، وتذكِّرنا بأبينا، لأنّ البطيخ متماثلٌ متشابه.

فقال الثالث: أُخالفكما في الرأي، إذ أقترحُ أن نَفْتحَ البطّيخة، ونأخذُ منها بذرَها قَبْل أن يفسد، ونَزرعه في أرضنا، ليُخرجَ كثيراً من هذا النوع، وكله يذكّرنا بأبينا.

وطال الجدل حتّى سُمع الضجيج في الشارع، ودخلَ الأصدقاء يحلّون النزاع، وبعد أخذٍ وردٍّ، انتهوا جميعاً إلى استحسان الرأي الثالث، ففُتحت البطيخة، وأُخذتْ منها البذور، وزُرعت في الأرض، فملأت المنزل بطيخاً جيداً ذا طعم ممتاز.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد تعليقاً على هذه القصة: «أليستْ هذه قضية التجديد في أوضح صُورها وأبسطها، أليس المحتفظون بالبطّيخة حتى

تفسُد، ويفسد ما حولها هم الجامدين الغافلين؟ أليس الذين يَبيعونها ويشترُون غيرها هم المجدّدين الذين يَستبدلون جديداً بقديم، ولكنهم يقْطعون الصّلة بين هذا وذاك؟ أليسَ الذين زرعُوا البُذور هم المجدّدين الصالحين الذين يصونون تراث الآباء، ولايَخْسرون طرافَة التجديد في كلّ موسم؟ أليستْ هذه حكمةٌ يسيرةٌ عسيرةٌ، تَستدني النّجمَ البعيد، فإذا هو في متناول اليديْن؟

٤٢ ـ قصة أخرى

كان الرئيسُ يجول ليلاً في فناء قصره، فلما دنَا من حُجرة الحارس وَجَدهُ يقولُ لزوجته: ما هذا؟ أنا أشتغلُ طيلة اليوم، ولا أرتاحُ دقيقةً واحدةً، ثم آخذُ سبع رُوبيات في الشهر، والوزيرُ يركب السّيارات، ويجلسُ أكثر وقته في المكتب، ويقبضُ ألفيْن من الروبيات.

فلما أصبح الصبح دعا الرئيسُ الحارسَ، وقال له: إنَّ ضيفاً قد قدم إلى البلاد، فاذهبْ إليه لتسألَ عنه، فَذَهب الحارس مُسرعاً، ورجعَ يقول: إنَّ اسمه فلان!

قال الرئيس؛ ومنْ أيّ إقليم؟ فذهب الحارسُ يعدو، ثم عادَ لاهثاً يقول: منْ بلد كذا؟

فقال الرئيس: كم سيقْضي عندنا من الأيام؟ فذهب الحارسُ ثم عادَ متعباً يقول: سيقضي عشرين يوماً، فقال الرئيس: وما المهمّة التي جاءَ من أجلها، فذهب الحارسُ متبرّماً وعادَ متعباً يقول: إنه جاء لشراء بعض المحصولات الزراعية؟ فقال الرئيس: وكمْ معه من الأموال؟ فذهب الحارسُ في ضجر، ثم عاد مُرْهقاً ليقول: معه مئة ألف روبية! فقال الرئيس: ومن سيقوم على شحن المحصولات؟ فخرّ الحارسُ باكياً وهو يقول: تعبتُ يا مولاي فرفقاً!.

فقال الرئيس: اجلس معي، ثم دعا الوزير؟ وقال له: حلَّ ضيفٌ من إمارة كذا على البلاد؟ فاذهب إليه لتعرف من هو؟ فذهب الوزير، وعاد بعد نصف ساعة، ومعه كلُّ الإجابات التي سأل عنها الرئيس؟ وزاد الوزير فسأل عن أشياء لم

يكن الرئيس قد أشار بها، وقدَّم من الاقتراحات ما يعود بالنفع على الزائر، وعلى البائعين من التجّار، ثم خرج هادئاً.

فدعا الرئيس الحارس وقال له: أرأيتَ أنَّ العملَ الذي كلَّفك من الرواح والمجيء نصف النهار، قد فعله الوزير في نصف ساعة! فكيف تقارن بين راتبك وراتبه! فصاح الحارس: أخطأتُ يا مولاي فعفواً ومغفرةً!.

يعلِّق الأستاذ (عباس العقاد) على هذه القصة فيقول: من السهل أن يُقال: إنَّ من الوزراء من يُخطئ خطأَ الخادم، ومن الخدم من يُصيب إصابةَ الوزير، ولكنّ الحقيقة الباقية بعد هذا كلِّه أنَّ من الناس من يعمل في رحلةٍ واحدة وفي نصف ساعة، ما يعمله غيرُه في تسع رحلاتٍ وخمس ساعات، وأنَّ من الخطأ الواضح أن يتساوى هذا وذاك!.

٤٣ ـ فطنة ابن سينا

اجتمع للفيلسوف (ابن سينا) حكمةُ الفلسفة، وحكمة الطب، وبهما استطاع أن يَسْبُرَ أغوار النفوس عن بصيرةٍ واحتيال.

لقد مرض شابٌّ من أبناء الموسرين مرضاً أقعده في المنزل، وحار الأطباء في تعليله، وخاف الأبُ الشفيق أن تتهقر صحة فتاه إلى حدِّ اليأس، فبعث الرسلَ إلى ابن سينا، وهو في بلدةٍ نائية، مقترحاً عليه أن يُعجِّل، وله ما يشاء من الأجر. فأسرع ابن سينا، وكشف الكشفَ الدقيق على المريض الشاب، فلم يجد علَّةً عُضوية، لأنَّ الجسمَ صحيحٌ سليم، فهدتْه بصيرته إلى أنَّ المرضَ عاطفيٌّ، وأنَّ المريضَ يكتم سرّاً حبيباً إلى نفسه، ولا يستطيع البواحَ به لأمرٍ ذي بال، فطلبَ من الوالد أن يُحضر له مَنْ يعرف شوارع المدينة، وأصحابَ المنازل في كلِّ شارعٍ ومن بها من القاطنين، ويتركه معه، حين يكشف مرّةً ثانية على المريض الشاب!.

وحانت ساعة الحسم، فأخذَ ابنُ سينا المريضَ في كفِّه، ووضع إصبعَه على العِرق النابض في الساعد، ثم طلب من جليسه أن يذكرَ شوارعَ المدينة شارعاً شارعاً، فلاحظ الطبيبُ أنَّ النبضَ قد اشتدَّ عند ذكر شارعٍ معين، فانتظر قليلاً:

ثم سأل جليسه أن يذكر له أسماءَ أصحاب المنازل في هذا الشارع، وعند ذكر أحد هذه الأسماء زاد النبضُ إلى درجةٍ ملحوظة! فانتظر قليلاً.

ثم سأل جليسه أن يذكر أسماء الفتيات المقيمات بهذا المنزل، فجعل يذكر الأسماء كما اتّفق حتى هتف باسمٍ معيّن، فصاح المريض وبكى، وتدفّق النبضُ كأسرعِ ما يتدفّق! فقال ابن سينا:

هذه حبيبتك التي أمرضتك؟ فلماذا لا تجاهر بحبِّها! فقال الفتى: وكيف؟ وهي خطيبةُ أخي! وعلم الوالد بما كان، ولم يجد الأخُ مانعاً أن يتركَ الحبيبةَ لأخيه، إذ كانت تُحبّه أيضاً، ولا تجرؤ على التصريح!.

٤٤ ـ قصة مماثلة

يذكر الأستاذ (محمد فتحي) المستشار القضائي، وأستاذ علم النفس الجنائي في مقالٍ له تجربةً علمية قام بها وهو وكيل النيابة، إذ اتُّهم بعض الخفراء بقتل شابٍّ أطلق عليه عياراً نارياً، ولم تَلُحْ من الدلائل الحسيّة ما يحقّق الإدانة القضائية، وكان القاتل ينوي الزواج بفتاةٍ تقدَّم إليها القتيل، فاختارتْه ورضي أهلها، ومن هنا اتجهت الشبهة إلى الخفير، ولكنه أنكر، فسأله وكيل النيابة عن سلاحه الرسمي، فقال: إنّه فقده منذ عشرة أيام! وقد اعترف بعض الأهالي أنه شاهد الخفير يجري نحو مصرفٍ مائي، ومعه السلاح.

يقول الأستاذ محمد فتحي: كيف لي أن أهتدي إلى المكان الذي خبّأ فيه المتهم سلاحه، لقد ذكرتُ تجربة العلاّمة (منستر برج) بشأن ضربات القلب، وتأثير الانفعالات النفسية فيها، فوضعتُ يدي في يد المتهم، وتملّكتُ من موضع النبض جيداً، وأصبحتْ دقّات قلبه تحت إشرافي ومراقبتي، وأخذتُ أعدّ الأماكن التي تحيط بالقرية، فلما جاء ذكر المصرف ارتفع النبض، فعلمتُ أنَّ السلاح قد أُلقي فيه، إذ جعلتْ ضرباتُ قلبه تدقّ، حتى خُيِّل إليَّ أني أسمعها في صدره، فطلبتُ من مأمور المركز أن يأمر بعض الخفراء بالبحث عن البندقية في قاع المصرف، وحينذاك بدتْ على المتهم علائم الحيرة والارتباك، وارتفع النبض إلى

غير المعهود، وبالفعل لم تمضِ بضع دقائق حتى انتُشلت البندقية من القاع، وتبيَّن أنها مطلوقةٌ حديثاً، ولم أشأ أن أمرَّ بهذه التجربة دون أن يكون لها أثرٌ رسميٌّ ثابت، فسجَّلتُها في محضر التحقيق، وأخذتْ بها محكمة الجنايات في إدانة المتهم.

٤٥ ـ تفسير ظريف

جميع المفسّرين يذهبون إلى أنَّ قصة البقرة تبتدئ من قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وتنتهي عند قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، ولكنَّ العلامة الكبير الأستاذ (عبد الوهاب النجار) صاحب كتاب (قصص الأنبياء) قد انفرد برأيٍ مخالف، هو أنَّ النص القرآني الكريم يتحدَّث عن قصتين اثنتين، لا عن قصةٍ واحدة، حيث تنتهي قصة البقرة عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، ثم تبدأ قصةٌ جديدة بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢ ـ ٧٣].

يقول الأستاذ النجار: إذا نظرنا إلى القصص التي قصَّها الله في هذه السورة قبل هذه القصة، وكلُّها متعلِّقة ب[illegible] إسرائيل، وجدنا كلَّ قصةٍ مستقلّة عمّا قبلها وما بعدها، مبدوءةً بقوله (إذ) مثل ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٤١]، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ٥٣]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة ٧٢].

فهذا النسق المطّرد الذي لم يتخلّف يجعل مسألة قتل النفس والتّدارؤ فيها مستقلةً بنفسها، غير مرتبطة بما قبلها، فهي في شأن رجلٍ وُجد قتيلاً، وقد جُهل قاتله، وأنكر المحيطون صلتهم بالحادث، ولمّا كان اللهُ عزّ وجلّ مُخرجاً ما كانوا يكتمون من القتل، علّمهم طريقةً يميَّز بها القاتل من البريء، بأن يأتوا بالمتّهم، ثم يضربوه بجزءٍ من أعضاء القتيل، فإذا كان المتهم بريئاً لم يظهر عليه أيُّ انفعالٍ نفسي، وإذا كان مُداناً ظهر عليه الانفعال، وما يشبهه من الاضطراب مما يدلُّ على جريمته، ذلك أنَّ القاتل حين يباشر الجريمة يقع تحت انفعالٍ نفسيّ يغلي منه دمه، فإذا سكن وهدأت أعصابه عاودَه الندم، وصار شبح الجريمةِ متمثّلاً له، فهو يكره رؤية مكانها وكلَّ ما يتعلّق بها، وتضطرب نفسه، ويرتفع نبضه إذا رأى ما يدلُّ عليها، فهذا معنى قوله عزَّ وجلّ فقلنا: ﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ليظهر عليه انفعال التأثير إن كان مجرماً.

وقد احتاط الأستاذ النجار، فقال: هذا رأيي أعرضه على حضرات القرَّاء، راجياً أن يُعيره حضرات العلماء اهتماماً، وأن يُوافوني بما يرونه الصواب بعد قتل المسألة بحثاً، حتى إذا ظهر لي الحقّ عدتُ إلى ما رسموا، ضارباً بقولي عرض الحائط، فلستُ بالمتعنِّت ولا بالمفتون بقولي ورأيي، ولا ممن تنزَّهوا عن الخطأ».

وقد نوقش الأستاذ، وخولف، وتعرَّض له من عصفوا بحجَّته لأدلةٍ يرونها، ولكننا نذكر ما قال لأنه اعتمد على الانفعال النفسي، كما اعتمد عليه ابن سينا فيما أشرنا إليه من قبل، وكما اعتمد عليه أستاذ القانون الجنائي الأستاذ (محمد فتحي)، حين حاصر المتهم، وعاين حركات النبض، فهل عليه أن يكشفَ الشكَّ باليقين! وإذا كان الرأي الجديد دائماً موضع النظر، فإنَّ اعترافَ الأستاذ النجار باستعداده للعدول عنه متى توفَّرت الحجةُ يؤكِّد أنه طالبُ حق، وليس صاحبَ تهريج.

٤٦ ـ من شعر الجارم

يقول الأستاذ الكبير علي الجارم في رثاء صديقه الأستاذ عبد الوهاب النجار صاحب الرأي السابق:

لـــه حجــجٌ يسمِّيهـــا كـــلامـــاً ... ومـــا هـــي غيـــر أسيـــافٍ تُســـلُّ
إذا فـــاضـــتْ ينـــابعُـــه خطيبـــاً ... علمـــتَ بـــأنَّ مـــاءَ البحـــرِ ضَحْـــلُ
تـــذلُّ لـــه شمـــوس القـــول طـــوعـــاً ... ويستخـــذي لـــه المعنـــى المُـــدِلُّ
بيـــــانٌ مشـــــرقُ اللمحـــــاتِ زاهٍ ... وقـــولٌ صـــادقُ النبـــراتِ فَصْـــلُ
وآيـــاتٌ تـــرى فيهـــا ابـــنَ بحـــرٍ[1] ... يصـــولُ كمـــا يشـــاءُ ويستـــدلُّ
يفـلُّ شبـا الخصـومـة حيـث كـانـت ... بـــرأيٍ كـــالمهنَّـــدِ لا يُفَـــلُّ
فقـمْ واخطـبْ بحفلـك كـم تغنَّـى ... وهـــامَ بصـــوتِـــك الـــرنـــانِ حَفْـــلُ
وذكِّـــرنـــا اليقيـــن، فكـــم عقـــول ... تكـــادُ عليـــكَ مـــن شجـــنٍ تـــزلُّ

* * *

(١) الجاحظ.

طرائف تاريخية

٤٧ ـ وثيقة طلاق نادرة

لا يكاد يتمّ الآن طلاقٌ بين زوجٍ وزوجةٍ إلا بغضبٍ ينقلب إلى عداء، ولكنّ الذين يتّسمون بالخُلق الرفيع، يُخالفون هذا المسلك الذميم، وقد وقفتُ على وثيقة طلاقٍ نادرة، تُصوِّر المروءةَ الإنسانية في أبهى مواقفها وأكملها، إذ اضطر الفقيه الكبير أبو البركات ابن الحاج إلى طلاق زوجته السيدة عائشة الكنانية، فما نطق بغير اللائق من كلام الأتقياء، وقد أحضرَ الشهودَ، وتلا عليهم هذه الوثيقة النادرة.

«يقول عبد الله الراجي رحمته، المدعو بأبي البركات، اختارَ الله له، ولطفَ به: إنَّ الله جلَّت قدرته، أنشأ خلقَه على طبائع مختلفة، وغرائز شتَّى، فمنهم السخيّ والبخيل، وفيهم الشجاع والجبان، والغبيّ والفطن، والمتكبر والوضيع، فكانت العشرةُ لا تستمرّ بينهم إلا بأحد أمرين، إما بالاشتراك في الصفات أو في بعضها، وإما بصبر أحدهما على صاحبه مع عدم الاشتراك، ولما علم اللهُ أنَّ بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق، ليستريحَ إليه من عيلَ صبرُه على صاحبه، توسعةً عليهم، وإحساناً منه إليهم.

فلأجلِ العمل على هذا طلَّق عبد الله محمد أبو البركات ابن الحاج زوجته الحرة العربية المصونة، بنت الشيخ الوزير الحسيب النزيه، المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكناني، طلقةً واحدة، ملكت بها أمرَ نفسها، ونطق بذلك إراحةً لها من عشرته، طالباً من الله أن يغني كلاًّ من سَعته، وشهد بذلك على نفسه في صحّته وجواز أمره».

تلك الوثيقة جاءت تفسيراً دقيقاً لقول الله عز وجل: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

٤٨ ـ شهامة زوج

ذكر (الخطيب البغدادي) في تاريخه قال: قال محمد بن أحمد بن موسى: حضرتُ مجلس القاضي موسى بن إسحاق بمدينة الريّ، فتقدَّمتْ امرأةٌ، فادَّعى وليُّها على زوجها خمسمئة دينار مهراً، وأنكر الزوج ذلك، فقال القاضي للمدّعي: أين شهودُك؟ فقال: قد أحضرتُهم، فأراد بعض الشهود أن ينظرَ إلى الزوجة ليشير إليها في شهادته، وقال لها: قومي لأراكِ، ومِنْ عادتهم حينئذٍ إذا تعيَّنت الرؤية أن تذهبَ الزوجة إلى مكانٍ خالٍ بالمحكمة، وتُسفر عن وجهها، ليراها الشاهد، فيتأكّد أنها الزوجة، وهنا تقدَّم الزوج للشاهد، وقال: ماذا تريد؟ فقال القاضي: يريد أن يتأكّد من امرأتك حين تُسفر، فتصحّ عنده معرفتها، فقال الزوج: إني أُشهد القاضي أنّ لها عليّ هذا المهر الذي يدّعيه وليّها، وأصون وجهَها كيْلا يراه أجنبيّ، وهنا قالت المرأة: أما وقد سمعتُ من زوجي ما سمعتُ، فأنا أشهد القاضي أني أبرأتُ زوجي مما عليه في الدنيا والآخرة، حين أراد صون كرامتي!.

فتعجّب القاضي وصاح: أين المؤلفون، ليسجّلوا هذا الموقف في كتابٍ عن مكارم الأخلاق، لقد كان الزوج نبيلاً، ولم تكن الزوجة أقلَّ منه في نبله، وحقُّهما بعد اليوم أن يجتمعا في مودّة وصفاء.

٤٩ ـ اقتصاد حكيم

كانت مريم البصرية ذات عقلٍ وتدبير، ولها حيلٌ بارعة في الاقتصاد والتثمير، وقد زَوّجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فألبستها الحرير والخزّ، ودفعت إليها نفائس الحليّ من ذهبٍ وفضة، وقامت بحاجة البيت، وما يتطلّب من الأثاث، فدُهش زوجها دهشةً حائرة، وقال لها: يا مريم! أنّى لك هذا، قالت: هو من عند الله، قال الزوج متفرّساً: دعي الإجمال وعليك بالتفصيل، فما كنتِ ذات مالٍ قديم، ولا ورثتِ شيئاً حديثاً، وما أنتِ بخائنةٍ في نفسك، ولا في مال زوجك، إلا أن تكوني وقعتِ على كنز.

قالت مريم: اعلمْ أنني من يوم ولدتُها إلى أن زوّجتها، كنتُ آخذ من دقيق

الخبز حفنةٌ كلَّ يوم، فإذا اجتمع من ذلك صاعٌ بعتُه، وادّخرتُ ثمنه، ومرّت الأيام خلف الأيام، فعدَّ أنت كم يوماً في اثنتي عشرة سنة، وعدَّ كم حفنةً في اثنتي عشرة سنة، فإذا عددتَ ذلك، وحسبتَ ثمنه، أدركتَ كم ادّخرتُ، حتى هيّأ الله لابنتي ما تحبّ! قال الزوج: ثبّت الله رأيكِ، وأسعد من كنتِ له سكناً، وإني لأرجو أن يُخرج من ولدك من يُسعد أهله إن شاء الله! وما فرحي بهذا منك بأشدّ من فرحي بمن تربَّتْ لديك، ونقلت عن سجاياك!. يعني ابنته هذه.

٥٠ ـ الزوجة العالمة

نعرف الكثير عن العالمة القديرة (ماري كوري) مكتشفة الراديوم، ونعلم أنها سيدةٌ بولونية شاهدت كوارثَ جمّةً في حياتها، حتى اضطرت إلى الهجرة، فعاشت بفرنسة، واشتغلت بالخدمة في مطبخ الجامعة، لتستطيعَ مواصلة التعليم بالسوربون، فكانت تنظف المعمل، وتغسل الأواني، وتعدّ الأنابيب حتى استرعى نشاطُها العمليّ والعلمي معاً الأستاذ (كوري) أستاذ العلوم الطبيعية بالجامعة، فقدَّرها حقَّ قدرها، واقترن بها زوجةً عالمةً ذات همّةٍ وطموح، ولم يشغلها العمل الكيميائي عن التدبير المنزلي، فاستنبطت بعض المأكولات التي لا تحتاج إلى عناءٍ في الإعداد، والتي تُترك على النار مدةً طويلة دون مراقبةٍ حتى تنضج، فكانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علمياً، وتتركه لتساعد زوجها في العمل، ثم ترجع في الموعد الذي حدَّدته، لتجد الطعام صالحاً للأكل.

وحين رأت انهماك زوجها في البحث عن مصدر الطاقة المنبعثة من مركَّبات الأورانيوم، صمّمتْ على أن تنهض معه بالعبء على مستوًى واحد، وأخذا معاً يمتحنان جميع الأجسام الكيماوية، ويبذلان الجهد الجاهد في اكتشاف المجهول، حتى اهتديا إلى العنصر الجديد عنصر (الراديوم) بعد عناءٍ ماديّ لا يقلّ عن العناء العلمي، إذ كان راتبهما معاً لا يسمح بشراء مستلزمات البحث، فكانا يتقشّفان مأكلاً وملبساً ومسكناً، ليوفِّرا ما يسمح باستمرار البحث، وحين وُفِّقا إلى اكتشاف الراديوم، لم يَسلما من عقبات المعترضين، لأنَّ بعض الزملاء من الكيميائيين عزَّ عليه أن يُسلِّم لهما بهذا السبق الظافر فأثار الشبهات العلمية، وكابد الباحثان جهداً

جديداً في الردّ والمناقشة، حتى ظفرا بالتأييد، بعد نضالٍ أرهق الزوجَ فودّع الحياة، على إثر صدمةٍ من عربةٍ اجتازت الطريق مسرعةً، فلم يتمالك تفاديها، وخسرت الزوجة أستاذَها وزميلها وقرينها، ولكنها عُيِّنت مكانه في التدريس الجامعي وأدّتْ دورها العلمي أحسن الأداء. . . ونالت من مراتب الشرف العلمية ما جعلها ذات مجدٍ علميّ تليد. . .

٥١ ـ طرفة عروضية

عندنا اليوم في شتّى الكليات الجامعية سيداتٌ فاضلات، يضربْنَ بأسهمهنَّ في شتى ضروب المعرفة في كلِّ علمٍ وفن، ونحن نعلم أنَّ علم العروض ذو صعوبةٍ حادّة لتشابه مصطلحاته وتعدُّد ضروبه، وقد حدَّثني صديقٌ بهذه الطرفة العروضية :

قال صاحبي: حين مات أحد العلماء الكبار ممّن كانوا يفسّرون القرآن الكريم بدار الإذاعة المصرية حيناً، وبالمنتديات العامة حيناً آخر رثيتُه بقصيدةٍ قلت في مطلعها:

العـزاءَ العـزاءَ قـد أفـلَ البـد	رُ فضـلَّ السـاري وتـاهَ الطـريـقُ
والـدُّجى كـالخِضـمِّ يقذفُ بـاللُّج	عُبـابـاً فيـه الـوجـودُ غـريـقُ
وعيـونُ السـراةِ هـاجَ لهـا الليـلُ	شجـونـاً ففـاضَ منهـا العقيـقُ

ثم قلت فيها :

أيـن منّـا محـاضـراتُـكَ فـي المـذ	يـاعِ تُهـدي لنـا الجنـى فنـذوقُ
وصفـوُهـا بقـولهـم تفسيـرٌ	وهـي كـأسٌ يُـدارُ فيهـا الـرحيـقُ

ونُشرت القصيدة في جريدةٍ يومية، ولكنني قرأتُ بعد يومين تعقيباً عروضياً لطالبةٍ من طالبات كلية الآداب بالقاهرة تقول فيه: إنَّ هذا البيت:

وصفـوُهـا بقـولهـم تفسيـرٌ	وهـي كـأسٌ يُـدار فيهـا الـرحيـق

بيتٌ مكسور، لأنَّ قول الشاعر (تفسير) وَزْنُه (فعْلاتُن) بسكون العين،

ويكون بذلك قد دَخَلَهُ ما يسمَّى (بالتشعيث) عند العروضيين، والتشعيث لا يجوز أن يأتيَ في عَروض البيت إلا إذا كان البيت مصرَّعاً مثل قول الشاعر:

آذنَتْنـــــا ببينهـــــا أسمـــــاءُ ربَّ ثـــاوٍ يمـــلُّ منـــه الثّـــواءُ

أما إذا كان البيت غير مصرَّع مثل هذا البيت، فالتشعيث يكسر البيت! قال الشاعر: وكنتُ غافلاً عن هذا الملْحظ الدقيق، وعجبتُ كيف اهتدت إليه طالبةٌ بكلية الآداب لا تزال تجلس على مقاعد التلمذة، ولم تتخرَّج بعد، وبحثتُ في كُتب العروض لألتمس المخرج، فوجدتُها جميعها تنطق بما قالت الآنسة الطالبة! وإذن فلا سبيل إلى المكابرة.

وقد وجدتُ من الشجاعة الأدبية أن أعترف لها بسداد النقد، وأن أشكر لها اهتمامها العلمي، فنشرتُ في الجريدة هذه الأبيات:

قـــد كنـــتُ أزعـــمُ أنـــي أجـــدتُ فـــنَّ العـــروضِ
فـــأرشـــدَتْنـــي سعـــادُ إلـــى اختـــلالِ قـــريضـــي
شكـــراً، وإن قـــذفـــت بـــي مـــن شـــاهـــقٍ للحضيـــضِ

والطالبة تسمَّى (سعاد كامل) كما جاء في توقيعها، وقد قابلتُها بعد ذلك، وأدركتُ عمقها العلمي، إذ خشيتُ أن تكون قد نقلت الاعتراض العروضيّ عن بعض أساتذتها بالكلية، ولكنّ نقاشها معي في شعابٍ كثيرة من العلم بدَّد هذا الظنّ، فهل لها من أمثال؟.

٥٢ ـ زوجة الكُميت

هناك مواقف ذات بطولةٍ نادرة، تُذكر في كتب التراث في سطرٍ أو سطرين، ويمرُّ بها أكثر القرّاء مروراً عابراً، وهي في حاجةٍ إلى أن تروى كقصةٍ ذات أحداث، لها أشخاصها وعُقدتها ومغزاها، وبخاصّةٍ إذا دلَّت هذه السطور القليلة على شجاعةٍ نادرة، أو فداءٍ نبيل.

والسطور القليلة التي وقفنا عليها في كتاب (الأغاني) تُسجِّل شجاعة زوجةٍ

مخلصة، وتضحيتها البالغة، لأنها عرّضتْ نفسها للقتل المحقّق كي ينجو زوجها، ولم تبالِ بأيّ عاقبة.

لقد هجا الشاعر الأموي الكبير (الكُميت الأسدي) خلفاءَ بني أمية، وندَّد بمظالمهم الكثيرة، وتوجَّع لمصاب بني هاشم في قصائد سارت مسير الشمس في كل مكان.

وكان بين الشاعر وبين خالد القسري والي الكوفة خصومةٌ قبليّة، لأنَّ الشاعر هجا اليمنيّة هجاءً فاحشاً، لم يُسبَق إلى مثله، فأراد أن ينتقم منه، فاشترى عدّة جوارٍ من المطربات، وحفَّظهنَّ أهاجيَ الكميت في بني أمية، كي يصدحنَ بها في قصر الخلافة، إذا ذهبنَ إليه.

وكان هشام بن عبد الملك قد كلّفه بشرائهن من الكوفة! وتلك حيلةٌ ماكرة، لأنَّ أصدقاء أمير المؤمنين كانوا يتحاشون غضبه، فيُحاذرون أن يُسمعوه أهاجي الكميت، وظلَّ الشاعر بمأمنٍ من عقابه، فحين ذهبت الجواري إلى قصر الخلافة، واستمع إليهنَّ هشام، هاج هائجه، وأرسل إلى خالد القسري يأمره بقتل الكميت، وإرسال رأسه إليه، وسرعان ما قبض خالد على الشاعر، وأودعه السجن، لينفذ الأمر في الصباح.

وجاء الخبر إلى زوجة الكميت، وعرفتْ أنَّ زوجها لن يمرَّ عليه يومٌ بعد أن صدر الأمر بقتله، فتظاهرت بأنها ذاهبةٌ لرؤيته للمرة الأخيرة، وبكتْ للحارس راجيةً أن تتصل بالسجين لتسمع وصيَّتَه الأخيرة، وتستعلم عن أشياء لا يعرف سرَّها غيره، ورقَّ لها الحارس فأدخلها، كي تخلع ملابسها، وتُلبسها الزوج، ليخرج هارباً، وتبقى مكانه متأهّبةً لكل ما ينتظرها من عقاب، ولو وصل إلى القتل! وهذا ما كان.

فليتَ شعري أليست هذه بطولةً نادرة، وفدائيةً تقلُّ نظائرها في صفحات التاريخ، فلماذا لا يتحدّث عنها من يكرّرون المُعاد ولا يأتون بالجديد.

٥٣ ـ ترثي زوجها

مات (نجدةُ بن الأسود) فجزعتْ عليه زوجُه الذلفاء جزعاً شديداً، فأقبلتْ لداتُها يلمْنَها على ما تُبدي من الجزع الهالع، وقلنَ: مات السادات من قومك، فما فعلتْ زوجاتهن ما تفعلين، فقالت:

سئمتُ حياتي حين فارقتُ قبرَه ... ورُحتُ وماءُ العينِ ينهلُ هامِلُه
وقالت نساءُ الحيِّ قد ماتَ قبلَه ... شريفٌ، فلم تهلكْ عليه حلائلُه
صدقنَ لقد ماتَ الرجالُ ولم يمتْ ... كنجدةَ من إخوانه مَن يعادلُه
فتًى لم يضقْ عن جسمهِ لحدُ قبرِه ... وقد تسعُ الأرضَ الفضاءَ فضائلُه

* * *

مناقشات علمية

٥٤ ـ معركة نحويّة

أراد الكاتب الكبير الأستاذ (مصطفى لطفي المنفلوطي) أن ينتقدَ بعض الكتب النحوية، التي كانت تُدرس بالأزهر لعهده، والتي كثر فيها التمثيل بالعبارة الشهيرة (ضربَ زيدٌ عمراً) فأشار إلى قصةٍ تاريخية تردَّد صداها ببغداد، وجعل منها مدخلاً لما يريده من نقدٍ علمي.

ولكنَّ الدكتور طه حسين لم يُعجب بما كتب المنفلوطي، ونشر نقداً لائماً يكذّب الكاتب، ويشكّك في القصة، إذ يعدُّها خيالاً لا حقيقة، وارتاب القارئ بين التصديق والتكذيب.

ولكنّ مؤرّخاً عراقياً ببغداد تحدّث عن بعض تاريخها القريب، أكّد لنا صحّة الواقعة، وذكرها ذِكر المؤكِّد المطمئن، فلم يعدْ هناك مجالٌ للشك فيها، ونحن ننقل عن المؤرخ ما قال نظراً للطرافة:

قال الأستاذ (رزوق عيسى) في بحثٍ تاريخي نشره تباعاً بمجلة (الرسالة) (يناير سنة ١٩٤٧) تحت عنوان: (داود باشا ونهضة العراق الأدبية):

«جلس داود باشا على منصّة ولاية بغداد سنة (١٣٢٢هـ)، وأجرى إصلاحاتٍ عديدةً، منها إصلاح طريقة تعليم العربية، وجلس لتعلّمها على أيدي فطاحل العلماء، فوجد أستاذَه يستشهد دائماً بالمثل المردَّد (ضرب زيدٌ عمراً) فخطر له أن يسأله على سبيل الدعابة عن الجناية التي جناها عمرو حتى استحقّ أن يضربه زيدٌ كلَّ يوم، واستغرب الأستاذ سؤالَ الوالي، ثم قال له: ليس هناك في الواقع ضاربٌ ولا مضروب، ولكنه مثالٌ لتقريب القاعدة.

ولم يرتَح داود باشا للجواب، وكأنَّ الأستاذ أظهر بعض الاستخفاف به،

فاستشاط غضباً، ودعا نفراً من الشرطة ليسحبوه إلى السجن، وظلّت هذه المسألة شغلاً شاغلاً للوالي، فجعل يستقدم أساتذة النحو لسؤالهم، فإذا سكتوا واحداً بعد واحد، قادهم إلى السجن، حتى ضاقت بهم غرف المحبس.

وفي غمرة هذه المحنة تقدَّم نحويٌّ سياسيٌّ إلى مجلس داود باشا كي يجيب عن السؤال الدقيق، فقال مخاطباً الباشا: إنَّ جناية عمرو يامولاي خطيرة، يستحق أن يضربه عليها زيدٌ كلَّ آن، فقال الوالي بلهجة المتلهّف: وما جنايتُه؟ فقال النحوي الداهية: إنه هجم على اسم دولتكم الكريم (داود) فسرق منه الواو، إذ حقُّه أن يُكتب هكذا (داوود)، ثم ألحقها باسمه، فصار يُكتب بها هكذا (عمرو) دون أن يستأذنكم، فسلّط عليه النحاةُ عقاباً صارماً بأن يذوق الضرب في حلقات التدريس.

فانطلق وجه الباشا بالبشر، وقرَّبه إلى مجلسه، وسأله عما يطلب، فقال لديَّ مطلبٌ واحد، أن يتفضّل الباشا فيُطلق مَن بالسجون من أساتذة النحو، الذين تركوا أُسرَهم وأولادهم، وذاقوا عذاب الأسْر دون ذنب، فأسرع الباشا بإطلاق سراحهم مستريحاً إلى ما سمع من تعليل.

تلك إذن قصةٌ واقعية، رواها الأستاذ (رزوق عيسى)، وهو أحد أعلام الصحافة والأدب ببغداد في النصف الأول من هذا القرن، ولا بدّ أن يشير إليها من خصّوا الوالي الكبير بدراساتٍ مستقلة، لأني أعرف أنَّ كتباً خاصة به قد طُبعت منذ حين.

٥٥ ـ معركة سيبويه والأصمعي

قال ياقوت: قال أبو حاتم السجستاني، قلت للأصمعي: حدِّثْني بما جرى بينك وبين سيبويه في المناظرة، فقال: واللهِ، لولا أني لا أرجو الحياة من مرضي هذا ما حدَّثتُك، لقد عُرض عليَّ شيءٌ من الأشياء التي وضعها سيبويه في كتابه، ففسَّرتُها على غير ما فسَّر، فبلغ ذلك سيبويه فدعاني إلى المسجد الجامع، وقال:

اجلس أبا سعيد، ما الذي أنكرتَ من بيت كذا، وبيت كذا، ولمَ فسرتَ على خلاف ما يجب، فقلتُ له: لقد فسرتُ على ما يجب، والذي كتب الخطأَ أنت، تسألني وأجيب، ورفعتُ صوتي، فسمع القومُ فصاحتي، ونظروا إلى لُكنته، فصاحوا: غلبَ الأصمعيُّ سيبويه! فسرَّني ذلك! فقال لي سيبويه: إذا علمتَ أنت يا أصمعي ما نزل بك فقد كفاني، لأني لا ألتفتُ إلى هؤلاء، ونفض يديه في وجهي ومضى!.

مرّةً ثانية، يُهرِّج عليه الأصمعي فيؤثر الصمت، إذ يعرف أنَّ العامة تنساقُ وراء الضجيج، وأنهم خلف كلِّ ناعق! ويتركه منصرفاً! ولكنْ هل تركه حقيقةً؟ إنَّ الأصمعي يحسّ في أعماقه أنه جادلَ بالباطل، فلم يشعر بفرحة الانتصار!.

٥٦ ـ نَحَويٌّ معاصر

الأستاذ العلامة الشيخ (محمد أبو عليان المرزوقي) من كبار العلماء بالأزهر في الجيل الماضي وله حواشٍ كثيرة على المؤلفات الذائعة كتفسير الكشّاف للزمخشري، وكان ضليعاً في علوم الشريعة وعلوم اللسان معاً، ومن طرائفه أنه زار قريته الريفية في بعض أيام المسامحة، فتقدَّم لزيارته طالبٌ مخضرم من طلاب الأزهر، وأراد أن ينتسب إلى العلم في محضر الشيخ أمام رجال القرية، ليذيعَ له حديثٌ بالفضل والنباهة، فقال للشيخ، لقد طلبتُ العلمَ عشرين عاماً بالأزهر، وأريد أن تسألني، بين أهلي، ليعرفوا من أنا؟ وقد بيَّتَ أمراً في نفسه! وكان الطالبُ ينتظر سؤالاً سهلاً كشرح آية، أو تفسير حديث، أو تسميع متنٍ من المتون.

ولكنَّ الشيخ الكبير قال: ما شاء الله قضيتَ عشرين عاماً في الأزهر، وأنت من بلدي ولم أرَكَ! إذن فأجبْ عن هذا السؤال النحوي:

ما موقع الفاء في قول العلامة ابن مالك:

ونون مجموع وما به الْتحقْ ... فافتحْ، وقلَّ مَن بكسره نطق

وكيف جاز أن يعمل ما بعد الفاء في ما قبلها؟ اذكرْ اعتراض بدر الدين ولد الناظم على أبيه أولاً، ثم اذكرْ ردَّ البدر الدماميني على ولد الناظم ثانياً، واذكر محاولـة العلامة الأمير التوفيق بين ابن الناظم والدماميني ثالثـاً، واختم القـول بتقرير العلاّمة الأنبابي حول هذا الجدال رابعاً؟ .

طلب الشيخ من الطالب أن يجيب؟ ولو أنه طلب إليه أن يعيد السؤال فقط ما استطاع .

وخاف الطالبُ أن يُحرَج على مشهد الملأ من ذويه، فجعل يقرأ سطوراً من ألفية ابن مالك كما اتّفق، سطوراً لا صلة لها بالسؤال، وقد دُهش الشيخ الكبير، فسأله أين الجواب؟

فارتفع صوته بتسفيه الشيخ، وأنه يسمع منه الجواب ولايفهم، وصفّق من ائتمروا به مع الطالب، وكأنهم يُفهمون العامة أنّ الشيخ قد اندحر، ولم يستطع أن يعارض الطالب، وزاد الحرجُ حين انفتل الشيخُ غاضباً من المجلس، ووراءه من يصفّقون ويقولون: انهزم أبو عليان، انهزم أبو عليان! وما انهزم الرجل إلا بهتاف الرعاع! .

٥٧ ـ مناظرة فاضلة

إذا اتسمتْ بعض المناظرات بالمهاترة واللجاج، فلدينا في الجهة الأخرى مناظراتٌ علمية رائعة تتّسم بالموضوعية، وتتقيد بآداب البحث، منها مناظرة الإمامين الكبيرين (الشافعي) و(محمد بن الحسن) وهما في الفقه والفضل قمةٌ لاتُطاوَل، وبعض المتسرّعين يكتبون عن الرجلين كلاماً زائفاً، لايخضع لمنطقٍ ولا يعتصم بحق، إذ يزعم بعض غلاة الشافعية أنَّ محمد بن الحسن رضي الله عنه كان يدبِّر المكايد للشافعي في بغداد لدى الرؤساء، كي تذهب ريحه، وتبقى آراء أبي حنيفة ذائعةً متصدِّرة، وهذا لغوٌ سفيه منكر، لأن الفضل يعرفه ذووه، وأخلاق الرجل العظيم تنأى به عن صغارٍ لا يقترفه إلا السفهاء .

تناظر الإمامان الكبيران في مسألة الغصب، كلٌّ حسب مذهبه، فمن رأي الشافعي أنّ الغاصب إذا اغتصب شيئاً وزاد فيه مايرتفع به ثمنه، أن يستردَّ المغصوبُ منه هذا الشيء، ويدفع ثمن الزيادة إذا أراد، فإن لم يردْ أزيلت هذه الزيادة قهراً.

ومن رأي محمد بن الحسن أنّ المالك وهو المغصوب منه يُخيَّر، فإنْ شاء أخذ الشيء ودفع قيمة الزيادة، وإن شاء تركه للغاصب، وأخذ القيمة الأصلية لهذا الشيء.

وقد تناظر الإمامان الكبيران في هذه المسألة، فقال الشافعي لصاحبه: أتحبُّ أن نتناقش في مسألة الغصب، فردّ محمد بالقبول، وسأل الشافعيَّ: ما رأيكَ في رجلٍ غصب ساجةً، وبنى عليها جداراً بلغتْ قيمته ألف دينار، فجاء صاحبُ الساجة، وأقام شاهدَيْن على أنها ملكه؟

فقال الشافعي: أقول لصاحب الساجة ترضى أن تأخذ قيمتها، فإن رضي فمرحباً، وإلا قلعتُ البناء الزائد، وسَلَّمتْ إليه الساجة!.

فقال محمد بن الحسن يردّ على صاحبه: ما تقول، في رجلٍ غصب لوحاً من الخشب، وأدخله في سفينة، ووصلت السفينة إلى لجِّ البحر، فأتى صاحبُ اللوح بشاهدين عدليْن، أفكنتَ تنزع اللوح من السفينة وهي في البحر فيغرق الناس؟

فقال الشافعي: لا.

قال ابن الحسن: الله أكبر، رجعتَ عن قولك! ثم قال ابن الحسن: ما تقول في رجلٍ غصب خيطاً من الحرير، واحتاج إليه في عمليةٍ جراحية ترتُق بطنَه، وجاء صاحب الخيط بشاهديْن يشهدان أنّ الخيط ملكٌ له، أكنتَ تنزع الخيط من بطن المريض؟

فقال الشافعي: لا.

قال ابن الحسن: الله أكبر تركتَ قولك! وقال أصحابُه من الحنفية ظهر الحقّ.

فقال الشافعي: لا تعجلوا، وسأل محمد قائلاً: أرأيتَ لو كان لوح السفينة هو لوحُ مالكها نفسه، أفيجوز له أن ينتزعه منها وهي في لجّ البحر، فيغرق الناس، أو أنَّ ذلك حرامٌ عليه؟

قال محمد بن الحسن: بل هو حرامٌ عليه.

قال الشافعي: أرأيتَ لو كان خيط الحرير ملكاً للمريض نفسه أفيجوز له أن ينتزعه من بطنه فيموت منتحراً؟

قال ابن الحسن: لا بل هو محرم.

قال الشافعي: أرأيتَ لو جاء مالكُ البناء، وأراد أن يهدم البناء، أيحرمُ ذلك عليه أم يُباح؟

فقال ابن الحسن: بل يُباح!

فقال الشافعي: فكيف تقيس مباحاً على محرَّم؟

قال ابن الحسن: فماذا تصنع إذن بصاحب السفينة؟

فقال الشافعي: آمرُه أن يسير بها إلى أقرب السواحل، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه لصاحبه، إذا رفض أن يأخذ ثمنه!.

هذا نوعٌ من التناظر العلمي الدقيق، الذي يعتمد على الدليل المفحم، والقياس الملجم، مع مراعاة أدب البحث، وحضور المناظرة من الفقهاء الدارسين، فهم يسمعون الآراء، ويوازنون بينها، ويهتدون إلى الصواب، ويعترفون بالحقّ متى ظهر دليله الملزم، دون تعصّبٍ لمذهب، أو تشيّعٍ لفقه.

أما الذين تشيعوا للكسائي وخذلوا سيبويه فليسوا بعلماء، وقد مرّت أعوامٌ وحادثة سيبويه تروى على أنها مثالٌ للتجنّي الصارخ، والغرض المعلول، ولئن خسر سيبويه المعركة في ساعة، فقد كسبها في ما تلاها من القرون المتتابعة والحكم للتاريخ.

٥٨ ـ من شعر شوقي في المنفلوطي

شُنَّتْ على المنفلوطي حملةٌ ظالمة قال عنها شوقي في رثاء الكاتب الكبير :

كـم غـارةٍ شنُّـوا عليـك دفعتَهـا ... تصـلُ الجهـودَ فكـنَّ خيـرَ دفـاعِ

فإذا مضى الجيلُ المِراضِ صدورُه ... وأتـى السليـمُ جـوانـب الأضـلاعِ

فـافـزعْ إلـى الـزمـن الحكيـم فعنـدَه ... نقـدٌ تنـزَّه عـن هـوىً ونـزاعِ

فإذا قضى لكَ أُبْتَ من شمِّ العُلا ... بثنيّـةٍ بَعُـدَت علـى الطُّـلاَّعِ

وأجـلُّ مـا فـوق التـرابِ وتحتـه ... قلـمٌ عليـه جـلالـةُ الإجمـاعِ

يـا مصطفـى البلغـاءِ أيُّ يـراعـةٍ ... فقـدوا؟ وأيُّ معلّـمٍ بيـراعِ؟

* * *

معارضات فنية

٥٩ ـ المطارحات الشعرية

قلّت رواية الشعر المعاصر منذ ابتُلي بالشعر الحر، لأن هذا الضرب من النظم يُفقد الموسيقى التامة التي تساعد على الحفظ، وقد كان أبناء الجيل الماضي يحفظون قصائد شوقي وحافظ ومَن سار على دربهما، ويردِّدونها في مجالس السمر، وقاعات الدرس، وكانت القصيدة لأحدهم لا تُقابَل بالذيوع وحده، بل بالمساجلة تارة، والمناقضة تارة، هذا غير التحليل النقدي، والتشريح الأدبي في الصحف السيّارة، وسأضرب الأمثلة لما أقول.

لقد نظم إسماعيل صبري شيخ شعراء مصر، قصيدةً سياسيةً، بدأها بالحنين الرقيق، فقال:

لو أنَّ أطلالَ المنازلِ تنطقُ ... ما ارتدَّ حرّانَ الجوانحِ شيِّقُ
هل عند ذاك السِّربِ أنَّا بعدَه ... في الحيِّ من آفاقنا نتدفقُ
أمنازلَ الأقمارِ أهلُك أسرفوا ... في النأيِ إسرافَ الغنيِّ وأغرقوا
لو أنَّهم قد أنصفوك منازلاً ... ما حازَهم من بعدِ أُفقكَ مَشرقُ

وما كادت القصيدة تنشر حتى ساجلها شوقي بقصيدةٍ مطلعها:

أمّا العتابُ فبالأحبّةِ أَخْلَقُ ... والحبُّ يصلحُ بالعتاب ويَصدُقُ
يا مَن أُحِبُّ ومَن أُجِلُّ وحسْبُه ... في الغيدِ منزلةً يُجَّلُ ويُعشَقُ
البعدُ أدناني إليكَ فهل تُرى ... تقسُو وتنفِرُ، أم تلينُ وترفقُ
في جاهِ حُسنِك ذلّتي وضراعتي ... فاعطف، فذاكَ بجاهِ حُسنِك أليقُ

وثلَّثَ حافظ إبراهيم بقصيدةٍ أخرى مطلعها:

سكنَ الظلامُ وباتَ قلبُك يخفِقُ ... وسَطَا على جَنبَيْك همٌّ مُقلِقُ

حَار الفراشُ وحِرتَ فيه فأنتما ... تحت الظلام معذَّبٌ ومؤرَّقُ
عجباً يلذّلك السكوتُ مع الهوى ... وسواكَ يبعثُه الغرامُ فينطقُ
أخفيتَ أسرارَ الفؤادِ وإنما ... سرُّ الفؤادِ من النواظرِ يُسرَقُ

وهكذا دوَّى القصيدُ في مناسبةٍ واحدة مُساجلاً ومُطارحاً، وأذكر أنَّ الأستاذ عبد الله عفيفي رحمه الله قام بموازنةٍ أدبية بين القصائد الثلاث، وعارضَه غيره، فدارت معركةٌ نقدية حول المساجلة الشعرية! فأين نحن اليوم من هذا؟ وأكثر ما نقرأ من شعر هؤلاء غيرُ مفهوم، وليس الشعر فلسفةً منطقيةً حتى نبذلَ الجهد في فهم معمّياته، وكأنه بعض الأحاجي والألغاز..

٦٠ ـ نقد الأستاذ محرم

تعرضت مقدمةُ صبري لنقدٍ موضوعيٍّ من الشاعر الكبير أحمد محرّم، لأنَّ شيخ الشعراء ابتدأ قصيدتَه بالوقوف على الأطلال، كما كان يفعل السابقون من قبل، ولم يُنكر الأستاذ محرّم الشعر في الطّلل، لأنّ بكاء المنازل حاجةٌ من حاجات النفس، والمنزلُ بعد رحيل ساكنيه يصير طللاً من الأطلال، وإن كان قصراً من القصور، ولكنَّ محرّماً ينكر الترداد الذي جاء به صبري في أبياته، إذ لا يكفي أن يقول: «لو أنَّ أطلال المنازل تنطق» كما قال الجاهلي القديم، بل عليه أن يأتي بأفكارٍ جديدة، وأن توحي إليه خواطره الشاكية ما يهزّ القارئ، ثم ضرب أحمد محرم أمثلةً لمن وقفوا من الشعراء على الأطلال، وجاؤوا بالجديد، من أمثال أبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، ومن قبلهم الأخطل، وجرير.

ومن أروع ما اختاره قولُ المتنبي:

أَثْلِثْ فإنّا أيُّها الطّللُ ... نبكي وترزمُ تحتنا الإبلُ
لو كنتَ تنطقُ قلتَ معتذراً ... بي غير ما بكَ أيها الرجلُ
أبكاكَ أنك بعضُ من شُغِفُوا ... لم أبكِ أنّي بعضُ مَن قُتِلوا
إنَّ الذين أقمتَ وارتحلوا ... أيامُهم لديارهم دُوَلُ
الحُسْنُ يرحَلُ كلّما رحلوا ... معهم وينزِلُ حيثما نَزَلُوا

وقول المتنبي هذا منقطعُ النظير.

٦١ ـ مساجلة ثانية

زار الأستاذ علي الجارم لبنان مندوباً عن (مجمع اللغة العربية) في مناسبةٍ علمية، فألقى قصيدةً رائعة بدأها بالحنين اللاذع، والأسف الباكي، لفوات الشباب، وقد تحسَّر على الماضي الأنيس، تحسُّرَ الشيخ على أيام صباه، وقال: إنه لو استطاع لباعَ عمره كلَّه لأحلام الصبا، حين كانت أوتارُه تغرِّد وحدها، وكانت أشعارُه فتنةً للحسان، تستلُّ كلَّ تدلُّلٍ وجماح، أما اليوم فقد ألقى السلاح، وغسل جراحه بالدموع، يقول الجارم:

ألقيتُ للغيدِ الملاحِ سلاحي	ورجعتُ أغسلُ بالدموع جراحي
ولمحتُ ريحانَ الصِّبا فوجدتُه	ذبلتْ نضارتُه على الأقداحِ
كان الشبابُ طماحَ لاعجةِ الهوى	فاليومَ يرفعُ ساعدَيْه طماحي
مَن لي، وقد عبثَ المشيبُ بلمَّتي	بضياءِ ذاك الفاحمِ اللّماحِ
لو أستطيعُ لبعتُ عمري كلَّه	لمُنى الصِّبا، وأريجِه النفّاحِ
أيامَ أوتاري تغرِّدُ وحدَها	وتكادُ تسكرُ في الزجاجةِ راحي
أيامَ شعري للفواتنِ رُقْيَةٌ	تستلُّ كلَّ تدلُّلٍ وجِماحِ
الفلسفاتُ وما حوتْ في نظرةٍ	مِنْ لحظِ ساجيةِ العيونِ رَداحِ
تُغري الهوى وتصدُّه لمحاتُها	فتحارُ بين تمنُّعٍ وسَماحِ

وقد نشرت صحف لبنان القصيدة، وأسهبت في الثناء عليها، وقرأها الشاعر الكبير بشارة الخوري شاعر لبنان الوجداني، فأوحتْ له خواطرَ لا تسير في فلكها، بل تقف منها موقف المناقض، فالجارم قد ودَّع الحسان، وألقى سلاحه، وبكى الشباب، وعاتب الشيب، وطوى عهدَ الصبابة إلى الأبد.

ولكنَّ بشارة الخوري أعلن أنه سيصحبُ الحبَّ إلى قبره، ولن يتركَه مدى الحياة، وهو لا يشيِّع صبابتَه بالدموع، بل سيبْقيها معه ما عاش، ومن كان قد فرغ من دنياه ـ يعني الجارم ـ فهو يقبض براحته على الحياة متشبِّثاً، وعنده أنَّ شمسَ الأصيل أفضلُ وأغلى من شمس كلِّ صباحٍ! يقول الخوري:

فِتَنُ الجمالِ وثورةُ الأقداحِ	صبغتْ أساطيرَ الهوى بجراحي
وُلد الهوى والخيرُ ليلةَ مولدي	وسيُحملان معي على ألواحي
قد عشتُ بينهما على نغم الصَّبا	كفراشةٍ عَلِقَتْ نُديَّ أقاحي
روحٌ كما انحطمَ الغديرُ على الصفا	شعباً مشعَّبةً إلى أرواحِ
للحبِّ أكثرُها وبعضُ كثيرها	لرُقى الجمالِ وبعضُها للرَّاحِ
أنا لا أشيِّعُ بالدموع صبابتي	لكن ألفُّ جناحها بجناحي
ذَرْني وما فعلَ الزمانُ بمفرقي	ما كنتُ أدفنُ في الثلوج صداحي
من كان من دنياه ينفضُ راحَه	فأنا على دنيايَ أقبضُ راحي
إني أفدِّي كلَّ شمسِ أصيله	حذرَ المغيبِ بألفِ شمسِ صباحِ!

والسؤال الذي يوجَّه للخوري، أيملك شمسَ الصباح حتى يجعلها فداء شمس الأصيل؟ لقد كان يملكها قطعاً في صباه، فهل ذكر حينئذٍ شمسَ الأصيل مرةً واحدة؟ إنه كان يستعيذ منها، وهو يتشبَّث بها الآن فراراً مما ينتظر؟ وما عنه محيد. وهبه تشبَّث بالصبابة، فمَن من الحِسان تُجاريه؟.

٦٢ ـ أرقّ المساجلات

من أرقِّ المساجلات الأدبية النبيلة التي قرأتها، ما دار حول الشاعرة المصرية (منيرة توفيق) رحمها الله، وقد كانت متواضعة، تكتب الشعر لنفسها، ولا تنشر منه شيئاً، إلا إذا دعت ضرورةٌ ملزمة، وهذا يدلُّ على أنَّ روح الشاعرية لديها ذات اكتفاءٍ تام برضاها النفسي، حيث تحتقر مظاهرَ الطبل الأجوف، والدعاية الكاذبة.

ومن حديثها أنَّ زوجها المرموق، وقد كان يحتلُّ منصباً لامعاً في وزارة الداخلية، عزم على طلاقها لأسبابٍ لا تعرفها، ولا يهمّنا أن نتلمَّس أسبابها، فأسباب الخلاف ميسورةٌ لمن يُدقِّق ولا يتساهل، وقد هالها ما اعتزمه من فراق، فكتبتْ قصيدةً ممتازة، نشرتْها بمجلة (الرسالة) الغراء في السنة الأولى، تستعطف بها قلبَ الزوج الجامح، وتقول في رقَّةٍ وعتاب من أبياتٍ كثيرة:

مـــا لـــي أراكَ مُعـــانِـــدي ومُعـــذِّبـــي فـــي غيـــر طـــائِـــلْ
لـــم تـــرْعَ لـــي صِلـــةَ الهـــوى وهجـــرتَنـــي، والبحـــرُ قـــاتـــلْ
هـــل رُمـــتَ أن تَغْـــدُو طليقـــاً لا ينـــالُ هـــواكَ حـــائـــلْ
أو رُمـــتَ غيـــري زوجـــةً - يـــا لـــلأســـى - فيمـــا تحـــاولْ
إن تَبْـــغِ مـــالاً فـــالـــذي أذريـــهِ أنَّ المـــالَ زائـــلْ
أو تبـــغِ حُسنـــاً، فـــالمحـــاســـن جمَّـــةٌ عنـــدي مـــواثـــلْ
أو تبـــغِ آدابـــاً فـــأشعـــا ري علـــى أدبـــي دلائـــلْ
أنـــا مـــا حفظـــتُ ســـوى الـــوفاءِ، ولا ادَّخرتُ سوى الفضائلْ
فجـــزيتَنـــي شـــرَّ الجـــزاءِ وكنـــتَ فيـــه غيـــرَ عـــادلْ

وما كادت القصيدةُ تُذاع، حتى جاذبتْها أصداءٌ شتّى على صفحات (الرسالة) و(الصباح) وغيرهما، ويطول القول لو عرضنا كلَّ ما قيل، ولكننا نكتفي ببعض ما يشير إلى هذا التجاذب الوجداني، فقد كتبت الشاعرة (خيرية أحمد) تقول من قصيدةٍ جيدة:

عجبـــي لـــزوجـــكِ كيـــف غيَّـــر عهـــده بعـــد التـــواصـــلْ
هـــل للخـــلال البـــاهـــرات وللفضـــائـــل مـــن مُمـــاثـــلْ
ولـــربَّ رأيٍ قـــد رآه الـــزوجُ حقّـــاً وهـــو خـــائـــلْ
وتعـــدُّدُ الـــزوجـــات فـــي الأســـرات مهـــزلـــةُ المهـــازلْ
وأخـــالُ أنـــكِ تحلميـــنَ وأنَّ هـــذا الحلـــمَ زائـــلْ
سيعـــودُ زوجـــكِ للـــوئـــامِ وليـــس عنـــد الخلـــفِ طـــائـــلْ

أما الشاعرة (ناهد فهمي) فقد اتجهت إلى أختها مواسيةً في حنانٍ حين قالت في رقة:

إنـــي أرى بيـــن السطـــور دمـــوعَ قلبـــكِ كـــالجـــداولْ
تجـــري بـــألحـــانِ الأســـى وخـــريـــرُهـــا يُشجـــي العَقـــائـــلْ
لا تيـــأســـي، فلـــربَّمـــا عـــاد العقـــوقُ إلـــى التـــواصـــلْ

كـم مـن ضحـايـا للـرجـالِ وكـم نعـانـي مـن نـوازلْ

وشارك الرجلُ في المواساة، فقال الأستاذ (محمد جاد الرب) مخاطباً الزوجة المهجورة:

لـكِ مـن كمـالـكِ غُنيـةٌ عـن قـاطـع وُدّاً وواصـلْ
لا تعجبـي مـن مَيْلِـهِ فـالـدَّهـرُ - يـا أُختـاهُ - مـائـلْ
إن الأُلَـى شغلـوه عنـكِ بيـن سـافلـةٍ وسـافـلْ
كـلُّ السعـادةِ فـي الحيـاةِ عقيلـةٌ فـي بيـتِ عـاقـلْ

وكان لهذه المسجلات - ولغيرها مما لم أُشر إليه - دويٌّ في نفس الزوج، فقد راجع نفسَه، وعاد إلى الحسنى، وجاءت البشرى في قصيدةٍ نشرتْها السيدة (منيرة توفيق) على صفحات (الرسالة) تقول فيها:

قـد عـاد لـي زوجـي الكـر يـمُ وجـاء يقـرعُ سـنَّ نـادمْ
مِـن بعـد مـا قـدَّرتُ أنَّ رجـوعَـه أضغـاثُ حـالـمْ
هـي غضبـةٌ شعـريـةٌ أدَّت إلـى حُسـن الخـواتـمْ
فعلـتْ بـه مـا ليـس تفعلُـه العـزائـمُ والتمـائـمْ

ويا ليت مجال المنهل كان يسمح بنشر كل ما قيل..

* * *

عجائب الدنيا

٦٣ ـ مقدمة

كتب إليّ قارىءٌ فاضل من قرّاء (المنهل) يسألني عن (غوطة دمشق) وهل هي من عجائب الدنيا السبع؟ ولا أدري كيف اهتدى القارئ الكريم إلى اسمي وعنواني؟ ولعلَّ الحاسة السادسة أمرٌ واقع لدى الملهَمين. وأحبُّ أن أقول: إن عجائب الدنيا السبع كانت عجائبَ حقاً من آلاف السنين، أما الآن فلا عجائب بعد أن صعد الإنسان إلى القمر، وبعد أن رأى الصين واليابان وأمريكة وأقصى بقاع الأرض وهو في مصر أو جدّة، ينتقل بين محطات التليفزيون بإصبعٍ واحدة! والعجائبُ السبع القديمة هي: هرم خوفو الأكبر بمصر، وحدائقُ بابل المعلّقة في العراق، وتمثال زيوس باليونان، ومعبد ديانة في تركية، وقبر الملك موسولوس في تركية أيضاً، وتمثال أبولو في جزيرة رودس، ومنارة الإسكندرية بمصر. والذي تحدَّث عن هذه العجائب، وحصرها في هذه السبعة عالمٌ بيزنطيٌّ قديم اسمه (فيلون) اشتُهر برحلاته في العالم القديم، وزار أكثر بقاع الأرض، فجعل هذه الأشياء السبعة عجائبَ الدنيا التي رأتْها عيناه! وقد عاش قبلَ ميلاد المسيح عليه السلام بمئةٍ وخمسين عاماً، وألَّف كتاباً عن هذه العجائب طار ذكره، وجعلها حديثَ الناس! ولو رجع فيلون إلينا اليوم، وركب الطائرة، ليرى هذه العجائب في يومٍ أو يومين! لمزَّق كتابَه، وتلا قول القائل:

ولكنها الأيامُ قد صِرْنَ كلُّها   عجائبَ ليس فيها عجائبُ

وقد أعود بالتفصيل إلى ذكر خُلاصاتٍ عن هذه العجائب في عددٍ مقبل.

أما (غوطة دمشق) فليست من العجائب السبع، ولكنَّ القدماء من جغرافيي العرب ذكروا أنَّ متنزَّهات الدنيا أربعة منها غوطة دمشق، ومعها صغدُ سمرقند،

وشِعب بوّان، ونهر الأُبلّة!

وما قلناه عن تقدّم الزمن بعجائب الدنيا القديمة نقوله الآن عن متنزَّهات الدنيا، إذ وُجد من الحدائق ذات الأنهار والشجر والطير والزهر ما لا يُذكر إلى جواره نهرُ الأُبلّة وصغدُ سمرقند وشِعب بوّان! وأدعُ الغوطة، لأني أحبُّ حديثها وقد وصفها شوقي بما حبّبها إليّ، وسأحاول أن أُلمّ بحديث هذه المتنزَّهات إرضاءً لرغبة السائل الكريم.

٦٤ ـ غوطة دمشق

يقول الأديب الكبير أبو بكر الخوارزمي: لقد زرتُ متنزَّهات الدنيا الأربع، فكانت غوطة دمشق أطيبها وأحسنها، ولم أقدر على أن أميّز بين رياضها المزخرفة بالأنوار والأزهار، وغدرانها الممتلئة بطيور الماء! أي أنَّ الغوطة تخلب رائيها بالشجر والماء معاً، وكانت في القديم تشمل عدّة قرى، متشابكة الشجر، بحيث يقطعها السائر، وهو في كنٍّ ظليل من فروع الدوح، يهبُّ عليه النسيم فاتراً عليلاً، وقد يتساقط عليه الثمر الناضج فيأكل دون حساب.

وفي تحديدها يقول (ياقوت): إنَّ استدارتَها تبلغ ثمانية عشر ميلاً، تحيط بها جبالٌ عالية من جميع جهاتها، ولا سيّما الشمال، ومياهُها خارجة من تلك الجبال. وتمتدّ إلى الغوطة في عدّة أنهار، فتسقي بساتينها وربوعها وزروعها، ويُصبُّ الباقي في بحيرةٍ واسعة.

والغوطةُ كلُّها أشجارٌ وأنهار متّصلة، قلَّ أن يكون بها مزارعُ للمستغلّات، وهي بالإجماع أنزهُ بلاد الله وأحسنُها منظراً.

وللأستاذ الكبير محمد كرد علي كتابٌ قيّم عن (غوطة دمشق) أما الأستاذ النابغة علي الطنطاوي فقد كتب عن الغوطة ما لا يستطيع الزمن أن يعفي عليه، إذ بلغ القمّةَ فيما قال.

٦٥ ـ نهر الأبلّة

وأما (نهر الأُ بلَّة) فهو بالبصرة، وحواليه ميادينُ النخل والأترجُّ والنارنج وسائر الأشجار، وعلى ضفافه من أصناف الزروع وأنواع الأزهار ما لا يُنتظَر أن يُرى أحسنَ منه، وعليها من القصور المتناظرة، والأبنية الرائعة، ما تحارُ فيه العيون، وتهشّ له النفوس، وقد قال ابن عُيينة المهلبي في بعض قصائده:

ويــا حبّــذا نهــرُ الأُبُلَّــةِ منظــراً ... إذا مــدَّ فــي أثنــائه المــاءُ أو جَــزَرْ

وينقل (ياقوت) عن خالد بن صفوان قوله: «ما رأيتُ أرضاً مثل الأُبُلَّـة مسافةً، ولا أغذى نُطفةً، ولا أوطأ مطيّة، ولا أربحَ لتاجرٍ، ولا أخفى لعائذ».

ومن الطرف التي تُروى عن الأبلة، أنَّ الشاعر الشهير بكر بن النطّاح الحنفي مدحَ أبا دُلَف العجلي بقصيدةٍ، فأثابه عليها عشرة آلاف درهم، ثم جاء بعد مدّة، فمدحه بقصيدةٍ قال فيها:

بـك ابتعـتُ فـي نهـر الأُبُلَّـة ضيعـةً ... عليهـا قُصَيـرٌ بـالـرخـامِ مَشيْـدُ
إلـى جنبهـا أخـتٌ لهـا يَعْـرِضـونَهـا ... وعنـدَكَ مـالٌ للهبـاتِ عتيـدُ

فقال أبو دلف: وكم ثمن هذه الضيعة الأخرى؟ فقال: عشرة آلاف درهم، فأمر أن تُدفع إليه، فلمّا قبضها قال له: اسمعْ مني يا بكر، إنَّ إلى جنب كلِّ ضيعة، ضيعةً أخرى، حتى الصين، وإلى ما لا نهاية له، فإياكَ أن تجيئني غداً، وتقولَ: إلى جنب هذه الضيعة ضيعةٌ أخرى، فهذا ما لا يفنى.

٦٦ ـ صغد سمرقند

(الصغدُ) كورةٌ عظيمة عاصمتها سمرقند، وهي قرى متصلة الأشجار والبساتين، تبدأ من سمرقند، وتنتهي إلى بخارى، ولا تكاد تُرى قريةٌ من قرى الصغد لما يلتفّ بها من الشجر العالي المشتبك الغصون.

والصُّغد اسمٌ للنهر الذي يروي هذه القرى، وتُسقى منه الحدائق والزروع،

وقد وازن (الأصطخري) الجغرافي بين غوطة دمشق والأبلة وصغد سمرقند، فمال إلى تفضيل الصغد، لأنَّ الغوطة التي هي أنزهُ الجميع، تتخلَّلُها قممٌ خالية من الشجر والخضرة الزاهية، وأكملُ المتنزَّهات ما اتصلتْ خضرتُه دون انقطاع.

أما نهر الأبلة فليس به ولا بنواحيه مكانٌ عالٍ يصعد إليه الناظر، ويتأمَّل ما حوله في لذَّةٍ وشغف.

وأما صغد سمرقند فإذا ارتفعتَ إلى إحدى قممه لم ترَ أيَّ فراغ، فكلُّ المكان خضرةٌ زاهرة، تزيد العينَ نوراً وصقلاً وبهاءً! وقد يسير الماشي مدى ثمانية أيام، دون أن ينقطع ماحوله من الخميل الناضر، والشجر الملتفّ، والغدران والترع تتدفَّق بالماء عن يمينٍ وشمال، ويهبُّ عليها النسيم محمَّلاً بأريج الزهر، فما تشمُّ إلا فاتناً، وما ترى إلا باهراً، وكل قريةٍ تلوح في هذه الخضرة الزاهية، وكأنها ديباجٌ أخضر، وقد طُرِّزتْ بما حولها من العيون والينابيع، ومما قاله أبو يعقوب الحزميّ مفتخراً بالصغد:

أبا الصغد ضَيْرٌ أن تُعيِّرني جُمل	سِفاهاً، ومن أخلاقِ جارتي الجَهْلُ
همو فاعلمي أصلي الذي منه منبتي	وكلُّ نضيرٍ في الغصون له أصلُ

٦٧ ـ شعب بوّان

لقد خلَّد المتنبي شعبَ بوّان بقصيدته الرنانة التي يقول فيها:

مغاني الشِّعبِ طيباً في المغاني	بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها	غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
ملاعبُ جِنَّةٍ لو سار فيها	سليمان لسارَ بترجمانِ
غدونا تنفضُ الأغصانُ فيها	على أعرافها مثل الجُمانِ
فسرتُ وقد حجبنَ الشمسَ عني	وجئنَ من الضياءِ بما كفاني
لها ثمرٌ تُشير إليك منه	بأشربةٍ وقفنَ بلا أوانِ
وأمواهٌ يصلُّ بها حصاها	صليلَ الحلْي في أيدي الغواني

إذا غنَّى الحمامُ الوُرقُ فيها	أجابتْه أغانيُّ القيانِ
وقد يتقاربُ الوصفانِ جداً	ومَوصوفاهما متباعدانِ
يقولُ بشعبِ بوّانٍ حصاني:	أعَنْ هذا يُسارُ إلى الطِّعانِ؟

وعلى مدى ستةٍ وعشرين فرسخاً، ينتقل السائر بين جنانٍ خُضر، وأفنانٍ زُهْر، ومياهٍ متدفقة، وزهور متألقة، وطيور تصدح، وأنعام تمرح، وكانت بعض أشجار هذا الشِّعب من الضخامة بحيث يجلس تحت الواحدة منها جماعةٌ من الفتيان، يطربون ويتناشدون، ويُعدُّون لكلِّ مجلسٍ شجرةً خاصة، تكون موضعَ السمر المترقَّب.

وقد نقل (ياقوت) عن بعض الأدباء أنه قرأ على شجرةٍ من أشجار الدّلب، التي تكثُر بشعب بوّان هذه الأبيات محفورةً على الجذع الممتدّ:

متى تبغَني في شِعْب بوّان تلقني	لدى العَين مشدودَ الركابِ إلى الدَّلْبِ
وأُعطي وإخواني الفتوّةَ حقَّها	بما شئتَ من جدٍّ، وما شئتَ من لَعْبِ
يُديرُ علينا الكأسَ مَنْ لو رأيتَه	بعينيك ما لمتَ المحبَّ على الحبِّ

ويظهر أنَّ ضخامة الأشجار، قد فسحت مجال التذكارات الشعرية التي يسجِّلها الزائرون في هذه الجنان الوارفة، وقد يأتي شاعرٌ إلى شعب بوّان، فيتذكر مسقطَ رأسه، ويهتمُّ بتسجيل خواطره الملتاعة، فتصبح أثراً فنيّاً، يرويه الأدباء، فقد حكى المبرِّدُ أنه قرأ على شجرةٍ من أشجار الشِّعب قولَ القائل:

إذا أشرفَ المحزونُ من رأسِ تَلْعَةٍ	على شعب بوّانَ استراحَ من الكربِ
وألهاهُ بطنٌ كالحريرة مسُّه	ومطّردٌ يجري من البارد العذبِ
وطيبُ ثمارٍ في رياضٍ أريضةٍ	على قُرْبِ أغصانٍ جناها على قُرْبِ
فباللهِ يا ريحَ الجنوبِ تحمَّلي	إلى أهلِ بغدادَ سلامَ فتًى صبِّ

وفي أسفل ذلك مكتوبٌ آخر يقول فيه الشاعر:

ليتَ شعري عن الذين تركنا	خلفَنا بالعراق هل يذكرونا؟
أم لعلَّ المدى تطاولَ حتى	قدمَ العهدُ بعدَنا فنسونا

وقد قرأتُ من عشرين عاماً كتاباً لأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ـ تحت عنوان (أدب الغرباء) حقَّقه الباحث الكبير الدكتور صلاح الدين المنجد، وهو يجمع آثاراً شعرية ونثرية، كتبها أصحابها الغرباء على الأشجار والقبور والقصور والجدران تذكاراً لزورات سريعة، ألهمتْهم هذه الخواطر، ولا أذكر إن كان بينها هذان النصّان الشعريان اللذان أشرتُ إليهما نقلاً عن (معجم البلدان) ولكني أشير إلى هذا الكتاب النفيس، مؤكِّداً أنه سبق أدباءَ الغرب الذين يهتمون بجمع هذه المتفرِّقات، ويعدُّونها من أحسن ما يُروى ويُذاع.

* * *

الفخر بين الشعر والنثر

٦٨ ـ مقدمة

من مزايا الشعر أنَّ الشاعر يفخر كاذباً دون أن يلومه القارئ، إلا إذا كان الفخرُ ضرباً من الغلوّ المستحيل، أما الناثر ـ كاتباً أو عالماً ـ فيُؤاخَذ على فخره، وإن كان في موضعه، لأنَّ التواضع أولى وأجدر، وقد كان الفخرُ في الجاهلية اعتزازاً بالقبيلة لا بالشخص، وهو كذلك في أكثر متناقضات الفرزدق وجرير، ثم أصبح ذاتيّاً يلجأ إليه بعض الشعراء تنفيساً عن حرمان، أو تعويضاً عن نقص، وليس كلُّ الفاخرين من هؤلاء في مستوًى واحد، فمنهم من يُكرِّر ويسفُّ، دون أن يستعين بخيالٍ تصويري يغفر ما يجنح إليه من شطط، ومنهم من يستعينُ بقدرته الفنية على الإبداع، فيأتي بما يروق ويطيب، وعهدُ الشباب مجالُ الفخر المستطيل، وفيه قال أبو العلاء المعري:

وإنـي وإن كنـتُ الأخيـرَ زمـانـه لآتٍ بمـا لـم تستطعْـهُ الأوائـلُ

ثم جاء زمان الكهولة فتطامنَ واطمأنّ، وتواضعَ كثيراً حين قال:

دُعيـتُ أبـا العـلاءِ وذاكَ مَيْـنٌ ولكـنَّ الصحيـحَ أبـو النـزولِ

٦٩ ـ ابن سناء الملك

ومن الفخر الكاذب الذي لا يطيقه السامع مهما تجلَّد، ما افتخر به ابن سناء الملك الشاعر الأيوبي الشهير، وقد رعاه القاضي الفاضل، فمهَّد له سبيلَ الظهور، ولولاه لأبطأ به الزمن عن الذيوع، وقد مدحَه بأكثر من أربعين قصيدة، كما مدحَ رجال الدولة متطلِّعاً راغباً، بل إنه مدح غريمَ القاضي الفاضل، وبالغَ في مدحه بعد موت القاضي، ليُدرك لديه ما كان يحظى به من قبل في عهد أستاذه،

ولعلّه خاف كيدَه، فاضطرَّ إلى التزلّف، متنكّراً لعهده الأول، هذا الشاعر المادح لا يجد حرجاً في أن يقول:

ولـو مدَّ نحوي حادثُ الدهرِ طرفَه ... لحـدَّثـتُ نفسـي أن أمـدَّ لـه يـدا

وفـرطُ احتقـاري لـلأنـامِ لأنـنـي ... أرى كلَّ عارٍ من حِليَ سؤددي سُدى

وأظمـأُ إن أبـدى لـيَ المـاءُ مِنَّـةً ... ولـو كـان لـي نهـرُ المجـرَّةِ مَوْرِدا

ولـو كـان إدراكُ الهـدى بتـذلُّـلٍ ... رأيـتُ الهدى ألاّ أميلَ إلـى الهـدى

وإنـك عبـدي يـا زمـانُ وإنـنـي ... على الكرهِ مني أن أُرى لك سيِّدا

ولـو علمتْ زهـرُ النجـومِ مكـانتـي ... لخرَّتْ جميعاً نحـو وجهـي سُجَّدا

أرى الخلـقَ دونـي إذ أرانـي فـوقهم ... ذكـاءً وعلمـاً واعتـلاءً وسـؤدداً

ولعمري لقد افتخر فكشف عن غرورٍ كاذب! فكأنه قال هجاءً لا افتخاراً.. وأين تذلّله في مدائحه المتوسِّلة، بل المتسوِّلة؟.

٧٠ ـ أديب مغرور

هذا عن الشعر، أما غرور الأدباء والعلماء فلا يطاق، وقد حفظتْ لنا كتب التراجم أمثلةً من هذا الغرور، لا نـدري كيف وقعت، وقـد يتطرَّق الشـكّ إلى صحتها. ولكنَّ مترجماً كياقوت الذي أنقل عنه، لم يكن معروفاً بالتزيُّد، وليس من المعقول أن يمدحَ الكثيرين بالتواضع ولين الجانب فيُصدَّق، ثم يرمي القلَّةَ بالغرور والإدّعاء فيُكذَّب، إذ لو كان التزيُّد مذهبَه ما ركن إليه الباحثون، وقد قابلَ ياقوت أحد هؤلاء الأدعياء، وكان ذا مقام عالٍ بين تلاميذه في (آمد)، فنقل عنه ما يدهِش، لأنَّ (شميم الحلّي) وهو هذا الذي نعنيه، قد قابلَ ياقوتاً بكبرياء التغطرس، وقد سأله ياقوت كعهده بمن يلقاهم عن مؤلفاته فقال شميم:

«إنَّ تصانيفي في الأدب كثيرة، وذلك أنَّ الأوائل جمعوا أقوال غيرهم ورتَّبوها، أما أنا فكل ما عندي من نتاج أفكاري، وكنتُ كلَّما رأيتُ الناس مُجمعين على استحسـان كتابٍ عارضتُـه، فمِن ذلك أنَّ أبـا تمام جمع أشـعار العرب في حماسته، وأنا جمعتُ حماسةً من شعري وحدي (ثم شنَّع على أبي تمام وأخذ يسبُّه)

ورأيتُ الناس يُجمعون على فضل أبي نواس في الخمْريات فصنعتُ خمريات، لو رآها أبو نواس لاستحيا! كما أُعجب القوم بخُطب ابن نُباتة فدحضتُها بخطبٍ أخملتْ خطبَ ابن نباتة! ثم تلا شعراً ركيكاً ذكره ياقوت، فقال له مجاملاً: «أحسنت» فصاح في وجهه: ما عندك غير الاستحسان! قلت: فماذا أصنع؟ قال: تقوم وترقص، لقد ابتليتُ ببهائمَ لا يفرِّقون بين الدرِّ والبعر، والياقوت والحجر.

قال ياقوت: ثم سألتُه عمّن تقدَّم من العلماء، فلم يحسن الثناءَ على أحد، فلما ذكرتُ له المعري نهرني، وقال: مَن ذلك الكلب الأعمى، الذي يُذكر في مجلسي، كم تسيء الأدب بين يديّ؟! قلت يا مولاي: ما أراك ترضى عن أحدٍ فصاح: كيف أرضى عنهم، وليس لهم ما يُرضيني. قلت: فما فيهم قطّ أحدٌ جاء بما يرضيك؟ قال: لا أعلمُه إلا أن يكون المتنبي في مديحه خاصّة، وابن نباتة في خطبه، والحريري في مقاماته.

ثم خلَّط في الكلام فقال: ليس في الوجود إلا خالقان، واحدٌ في السماء وواحدٌ في الأرض، فالذي في السماء هو الله، والذي في الأرض هو أنا!.

وهذا القول يدل على أنَّ العقلَ كان غائباً دون نزاع، هذا وما نعرفه من شعر شميم وخطبه في درجةٍ هاوية من الركاكة والإسفاف.

٧١ـ ملك النحاة

يقول الأستاذ (عبد الخالق عمر): إنَّ ملك النحاة (أبا نزار الحسن بن أبي الحسن الصافي) من طراز (شميم الحلّي) وقد دفعني هذا القول إلى مراجعة تاريخه، فوجدتُه قد ذهب من الغرور كلَّ مذهب، وهو الذي أعطى نفسه لقب (ملك النحاة) وهو لقبٌ لم ينله سيبويه ولا ابن هشام.

ومن ظريف ما يُحكى عنه ـ هكذا قال ياقوت ـ أنَّ نور الدين زنكي الملك العظيم خلع عليه حلّةً سنيّة، فلبسها، ومضى إلى منزله، فرأى حلقةً عظيمة، وبها رجلٌ يلاعب تيساً، ويمرِّنه على إشاراتٍ تعجب المشاهدين، فلما وقف ملكُ النحاة في الحلقة، قال الرجل للتيس: هنا رجلٌ عظيم من أكمل الناس، وأعلم

الناس، وأكرم الناس، فأَرني إياه، فشقَّ التيسُ الحلقة، ومضى حتى وصل إلى ملك النحاة، ووضع يده عليه، فلم يتمالك ملك النحاة أن خلع حلّة نور الدين ووهبها لصاحب التيس، فبلغ ذلك الملك المجاهد فاستدعاه قائلاً: لقد استخففتَ بحلّتنا حتى وهبتَها لمن لا يستحق، فقال ملك النحاة: عُذري واضحٌ يا مولانا، لقد مكثتُ في هذه المدينة زمناً طويلاً، وبها زيادةٌ على مئة ألف تيس، فما عرفَ قدري غير هذا التيس، فجازيتُه على ذلك، وكان نور الدين حليماً رحيماً فضحك وآثر السكوت.

كما كان ملك النحاة يستخفّ بمعاصريه من العلماء، ويقبِّح آراء السابقين، وكان إذا ذُكر أحدهم قال: كلبٌ من الكلاب! فقال له أحد السامعين في حلقته: إذن أنت ملك الكلاب لا ملك النحاة، فاستشاط غضباً، وقال: أخرجوا هذا الفضوليّ!.

وله في النحو كتبٌ كثيرة منها: (المسائل العشر المتعبات في النحو إلى يوم الحشر).

٧٢ ـ في العصر الحديث

أبدع العلامة (أحمد تيمور) كلَّ الإبداع في ترجمة أديبٍ من أدباء عصره هو أحمد أبو الفرج الدمنهوري، وقد ذكر من طرائفه نوادرَ رائعةٍ أشير إلى بعضها موجِزاً، فأقول:

كان على قلّة إجادته في شعره مفتوناً به، مبالغاً في تقريظه وقت إنشاده، يمزج ذلك بإشاراتٍ وحركات تُستظرَف منه، ولا يكاد يقرّ لأحدٍ بالتقدُّم عليه في النظم، ولعمري لا أرى عبارةً تفي بوصفه، ووصف حركاته عند الإنشاد، وقيامه وقعوده والتفاته، واستدعائه الحاضرين إلى استماعه، فإنه كان إذا أراد إنشاد قصيدةٍ من نظمه، بدأ أولاً بتقريظها، ونبَّه الحاضرين إلى مواضع الإجادة فيها، فإذا ألقوا بسمعهم إليه، أنشد المطلع، وسكت هنيهةً كالمأخوذ من جودته، ثم التفتَ يمنةً ويسرةً مُستطلعاً خبيئةَ رأيهم فيه، واستحلَفَهم بالله وبأنبيائه: هل

طرقتْ آذانهم مثلـه في عمرهم، وهل تهيّأ لشـاعرٍ قبله ما تهيّأ له فيه من رشـاقة المبنى، وغرابة المعنى، وتناسب الشطرين.

ثم يمضي في البيتين والثلاثة، ويعود إلى الصمت والتفكُّر، ويقول: سبحان المانح! كم ترك الأولُ للآخر! وأمثال هذه الجمل التي اشتهرت عنه، وصارت من لوازمه.

ثم يمضي في الإنشاد حتى إذا مرَّ بجناسٍ أو تورية وثب من موضعه، وتمايل طرباً، وقال للحاضرين: اسمعوا من الفتى العربيّ اللعوب، تُفْ على المتنبي، أين له السلامة والسهولة؟

وهكذا حتى يُتمَّ القصيدة، فإن رأى من السـامعين استحسـاناً تمادى في غلوائـه، وأعجَب وأطرب، وربّما عارضه بعض من يحضر استجلاباً لطرائفه، واستئناساً بمحاورته، فتصدر عنه النوادر، ومحاسن الأجوبة الحاضرة.

يقول أحمد تيمور: «وكان أول اجتماعي به في مجلس أحد الأعيان، وأنا شابٌّ يافعٍ متعلّقٌ بالأدب وأهله، فرأيتُ عجباً، شيخاً قصيراً دميم الوجه، قد ذهبتْ إحدى عينيه، عليه جُبَّةٌ واسعة الأكمام، وقد جلس في زاويةٍ من المكان، يُملي إحدى قصائده، فكان منه من الوقوف عند كلِّ بيتٍ والإعجاب به، ما نبَّهني إليه.

ثم مرَّ ببيتٍ كانت قافيته (ومعضَّدا) فوثب من مكانه وقال: إنها توريةٌ باسم الخليفة المعتضد بالله، فلم يوافقه أحدٌ، فأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية، وأنها لم تتهيّأ له إلا بعد إعمال الفكر والرويّة، فضجر الكاتب ورمى الدرجَ من يده.

وادّعى مرةً أنه نال نصيباً من اللغة وافراً، بحيث أصبح لا يشذّ عنه شيءٌ من مفرداتها، وتمادى في هذه الدعاوى، وتبجّح بها في المجالس، وتصدّر للإجابة على كلِّ سـؤالٍ فيها، فتوالت عليه الأسـئلة، وهو يخبط خبْطَ عشواء لا يبالي.

وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له ألفاظاً يسألونه عنها، فيخترع لهم

معاني يجيب بها، وربَّما أحال تخرُّصاً على كتبٍ لغوية بعينها، ونظم له بعضهم بيتاً كبيت الخنفشار (مالاوجود له) وسأله عن معناه في جمعٍ كبير من الأدباء وهو:

وبِخرنقِ الأقيالِ عاثتْ فالتَثَتْ ورقاءُ تعترضُ الأكام بشيظم

فقال نعم: هذا بيتٌ لعنترة، ذكره صاحب الأغاني، وهو يصف حمامة، والخرنق شيءٌ يشبه نسج العنكبوت وليس به، يكون بين أغصان الأشجار، فيقول إنَّ هذه الحمامة عاثتْ بين الأقيال أي الأشجار الكبيرة، فاشتبكتْ قدماها بالخرنق، وهمّ بشرح الشيظم، فقطعتْه أصوات الضحك من جوانب المجلس».

هذا بعض ما جاء في مقال أحمد تيمور وهو من روائعه البارعة..

٧٣ـ زكي مبارك

كدتُ أذكر الدكتور زكي مبارك بين من يفتخرون في كلِّ مناسبةٍ بآثارهم، لولا أنَّ الدكتور مبارك كان مُجيداً حقّاً، وفي مؤلفاته ومقالاته ثروةٌ غالية، هي الآن بعض التراث الأدبي الحفيل، ويخيَّل إليَّ أنَّ إعجابَه المتواصل بنبوغه، وحديثَه المتكرر عن مؤلفاته صدًى لشعورٍ حزين نشأ من إهماله بالنسبة لقرنائه، فقد نال أعلى الدرجات العلمية شرقاً وغرباً، وسارت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية بمقالاته الأدبية، وتحقيقاته العلمية، وقصائده الشعرية! ثم أُبعِد إبعاداً عن التعليم الجامعي، وكان مناطَ أمله، ومعقد رجائه، ومقدِّماتُ كتبه تتحدَّث بإفاضةٍ عن مواهبه، مع موازناتٍ يُقيمُها بينه وبين نظرائه من المعاصرين، لترجح كفته عليهم جميعاً! وهو واللهِ معذورٌ معذور...

* * *

من عالم الحيوان

٧٤ ـ نص قرآني

يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ومَنْطوقُ هذا القول الكريم يدلُّ على أنَّ جماعات الحيوان أممٌ يربط آحادَها رباطٌ اجتماعيٌّ متين، وليس الحيوان وحدَه، بل الحشرات أيضاً كالنمل والنحل، فإنها تعيش مجتمعةً متساندة، وكأنَّ كلَّ فريقٍ منها قريةٌ إنسانية، تخضع لنظامٍ مدني، يُعاقَب من يخرج عليه، ولها من أدوات التفاهم ما تقضي به جميع حاجاتها في يُسْرٍ هيّن، ولا يُستغرَب بعد ذلك أن يكون للطير مَنْطِقٌ فإننا نعرف قول الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وقوله عزّ وجل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، وهو قولٌ فهمه نبيُّ الله حقَّ الفهم، فتبسَّم ضاحكاً من قولها، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ١٥].

٧٥ ـ نبدأ بالجاحظ

وللعلماء شرقاً وغرباً، وقديماً وحديثاً، ما يؤكد هذه المقررات العلمية، ويؤكد أنَّ أمماً أخرى غير الإنسان لها مملكةٌ وقادة ورجال وعبيد، يقول الجاحظ في كتاب (الحيوان):

وقد علمنا أنَّ الذّرة تدَّخِر للشتاء في الصيف، وتتقدَّم في حال المهلة، ولا تضيّع إمكان الحزم، ثم يبلغ تفقّدها، وصحة تمييزها، والنظر في عواقب

أمرها، أنها تخاف على الحبوب التي ادّخرتْها للشتاء أن تتعفَّن وتُسوِّس في بطن الأرض، فتخرجها إلى ظهرها، لنشرها، وتعيد إليها جُفوفها، ويضربها النسيم، فينفي عنها الفساد، فإن كان مكانها ندياً، وخافت أن تُنْبِت الحبّة نقرتْ موضع القطمير من وسطها، لعلمها أنها من ذلك الموضع تُنبت، وربما فلقت الحبةَ نصفين، فأما حبة الكزبرة فإنها تفلقها أرباعاً، لأنَّ أنصاف حبّ الكزبرة تُنبت من بين جميع الحبوب، فهي من هذا الوجه مجاوزةٌ لفطنة جميع الحيوان، حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثيرٍ من الناس.

ولها مع خفَّة وزنها، ولطافة شخصها في الشمّ والاسترواح ما ليس لشيء، وربما أكل الإنسان الجرادة، أو بعض ما يشبه الجرادة، فيسقط من يده الواحدةَ أو صدرَها، وليس يرى بقُربه ذرَّةً، ولا له عهدٌ في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تُقبل ذرةٌ قاصدةً إلى تلك الجرادة، فترومها، وتحاول نقلَها وجرَّها إلى جُحرها.

فإذا أعجزتْها بعد أن تُبلي عذراً، مضت إلى جحرها راجعة، ثم أقبلتْ وخلفها كالخيط الأسود الممدود، حتى يتعاونَّ جميعاً عليها ويحملنها، فاعجبْ لصِدق الشمّ لما لم يشمّه الإنسان الجائع، ثم انظر إلى بُعد الهمّة والجرأة على محاولة نقل شيءٍ في وزن جسمها مئة مرة، وأكثر من مئة مرة، بل أضعاف أضعاف المئة، وليس شيءٌ من الحيوان يقوى على حمل ما يكون أضعاف وزنه مراراً غيرها.

٧٦ ـ من حيل النمل

كتب أحد الضباط الأمريكيين في مذكراته يقول بعد أن عاد إلى موطنه: «وقد أقبل علينا العيد، ونحن في غربتنا البعيدة، فأرسل لنا الأهلُ والأصدقاء هدايا العيد من الحلوى، والأطعمة السكرية، ولكني خفتُ أن يهجم النمل عليها وهو منتشرٌ في هذا المكان، فخطر لي أن أضع الحلوى في صندوقٍ مُحكم الإغلاق، فوق عمودٍ قصير، يقوم وسطَ إناءٍ كبير مملوء بالماء، فلا يستطيع النمل حينئذٍ أن يصل إلى الصندوق، وبالغتُ في الاستعداد، فطوَّقتُ إناء الماء من

الخارج بحزام عريض لزج، إذا لمسَه النملُ اشتبك فيه، ولم يستطع الفكاك.

وقمتُ برحلةٍ قرابة يومين، وعدتُ إلى منزلي، لأجد النملَ قد غزا الحلوى بـرّاً وبحراً وجوّاً، فقد وصلتْ طلائعـه إلى الحزام الأول المحيـط بالماء، ولـم تستطع الخلاص، ولاقتْ مصرعها وظلّت كامنةً به، ولكنَّ جموع النمل اتخذت من أجسام القتلى جسراً طويلاً سارت فوقه إلى الناحية الأخرى، ثم واصلتْ سيرها إلى الماء، فلم تستطع عبوره، فلم تجد بدّاً من أن ترجعَ إلى الأرض، لتحمل في أفواهها من الهباء والقشّ فترميه فوق سطح الماء، وتصنع منه قنطرةً تمرّ فوقها إلى العمود القائم في الوسط، وقد نجحتْ فيما حـاولت، فصادفَهـا الشريط اللزج المحيط به، ففعلتْ به ما فعلتْ بنظيره الأول واتخذتْ من أجسام القتلى جسراً إلى غايتها المنشودة.

وأغربُ من هذا أنها لم تقتصر في إدراك غايتها على الخطّة السابقة وحدها، بل أعدَّتْ خطةً أخرى تسير مع هذه جنباً إلى جنب، فأرسلتْ كتائبَ منها تسلَّقتْ الخيمةَ من الداخل، وواصلتْ الصعود حتى بلغت السقف وصارت منه في موقعٍ رأسيّ فوق الصندوق، وشرعتْ ترتمي على الصندوق نملةً نملةً لا تُخطئ الهدف، ولا تنحرف عنه، ونجحت في هذه كما نجحت في تلك.

٧٧ ـ طرفة عجيبة

ذكر اللورد أڤبري في كتابه (محاسن الطبيعة وعجائب الكون) كثيراً مما شاهده من غرائب النمل، ومما قاله في هذا المجال:

لا تعدمُ الملكة من العَمَلة محبّة البنين، وإخلاص الرعية، وقد اتفق لي إذ كنتُ أنقل بعض النمـال من مكـانٍ إلى مكان أن قتلـتُ الملكةَ بيدي، فأسـفتُ وحزنت، ثم ألقيتُ جثّتها وسـط العمال من النمل، فعرفـنَ لها حقَّ الإجلال، واحتملنها إلى بيتٍ جديد، حيث لزمنها عدّة أسابيع كما يلزم الأهلُ من الإنس فـراش المريض العزيز، كأنهنَّ حسـبْنَها مريضةً يُرجى لها البرءُ بعد حين، فلمّا تحقَّقنَ موتَها اجتمعنَ للبكاء حولها.

ولـك أن تعجب حين تعلم أنَّ عدد نمل القرية الواحدة يبلغ خمسمئة ألف أو أكثر، ومحالٌ أن تختصم نملتان من جماعةٍ واحدة، كأنّ للوطن حقوقاً خاصة على ساكنيه عند النمل، فإذا جاءت نملةٌ أو عدّة نمالٍ من قريةٍ أخرى فلا بدَّ أن يحدث الصدام العنيف صوناً لكرامة الوطن من العدوّ المغير، وقد أردتُ أن أقوم بتجربةٍ شخصية، فقسَّمتُ قرية النمل إلى قسمين منفصلين، وأبعدتُهما قرابة تسعة أشهر، ثم جمعتهما معاً، فرأيتُ النمل في غاية الوفاق والوئام، وكأنَّه يعرف أنَّ الجميع أصلاً من موطنٍ واحد، مع أني كنت أُدخل النملـة الغريبة قريـةً أخرى فلا تلبث أن تُطرد كما يُطرد الغريب المتطفّل.

ويعطف النمل على بعضه عطفاً شديداً، ويقال: إنَّ الذئاب إذا مرض أحدُها وعجز عن العيش أكلتْه الذئاب الصحيحة، وإلى ذلك أشار الشاعر العربي في قوله:

وكنتَ كَذئبِ السوءِ لمّا رأى دماً بصاحِبه يوماً أحالَ على الدمِ

ولكنّ النمـل لا يفعل هذا، فقد رأيـتُ إحدى نمالي مكسـورة الرجل، وأخواتها من حولها يُطعمنها، ويعتنين بها، وظللْنَ كذلك قرابة ثلاثة أشهر، وشاهدتُ نملةً سقيمة الأعضاء خرجتْ في طلب القوت، فهاجمتْها نملةٌ غريبة من قرى النمل المجاورة، ولكنَّ نملةً أخرى مواطنة قد خفَّتْ إلى نجدة صاحبتها، وأصابت النملة الغريبة بالسوء، ثم احتملت النملةَ الضعيفة، ورجعتْ بها حيث كانت مكسورة الرجل لا تقدر على السير.

٧٨ ـ معركة حربية

نقل صاحب (الطرائف الأدبية) هذه النادرة عن عالمٍ كبير من علماء الحشرات، صادف موقعةً حربية بين قريتين من قرى النمل، فوصف المعركة قائلاً ما ملخَّصه:

كنتُ بين قبيلتين عظيمتين من قبائل النمل تقتتلان في شراسة، وكان بينها

نحو مئة خطوة بالنسبة إلى المسكن الدائم، ولم أعلم السبب الذي أثار الفتنة، ثم رأيتُ الفريقين أخَذا في الزحف إلى أن التقى الجمعان في وسط المسافة، ورأيتُ خلف كلِّ جيشٍ عدداً مستعداً للمدد والمعونة، كما تفعل الجيوش الإنسانية، ثم حميَ الوطيس، والتقت الألوف بالألوف، وصار كلُّ فريقٍ ينتفع بما يصادفه من حجرٍ ومدرٍ وغيره ليتترّس به، والقومُ أقسام، ففريقٌ يضرب، وفريقٌ يحوز الغنيمة، ويضبط الأسرى التي تلوح عليها سيما الكآبة، ثم تغطّت الساحة بجثث القتلى.

وكان ابتداء القتال بينهما أن برزتْ نملتان، كلٌّ منهما للأخرى، فتماسكتا بالأرجل، وتصارعتا، ثم أتى لكلِّ نملةٍ مددٌ من فريقها، حتى صار الأوليان ـ مع ما انضمَ إليهما ـ أشبهَ بحبلٍ طويل يشدُّ أحدَ طرفيه إلى جهة، والآخر إلى الجهة المقابلة لها، كي يتغلّب أحد الخصمين فيشدُّ غريمَه إلى جهته، أو ينفصلا من غير أن يتغلّب أحد، ثم يُستأنف القتال صباحاً، فإذا جاء الليل انفصل الفريقان.

وباستقراء أحوال النمل عرفنا أنَّ النملَ المحارب لا يشتغل بغير الحرب، حتى إذا تمَّ له الظفر لجأ إلى الراحة، ويخدمُه ما يستحوذ عليه من الأرقّاء، وإذا رامَ الانتقال من مكانٍ إلى آخر نقلَه خدمُه من العبيد.

وامتحنَ أحدُ العلماء بعضَ النمل المحبّ للسيادة فعزل جماعةً منه عن خدمها، وأحضر لها طعاماً مما يتهالك النملُ في طلبه، فصدفتْ عنه، حتى مات أكثرُها جوعاً، ثم نقل إليها واحدةً من الإماء، فجعلتْ تخدمها وتغذّيها، فأكلتْ ما أحضرتْه لها، ولم تشأ أن تأكل هي بمجهودها، لأنها من طبقة السادة.

٧٩ ـ خرائب النمل

من النمل ما يسكن المزارع فيضرُّ بها ضرراً بليغاً، إذ يحفر فيها بيوتاً ومغاور، ويعمّقها حتى يبلغ الترابُ خمس عشرة قدماً، فتتلف المزرعة، ويضطرّ الزارع إلى إحراقها بما فيها ليفسدَ البيوت الداخلية للنمل.

ومن النمل نوعٌ يترك المزارع إلى المنازل، فيحتفر تحتها سراديب ـ ذلك قبل عهد البلاط ـ ويخرج أثناء الليل ليأكلَ الأثاث الخشبي وما في مستواه.

وقد روى بعض المشتغلين بدراسة النمل أنَّ فريقاً من هذا النوع المنزلي أكل سُلَّماً خشبياً بداخل المنزل في مدَّةٍ قدرها خمسة عشر يوماً، كما أنَّ الأثاث من كرسيّ وخِوان وقِمَطر لم يبقَ منه ما يصلح، والغريب أنك ترى هذه الأشياء هياكلَ في مجال بصرك، فإذا لمستَها بيدك صارت كالهباء المنثور.

وقد حكى الجاحظ أنَّ النمل في بعض الأيام قد كثُر في دروب بغداد، حتى ارتحل أهلُها منها، وخلوا له مساكنهم.

وفي مصر في سنة(١٩٣٦) كما روى الشيخ عبد الوهاب النجار في (قصص الأنبياء) نقلاً عن جريدة الجهاد أنَّ قرية (برسيق) التابعة لمركز أبي حمص بمديرية البحيرة، تقع على كومٍ قديم كانت به مقابر عتيقة، وتفشَّت فيها دويبةٌ صغيرة، وهي نوعٌ من النمل الأبيض، فتكاثرتْ بدرجةٍ مخيفة، وجعلت تلتهم كلَّ شيءٍ في مساكن القرية، ولم تُبقِ حتى على جدرانها وسقوفها ونوافذها، أما المحصولات الزراعية وآلات الزراعة والثياب فقد أصبحت هباءً، ومن الصعب على الأهالي مكافحتها، لأنها تعيش في أنفاقٍ غائرة تحت جدران المنازل، ولها قرًى في أغوار الأرض تحت المساكن، كما لها ملكاتٌ تبيض الواحدة منها بيضةً كلَّ ثانية، وقد ضجَّ السكان بالشكوى للمسؤولين، لأنَّ الحكومة وحدَها هي التي تستطيع مقاومة هذا الجيش الكثيف.

هذا والنملُ ـ كما يقول الدميري في (حياة الحيوان) ـ شديدُ الشره إلى الطعام، وفي أواخر حياته تنبتُ له أجنحةٌ، فيطير بها في الجو، ويصبح حينئذٍ طعاماً للعصافير، إذ تصيده حالةَ الطيران، وإلى هذا المعنى ألمع أبو العتاهية حين قال:

وإذا استوتْ للنملِ أجنحةٌ حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُه

وهو يحفر قريته بقوائمه، وهي ستّ، فإذا حفرها جعل لها تعاريج تعوق المطر حين ينزل، وربما بنى قريةً فوق قرية، مقدِّراً ذهابَ القرية العليا عند سقوط الغيث، فتكفي القرية الدنيا بما تجمع من القمح المخزون لغذائه، وفي قرى

النمل طرقٌ ودهاليز وغرف، وطبقاتٌ تعلو طبقات، حتى ليجوز أن يكون من النمل فريقٌ تخصَّص في البناء الهندسي، كما وُجد فريقٌ مجنَّدٌ للحروب!! أفلا يعدُّ ذلك كلّه مثالاً تطبيقياً بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

* * *

٨٠ ـ عاشق مريض

عرض عليَّ أحدُ الأصدقـاء قصيدةً غزلية ذات حنيـنٍ دافق، ليأخـذَ رأيي فيها. فقلت: إنها من جيد الشعر، وتدلُّ على تجربةٍ صادقة فلِمَنْ هي؟ فقال: إنَّ صاحبَها مريضٌ بمستشفى الأمراض العقلية، وقد نظمها وكثيراً من أمثالها في هذا المكان الحزين! فقلتُ: ولكنَّها شعرُ إنسانٍ عاقل ذي مقدرةٍ على تصوير الخوالج وتشريح الأحاسيس، فقال: يعود له عقله الفينةَ بعد الفينة. فيطلب الورقَ والقلم، وينظم هذه المقطوعات، وقد يستمرُّ شهوراً متطاولةً دون أن تصيبَه اللوثة. ولكنَّ أهلَه يُؤثرون بقاءَه في المستشفى، ولا مانع لدى إطبائها من أن يخرج، على أن تُراعى حالتُه في منزله، فيظلّ تحت المراقبة الدقيقة.

قلت: ولماذا يصرُّ أهله على ذلك؟ قال: إنَّ الشاعر الحزين ما يكاد يأتي إلى قريته حتى يهيج هائجه، وينطلق إلى منزل ليْلاه كالهائم المخبول، وهي شابّةٌ متزوجة من سواه، وقد يرقّ أهلُه، فيتركون له أن يطوفَ بالمنزل في منتصف الليل حين يهجع الناس، فلا يراه أحدٌ، لذلك آثر ذووه أن يبتعدَ في المستشفى تجنُّباً للحرج!.

ومن الغرائب أنه نظم قصيدةً ممتازة، وأعطاها لبعض زائريه، فتجرَّأ هذا الصفيق على أن ينشرها باسمه في صحيفةٍ سيَّارة، وقد علم العاشقُ فلم يغضب، وقـال: لقد رفَّهتُ عن نفسـي، وما يهمّني أن أكون شـاعراً عند الناس، ولكن عندها!.

قلت: وهل تقرأ ليْلاه شعره! قال: ـ للأسف ـ هي تكرهه، ولا تشعر نحوه بأدنى عاطفة، ولكنه مع علمه بهذه الحقيقـة يهيم بها، ويتحدَّث في شـعره عن لقاءاتٍ خيالية، لا أدري أأَوْحتْها إليه أحلامُ اليقظة، أم أضغاث الرقاد؟!.

قلَّبتُ كفّاً على كفٍّ آسفاً، ولم أستطع غير أن أقول: له الله من مسكين!.

٨١ ـ مريض ثان

أذكر أنَّ الأديب الكبير علي الطنطاوي تحدَّث في الثلاثينات عن مجنونٍ (عاقل) رآه في زيارةٍ لإحدى المصحَّات العقلية، وقال عنه: إنه كان عارياً إلا من خرقةٍ تستر عورتَه، وله لحيةٌ تبلغ سُرَّتَه، وتحجب صدره، وكان قبل جنونه شيخاً من ذوي الفضل، يقرأ كتبَ الأدب والدين والتصوّف، ويُسمَّى الشيخ (فضل الحموي).

قال الأستاذ الطنطاوي: وهرعتُ إليه مع رفيقٍ لي، حين رأيناه مستتراً تحت ظلال شجرٍ ممتدّ، فقلتُ له بعد التحية: ألا تسير بنا إلى النور؟ فقال لنا وهو يضحك: لولا أننا هنا ـ في المصحَّة العقلية ـ لقلتُ إنَّ نوركم كاف، ولكن لا داعي للنفاق في هذا المكان! قلتُ: وهل ترى نوراً تحت الشجر المتكاثف؟ فقال: إنَّ في كلِّ كائنٍ نوراً وجمالاً، ولكنَّ العيونَ المدركة قليلة، إنَّ الناسَ جميعاً يُؤخذون بجمال القمر، ولكن الشمس لا يُؤخذ بجمالها إلا مَن كانت له عينٌ تصبر على نورها، ولذلك كان الشمسيون (والتعبير له) أقلَّ من القمريين وأندر، وهؤلاء هم الكبار، فإذا جاوزوا مرحلة الشمس، ونفذوا منها إلى السديم، استوى عندهم جمالُ القمر، وجمالُ النجم، واستوتْ عندهم الظُلمة والنور.. ثم تكلَّم ساعةً في مثل هذا المنحى، ففسَّر آياتٍ، وشرح أحاديث، وأتى بكلامٍ ماسمعتُ مثلَه، ولا قرأتُه، وكاد يمضي في حديثه إلى الليل، لولا أن قُرِع الناقوس ليجمع هؤلاء، فقلت له: لقد استفدتُ منك كثيراً، فضحك وقال: أعاقلٌ يستفيد من مجنون؟!.

٨٢ ـ مع الرؤساء

الاستماعُ إلى أحاديث الملتاثين حبيبٌ لدى الخاصة والعامة، وقد كان الخلفاء ومن يليهم، يتُوقون إلى أخبار المجانين، ويحرصون على الاستمتاع بأحاديثهم، وقد يشمخ المجنون منهم على الرئيس الخطير، والحاكم المتغطرس،

فلا يجد غير الصفح والغفران، وتعليل ذلك أنَّ الجنون محنةٌ تكفي صاحبها عِوضاً أكبر عن جميع المصائب، فبأيِّ شيءٍ يُعاقب، بعد أن الْتاثَ أمرُه، وعزَّ عليه أن يجد سبيلَ الاستقرار.

كان البهلول على عهد الرشيد أظرفَ من اشتهر بالجنون، وكان يلاقي من الصبيان بلاءً كثيراً، إذ يتعقَّبونه بالحصا، فيفرّ منهم، ويجرون وراءَه، ومن الطريف أنه اعتصم منهم بسورٍ أَغْلق بابَه، وظلَّ داخله، وأخذ الصبيةُ يقذفونه بالطوب من أعلى السور، وهو يقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وقد نظم في ذلك شعراً قال فيه:

حسْبِـــي الله تـــوكَّلـــتُ عليـــهْ	ونــواصي الخلـقِ طُـرًّا فـي يـديْـه
ليـــس للهـــاربِ فـــي مهـــربِـــهِ	أبـــداً مـــن روْحـــةٍ إلا إليـــهْ
رُبَّ رامٍ لـــي بـــأحجـــارِ الأذى	لـم أجِـدْ بُـدًّا مـن العطـف عليـهْ

وقد نُقلتْ عنه هذه المحاورة مع الرشيد:

الرشيد: كنتُ مشتاقاً إليك يا بهلول.

البهلول: ولكني لم أكن مشتاقاً إليك!.

الرشيد: أعرفُ ذلك. ولكني أدعوك كي تعظني.

البهلول: ماذا أقول، عيناك تريان، هذه قصورهم، وتلك قبورهم.

الرشيد: مفكّراً ـ زِدْني بربِّك.

البهلول: مَن أعطاه الله مالاً وجمالاً، فعفَّ في جماله، وواسى في ماله، كُتب في ديوان الأبرار.

الرشيد: هذا حقّ، وقد أمرنا بقضاء ديونك إنْ كانت!.

البهلول: معاذ الله، لا يُقضى دينٌ بدين، اردُدِ الحقَّ إلى أهله، واقضِ دَين نفسِك.

الرشيد: ألك حاجة؟.

البهلول: أنا وأنت عيالُ الله، فمحالٌ أن يذكرَك وينساني.

ثم ركب قصبتَه وجرى مهرولاً.

قد يرتاب بعض القارئين في هذا الحوار، متعاظماً أن يفرغَ الرشيد لمثل البهلول، وأن يجابهَ البهلولُ الرشيدَ بهذه القوارص، ولكن المجانين كثيرون، ولم يُلصقْ بهم الرواة مثل هذا الحوار، فلا بدّ أن تكون للبهلول ميزةٌ عليهم، جعلتْ أحاديثَه تذيع، حتى يجبَ أن يحاوره أميرُ المؤمنين.

٨٣ ـ تعليق جيد

ذكر الدكتور (أحمد أمين) بعض نوادر البهلول في مقالٍ بارع، وقد ختمه بقوله:

«هكذا ملأ البهلول عصرَه فكاهةً وموعظة، أضحكَ الكبار، وأفرح الصغار، وكان في الكوفة نظيرَ صاحبه علْيان في البصرة، وأمثالهما كثير، منهم من عُرف بالشعر الظريف، ومنهم من عُرف بالنوادر الطريفة، ومنهم من كان مجنوناً حقاً، ومنهم من رأى العالم مجنوناً فجُنَّ حتى لا يتعبه عقله.

ومن العلماء والرواة من خافَ قول الحق، والجهرَ بالصدق، فخلق بخياله مجنوناً نسب إليه ما كان يجب أن يكون، وما كان يجب أن يقال، وتستَّر وراء ذلك، حتى لا يُؤخذ به.

ومنهم مَن رأى أنَّ الحكمةَ إذا صدرتْ عن عاقلٍ فأمرٌ مألوف، لايسترعي النظر، ولايستوجب العجب، ولكن إذا صدرت عن مجنونٍ كانت أوقعَ في النفس، وأدعى إلى التفكير والاعتبار، فحملَه عقله على أن يستصدرها من مجنون، وقديماً قالوا: الجنون فنون».

٨٤ ـ رأي مجنون

رُوي أنَّ رجلاً حلف ألا يتزوج حتى يستشير أولَ من يقابله في الصباح،

فكان من حظه أن قابل رجلاً مجنوناً، فأراد أن يبرَّ بقسمه، فتقدَّم إليه قائلاً: لقد أصبتُ من النساء بلاءً، وحلفتُ ألا أتزوجَ حتى أستشيرَ أولَ من ألقاه، وها أنذا قد لقيتُك فما ترى؟.

فقال المجنون في هدوء العاقل: اعلمْ أنَّ النساءَ ثلاث: واحدةٌ لك، وواحدةٌ عليك، وواحدةٌ لا لك ولا عليك، فأما التي لك فشابَّةٌ طريّة، لم تمسَّ الرجال، فهي إن رأت خيراً حمدت، وإن رأت شراً، قالت: كلُّ الرجال على مثل هذا، وأما التي عليك، فامرأةٌ ذات ولدٍ من غيرك، فهي تفرِّق مالك لتجمع لولدها، وأما التي لا لك ولا عليك، فامرأةٌ تزوجتْ قبلك، ولا ولدَ لها، فإن رأتْ خيراً قالت هكذا يجب، وإن رأت شراً حَنَّتْ إلى زوجها، ولم تُسئ إليك.

قال الرجل؛ فأعجبني والله كلامه، وملأَ نفسي، فسألتُه عما غيَّر من أمره، ووضعه هذا الموضع، فقال: أنا فقيهٌ، وقد رشحتُ للقضاء في هذا الزمن، ولن أُرضي الله بما أحكم حين أُرضي هؤلاء، فاخترتُ الجنون ونجوتُ.

٨٥ ـ بيت نادر

وكلُّ الناسِ مجنونٌ، ولكن على قدرِ الهوَى اختلفَ الجنونُ

* * *

خوارق بشرية

٨٦ ـ مقدمة

في صباح يومٍ زارَنا بكليـة اللغة العربية شيخٌ أزهري ضرير، لا يـزال في مرحلة الطلب، وقد تجمَّع حوله الزملاء، ليختبروا مقدرتَه الخارقة في ضَرْب الأرقام الحسابية، إذ كان يُسألُ مثلاً عن ضرب الرقم (١٦٧١٢) بالرقم (٨٩٥٦٢) فيأتي بالإجابة صحيحةً في أقلّ من نصف دقيقة! وهو شيٌ يشبه المعجزة، ولولا أننا رأيناهـا رأيَ العين ما صدَّقنا، والغريب أننا ـ معشر الطلاب ـ كنّا نمسـك الورق والقلم لنأتي بالحاصل. فتختلف الإجابة أحياناً للعجلة السريعة، ولكنّ الشـيخ (رمضان السيد) ـ واسـمه هذا ـ ما كان يخطئ أبداً، وقد ذاعت أنباؤه، وأفردت جريدة (الأهرام) ومجلة (الإذاعة)، ومجلة (الإثنين) صفحاتٍ عنه، تتحدث بروائعه المدهشة، وكان مما كتبتْه مجلـة (الإذاعـة) المصرية بتاريـخ ٢٣/ ٢/ ١٩٥٧ ما يلي: أي بعد عشر سنوات من لقائنا بالكلية:

أعجوبـةُ زمانه، الشـيخ (رمضان السيد أحمد رزق) إمام مسجد قايتباي، وهو ضرير، ولكنّه يتمتع بذاكـرةٍ واعية عجيبة، وقـدرةٍ فذّة على تحقيق نتـائج أضخم العمليات الحسابية، بما في ذلك القسمة والضرب بالأعداد الصحيحة والكسور الاعتيادية والعشرية في حدود خمسة أعداد في خمسة أعداد، سأله أحد الحاضرين أن يضرب (٧٢٤) بـ (٢١٥) فأجاب بعد أقل من دقيقة (١٥٥٦٦٠)، وسُئـل عـن حـاصـل ضـرب (٧٠٥١٢) بـ (٧٤٩٩٩) فـأجـاب بعـد دقيقـة (٥٢٨٨٣٢٩٨٨)، كما تتابعت الأسئلة في عمليات الضرب والقسمة والكسور فكان مدهشاً.

ومضت المجلة تذكر أمثال هذه الغرائب، كما كتبتْ عنه مجلة (الصحراء) مايو سـنة ١٩٥٧ مقالاً يؤكّـد هذه الخوارق، وأذكـر أنَّ صديقي الدكتور (أحمد

الشرباصي) عقد عنه فصلاً في الجزء الثاني من كتاب (في عالم المكفوفين) قال في نهايته: «إنَّه من التقصير المعيب في حقِّ هذا الشيخ المكفوف أن يظلَّ هكذا بدون تدريبٍ أو استغلال، ومن الميسور أن يتعلَّم رمضان طريقة (برايل) ويدرسَ عن طريقها كثيراً من العلوم والمواد، ويستطيعُ بذلك أن يخدم وطنه خدماتٍ كثيرة.. لو كان الشيخ رمضان في بلدٍ غربيّ لعُنيت به الدولة والجماعات، ولجعلوا منه أعجوبةً، وفجَّروا في نفسه ينابيع العبقرية والموهبة».

وكانت كلمة الشرباصي صرخةً في واد، لأنَّ الرجل انتقل إلى رحمة الله دون أدنى اهتمام.

٨٧ ـ مثل آخر

كان الأستاذ الكبير الشيخ (يوسف الدجوي) من هيئة كبار العلماء بالأزهر[1]، وقد كتب مقالاً دينياً بمجلة (نور الإسلام) عدد رجب سنة ١٣٤٩هـ يردُّ فيه على من ينكر المعجزات الخاصة بالأنبياء، لاستحالة وقوعها في رأيه، مستشهداً بروائع بشريةٍ ظهرت بين الناس تخرق كلَّ القوانين الطبيعية المألوفة، ويحار العقل في تعليلها، ووجود هذه الخوارق التي لا يمتري أحدٌ في وقوعها مع استحالتها العادية يؤكِّد في رأي الشيخ وقوع المعجزات، وقد ضرب الأستاذ مثلاً بقصة طفلٍ ألماني أتى من الخوارق ما يدهش، وذلك نقلاً عن مجلةٍ أوروبية.

قال الشيخ تحت عنوان (كريستيان هيتريس): طفلٌ عجيب ولد في (٦) فبراير سنة ١٧٢١م بمدينة لوبرة بشمال ألمانية، وقد استطاع أن يتكلم بعد عشرة أشهر فقط، ولما بلغ من العمر عاماً حفظ قصصاً كثيرة من الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة، وفي سنتين أتقنَ الكتاب المقدس، وفي سنِّ ثلاث سنين، أجاد معرفة التاريخ والجغرافية، قديماً وحديثاً، وأتقنَ الفرنسية واللاتينية، وفي سنٍّ الرابعة أخذ في دراسة الدين والتاريخ الكنسي، وقد هُرِع الناسُ أفواجاً إلى لُوبرة

---

(١) وكان ضريراً. (الناشر)

لرؤية خوارقه، ولكنَّ القدر لم يمهله، فقد مات في آخر السنة الرابعة من عمره.

ولهذا الطفل أشباهٌ اهتمَّ بالحديث عنهم مَن يشتغلون بالبحوث الروحية في الغرب، وصدرت مؤلفاتٌ خاصة بهم، وقدرةُ الله لا تحَدّ، والذين ينكرون المشاهد الملموس ما قدروا الله حقَّ قدره.

٨٨ ـ طفل نجيب

تذكر كتب التاريخ قصةً عن طفلٍ نجيب ارتفع خبره إلى المأمون العباسي، فرعاه حقَّ الرعاية، وانتفع الناسُ بنبوغه الهندسي حين وجد من يقدِّره.

قال أحمد بن يوسف الكاتب في كتاب (المكافأة) يروي قصة المهندس الشهير (سند بن علي) حين تحدَّث عن نفسه فقال ما موجزه: كان والدي يتكسَّب بصناعة أحكام النجوم، فتعلَّقتُ بهذه الصناعة، وكان أحدُ الورَّاقين ببغداد يعرض كتاب (إقليدس) وقد جلَّده وأتقن كتابتَه، وطلب فيه عشرين ديناراً، فسألتُ والدي أن يشتريه لي، فقال: مهلاً حتى أقدرَ على ثمنه! وجعل يسوِّفني، وقد اشتدَّت رغبتي فيه إلى حدِّ الوَلَه، ولي من العمر سبعة عشر عاماً فدفعني النّزقُ إلى أن أخذتُ دابّةَ والدي التي يركبها، وبعتُها في السوق بأقلّ من ثلاثين ديناراً. وكان والدي إذ ذاك يجلس في منزل أحد الكبراء، فجاء إليه من أسرَّ له بالنبأ، فظهرتْ الدهشةُ على وجهه، وتغيَّر وهمَّ بالقيام، ولاحظ ذلك صاحبُ المنزل، فسأله، وعلم ما كان، فأقسمَ عليه ألاَّ يُسيئني، وقدَّم له مِن اصطبله بغلاً فارِهاً، وقال هو لك مكانَه، وجاء أبي ومكث لا يكلِّمني.

وأقمتُ ثلاث سنين محبوساً في المنزل، أقرأ الكتاب وحدي وأعلِّق عليه، وقد عملتُ أشكالاً صعبة، ووضعتها في كمّي، وكان للمهندسين مجلسٌ بمنزل (العباس بن سعيد الجوهري) فيمَّمْتُه وأنا دون العشرين، وحاولتُ أن أتكلَّم، فاستصغروا شأني، وقال العباس: مَنْ تكون؟ وماذا قرأتَ؟ فقلتُ: قرأتُ كتاب (إقليدس) و(المجسطي) قال: قراءةَ إحاطةٍ، قلت: نعم، فسألني عن شيءٍ مُستصعب، كان تفسيره في الأوراق التي في كمّي، فأجبتُه، فاندهش، وقال: مَن

أفادك؟ قلت: أوراقي، فظنَّ أني سرقتُ ما كتبه في سفطه، ونادى أحدَ غلمانه، فأحضر السفط، ووجدَ الأوراقَ كاملةً، فطلب ما لديَّ من الأوراق، وجعل يقابل بين عملي وعمله، فوجد مطابقـةً تدلُّ على فهمٍ، فسرَّ بي غايةَ السرور، ورفع قصتي للخليفة المأمون، فاستدعاني على الفور، وأجرى لي رزقاً كبيراً، وأمرني بملازمة العباس، وهو كبير المهندسين يومئذٍ.

٨٩ـ راعٍ عجيب

كان الفلكي الشهير (بير آينخ) في طفولته راعي غنم، يقضي الليل فوق الجبل في حراسة النعاج، وقد أَلِفَ رؤية النجوم إلى درجة العشق، فكان يعرف مواقعها بكثرة المشاهدة، ويدرك متى يأتلق النجم، ومتى يأفل، ويدهش إذا تأخَّر كوكبٌ عن موعده، بأنْ حجبَه غيم، حتى صارت النجوم شغلَه الشاغل، وقد أسرَّ لسيِّده ببعض ما يرى، فقال له: إنَّ للنجوم علماً كبيراً يعرفُه المتعلِّمون، ويُسمَّى علم الفلك! فالتهبتْ الرغبة في نفس الراعي، وجعل يسأل عن كبير علماء الفلك في مدينته، حتى اهتدى إليه فقال له:

إني يا سيدي أشتغل برعاية الغنم فوق الجبل، وأعشق مشاهدة النجوم والكواكب، وأريد أن أعرف ما تعرفون من أمرها.

فسأله العالم الكبير في ملاطفة: وهل تعلمتَ شيئاً؟ فقال الراعي: أعرف القراءة، ويمكنني أن أكتبَ الخطابات! فابتسم العالم، وقال: أنا أودّ مساعدتك، ولكن لا يمكنك أن تدرس حركات الكواكب، دون أن تعلم المبادئ الأولى.

فقال الراعي: وما هذه المبادئ؟، فقال العالم: مبادئ الحساب والهندسة والميكانيكا!.

فردَّ الراعي يقول: سآتي إليك يومَ الأحد من كلِّ أسبوع، لأتعلَّم على يدك، فهو يوم عطلتي الوحيد!.

وسرَّ العالم من إصرار الفلكيّ الناشئ! فجعل يستقبلُه كلَّ أسبوعٍ ليعلّمه

مبادئ العلوم الأولية، ولاحظ عنده من الذكاء المتّقد، والجدّ المتواصل ما استغربَ حدوثه لدى مثله، فلم تمضِ سنوات، حتى تقدَّم تقدُّماً ملموساً، ولمّا كان الراعي الناشئ لا يملك ثمن الآلات التي ترصد الكواكب، فقد صنع بنفسه قريباً منها، وجعل يرصد الكواكب كلَّ ليلةٍ إذا أقبل المساء، حتى شروق الفجر، وكانت المفاجأة حين اكتشف (بير آينخ) نجوماً جديدة، وتحدَّث عنها لأستاذه، فجمع العلماءَ لمناقشته، فأيَّد رأيه بالمشاهدة حين صعد معهم فوق الجبل، ورنَّ اكتشافُه مدوِّياً في الأوساط العلمية، ولكنَّ البرد كان قد أثَّر في جسمه، إذ قضى السنوات المتّصلة فوق الجبل غير عابئٍ بما يهدِّدُه، فمات شاباً، واحتُفل بتشييعه في موكبٍ حافل، وصُنع له تمثالٌ من المرمر الأبيض بدار الآثار الخاصة بنوابغ العلماء!.

٩٠ ـ نابغ مكافح

ولا أنسى وأنا أتحدَّث عن العصاميين أن أذكرَ العالم الكبير (فتشتر بوفيفاني) أحد علماء القرن السابع عشر، حيث نشأ نشأةً قاسية في أسرةٍ فقيرة لا يستطيع عائلُها النهوضَ بكفايتها، فرحل والدُه (فتشتر) إلى فلورنسة يتحسَّس باب الرزق، وكان غلاماً طُلَعة، ذا عينٍ فاحصة، فشاهد لأول مرةٍ (الفانوس السحري) يعرضه صاحبُه على النظّارة، ليروْا صور الأشياء كأنها حقيقةً ماثلة أمام عيونهم، وقد أخذ يشرح للناس تركيب أجزاء الفانوس، بعد أنْ حلَّه قِطعاً قِطعاً، ثم ركَّبه، فتقدَّم (فتشتر) إلى الرجل، وقد لاحظ ما صنع منذ بدء الشرح مؤكّداً أنه يستطيع أم يفكَّ الفانوس، ويركِّبه من جديد، فطلب منه أن يفعل، وسرعان ما أتمّ العمل على أحسن وجوهه.

فقال له صاحب الفانوس: أنا كبير السنّ، وقد تعبتُ من التجوال، فهل لك أن تقوم بما أعمل، ونتقاسم الربح، فقبل الغلام مسروراً.

وكان من حظِّه أن يمرَّ به العالم الذائع الصيت (جليلو) فيلحظُ مهارته في العرض، وناقشه في أسرار تركيب الآلة فأجاب ببراعة، وكان (جليلو) في حاجةٍ

إلى مساعدٍ نابغ، فعرض عليه أن يلتحق بمعمله العلميّ، ويردَّ الفانوس لصاحبه، فحقَّق بذلك رغبةً غالية كان (فتشتر) يتمناها، ويعدُّها في حكم المستحيل، ولم تمضِ سنواتٌ حتى تجلَّت مواهب الغلام على أحسن ما كان ينتظر منه أستاذُه، وأصبح نابغةً في العلوم الهندسية، وألَّف فيها عدّة كتبٍ صادفتْ حظوةَ العلماء وتقديرَهم، واتّصل صداه العلمي بالمجمع الفرنسي فضمَّه إلى أعضائه، ورعتْه الدولة، فأغدقتْ عليه ما يضمن رخاءه الماديّ، ومات بعد أن جاوزَ الثمانين، إنَّ لدينا في المكتبة العربية مئات الكتب التي تتحدَّث عن نشأة الأدباء من كتّابٍ وشعراء، ونرجو أن يكون لدينا في هذه المكتبة عشرات الكتب التي تتحدث عن نشأة العلماء لنوازن بين الإقناع والإمتاع، والفكر والوجدان.

٩١ ـ في سبيل العلم

وعُذِّبَ بالعلمِ طلّابَه	وغصُّوا بمنهله الأعذبِ
رمتْهم به شهواتُ الحياةِ	وحبُّ النباهةِ والمكسبِ
وعقلٌ بعيدُ مرامي الطِّماحِ	كبيرُ اللبانةِ والمأربِ
ولوعُ الرجاءِ بما لم تنلْ	عقولُ الأوالي ولم تطلبِ
تنقَّل كالنجمِ من غيهبٍ	يجوبُ العصورَ إلى غَيْهبِ
قديمُ الشعاعِ كشمسِ الصباحِ	جديدٌ كمصباحها الملهبِ

* * *

قوى خارقة

٩٢ - يجرُّ السيارة بشعره

نشرت الصحف خبراً عن عملاقٍ أوروبيّ أرسلَ شعرَه حتى بلغ قدميْه، واستطاع به أن يجرَّ سيارةً بمفرده، وعدَّتْ ذلك من الغرائب، وهو من الغرائب فعلاً. ولكنَّ الرياضات البدنية المتواصلة تؤدِّي إلى ذلك أحياناً، فكما تستطيع الرياضة الروحية أن ترتفعَ بالنفس الإنسانية إلى مستوى الصفاء الروحي، تستطيع الرياضة البدنية أن تفعل الكثير.

وقد ذكر الأستاذ عباس محمود العقاد أنَّ الملكات الجسدية قابلةٌ للنمو والمضاعفة إلى الحدّ الذي لا يخطر على بال، فقد شُوهد أكتعٌ يستخدم أصابعَ قدمه في أشياءَ يعجز الكثيرون عن استخدام أصابع اليد فيها، كذلك يصنع القهوة، ويصبُّها في الأقداح بأصابع قدمه، ويسلك الخيطَ في الإبرة، ويخيِّط بها الثوب الممزَّق.

كذلك رأينا من يقذفُ بالحربة إلى أبعد المسافات، فتقع حيث يريد، ويصيب الهدف في سهولة، ورأينا من يرمي بالأنشوطة في الحبل الطويل فيطوِّق بها عنق الإنسان والحيوان على مسافة أمتار.

هذه الملكات الجسدية كائنةٌ على تناسل الأحقاب ولها في التاريخ شواهد.

٩٣ - في التاريخ العربي

وفي التاريخ العربي عشرات الأمثلة لمن تمتَّعوا بقوَى جبارة لا تُقاوَم، ومنهم اللصّ الشهير (هلال بن أسعر) وطرائفُه مذكورةٌ في (الأغاني) ومنها ما تحدَّث به عن نفسه فقال:

كنت يوماً بالصحراء وقت الظهيرة، وقد احتدمت الهاجرة احتداماً يشوي الوجوه، ويكوي العظام، فعمدتُ إلى عصاي، وطرحتُ عليها كسائي، فمرَّ بي رجلان أحدهما من بني نهْشَل، والآخر من بني تميم، وهما أشـدّ الناس بأسـاً وعراماً، ومعهما أنواطٌ من تمر هجر، فحين وقع نظرهما عليَّ نادَيَا: يا راعيَ الإبل، أعندك شرابٌ تسقينا.

قلت وأنا نائمٌ لا أتحرَّك: عليكما الناقة البيضاء فاشربا منها ما بدا لكما، فإنَّ لبنها كثير.

فصاح أحدهمـا: ويحك أيها العبد، انهض فـأتِ باللبن، فقلتُ: اذهبـا فاشربا.

فقال أحدهما: إنك يا ابن اللخناء لغليظُ الكلام، قمْ فاسقِنا، ثم دنا مني، وجاء الآخر، فقال مثل قوله، ودنا، فلا والله ما تحرَّكتُ ولا اكترثتُ، وتقدَّم أحدهما فأهوى عليَّ ضرباً بالسوط، فتناولتُ يدَه وأنا نائم، ورميتُها تحت يدي، وضغطتُها ضغطةً صاح منها صارخاً، ونادى صاحبَه: أدركني، فقد قتلني، فدنا يصنع ما صنعَ سابقُه، فأخذتُ يدَه وفعلتُ به ما فعلتُ بـأختها، ثم أخذتُ بـرقبتيهما، فجعلتُ أصكُّهما صكّـاً، لا يستطيعان أن يمتنعا منه، فقال أحدهما: أنـتَ والله هـلال، ولا يفعـل هـذا غيـرك، قلـت: أنـا هـلال. فجعـلا يبكيـان ويسترحمان، فرحمتُهما، وتركتهما نادمَيْن!.

وطرفةٌ ثانية رواها هلال عن نفسه فقال:

ذهبتُ مع صديقٍ لي إلى خيام (بكر بن وائل) وقد لَغبنا وعطشنا، وإذا نحن بفتيةِ شبابٍ عند بئرٍ لهم، وقد وردتْ إبلُهم، فاستهولوا مرآي، واستفظعوا خَلْقي وقامتي، وقام رجلان منهم فقالا: يا عبد الله، هل لك في الصراع، فقلت في حياء: أنا إلى غير ذلك أحوج، فقالا: وما هو؟ قلت: إلى لبنٍ وماء، فإني سغبٌ ظمآن، فقال أحدهما: لستَ بذائقٍ من ذلك شيئاً حتى تعطينا عهداً لتجيبنا إلى الصراع إذا شبعتَ ورويـتَ، فقلت في هـدوء: أنـا ضيفٌ غريب، والضيفُ

لا يصارع مضيفَه وربَّ منزله، وأنتم مكتفون من ذلك بما أقول لكم، فاعمدوا إلى أشـدِّ فحلٍ من إبلكم وأهيبها صولة، وإلى أشـدِّ رجلٍ منكم ذراعاً، فإنْ لم أقبض على هامة البعير، وعلى يد صاحبكم فلا يمتنع الرجل ولاالبعير حتى أدخل يد الرجل في فم البعير، فاعلموا أنكم صرعتموني إذا لم أفعل.

فعجبوا كثيراً من قولي، ودفعوا إليَّ فحلاً هائجاً من الإبل، فأتيتُه وأخذتُ بهامته وضغطتُها ضغطاً ثقيلاً، جعل الفحلَ يجرجر ويرغو، ثم قلت: من شاء منكم أن يمدَّ يده إليَّ فأُدخلها في فم الفحل، فماجرؤَ أحدٌ، وصاح الناس: هذا شيطان مَا لَنا وله!.

٩٤ ـ الخليفة الأمين

كثرت الافتراءات على الخليفة الأمين، لأنه هُزم في جولته مع المأمون، فتحقَّق قول القطامي:

والناسُ مَن يلقَ خيراً قائلونَ له　　ما يشتهي، ولأمِّ المخطئ الهَمَلُ

وقد قالوا عن الأمين ما لا يصدِّقه عقل، ومن هذه المفتريات أنَّ جيش المأمون كان يحاصر بغداد، وقد تقدَّم إلى قصر الخلافة، وكان الأمين في شغلٍ بصيد السمك مع خادمه كوثر، فقالوا له: إنَّ بغداد محاصرةٌ وإنَّ القصرَ وشيكُ الوقوع، فقال: لا أترك الصيد حتى اصطاد سمكةً ثانية، لأنَّ كوثر سبقني فاصطاد سمكتين!! فليت شعري أيُّ عاقلٍ يصدِّق هذا؟.

هذا الخليفة المفترَى عليه، كان من أشجع الخلفاء، وأقواهم بدناً، حدَّث المسعودي قال:

«كان الأمين في نهاية القوة والشدّة والبطش، ويُروى أنه اصطبح ذات يوم، وقد خرج أصحابُ اللبابيد والحراب على البغال، وهم الذين كانوا يصطادون السباع، ليصطادوا سبعاً بين كُوثَى وقَوْصَر، فاحتالوا حتى وقع السبع، وأتوْا به في قفصٍ على جمل، فحطَّ بباب القصر وأُدخل، فمثُل في صحن القصر، والأمين

مصطبح، فقال لهم: ارفعوا باب القفص، وخلُّوا عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين! إنه سبعٌ هائل متوحش، فقال: خلُّوا عنه، فرفعوا الباب، وخرج سبعٌ أسود له شعرٌ عظيم مثل الثور، فزأر، وضرب بذنبه الأرض، فتهارب الناس، وغُلِّقت الأبواب في وجهه، وبقي الأمين وحده جالساً في موضعه غير مكترثٍ بالأسد، فقصده الأسدُ حتى دنا منه، فضرب الأمينُ بيده إلى وسادةٍ كانت تحته وامتنع بها، فمدَّ السبعُ يدَه ذات البراثن الحادة إلى الأمين، فجذبها الأمين، وقبض على أصل أذنَيه، وغمزه، وهزَّه، ودفعَ به إلى الخلف، فوقع الأسد ميتاً، وتبادر الناس إلى الأمين فإذا أصابعُه ومفاصل يده قد زالت عن مواضعها فأُتي بجابر، فردَّ عظامَ أصابعه إلى موضعها، وجلس كأنه لم يعمل شيئاً».

٩٥ ـ دفاع عن الأمين

قال الأستاذ الكبير عبد الله عفيفي في الجزء الثاني من كتاب (المرأة العربية) ص(١٩٤) تحت عنوان (آخر صفحة من كتاب العظائم):

«أستغفرُ الله، ما كان الأمين خليعاً ولا مائعاً، ولا مارقاً ولا سرفاً في دينه ودنياه، بل كان شأنه كشأن أبناء النابهات من العرب، كفٌّ نديَّة، وهمَّةٌ قصيَّة، وفطنةٌ هاشمية، ولكنْ هم المُرجفون من شيعة المأمون، وقالةُ السوء من شعوبيّة الفرس، ألحقوا به ما ألحقوا ظلماً وزوراً، لأنه اعتصم بالعرب، وجعلَهم حِزبَه وشيعته، وترك ما سنَّه آباؤه من استدْناء الفرس، وابتغاء الوسيلة عندهم، وتفويض الأمر لديهم، فنزعوا إلى المأمون، ونزعَ إليهم لما بينهم وبينه من وشيج الرحم وفرط الهوى، فأثاروها على الخليفة العربي حملةً فارسية، وأجلبَ بهم المأمون على أخيه، فساروا إليه مُحدَّدي الأظافر، حتى هتكوا عليه دارَه فذبحوه، وحملوا رأسه إلى صاحبهم، فهل رأيتَ أشنعَ من هذا؟.

يقولون: إنَّ الأمين أسرفَ في الشراب، فاللّهم إنهم كذبوا، لقد علموا أنَّ الرشيد حدَّ ابنه المأمون في الخمر، أو ما هو شرٌّ منها! فأما الأمين فلم يكدْ يلي أمرَ المسلمين، حتى ارتهَنَ أبا نواس في سجنه، وأطال فيه بلاءَه وعناءه، لأنه لجَّ في الخمر، وأكثر من ذكرها!.

٩٦ ـ من روائع شوقي

نال البطل المصري (السيد نصير) الجائزة الأولى في مسابقة رفع الأثقال العالمية، وأُقيمَ له حفلٌ تكريميّ بالقاهرة، أُنْشدت به قصيدةٌ عامرة لشوقي قال فيها:

إنَّ الذي خلقَ الحديدَ وبأسَه ... جعلَ الحديدَ لساعدَيْكَ ذليلا
زحزحْتَه فتخاذلَتْ أجلادُه ... وطرحتَهُ أرضاً فصلَّ صليلا
لم لا يلينُ لك الحديدُ ولم تزلْ ... تتلو عليه وتقرأُ التنزيلا

وهذا كلامٌ جيد، ولكن الرائع المعجب حقّاً، ما اتّجه إليه شوقي حين أخذ يسائل البطلَ (سيد نصير) عن الأثقال النفسية التي هي أشدُّ هولاً من الأثقال الحسية، فهو يقول له متسائلاً: أحملتَ دَيْناً فادحاً؟ أحملت حقداً مبيداً؟ أرأيتَ ظلماً شنيعاً من غادرٍ؟ أسمعتَ كلمةَ مَنٍّ ثقيلةٍ من مُنعِمٍ لم يُراعِ شعورك؟ أرأيتَ طغيان اللئيم حين يصير مثْرياً غنياً؟ أشهدتَ صاحبَ الجاه المختلَس حين يتكبَّر على مَن هم أفضلُ منه وأكرم؟ أشهدتَ الغبيَّ المحظوظ بمنصبه يستمع من آيات الثناء ما لا يستحقّ؟ إنَّ ذلك كلّه أعظمُ فداحةً، وأثقل عبئاً من أطنان الحديد التي حملْتَها بساعديك؟ يقول شوقي:

قُلْ لي نُصيرُ، وأنتَ برٌّ صادقٌ ... أحملتَ إنساناً عليك ثقيلا؟
أحملتَ دَيْناً في حياتِكَ مرةً ... أحملتَ يوماً في الضلوعِ غليلا؟
أحملتَ ظلماً من قريبٍ غادرٍ ... أو كاشحٍ بالأمسِ كان خليلا؟
أحملتَ منّاً بالنهار مكرّراً ... والليلِ من مُسْدٍ إليك جميلا؟
أحملتَ طغيانَ اللئيم إذا اغتنى ... أو نالَ من جاهِ الأمورِ قليلا؟
أحملتَ في النادي الغبيَّ إذا التقى ... من سامعيه الحمدَ والتبجيلا؟
تلك الحياةُ وهذه أثقالُها ... وُزِنَ الحديدُ بها فعادَ ضئيلا

وهذا والله هو الشعر!!.

* * *

في عالم الكتب

٩٧ ـ الأسوار المكتبية

كانت ظاهرةُ الأسوار المكتبية منتشرةً في العواصم الكبرى بالدول العربية، ومن أظهرِها (سور الأزبكية) بالقاهرة، حيث تحتشد آلاف الكتب المقروءة لتباع بأثمانٍ زهيدة، بعد أن فرغَ أصحابُها من استيعابها وباعوها، ليستطيعوا شراءَ كتبٍ أخرى، وكان من المعهود أن يشتريَ الطالبُ الناشئ كتاباً، ثم يرجعه بعد يومين، ليأخذَ غيره، بل كانت القصص الأدبية لكبار الكتّاب، تؤجَّر للقرّاء بملّيماتٍ معدودة، كما أنَّ ورثة بعض العلماء كانوا يبيعون مكتباتهم العامرة لأصحاب هذه الأكشاك المكتبية، فيجد القارئ كتباً قيّمة تُباع بعُشر أثمانها، وقد يُفاجأ بكتبٍ تحمل إهداءاتٍ لكبار الشخصيات، ومع ذلك فإنها تباع على الأسوار، والراجحُ أنَّ بعض الخدم يسرقونها، ويبيعونها، إذ يُستبعَدُ أن يفرِّطَ مسؤولٌ كبير في كتابٍ علميّ أُهدي إليه من كاتبٍ مرموق! ونأسف حين نُقرِّر أنَّ هذه الأسوار قد هُوجمتْ هجوماً بربرياً، ففقد القرّاء نافذةً مضيئة من منافذ الثقافة. بل إنَّ أصحاب المكاتب الكبيرة قد فطنوا إلى الربح من الأكشاك الصغيرة، فحملوا كتبَهم الجديدة إليها، لتُعرَض في مظهرٍ أخّاذ، وليكون الثمن باهظاً لا يشجِّع غير المضطر.

وإذا كان التلفزيون وصحفُ السينما والكرة قد جذبتْ أنظار الشبيبة إلى نوعٍ من القراءة، يُذَمُّ أكثر مما يُحمَد، فإنَّ الخواء الثقافي قد هَيْمنَ على القارئ الناشئ، ومن البليّة أنه لا يعرف أنه في خواء! لأنه يعتبر ما يقرؤه من تفاهاتِ الأخبار السينمائية والكروية ومن قصص الجنس كافياً عن كلِّ زاد! وتلك هي الكارثة.

أكتبُ هذا تمهيداً لما أتحدّث عنه من أخبار المكاتب في القديم والحديث.

٩٨ ـ كبار الأدباء

كنّا في عهد الطّلب نرى نفراً من كبار الأدباء يؤمّون المكتبات الأدبية، ومن بينها الأسوار المكتبية ليُشبِعوا رغباتهم المتطلِّعة، وأنا قد رأيتُ العقّاد، والمازني، وأحمد أمين، وإبراهيم المصري، وعبد الرحمن صدقي، وعلي أدهم مراتٍ عديدة أمام (سور الأزبكية) بل رأيتُ الدكتور أحمد أمين في حانوتٍ متواضع جداً بدرب الجماميز يمتلئ بالكتب على غير نظام، وهو ما يُعرف بمكتبة (الشيخ خربوش) فتذكرتُ أنَّ له مقالاً رائعاً عن هذه الحوانيت قال فيه:

«بالأمس ضحك منّي بائع الكتب القديمة، إذ رآني أقلِّب في الكتب، وأذهبُ ذات اليمين والشمال وأصعدُ على الكرسي، وأنزل من عليه، والكتبُ بعضها بالٍ عتيق، قد غُلِّف بالتراب، وأكلته الأرضة، وكلُّها وُضعت حيثما اتفق، ولم يُعنَ فيها بترتيبٍ حسبَ الموضوع، ولا حسبَ الحجم، ولا حسبَ أيِّ شيء، ولم يبذل أيَّ جهدٍ في تنظيفها وعرضها، فكتبٌ على الأرض، وكتبٌ في السماء، وكتبٌ في الرف وكتبٌ على المقاعد، وكتبٌ في الممشى، والبائعُ رجلٌ تقدَّمتْ به السنّ، زهدَ البيع وزهد الشراء، وإنما يبيع ويشتري لأنه اعتادَ أن يبيعَ ويشتري، وكلُّ ما في أمره أنه فضَّل أن يجلسَ في الدكان بدلَ أن يجلس في البيت، إذ يرى الرائحين والغادين، ومن حينٍ إلى حين يبيع كتاباً أو كتابَيْن».

أما الأستاذ (العقاد) فقد ذكر في بعض مقالاته، ولا أدري عنوانها الآن. أنه قابلَ الكاتبَ الفرنسي الكبير (أندريه جيد) في إحدى مكتبات القاهرة، ولم يشأ أن يُحادثَه أو يتعرَّف به، في وقتٍ كان فيه الدكتور (طه حسين) وأساتذةُ الجامعة يقيمون الحفلات المتوالية لتكريمه.

ويقول العقاد: إنه بتجربته الشخصية قد علمَ أنَّ لقاءَ الأديب الكبير يُقلِّل من شأنه لدى قارئه، حيث لا يكون في أحسن حالاته الفكرية! و(العقاد) متعاظمٌ دائماً مع الكبراء، ولكنه متواضعٌ جداً مع الناس، كنا نستمع إليه في حفلة تأبينٍ كبرى لبعض الراحلين، وكان المتكلِّمون من الزعماء الكبار، فرأينا العقاد يخرج

وحدَه، دون أن تحيطَ به هالةٌ مصطنعة كغيره، وقد رآه زميلي الطالب الأزهري الشيخ (سيف المجلّي) فسارع إلى اصطحابه، فهشَّ له العقاد، ووضع يده تحت ذراعه! ومضيا معاً إلى الخارج! هذا والعقاد لم يعرف الشيخ (سيف المجلّي) من قبل، ولكنه يرحِّب بمصاحبة الناشئين، ويأنف من مسايرة المرموقين.

٩٩ ـ تنافس حميد

في القرن الماضي قبل أن تُخرج المطبعة ثمارها الشهية من كُتب التراث، كان التنافس على اقتناء الكتب الأدبية المخْطوطة شديداً بين ذوي الهواة الأدبية من الأغنياء، وكان (عبد الغني بك فكري) و(عبد الحميد بك نافع) من ذوي التنافس الحاد، حيث يُباهي كلاهما بما أحرز دون صاحبه، وقد سجَّل المرحوم العلاّمة أحمد تيمور باشا عنهما هذه الطرفة النادرة فقال:

«أخبرني المترجم عن والده ـ عبد الغني فكري بك ـ أنه قد علم أنَّ تاجراً من الورّاقين قد قدم بكتبٍ أدبية أوصاه عبد الحميد بك نافع بجلبها له، ومن بينها ديوان البحتري ـ قبل أن يُطبع ويَذيع ـ فأسرعَ إليه، وبذل له مالاً فوق قيمة الديوان، على أن يُعيره يوماً وليلةً فقط ليُطالع فيه، فرضي التاجر، وأعارَه إياه، فلما أتى به لداره أعطاه لمجلّده ليفكَّه، وأحضر في الحال عدّةَ نُسَّاخٍ فرَّق عليهم كراريس للنسخ بها، فنسخوا الديوان جميعه، وقابلوه، ولم يمضِ يومٌ وليلةٌ حتى تمَّ الكتاب، ورُدَّت النسخة لصاحبها كما كانت، ثم قابلَهُ عبد الحميد بك، وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده، واختصاصه به، فقال له: هوِّن عليك يا أخي، هذا شيءٌ أكلناه وشربناه حتى مججْناه، ثم أخرج له النسخة المخطوطة مجلَّدةً تامة فكانت موضع الدهشة!.

يقول تيمور باشا مستطرداً عن عبد الغني فكري: وبلغه مرةً وهو يسمر مع بعض أصحابه أنَّ أحدهم رأى عند فلانٍ الورّاق رسالةً من الرسائل الأدبية، وكان يتطلبها ولا يجدها، فقام من المجلس ليلاً، وأخذ يسأل عن دار الورّاق من هنا وهناك، حتى اهتدى إليه بعد ما مضي هزيعٌ من الليل. فأيقظَه من نومه وساومَه،

وأعطاه في الرسالة فوق قيمتها، ولم يمهله للصباح، بل أنزله من الدار، وذهب معه إلى حانوته، ففتحه ليلاً، ولم يهدأ له بالٌ حتى كانت الرسالة عنده!.

١٠٠ ـ في الزمن الماضي

هذا الحرص على المخطوطات لم يكن وليدَ هذا الزمن، بل امتدَّ سابقاً إلى العصور الزاهية منذ التدوين، وإذا كان العلماء والأدباء يحرصون على اقتناء الأسفار لإشباع حاجاتهم العلمية، فإنَّ من العجيب حقّاً أن يحرصَ الأثرياء الذين لا يفهمون شيئاً مما بالكتب العلمية على اقتنائها في خزاناتٍ خاصة، تُلحق بالمنزل، وتكون موضع المباهاة! كما يتباهى الثريُّ بما يجمع من الجواهر والحليّ سواءً بسواء.

جاء في (نفح الطيب) أنَّ منادياً بسوق الورَّاقين، نادى باسم كتاب كان أبو القاسم الحضرميّ من علماء القرن الخامس حريصاً على اقتنائه، فجاء النبأُ إلى أبي القاسم، فخفَّ إلى السوق قبل أن يباع الكتاب، فرآه بخطٍّ جيد، وورقٍ مصقول، وتجليدٍ رائق، فقال للمنادي: آخذُه بدينارين، فصاح الدلاّل: أبو القاسم الحضرمي قد عرض دينارين فمَنْ لديه أكثر؟ فقال بعضهم: ثلاثة، وقال بعضهم: أربعة.

وملَّ أبو القاسم الموقف فقال: عليَّ بعشرة! ولكنَّ شاباً ظهر فجأةً، ونظر إلى المجلَّد وقلَّبه في يده، وقال: عليَّ بعشرين، فغضب أبو القاسم، ثم قال: عليَّ بخمسةٍ وعشرين، فقال الشاب: عليَّ بثلاثين.

وما زالت الزيادة ترتفع بين أبي القاسم والشاب حتى وصل الثمن إلى خمسين ديناراً، فتضاءل أبو القاسم، وتقدَّم إلى الشاب يقول له: إنك قد بالغتَ مبالغةً مسرفة حين عرضتَ الخمسين. وما كان هذا المجلَّد ليزيد عن خمسةٍ على الأكثر! فما سبب رغبتك فيه؟ فقال الشاب: لستُ ممن يقرؤون الكتب، ولكني هيَّأتُ خزانةً علمية أدبية للمباهاة، وقد صرفتُ عليها كثيراً مما أملك، وأعيانُ البلدة يؤمُّونها، ويطالعون ما بها، فأشعر بالفخر والإعجاب، وقد تأمَّلتُ الكتاب،

فوجدتُه حسن الخط والورق والتجليد، فقلت: والله لن يفلت من خزانتي، والحمد لله على ما أنعمَ، فإنَّ الرزق كثير، فخشع أبو القاسم الحضرمي، وقال في أسف: نعم: الرزق كثير عند مثلك، ويُعطي اللهُ الجوزَ لمن لا أسنانَ له».

هذه طرفةٌ لها أمثال، فأنا أعرفُ من يحرصون على اقتناء الكتب بلغةٍ لا يقرؤونها، وتسألهم عن ذلك فيقولون: لا بدَّ أن تجمع المكتبة فنوناً من الكتب العالمية أوروبية وغير أوروبية، لتكون موضع التقدير! وتراهم يعرضونها على الزائرين في مسرَّةٍ وابتهاج!.

١٠١ ـ أمانة نادرة

كان ابن غَطّوس أشهر بائعٍ للمصاحف القرآنية في (بلنسية) وله شهرةٌ واسعة في حواضر الأندلس جميعها، وقد أتقن الكتابة إتقاناً ضُرب به المثل، حتى كان يخلط المداد بالمسك والعنبر، لتعْبقَ له رائحةٌ بين السطور يتنشَّقها قارئ الكتاب العزيز، وكانت الألوان تتعدَّد في السطر الواحد، ما بين حمراء وسوداء وخضراء وصفراء، إذ للكسرة لون، وللفتحة لون، وللضمَّة لون، وللسكون لون، غير أشكال التنوين فإنها تكتب بالمداد الأزرق، وذلك جهدٌ يقدِّره عارفوه.

وقد جاءَه زائرٌ غريب من بلدةٍ قاصية، فاشترى مصحفاً فخماً، دفع فيه مئتي دينار، بذلها في سماحة، ثم توجَّه إلى بلدته، وكانت على مسيرة أربعين يوماً من بلنسية، ولكنَّ ابن غطوس بعد أمدٍ يسير شكَّ في وجود خطأٍ في شكل لفظٍ معيَّن من آيةٍ كريمة، وخاف أن يكون هذا الخطأُ في المصحف المباع فأخذته الحيرة، وتضاعفتْ المسؤولية في نظره، حيث إنَّ الكتابَ كتابُ الله! وهو مسؤولٌ عن صحّة ما به، فرأى أن ينجو من حيرته، وأن يتهيّأَ للرحيل إلى بلدة المشتري، وقاسى المتاعب خلال أربعين يوماً لم تنقطع بها الرحلة في ليلٍ أو نهار، حتى طرق باب المشتري وباغته بقوله: أين المصحف؟.

فدُهش الرجل وقال: ابدأ بالسلام يا رجل، فالمصحف مصحفي لم أسرقْه

ولم أغصبه. بل اشتريتُه بما اقترحتَ من ثمن! فقال ابن غطوس: سامحك الله! ما جئتُ لأنتزعه منك، ولكن توهَّمتُ خطأً في شكل حرفٍ من حروفه، فتعاظمني الخطب، ولم أهدأ حتى جئتُ إليك!.

فأسرع الرجل بإحضار المصحف، ففتحه ابن غطوس في لهفة، وعمد إلى آيةٍ من سورة الزخرف فقرأها، ثم أخرج مطراةً ذات حدٍّ رقيق من جيبه، وعالجَ بعض الشكل حتى تحوَّل من ضمَّةٍ إلى سكون، وأعاد السكون باللون الموافق، وقال: الحمد لله، لقد برئتْ ذمَّتي، والناسُ من حوله دهشون.

١٠٢ ـ من شعر شوقي

أنا مَن بدَّلَ بالكتبِ الصحابا	لم أجدْ لي وافياً إلا الكتابا
صاحبٌ إن عبتَهُ أو لم تعِبْ	ليس بالواجدِ للصاحبِ عابا
كلَّما أخلقتُه جدَّدني	وكساني من حُلى الفضل ثيابا
إن يجدْني يتحدَّثْ أو يجدْ	مللاً يطوي الأحاديثَ اقتضابا
صالحُ الإخوانِ يبغيكَ التقى	ورشيدُ الكتبِ يبغيكَ الصوابا

* * *

لعنات تاريخية

١٠٣ ـ أول اللعنات

أول اللعنات التي ظهرت في الكون، لعنةُ إبليس حين تكبَّر على السجود لآدم عليه السلام، فخرج من طاعة ربِّه ملعوناً مدحوراً، وقد آثر اللعينُ أن يقومَ بإغواء الإنسان، حيث يزيِّن له الشرّ، ويقبِّح له الخير، لذلك كانت الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أمراً مسنوناً، مخافةَ أن يوسوس بالشر، ولن يؤثِّر في غير الأشقياء، لأنَّ الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون.

وقد كان الشيطان بطلاً فعَّالاً في كثيرٍ من الروايات الأوروبية، ومن أشهرها رواية (فاوست) لغوته الألماني.

أما الشاعر الإسلامي الكبير (محمد إقبال) فقد كتب روايةً ممتازة تحت عنوان (مؤتمر إبليس) تخيَّل فيها ذلك اللعين مجتمعاً مع زبانيته، قبيل الحرب العالمية الثانية ليشرحَ لهم طريقة الإغواء في المجتمع المعاصر، ويذكر لهم أنَّ المذاهب السياسية من نازيَّةٍ وفاشية وديمقراطية لا تعوق رسالتَه الإجرامية، إنما الخوف كلُّ الخوف أن ينتبه الناس إلى المبادئ الإسلامية ذات العدالة المطلقة، والمناداة العاجلة بالحرية والإخاء والمساواة، فالخوفُ كل الخوف إذن من مبادئ الإسلام أن تنتشر، إذ يبطل معها تأثير الشيطان الرجيم.

١٠٤ ـ ولعنة الفراعنة

وأقدم اللعنات التي اشتهرت في التاريخ بعد لعنة إبليس هي (لعنة الفراعنة)، لأنَّ رجال الآثار الذين اكتشفوا مقبرة (توت خنع آمون) قد أُصيبوا باللعنة، فلقوْا مصارعهم تباعاً، وكان اللورد الإنكليزي (كارناردفون) قد قام بتمويل هذا الاكتشاف، وجنَّد له طائفةً من العلماء على رأسهم (هوارد كارتر) فتكلَّل عملهم

بالنجاح، وعثروا على المقبرة الملكية سليمةً كاملة، لم تمسس بسوء، كما كان اللورد (كارناردفون) أول من وطئت قدماه هذه المقبرة، وقد تُرجم له ما كُتب على الجدران من أنَّ الموت سيأتي سريعاً لمن يكتشف المقبرة، ويعمل على انتهاكها، فضحك كثيراً، ولكنه توفِّي بعد أسابيع متأثِّراً بلدغ حشرةٍ سامة، كانت تأوي إلى مقبرة الملك الدفين.

ثم تتابَع الموتُ حاصداً أحد عشر شخصاً ممن دخلوا المقبرة، ومنهم أخٌ للورد (كارناردفون) وبعض أقاربه، ثم تتابعت القتلى حتى بلغ مجموعها أكثر من العشرين! ونحن نعلم أنَّ الموت بقضاء الله وقدره، ولكن تتابُع القتلى على هذه الصورة، وقراءة ما كُتب من التحذير على الجدران كان باعثاً لانتشار الحديث عن (لعنة الفراعنة) وقد أشار إليها شوقي في رثائه للورد، حيث قال مكذِّباً الادّعاء الذائع عن أثر اللعنة، ومؤكِّداً أنَّ الروحَ سرٌّ من أسرار الرحمن، ولا يكون التنبُّؤ بمصيرها وقفاً على تأثير لدغةٍ خاصة:

صَادتْ بقارعةِ الصعيدِ بعوضةٌ ... في الجوِّ صائدَ بَازِه وعُقابه
وأصابَ خرطومُ الذبابةِ صفحةً ... خُلقتْ لسيفِ الهندِ أو لذبابِه
طارتْ بخافيةِ القضاءِ ورأرتْ ... بكريمتيْه، ولامستْ بلعابه
لا تسمعنَّ لعصبةِ الأرواحِ ما ... قالوا بباطلِ علمِهم وكِذَابه
الروحُ للرحمنِ جَلَّ جلالُه ... هي من ضغائنِ علمِه وغيابه
غُلبوا على أعصابهم فتوهَّموا ... أوهامَ مغلوبٍ على أعصابه

١٠٥ ـ الماسة الملعونة

أمّا حديث هذه الماسة فمما يُستغرَب، إذ قام تاجرٌ فرنسيٌ في القرن السابع عشر يُدعى (جين تافيرنير) بسرقة أثمن ماسةٍ من أحد المعابد الهندية، ويبلغ حجمها (١١٢,٥) قيراطاً، ونجح في تهريبها إلى فرنسة، فاشتراها الملك لويس السادس عشر، وأحضر مهرة الجوْهرية ليشكِّلوا منها ماسةً جديدة على هيئة قلبٍ كبير، وقد أنعمَ على السارق بلقب (بارون) فبلغ مكانةً لم يكن يحلم بها في

البلاط الفرنسي، غير أنه مات فجأة، ودارت الإشاعات حول موته، بما لم يُسفر عن رأيٍ حاسم، أما الماسةُ فقد أهداها الملك بعد أن تحوَّلت إلى قلبٍ ثمين إلى زوجته الملكة (ماري أنطوانيت) فكانت إحدى الأسباب الداعية لاندلاع الثورة، إذ صوَّرتْ نوعاً من البذخ الشديد، ودار البحث عمّن صنعها من الجوهرية فأُعدم، وعُرضت الماسة للشراء، فكان من يشتريها يصاب بعدَّة كوارث في نفسه وأولاده، حتى رأى المشتري الأخير أن تقسَّم الماسة إلى أجزاء صغيرة، وبذلك تفقد بهاءها الخالب، ثم باعها قطعةً قطعةً بالثمن البخس، لأنَّ الذين كانوا يشترونها أصبحوا يفترضون ارتقاب النحس المشؤوم، ولولا أنهم اقتنعوا بأنَّ الماسة بمعناها الخالب قد أصبحت أثراً بعد عين ما أقدموا على الشراء.

١٠٦ ـ لعنة البوم والغربان

ليس التشاؤم من البوم والغربان وقفاً على الأمة العربية وحدها، بل إنَّ التشاؤم من هذين الطائريْن أمرٌ مشترك بين الأمم جميعاً، ولعلَّ ما يكتنف هذين الطائرين من أحوالٍ قد كان مدعاةَ هذا التشاؤم. فالغراب لا يسكن غير الأماكن الخربة بعد نزوح أصحابها، ويُرسِل الصيحات المزعجة ذات الصوت المنفِّر، وقد سمَّاه العرب (غراب البين) لأنه يوجد في الطلول بعد الرحيل، فيلحظُ من يراه على بُعدٍ أنَّ أحبابَه قد ارتحلوا، وخلّفهم هذا الغراب، فهو نذير البعد والشتات.

ومن الطرائف أنَّ أبا السائب المخزومي، وكان أحد الظرفاء بالمدينة في العصر الأموي، حمل في يده غراباً، وانطلق به إلى السوق، وهو يضربُه بلطفٍ لا بعنف، ويقول له: لماذا طرتَ ولم تقعْ؟ لماذا طرتَ ولم تقعْ؟ فجعل القومُ حوله يتساءلون عن قوله، فابتسم أبو السائب وقال: استمعوا قول المجنون:

ألا يا غرابَ البَيْنِ قد طرتَ بالذي أحاولُ من لَيْلَى فهل أنتَ واقِعُ!

وسأظلُّ أضربه حتى يقع فيستريحَ المجنون.

أما البومُ فذو منظرٍ منفِّر، ولا يألف غير الخرابات والأماكن الموحشة، وله

صوتٌ مزعج، لذلك كان الإجماعُ على الانقباض من رؤيته شرقاً وغرباً أمراً طبيعياً، وهو شديد الفتك بفصائل الطيور ليلاً، إذ يهجم على الأوكار في الشجر، فيقتل الأسرةَ الآمنة من الطيور ولا يفلت منه شيء. وقد يهجم على المنازل، ليصطاد الطيور الداجنة بها، وأصحاب المنازل يترصَّدونه، ويحترسون من بلاياه.

وقد قال الجاحظ عن الغراب: «إنه من لئام الطير، وليس من كرامها، ولا من أحرارها، ومن شأنه أكلُ الجيف والقمامات، ومنه ما هو حالكُ السواد، شديد الاحتراق، ويكون مثلُه في الناس مثل الزنج، فإنهم شرار الخَلْق تركيباً ومزاجاً، كمن بردتْ بلاده فلم تنضجه الأحلام، أو سخنت بلاده فأحرقته الأرحام، فالغرابُ الشديد السواد ليس له معرفة، والغراب الأبقع واعٍ مدرك، وهو ألأم من الأسود».

وإذا كان الشعراء من القدامى قد أوسعوا الغرابَ ذمّاً، فإنَّ الشاعر المعاصر الأستاذ محمود حسن إسماعيل قد كتب عنه ملحمةً تحت عنوان (راهب النخيل) بديوانه الشهير (هكذا أغني) وقد بسط له من العذر ما ردَّ له اعتباره، إذ جعله فيلسوفاً ينطق بالحكمة، وجعل شروده العازف ردَّ فعلٍ لما يقابَلُ به من التنكُّر والخذلان، والقصيدةُ من روائع الشاعر الكبير.

١٠٧ ـ لعنة ابن الرومي

كان (ابن الرومي) لعنةً على نفسه قبل أن يكون لعنةً على غيره، فقد خُلق مرهفَ الإحساس، مرهقَ القوة، ضعيف الحيلة، قليل الصبر على كتمان ما في نفسه نحو من يحيطون به، وكان شعورُه الذاتيّ بتفوقه الشعري على من سواه، مع سوء حالته المادية، ومحاشاة الأثرياء والرؤساء أن ينيلوه بعض ما يرجوه، ورؤيته أضرابَه ومن دونه يرفلون في الثراء الجمّ والعطاء المتصل، كان كلُّ ذلك مصدر تعاسةٍ لنفسه، وشقاءً لا ينقطع، أضف إلى ذلك ما مُني به من التشاؤم الحادّ المفرط، فقد جعله كالمقيّد في الأغلال، يتوهَّم الخطر في كلِّ خطوةٍ

يخطوها، أو سِفْرٍ يتاحُ له كي يَنْعَمَ بعطاءٍ ممدوحٍ ماجد. ومن يكون كذلك لا بدَّ أن يعاني من ضروب القلق والتوتر والضيق ما لا طاقة له باحتماله، كما لا بدَّ أن ينفِّس عن صدره بهجاء مَن لا يعطونه ما يراه لنفسه من التبجيل الأدبي، والرخاء المادي.

وكان يؤلمه أن يقارنَ بين بؤسه الحالك، ونعيم البحتريّ الوضيء، فيجد الفرقَ هائلاً بين شاعرٍ يستجدي قوتَ يومه، وشاعرٍ يملك الضياع والقصور، وينالُ الحظوة لدى الخلفاء ومَن دونهم من الأمراء والوزراء وذوي الرياسة والسلطان! ولو أحسنَ الشاعر محاسنة الناس لكان له شأنٌ غير شأنه، ولكنه لايصبر عن إذاعة خطأٍ يراه في سلوك إنسانٍ مدحَه ولم يُثِبْه، فأوجد له طائفةً من الكبراء يناصبونه العداء لما أذاع عنهم من الهجاء، حتى مات مسموماً بدسيسةٍ من وزيرٍ حاقد، ساءَه أن ينالَه بالهجاء، فصمَّم على استئصاله بمكيدةٍ بلقاء.

هذا ما كان في حياته التي صارت لعنةَ اللعنات بالنسبة لشقائه الماديّ، وبؤسه الروحي، أما ما يقال من أنَّ اللعنة قد لاحقتْه بعد موته، فغير صحيح، لأنَّ شعر ابن الرومي قد تردَّد على الأفواه، وتناقلته الكتب والرواة دون انقطاع، ولئن كان (أبو الفرج الأصبهاني) قد تخطَّاه، فلم يترجم له في كتاب (الأغاني) فليس أبو الفرج وحدَه مؤرخ الأدب العربي في شتّى عصوره، لأنَّ سواه من المؤرخين والرواة لم يُغفِلوا شعره وأخباره، وقد تواترتْ مع الزمن على أسلات المؤلفين، حتى انتهى إلينا أكثر أمره! فكيف لاحقتْه اللعنة إذن.

وقد تفكَّه الأستاذ المازني، فذكر في بعض مقالاته، أنَّ لعنة ابن الرومي قد لحقتْ أحبابه في العصر الحديث، حيث نشر الأستاذ (محمد شريف سليم) جزءاً من ديوانه، فأحيل إلى المعاش، وكتب المازني بحثاً عنه فكُسرتْ قدمُه، وكتب عنه العقاد مؤلَّفاً رائعاً فزُجَّ به في السجن!

وهذا كلامٌ أشبه بالدعابة، ولا يمتُّ إلى الحقيقة، لأنَّ الأستاذ محمد شريف كان سيُحال إلى المعاش في سنِّه المقرَّرة، كتبَ عن ابن الرومي أم لم يكتب؟ وقد كُسرت قدم المازني كما تُكسر أقدام الكثيرين ممن لم يكتبوا عن ابن

الرومي لسببٍ صحيٍّ لا نفسيّ، أما العقاد فقد زُجَّ به في السجن لقولٍ سياسيٍّ نطق به في البرلمان، دون أن يتحفَّظ! وقد رأينا الآن عشرات الكتب والرسائل العلمية تُكتب عن ابن الرومي دون أن ينال أصحابَها خطرٌ ما، وفيهم من نال برسالته عنه أرقى الدرجات العلمية، فالمناصب الجامعية المرموقة! فأين هي اللعنة التي لحقتْ أحبّاء الشاعر؟.

١٠٨ ـ لعنة الحب

أحرُّ اللعنات وأوجعها لعنةُ الحب التي قال فيها صاحب ديوان (صدى الأيام):

إذا لعنةُ الحبِّ استبدَّتْ فصيَّرتْ	حياةَ ذويهِ في الورى كمماتِ
غدتْ لعنةُ الله التي ليس بعدَها	ولا قبلَها في الكون من لعناتِ
أيا كوكباً أبدى مُحيَّاهُ لحظةً	وأبقى لصرعاهُ دُجى السنواتِ
لأنتَ عذابُ الله نلمسُ هَوْلَهُ	بطلعةِ وجهٍ فاتنِ البسماتِ
أعندكَ أنّا لا نلذُّ طعامَنا	ونسأمُ حتى النومَ في الهجعاتِ

* * *

مشهورون ومغمورون

١٠٩ ـ الجندي المجهول

وكَمْ في الدنيا من جنودٍ مجهولين، فعلوا كلَّ شيء، ولم يُنسَب إليهم أدنى فضل، قد يكون في الإدارة عشرة موظَّفين، يقوم بالعمل عنهم واحدٌ فقط، ويتّكل عليه الآخرون، ثم تجيء الترقيات فتتخطَّاه وحدَه، وقد يؤلِّف الكتابَ إنسانٌ غير مشهور، ولكنه يُطبع مزداناً بعدّة أسماء، لم يكتب أصحابُها حرفاً، ويجيء الربح، فلا يأخذ المؤلف الوحيد غير الفتات!.

روى الأستاذ محمد سعيد العريان أنَّ حفلةً أدبية أُقيمت لتكريم أديبٍ مرموق الاسم، نُسب إليه كتابٌ ألَّفَه جنديٌّ مجهول، وجاء المؤلف المسكين ليحضر الاحتفال، فمُنع دون الوصول، لأنَّ المقاعد محدودة، وأُعدَّت للكبار من زملاء المؤلف الكبير!.

أما احتقارُ العاملين، مع الاحتفال بمن دونهم فقد جسَّدَه الكاتبُ الروسي (أنطون تشيكوف) في قصةٍ طريفة قال فيها على لسان مهندسٍ مغمور: إنني منذ بضعة أعوامٍ أنشأتُ قنطرةً عظيمةً في بلدة كذا، وأقيم احتفالٌ علنيٌّ لافتتاحها، فأُلقيتْ الخطب والمقالات، وجعلتُ أنتظر إذ ذاك تردُّدَ اسمي، وأتخيَّل الأبصارَ ممتدَّةً نحوي، والأعناق متطاولةً إليّ، ولو علمتُ الغيبَ لأرحتُ بالي من كلِّ هذا العناء والقلق، فقد احتشدت الجموع، وجعلوا ينظرون لكلِّ شيءٍ غيري.

ثم شوهدَتْ حركةٌ غير عادية في الجمهور، وأعقبها كثيرٌ من الهرج والمرج، وتهامسَ الناس، وأومضتْ على وجوههم ابتسامة الارتياح، وماجَ بهم المكان واضطرب، فقلتُ في نفسي: ربّما عرفوني! ولكنني علمتُ بعد لحظةٍ أنَّ سبب هذا الالتفات ظهورُ ممثِّلةٍ تافهة محدودة الطاقة، تتبعها حاشيةٌ من أسرى الغرام، تشقُّ

عباب الجماهير كالباخرة المزدانة، ووراءها الزوارق والعوّامات، والسفهاء الغافلون، يشيِّعونها بألحاظ الصبابة والهيام.

وانتهى الحفل، وخرجت الصحف تتحدَّث عن المهرجان، وحضور صاحب الفخامة محافظ المدينة، وفئةٍ من كبار الموظفين، وكان من بين الحضور الممثلة الطائرة الصيت، قرّة الأعين، تختال بين الصفوف في حلّةٍ أرجوانية موشّاة، تكاد من فرط حسنها تأكلها القلوب، وتشربها الضمائر، أما أنا ـ أنا المهندس ـ فعليَّ العَفاء، وفي سبيل الشيطان ما قدَّمتُ، وإلى جهنم وبئس المصير..

١١٠ ـ فكرة الجندي المجهول

ولكي نعلم شيئاً عن الأصل في فكرة الجندي المجهول، نذكر أنَّ فرنسة عقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت سنة ١٩١٨، رأت أن تختار من بين الجنود الصرعى في ساحة القتال ثماني جثثٍ من بين خمسمئة ألف قتيل لأبطالٍ مجهولي الأسماء، ووضعتْ كلُّ جثةٍ في نعشٍ ضخم، لتُنقل إلى باريس، لتشهد احتفالاً مشى في مقدِّمته كبار الوزراء والقوّاد ورجال الدولة، وعشرات الألوف من المواطنين، تتقدمهم ثمانمئة رايةٍ من رايات الجيش المختلفة، حتى وصلوا إلى (قوس النصر) لتسكن هذه العظام في ضريح الجندي المجهول، وقد أقيم على أفخم طراز، وأصبح كلُّ من فقد حبيباً في الحرب يؤمُّ هذا الضريح إذ هو رمزٌ للشهيد!.

وحذَتْ حذو فرنسة كلٌّ من إنكلترة، وبلجيكة، والولايات المتحدة، وإيطالية، وبولونية، والبرتغال، ورومانية، ويوغوسلافية!.

ونحن المسلمين في غنًى عن هذا كله، لأننا نصدِّق قول الله عزَّ وجلّ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

١١١ ـ جندي مجهول ذو إخلاص

إذا أردنا مثلاً حقيقياً للجندي المجهول في الإسلام، فإننا نُقدِّم بطلاً من أبطال فتح الإسلامي، حين قامت الجيوش الإسلامية في العهد الأموي بمحاصرة القسطنطينية بقيادة البطل الماجد (مَسْلمة بن عبد الملك) وخلاصة أمرِه، أنَّ المسلمين قد حاصروا حصناً منيعاً اجتهدوا في الاستيلاء عليه فلم يوفَّقوا، وأخيراً نقبوا به نقباً، لينفذوا إلى داخله، ولكنَّ الروم أدركوا خطورةَ عملهم، فوجَّهوا اهتمامهم إلى النقب، فكلَّما أراد أحدٌ من الأبطال أن ينفذَ منه قُتل، وأخيراً تقدَّم جنديٌّ باسل، فاخترق النقب، وصاولَ مَن أمامه ليلهيهم عن مَن خلفَه، فاندفع المسلمون وراءه، واستولوا على الحصن، وفرح المسلمون بنصر الله.

وحين انتهت المعركة جمع مسلمةُ بن عبد الملك الناس، وصاح: مَنْ صاحب النقب؟ واشرأبَّت الأعناق لرؤية البطل الفدائي، دون جدوى، وبعد تكرار النداء، تقدَّم جنديٌّ ملثَّمٌ لا يبين وجهُه، وقال: أنا أيها الأمير صاحب النقب، ولكن آخذ عليكم عهوداً ومواثيق ثلاثة، ألا تسوِّدوا اسمي في صحيفة، ولاتأمروا لي بشيءٍ، ولا تسألوني مَن أنا، فقال مسلمة: قد فعلنا ذلك، وغاب البطل في غمار الجند، فكان مسلمة يدعو بعد صلاته: اللهم اجعلني مع صاحب النقب.

١١٢ ـ تعليق الدكتور أحمد أمين

ذكر الدكتور أحمد أمين هذا النبأ الرائع، وقال تعليقاً عليه: «لو حلَّلنا نفسية هذا الرجل العظيم، والباعث على سلوكه، لكان أحد أمرين: إما أنه أراد أن يحتسبَ عمله لربه من غير أن يضعف قيمته بجاهٍ دنيويٍّ، أو مكافأةٍ مالية، وإما أن تكون فكرة الخير قد سمَتْ عنده، وملكتْ عليه نفسَه، فهو يعمل الواجبَ للواجب، من غير أن يدنِّسَه بنظرةٍ إلى ثوابٍ ما، وكلا الباعثين عظيمٌ، تضعف بجانبه البواعث الأخرى».

والحق أنَّ فكرة الخير للخير لا تدفع إلى الإيثار وحدَها، بل لا بدَّ من مددٍ

قـويّ من الإيمان، يسيطر على النفس، فتشرئبّ إلى رضوان الله وحده! وهو ما كان مُلاحَظاً بين الفدائيين من أبطال الفتح الإسلامي، إذ لم يكونوا من دارسي الفلسفة الأخلاقية، حتى يعتنقوا مبادئها، هُم في غنًى عنها بمبادئ الخلق الإسلامي، وبما ينتظرون من ثواب الجنة حين يقومُ الناس لرب العالمين!.

١١٣ ـ احتفال آخر

لم تقف فرنسة عند تكريم الإنسان وحده، بل كرَّمتْ حمامةً أدَّت واجبها في ساحة الحرب، وأقامتْ لها احتفالاً مهيباً، ودفنتْها في ضريحٍ كتبتْ عليه هذه العبارة (إلى الحمامة التي ماتت من أجل وطنها).

وموجز قصة هذه البطلة الرقيقة، أنَّ مدينة (فردون) وقفتْ أمام محاصرة الألمان وِقفةً ذات صبرٍ وجهاد، فقد ظلَّت حصونها المنيعة تقاوم الحصارَ شهوراً طويلة، حتى جرى القدرُ عليها بغير ما تحبّ، فاستسلمت بعد كفاحٍ مشهود.

وفي ليالي المحنة، ضرب الأعداءُ حولها نطاقاً من الحصار، وقطعوا أسلاكَ البرق، لتكون في عزلةٍ تامة، ثم أحاط المغيرون بالجيش المحاصر، وليس لديه مايقاوم الغزوَ المنتظر، فقام القائد العام بكتابة ورقةٍ صغيرة، وأدخلها في أنبوبةٍ معدنية خفيفة، ودعا زَوجين من الحمام الزاجل، ليختار منهما مايصلحُ لأداء الرسالة، فتفرَّس في أقواها، وربطَ الرسالة على رجلها بخيطٍ من خيوط المطاط، وأطلقها في الجو، فطارت إلى حيث تدرَّبتْ وعُلِّمت من قبل، ورآها الألمان، فحاولوا صيدَها بالرصاص، ولكنها لم تنثنِ عن عزمها، وقد نالتها رصاصةٌ أسقطت رجلَها، فسقطت على الأرض لعدّة لحظاتٍ ثم استعادت ثباتها، فحلَّقت طائرةً دون مبالاةٍ بما ينهمر نحوها، وحواليها، وأتمَّتْ رحلتها بعد ثلاث ساعات، قطعت فيها مئةً وخمسين ميلاً، وهوتْ بين الجنود صريعةً، بعد أن أدَّت رسالتها، فكان حزنُهم عليها أشدّ وأوجع، وطارت النجدة إلى (فردون) فأنقذتْها من البلاء العاجل، وتمَّ الخلاص لفرقٍ كاملة من الجيش الفرنسي والأمريكي، وروت الجرائدُ خبرَ الحمامة، فعمل الفرنسيون على تسجيل صنيعها، وأقاموا لها النصب التذكاري! ولا يزال محلاًّ للزيارة من المواطنين والوافدين.

١١٤ ـ جنود آخرون

هل نترك ساحات الحرب إلى ميادين أخرى من ميادين النضال يكافح فيها الجنود ال مجهولون؟ إنَّ الأستاذ أحمد حسن الزيات تحدَّث عن مدرِّسي المرحلة الأولى من التعليم، وهم من ذوي التبعات الجسيمة مع ضآلة الراتب، وعدم التقدير، وقد تعرَّضوا حينئذٍ لنقدٍ ظالم، يسوقه من يتجنَّى وقد علم، أو من يتوهَّم وقد جهل، فقال الكاتب الكبير:

«في ميدان الجهاد الثقافي جنودٌ مجهولون لا يشكرهم شاكر، ولا يكاد يذكرهم ذاكر، أولئك هم فرق الأساس الذين يمهِّدون الأرض للدفاع، ويعدُّون الجيش للعمل، ويهيئون الشعب للنهوض، وهم الذين يعيشون على عشرات القروش، وينفقون من ومضات روحهم ونبضات قلوبهم، وذخائر قواهم ما يهيّئ للقادة يومَ النصر أكاليلَ الغار، وألقاب الفخار، فإذا فشلت الخطط، وطاشت المعارك، ربأَ الناسُ بالقادة عن التُّهم، ورموا هؤلاء المجهودين المجحودين بنقص الكفاية وسوء الدربة.

ما ذنب المعلِّم إذا أخفق نظامٌ لم يصنعه، ومنهاجٌ لم يشرعه، وكتابٌ لم يؤلفه، هل هو إلا جنديٌّ كسائر الجنود، يكون أداةً للنصر أو الهزيمة على حسب ما يصدر عن القيادة من حكمةٍ وأفق.

المعلم الإلزامي والطالب الأزهري هما الشعاع المنبعث من نور الدين والعلم إلى القرية، ولولاهما لتدجَّى على القرية ظلامٌ من الضلال والجهل، لا يمتدُّ فيه بصرٌ ولا بصيرة، لأنهما يُعايشان سواد الشعب وعامّته من الزرّاع والصنّاع، فيوقظان العقلَ، ويحييان الضمير، ويعقدان الصلة الاجتماعية بين حياة المدينة والقرية» والمقال جيد نقتصر منه على ما تقدَّم.

١١٥ ـ شهادات صادقة

ظهرت تراجم ذاتية لكثيرٍ من الأدباء والسياسيين تتحدَّث فيما تتحدث عن

النشأة الأولى للمؤلف، وأكثرها يشيد بفضل مدرِّس المرحلة الأولى، الذي تعهَّد النبتة الصغيرة غارساً، وراوياً ومشذِّباً، حتى أسلمها للمدارس التالية، والمدرِّس الأول الذي يشاهده الطفل أول من يشاهد في مجلس التعليم لن يضيع صداه في نفسه، إذ يتصوَّره أعلى الناس مرتبةً، وإلا ما جلس هذا المجلس، وما سعى والده إلى المكتب معه راجياً أن يأخذَ حقَّه من توجيهه، وقد عرفتُ زعيماً كبيراً من رجال السياسة في مصر، زار القرية التي نشأ فيها، بعد أن اشتهر صيته، ووُلّي رئاسة الوزارة، فقابلَه أهل القرية بمظاهر الابتهاج، وتطلّع الرجل الكبير في المجلس الحاشد، متفرِّساً فيمن يعرف ومن لا يعرف من أبناء القرية فلم يجد مدرِّس المكتب، الذي تلقَّى على يده أول درسٍ تعليميّ، فسأل عنه، فقيل: إنه بالمنزل، وسيستدعونه، فقال الرجل: بل أذهبُ إليه، وتوجَّه بعد انتهاء الحفل إلى منزل أستاذه المتواضع، وكان يوماً مشهوداً.

١١٦ ـ من شعر عبد المطلب

يقول شاعر البادية الأستاذ (محمد عبد المطلب) الأستاذ بدار العلوم، ومن كبار شعراء هذا القرن:

بني مصرَ ما بالُ العلمِ كاسفاً ... يرى الناسُ فيها يكبرون ويصغرُ
سلوا عنه جنحَ الليلِ كم باتَ متعباً ... تنامُ حواليه النجومُ ويسهرُ
سلوا عنه أسفاراً قضى الليلَ بينها ... غريباً عن الدنيا وأهلوه حُضَّرُ
سلوا عنه إخواناً قضى العمرَ بينهم ... غدوا في ثراءٍ، وهو بالفقر أخبرُ
فإنْ مدَّ للدنيا يداً يستمدُّها ... ندّى عنه ولّت وهي غضبَى تشزرُ

* * *

عشاق ضعفاء

١١٧ ـ نسألك العافية

قرأتُ منذ أربعين عاماً أو تزيد مقالاً جيداً للأستاذ علي الجندي بجريدة (الأهرام) تحت عنوان (اللهمّ إنا نسألك العافية) تعرّض فيه لقصصٍ عاطفية ذاع حديثُها في الأدب العربي، فأحسن الاختيار، وأجاد التعبير، وكنتُ أتذكّر هذا المقال بين الفَيْنة والفينة، فأشعر بشوقٍ لقراءته، ولكنَّ تاريخَه المحدَّد غاب عني، والذي أذكره أنَّ المقال دار حول المشهورين من أمثال قيس، وعروة، وكُثيِّر وجميل، مع أنَّ المغمورين أكثر لوعةً، وأشدُّ حرقة، وأخبارهم تلوحُ في ضبابٍ لا يكشِفُ، وما ذُكر قيسٌ ونظراؤه إلا لأنهم شعراء، خلّدوا أشجانهم فيما قالوه، وكم من آلافٍ تعذّبوا ولم يُرزقوا موهبة الشعر، فماتت أحاديثُهم بموتهم، بل كم من آلافٍ أخفوا صباباتهم بين الضلوع، فلم يعلم عنها أحد، وهي أشدُّ لهيباً من صبابة من أذاع وأعلن، لأنَّ التنفيس بالشكوى يعقب راحة، ويدفعُ للمواساة! أما الكتمان فنارٌ تحرقُ حتى تأتي على كلِّ شيء.

١١٨ ـ نبذة من مقال

كتب الروائي الكبير (واشنجطون أرفنج) كلمةً رائعة قال فيها:

«كم من عينٍ متألقة خبا ضياؤها، كم من خدٍّ أسيل غدا شاحباً، كم من وجهٍ جميل طواه الردى دون أن يدري أحدٌ سرَّ ذبوله العاجل، إذ من طبيعة المرأة أن تُخفي عن العالم آلامَ عواطفها المجروحة، كما تضمُّ الحمامةُ جناحيها إلى جنبيها، تخفي بهما السهم الذي يوغل في مقاتلها، وحبُّ المرأة الحسّاسة هادئ خجول، ومهما وُفِّقت فيه فقلّما تصرِّح به لأحدٍ، أما إذا خاب رجاؤُها، فإنها

تطويه في أعماق الأعماق، لتتعذَّب به وحدها، فهي تعافُ الألعاب البهيجة، وتنأى عن الاجتماعات السارَّة التي تنعش الفؤاد، وتدفع تيارات الصحة إلى العروق، ثم تقلقُها الأحلام السود، ويمتصّ الأسى دماءَها، حتى ليُمسي جسمها مريضاً يكاد يتهدَّم، وقد يعاجلها الموت، فلا يدري أحدٌ سرَّ مأساتها، وقد يقول أحد أقاربها: أصابها بردٌ مفاجئ، ومثلُها مثلُ الدوحة الفينانة، تزدهر الغابةُ بها وتزدان، وتقف رشيقةَ القدِّ ميّاسة الأغصان، بينما ينهش الدود لبَّها، فيسرع إلى الذبول حين يُرجى إشراقُ نضرتها، وبهاء رونقها، وعلى غرَّةٍ نراها وقد مالت بأغصانها إلى الأرض، وأخذت أوراقُها تتساقط، ورقةً ورقةً، إلى أن تضمحلَّ وتموت في سكون الغاب، فإذا تأمَّلنا هذه الأنقاض المبعثرة منها، أخفقنا في تعليل ما حدث، محاولين أن نذكر هبوب عاصفةٍ أودَتْ بها، أو صاعقةٍ من السماء تكون قد أصابتها فجأةً، ولا نسأل لماذا أصابتها العاصفة أو الصاعقة وحدها، والشجرُ من حولها كثيرٌ لم يمسّ بسوء!.»

هذا ما قاله (واشنجطون) عن قلب المرأة، وكأنه نسي أنَّ الرجل مثلها في هذا المضمار، فقد يُبيح ويعلن وقد يكتم ويُكنّ، والمصير واحد هو الذبول السريع.

١١٩ ـ من حماسة أبي تمام

أيا خلّةَ النفسِ التي ليس دونَها ... لنا من أخلّاءِ الصفاءِ خليلُ

ويا مَنْ كتَما حبَّه لم يُطَعْ به ... عدوٌّ، ولم يؤمن عليه دخيلُ

فديتُكِ أعدائي كثيرٌ، وشقّتي ... بعيد، وأشياعي لديك قليلُ

وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعلّةٍ ... فأفنيتُ علّاتي فكيف أقولُ

صحائفُ عندي للعتابِ طويتُها ... ستُنشَر يوماً، والعتابُ يطولُ

فلا تحملي إثمي وأنتِ ضعيفةٌ ... وحملُ دمي يومَ الحسابِ ثقيلُ

* * *

محرجات أدبية

١٢٠ ـ مأزق حرج

صديقي الأستاذ الكبير (م. ن) أستاذٌ كبير، يشغل منصباً دينياً كبيراً، وهو عالمٌ متواضع النفس جميل الخُلق، صريحٌ كلَّ الصراحة في ذكر ما يحدث له من مواقف يخالفها التوفيق، وقد حدَّثني عن مأزقٍ حرج وقع فيه فقال:

«دُعيت إلى حفلٍ دينيّ بإحدى العواصم الكبيرة، وراقني أن أسمع كلمةً دينية في تفسير نصٍّ قرآني كريم ألقاها واعظٌ فاضل، فذكر من الدقائق البارعة، والتحليلات الشافية، والاستشهادات المؤيِّدة ما ملأ نفسي إعجاباً به، وحين انتهى من كلمته، حرصتُ على تزكيته، والإشادة به، ولكنه قال: إنه رجع إلى تفسيرٍ عصريٍّ لعالمٍ شهير، نقل عنه كلَّ ما ذكر، فشكرتُ له صِدقَه، وذهبتُ من فوري إلى مكتبتي لمراجعة ما قال العالم الكبير، فوجدتُ الواعظ قد التزم بكلِّ ما قال التزاماً يكاد أن يكون حرفياً، فعاودتُ قراءة ما كتبَ المفسِّر الشهير مثنى وثُلاث حتى انطبع في ذاكرتي لا بالمعنى فقط، بل بأكثر الألفاظ والتراكيب، وجعلتُ أستعيد التفسير في شغفٍ وإعجاب.

وبعد يومين دُعيتُ لحفلٍ ديني في بلدةٍ مجاورة، ولم أكن أظنُّ أني دعيتُ للكلام، بل للمشاهدة فحسب، ففوجئتُ بجمهور الحاضرين يطلب مني أن أُلقي كلمةً شافية، واضطررتُ للحديث، وكنت على ذكرٍ مما قرأتُ من تفسير العالم الكبير، فأجرى الله على لساني كلَّ ما قال، وتوقَّعتُ أن أجد الق.. لَ من السامعين لنفاسة ما تحدَّثتُ به، ولكني وجدتُ من مظاهر الفتور والحَيْرة، ما لم أتوقَّع، وقد انتهيتُ من كلمتي لأجلس إلى جوار زميلٍ فاضل، فسألته عن أثر الحديث في نفسه فابتسم، فزادت حيرتي، وقلت له: تحدّثْ صريحاً يا أخي، فقال الزميل

الفاضل: لقد كان الأستاذ فلان (وذكر اسم الواعظ الذي سمعتُ الكلمة الأولى منه) هنا منذ ساعتين، وألقى الكلمةَ التي تكرَّمتَ بإلقائها، والجمهورُ هو الجمهور، والألفاظ متقاربةٌ جداً إلى حدٍّ يُدهش، فأدركني من الحيرة والخجل ما أهمَّني، واستأذنتُ منصرفاً، إذ لم أتحمَّل البقاء!.

قلت له: الأمر يسيرٌ يا أخي! فقال: لا تُجامِل، فالأمر عسير، وقد روَّحتُ عن نفسي بالحديث عنه إليك، لأتخفَّف من بعض ثقله! وهيهات!.

١٢١ ـ مأزق آخر

حدَّثني زميلٌ شاعر فقال: نظمتُ قصيدةً بائية في رثاء زوجتي، ونشرتُها بالعدد الممتاز من مجلة (العربي) الكويتية، وهي إحدى المجلات الشهيرة، وبخاصّةٍ عددها السنوي الممتاز، الذي يحرص الكثيرون على اقتنائه، ثم فوجئتُ بعد عامين بصدور مجلة (الثقافة) القاهرية، وبها قصيدتي ممهورةً باسم أديبةٍ ناشئة قالت: إنها نظمتْها في رثاء زوجها!!

وبعد يومين رأيتُ الأديبة الناشئة ـ ولم أعرفها من قبل ـ تسرع للقائي باكيةً شاكية، ترجو أن أنقذ سمعتها، لأنَّ رئيس التحرير اتّصل بها هاتفياً ليؤنِّبها أشدَّ التأنيب، فتعجَّبتُ مما طلبت، وقلت: وكيف السبيل إلى إنقاذ سمعتك؟ قالت في سذاجة: تقول إننا نظمنا القصيدة معاً، فقلت: من المعقول أن نشترك معاً في تأليف كتابٍ علمي، أما أن نشترك في تأليف قصيدةٍ أو قصة فهذا مما لا يُعقل! فازداد بكاؤها وتوسُّلها.

وطال الوقت دون أن تنصرف، فهداني الله إلى ما يشبه الحلّ، فقلت لها: قولي لرئيس التحرير إنك قرأتِ قصيدة العربي، ونسختِها بخطِّك لتكون من محفوظاتك، وجاءت إحدى صاحباتك، فقرأت القصيدة بخطِّك وظنَّتها من نظمك فأرسلتْها للمجلة دون علمك! فقالت: فكرةٌ والله!.

ولكن رئيس التحرير ـ وهو أديبٌ فاضل، وناقد مرموق ـ لم يقتنع بما كُتب له، لأنَّ الأديبة الناشئة حوَّلت ضمير المؤنث إلى ضمير المذكَّر في أكثر الأبيات!

فكيف يلتئم هذا مع ما تدّعيه، ورفض أن ينشر الاعتذار . . . ولا زلتُ أبحث لها عن مخرج .

١٢٢ ـ مأزق ثالث

تصدَّر أحد الإداريين ممن لا يمتُّون إلى الأدب الحقيقي بصلةٍ أكيدة للحكم في بعض مسابقات القصة القصيرة، التي تقيمها النوادي العربية أحياناً، وقد سوَّلت له نفسه أن يختار قصةً ممتازة وقَّعها بعض المتسابقين باسمه، لا ليجعلها الفائزة بالمرتبة الأولى كما ينطق واقعُها الفنّي الملحوظ، بل ليدَّخرها لنفسه، ويمهرها بتوقيعه غير الكريم، وقد توهَّم أنَّ صاحبها المغمور لا يستطيع أن يدَّعي أنه المنشئ، ولعلّه لا يقرؤها في مجموعته التي ينشرها في نطاقٍ محدود .

ولكنَّ المفاجأة القاسية قد صدمت المؤلف السارق، حين اتّضح لعددٍ من القرّاء أنَّ القصة لأديبٍ كبير، قد نشرها في الصحف منذ سنوات، ثم جمعها في كتابٍ تعدَّدت طبعاته! فنقلها المتسابق الناشئ حرفياً، دون أن يُقدِّر تبعة ما صنع، وظنَّ الحكَم النزيه أنَّ القصة من تأليف المتسابق الخامل، فسوَّلت له نفسه أن يغتصبها، وقد بعث هذا العمل الشائن شكّاً قوياً في بقية قصص المجموعة، فأخذ القرّاء يتعقَّبون أصولها في شتّى المجلات، لأنَّ من يُقدِم على هذا النهب الفاضح، لا بدَّ أن يكون ذا سوابق عدّة، وهذا ما تحقَّق للأسف .

١٢٣ ـ سرقات المازني

الكاتب الكبير الأستاذ (إبراهيم عبد القادر المازني) اتُّهِم بالسطو الأدبي شعراً ونثراً على آثار الكبار من أدباء الغرب، وقد واجهَه في مجال السرقة الشعرية زميلُه الأستاذ (عبد الرحمن شكري) بما اقترف، ودارت معركةٌ بين الصديقين الكبيرين أدَّت إلى القطيعة، والعجيبُ أنَّ المازني دافعَ عن نفسه دفاعاً هو الاعتراف بعينه، إذ لم يجرؤ على إنكار الاتهام .

ففي مقدمة الجزء الثاني من ديوانه، تعرَّض إلى اتهامه بالسطو فقال

ما ملخَّصه: «أما ما اتُّهمنا بسرقته مما ورد في الجزء الأول من ديواننا فقصيدة (فتى في سياق الموت) وهي ثمانية أبيات، وقد راجعْنا قصيدة هود الشاعر، فوجدْنا في قصيدتنا أبياتاً ليست له، ونحن ننزل عن القصيدة كلِّها راضين، وقصيدة (قبر الشعر) وهي خمسة أبيات نكلُها إلى حظِّ أختها، وقد راجعنا دواوين الشعراء، فلم نعثر على شيءٍ يجوز من أجله اتهامنا بالسرقة إلا أبياتٌ في (رقية حسناء) وهي (لشلي) والجزء الأخير من قصيدة (أماني وذكي) وهي (لبيرنز) وأول هذا الجزء (يا ليت حبي وردة) ولو أنَّ ما أُخذ علينا في الجزء الأول وما نبَّهنا القرّاء إليه من تلقاء أنفسنا حُذف، لما أنقصَ ذلك من قيمة شعرنا، فإنه في ديواننا الأول نحو ألف بيت، وليس ما أُخذ علينا خيرها!».

أما دفاع المازني عن نفسه في السرقة القصصية فأعجب، فقد ترجم قصةً لأديبٍ روسي كانت ذات أثرٍ قويّ في نفسه، وظهرت القصة المترجمة للقرّاء، وتعالَم الناس أمرَها، ثم كتب المازني قصة (إبراهيم الكاتب) فجاءت بها خمس صفحاتٍ متوالية لم تنقص حرفاً واحداً مما تُرجم من قبل، وجعل القارئَ يحسُّ أنها مؤلَّفةٌ لا مترجَمَة.

والقرّاء لا يعيشون في جحور النمل، إذ فطنوا إلى السرقة الواضحة، وواجهوا المازني بها، فكتب مقالاً طويلاً بمجلة (الرسالة) يقول فيه: «إنَّ الصفحات هنا هي بعينها هناك بدون أدنى فرق، لا اختلاف على الإطلاق في واوٍ أو فاءٍ أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث! ولكن مَن الذي يصدِّقني حين أؤكد له أني لم أرَ الرواية الأولى (ابن الطبيعة) منذ فرغتُ من ترجمتها، وأني لو كنتُ أريد اقتباس شيءٍ من معانيها لما عجزتُ عن صبِّ ذلك في عباراتٍ أخرى، ولكنَّ الواقع هو أنَّ الصفحات الخمس علقت بذاكرتي وأنا لا أدري، لعمق الأثر الذي تركتْه هذه الرواية في نفسي، فجرى بها القلم، وأنا أحسبُها لي، ومَن شاء أن يصدِّق فليصدِّق، ومن شاء أن يحسبني مجنوناً فإنَّ له ذاك، ولستُ أروي هذه الحادثة لأدافع عن نفسي، فما يعنيني هذا، وإنما أرويها على أنها مثالٌ لما يمكن أن تؤدِّي إليه معابثة الذاكرة للإنسان، وليست الذاكرة خزانةً مرتَّبةً مبوَّبة، وإنما هي بحرٌ مائج يرسبُ ما فيه ويطفو، دون ضابطٍ نعرفه، ومن غير أن يكون لنا عليه

سلطان، فالمرء يذكر وينسى!».

ثم ألحق المازني في دفاعه الإشارةَ إلى سرقاتٍ ارتكبها كبار الأدباء في الغرب عامدين، أشير إليها بإيجاز.

١٢٤ ـ سرقات الكبار

أشار المازني إلى الشاعر الإغريقي الكبير (هوميروس) فذكر أنّه المعتمد في قصيدته (الإلياذة والأوديسة) على القصص المصريّة القديمة في العهد الفرعوني، وأنّ الأستاذ عبد القادر حمزة أثبت ذلك بما لا يقبل الشكَّ، وأنَّ كل ما فعله هوميروس هو تغييرُ الأسماء من مصرية فرعونية إلى إغريقية، كما أنّ المؤرخ الكبير (هيردوت) قال عن (هومير) إنّه منظّم فقط لا مؤلّف، لأنّه جمع القصص القديمة ووضعها في إطارٍ خاص فحسب، ومعنى هذا أنّ هُومير لم يبتكر قصصه، وإنما جمعها ورتبها ونظمها.

وبعد أن أفاض المازني في تسجيل سرقات (هومير) انتقل إلى الشاعر الإنكليزي الكبير (ملتون) فذكر أنَّ ناقداً كبيراً هو الأستاذ (نورمان دوجلاس) أثبت بما يقطع الشكَّ أن قصيدة (الفردوس المفقود) لملتون، مسروقةٌ من رواية أدبيّة كتبها الأستاذ (سرافينو ديلّلا سالاندرا) همُ الله وملائكته، وآدم، وحوّاء والحية وإبليس، وهم أشخاص ملتون، ومجلسُ الملائكة المتمردين، وسقوطهم من السماء في منطقة جرداء نارية، وأحاديثهم الغاضبة. . . كلُّ ذلك متفق في الروايتين، ووالى المازنيُّ نشر وجوه الاتفاق على نحوٍ مسهبٍ!.

كما أثبت المازنيُّ أن رواية (تاييس) الشهيرة التي كتبها (أناتول فرانس)، مأخوذةٌ من رواية (هايبيثا) للكاتب الإنكليزي (تشارلز كنجزلزي)، فالصّور والشخصيات والموضوع متحدة، والمازني مع هذا يفضّل رواية (هايبيثا) ويراها أكبرُ وأعمقُ وأملأُ للنفس، وأمتعُ للعقل.

ومن يقرأ هذا الكلام يطمئنّ إلى أنّ المازني يعتقد أنَّ الخطأ يبرّر الخطأ،

وأنَّ هؤلاء الكبار قد أخطؤوا ولم ينقصْ من قدرهم هذا الخطأ، فلماذا يُهاجم وله نظائر من الكبار! وبمعنى آخر إنّ المازني يعترف بالسّرقة! دون إنكار.

١٢٥ ـ ابن الرومي يتهم البحتري

يقول ابن الرومي عن زميله البحتري من قصيدة هاجية:

قُبحاً لأشياءَ يأتي البحتريُّ بها ... من شعرِه الغَثِّ بعدَ الكَدِّ والتعبِ

وقد يجيءُ بخلطٍ فالنحاسُ له ... وللأوائلِ ما فيه من الذهبِ

سمينُ ما نحلوه من هنا وهنا ... والغثُّ منه صريحٌ غيرُ مجتلبِ

عبدٌ يغير على الموتى فيسلبهُم ... حُرَّ الكلامِ بجيشٍ غير ذي لَجَبِ

ما إن تزال تراه لابساً حُللاً ... أسلاب قومٍ مضوا في سالف الحِقبِ

يُسيء عفّا، فإنْ أكْدتْ وسائله ... أجاد لصّاً شديدَ البأس والكَلَبِ

يعيب شعري وما زالتْ بصيرتُه ... عمياءُ عن كلِّ نورٍ ساطعِ اللهبِ

* * *

عن العصاميين

١٢٦ ـ الفقر مدرسة

الفقر مدرسة النبوغ، فأكثرُ من ذاع حديثُهم في عوالم السياسة والأدب والعلم والاقتصاد والصناعة تربّوْا في مهادِ الحرمان، فكان حافزُهم إلى التفوق، ولا أنكر أنّ كثيراً من ذوي الثراء قد بلغوا مبلغاً كبيراً من الفضل، ولم تشغلْهم ملذّات الرخاء عن التحصيل العلمي، أو الكسب الماديّ من أبوابه المتعدّدة، ولكنّهم قلّةٌ بالنسبة إلى الكثرة الكاثرة، وأذكرُ أنّ الإمام (ابن حزم) الفقيه الأندلسي الكبير قد نشأ في مهادِ النعمة والوزارة والحكم. ولكنّه بلغ من العلم مبلغاً جعل له الإمامة والتصدير في ملته، وقد كان زميلُه أبو الوليد الباجي الفقيه الأشهر يقول له: إنّه نشأ َمنعَّماً مرفهاً، فوجد الطريق ذَلُولاً هيّناً إلى الرفعة العلمية.

أمّا الباجي فقد نشأ معدماً فقيراً، فلاقى من المصاعب والأهوال ما أرّقه وأضناه، حتى تصدّر في دُنيا الفضل والعلم، وذلك مما يُحسَبُ له، فردّ عليه ابنُ حزم بأنَّ الفضل له هو، لأنَّ النّعمة التي نشأ فيها كانَ من شأنها الطبيعيّ أن تشغله عن التحصيل الملحّ، كما شغلتْ عشراتٍ سواه، فلماذا يكدَحُ ويكدّ، والمالُ ميسور، والرغباتُ دانية القطوف، أما الفقر الذّي نشأ فيه الباجي وأمثالُه، فهو الحافزُ الملحّ، الذي يدفعُ دون إبطاء، فإذا نبغ الفقير حينئذٍ فغيرُ مستغرَبٍ، إنّما المستغرَبُ أن ينبغَ أمثالُ ابن حزم، وهذا منطقٌ قد يُردّ في بعض وجوهه، ولكنْ له وجهته السديدة أيضاً.

١٢٧ ـ أبو يوسف القاضي

وقصة أبو يوسف الإمام الفقيه الشهير مع أمّه معروفةٌ ذائعة، فقد مات والده وهو طفل صغير، ولاقتْ أمّه المصاعب الهائلة حتى بلغَ العاشرة، فدفعتْ به إلى

صابغ ثياب ببغداد، ليتمرَّن لديه، ويأخذ من الأجر اليوميّ ما يكفيه قوته، لأنّها كانت تغزل الصوفَ طيلة اليوم فلا يسعفها إلاّ بما يُمسك الرمق على ضيق، ولكنّ الولد كان يرجِعُ إليها خالي الوفاض، فظنتْ أنّ الصابغ سيُعطيه أجرَ الأسبوع عند نهايته، ومضى الأسبوع، ولم يأتِ الغُلام بشيء.

فارتابتِ الأمّ، ورأت أن تتبع ولدها حين يمضي، فلعلّه يلهو مع رفقاء السوء دون أن يلمَّ بعمله، واجتاز الغلام محلّ الصابغ دون أن يدخل، وتابع المسير، فرأت الفرصةَ سانحةً، لأنْ توالي تتبّعه، وتدهمه حيث يلهو، ولكنّها وجدته يدخل المسجد الجامع، وليسَ الوقت وقتَ صلاة، فتعجّبت، ونظرتْ تتأمل، فإذا أناس كثيرون يدخلون، منهم الغلام والشاب والرجل والكهل، فتساءلتْ مندهشة، فقيل لها: إن إمام المدينة أبا حنيفة يلقي دَرْسه العلميَّ، وإنّ ولدك حريصٌ على الاستماع إليه، ولم تُدركْ أبعادَ ما يصنع فتاها، فوقفتْ متلدّدة ساخطة، ومكثتْ ساعات حتى فرغ الشيخ الكبير وهمَّ بالخروج، فتقدّمتْ إليه ساخطةً، وقالت له: أفسدتَ عليّ ابني، إني فقيرة بائسة، والولد يتيمٌ لا أعولُه إلاّ بشق النفس، وقد دفعتُ به إلى صابغ الثياب ليعينني على الحياة، فتركَ كلّ شيء، واتّجه إليك.

وكان أبو حنيفة سهلاً سمحاً، فردّ الأمَّ ردّاً كريماً، ودعا التلميذ فمنحه بعض ما في جيبه، وقال له: فيك استعدادٌ، ولك موهبةٌ، وقد توهّمتُ أنّك ستحلّ المحلّ الجهير إنك ستأكل بهذا العلم الفالوذج بدهن الفستق، ورجع يعقوب (واسمه هكذا) إلى منزله، فوجد الأم صابرة صامتة، إذ أثّر في نفسها حديثُ الشيخ الكريم.

قال الراوي: ومضت الأيام، وذاع صيت أبي يوسف، فأصبح فقيه بغداد وقاضيها الكبير، وظفر بمحبة الرشيد، وكان لا يصبر عن مجالسته، وفي ليلة دعاهُ الرشيد إلى الطعام معه، ونظر أبو يوسف فوجد على المائدة الفالوذج غارقاً في دهن الفستق، فتأمّل كمن يتذكر أمراً. وقال في غِبْطة: رحم الله أبا حنيفة، وسأل الرشيدُ عما بنفس القاضي، فروى له الحادث!.

١٢٨ ـ أديب إنكليزي

نشأ الدكتور (جُونسُن) صاحب المعجم اللغوي الأشهر فقيراً معوزاً، ولكنّه ثابر على التحصيل، حتى بلغ مبلغاً كبيراً في الأدب والثقافة، فسار له ذكرٌ حميد، وأصبح إلى جانب الكتابة الأدبية خطيباً مفوّهاً، وقاصّاً بارعاً، ثم دفعتْه الهمة إلى أن يؤلّف أوّل معجم شامل في اللغة الإنكليزية، وواصلَ البحث المضني في هذا السبيل الشاق حتى أتمّه. ولكنّ طبعه وذيوعه يحتاجُ إلى مؤازرة كثير من العظماء، ليُقدّمَ نفقات الطبع، وقد كان الميسورون من عِلْيةِ القوم يَرعُون حقوقَ الفقراء من المؤلّفين أحياناً، فيكفونهم هموم النشر وبلاياه، فطمح (جونسن) إلى أن يجدّ في اللورد (تشسترفلْد) هذا النصير، إذ كان يتباهى بحب العلماء مع معرفةٍ جيّدة بالعلوم والآداب، فأعلن جُونسن إهداءَ معجمه إلى اللّورد، وطفق يتردّدُ عليه، آملاً أن يجد عنده العون المادّي، فيطبع المعجم على نفقته، مُصدّراً بالإهداء المسهب اعترافاً بيده.

ولكنّ اللورد جافاه، واستثقلَ رؤيته، وأوصدَ بابه دونه، ولم يؤثر ذلك في عزيمة المؤلف العالم، بل صبر سبع سنين مجدّاً دائباً، ومقتصداً من قوته الضروري، حتى استطاع أن يطبعَ المعجمَ، وأعلنَ في الصحف أنه على وشك الفراغ من طبعه، وهنا تيقّظ اللورد من سكرته، وأحبَّ أن يظهر المعجمُ متوّجاً بالإهداء إليه، فكتب مقالاً رنّاناً يُقرّظ المعجم، ويعلنُ أنه سيبذلُ ما يُساعِدُ على نشره، ولكنّه فوجئ في اليوم التالي بردٍّ للمؤلف يقول فيه:

لقد كنتُ يا سيدي ذا أمل في تشجيعكم من قبلُ، ولكنّي وجدتُ زياراتي المتتابعة إليكم لا تُقابلُ إلاّ بترحاب الزاهدين فيها، فلم تسمحْ كرامتي باستمرارها، بعد أن استنفدتُ كل ما أقدِرُ عليه من أصولِ اللياقة والتقرب إليكم دون جدوى!.

سبعةُ أعوام ـ يا مولاي ـ قد تولّتْ منذ اليوم الذي كنتُ أنتظر فيه في دهليز داركم، أو أُنحّى عن أعتابكم، وأنا في خلال ذلك أدفعُ بعملي فوق الشوك، وأُلاقي صعوباتٍ لا جدوى في سردها الآن، حتى إذا وصلتُ بعد الصبر المرّ إلى

حافة النشر من غير كلمة تُساعد، أو حتى ابتسامة تشجّع، أجدُ مَن يقرظني وأنا في غير حاجة إلى تقريظ!.

ليسَ وليّ النعمة - يا مولاي - هو الذي ينظر إلى الغريق في أمواج البحر يُصارع المياه طلباً للنجاة من الغرق، فيتجاهله ويزدريه، حتى إذا رآه في جوار الشاطئ مدَّ إليه طوقَ النجاة، وهو في غير حاجة إليه، إنّ هذه الرعاية التي تتفضل بها عليَّ لو كانتْ مبكرة لكانت طيبة، ولكنّها تأخرت كثيراً، حتى أصبحتُ لا أباليها، ولا أستطيعُ أن أستمتع بها، وعسى ألّا يكون من نكران الجميل ألّا أعترفَ بيد لم يَنَلْني خيرها، أو ألّا أُعلن للناس أنني مدينٌ لذي جاهٍ بما قُمت به بفضل الله وحده، لا بفضل أحدٍ سواه، وإذا كنتُ قد بلغتُ هذه المرحلة غير مستمد عوناً من غيري، فإني قد استيقظتُ منذ زمن طويل من حلم الأمل، الذي كنتُ به مخموراً من قبل...

١٢٩ - الوزير المهلبي

بلغ (أبو محمد الحسن المهلبي) من الجاه والحظوة مبلغاً ما كان يُتاح لمنْ نشأ نشأته في مهاد المسغبة والجوع، ولكنّه كان ذا فضل جم، واعترافٍ بالحقِّ لصاحبه، وله كياسةٌ في معاملة الرؤساء، إذ يكظم الغيظ فيما لا يُحتمل كظمه، ولكنَّ حسنَ العاقبة التي تلوحُ لعينه في وقت الشدة كان يهوّن عليه كلَّ صعبٍ، فيبتسمُ وهو يحزن، ويمدح وهو يبطِنُ القدح.

كان قبل ائتلاق نجمه سائحاً في البلاد، لا يجدُ المأوى المريح، وقد حدّث عنه زميلُه أبو علي الصوفي فقال: كنتُ أماشيه في بعض أوقات الشدة، فسمعتُه يُهَمْهِمُ ببيتين من نظمه، فطلبتُ أن يُسْمِعَني إيّاهما، فإذا هما:

ألا موتٌ يُبَاعُ فأشْتَريهِ ... فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيْه
ألا رَحِمَ المُهَيْمنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تَصدَّقَ بالوَفاةِ على أخِيْهِ

ثم مضى الدهرُ، فدخلتُ البصرةَ فرأيتُ مواكبَ واحتفالاتٍ في البر والبحر، فسألتُ لمن هذا؟ فقيل للوزير المهلّبي رجل الدولة. ووزير أحمد بن

بويه ومستشا. الأول، وبالغُوا في تقدير منزلته. فاجتهدتُ حتى وصلتُ إليه، فسلّمت، وانتظرت حتى خلا المجلس، فعرض لي بيتان قلتهُما على سبيل المداعبة وهما:

ألا قُلْ للوزيرِ بلا احتشامِ	مقالَ مُذكِّرٍ ما قدْ نَسِيْهِ
أتَذْكُرُ إذْ تَقُوْلُ لِضِيْقِ عَيْشٍ	ألا موتٌ يُباعُ فأشْتَرِيْهِ

فنظر إليَّ، وقال: نعم، ثم نهض وأنهضني معه إلى مجلس الأنس، وجعل يذاكرني فيما مضى، ويذكر لي كيف تبدّل حال بحال، وقدّم من الطعام ما لا عهد لي به، ولا أعرف اسمه، فطعمنا، وأقبل ثلاثٌ من الغلمان على رأس أحدهم ثلاث بُدر، ومع الآخر تخوت ثياب، ومع الثالث طيب وبخور، وأقبلتْ بغلة رائعة بسَرْجٍ ثقيل، فقالَ لي: يا أبا علي تفضّل بقبول هذا، ولا تتخلّف إذا عرضتْ لك حاجةٌ! فشكرته وانصرفت، فلما هممتُ بالخروج من الباب استردني وأنشدني قوله:

رَقَّ الزمانُ لِفاقَتي	ورَثَى لطُوْل تَحَرُّقي
وأنالني ما أرْتَجي	وأجَارَ مِمّا أتَّقي
إلاّ خبَايَتُهُ التي	فَعَلَ المَشيبُ بِمَفْرِقي

١٣٠ - تشارلز دكنز

كان والده فقيراً لا يجدُ قوت يومه إلاّ بشقِّ النفس، وكان يصحبُ ولده من خلفِه إلى عمله اليومي الشاقّ، ويمرّان على قصرٍ فخم لأحد الأثرياء الكبار، تُحيطُ به الحديقةُ ذاتُ الشجر والزهر والماء، وينظرُ الطفل منبهراً لما يراه، ويقول لوالده: لماذا نسكن بيتنا المظلم، ولا نسكنُ هذا القصر يا أبي؟! وابتسم الوالد في مرارةٍ وقال لطفله: سنسكنه حين تكبرُ يا بني؛ فيقولُ الطفل: ولماذا لا نسكن الآن؟ فيرد الوالد في أسىً: لا يسكنه إلا الكبار.

وازدادتْ حالةُ الطفل سوءاً، لأنّ أباه قد سُجِنَ، وانضمَّ الطفل إلى مسكنٍ

امرأةٍ عجوزٍ تحملته على مضض، وأخذ في سنّ العاشرة يعول نفسَه، ولا يكسبُ غير ما يأتي بثمن الخبز والجبن فقط، وأحياناً الخبز فقط، وقد قال عن نفسه: لولا رحمة الله لصرتُ لصّاً، لأن الجوعَ كان يعضُّ أحشائي، وأنا أتسكّع في الطريق، فأحلم بالسرقة، ثم تدركني رحمة الله فأجبنُ.

ويخرج والده من السجن، فيلحق الغلامُ بالمدرسة، ويتعلّم بضعَ سنوات، ولكنّه يشتغل ليلاً بعملٍ في إحدى الصحف، فجعلَ يقرأُ ما يقومُ بطبعه، ويستشعِرُ تقدّماً مطرداً، ثم ظهر نبوغه، فألّف القصص الجميلة، ونشرها تباعاً مسلسلةً، فحازت قبولَ القرّاء، وكان تصوير الطبقات الكادحة وما تعاني من إرهاقِ الجوعِ، وتشرّد الطريقِ وبؤسِ المرضِ سرّاً من أسرار براعته، مع فكاهةٍ مريرة يغتصبُها اغتصاباً لترفّه عن القارئ، وجمعَ مقالاته في كتب، وتفرّغ لقصة طويلة، وبعد سنواتٍ صار من أعلام الأدب الإنكليزي في عصره.

وحين تدفّق المال في يده، جعل من همّه أن يشتري القصرَ الذي وعدَه والده أن يكون صاحبه، وكان مالكه قد مات، وتنازعت الورثة، فأرادت البيعَ لينجو كلٌّ وارث بحقه دون شريك، وكانَ تشارلز سخيّاً، لأنّه لم يُردْ أن يفلت الحلم من يده. وبين عشيةٍ وضحاها، أصبحَ القصرُ ملك يديه، ولكنّه كان يعضّ على شفته متألّماً. فيقولُ له صديقه: لقد تحقّقَ حلمك، فلماذا تتأسّف؟ فيرد، كنت أوثر أن أجدَ أبي معي اليوم، ليكون صاحبَه الأول، ثم يتساءل: هل يعلم ذلك في ملئه الأعلى؟ لو علمَ لاسترحتُ كثيراً كثيراً. . .

* * *

من طرائف القُبَل

١٣١ ـ القُبلة المنقذة

من الواقع ما يُلقي بعظته البالغة لمن يعتبر، وفي أطروفة (القبلة المنقذة) بعض هذه العظات

مات ثريٌّ من كبار الأثرياء، وتركَ طفلاً صغيراً، وأمّاً شابّة، وكان لأخيه سيطرة باغية، فاستولى على مئة فدان ـ وهي ميراث أخيه ـ وجَعلَ يُدير شؤونها الزراعيّة، ولا يُعطي الابن والأم من المحصول الوافر غير ما يُمسك الرمقَ، كما أخذَ يعاملهُما معاملةَ العدوّ لا العمّ، والأمُّ صابرةٌ لا تستطيع المقاومة، لأنّها مقصوصةُ الجناح، ثم دَفعَ البغيُ هذا العمّ الشّرِهَ إلى التفكير في جريمةٍ تُؤدي إلى قتل الطفل، ليكون هو الوارث الرسميّ دون اعتراض، مع أنّه الوارث الفعلي!.

وذهبَ إلى بعض الأشرار ممّن تخصّصوا في هذه المنكرات، فأعطى له ألفاً من الجنيهات، ووعده بألف آخر، ورسمَ له الخطّة: أن يأتي بليل في موعد محدّد، وسيجدُ المنزلَ مفتوحاً من الباب الخلفي، وعليه أن يذهبَ إلى الحجرة الثانية، ليجد الطفل نائماً في سريره، فيحمله إلى الخارج، ليرميه في إحدى القنوات المائية البعيدة، بعد أن يقضي على حياته، وبدأ الأمرُ فِعْلاً، فجاءَ الشّريرُ إلى المنزل ليلاً، ولكنّ المفاجأة كانت غريبةً، حيث وجدَ الطفلَ ساهراً مع أمّه في صالة البيت، وما إنْ رأته الأمّ حتى أغمي عليها، إذ توقعت الشّر. ولَحَظَته في عينه.

أما الطفلُ الصغير فرأى في سحنة الزائر شبهاً من سحنة والده الراحل، فأسرعَ إليه وهو يقولُ في شوق: بابا.. بابا!! وكان الزائر عَزَباً لمْ يسمع هذه الكلمة الحلوة من قبل، فحَمَلَ الطفل إلى صدره، ولكنّه رآه يُقبّله فرحاً، إذ ظنّه

أباه وهو يقول: بابا بابا! وهنا انهارتْ عزيمةُ الرجل، وأحسّ بشعورٍ إنسانيّ نحو الطفلِ البريء، فعمل على إيقاظ الأم من إغمائها، وأقْسمَ لها أنّه سيكون خادم الطفل وحِصْنَه أمام عمّه الغادر، وجَلسَ في المنزل يُطمئنُ الأم حتى الصباح.

وفوجىءَ العمُّ بصاحبه يصيحُ في الشارع، ويجمعُ الناس من كلّ صوْبٍ ليقول لهم: إنّ هذا الغادر أخذ يُغريني بألفيْن من الجنيهات لأقتل الطفل المسكين، وأنا أقسم بالله لو مسَّ الطفل أيّ شرّ بمؤامرةٍ أخرى، فلا بدّ أن أقتلِ هذا المجرم علناً بعد أن أخطفَ ولده، وأذيقه مرارة الثكل قبلَ مماته! ثمّ اتجه إلى البوليس ليبلّغ ضابط الشرطة ما اعتزم عليه العمُّ الغادر، وثار الرأي العام عليه، فانكمشَ في منزله، لا يستطيع الخروج! وكيفَ وقدْ دبّر اغتيال من يأكل من خيره، دُون أن يرعى أيّ ذمام!.

أمّا الأمّ الشابة، فقد رأتْ حامياً شجاعاً يؤازرها، فرحّبتْ به زَوْجاً، وقالتْ له: أنتَ صاحبُ المنزل من الآن، وجاء الزوجُ بأقاربه، ولهمْ صيتٌ في البأس والمكيدة ليزرعوا الأرض، ولم يسْتطع العمُّ الأثيم أن يقاومَ جيشاً من أرباب السوابق، فأذعنَ مقهوراً، وعاد إلى فقره القديم.

١٣٢ ـ قُبلة ثانية

كان في أحد السجون الإسبانية سجينٌ شريرٌ، صلب الوجه، رصاصيّ النظرة، عملاق القامة، مفتول العضل، وقد قضى في السّجون المختلفة ثلاثين عاماً، حتى انتهى إلى مُعتقله الأخير، وهو فوق الخمسين، وإذا كان السجن الإسبانيُّ يضمُّ ستمئة شرّير من العتاة، فإنّه كان أعتاهم جميعاً، كانوا يتحامونه قدر المستطاع، إذ لا يشتبك معه أحدٌ في حوارٍ إلا انتهى بصفْعةٍ أو بمعركةٍ يكونُ فيها هذا العملاقُ سيّدَ الموقف، وقد اعتاد أن يجلس وحده عاكفاً عن العمل الذي نيط به، دون أن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه، فإذا عزمَ على التجوال في ساحة السجن، فسرعان ما يخلو الطريق أمامه، حتّى حُرّاسه كانوا يرتقبون فترةَ تجواله، ليضعُوا حصّته اليومية من الغذاء والشراب في زنزانته، ليتلافَوْا لقاءه، ويُسرعون وكأنّهم فرّوا من كارثة تتوقع.

وحين جاء إلى السجن مُديرٌ جديد، رأى المديرُ المتنقلُ أن يصحبَ زميلَه الوافد إلى جولةٍ بين السجناء، ليُلقي عليه توصياته الخاصة بكلّ سجين على ضوء تجربته المتقدّمة، وكانَ مع المدير الجديد طفلةٌ صغيرةٌ هي ابنتُه التي لم تتجاوزْ خمس سنوات! وقد شاهدتْ مع والدها طوائف السجناء مجتمعين متقاربين، ثم رأتْ والدها يتّجهُ مع زميله إلى رجلٍ كثيف الشعر يجلسُ في آخر الفناء وحيداً، وحين انتهوْا إليه لم يرفعْ رأسه، فقالت الطفلة الصغيرة: إنّه مريض يا أبي؟ لماذا لا يتكلّم! ثم دَنَتْ منه وقبّلتْ وجهه، فدُهش الوالد وزميله، وأنهيا اللقاء سريعاً، ولكنّ الشرير تابع الطّفلة بعيْنه، ورأى أباها يحملُها إلى صدره فعرفَ أنّها ابنتُه!.

مضى عام، والأمـور تسير في السـجن منتظمة، ولكنَّ المديـر اشتطّ في معاملة السجناء، وقصَّرَ تقصيراً منتقداً فيما يقدّم لهم من الطعام، وجعلَ يتناولهم بالسّباب دُون مبرّر، ويذيعُ أنّهم لصوص قتلـة، لا يستحقّون الحياة، ودأبَ المدير على سلوكه، فأشعل ثورةً في الصدور لم تلبثْ أن وجدت طريقها للتنفيذ.

ففي ظهر يوم عاصف صفع المديرُ سجيناً على وجهه، فذهبَ إلى زملائه ليقـود الثورة العاصفة، وفي فترة قصيـرةٍ ساد الهياجُ المدمّر، وزحـفَ الجمعُ المحتشد إلى مسكن المدير رغبةً في الانتقام، ولم يستطع الحراسُ أن يقاومُوا الجمع الذي ثار على غير انتظار، وخلا الطريق إلى حجرة المدير، ولكنّ السجين العملاق قد حملَ مديةً غليظةً حادّة، ووقفَ أمام المنزل يهدّد من يريد الاقتحام، ودارت معركة رهيبة كان بطلها المنتصر على زملائه، ولكنّه أُثخن بالجراح في كلّ موضع من جسمه، وهنا تمكّن الحراس من معاونته، فضربوا طلقاتهم النارية، وتفرّق الجمعُ غِبَّ هذه الطلقات.

وخرج المديرُ متعجّباً، وقد لمح العملاق السّجين في ساعاته الأخيرة يجودُ بنفسه، فأسرعَ في مواساته، فقال الرجل: كيفَ أتركهُم يقتلون الطّفلة التي قبّلتْني! ليْتني أراها قبل أن أموت! وهُنا أسرع المدير بإحضار ابنته، فانْدفعتْ من فورها تُقبّله قُبلة الختام!.

١٣٣ ـ من تاريخ القُبلة

من مقالٍ مترجم عن الإنكليزية قال كاتبه:

إن المعروف عند عامّة الناس أنّ التقبيل نشأ مع الشهوة الجنسيّة، وهذا مخالفٌ للحقيقة، لأننا نرى أنَّ عادة التقبيل لم تكنْ من الغرائز الإنسانية الأولى، لأنّ كثيراً من الأمم لا تعرفُها على الإطلاق، بل إنّ بعض الأمم ينظر إليها بعين المقت والازدراء.

ومن المحقّق أنّ قبائل الأسكيمو والمُورا لا تعرف التقبيل، وقد مضتْ عدة قرون قبل أن تُعرف القبلةُ في الصين واليابان. بل إنّ في اليابانيين الآن من يحرّمونها، ويبالغون في تحريمها، لدرجة أنهم يستنكرون مظاهر التقبيل حين يرونها في الأفلام الأوروبيّة التي تُعرض في بلادهم، وفيهم من يَحذِفُ هذه المظاهر كيْلا يلتفت إليها الشباب، وقد عُرضت رسومُ (رودان) في بعض معارض طوكيو، فظهرتْ كلّ لوحاته، ما عدا اللوحة التي تصوّر القُبلة، إذ أُسْدِلَ عليها سِتار كثيف، وقد اعترض بعضُ الزائرين الفرنسيّين، فأجابه رئيسُ البوليس الياباني بأنّ جميع لوحات (رودان) كان من الواجب أن تُهمل ولا تُعرض، لأجل هذه اللوحة.

وتعدّ القبلة في بعض أنحاء الولايات المتحدة عملاً مخالفاً للصّحة، وتعريضُ الإنسان للإصابة المرضيّة جريمةٌ يعاقب عليها القانون الأمريكي، أما اغتصابُ القبلة من امرأة لا ترحِّبُ ببَذلها، فعملٌ جنائي يخضع للعقاب الصارم.

وإذا كانت القبلةُ اليوم هي التعبيرُ الجسديّ عن الحب، فقد كانتْ في الأزمان الخالية نوعاً من التحية العاديّة فحسب، كالتلويح بالمناديل عند المسافرين، ثم بعد القرن الخامس عشر أُبيحَ في أوروبة للضيف أن يُقبّل زوجة مضيفه، وكلّ فرد من أفراد العائلة، وكأنّها مثلُ المصافحة باليد سواء بسواء.

وكانوا في رومة القديمة يقبّلونَ لأسباب غير التحية والحب، لأنّ النبيذ كان محظوراً على النساء في بعض البلاد، وهو يمثّل جريمةً شنيعةً، فكانَ للرجل أن

يقبِّلَ المرأة ليعلم أشربت النبيذ أمْ لا ، فإذا وُجد ما يدل على أنها شربَتْه قُدّمتْ للمحاكمـة، وقيل : إنّ أحد الأطبّـاء الأمريكيين قد صرف أكثر من ثلاثين عاماً يحذّر من ضرر القبلة الصّحي ، ويعدُّها من بواعث العْدوى السريعة ، ولكنَّ الناس أعرضوا عن تحذيره، وهزؤوا بما كتب من البحوث والمقالات .

* * *

غرائب مدهشة

١٣٤ ـ الغريبة الأولى

من غرائب الحياة ما ذكره الدكتور (أحمد أمين) ص٢٧٠ في (قاموس العادات والتقاليد) نقلاً عن (علي مبارك باشا) حول إقامة مسجدٍ كبير لقاطع طريق مجرم، حيث قال ما نصّه:

إنّ الشيّخ (صالح) كان في مبدأ أمره قاطعَ طريق، وكانَ له صاحبان ملازمان له، أحدُهما الشيخ (يوسف) المدفون في شارع قصر العيني، والثاني لم أقفْ على اسمه، وإنما كان يجلسُ بحارةِ (درب سعادة) على مصطبة بيْت متخرّب، ويتزيّى بزيّ الدراويش، وللناس فيه اعتقادٌ كبيرٌ، ويزعمون أنّه من الأولياء، فيتبرّكون به، ويقبّلون يده.

وكانَ يستمر جالساً إلى الليل، وكلّما مرَّ عليه رجلٌ بمفرده يقول: (يا واحد) فيخرجُ في الحال من البيت جملةُ رجالٍ يحتاطُون به، ويُدخلونه البيت قهراً عنه، فيقتلونه، ويسلبُون ما معه.

واستمرّوا على ذلك الفعل القبيح طويلاً إلى أنْ شعر الضابط المراقب بذلك فأكمنَ كميناً، وحرّض على المرور رجُلاً كالعادة، فنادى الشيخ كعادته: (ياواحد) فخرجت الرجالُ، واحتاطتْ به، وإذا بالكمين يخرجُ عليهم، ويضبطهم فعوقبوا عقاباًشديداً، حتى اعترف الشيخ على صاحبيه وأقرّ بالواقع.

ولكنَّ الشيخ صالح احتمى بمغنّية شهيرة كانتْ لها صلة ببعض الحكام، فادّعتْ أنه مجنونٌ، ووضعتْ في يده قيداً من الحديد، وظلّتْ تُواصل حمايتها له حتى أُفرج عنه بدعوى الجنون.

وللأسف شاع بين الناس أنّ له كرامات، وأنه يخبر بالمغيبات، فقصده كثير

من العامّة، واعتقدوا فيه اعتقاداً كبيراً، وازدحم بيتُه بالزوار، وتكاثرتْ عليه الهدايا الثمينة، كلّ ذلك وهو صامتٌ لا يتكلّم، بل يجلسُ على الفراش، وعليه حرامٌ صوفيّ أبيض، وفي رجليْه قيودُ الحديد، وحوله الخدم، وعند رأسه امرأةٌ تروّح عليه بمروحة، وهو يحرّكُ رأسَه، ويلعبُ بشفتيه مُصدِراً حروفاً لا معنى لها، فعند ذلك تقولُ المرأة للحاضرين، فُلانةٌ ستتزوّج، فُلانةٌ سيصلحُ حالُها مع زوجها، فلانٌ سيعودُ من السفر، إلى غير ذلك من الخرافات، فيتفاءل صاحبُ الطلب ويُسَرّ.

وبسبب ذلك صارتْ له ثروة كبيرة، ومات، فانتقلَ صيتُه الكاذب إلى الخديوي إسماعيل، فبنى له مسجداً كبيراً يُعرف باسمه للآن (مسجد الشيخ صالح أبي حديد).

يقول الدكتور (أحمد أمين) نقلاً عن (علي مبارك): وهو مسجدٌ عظيم، لم يُبْنَ لغيره من الأفاضل ذوي المعارف والفنون، ولكنّ هذه عادةٌ قديمة أَلِفَها المصريون من قديم الزمان، وطالما نبَّه عليها كثيرٌ من المؤلفين في كتبهم، فلا حول ولا قوة إلّا بالله!.

والسؤال الحائر إلى اليوم، لماذا يُسمَّى المسجد للآن باسم هذا المجرم قاطع الطريق، وقد عُرف جرمُه الفادح، وسُجّل في كُتبٍ موثوق بها، مثل (الخطط التوفيقية) لعلي مبارك، و(قاموس العادات والتقاليد) لأحمد أمين؟! وهُما من هما بين المؤلفين!.

١٣٥ ـ الغريبة الثانية

قال الدكتور (توفيق الطويل) في كتاب (التصوف في مصر إبّان العصر العثماني) ص١٤٢ تحت عنوان (نفوذهم أمواتاً) بعد مقدّمة تاريخيّة ذات دلالة اجتماعية أليمة:

وقد كان في طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثماني في مصر مَنْ يُسمّى (علي البكري)، وكان رجلاً مخبولاً يمشي في الأسواق والشوارع، عارياً

مكشوفَ الرأس والسوأتيْن في أغلب حالاته، أو يلبسُ قميصاً وطاقية، ويسير حافي القدمين، يخلطُ في أحاديثه، فيتبعهُ الأطفال والصغار وطغامُ النّاس، ويسيرون وراءه بين منكرٍ عليه، ومصدّقٍ لولايته، ولكنّ أكثر الناس قد مالوا إليه، وصحّتْ عندهم ولايتُه، كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ـ كما يقول الجبرتي ـ

وكانَ له أخٌ صاحب دهاء ومكر، فبدا لهُ أن يستغلّ إيمان الناس بولاية أخيه، عسَى أن يكسبَ من ورائه، فحجرَ عليه، وحرَّم عليه مغادرة البيت، وألبسه ثياباً، وأظهرَ للنّاس أنه أذن له بذلك، وأنّه تولّى القُطبانية إلى غير ذلك من وسائل التضليل.

فأقبل الرجال والنساء على زيارته، والتيمّن به وسماع ألفاظه، والإنصات إليها، وتأويلها بما في نفوسهم، وأفاضُوا عليه الهدايا والنذور، وخصَّه بذلك كثير من السيدات ذوات الثراء، حتى أثْرى أخوه واغتنى ونفقتْ سلعته، وصادتْ شبكته، وسمنَ من كثرة الأكْل والدسم والراحة وفراغ البال، حتى صار مثل (البوّ) العظيم.

ولبث على هذا الحال حتى مات سنة سبع بعد المئتين والألف، فدفنوه بمعرفة أخيه في (مسجد الشرايبي) من غير مبالاة ولا اكتراث، وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاماً، ورتّبَ له المقرئين والمدّاحين، وأرباب الأشاير والمنشدين، يذكرونَ كراماته، ويمدحونه بأحسن المدائح، وكانُوا في إنشادهم يتواجدون ويتصايحون ويمرّغون وجوههم على شبّاكه وأعتابه، ويغترفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه في عبابهم وجيوبهم وهرع إلى زيارة مقامه النساء والرجال، حاملين النذور والشموع، وضروب المأكولات، وصارَ مسجدُه مجمعاً لهؤلاء.

هذا ما قاله الدكتور الطويل نقلاً عن الجبرتي مؤرخ العصر، والحقّ أن (الجبرتي) لم يذكرْ هذه النوادر المضحكة إلا ليعيبها ويحرّمها، ويدعو إلى اجتنابها، وفي كلّ عصر ينهض المصلحون من ذوي الرأي، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولكنّ جند الباطل له قوّته الكاسحة من العامة والهمج، ومن

جهلاء الأغنياء الذين يصدّقون الخرافات عن غباء! ولئن راجَ هذا الدجل منذ ثلاثة قرون فأكثر، فإننا نحمد الله أن انجلت الغشاوة عن العيون، فجاء الحق وزهق البـاطل.

وقد كـان (البدر الحجازي) من شـعراء هذا العصر فأرسـل قصائـده الإصلاحية مستنكراً، وروى الجبرتي قصيدته الرائعة التي بدأها بقوله:

ليتنـا لـم نعـشْ إلـى أن رأينـا   كـلَّ ذي جِنّـةٍ لـدى النـاسِ قُطْبَـا

١٣٦ ـ الغريبة الثالثة

ذكر الأسـتاذ الكبير (نقولا يوسـف) في مجموعـة (مواكب الناس) هـذه الطّرفة:

كان بإحدى بلاد المغول ضريحٌ لوليّ عظيم اسمه (بهويار) وهو ضريحٌ فخم، موشّى بالذهب، ومزدانٌ بأعمدة المرمر، والقباب العالية، ووفودُ الناس لا تنقطع عن زيارته، وقد توالت السّنون عليه، فتصدّع بناؤه، وزحف العمرانُ عليه من كل جانب، وضاقتْ رَحبته بالجماهير المحتشدة كل يوم.

فرأى حاكم المدينة أن يقومَ بتجديد الضريح، وترميمه، ولكنّ المهندسين أجمعوا على أنّ الترميم علاجٌ وقتي، وما يلبثُ أن يتصدّع البناء ثانيةً، فلا بدّ من بناء ضريح جديد في مكانٍ جديد يتّسع لآلاف الزائرين، ولا بدّ أن يقام احتفالٌ مهيب بمناسبة نقل الرفات في حفلٍ ديني باهر، يشتركُ فيه الشعب عن بكرة أبيه، ويبدأ الموكب برئاسة الحاكم ومن حوله الوزراء والعلماء، وكبار رجال الدولة!

وتمّت الموافقة على هذا الاقتراح، فشرعَ المهندسون على الفور في تشييد الضريح الجديد، وأحضرُوا مئات الرسّامين، ليملئوا الجدران بالنقوش والزخارف، ثم طُليت القبّة بماءِ الذهب، وحُلّيت أسوارُ الضريح بالعاج والجوهر.

وسار الحاكم مع فريقٍ من مستشاريه ليروا رَوعة البناء قبل أن يُنقلَ تابوتُ الضريح في الاحتفال العام عن قريب، ولم يبـقَ إلاّ أن يستخرج التابوت من

الضريح القديم، ليكون صاحبُه مستريحاً في تابوتٍ آخر من الأبنوس الثمين.

فذهبَ ثلاثةٌ من الكبار إلى الضريح، وبدأوا في الحفر المتريّث على رَهبة وإجلال وخشوع، حتّى إذا تمَّ لهم استخراج التابوت، هالَهمْ أن يجدوا بقيّةً من عظامِ حصانٍ تآكل لحمه، وبقي هيكله، فجعلُوا يحدّقون النظر مدهوشين وقد اكفهرّت الوجوه، وأُلجمت الألسنة، وضُربت الأكفّ بالأكفّ في عجب! وما أفاق الثلاثة من دهشتهم بعدَ أمدٍ قَصُرَ أو طال حتّى أسرعوا إلى الحاكم، ليقولوا له في حيرة: أطال الله عمرك يا مولانا، لقد صدعنا بالأمر، ونزلْنا إلى القبر ورفعنا الغطاء، فوجدنا في التابوت هيكلاً نظنّه لحصان الملك شندار، وعليه اسمُه وشعارُه، فأسْرعنا لنعلم ما يكونُ من أمرِكم الكريم في هذا الموقف الخطير، فأطرق الحاكم ساعة، ثم قال: اكتُموا هذا الأمر عن كلِّ إنسان، كيلا تثور الخواطر، ويحدث الشغب في كلِّ مكان، ويفتري بعضُ الناس بأنّ في الأمر مكيدةٌ مدبّرة.

وجاء بالكتاب، فحلفوا عليه أن يكتموا ما يعلمون.

وفي اليوم التالي سارَ أهل المدينة جميعاً وراء التابوت المكسوِّ بالمخمل، الموشّى بالذهب، يتقدّمهم الحاكم والوزراء والوجهاء والولاة، يحملون المشاعلَ والبيارقَ والأعلام، حتى بلغوا الضريح الجديد، فأودعوا التابوت في خشوع وإجلال، وأمر الحاكم بأن تظلّ الحفلات الرسميّة والمظاهرات الشعبيّة سبعةَ أيام، وفي الليلة الأخيرة، تُقرأ سيرةُ الوليّ، وتوزّع الرتب والهدايا والنياشين، ويشعر الشعب ببهجته واغتباطه بهذا التكريم الجليل.

١٣٧ ـ الغريبة الرابعة

أما هذه الرابعة فمن الأناضول عن قصّةٍ تركيّة ترجمتها السيدة (نازك جعفر) بمجلة (الثقافة):

وفَحْوى هذه القصّة أنّ (نصر الدين خُوجة) ـ وهو المعروف بجحا التركي ـ كانَ يشتغلُ مريداً طائعاً لشيخٍ جليل هو حاجي بكير، وحاجي بكيرُ شيخٌ

لمسجد كبير، يشملُ ضريحاً لأحد أولياء الله الكبار، وقد أصبحَ مزاره مهبطاً لذوي الحاجات، فالمريضُ يؤمُّ الضريح ليشفى، والعاقر لتحمل، والمتّهم ليُبرئه القاضي، والمذنبَ ليتوب، وكلّ هؤلاء يحملون من الهدايا لحاجي بكير ما جعلَه في صفوف الأغنياء، فاشترى حديقةً كبيرة، تُؤتي أكلها الطيب كلَّ حين، وألْحقها بالمسجد، وبنى الدُّورَ، واشترى المتاجر . . . وخادِمُه المطيع (جُحا) طوعُ أمره في كلِّ ما يأمر، فهو وكيلُه في البيع والشراء، ونائبُه في الإمامة والتسابيح وقراءة الأوراد. . .

وفي بعض الأيام أرادَ نصر الدين أن يُسافِر لأهله بضعة أيام، فسمحَ حاجي بكير لهُ بالسفر لمدةٍ معلُومة، وأعطاه (أتاناً) يركبها، وقد اختارَ لها اسم (ظريفة)، وبدأ المسافر رحلتَه، ولكنّ الأتان مرضت في الطريق، ووافاها الموت سريعاً، فتحيّر جُحا، وخافَ أن يرجع إلى حاجي بكير بدونها فلا يصدّق موتها، ويطرده من ساحته، ثم بدا له أن يدفنها في لحد، يضعُ عليه بعض الآجر.

وما تمَّ البناء حتى رآهُ فريق من المارّة، فأخذوا يتساءلونَ عن الدفين، فقال لهم جحا: إنّه أحد كبار الأولياء، وقد أوْصَاه أن يهتم بأمره حين يجيء الموت ففَعل، فأخذ المارّة يذكرونَ ويتمايلون، وهُرِع إليهم من حاكاهم، وانتهزَ جُحا (نصر الدين خوجة) الموقف، فأعلنَ أنّه سيبني زاويةً للميّت الوليّ، فتتابعت الجموعُ لزيارة الشيخ الدفين، ووفد طلاب الحاجات من مرضى وأرامل وفقراء ومتّهمين، يلتمسون الشفاعة، وبذلك صار نصر الدين مثل شيخه حاجي، وطابَ له المقام الهنيء.

ونظر حاجي بكير، فوجد أنّ الناس قد انصرفوا عنه إلى الوليّ الجديد، فاغتاظَ غيظاً شديداً، وسارع بزيارة الضريح الجديد، ففُوجئ بتابعه (نصر الدين) يؤمّ الناس، ويتناول النذور، فانتظر حتى صُلّيت العشاء، وانصرفَ الناس، وقال له: أصْدِقْني القول؟ من هذا الشيخ؟ فقال جُحا: إنّها الأتـان ظريفة مرضتْ، فتطوّرت إلى صاحبة ضريح! فسكت حاجي بكير مذهولاً، وظنّ جحا أن الشيخ سيفضح السّر، فأخذَ يرجُوه في الكتمان، فقالَ: على أن أكونَ شريكك هنا، حيث انصرف الناس عن مسجدي، فقال جُحا: وماذا تفعلُ مع وليّ الضريح

هناك، أخشى من انتقامه، فقال حاجي بكير: إنّ الوليّ هو والد الظريفة، كان حماراً قويّاً، فدفنته حين مات، وشِدْتُ له الضريح، وها هي ذي كريمته وليّة عهده تقوم مقامه الكريم.

١٣٨ ـ من شعر السيد حسن القاياتي

عَصْرٌ تُزارُ به الموتى لخشيتها ... وربُّك الحيُّ فيه غير مخشيّ
لا أكذب الحقّ كم سحتوت أرملة ... لدى الإمامين والقبرِ الحسينيّ
صار الرفاعيّ ثعباناً فعظّمه ... يا آلَ موسى هنيئاً بالرفاعيّ

* * *

القصص التبشيري

١٤٩ ـ تبشير فني

يعجّ القصص الأوروبي بروايات عن رجال الإسلام، لا تمتُّ إلى الواقع في شيء، ولكنّها تتأثر بجو (ألف ليلة وليلة)، حين تفترضُ أنّ المجون والإباحية والخمر من وسائل الترفيه في قُصور الخلفاء، وكاتبو هذه الروايات يعلمون أن أساطير (ألف ليلة. . .) خياليةٌ، لا تمتّ إلى الواقع، ولكنّهم يفترضون صدقها لحاجاتٍ في نفوسهم، وقد يبدأُ أحدهم باختراع قصّة لا وجود لها، ويأتي روائيٌّ لاحقٌ فيجعل من هذا المخترع الكاذب حقائق ينسج منها خيوطاً كثيرة، تغرقُ في النزق واسترضاء الشهوات، ويقرؤها الناسُ على أنّها صُوَرٌ تاريخية من مشاهد الشرق الإباحي!

وأنت لا تستطيعُ أن تردَّ على هذه الأباطيل الروائية، كما تردّ على بحثٍ منهجي استشراقي يصطنعُ كاتبه أسلوبَ البحث العلمي، لأنّ أبسطَ ما يقال لك: إنّ القصّة تجنح إلى الخيال، وكاتبها يتّخذُ من هذا الخيال غير الحقيقي مادةً لتجسيد أفكارٍ يهتمّ بها. وهو كلامٌ يتزيّ بلباس الفنّ النقدي في ظاهره، ولكنّه حتّى لو سُلِّم تسليماً جدلياً حقٌّ أريدَ به باطل.

وكان المظنون أن يُنأَى بخليفة جادّ صارم مثل عمر بن الخطاب عن دائرة هذا الخيال الكذوب، ولكنّ الذين في قلوبهم مرض يحاولون أن يكون الفاروق موضعاً للنقد في بعض ما ينسب إليه كذباً دون حق، فقد ألّف الكاتب رتشارد جارنت قصة (جزاء الاجتهاد) ليصوّر سحابة دخان هائلة تحجبُ مدينة الإسكندرية عن الأنظار، حتى كادتْ تحرقُ المدينة كلّها، وسببُها أنّ الخليفة الثاني قد أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، لأنّه يكذّب كل ما جاء في الكتب، ولا يصدّق إلاّ القرآن.

وقد أحسن مترجم القصّة الأستاذ (عبد الحميد حمدي) حين علّق على هذه

الأسطورة بما يدحضها، وقد قال متأسفاً: إنّ بعض المؤلفين من العرب يذكرونها في كُتبهم التاريخيّة، ولم يلتفتُوا إلى ما قيل في تزييفها من أدلةٍ حاسمة، وإذا جاز لنا أن نتوقّع ذلك من قصّاص إنكليزي، فأيُّ عذر للمؤلفين من المسلمين في أن يسجّلوا هذه الأباطيل وقد دُحِضتْ دحضاً بأقلام الثقات.

١٤٠ ـ هارون الرشيد

ولعلّ هارون الرشيد هو أكثر الخلفاء نصيباً من الإفك، لأنّ الذين هاموا بـألف ليلة وليلة جعلُوها مصدراً تاريخيّـاً، وقد انتقلتْ عـدوى (ألف ليلة) إلى الـواقع الاجتماعي في بعض بلاد الإسـلام، فـرأينا في صالات اللّهـو وبـارات الجريمة قاعاتٍ يُطلق عليها اسم هارون الرشيد، وهي قاعاتٌ تموجُ بالـرقص الخليع، والخمرة المنسكبة، والغناء الماجن! وليتَ شعري أيجوزُ أن تُهدرَ مكانة خليفةٍ من كبار الخلفاء إلى هذا الدَرْكِ العابثِ الشائن!! لقد تحدثتْ (ألف ليلة وليلة) عن مُصاحبة أبي نواس للرشيد في مغامرات ليليّة، وهو ما يكذّبه الواقع.

وقد قال (ابن منظور) المؤلّف اللّغوي الكبير في كتابه الشهير (أخبار أبي نواس) إنّ كل ما ذُكر عن صحبة الرشيد لأبي نواس كذبٌ مختلق، وأنّ أبا نواس ما دخل على الرشيد ولا رآه قط، وإنّما كانت له صلة محدودة بولده الأمين.

ولانقتبسُ هنا شيئاً مما أَفكَ به الزّاعمون عن الرشيد خاصّاً بمجالس المجون واللهو، ولكنّنا نقتبسُ بعض ماكتبه أدباءُ الغرب عن الرشيد في مجال السّمر البريء، وهي طرائفُ تُذاع لا لأنّها وقعتْ فعلاً، بل لأنّها تصوّر اصطيادَ الكتّاب الأوروبيّين لسطورٍ قليلة، تكون خيوطها عملاً فنيّاً ضاحكاً لا تحرّجَ فيه.

١٤١ ـ حلاّق بغداد

حين ألّف الكاتب الإنكليزي (جيمز موير) كتابه الذائع (حاجي بابا أصفهاني) لم يقتصرْ على الحاضر المُعاش، ولكنه أخذ يستطرد إلى الماضي الفائت، ومن ذلك ما قاله عن هارون الرشيد في خطبةٍ منمّقة على لسان (حاجي بابا): «كان في

عهد هارون الرشيد حلّاق يُدعى (علي السّقا) اشتُهر بخفّة يده وإتقان صنعته، بحيث كان يحلق اللحيةَ في طرفةِ عين، وكلُّ وجهاء بغداد يحلقون عنده، فتكبّر على الناس، ولم يعدْ يحلقُ إلا لذوي المراتب العليا، وفي يوم من الأيام وجد بائع أخشابٍ يحمل بضاعةً على حماره، فاشترى منه كلَّ ما على ظهرِ الحمار بمبلغ معين، فقدّم له التاجر جميع الخشب، ولكنّ الحلّاق أصرَّ على أن يأخذَ السّرج والبردعة، لأنّهما مما يحملُ الحمار فوق ظهره، فدُهِشَ التاجر، وقامتْ محاورةٌ صاخبةٌ، فاقترح أحدُ المشاهدين أن يحكمَ قاضي بغداد في الأمر، وكان ذا هوىً مع الحلّاق، فحكم له بالبردعة والسّرج، وغضب التاجر، فاستأنف الحكم إلى أعلى مقام، وهو مقامُ الخليفة، إذ كان من عادة هارون الرشيد أن تُقدَّمَ له العرائض عند صلاته بالمسجد ليقرأها، ويفصل فيها بالرأي النهائي، فلمّا قُرئت الدعوى، دعا الخليفة التاجر، وقال له: الألفاظُ في جنْب خصمك، والعدالة في صفك، والقانون مع الألفاظ، لأنّها مناطُ الحكم! فارتاح الحلاق وأخذ البردعة والسرج، ونظر الرشيد إلى التاجر نظرةً فهم منها أنّه يدعوه إلى مجلسٍ خاص، فاطمأنّ، وتابعَ الخليفةَ إلى قصره، فكشفَ له عما يريد من حيلة، وخرج التاجر مسروراً ليقوم بالتنفيذ.

لم يمضِ يومٌ حتى ذهب إلى الحلّاق وصافحه في ودّ كأنهما لم يتخاصما من قبلُ. وأفهمه أنّه راضٍ بحكم الخليفة، وقد جاءه ليحلقَ له مع آخر، مقابل مبلغ معين، فقبل الحلّاق، وقام بحلق رأس التاجر، وانتظر ليأتي له بالآخر فذهب سريعاً ليحضر حماره، وقال له: هلمَّ حسب الاتفاق! اغتاظ الحلاق أشدّ الغيظ، وأنفَ أن يحلقَ لحمارٍ وهو لا يرضى بعامة الناس، بل يقصر عمله على الخاصة، وقال له: أليسَ يكفيك أنّي تنازلت ووضعتُ يدي على رأسِك القذر حتى أقوم بحلق حمارك؛ مَن أنت؟ ومن أنا؟.

فذهب التاجرُ إلى الخليفة شاكياً نقْض صاحبه للاتفاق، وسرعان ما أُحضر الحلّاق، وقال له في غضب: ألم تتفقا على أن تحلق له ولآخر! هذا هو الآخر! قالَ الحلّاق: وهل في الدنيا من يظن أنَّ الآخر حمار! فصاح الخليفة: وهلْ في

الدنيا من يظن أن البردعة والسرج يتبعان الخشب، أحلِقْ للحمار فوراً، وإلا كان السجن مثواك، فقال التاجر: لا بدّ من استكمال الحلاقة على وجهها الصحيح، يُحضر الصابون والماء ويغسل الحلاق شعر الحمار جميعه من فوق جسده ليقوم بمهمته على طهارة.

وتم الأمر، والناس يعجبون من ذكاء الخليفة وعدالته! هكذا قال جيمز موير!.

١٤٢ ـ عن صلاح الدين

تظهر صورةُ (صلاح الدين الأيوبي) قاتمةً لدى الأكثرية ممن خضعوا لتأثير الحروب الصليبية في أوروبة، فقد دفعهم حقدهم الكريه على البطل الإسلامي الباهر أن يجعلوهُ غادراً ظالماً مستبداً، وما هكذا كان (صلاح الدين) في مرآة التاريخ النزيه، ولكنّ الكاتب الإيطالي الكبير (بُوكاشيو) كان على نقيض هؤلاء الموْتورين، فقد كتب عن (صلاح الدين) قصّتين ترعيان مقامه، وتعترفان له بالشجاعة والمروءة والكرم والوفاء، لأنّ (بوكاشْيو) في صميم نفسه لم يكنْ يؤمنُ بجدْوى الحروب الصليبيّة، وقد أدركَ في حيدةٍ منصفةٍ أن أوروبّة هي المعتدية. وأنّها سيّرت الجيوش الباغية لمحاربة الآمنين في الشرق دُون داعٍ حقيقي غير الأطْماع الكاذبة، والآمال الموهومة، كما أدركَ أنَّ بطولة صلاح الدين كانت من العظمة بحيثُ لا يقدر على إنكارها إلاّ مُدلّس حقود.

ففي أقصوصة من أقاصيص (بوكاشيو) ذكر أنّ (صلاح الدين) أراد أنْ يدْرس أوروبة بنفسه، ليرى بعينيْه قدرة أعدائه، وكيف استطاعوا أنْ يُسيّروا الجيوش المدجّجة لاحتلال الشرق، فتزيّى بزي التّجار متنكراً مع نفرٍ من حاشيته، ثم اتجه إلى (بافي) فشاهد نبيلاً من النبلاء الكرام يهشّ له، ويدعوهُ إلى زيارته، وقد قدَّم له من صنوف الحفاوة والتكريم ما فاق حدَّ الوصف، ثم جعلَ يتنقّل به في أنحاء أوروبة ليقف في كل يوم على الجديد، وقد أنعمَ عليه بالأسلحة المحلاّة بالذهب، وبالعبيد والخيول، والخدم، حتى صار (صلاح الدين) في أوروبة وكأنّه في مصر،

ثم عرَّفه بأهله وأقاربه، وودّعه عند إيابه وداعَ الصديق الحميم للصديق الأثير، وشاءت الظروف أن يُسافر (توريل) وهو اسمُ مضيف (صلاح الدين) إلى الشّرق، ليأخذ بنصيبه من الجهاد الصليبيّ. وقد أبلى بلاءً حسناً في جيوش النصرانيّة، ولكنّه وقع أسيراً لصلاح الدين دون أن يدْري البطلُ الإسلاميُّ أنّه صديقُ الأمس، وقد كان لديه ملبسٌ خاصّ رآهُ صلاح الدين مُرْتدياً إيّاه، حين كان في زيارته من قبل، فدهش صلاح الدين، وجعل يتذكر حتى عرف صاحبه، فأسرع بعناقه، وأظهر له من وسائل الحفاوة والتكريم ما أنْساه غربته الأليمة.

ثم إنّ هذا الصديق شاءَ أن يسافرَ إلى بلدته سريعاً، إذ تخيّل أن زوجته قد علمتْ بموته، ولعلّها تتهيأ للزواج بآخر، فأمر (صلاحُ الدين) ساحِراً مصرياً أن يعملَ على سفر صديقه في يوم واحد، فتلا بعض التعازيم، التي يُتقنها عن تجربةٍ متعدّدة، وبها استطاع أن ينْقُل الأوروبيّ بسريره الشرقي إلى منزله في (بافي) وكانت الدهشةُ كبيرةً حين رأى الزوجُ القادم مظاهر العُرسْ في منزله، إذ كانت الزوجةُ تتأهّب الليلة للاقتران!! فأظْهر شخصيّته، وقابلت الزوجة رَجُلها بالزغاريد والابتهاج!.

١٤٣ ـ الخواتم الثلاثة

أما قصّة (الخواتم الثلاثة) فمن أبدع ما كتبه (بوكاشيو) عن صلاح الدين، إذ حكى في هذه القصّة الطريفة أنّ صلاح الدين قد احتاج إلى مال كثير ليُهيِّئ جيشه الحربيّ، حين نفد الذهب من خزانته، وجَعلَ يُفكّر فيمن يقرضه ما يريدهُ من المال، فاهتدى إلى يهوديّ كبير الثراء من تُجار الذهب بالإسكندريّة، ولم يشأ أن يسأله المالَ غَصْباً دُون تراض، فأخذ يباحثهُ في شؤون الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، ثم طلب منه أن يقول بـرأيه الصريح في أيّ الثلاثـة أجدرُ بالاتباع.

وكـان التاجرُ اليهودي ذكيّاً لبقاً، فـأدركَ أنّـه أمامَ فـخّ منصوب، فهـو لا يستطيعُ أن يفضّلَ اليهودية، فيغضب صلاح الدين، ولا أنْ يفضِّل الإسلام فيتنكّر لدينه، وعليه إذنْ أن يحتال لينجو، وكانت الحيلةُ في قصّة طريفة حكاها

التاجر الماكر، وخلاصتُها أنّ خاتماً ذهبياً ثمين القدرْ كان لدى ربّ أسرةٍ عريقة، وكـان الذي يحوزُ هذا الخاتم هـو الوارث الطبيعي لمجد الأسـرة ورئاسـتها، وما زال يتنقّل من مالكٍ إلى مالكٍ، حتى وصل إلى والدٍ داهية له ثلاثةٌ من الأبناء، وكلٌّ واحدٍ منهم يُلحف في أن يكون وارث الخاتم، ولم يشأ الوالدُ أن يُغْضِبَ أحداً، فأسرَّ لكلّ ابنٍ بأنّه هو الوارث! واستدعى جوهرياً فناناً وطلبَ منه أن يصْنعَ خاتمينْ يُشْبهان الخاتم الأصلي في كلّ مظاهره، مهما تكلّف من مال، وجهد الجوهريُّ نفسه، وقدّم الخاتمينْ للوالدُ فلم يستطعْ أن يفرّقَ بين الثلاثة! وبادر فأعطى كلَّ ولد خاتماً، وأمره أن يكتم الأمر، حتى يموت، فيعلن أنه صاحب الميراث، ولما نزل الموتُ بالوالد أسرعَ كلُّ ولدٍ بإظهار خاتمه، وحار الجميعُ في تحديد الخاتم الأصلي، وانتهوْا إلى أنّ الجميع سواء!.

قال التاجر لصلاح الدين: وهكذا الأديان الثلاثة يا سيّدي، لا أستطيعُ أن أفرّق بينهما على وجه الترجيح!.

١٤٤ ـ كذب التاريخ

قال صاحب ديوان (حنين الليالي):

أرى التّـــاريـــخَ كـــذابـــا	يخـــطُّ الـــزورَ أبـــوابـــا
يعظّـــمُ كـــلَّ طـــاغيـــةٍ	ولا يُبـــدي لـــه عـــابـــا
يقـــدِّســـهُ كـــذي وَحـــيٍ	وينصِـــبُ منـــه محـــرابـــا
يســـوقُ حـــديثَـــه نسقـــاً	مـــن البهتـــانِ خَـــلّابـــا
فـــلا تنصـــتْ إلـــى التـــاريـــخِ	إنْ أطـــرى وإن عـــابـــا

* * *

تقريظ مطلوب

١٤٥ ـ حب الثناء

يقول الشاعر:

يهـوى الثنـاءَ مبـرِّزٌ ومقصِّـرٌ حُـبُّ الثنـاءِ طبيعـةُ الإنسـانِ

وحبُّ الثناء لدى المبرّز موضعُ تساؤل، إذْ لَهُ من تبريزه مايُغني عن المديح، ولكنَّ أرباب الأقلام في حاجة إلى أن يشعُروا بقيمة آثارهم الأدبيّة، فإذا سكتَ عنها الناقدون ألحّوا في طلبِ النّقد، وفيهم من يتجاوزُ الإلحاح إلى الاحتيال، فيكتب الثناء عنْ نفسه، ثم يمهرُه باسمِ علمٍ بارز، والضعفُ الإنسانيُّ مما لا حيلة للمرء فيه، وما وُجِدَ به الضعفُ إلاّ لأنّه إنسان.

يقول الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه حياة الرافعي تحت عنوان (مقالات منحولة):

في سنة ١٩١١ أصدرَ الرافعي كتاب (تاريخ آداب العرب) فتقبّله الأدباء بقبول حسن، وكُتبتْ عنه المقالات الضّافية في كبريات الصحف، ولكنّ ذلك لم يكفِ الرافعي، ففي ذات يوم قصد إلى جريدة المؤيد، فلقي هناك صديقه المرحوم أحمد زكي باشا، فأهدى إليه كتابه، ورجاه أن يكتب فصلاً عنه، فقال له أحمد زكي باشا: «وماذا تُريدني أن أكتب» قال الرافعي: «تقولُ . . . وتقول» فقال زكي باشا: اكتبْ ما تشاءُ، وهذا إمضائي.

وجلسَ الرافعيُّ إلى مكتبٍ في دار الجريدة، فكتب ما شاء أنْ ينسبه إلى صديقه في تقريظ كتابه، ثم دفعه إليه فذيّلهُ باسمه ودفعه إلى عامل المطبعة، وقرأ الناسُ في اليوم التّالي مقالاً ضافياً بإمضاء أحمد زكي باشا في تقريظ (تاريخ آداب العرب) شَغَلَ الصفحة الأولى كلّها من الجريدة، ولكن أحداً من القراء لم يعرف أنّ كاتب المقال هو الرافعي يثني على كتابه، ويُطري نفسه.

ولهذه الحادثة أخواتٌ مع زكي باشا نفسه، فإنّه لما أنشأ نشيده ـ يريد الرافعي ـ (اسلمي يا مصر) قرأ القراء مقالاً في الأخبار (أخبار أمين الرافعي) بإمضاء أحمد زكي باشا يثني على النشيد، ويُطري مؤلفه، ولم يكنْ كاتب هذا المقال غير الرافعي، بل إنَّ أكثر المقالات التي يراها القارىءُ في الكتيّب الصغير الذي نشره الرافعي عن نشيده هذا، هو من إنشائه أو إملائه.

وقد ظلّ هذا التعاون وثيقاً بين المرحومَيْن زكي باشا والرافعي إلى أخريات أيّامهما، ومنه أنّ زكي باشا كان على نيّة إعداد معجمٍ لغويٍّ كبير قبيل وفاته، وكان للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثرٌ ذو بال، وفيه فصولٌ ألّفها الرافعي بتمامها وأعدّها للإمضاء، ولكنّ المنيّة أعجلتْ أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم، وأحسبهُ ما زال محفوظاً بين مخطوطاته».

هذا ما قاله الأستاذ العريان، ولي سؤالٌ يدور حوله؛ فإنّ أسلوب الرافعي الكتابيّ لا يشتبه بأسلوب أحمد زكي باشا بحالٍ من الأحوال، لأنّ طابع الرافعي أبرزُ من أن يخفى، أفكان الرافعيُّ يتعمّد مجافاةَ أسلوبه ومحاكاة أسلوب شيخ العروبة، وذلك عبءٌ فوق عبء التأليف، قد يكون!! والتعاونُ الذي ذكره العريان وقال: إنّه امتدّ إلى أن مات أحمد زكي باشا يُوحي بسؤالٍ آخر، لقد كان الرافعيّ يودّع كبار الراحلين بمقالات مؤثّرة مثل شوقي وحافظ ومحمد الخضري ويعقوب صروف فلماذا لم يؤبّن صديقه أحمد زكي؟ إذا كانت الصلة هكذا.

١٤٦ ـ الشاعر أحمد الزين

كان الشاعر العالم الراوية المحقّق الأستاذ (أحمد الزين) من نوابغ عصره شعراً وبحثاً وتحقيقاً، وشعرُه على قلّته من أروع ما يُقال، وما زلتُ أذكر تأثّري برثائه للهراوي حين نُشر في (الأهرام) و(الثقافة) بعد رحيل الهراوي وفيه يقول:

دع الجمالَ بما تهوى محاسنُه ... يمضي وتخلفُه الأحزانُ والعِلَلُ
عيبُ الجمالِ بلاهُ بعد نضرتِه ... يا ليتَ عشّاقه قبل الهوى عَقِلُوا
فاملأ فؤادَكَ من يأس تُرحْه بهِ ... أشقى نفوس الورى شيءٌ هو الأملُ

وموضع الشاهد هنا أنّ الشاعر أصدرَ في سنّ السابعة عشرة من عمره، وكان طالباً بالأزهر مجموعةً شعرية باسم (قلائد الحكمة) وقد صُدِّرتْ بتقريظٍ شعري لشيخ شعراء مصر (إسماعيل صبري باشا) قال فيه:

إذا كنتَ يا زينُ زيْن الأدبْ فإنَّ كتابَك زينُ الكتبْ
قلائدَ طوّقت جيدَ البيانِ بهنَّ، وحلّيت جيدَ العَرَبْ
خلائقُ تُزْري بنفح الرياضِ إذا ضحكتْ من بكاءِ السُّحبْ
وما المرءُ إلاّ خلاقٌ كريم وليسَ بما قد حَوَى مِنْ نَشَبْ

وقد ذكر الأستاذ (علي فودة) بمجلة (الرسالة) تعقيباً على هذه الأبيات قبل أن يرحلَ الزّينُ إلى جوار ربه بخمسة أعوام فقال:

«إنّ مدح الشاعر صبري باشا للشيخ أحمد الزين له قصّةٌ رواها على ملأ من كرام العلماء والأدباء إمامٌ من أئمة الأدب والعلم هو شيخنا (مصطفى عبد الرزاق باشا) يجب إيرادها إنصافاً للشاعر الغائب.

كان ذلك منذ عاميْن، وبيتُ عبد الرزاق بعابدين على عهدِكَ به في ليلةٍ من ليالي رمضان، ولم يكن الشيخ أحمد الزين وطائفةٌ من أصدقائه غائبين عن هذه الجلسة، فقد جرى ذكر الشعر والشعراء، وصلتهم بالنّحو واللّغة، فقال الدكتور هيكل باشا: لعلّ الشاعر إسماعيل صبري باشا لم يكنْ واسع المحصول اللّغويّ سعةً تحميه من التورّط أحياناً في بعض الأخطاء، فالتفت الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا يدفعُ غيبة صديقه صبري باشا، فقال له هيكل باشا: لقد أسْمعني بعضُهم شعراً جاء فيه كلمة (خلاق) بمعنى (خلق) وهي ليستْ كذلك فيما يقول الشيوخ، فقال مصطفى عبد الرزاق باشا ـ والشيخ أحمد الزين حاضر ـ إنّي أنكرتُ ذلك أيضاً، فلما لقيت صبري باشا لم أكتمْها عنه، فقال لي: إنّ الشيخ الزين رجلٌ مثابر على الود، فلما همَّ بطبع ديوانه، سألني أبياتاً فلم تُسعفني القريحة، ولما تكرّر منه الطلب، لم يسعني إلاّ أن أقول له ـ وهو شاعر أيضاً ـ اصنعْ أبياتاً لنفسِك على لساني، فلما أُهدي إليَّ ديوانه قرأتُها كما قرأتموها،

وصبرتُ على ما لم تصبروا عليه».

والسؤالُ المتبادرُ للذهن تعقيباً على هذا القول؛ لماذا لم يطلبْ صبري قراءة ما يُنسبُ إليه قبل طبعه؟ وهذا من أوجب حقوقه؟.

١٤٧ ـ رجعة إلى الماضي

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإنّنا ننقلُ عن الجزء السادس من (معجم الأدباء) لياقوت هذه النادرة:

«ثم يعْملُ (أي الصاحب بن عباد الوزير الشهير والكاتب الجهير) في أوقاتٍ كالعيد شعراً، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجّم، ويقول له: قد نحْلتُكَ هذه القصيدة فامْدحْني بها في جملة الشعراء، وكُن الثالث من المنشدين، فيفعلُ ذلك أبو عيسى وهو بُغداديٌّ مُحكّكٌ، وقد شاخ على الخدائع وتحنّك، فينشد، فيقول له (الصاحب) عند سماع شعره في نفسه، ووصْفه بلسانه، ومدحه من تحبيره: أعِدْ يا أبا عيسى فإنك والله مجيدٌ، زهِ يا أبا عيسى (زهْ كلمة فارسية تدلّ على الإعجاب) قدْ صفا ذهنُك، وجادتْ قريحتُك، وتنقّحتْ قوافيك، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدْتنا في العيد الماضي، إنّ المجالس (مجالس الصاحب) تخرّج الناس، وتهبُ لهم الذكاء، وتزيدُهم الفطنة، وتحوّلُ الكوْدن (الهجين من الخيل) عتيقاً والمحمّرَ جواداً، ثم لا يصرفُه عن مجلسه إلا بجائزة سنيّة، وعطيّة هنيّة، ويغايظُ الجماعة من الشعراء وغيرهم، لأنهم يعلمون أنَّ أبا عيسى لا يقرضُ مصراعاً، ولا يزن بيتاً، ولا يذوق عروضاً.

١٤٨ ـ الدكتور زكي مبارك

ألّف الدكتور زكي مبارك عن (العشاق الثلاثة) جميل بن معمر، وكثير بن عبد الرحمن، والعباس بن الأحنف، وهو كتابٌ لطيف الحجم في مجموعة (سلسلة اقرأ) الشهيرة، ولكنّ أسلوبه التحليليّ، واختياره الشعريّ، وجماله التعبيري ممّا يشهد له بالتفوق، وقد فُوجئ القراء بكلمةٍ مادحةٍ عنه، نشرتْها

(الأهرام) بقلم زكي مبارك نفسه، وهو صِدْقٌ واقعيّ يدلّ على الصّراحة الناصعة التي يعهدُها القرّاء في الكاتب الكبير، وقد علّقت (الأهرام) على المقال بأنّه إحدى طرائف الدكتور النادرة أن يكونُ المقرِّظُ هو المؤلِّف، والفارقُ النفسيّ بعيدٌ بعيدٌ بين من يكتبُ التقريظ بقلمه وينسبُه إلى غيره، وبين من يقرِّظُ نفسه علانيةً، ويقول: إنه أدْرى بمحاسن الكتاب من سائر النّقاد.

ولو كان الذي كتب هذا التقريظ لنفسه غير الذكتور زكي مبارك لكان مبعث نقدٍ واعتراض، ولكنّ الدكتور لا يُواجه باعتراضٍ ما، لأنّه في مقدّمات كتبه الشهيرة يتحدّث عنها حديث المعجب المفاخر، ويغمز غيره ممّن شاركوه القول في منحاه الأدبي غمزاً يصل إلى درجة الهجوم! فأيُّ شيء في أن ينْقل بعض ما يقوله في المقدمة بقلمه أو شبيهاً به إلى جريدة (الأهرام)!! إنّك تقرأ ـ مثلاً ـ مقدّمة كتابه الممتاز حقّاً عن (النثر الفني في القرن الرابع الهجري) فتجدُ من أساليب المباهاة المفاخرة ما لا يعرفُ التواضع العلميّ بحال، فالدكتور يقول:

إني أحب أن أكون في طليعة المنصفين لمؤلّف هذا الكتاب، وهلْ من العدلِ أن أظلمَ نفسي، وأنْصِفَ الناس؟ إنّ هذا الكتاب أولُ كتاب من نوعه في اللّغة العربية، أو هو على الأقل أوّل كتابٍ صنّف عن (النثر الفني في القرن الرابع) فهو منارةُ السارين في غيابات هذا العهد السحيق، ولنْ يستطيع أيُّ مؤلف آخر، مهما اعتز بقوته، وتعامى عن جهود من سبقوه أن ينسْى أنّي رفعتُ من طريقه ألوفاً من العقبات والأشواك. . . إلى آخر ما كتب الدكتور في صفحات طوال.

١٤٩ ـ تجربة شخصيّة

ألّف بعض الزملاء كتاباً علمياً يجمعُ الخطأ والصواب، وأهداني نسخةً منه، وألَحَّ إلحاحاً مُفرِطاً في أن أكتب كلمةً عن مُؤلَّفه، وإزاء زياراته المتتابعة اضطررتُ إلى كتابة كلمةٍ عرضتْ مزايا الكتاب، وأشارتْ إلى ما لحظتُه من وجوه المؤاخذة، وما كاد المؤلف يرى المقال حتى بادر بكتابة مقالٍ مسهب في الردّ على ما انتقدتُـه به، موضّحاً أنّي أغفلتُ كثيـراً من محاسـن الكتاب، وهي كذا

وكذا، وذهبَ المقالُ إلى الأستاذ رئيس التحرير فلمْ ينشرْه. وفُوجئتُ بالزميل يرجوني أن أتوسّطَ لدى رئيس التحرير في نشر النقد! واضطررْتُ بدافع الحياء.

وقام الرجل الكريم بالنشر وكتب لي يقولُ: إنّه دون المستوى بكثير، وما كان لك أن تهتمَّ بنشر هذا اللغو!! وصرتُ أعتقد أنّ الزميل الفاضل سيحمد لي موقفي، وينتهي إلى هذا الحد، ولكنَّ عجيبة العجائب حقاً هي أنّه جاءني يرجُو أنْ أردَّ على ردّه بمقالٍ، لتدُور معركةٌ حول الكتاب!! قلتُ: يا أخي! إنّ رئيس التحرير نشر ردَّكَ مضطرّاً، وهذا خطابُه إليّ، فكيف تدور المعركةُ في فراغ مجدب!!

احمرّ وجهُ المؤلف، وخرج ليقول لأصدقائي: إنّني أنكر عليه سبْقه العلمي وأقفُ في طريقه الأدبي، وأنّ نفسي مريضةٌ!! ثمّ قاطعني، فارتحتُ كثيراً لهذه المقاطعة، ولكني ندمتُ على أنّي انقدتُ له بدافع المجاملة فسطّرتُ المقال المنكود! فما رأيُ القارئ في هذه التجربة؟!!.

١٥٠ ـ من شعر حافظ إبراهيم

قال حافظ إبراهيم مقرّظاً ديوان الشاعر الأديب النابغة مصطفى صادق الرافعي:

أراكَ وأنتَ نبتُ اليوم تمشي	بشعرِكَ فوق هامِ الأوّلينا
وأوتيتَ النبوّةَ في المعاني	وما دانيتَ حدَّ الأربعينا
فزنْ تاجَ الرئاسة بعدَ سامي[1]	كما زانتْ فرائدُه الجبينا
وهذا الصولجانُ فكن حريصاً	على مُلكِ القريض وكن أمينا
فحسبُك أنَّ مُطْريك ابن هاني[2]	وأنك قد غدوتَ له قرينا

* * *

(١) سامي: محمود سامي البارودي رب السيف والقلم.

(٢) ابن هاني: أمير الشعراء أحمد شوقي.

أخلاق شتّى!

١٥١ ـ وجهة نظر

تسابق بعض الوجهاء من الشبان في عصر الفروسيّة الأوروبيّة في الاقترانِ بآنسةٍ جميلة ذاتِ جاهٍ عريق، وحار والدُها في ترجيح من يحظى بالقبول، لأنّ التفرقة بينهم عسيرةٌ، ولكلِّ شابٍ مزاياه ومواهبُه، فترك للفتاة أن تختار من تريد.

وحانتْ ساعة الاختيار، فتقدّمَ عشرةٌ من الشبان، وكلٌّ يدلُّ بمكانه من أسرته، وما يملكُ من قصورٍ، وما يتبوَّأُ من منصب، فقالتِ الفتاة: لقد تساويتُم في نظري بالنسبة للمظهر، وبقي المخْبر؟ فسُئلت عما تريد، فقالت: أريدُ أن أختار أشجعكم جميعاً؟ فتبارزوا في ميدانٍ آهلٍ، وسأكونُ لمن يتغلّب على منافسيه.

وأحجمَ الجميعُ، غير اثنيْن عُرفا بالبسالة الخارقة، وتهيّئا للنزال في معركةٍ مشهودة، حضرها كبار القوم، وطال العراك أمداً غيرَ يسيرٍ، ثم استطاع أحدُ الخصْمين أن يقهرَ مُنازله، إذ تناوله بضربة أوقعته على الأرض، وأسالتْ دمه، فأعلن الاستسلام، وتقدّم الشاب الظافر باسماً بين تصفيق الحشود ليحيّي خطيبته المنتظرة، راجياً أن تُصدر أمرَها بالقبول.

ولكنَّ الفتاة هُرعت إلى الشاب الجريح، وأنهضتْه من مجلسه الحزين، وقالتْ: هذا مَنْ أختارُه؛ ولستُ أريدُ سواه، فدُهش الحاضرون، وسألها والدها عن تعليل اختيارِها غير المتوقع، فقالتْ: لقد بذل هذا الإنسان دمه في سبيلي، وتحمّل مرارة الهزيمة من أجلي، أمّا المنتصر فلم يخسرْ شيئاً، وسعد بتصفيق النظارة وهتاف الجماهير!.

١٥٢ - رفض مسبب

أُغْرِم الضابط (دي لوج) - وقد كان أشهر قوّاد المشاة في عصر (فرنسوا الأول) ملك فرنسة - بفتاةٍ جميلة من آنسات المجتمع الباريسي المرموق، وأخذ يتودّد لها، حتى استجابتْ لعاطفته، ووعدتْه بقبوله زوجاً.

وفي إحدى احتفالات مصارعة الوحوش، التي كان يقيمها (فرانسوا الأول) بمشهدٍ من حاشيته وكبار رجال الدولة كانتْ سيدات المجتمع الباريسيّ يجلسنْ في مقاصير أنيقة، فبرزت الفتاةُ التي هام بها الضابط (دي لوج) من مقصورتها، وألْقتْ بقفّازها الأبيض بيْن الوحوش المتصارعة، وقالتْ لصاحبها: هيّا أيها القائد الشجاع اقتحمْ ميدان الأسود، لتُحضر قفّازيَّ، فأعلم مقدارَ شجاعتك، وأتأكّد من صدق هواك، وتنال شهرةً لم ينلها أحدٌ في باريس!

فانبرى الفارس مُسْرعاً دون أن تبْدو عليه الدهشة، أو يُظهرَ بعض أمارات التردّد، وأخذ عباءته في إحدى يَديْه، وسيفَه في اليد الأخرى، ثم دخل بجسارة نادرةٍ ساحةَ الأسود، وساعَده الحظّ في التقاط القفاز دُون أن يهجم عليه أسد، وعادَ به إلى صاحبته بين إعجابِ الحضور وهتافهم، وتبسّمت له الحسناءُ ابتسامةَ السرور والفرح.

ولكنّ الضابط عبسَ في وجهها، واعتبرَ سلوكها شذوذاً لا تفعله مُحبّةٌ مخلصة، فرمَى القفاز في وجهها، وقال: لقد تحرّرتُ من حبّك إلى الأبد! وتلك جائزتي.

١٥٣ - الكأس والغواص

روى الشاعر الألماني الكبير (غوته) هذه النادرة:

كان الملك مع حاشيته يتأمّل من أعلى القمة رهْبة البحر الهائج حوْلَ الجبل، وفي الحاضرين أحد الأمراء الذين تقدّموا إلى خطبة ابنته الأميرة الحسناء، وكان لا يُريدُ أن يُصهر إلى الأمير، ولم يشأْ أن يرفض صراحةً، فيسبّب غضب أسرةٍ كبيرة

تشدّ أزره، فجاء بقدحٍ من الذهب، وقال للحاضرين سأرمي بهذا القدح في هذا البحر، ومن يأنسُ من نفسِه الكفاءة على غوص هذه اللجج ليحضره مرّةً ثانية فهو الشاب الذي أختاره لكريمتي الأميرة.

واستولى على الحاضرين صمتٌ رهيب، ودهشت الأميرة لاقتراح والدها العجيب، ولكنّها وجدت الأمير الشابّ يتقدّم في ثقةٍ، ويخلع رداءه، ثم يذهبُ إلى حافّة الهاوية، وسرعان ما ألقى بنفسه في المهوى البعيد، وقد يئس الحاضرون من نجاته، فترقرقت الدموع من عُيون الآنسات، ونظر الرجال بعضهم إلى بعض كالحائرين، وقال أحدُهم لجاره: والله لو رمى الملك بتاجه في البحر، وقال: إن الملك لمن يأتي به، ما ضحّى بنفسِه عاقلٌ، فكيف اندفعَ هذا الشاب؟.

وبعد قرابة ربع ساعة ـ وكأنّها الدهر الأطول ـ صرخ أحدُ النظارة صرخةَ الفرح، وقال: هذا رأسُ الشاب يطفو، وها هو ذا يتقدّم إلينا، وهُرع الجميع إلى حافّة الجبل، يشهدون الموقف بين الرّجاء واليأس، ثم حانتْ ساعة اللقاء فتقدّم الشابّ في زهو وخيلاء، حتّى بلغ مكان الملك فركع عند قدميْه، ومدَّ إليه بالكأس، وانطلقَ الحضور يهنّئونه ويثنُون على بطولته الخارقة، والملكُ عابسُ الوجه، شاردُ الفكر، لا يدْري ماذا يصنع.

ثم تأمّل في الوجوه غاضباً، وصاح مزمجراً، عندي اختبارٌ آخر، فسأقذِفُ خاتمي المرصّع بالذهب لتعاودَ الكرّة، وستنجحُ عن يقين!.

دُهش الحاضرون، ولم يجرؤْ أحد على الاعتراض، ولكنّ الأميرة صاحتْ في وجه أبيها غاضبةً: والله يا أبي لو قذَف بنفسه مرّةً ثانية، لقذفت بنفسي وراءَه، وسيكونُ مصيري مصيره، ونظرتْ إلى الشابّ في حنان، وصاحتْ به: أنا معك.

وهنا اضطرّ الملك إلى التّراجع، وأعلنَ أنَّ الأميرَ جديرٌ بابْنته، وحدّد موعد الزفاف.

١٥٤ ـ اختبار مماثل

هام شاعر كرديّ بفتاة على حظّ وافر من الجمال، وأخذ ينشِدُ أشعارَ الغزل

واصفاً محاسنها الأنيقة، ومصوّراً جمالها قدر ما في طاقة خياله الفني من إبداع، وكانت الفتاة تُسَرُّ لما تسمع من وصفٍ جميل، وتلمسُ من صدىً رنان لأشعار العاشق، ولكنّها كانت تصدُّ عنه، لأنّها في حقيقة نفسِها تهوى شِعْره الذي يشيد بمحاسنها فحسب، وقد جلستْ مع أخت لها تكبرها سناً، وليسَ لها نصيبُها الوافر من الجمال، ولكنّها ذاتُ سماحة وبراءة، فقالتْ لها: لماذا تتركين الشاعر حائراً دونَ أن يقف على حقيقة مشاعرِك، فقالت: أنا في حاجة إلى شعره لا إلى حبّه.

قالتْ: وإذا تقدّم لوالدك طالباً يدك فبماذا تردّين؟.

فأجابتْ: هيأتُ لكل احتمال ما يناسبه، وسأعرضُ عليه أن يذهبَ إلى حديقة الجنّ ليقطف وردتيْن إحداهما حمراء، والأخرى بيضاء، ويرجع بهما، ولن يستطيع.

جزعت الأخت الكبيرة وصاحتْ بها: كأنّك تريدين أن يُسْحرَ في حديقة الجنّ؟ فتقضين عليه بالممات جزاءَ إخلاصِه في حبّك، وإبداعه في وصفك! ما هذا الجحود البغيض؟.

قالت الحسناء: وماذا يهمّني، كمْ من شباب مثله صُرعوا تحت أقدام الحِسَان، وهنا صَرختْ أختُها مستنكرةً، وقالت: والله لو قالَ فيَّ بيتاً واحداً لكنتُ خادمته مدى الحياة. فضحكتِ الحسناءُ مستهزئةً وصاحت: ومن أنتِ؟ ألم تنظري إلى المرآة، فسكتتِ الأختُ على غيظ.

وكانتْ إحدى الخادمات تسمعُ الحوار، وكأنّها متشاغلة عنه، فأدركتْ قسوةَ هذه المغرورة المتكبرة، وسارعت إلى الشاعر فأعلمته بما كان، فدبَّر في نفسه أمراً، وبادر فتقدّم إلى والدها طالباً يدَها، فقال: عليّ بها، وسألها عن رأيها، فأجابتْ في شموخ: أشترطُ أن يذهبَ الشاعر الفنّان إلى حديقة الجنّ ليحضر وردتيْن، إحداهما حمراء، والأخرى بيضاء، وهما مبْتغاي.

قال الوالد ذاهلاً: ولكن الطريق مخوفٌ، فإذا اجْتازه، فالخوفُ الأكبر من اقتحام الأسوار ودخول الحديقة، لأنّ داخلها لا يعود، بها الجنّ والسحرة والغيلان والشياطين!.

قالت الحسناء: لا يغلو شيء على الحبيبة، وإنْ كانت الروح، روح العاشق الملتاع.

فسار الشاعر مستعيناً بعزيمته، وحالفه الحظُّ، فقطع الطريق في أمان، وتجرّأ فاقتحم السور، ونزل إلى الحديقة، فوجد الورود والطيور والفواكه، ولم يفاجَأ بما توهّمتْه العامة بها من سِحْرٍ وشياطين وغيلان، فقطف الزّهرتيْن، وبادر بالعودة شادياً طروباً.

وعلمتِ الحسناء بوشكِ مجيئه، فاستعدّت للقائه سعيدةً بشجاعته، ومرحّبةً باختياره زوجاً شجاعاً، وأعلمتْ صواحبها أنّه أقدم على الانتحار في سبيلها، ولكنّ الله صانه.

وفي الساعة المرتقبة، اجتمع الحفل ليشهد تقديم الزهرتيْن من حديقة الجن، وتقدّم الشاعر لا ليضع الزهرتيْن في يد الحسناء، بل ليضعهما فوقَ رأس أختِها مُنحنياً مقبّلاً قدمها، وصاح بالملأ: إنّها وحدها حبيبتي، وما قلتُ شعري إلا مُستلهماً روحها الجميلة.

وفرح الوالد باختيار ابنته الكبرى، فقد كان يُفكّر في مستقبلها، ويرى أختها عقبة في الطريق. . . أما الأخرى فأغمي عليها من الحزن.

١٥٥ ـ اختيار نادر

أما الاختيارُ النادر حقّاً، فهو اختيار الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فحين ماتت زوجته الأولى بعث إلى عمّه يخطب ابنته، فاختار العمّ بنْته الجميلة، الوافية خِلْقَةً، وأعلمَ الإمام باختياره.

فسأل أحمد: أكانت أختها الكبيرة ريحانة تسمعُ ما دار بشأن خطبتي؟

فقيل: نعم؛ وما تكلّمتْ بشيء.

وكانتْ ريحانةٌ هذه عَوْراء، تخيّل والدها أنّ ابن حنبل لنْ يرضى بها،

ولكنّه فُوجئ به يبعثُ في اختيارها بعينها، وقد سَعِدَ بها، وولدتْ له نجله عبد الله، وعاشتْ معه أيام المحنة، وتألمتْ لتعذيبه، ومَنْعِه من مخالطة الناس، واختفائه الاضطراري، فكافأتْه بالتي هي أحسن.

١٥٦ ـ من بيان الرافعي(١)

قال الرافعي تعليقاً على قول رسول الله ﷺ: «سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناءَ لا تلدُ».

يدلّ الحديث على أنّ الحبّ متى كان إنسانيّاً جارياً على قواعد الإنسانية العامة، متّسعاً لها، غير محصور في الخصوص منها، كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس، فليست العينُ وحدَها هي التي تُؤامر في أيّ الشيئين أجمل، بل هناك العقل والقلب، فجوابُ العين وحدها إنما هو ثُلُثُ الحق، ومتى قيل ثلثُ الحق، فضياعُ الثلثيْن يجعلهُ في الأقل حقّاً غير كامل، فما نكْرَهُ من وجه، قد يكونُ هو الذي نحبّه من وجه آخر، إذا نحن تركْنا الإرادة السليمة تعملُ عملها الإنساني بالعقل والقلب، وبأوْسع النظريْن دونَ أضيقهما، وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» وصدق الله!.

* * *

(١) وحي القلم، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي: ١/ ١٥٢.

والسرقات أيضاً

١٥٧ ـ سرقات لا تنقطع

تحدثتُ في بعض هذه الشذرات[1] عن سرقات أدبية اقترفها كبارٌ وصغارٌ من الأدباء والباحثين دون أدنى حرج، واليوم وقد ظهرتْ إحدى الجرائد اليومية الشهيرة في العالم العربي تحملُ صفحةً من أعمدة ثمانية تمتلئ بنوادر أليمة من السرقات الجامعيّة وغير الجامعيّة، ممّا طفحَ به الكيلُ، وعمّتْ معه البلوى رأيتُ أن أمدّ هذه الشذرات ببعض ما لمْ أقله من قبلُ، وسأكتفي بنقولٍ قرأتُها في هذا المجال الغريب، مضيفاً إليها بعض ما وقع لي، وأقولُ البعض فقط، كيلا أثقل على القارئ.

فقد حدث أنْ جمعتُ بعض قصائدي المتواضعة في كرّاسة خاصة بها، وزارني زميل كبيرٌ، فطلبت الاطلاع عليها رَدحاً من الزمن، وأعطيتُها إياه، معتزاً بتقديره، غير أنّي فوجئتُ بمنْ أخبرني أن بعض هذه القصائد تُنشر في مجلّة ما، بإمضاء صديقي المستعير ولم أصدّقْ بدءاً، ولكنّ الواقع المر أزعجني، فسارعتُ بالاتّصال بصاحبي، وكنتُ أظنُّه سيخجلُ من هذا الصنيع، ولكنّه ابتسم متعجباً، وقال لي، وكأنّه يتحدّثُ عن وضعٍ طبيعيّ لا غرابة فيه: ما هذا يا أخي، نحنُ زميلان متعاونان، آخذُ منك وتأخذ مني، تفضّلْ، هذه مجموعةُ قصائدي فاخترْ منها ما تشاء، وانْشُره باسمك دونَ أدنى حرج مني، وكان كلّ هدفي بعد هذا الرد أن أستردّ المجموعةَ، كيلا يصبح بها شيءٌ لي! ولا أحبّ أن أتحدّث عن قيمة مجموعته هذه، لأنّ السكوت أوْلى.

---

(١) الفقرة (١٢٢) وما بعدها؛ وانظر في هذا الباب مقدمة كتاب (المتنبي)، للأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى؛ ومقدمة الطبعة الثانية من كتابي الدكتور نجيب محمد البهبيتي رحمه الله تعالى (أبو تمام) (مدخل إلى الأدب والتاريخ العربيين). (الناشر)

١٥٨ ـ الطرفة الأولى

كان الدكتور (جمال الدين الشيال) نشر بمجلة (الرسالة) عدد ٨٤٩ أنه أعارَ أحد زملائه الدكاترة رسالته الجامعية المخطوطة، فنقل أكثرها في مؤلَّف طبعهُ أخيراً، دونَ أن يُشير إليه ولو في المراجع، فاهتاج الدكتور الشيّال، وكتبَ كلمةً حادّةً قال فيها: «ومن هنا نرى أنّ الدكتور قد سطا على الرسالة منهجاً وموضوعاً، وأنت إذا قارنت بعد ذلك بينها وبين ما كتب لتبيّنَ لك في وضوحٍ تامّ أنّه لم يسْطُ على المنهج والأفكار فقط، وإنما سطا على العبارات والألفاظ كذلك، فنحو ٨٠٪ من عباراته هي عباراتي بألفاظها وحروفها، ومع ذلك لم يُشِرْ حضرتُه إليّ بحرف واحد، لا في الهوامش، ولا في قوائم المراجع على كثرتها البالغة!.

١٥٩ ـ الطرفة الثانية

وما كاد مقال الدكتور الشيال يظهر في الرسالة، حتى تلاه مقالٌ آخر بالعدد (٨٥٠) تحت عنوان الأمانة الجامعية قال فيه كاتبه: «لقدْ عادتْ بي الذكريات إلى أيـام تلمذتي بالجامعة، فتذكرتُ الأستاذ المعمّم الذي جاءنا يرفُل في جُبّتـه وقفطانه، حتى إذا عُدنا من عطلة العيد، وجدْناه قد ارتدى زيّ المطربشين، وإن كانتْ ملامحُه وسحنتُه تدلّان على أنّه من الشيوخ، ذكرتُ ذلك الشيخ وهو يطْلبُ منّا أبحاثاً علمية ليقرأها ويصحّحها ثم يعيدها إلينا، فكنا نَسْعى إلى المكتبات، ونبحثُ في أمهات الكتب، حتى نفوز برضا الأستاذ عن البحث الذي نُقدّمه إليه، ولكنّ الأستاذ حفظه الله بخل علينا بأبحاثنا.

ولم نلبثْ أن رأينا هذه الأبحاث قد ضُمَّ بعضُها إلى بعض، وقُسّمتْ إلى أبواب وفصول، وأصبحتْ كتاباً يحملُ اسم الأستاذ العزيز، وإنْ كنّا نحمدْ له أنّه غيّر أسلوبَ هذه الأبحاث لتكون على نمط واحد، أما الآراءُ فقد بقيت كما هي أراؤنا، والنصوص التي استندْنا إليها في أبحاثنا بمراجعها لم يتغير شيء منها.

١٦٠ ـ الطرفة الثالثة

وهذه زميلةٌ تتقدّم برسالة الماجستير، وتُعطي بحثها لأستاذها المشرف، ومكث البحثُ زهاء ستة أشهر عند الأستاذ، وأخيراً أخذتْه منه، فإذا به يُفاجئنا بأنّ آراءَها تتفقُ تمامَ الاتفاق مع آرائه، فلما سألتْه: أين نشرتَ هذه الآراء؟ قال: إنّ كتابي سيظهر هذا الأسبوع، وفيه هذه الآراء، فأجابتْه ساخرةً، الحمد لله، لقد اطلعتَ على آرائي، ولم أطلعْ على آرائك، ولا ينسى الزميل الدكتور الشيال قصّة هذه الكتب التي يُوضع عليها اسمُ أستاذٍ من الأساتذة ومعه اسمُ تلميذٍ من تلاميذه، على أنهما اشتركا في تأليف الكتاب أو ذاك، ونحن نعلم من ألّف الكتاب، ومن الذين استفاد!.

١٦١ ـ الطرفة الرابعة

وتعليقاً على ما جاء من اغتصاب بعض الأساتذة لبحوث الطلاب، أذكرُ واقعةً شهدتُها بنفسي منذ وقت طويل، فقد كان أحد أصدقائي المشهود لهم بالكفاءة العلمية والأدبيّة ـ طالباً بكلية دار العلوم، وقد كلّفهُ أستاذُه أن يبحثَ عن قصائد شوقي التاريخيّة. ليكتبَ بحثاً عن شعر شوقي السياسي، واضطرّ الطالب المجتهد أن يتجاوزَ (الشّوقيات) المطبوعة إلى ما لمْ يُنشرْ في الجرائد القديمة، مما أهمله شوقي لاقتناعه بمغبّة نشرِه السّيئة، وذلك قبلَ أن يقومَ الدكتور محمد صبري السّوربوني بجمع الشوقيات المجهولة في جزءيْن كبيريْن بأمد بعيد، فعثر على قصائد خطيرة قالها شوقي في هجاء الزعيم الوطني الكبير أحمد عرابي باشا، عثر عليها في مطويّات نائية أُدْرِجتْ في صناديق لا ترى النور، فعدَّ ذلك توفيقاً كبيراً، وكتب البحث مستنداً إلى هذه القصائد.

ورحبَّ بها الأستاذ ترحيباً بالغاً، ولكنّه لم يُضيّع الفرصة السانحة، فأصدر بحثاً عن شوقي يجمعُ هذه القصائد، ويُعلّق عليها في ضوء ما اهتدى إليه الطالب المجتهد في بحثه، ولعلَّ أقلّ موجبات الإنصاف أن يُشيرَ إليه، ولكنّه باهى بالعثور عليها، وعدَّها نتيجة جهدٍ كبير قام به وحده ـ ولم يشأ الطالب أن يعترض، لأنّ السكوت أحرى وأحْزم! ولكنه شكا إليّ. . .

١٦٢ ـ الطرفة الخامسة

كان الأديب الكبير الأستاذ محمد سعيد العريان يكتبُ بمجلة (الثقافة) تعليقاتٍ أسبوعيةٍ على ما يلحظه من مظاهر النشاط العلمي في العالم العربي، وكان يُوقعها بإمضاء (قاف) وحارَ القرّاء في التوقيع، لأن القاف ليست في حروفِ اسمه، ولكنّه يقْفُو ويتتبّع جلَّ ما يُكتب في الصحف الأدبية، ليعلّق عليه فهو إذن (قافٍ) على زنة اسم الفاعل.

كتب الأستاذ العريان بالعدد (٢٢٢) من مجلة (الثقافة) يقول بعد مقدمة تمهيدية:

١ ـ هذا قاضٍ كان يشغلُ منصباً دبلوماسيّاً كبيراً، تهيّأتْ له في بعض غربته فرصةٌ، فحصل على ترجمة إنكليزية لرسالةٍ بالأرديّة في أسرار الحج، فحملها إلى مصر، وأخرجها كتاباً بالعربيّة باسمه بعد أن أعانه على أدائها أديبٌ كبيرٌ من أدبائنا ـ يريد الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ـ وما يزالُ هذا الكتاب منسوباً إلى ناشره، وليسَ له فيه لا الفكرة ولا الترجمة ولا الأداء، وليس له إلاّ أن حمله من جدّة إلى القاهرة أو حملتْه معه الباخرة.

٢ ـ وهذا كتابٌ مدرسيّ ألّفه معلمٌ مغمور، لا يكادُ يعرفه غير تلاميذه، وإنّه ليرجو به النفع العام أو الانتفاع الماديّ، ولكنّه يخشى أن يجهلَ الناسُ قدره، فيكسد كتابه في السوق، ويخسر جهده وماله، فإنه يسعى إلى فلانٍ وفلان من أصحاب الجاه العلمي في هذا الباب، فيطلب إليه أن يراجع كتابه، فإذا راجعه فقد صار له الحقّ في أن يكون شريكه في التأليف ـ بمعنى أن ينشر اسمه في الواجهة مع المؤلف ـ وشريكه في النفع الماديّ، وهذا واحدٌ، أو لعلّه كثير.

٣ ـ وهذا ناشرٌ خبير بالسوق قد خطر لهُ أن ينشر مخطوطاً قديماً، قد تخرّق وتحرّف وبلي من الزمن، وابتُلي بالنّساخ، فإنّه ليستأجِرُ بعضَ المرتزقة من أدباء السوق، يُصحّحونه ويرمّون ما بليَ منه، ولهمْ على ذلك من الأجر الماديّ بمقدار العمل، جملةً بسعر الجزء، أو تفصيلاً بسعر الصفحة، ككلِّ صانع في صنعته،

فإذا فرغُوا من عملهم، وخلصُوا بأجرتهم، حملَ الناشر الكتاب صحيحاً محقّقاً سليماً من التمزيق والبلى وسوءِ النسخ، إلى كبيرٍ من أهل هذا الفنّ، يسأله أن يُتوّجه باسمه، ويلحقه بنسبه، ثم يظهرُ في السوق بتحقيق الأديب الكبير.

وقد نسي الأستاذ العريان، أن يقول: إنَّ الرغبةَ في كتب التراث شديدةٌ نهيمة، وأنّ القرّاء ليحرصون عليها أشدّ من حرصهم على كتب المحدثين، ولذلك تتعدّد طبعات الكتاب مرّةً بعد مرّة، ولكلِّ طبعةٍ مكافأتُها المجزية (بالجيم) وكدت أقول (المخزية) بالخاء، يتقاضاها المحقق الكبير، ولعله لم يقرأ الكتاب أصلاً...

١٦٣ ـ الطرفة السادسة[1]

والداءُ من قديم، ليسَ داء مستحدثاً، بل كانت السرقةُ الأدبية في القديم أسهل، لأن المؤلَّف مخطوطٌ ومحدود الانتشار قبل زمن المطابع، كما كان النّقل المتواصل عُرْفاً عاماً لدى بعض من تُسوّل له نفسه أن يختصر شيئاً ويُطيل شيئاً، ويجعل الكتاب باسمه، وقد طُبع كتاب (الأحكام السلطانية) لأبي يعلى الحنبلي، فرأى الباحثون أنّه مأخوذ من كتاب (الأحكام السلطانية) للإمام الماوردي أخذاً صريحاً، يكاد أن يكون كليّاً، وأثيرت المسألة على صفحات مجلة (الثقافة) فكانتْ مناسبةً للأستاذ محمد عنّان كي يذكرُ بالعدد (٣٢٥) من المجلّة نصّاً للسخاوي عن شيخه الحافظ ابن حجر قال فيه تحت عنوان: فصْلٌ فيمن أخذ تصنيف غيره فادّعاه لنفْسه: قال ابن حجر:

منه (البحرُ) للروياني أخذه من (الحاوي) للماوردي و(الأحكام السلطانية) لأبي يعلى، أخذها من كتاب الماوردي، لكنْ بناها على مذهبِ أحمد، و(شرحَ السنة) للبغوي مستمدٌّ من شرحي الخطابي على البخاري وأبي داود، و(الكلامُ على تراجم البخاري) للبدر ابن جماعة أخذهُ من (علوم الحديث) لابن الصلاح

---

(١) انظر الشذرة (٣٠)، ص٢٨.

بحروفه، وزاد فيه كثيراً، وشرح البخاري لشيخنا ابن الملقّن جَمعَ النصْفَ الأول منه من عدة شروح، أمّا النصف الثاني فلم يتجاوز فيه النقل من شرحي ابن بطال وابن التّين.

وأما (طبقاتُ الشافعيّة) لابن الملقّن فقد جمعَ فيه بين الأسنوي والتاج السبكي، بحيث لم يزدْ عليهما سوى ترجمة واحدة، وكذا قرأتُ بخطّه على (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ما نصّه «أصلُ هذا التصنيف للأستاذ الجليل أبي منصور عبد المحسن بن علي بن طاهر البغدادي الفقيه المحدّث الشهير، رأيته في مجلّدةٍ لطيفة، وجملةُ ما فيه من الأحاديث خمسة وعشرون حديثاً، إلى أنْ قال: ولمصنف (الإجابة) وهو الزركشي حُسنُ الترتيب والزيادات البينة، والعزْو إلى التصانيف الكبار، والأولُ على عادة من تقدّم يقتصر على سوق الأحاديث إلى شيوخه»[١].

١٦٤ ـ لأبي العلاء المعري

خـذي رأيـي وحسبـكِ ذاكَ منـي	علـى مـا فـيّ مـن عـوجٍ وأمـتِ
ومـاذا يبتغـي الجلسـاءُ منّـي	أرادوا منطقـي وأردتُ صمتـي
ويـوجـدُ بيننـا أمـدٌ بعيـدٌ	فـأمّـوا سمتهـم وأممـتُ سمْتـي

* * *

(١) مَن يقارن المصنفات المذكورة لا يسلِّم للسخاوي بما قال، فكتب السيوطي مثلاً كلها مبنية على كتب من سبقوه فهل قال أحد: إنها انتحال؟! (الناشر)

عواطف الحيوان

١٦٥ ـ قلب الحيوان

كَتَبَ صيادٌ أوروبيٌّ يُعلِنُ توبته عن اصطياد الحيوانات، فكان مما قيل:

ذهبتُ إلى الغابة ذاتَ صباح، فرأيتُ قرداً جميلَ الصورة بالنسبة إلى فصيلته، وهو صغيرٌ، وحده على الشجرة، يقفز من مكان إلى مكانٍ في أعاليها، وكأنّه طروب فرِحٌ بصفاء الجوِّ وخضرة الشجر، فأردتُ أن أصيده لأحتفظ به كي أبيعه بثمن غالٍ، وصوّبتُ البندقية إلى قدمه، ولكنها أخطأت المكان، فاتجهت إلى موضعٍ قاتل، وسارعتُ فحملتهُ جاهلاً مكان الإصابة من جسمه.

وما كدتُ أنتقل به إلى منزلي الحديدي في الغابة حتى سمعتُ ضجّة عالية، ورأيتُ عشراتِ القرود تزحفُ نحو منزلي، فأوصدتُ الباب، ولكنها تجمعتْ، وكأنّها صممتْ على ألا تذهب حتّى ترجعَ بالقرد الصغير، فاضطررتُ أن أرميه إليها بعد أن فارق الحياة، فحين أبصرَتْه ميتاً، جعلتْ تنصرفُ واحداً واحداً، إلا قردةً عجوز، أخذتْ تضمّه بشدة إلى صدرها، ثم تتركُه، وتضعُ الترّابَ على رأسها، ودموعُها تنهمر كالإنسان تماماً دون فارق، وزاد أسفي حين أبصرتُها تُقبّلُ كلّ عضوٍ من أعضائه، ودمُوعها لا تزال تنهمرُ، ثم رأيتُها تجرّه، وتحمله، وتسير به، وكانتْ تعجزُ عن مواصلة السير، فتضعهُ على الأرضِ وقتاً، ثم تحمله، وأنا أتابِعها، وقلبي يتقطّعُ من الندم، ولم أذق اليومَ والليلةَ طعاماً، لأنّ منظر الأم العجوز في بكائها، ووضعِ الترّاب على رأسها، لم يجْعلني أفكّر إلا فيها وفي ولدها الصريع.

وفي الصّباح جهّزتُ أمتعتي، وعزمتُ على السّفر، وأنا أُسائل نفسي، إذا كنتُ قد اصطَدْتُ أكثرَ من مئتيْ حيوان، فكأنّي فجعتُ أكثر من مئتيْ أمّ. ولا أدري. . . وكان طبيعياً أن أتركَ هذه المهنة القاسية! القاسية حقّاً دون جدال.

١٦٦ ـ رحمة العصافير

قال الجاحظ في (الحيوان):

وليس في الأرض طائرٌ ولا سبعٌ ولا بهيمة أحنَى على ولدٍ ولا أشدّ به شغفاً من العصافير، فإنّها إذا أُصيبت بأوْلادها أو خافتْ عليها العطب، فليسَ بيْن شيءٍ من الأجناس من المساعدة مثلُ الذي مع العصافير، لأنَّ العصفور يرى الحيّة قد أقبلتْ نحو عُشّه ووكرِه لتأكلَ بيضَه وفراخَه، فيصيحُ ويرنّق فلا يسمع صوتَه عصفورٌ إلاّ أقبلَ عليه، وصنع مثل صنيعه بتحرّق ولوعة وقلق، واستغاثةٍ وصراخٍ.

وربما أفلتَ الفرخُ وسقط إلى الأرض، وقد ذهبت الحيّة، فيجتمعن عليه إذا كانَ قد نبتَ ريشُه أدنى نبات، فلا زِلْن يهيّجنه، ويطرْن حوله، لعلمها أنّ ذلك يُحدث للفرخ قوةً على النهوض، فإذا نهضَ طِرْنَ حواليه ودونه يشجّعنهُ بذلك العمل، ولو أنّ إنساناً أخذ فرخيْ عصفور من وكره بحيثُ يراهما أبواهما في منزله لوجد العصفورَ يقتحمُ ذلك المنزل، حتّى يدخلَ في ذلك القفص، فلا يزالُ في تعهّده بما يعيشه حتى يستغني عنه، ثم يتحمّل في ذلك غاية التغْرير والمخاطرة، وذلك من فرط الرقة على الولد.

١٦٧ ـ حزن الحيوان

جاء في مجلة (الكتاب) (مارس ١٩٥٢):

نشرت الصحف المصرية أخيراً برقيّة طريفة من (ميلانو) في (إيطالية) تقولُ: امتنعَ عن الطعام منذ يوم عيد رأس السنة الأسودُ والنمورُ والفهود في حديقة الحيوان بميلانو بعد أن تُوفّي مدير الحديقة الذي كان يعطف على الحيوانات ويطعمها بيده، فقد فقدت الحيواناتُ شهوتَها للطعام حزناً على المدير، الذي كان يمرّ بها جميعاً ويُلاطفها، ويتحدثُ إليها كلّ يوم عندما يُوزع عليها الطعام.

ولما توفي في يوم رأس السنة افتقدتْه الحيوانات، وراحتْ تزأرُ وتعوي حزناً عليه، ثم امتنعتْ عن الطعام، وقد صرّح موظّفو الحديقة أنّهم بعثوا إلى

أرملةِ المدير، وهي الأخرى صديقة الحيوانات يسألونها العون، ويطلبونَ إليها أن تكفكف دموع هذه الحيوانات التي صدها الأسى عن الطعام والشراب.

ويذكر كاتب هذه السطور بمجلة (الكتاب) ـ الأستاذ (عوض جندي) ـ مقالاً قرأه في شبابه في إحدى المجلات الإنكليزية، جاء فيه ما يلي تأييداً لهذا النبأ:

كان لسيدة إنكليزية أرنب جميلة أهدتْها إليها إحدى صديقاتها، فشغفت الأرنبُ بحبّ تلك السيدة، حتى كانت لا تفارقها متى أُطلقتْ من قفصها، إذ كانتْ تتبعها حيث تذهب، كما يتبعُ الكلب صاحبه، وترفض الطعام إذا قدّمه إليها أحدٌ سواها، وكانت السيدة تقطن في أرياف (إنكلترة) فاضطرت إلى مغادرتها لقضاءِ بضعة أسابيع في (لندن) فلم تر بدّاً من ترْك الأرنبِ في منزلها تحت رعاية خدمها، لتعذّر مرافقتها إياها في مساكن العاصمة الإنكليزية.

فحزنت الأرنب حزناً شديداً على فراق سيدتها، وصامتْ عن الطعام، وأبتِ الخروج من قفصها، فأخذ الخدمُ يحرّضونها على الأكل بألذّ أنواعه، فكانت ترفضه رفضاً باتاً، فصارُوا يتوقّعون أن يقهرها سلطانُ الجوع ذاتَ يوم، ويكسر شوكة عنادها فتأكلُ مرغمةً، ولكنّهم كانوا مخطئين، لأنّ الأرنب ظلّتْ صائمةً، حتى آلَ الأمرُ إلى استدعاءِ صاحبتها المحبوبة من لندن، فعادتْ، وما إن رأت الأرنبُ سيدتها حتى هرعت إليها، وتعلّقتْ بها كأنّها تريد مصافحتها.

وحدثني ـ والكلام لصاحب المقال ـ قريبٌ لي، في العقد الثامن من عمره، فقال: شاهدتُ منذ نصف قرن في بلدتنا بمديرية (البحيرة) كلباً أميناً يموت حُزناً فوق رمس صاحبه الذي كان في حياته يطعمه بيده، صباحاً وظهراً ومساءً، فقلتُ: حبّذا هذا الإخلاص.

١٦٨ ـ الذئب العاشق

قصّةٌ واقعية أرْويها بتصرف عن الدكتور (يعقوب صروف) صاحب مجلة (المقتطف) في كتابه عن التاريخ الطبيعي:

في (كرمْبو) بولاية (المكسيك) سهولٌ فسيحة، كثيرةُ القُطعان، خصبة المراعي، ولكن يعكر صفوها ذئب خطير، كبير الحجم، لقّبهُ الأهلون (بملك كرمبو) وهو زعيمُ عزْجلة من الذئاب، تأتمُّ بأمره، فيسلّطها على جموع الماشية، لتفتكَ بها وبمن يحرسها، حتى أصبح اسمُه مصدرَ رُعْب صاعق، وكان ذا حِيْلَةٍ لا تتيسَّرُ إلاّ لإنسانٍ عاقل مُدرك، فهو يحتالُ على الإيقاع بالمزارعين بما لا يدور في ذهن بشر.

وقد حاولَ الرعاة قتل (لُوبو) وهذا اسمه المشتهر بيْنهم بكلّ وسيلة ممكنة، بالسّم والفخاخ والأسلحة النارية، فكان أتباعهُ تتساقط لتتجدد، أما هو فمن مكره في حرز حريز، وحين ضاق المُزارعون به، أعلنُوا أنّهم يُعطون خمسين ألفاً من الدولارات لمن يتمكّن من صيده، فأراد صيّاد تتري شهيرٌ أن يفوز بالجائزة، وأعدّ الأسلحة والكلاب المدرّبة، والصيادين الخاضعين لإشارته، وجعلوا يترصّدونه دون جدوى، لأنّه يعتصم بالمغاور والآكام.

ثم قرّروا أن يضعوا السموم القاتلة في ضحايا من الأغنام، على أن تغلّفَ بأقراصٍ من اللحم والشحم، كيلا يفطن إليها الذئب، فكان من العجيب أن يجمع الذّئبُ هذه الأقراص، ويبولُ عليها، كأنه يتحدّى القوم، ويفهمهم أن مثل هذه الحيل الصبيانية لا تنطلي عليه.

وقد لجأ القوم إلى إذابة السّم في شحمٍ طري وهو من نوع (السبائيد) أفتك السموم قتلاً، وأنشطها سرعة، ثم وضعوهُ في أجزاءٍ من اللحم حاولُوا محو أثرها على الجلد، كيْلا يفطن لها الذئب، ولكنّهم فُوجئوا بهذا الماكر يبول على الضحية أيضاً... كأنّه شمَّ رائحة السّم، فتوقّاه، لأنه من فصيلة الكلاب، ولم تنفع الرصاصات المتوالية، ولا السمومُ المتابعة، ولا الفخاخ التي تنْصب في الغدران ـ ووزنُ كلّ فخٍ أكثر من عشرة أرطال ـ في اصطياد هذا الداهية، إذ كان يتحاشاها بخبرته الواعية، وضحاياه كلّ يوم تتابع من القطعان والأناسيّ حتى أصبح وباءً يكتسح (كرمبو).

وقصةُ هذه الفخاخ طويلة يصعب سردها، وكلها تنتهي بالفشل، غير أنَّ

صياداً ماكراً أشار على القوم باستدعاءِ ذِئْبة جميلةٍ من إقليم عيّنه، لتكونَ مصدرَ سرورٍ للذئب الذي لم يُشاهِد هذا النوع من الذئاب الدنماركية، وطبيعيّ أنّه سيفتديها بروحه، وأنّها لا تحوي تجربته الماكرة، فإذا وقعتْ في فخٍّ محكم مما يتحاشاه الماكر الداهية، فإنّه سيتدخّل لإنقاذها، ولا بدّ أن يُلْحَظ على بُعد، ليتعقّبه الرصاص القاتل داخل الفخ الحديديّ الثقيل، فلا يستطيع النجاة، والرصاصُ ينهال عليه من كل مكان، وجاءت الذئبةُ المسكينة، وتُركتْ في السهل الممتد، فتجمّع حولها الذئاب في فرحٍ، ورآها (لُوبو) فاصْطَفاها لنفسه، وجَعلها أميرةَ الذئاب لا يُمكن لغيرها أن يتقدّمه في المسير.

ووثق القومُ من الخطوات الأولى في نجاح الخطّة، فأخذوا يرصدون الفِخاخ الثقيلة ذاتِ الحديد الأصمّ، ويراقبونَ في حذر مجيء الذئبة إلى الماء، حيث تُوضع الفخاخ، حتى تمّت الوقيعة وهَوتْ في الشّرك، فصاحت صيحةً مرعبة سمعها (لوبو) فأقبل يعدُو من السّهل البعيد، ولم يُحجم عن انتشالها فاندفع إلى الفخ يُحاول إنقاذها، وانهال عليه الرصاص من كل صوب، فهوتْ قوته، ولم يستطع الوثوبَ بحبيبته، وتقدم القوم يروْنه في الاحتضار، فكانَ ينظرُ إليهم باشمئزازٍ، وقد أدركَ عاقبته المحتومة، أما الذئبة الدنماركية فقد ذاقت حتفها لأوّل طلقة من طلقات الرصاص، وكانت هي الطُّعم اللذيذ.

١٦٩ ـ من شعر الأبيوردي

لهذا الشاعر نفثاتٌ وجدانية رقيقة، وقد عبّر عن بعض لواعجه مستعيناً بصورة فنيّة لِظبيةٍ جميلة ترعى مرْجاً ناضراً بالجزع، ومن خلفها ولدَها الصغير، لا يكادُ يقدِرُ على القفز وراءَها، فتركته في ظل أراكةٍ لتعود إليه بعدَ أن ترْعى نبات المرج، وآنَسَها المرعى الخصيب بما يضمّ من ثمرٍ وغذاءٍ، فجعلتْ تأكل هانئةً قريرةً، حتى قضت لبانتها.

ثمّ رجعت ثانيةً إلى طلاها، فصادفتْ أسوأ موقف صَادَفته، بقيةَ أشلاء يغمرها الدم، إذ أُتيح له سبْعٌ مفترس، لم يكدْ يرمقه حتّى جعله غذاءه الهنيء،

ولا تَسلْ عن حزنها اللاّهب، وأساها الوجيع، حين طفقتْ تنظر إلى حشاشتها القتيلة في ذعرٍ هائجٍ، وفي النفس ما بها من جذوات الحسرة، هذه الحسرةَ الكاوية جعلَها الشاعر الإبيوردي مثيلةً لحسرته حين فارق حبيبه مكرهاً فقال:

وما أمُّ ساجي الطّرفِ مال به الكَرَى ... على عَـذَباتِ الجَزْع تَحْسَبُه قلْبا
تُ. إعـي بـإحـدى مقلتيْهـا كنـاسَهـا ... وترمي بـأخـرى نحـوَه نظـراً غَـرْبـا
فلاحَ لها من جانبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ ... كـأنَّ الـربيـعَ .ألـقَ ألْبسـهُ عَصْبَـا
وآنسها المرعى الخصيبُ فصادفتْ ... مدى العينِ في أرجائِه بلداً خِصْبا
فلمّـا قضـتْ منـه اللبـانـةَ راجعـتْ ... طـلاهـا فـألفتْه قضـى بعـدَهـا نحبـا
أُتيـحَ لـه عـاري السـواعـد لـم يـزلْ ... يخـوضُ إلـى أوطـارِه مطلِبـاً صعبـا
فولّتْ على ذعرٍ وفي النفس ما بها ... من الكربِ، لا لاقيْتَ في حادثٍ كربا
بـأوجـدَ منـي يـوم عجّـت ركـابهـا ... لبيْـنٍ فلـم تتـرك لـذي صبـوةٍ لُبّـا

* * *

مطارحات أخرى

١٧٠ ـ مساجلات شعرية

تكونُ المساجلاتُ الشعريّة ذاتَ متعة خالصة، إذا صدرتْ عن تجارب عاناها المُساجلون، وصدقتْ في تصْوير ما يحسّ به ناظمها من المشاعر، وقد تكون هذه المساجلات في بعض منها، وليدةَ احتيالٍ عقليّ، يدل على البراعة في النظم، أكثر مما يدلّ على صدق الانفعال، والنوعان كثيران في الشعر العربي قديمه وحديثه، وقدْ يكونُ في الاستشهاد الشعريّ ما يُقدّم الدليل على ترجيح كفة على كفة، إذ إنّ القارئَ سيرجعُ إلى شعوره الصادق بإزاء ما يقرأ، والشعورُ الصادق ميزانٌ أمين.

لقد كان الصاحب بنُ عبّاد صاحبَ مجلس أدبي، يحتشد فيه كبارُ الشعراء، وهمْ في حاجةٍ إلى رفده وعطائه، لذلك جعلُوا يُفرطُون في مدائحه إفراطاً جاوزَ الحد، وهو يستريحُ إلى ما يسمع، ويُجزِلُ العطاء لمن أفرطَ وبالغ، وقد دعا المتنبي، واحتالَ كلّ احتيالٍ كي يزوره مادحاً، فأبى أبو الطيب واستعصم، إذ عَرف وُلوعَ الصاحب باستجداءِ المديح ممّن يروْن أنفسهم في حاجةٍ إلى نواله، ولهم شهرة مستفيضة تُغْنيهم عن النباهة المرجوة في حضرة الصاحب! وعلى كلٍّ فقد جعلَ الصاحبُ مجلسَه مجلسَ أدب وشعرٍ حين يفرغُ من أمورِ الدّولة وشؤونها السياسية والإدارية، وهو في هذا المجلس يقترحُ الموضوعات، ويفتحُ الميدانَ للمساجلات فيما تعيّن له من أغراض.

لذلك نجد الثعالبي في (اليتيمة) يُفرد باباً لقصائد الداريّات يتضمن بضع عشرة قصيدةً قِيلت في وصفِ الدّار التي بناها الصاحب بناءً على اقتراحه، كما يُفرد باباً للبرذونيات يتضمّن ثلاث عشرة قصيدةً قيلتْ في رثاءِ برْذوْن لأبي عيسى المنجم، وهو من شيعة الصاحب، إذ أراد أن يكونَ بكاءُ البرذون العتيق السّن

موضعَ المساجلة الشعرية، واجتهد الشعراء فقالُوا وأطنبوا، والموضوعُ من الهوان بحيث لا يجبُ أن تقوم فيه هذه المناحة الصاخبة، كما اقترح أن يصف شعراءُ الحضرة (الفيل) في قصيدة حدّد وزنها وبحرها ورويّها، فاستجابوا طائعين.

وفي (اليتيمة) شذورٌ مما قالوا، ولا نُنكر براعة هؤلاء الشعراء فيما احتالُوه من المعاني، ولكنّها براعة عقلٍ، لا براعة إحساس، فمثلاً نرى أبا العباس الضبّي يصفُ دارَ الصاحب مبتدئاً بقوله:

دارُ الوزارةِ ممدودٌ سرادقُها ولاحِقٌ بذرى الجوزاءِ لاحقُها
والأرضُ قد واصلت غيظَ السماء بها فقطرُها أدمعٌ تجري سوابقُها

ونرى أبا الحسن صاحب البريد يبتدئ بقوله:

دارٌ على العِزِّ والتأييدِ مبناها وللمكارمِ والعلياءِ مغناهَا
فاليُمنُ أصبحَ مقروناً بيمناها واليسرُ أصبحَ مقروناً بيُسْراها

ونرى أبا القاسم الزعفراني يبتدئ بقوله:

سرّكَ الله بالبناءِ الجديدِ تلكَ حالُ الشكورِ لا المستزيدِ
هذه الدارُ جنّةُ الخلدِ في الدنيا فصِلْها وأختها بالخلودِ

وموجز ما يقال في كل ذلك: إنّه شِعْرُ رأس لا شعر قلب، وروحه ضعيفة دانية.

١٧١ ـ الفنجان المكسور

أما شعر القلب حقاً فهو ما صدرَ عن عاطفة صادقة، ونُمثّل له بمساجلة طريفة، أبطالُها (آل المعلوف) في المهجر الأمريكي، وكلّهم شعراء ملهمون هم (فوزي المعلوف)، و(شاهين المعلوف)، و(ميشال المعلوف)، و(شفيق المعلوف).

ومن حديث هذه المساجلة أنّ زوجاً كريماً للسيدة الحسناء (إيزابل المعلوف)

كان يستضيفُ الشعراء الأربعة في سمر أخويّ بداره، وأُديرتْ كؤوس القهوة، فشاء الحظّ أن يسقط فنجانُ القهوة من كفِّ الزوجة الحسناء، وهي تشربُ مع الزائرين، فتحطّم على الأرض، وبلّل الثوب، وارتاعت الزوجةُ لأمرٍ لم تتوقّعْه، وشاء الشعراء أن يجعلُوا من الحادث مناسبةً للشعر، وهم في نفوسهم يُكْبِرُون السيدة، ويشعرون بتقديرٍ لها فوقَ الوصف، وبهذا الشعور الصادق، اندفعوا إلى القول في إخلاص، يشفُّ عن مودّةٍ [illegible] فقال شاهين المعلوف:

ثَمِلَ الفنجان لمّا لامستْ ... شفتاهُ شفتيْها واستعرْ
وتلظّتْ من لظاهُ يدُها ... وهو لوْ يدري بما يَجْنِي اعْتَذَرْ
وضعتْه عِنْدَ ذا مِنْ كَفِّها ... يتلوَّى قلقاً أنّى استقرّ
وارتمى مِنْ وجْدِهِ مستعطفاً ... قدَمَيْها، وهو يبكي فانكسَرْ

وقال ميشال المعلوف:

عاشَ يهواها ولكن ... في هواهُ يتكتّمْ
كلّما أدنتْه منها ... لاصَقَ الثغرَ وتَمْتَمْ
دَأْبُه التقبيلُ لا ... ينفكُّ حتى يتحطّمْ

وقال شفيق المعلوف:

إنْ هَوَى الفنجانُ لا تعجبْ وقد ... طَفَرَ الحزنُ على مَبْسَمِهَا
كلُّ جزءٍ طار من فنجانِها ... كانَ ذكرى قُبلةٍ من فَمِها

أما فوزي المعلوف صاحب الملحمة الخالدة (شاعر في طيارة) فقد قال:

ما هوى الفنجانُ مختاراً فلو ... خيّروه لم يفارقْ شفتيْها
هي ألْقَتْهُ، وذا حظُّ الذي ... يعتدي يوماً بتقبيلٍ عليها
لا ولا حطّمه اليأسُ فها ... هو يبكي شاكياً منها وإليها
والذي أبْقاه حيّاً سالماً ... أملُ العودةِ يوماً ليديْها

وقد نُشرت المساجلة في مجلة (السمير) المهجرية، وكانتْ موضع موازنات وتعليقات أدبيّة ناقدة، والذي نؤكّده أنّ الشعراء الأربعة قد صدقوا

الترجمة عن مشاعرهم دون افتعال، وأنّ منزلة الزوجة الحسناء من نفوسهم قد ألهمتهم بارعَ التعليل، ورقيقَ الوصف.

١٧٢ - بين شوقي وولي الدين يكن

حين تنازل السلطان عبد الحميد عن الخلافة لخلفه، اندفعَ كثيرٌ ممن كانوا يسبّحون بحمده إلى ذمّه، وانهالت المقالات والقصائد تسفيهاً للرجل، وتنديداً بعهده، لأنّ الدنيا لمن غلب، وتلك حالٌ أليمة، عبّر عنها الشاعر الغيور الأستاذ (أحمد محرّم) حين قال مواجهاً من ذموه اليوم ومدحوه بالأمس:

ألـم يـكُ ظـلُّ الله بـالأمـسِ بيننـا ... نلـوذُ بـهِ والخطـبُ ضنـكٌ مـذاهبـهُ
ألا راحمٌ؟ هل من شفيعٍ؟ أما كَفَى ... أكـلُّ بنـي الـدنيـا عـدوٌّ يغـاضِبـهُ
أكـلُّ مـا آتيـه ذنـوبٌ؟ أكلُّـه ... عيوبٌ؟ ألا مِنْ منصفٍ إذْ نحاسبهُ
أليسَ الأُلى غشّوه أجدرُ بالأذى ... وأوْلى الورَى بالشرِّ مَنْ هو جالِبهُ

وفي هذا الغمرة الغاشية، هتف (أحمد شوقي) بقصيدةٍ رنَّانة تقفُ في صفّ السلطانِ المخلوع، وتلمّس له الأعذار، وكانَ لها صدى قويّ بين دعاة الوحدة الإسلامية، ولكنّ الشاعر ولي الدين يكن، وهو من الطراز الأول من شعراء عصره قد ساجَلَ شوقي مُساجلة المعارض، فعمدَ إلى آرائه لينقضها نقضاً، إذ كان من خصوم السلطان ذوي اللّدد المرير، وقد بدأ شوقي قصيدته قائلاً:

سـل (يلـدزاً) ذاتَ القصـورْ ... هـل جـاءَهـا نبـأُ البـدورْ
لـو تستطيـعُ إجـابـةً ... لبكتْـكَ بـالـدمـعِ الغـزيـرْ
أخنَـى عليهـا مـا أنـا ... خَ علـى الخَـوَرْنَـقِ والسَّـدِيـرْ
ذهـبَ الجميـعُ، فـلا القصـو ... رُ تُـرى ولا أهـلُ القصـورْ
فلـكٌ يـدورُ سعـودُه ... ونحـوسُـه بيـدِ المـديـرْ

ولكنّ ولي الدين يكن يرفض هذا الاتجاه، فيصيحُ في وجه أمير الشعراء هاتفاً:

هــاجَتْــكَ خــاليــةُ القصــورْ وشجتْــك آفلــةُ البــدورْ
وذكــرتَ سكّــان الحِمَــى ونسيــتَ سكّــان القُبُــورْ
وبكيــتَ بــالــدّمــعِ الغــز يــر لبــاعــثِ الــدمــع الغــزيــرْ
إنْ كــان أخلــى يلــدزاً ربّ الخــورنــقِ والســديــرْ
فلْتــأهَلَــنْ مِــنْ بعــدهــا آلافُ أطــلالٍ وَدُورْ

وحين يعدل شوقي إلى التماس الأعذار لسلطانٍ تسلّح بالروية والعزم فيخاطبه قائلاً:

عبــدَ الحميــد حســابُ مثلــك فــي يــد الله القــديــرْ
ســدت الثــلاثيــن الطــوال ولسْــنَ بــالحكــم القصيــرْ
مــاذا دهــاكَ مــن الأمــو ر وأنــتَ داهيــةُ الأمــور
أيــنَ الــرويــةُ والأنــا ةُ وحكمــةُ الشيــخِ الخبيــرْ
قــالــوا اعتــزلْ قلــت اعتــز لــتُ الحكــمَ لله القــديــر

حين يقرّر شوقي هذه المعاني آسفاً معتذراً نرى، ولي الدين يخالف هذا النهج المتسامحَ فيقول:

لمــا سُلبــتَ الحكــمَ قلــت الحكــمُ لله القــديــرْ
ورآكَ جنــدُكَ ضــارعــاً لهــمُ ضــراعــاتِ الأسيــرْ
لقــد استجــرتَ بمعشــرٍ مــا كنــتَ فيهــم بــالمجيــرْ
هــي غــارةٌ لكنّهــا دارتْ علــى رأسِ المغيــرْ
لقــد استطــرتَ بشــرٍّ يــومِــكَ كــلَّ شــرٍّ مستطيــرْ

والقصيدتان طويلتا النفس، وتحتاجان إلى بحث مستقل، وقد شغلتْ بهما الدوائرُ السياسية والأدبية حيناً من الدهر، وأذكر أنّي في عهد الشباب الأول تسرّعت فكتبتُ بمجلة (الرسالة) ١٠/ ١٢/ ١٩٥١ بحثاً موازناً عنهما رجّحت فيه كفّة (ولي الدين) لأني كنتُ أجهلُ المؤامراتِ الاستعمارية التي دُبّرت للخلافة

الإسلامية في شخص الخليفة العثماني، ولأنّ الأمورَ لم تتكشّف لي على وجهها الصريح الذي كشفتْ عنه الأيام فيما بعد، وهكذا يجدُ الإنسان نفسَه في حاجة إلى المراجعة الدائمة لما كتب ويكتب، لأنه بَشر، وقد نشرت جريدةُ (المقطم) القصيدتيْن بتاريخ ٢٨/ ٥/ ١٩٠٩ وعلّقت عليهما بقولها:

«على أنّ هذين الأديبيْن الكريمين - شوقي وولي الدين - اللذيْن يجريان في حلبة الأدب كفرسي رهان، واتفقا في إحرازِ قصب السبق على الأقران، مختلفان رأياً في الحكم الحميدي، ومتباينان ميلاً إلى السياسة الحميدية، وقد عارض وليُّ الدين شوقي بأبيات رقتْ مبانيها، ودقتْ معانيها، وتجلّت الحرية الدستورية في كل بيت فيها» و(المقطم) جريدة استعمارية عريقة، فجاء تعليقُها متفقاً مع سياستها العوجاء.

* * *

يتنكّرون فيجهلون

١٧٣ ـ أنا أمير المؤمنين

خرجَ المهديُّ الخليفة العبّاسي إلى النزهة في الصحراء مع نفرٍ من حاشيته، وقد تفرّقوا في البادية جماعات، فنزل المطر غزيراً على نحو غيرِ معهود، وركبَ المهديّ فرسه لينجو من الوابل المتقاطر، فجمح به بعيداً عن صحابته.

وأطلَّ الخليفةُ فوجد خيمةً يخرجُ منها دخان، وقد بلّله المطر حتى أغرقه، فالتجأ إلى الخيمة فوجد أعرابيّاً يستدفئ، فتقدّمَ إليه طالباً أن يُشركه في الدفء، ريثما تجفّ الثياب، ورحّبَ الأعرابيُّ عن سماحة، وقدّمَ لأمير المؤمنين قعْباً مملوءاً باللبن، فشرب، وحمد الله، ثم قال للأعرابي حين سأله عن حاله: أنا مِنْ خدمِ أمير المؤمنين، فقال الأعرابي: بارَكَ الله في موضعك ولم يزدْ، فانتظرَ المهديُّ قليلاً ثم قال: أترى عليَّ هيئة الخدم؟ فقال الأعرابي: لا! قال: أنا من قوّاد أمير المؤمنين، فنظرَ إليه طويلاً، ثم قال: رحبتْ بلادُك، وطاب مرادُك، وكأنَّ المهديَّ أراد أن يُدهش الأعرابيَّ فقال له، لستُ من قادةِ الجيش، ولكنّي أنا أميرُ المؤمنين، فوقف الأعرابيُّ صائحاً: إليك عنّي يا شيخ، فإنّني أخشى أن تقول بعد ذلك: أنا رسول الله، ومبعوثٌ من السماء! والله لن تستدفئ معي، هيّا.

وكان الجندُ يبحثونَ عن الخليفة حتّى رأوْا فرسه أمام الخيمة، فهُرعوا إليه مُعظمين، وأدركَ الأعرابيُّ خطورةَ ما قال حين رأى الجند يُحيّونَ المهدي، ويُنادونَه يا أمير المؤمنين، فارْتعد من الخوف، وغاب الدم عن وجهه، فابتسم المهديُّ، وقال له: لا بأس عليك يا أعرابي فقدْ أكرمْتني كثيراً، وأمرَ له بمالٍ وكسوة، وسأله عن أولادِه وأقاربه، فمنحهم جميعاً.

١٧٤ ـ القيصر بطرس

أراد قيصرُ روسية الأكبر، أن يقف على صناعة السّفن الحربيّة الكبيرة بنفسه في هولاندة، فأعلنَ أنّه سيقومُ بزيارةٍ سياسيّة لإحدى العواصم الأوروبية تستغرقُ ستّة أشهر، ثم لبسَ لباس التنكّر، واتّجه إلى أكبر مصنعٍ ذاع صيته، وقدّمَ طلباً للالتحاق به عاملاً يأخذُ أجره اليوميّ، ودأبَ على العمل في دراية تامة، يستوعب بها كل الخبرات الخاصة بالمتطلبات الصناعية لينقلها إلى بلاده.

وقد شاهدَ عاملاً روسيّاً يشتغل بالمصنع، فصاحبَه برفق، لأنّه أحد مواطنيه، وقد لمس من جدّه وإخلاصه ما قرّبه إلى نفسه، فسألهُ بعد أنْ توثّقتْ صِلاتهُما الأخويّة إلى درجةٍ عالية، لماذا تركتَ روسية وجئتَ إلى هُولاندة؟ فقالَ صديقه واسمُه ستانمتز: لديَّ سرٌّ خطير أخشى عاقبة التّصريح به.

فقال القيصر: أنا صديقُك، وسأحفظُ سرّكَ فلا تخفْ.

فقال صاحبُه: لقد كنتُ جنديّاً في جيْش القيصر، وفي ليلةٍ شاتية تقدّمتُ مع رفقتي في مهمّة حربيّة، فرأيتُ سدّاً من الثلج يعْترضني، وتثلّجتْ أقدامي، فارتميتُ، وأغميَ عليَّ، وبعد أن أفقتُ في الصباح، وجدْتُني وحدي، لأنّ زملاء الكتيبة قد رَحلُوا دون أن يعرفوا إغمائي، فخفتُ أنْ أرجعَ إلى القائد فيعدّني هارباً، ويحكم عليّ بالإعدام الفوْري، فصمّمتُ على الهروب، وتركتُ والدتي وخطيبتي كاترين وحيدتين دُونَ عائل، وأنا في أشدّ النكد حين أتصوّر حالتهما المعيشيّة بعدي.

قال القيصر: سأسافرُ عن قريب دُون خوف، إذ لستُ هارباً أنتظرُ الحكم، وسأصحَبُك معي، لأعرف منزلك في ضواحي العاصمة، وإذا استطعتُ أن أجدَ وساطة للعفو عنك فعلتُه، وإلاّ حضرتُ إلى منزلك وأمرتك بالعودة ثانية إلى هولاندة بعدَ أنْ ترى أمّك وخطيبتك.

فقال ستانمتز: وإذ ذاك تساعدني على أن يُسافرا معي سرّاً إلى هُولاندة لنعيش هنا جميعاً في أمان، فأعلن موافقته.

جاء موعد السفر، ورحل الصديقان، فاتّجه القيصر المتنكّر إلى منزلِ صاحبه أوّلاً، وشاهد من بؤس الوالدة والخطيبة ما آلمه، ثم اتّفق معه على أن يـزورهُ بعد يومين! فأغلق العاملُ المسـكين منزلهُ عليه، وكمن فيه كيلا يعلم بحضوره أحد.

وبعد يومين حضر القيصر في غير ثياب الإمبراطورية، ودقّ الباب فدخل في هدوء، وقال لصاحبه: هيّا لقد صدرَ أمرٌ بالعفو عنك.

فقال له (ستانمتز): أنت تمزح يا (بطرس) ليسَ الأمر بهذه السهولة.

فقال القيصر: صدّقْني.

فقال: أنا مُرتاب... ومضتْ لحظة، فسمعَ العاملُ ضجةً حول المنزل، ونظرَ من ثقبه، فوجد لفيفاً من الحرس الإمبراطوري، فقال لصاحبه: لقد وقعتُ، لا بدَّ أنَّ أحداً رآني دونَ أن أعلم وأبلغ البوليس، وارتعشتْ مفاصلُه في رعدة، ففتحَ القيصرُ الباب، ودخل رئيس الحرس وقد كان من قبل قائد الكتيبة التي هرب منها العامل المسـكين فلمّا رآه قال للقيصر: هذا جنديٌّ خـائنٌ، وقد حُكم عليـه بالإعدام يا مولاي!.

فقال القيصر: لقد عفوتُ عنه، فأحنى القائدُ رأسَه وقال في خُضوع: أمْرُ جلالتكم.

ودُهش العامل، وحارَ فيما يشاهد، ثم أكبَّ على قدم القيصر وهو يقول: أشكُرك يا مولاي.

فابتسم القيصر، وقال: أنتَ الآن البارون ستانمتز الرئيس العام لمصانع السفن البحرية، وخطيبتُك هي البارونة كاترين، وأمّك أمّ البارون ستانمتز، فخُذْ هذه الأموال لتهيء أسرتك، وتنتقل غداً إلى القصر الخاص بك في موسكو، وقد أعددْتُه قبل أن تجيء إليه في الغد.

لم يدْر ستانمتز أهو في حلم أم في يقظة، ودخل إلى أمّه يتحدّث حديثَ الذاهل المستغرب!.

١٧٥ ـ إمبراطور ألمانية

كان (جوزيف الثّاني) إمبراطور ألمانيـة يستقل في بعض أيامٍ عام ١٧٧٠ عربةً مقفلة ذات مقعديْن، وكان يقودُها بنفسه في ملابسه التنكرية بعيداً عن الزيِّ الرسمي، فتدفّق المطر على غير انتظار، ولكنّ الإمبراطور لم يعبأ به، فاعترضه في طريقه جنديٌّ من رتبة الملازم الثاني، وأوقفه، ثم طلبَ منه أن يسمحْ بركوبه في المقعد الثاني جوارَ الإمبراطور، دونَ أن يعلمَ من هو؟ وأذِنَ جُوزيف الثّاني للشاب أن يركب معه، ثم بدا له أن يسأله؟ مَنْ أنت؟ فأجاب: أنا ضابطٌ في جيش جلالة الإمبراطور. فقال له: ومِنْ أيـن أقبلت؟ فأجاب الضابط: دون تحفظ، كنتُ أتناولُ الغداء مع صديق لي يشتغلُ حارسَ صيدٍ في حقول جلالة الإمبراطور، فقال جوزيف: وماذا أكلتما؟ فردّ الضابط: أكلْنا ديكاً سميناً من مزارع الإمبراطور، أخذه الحارسُ من مزارعه، فسكتَ الإمبراطور قليلاً ثم سـأل: ألا توجد ديـوكٌ سمينة في غير مزارع الإمبراطور؟ فقال الضابط: قد يتكلفُ الحارس ثمنها، أما حقولُ الإمبراطور فتحت يده، يأخذُ سرّاً، ولا يُحاسبه أحد.

استمرت العربةُ في السير، وزادَ تدفّق المطر، فسأل الإمبراطور عن منزل جليسه في أي مكان؟ فقال له: سأنزلُ قريباً كيلا أتعبك ياسيدي، فأصرّ الإمبراطورُ على أن يمضي به إلى منزله مهما ازدادتْ شدة المطر.

وسارت العربة حتى بلغتْ منزل الضابط، وحين همّ بالنزول سألَ جليسه في غير كلفة: من أنت حتّى أبدأ صداقتي معك؟

فقال الإمبراطور: أنا من رجال الجيش.

فردّ الضابط مُلازم أوّل مثلي؟

فقال: أرفعُ من هذا.

فنظر الضابط ملياً ثم قال: أمير لاي؟

فقال الإمبراطور: أرفع من هذا.

فاستغرب الضابط وسأل: إذنْ تكون (مارشال) وهو يظنُّ أنه ارتفع به إلى أقصى رتبة في الجيش.

فقال الإمبراطور: أرفعُ من هذا.

فدقّق الضابط في ملامح صاحبه، ثم صرخ مرتمياً على الأرض: جلالة الإمبراطور!!!

فابتسم جوزيف الثاني وقال في ملاطفة: وسائقُ عربتك اليوم! فأفحم الضابط، ولم يستطع المسيرَ، فقال له الإمبراطور: لا تخشَ شيئاً على صديقك الحارس حين سَرقَ الديك من حقولي! فقد سامَحْتُه، ولنْ أسألَ عن اسمه، ثم صافحهُ باسماً، وقال في ابتسام: وداعاً يا بني.

وكان ذلك موقفاً لا ينساه الضابط الملازم!.

١٧٦ ـ وفي مصر

هذه حادثة واقعية، جرتْ في مصر في الربع الأول من هذا القرن، وعلمَ بها أحد المؤلفين فكتبها لتصبح قصّة سينمائية، وهي حقيقةٌ ماثلة، وقد كان بطلُها في القصة السينمائية (محمد عبد الوهاب).

كان أحدُ الباشوات الكبار، يأخذُ على ولده الوحيد، عدم خبرته بالحياة، واكتفاءه بالدروس التي تلقاها بالمدارس، ويخافُ عليه أن يَرِثَ أرضه، ثم لا يستطيعُ استثمارَها! فصمّمَ أن يُوظّفه في بنك ماليّ ليتصل بالنّاس، ويعرفَ كيف تتعارضُ الرغبات، وتضيقُ المآزق، ثم تنتهي بالحلّ، فيستفيد من التجارب، ويقابل العيش مجرّباً.

وكان ما أراد الوالد، والتحق موظّفاً بالبنك الذي اختاره أبوه، وطلب الباشا من مدير البنك أن يُعامِلَ ولده معاملة أيّ موظف ناشئ دُون محاباة، وأن يؤاخِذَه إذا قصّر، دون أن يغتفر شيئاً من أخطائه.

وكانَ من المُصادفة أنْ تأتي إلى البنك كريمةُ ثريٍّ كبير من أصدقاء والده،

وأن يكونَ تعامُلها من الشباك الذي يُديره الشاب، فأعجبتْ به بعد تكرار التّعامل، وتوالي الزيارات، وصمّمتْ على أن يكون زوجها المنتظر، وما كادتْ تُفاتح والدها حتى زمجرَ وغضب، وأنكرَ أن تتزوّجَ كريمته موظّف صغير لا يملكُ غير راتبه الضئيل، وليس من أسْرةٍ ذات مجد.

وصمّمتِ الفتاةُ، وصمّم أبوها على الرفض، وكان الشّابُّ يبادلُها الحب كأعنفِ ما يكون التبادل، دونَ أن يُفصِحَ لها عن مركزه العائلي، ومنزلة أبيه.

غير أنّه بعد ثلاث سنواتٍ من عملِه قد كسب من المهارة ما جعلَ والده يُنهي وظيفته، ويسألهُ عن فتاةٍ أعجب بها ذاتِ أصل كريم ليخْتارها زوجةً له، فرجاه أن يُوافق على اقترانهِ بحبيبته، ورحّبَ الوالدُ لأنّه صديقُ أبيها، ويعرفُ مكانته، ثم سارعَ إلى خِطْبتها فرحّبَ والدها، وأصرّتِ الفتاة على الرفْض، لأنّها وهبتْ قلبها لإنسان آخر، وستظلُّ وفيةً له، وحار الوالدُ ماذا يصنع؟

ثم بدا لهُ أنْ يرجُوها كي توافق على رؤية الخاطب الجديد فقط، ولها أن ترفضه إذا لمْ يحُز قبولها عن اقتناع، فوافقتْ، وقد صمّمتْ على الرفض مهما بلغتْ مكانةُ الخاطب وثروتهُ ومنزلةُ أبيه، ثم حانتِ السّاعة المنتظرة، فتقدمت عابسةً ساخطة لتقْضي دقائق كريهة وتنصرف! ولكنّها فُوجئت، حين وجدت الخاطب حبيبها، وأباها يرحّب به وبوالده، فاندفعتْ تصافحه، ودموع الفرح تتساقط من عينيها وعينه! أليْست هذه مفاجأة أيضاً؟ ومفاجأة مذهلةً!.

١٧٧ ـ عجائب

يقول الشاعر العربي:

علـى أنّهـا الأيـامُ قَـدْ صِـرْنَ كلُّهـا ... عجـائبَ حتّى ليسَ فيهـا عجـائِـبُ

* * *

من غرائب الأخلاق

١٧٨ ـ الملك لير

أراد شكسبير أن يُصوّر العقوق والغفلة معاً في أبرز مظاهرهما، فاتخذَ من قصّة الملك (لير) نموذجاً مجسّداً لما يريد، حيث كانتْ له بنتان تتملّقانه، وتسرفان في مدحه بالكذب والادّعاء، وهو يعجب بهما، ويزدادُ تعلقاً بهما، لكثرة ما يسمعُ من الثناء المفرط، على حين كانت ابنته الثالثة تقفهُ على الحقيقة المتجلّية في سلوكه وأخلاقه، ولكنْ في رفقٍ مهذّب، ومع ذلك التهذيب الرقيق في الحديث عنْ صفات الأب الغافل، وجدتْ منه بغضاً ونفوراً لا حدَّ لهما، فهو لا يطيقُ لقاءَها، ولا يستمعُ إلى لفظٍ تهمُّ أن تنطقَ به، وزاد بغضُه لها، فقسّم أمواله على أخْتيْها وحدهما في حياته، على أنْ تقوما برعايته، وتوفير أسباب الراحة له، وأصرَّ على حرمان الثالثة.

ولكنْ لم يمضِ أمدٌ قريب؛ حتى وجدت الفتاتان أنّهما بعد أن نالا ما تطمعان فيه من الثراء، ليْستا في حاجة إلى أبيهما، وأنّ وجوده في الحياة أصبحَ يكلّفهما بعض ما ينعمان به من خيره، فضاقا به ذرعاً وعملا على طرده ـ وهو ملك سابقٌ، لا يملك النفوذ الباطش ـ وقد تفرّق عنه المتزلفون من أصدقائه، حين فرغ من الجاه والسلطان، ورأى الملك نفسَه جائعاً مسكيناً، لا يقدرُ على قضاء حاجاته الضرورية، فرحل إلى ابنته الثالثة التي حرمها حقّها الطبيعي في ماله، وكانتْ قد تزوّجتْ من إنسانٍ موسر كريم، فاستقبلتْه أحسنَ استقبال، وقدمتْ له ما يريدُ من رغد ورفاهيّة، ولكنّه حرّضها على منازلة أختيْها، كي تأخذ منهما بعضَ ماله، فينفعه في ساعة العسرة، واضطرتْ إلى إجابة رغبته، فدبرت لها الأختان مكيدة قضتْ على حياتها، وامتدّ بلاؤهما إلى الوالد المسكين، فذاقَ حتْفه بأيدي الغدر والعقوق.

إنّ النموذج الذي صوّره (شكسبير) يتجلى في صُور شتّى من صور الحياة، صورٍ حقيقيّة لا مبالغة فيها ولا إغراق، والعقوقُ كريهٌ بغيضٌ، وهو أشد بغضاً حين يكونُ من الابن نحو والده، الذي تعهده بالتربية حتى أصبح رجلاً ذا شأنٍ، أو نحو الأم التي عانت في سبيله ما عانت، ثم لم تجد غير الجحودِ والنُّكران.

١٧٩ ـ مثقف كبير

يقول الأستاذ (علي الطنطاوي) في بعض صورِه التي كتبها بالرسالة تحت عنوان (مئة صورة من الحياة):

أخبرني صديق لي من جلّة العلماء قال:

كنت أتولّى المدرسة (الخضيرية)، وهي من المدارس القديمة في دمشق، فجاءني ذات يوم شيخٌ هرم عليه ثيابُ خلاق، وعمةٌ بالية، فأقبل على استحياء، يسألُني عملاً صغيراً جدّاً في المدرسة، وظيفتُه خمسةُ أرغفة في اليوم، فأعطيتهُ الذي يريد رحمةً به، ولم أسأله عن نفسه، حتى مرّت أيّام، فأخبرني أنّ له ابناً، ولكنّ ابنه يعرضُ عنه وينكرِه، فعجبتُ من ذلك، وقلتُ له: من هو ابنك؟ فقال: فلان.

فلما سمعتُ الاسمَ صُعقت، وعُدت أسأله:

فُلان! الأستاذ الكبير صاحب الشهادات الكبرى من أوروبة، والمنصب اللامع!.

قال: نعم، هو والله ابني، ولقد أنفقتُ عليهِ مالي وشبابي، فلما صارَ شيئاً جزاني شرَّ الجزاء، وجعل مكافأتي الإنكار والاحتقار، واضطرّني إلى سؤال الناس، وإراقة ماء وجهي في رغيف الخبز.

فقلت: سأكلّم ابنَك لأنّه صديقي. فقال الأب: لا تفعلْ، سألتُك بالله، فلو علم أنّي أخبرتُك لضربني وأذاني، لقد حرّم عليّ أنْ أخبر أحداً أني أبوه.

قال صديقي الأستاذ: هذا والله ما كان، ما زدت فيه حرفاً ولا نقصتُ.

١٨٠ ـ محسن شهير

اعتـاد بعض التّجار أن يذبح ثـوراً كبيراً في يومي الوقفة قبل عيدي الفطر والأضحى، وأن يدعو الفقراء الذين عهدوا منه ذلك في هذين الموسمين، وقد اتّخذ مظهراً رائعاً، إذ يجمع أعوانه ليقف هؤلاء المحتاجون في صف طويل تحت رعايته، حيث يُنادون الأسماء، ويُقدّمون القراطيس المملوءة باللحم والعظم، مرتّلين دعوات الشكر، وعبارات الثناء، وكان صاحبنا غريباً قادماً من القرية إلى المدينة التي تنتشر فيها تجارتهُ، فلا يعلم أحدٌ شيئاً عن أسرته وقريته التي نزح منها، وساعده الحظُّ، فأصبح تاجراً ذا شأن وأصهر إلى أسرة ثرية.

وفي يوم من أيام الوقفة خفَّ إليه إنسان، فحيّاه ولم يكنْ يتوقّع مجيئه، إذ هو من قريته التي نزح منها، وبها أمّه وإخوته، فدُهِش الزائر الوافد لما شاهد من مظاهر الكرم الزائد، ولم يُطِقْ أن يخفي سرّاً تلجلج في نفسه، فانتحى غير بعيد، ونادى التاجر المتكارم وأسرَّ له هامساً فقال: سأرجعُ اليوم إلى القرية وأقترحُ أن تعطيني بعض هذه اللحوم، لأحملها إلى والدتك وإخوتك، فتجهّم وجه التاجر، وقال في غيظ: كيف تقول هذا؟ وأنا أُرسل إليهم ما يجعلهم في أسعد حياة، فردّ الزائر يقول: إنّ أمّه اضطرتْ إلى الخدمة في منزل فلان، لأنها لا تجد شيئاً! وكثيراً ما تسألني!.

فسار به التاجر بعيداً، وقال له: لا تفْضحْني في الملأ، فأصهاري لا يعرفون لي أمّاً ولا إخوةً، ولو كانوا يعلمون شيئاً عن أسرتي الفقيرة ما تزوجتُ من عائلة (فلان) لقد قطعتُ علاقتي بالقرية جميعها كيلا ينكشف السّر، وأرجوكَ أن تكتمه، أنا صاحبُ مركز وسمعة، فلا تذكرني بأيام الهوان. ورجع الزائر حزيناً، يتحدّث بما سمع!.

١٨١ ـ عاشق الفن

أما عاشقُ الفن هذا فهو أوروبيٌّ لا شرقيّ، تعوّد أن يشتري اللّوحات الفنيّة الممهورة بأسماء الكبار من أعلام الرسّامين، وقد أقام في بيته متحفاً رائعاً، صار

موضع مباهاته، واجتمع حوله من عاشقي الفن من يحسدونه على ثروته الفنية الرائعة، ويعدّونه مثالاً نادراً في عشق الصّور التاريخيّة، مهما كلّفه هذا العشق من تضحيات.

وقد سمعَ بلَوْحةٍ فنيّة لرسّام إيطاليّ شهير، تُصوّر ثلاث بنات صغار وأمهنّ الفقيرة تحملُ صغراهن، وتسحب أختيْها في مشهدٍ حزين، يرسم ملامح الفاقة والعوز، وكان الثمن المقدَّرُ للّوحة ثلاثين ألف دولار، وأحجم نظراؤه عن شرائها لارْتفاع الثمن، ولكنّه دفع المبلغ في زهو، وأحضر اللوحة، لتكون موضع الحديث والمباهاة وقد حضر بعضُ أصدقائه لزيارته، فشاهد أمام الباب امرأةً شابة تبكي، ومعها ثلاث بنات صغار، هُنّ بناتها، فتأثّر لمرآهُن، وسأل الأمّ عن خطبها، فقالتْ: إنّ صاحب هذا المنزل عمُّ بناتي، وقد ضاقت بي المعيشة بعد وفاة أخيه، فجئت راجيةً بعض عطفه، فلمْ يستمعْ إليّ وطردني!.

فدخل الصديق إلى متحف صاحبه، فوجدهُ يعرض اللوحة الإيطالية مباهياً، ويعلنُ أنّ ثلاثين ألف دولار رخيصة هينةً بالنسبة لمحتواها الفني المتميّز، وفاض في هذا المنحى متحدّثاً عن روعة الملامح المصوّرة، ونبْض الدم في الوجوه، وانكسار الشعاع في العيون، حتى كادت الأمُّ والبنات أن يتحرّكن في الإطار!.

فأطرق الصديق صامتاً! فقال له صاحب الصورة: ما خطبُك؟ لماذا لا تُبدي رأيك موافقاً أو مخالفاً؟ أنا مستعدٌ للدفاع عن وجهة نظري في تشخيص مناحي الإبداع الفني باللوحة، أليستْ تموج بالحياة، أليس أشخاصها ينطقون وكأنهم أحياء!!.

فقال الصديق: اسمع يا صاحبي، لقد جاءتك لوحةٌ إنسانيةٌ منذ قليل، بها صورة الأم والبنات الثلاث، لوحة بعضها من دم أخيك، ولو أكرمت وفادتها، وعاشتْ معك في منزلك ما كلّفتْك شيئاً، لا ألف دولار ولا ثلاثين ألفاً! فأين إحساسُ الفنّان؟.

فبهت العمّ، ولم ينطق!.

١٨٢ - بر عائشة

لمّا قُتل محمد بن أبي بكر الصديق بمصر، وترك ولده القاسم، وبنتيه في مصر، حزنت السيدة عائشة رضي الله عنها لما نزل بأخيها من خطب، وما حلّ بأولاده من حُزْن، فدعتْ أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالتْ له: لن تجلسَ ساعةً في المدينة، وعليك أن تُسرِعَ بالمسير إلى مصرْ، لتحضرَ أولاد أخيك، ولو استطعتُ أن أسيرَ لفعلتُ، فأطاع عبد الرحمن، وسارعَ مُبادراً، وأحضرَ الأولادَ فضمتْهم عائشة إلى بيتها، وتعهدتْهم بالرعاية والعطف سنوات، حتى استقلّوا بأنفسهم.

ثم نادتْ عبد الرحمن وقالت له: يا أخي! لعلكَ وجدتَ في نفسك شيئاً حين استأثرتُ بأولاد أخيك دونك، ولكنّهم كانوا صغاراً، ولم أخشَ عليهم منك، ولكنّي خشيت أن تتأفّف بهم نساؤُك، وأن يُضايقْنهم في غيْبتك، فضممتهم إليّ حتى بلغوا مبلغَ الفهم والعمل، وصارُوا يُعبّرون عن أنفسهم لك بكل مايجدون فخذهم إليك، وكنْ لهم كما كان حُجيّةُ بن المضرّب لبني أخيه معدان.

١٨٣ - مما قال حجيّة بن المضرّب

تُوفي معدان فجأةً وترك أولادَهُ دون تراث، فكانُوا في عناءٍ من عيشهم، وجلس حُجيّةُ بفناءِ بيْته ذاتَ يوم، فرأى جاريةً له تخرجُ ومعها قعبُ لبن، فناداها، وسألَ: أين تذهبين بالقعْب واللّبن، فقالت: لليتامى بني أخيك، فليسَ عندهم شيءٌ! فوجم متحسّراً، ثم قام إلى إبله، ونادى رَاعييْه، وقال: اذهبا بها جميعها نحو بني أخي، وكُونا تحت إمرتهم، وعلمتْ زوجتُه بما كان، فغاضبتْه، ولجّتْ في الشقاق، فهددها بالطلاق وقال شعراً مؤثراً هذا بعضهُ:

لَجَجْنَا ولَجّتْ هذهِ في التجنُّبِ	ولطَّ الحجابِ بيننا والتَّنَقُّبِ[1]
تلومُ على مالٍ شفاني مكانه	إليك، فلُومي ما بدا لك واغضبي

---

(١) اللط: الستر، التنقب: المخاصمة والتجنب.

رأيتُ اليتامى لا تسدُّ فقورُهم ... هدايا لهم، في كلّ قَعْبٍ مُشَعَّبِ[1]
فقلت لعبدَيْنا: أريحا عليهمُ ... سأجعلُ بيتي مثل آخر مَعْزبِ[2]
فلا تحسبيني بلْدماً إنْ نَكَحْتهِ ... ولكنّني حجّيةُ بنُ المضرّبِ[3]

* * *

(١) الفقور: الحاجات. القعب: القدح. المشعّب: المجبور بعد كسر.
(٢) أريحا عليهم: ردّا الإبل عليهم. معْزب: بعدت إبله عنه.
(٣) بلدم: الضعيف الثقيل النفس. نكحته: تزوجته.

مآزق شعرية

١٨٤ ـ شاعر محسود

كان (صاعد بن الحسن البغدادي) قد رحل من العراق إلى الأندلس، وحَظِيَ بمودة المنصور بن أبي عامر سيد البلاد، وحاكمها المطاع، فحسده بعض أدباء الحاشية، وأرادوا الوقيعةَ به، فصادف أن جلس المنصور في ساعة صفوٍ، بيْن ندمائه ومستشاريه، فقُدِّمت إليه وردة في غير أوقات الورد، ولم يستتمّ فتح أكمامها، فقال صاعد بن الحسن مرتجلاً:

أَتَتْكَ أبا عامرٍ وَرْدَةٌ ... يُذكِّرُكَ المِسْكُ أَنْفَاسَهَا
كَعَذْرَاءَ أَبْصَرَهَا مُبْصِرٌ ... فَغَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رأسَهَا

فسُرّ بذلك المنصور، وكان ابنُ العريف حاضراً، فحسده، وقال: هذان البيتان لغيره، وقد أنشد فيهما بعضُ البغداديّين لنفسِه بمصر، وهما عندي في ظهر كتابٍ بخطّه، فقال له المنصور: اذهبْ وائت به، فخرج ابنُ العريف، وركبَ مسرعاً، حتى أتى مجلس ابن بدر، وكان أحسن زمانه بديهةً، فوصفَ له ماجرى، فقال لساعتهِ هذه الأبيات، ودسَّ فيهما بيتي صاعد:

غدوتُ إلى قصرِ عبّاسةٍ ... وقد جدَّلَ النومُ حُرّاسها
فألفيتُها وهي في خِدْرِهَا ... وقد صَرَّعَ السّكرُ أنّاسَها
فقالتْ: أسارٍ على هجعةٍ ... فقلتُ: بلى، فرمتْ كاسها
ومدّت يديْها إلى وردةٍ ... يُحاكي لكَ الطيبُ أنفاسَها
كعذراء أبصرَها مبصرٌ ... فغطَّتْ بأكمامِها راسَها

فسار ابنُ العريف بها، وكتبها على ظهر كتاب بخطّ مصري، ومدادٍ أشْقر، ودخل بها على المنصور، فاشتدّ غيظه على صاعد، وقال للحاضرين: غداً

أمتحنه، فإنْ فضحه الامتحان أخرجتهُ من البلاد، ولم يبقَ في مكانٍ لي عليه سلطان.

فلما أصبح دعا به، وأحضر طبقاً عظيماً صُوّرتْ فيه رسومٌ مختلفة، من الورود والجواري، ومن فوق الرسوم سقائف تحمل بعض التحف، ومن تحتها بركة فيها ماءٌ، قد ألقيت فيها اللآلئ مكان الحصباء، وفي البركة ثُعبان يسبح، وطلب منه أن يصفَ الطبقَ بما فيه، وساعدت البديهة صاعداً، فوصف الطبقَ بما فيه وصفاً رائعاً كان محلَّ الدهشة والاستغراب.

حيث قال:

أبا عامرٍ هل غيرُ جدواكَ واكفُ ... وهل غيرُ من عاداكَ في الأرضِ خائفُ

يسوقُ إليك الدهرُ كلَّ عجيبة ... وأعجب ما يلقاهُ عندكَ واصفُ

وشائعُ نوْرٍ صَاغَها هامِرُ الحيا ... عليها، فمنها عبقرٌ وفارفُ

ولمّا تناهى الحسنُ فيها تقابلتْ ... عليها بأنواعِ الملاهي الوصائِفُ

كمثلِ الظِّباءِ المستكنّة كُنّساً ... تُظَلِّلها باليَاسمينِ السعائفُ

وأعجب منها أنهنَّ نواظرٌ ... إلى بركةٍ ضمّت إليها الظّرائفُ

حصاها اللآلي، سابحٌ في عُبابها ... من الرُّقشِ مسمومُ اللعابينِ زاحفُ

ترى ما تشاءُ العينُ في جنباتها ... من الوحشِ حتى بينهن السلاحفُ

وكان إلى ناحية سقيفة فيها جارية تجذف بمجاذف ذهب لم يرها صاعد، فقال له المنصور: أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية، فقال:

وأعجبُ منها غادةٌ في سفينةٍ ... مكلَّلةٌ تصبو إليها المهايفُ

إذا راعها موجٌ من الماءِ تتقي ... بسكانها ما أنذرته العواصفُ

متى كانتِ الحسناءُ رُبّانَ مركبٍ ... تصرّفُ في يُمنى يديها المجاذفُ

فلم ترَ عيني في البلادِ حديقةً ... تنقّلُها في الراحتينِ المناصفُ

ولا غَرْوَ أن شاقتْ معاليك روضةٌ ... ورضوى ذرتها من سكان العواصفُ

إذا قلتَ قولاً أو بدهتَ بديهةً ... فكلني لها إنني لمجدك واصفُ

فعظُم مكانه في عين المنصور، وأمرَ له بألف دينار، ومئة ثوب، ورتّبَ له في كل شـهر ثلاثين ديناراً، وكمد حاسده، ففارق مجلس المنصور حزيناً، قاتل الله الحسد!.

١٨٥ ـ مع البحتري

قال (البحتريُّ): دخلت مجلس أبي سعيد محمد بن يوسف ومدحتُـه بقصيدتي التي مطلعها:

أأفـاقَ صـبٌّ مـن هـوىً فـأفيقـا　　أم خـانَ عهـداً أم أطـاعَ شفيقـا
إنَّ السّلُـوّ كمـا علمـتُ لـراحـة　　لـو كـان قلبـي للسلـوّ مُطيقـا

فسُرّ أبو سعيد بالقصيدة وقال: أحسنتَ والله يا فتى، وكانَ في مجلسه رجلٌ رفيعُ القدْر عند أبي سعيد، وهو ذو ذاكرةٍ حادّة تحفظُ القصيدة من سماعها لمرّةٍ واحدة، فأرادَ أن يكبتَ البحتريَّ.

فقال له: أما تستحي مني يا فتى؟ هذا شعرٌ لي تنتحله وتُنشده في حضرتي.

فقال له أبو سعيد: أحقّاً ما تقول.

قال: نعم، وقد يكونُ سمعه فسبقني به إليكَ وزاد فيه، ثم اندفعَ الرجلُ يروي كثيراً من أبيات القصيدة، فسكتُّ مُتحيّراً لا أدْري ماذا أقول! وسَمعتُ أبا سعيد يقول: يا فتى، قد كان في قرابتك وودّك ما يُغنيك عن هذا، فجعلتُ أحلف له بكلِ محرّجة من الأيمان أنّ الشعر لي، وما سبقني إليه أحد ولا سمعتهُ منه، ولا انتحلتهُ، فلم يُصدّقني، وقُطِع بي حتى تمنيّتُ لو ساخت بي الأرض، وقمت منكسرَ البال أجرّ رجليَّ.

فما جاوزتُ المنزل حتى خرجَ غلمانُ أبي سعيد يُنادونني فردّوني، فأقبلَ عليَّ الرجل، وقال: الشعرُ لك يا بنيّ. ما قلتهُ وما سمعتهُ إلا منك، ولكنّي ظننتُ أنّك تهاونت موضعي، فأقدمتَ على الإنشاد بحضرتي في مجلس أبي سعيد، وأنا شاعرُه المفضّل، وكان عليك أن تستأذنني قبل الإنشاد، ولكنّك لم تفعل، وأنا

رجلٌ أحفظ الشعر بمجرد إنشادِه فرأيتُ أن أعلمك كيف احترامُك للكبير! ثم ضمَّني وعانقني، وأقبلَ يقرّظني، ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به.

ولي تعليق: حيث تُنسب بعض الروايات الحادثة لأبي تمام، على أنه هو الذي أحرج البحتريَّ كما جاء في (الأغاني) وأنا أستبعد هذا، لأنّ لقاءَ البحتري لأبي تمام لأول مرّة كان بحمص، وقد أوصى به، وكتبَ إلى أهل معرة النعمان يزكّيه، فكانَ لتوصية أبي تمام فعلَها في إكرام البحتريِّ... فلا يرجّح أنه فعل ذلك بمجلس أبي سعيد ببغداد.

١٨٦ ـ مقلب مهجري

روى الأستاذ (ميخائيل نعيمة) الأديب المهجري الكبير هذه الأطروفة في كتابه عن (جبران خليل جبران)، قال ما فحواه: عزمتْ جريدةُ (السّائح) المهجرية أنْ تُصدر عدداً ممتازاً يضمّ أقلام البارزين من أدباء المهجر، واحتشدتْ لذلك احتشاداً كبيراً، وقد تلقتْ فيما تلقّتْ قصيدةً رائعةً للشاعر المهجري الشّهير (رشيد أيوب) وقد أُعجبَ بها رئيسُ التحرير، وقرأها لميخائيل نعيمة، فصادفتْ تقديره، وأسمعها بالتليفون لجبران فقرظها تقريظاً كبيراً...

وتصادف أن جاءتْ من (دمشق) جريدة (ألف باء) السوريّة، وبها حيّزٌ أبيض لم يُطْبَع فيه كلام، حيث حذفت الرقابة أيام الحرب العالمية الأولى ما كان مكتوباً في هذا الحيّز، فبقي مكانُه فارغاً، وقرأ الأستاذ نعيمة الجريدة الدمشقية، ورأى المكان الفارغ، فأوْعزَ للأستاذ (عبد المسيح حدّاد) رئيس تحرير جريدة (السائح) أن تطْبعَ في هذا الحيّز قصيدة رشيد أيوب، بنوع من أنواع الحبر المناسب للجريدة السوريّة، حتّى كأنّ القصيدة قد نُشرت من قبل في الجريدة على أن يكونَ التوقيع باسم شاعر آخر، ثم يُفاجأ الشاعر رشيد أيوب بهذه التّهمة التي تلْحقهُ، إذ يُعتبر سارقاً لا محالة.

يقولُ الأستاذ نعيمة بعد أن شرحَ المكيدة بالتفصيل الوافي، يقول ببعض التصرّف:

«وما دخل رشيد أيوب، واحتلّ كرسيّه، وسند رأسُه بكفّه، حتى بدا مساعدُ السّائحُ ومعه العدد السوريّ، وأخذ يقرأ ما بها من الشعر، فهبَّ رشيد أيوب عن كرسيّه، وبالرغم من سنه الخمسين وثب وثبةً واحدةً، واختطفَ الجريدة من القارئ، فما وقعتْ عينهُ على العمود الذي يحمل أبياته، حتى جَمدَ في مكانه وقد جحظتْ عيناه، وامتقعَ لونه، واستولتِ الدّهشةُ على كلّ عضلاته، وكانتْ لحظةٌ لا توصف، لكنّها لحظةٌ أشرقتْ بعدها أسرةُ (رشيد أيوب) وعادتْ نظّارته إلى عينه من فوق جبهته، ومشى الدم في عروق وجهه، والتفت إلى عبد المسيح مقهقهاً وقال: آه يا ثعبان، هذا (دَبَكٌ)! هذا احتيال، لقد بلغت في فنك مبلغاً هو العبقرية بعينها» و(الدّبك) عند المهجريّين هو المقلب الكيْدي!.

ثم جاء (جبران) فأخبره نعيمةُ بالحادث على أنّه سرقة، لا احتيالٌ مدبّر، فجعلَ يضرب كفاً بكف، وقال مندهشاً: عجباً يا أخي كيف ينتحل (رشيد أيوب) مثل هذه الأبيات، وقد نظم في حياته ما هو أحسن منها بكثير، أيمكن أن يكون قد نظمها من قبل، وبعث بها إلى جريدة (ألف باء) السورية، فقال له نعيمة: مستحيل يا جبران، إذ لا علاقة بين رشيد وجريدة ألف باء. فقال جبران: أيصل توارد الخواطر إلى هذا الحد؟ فقال نعيمة: مستحيل.

وبعد أيام ظهرت الحقيقة، واعترف ميخائيل نعيمة وعبد المسيح بالمكيدة، معتذريْن لرشيد أيوب.

١٨٧ ـ مقلب مصري

طرحتْ بعض المجلات الأدبيّة على الشعراء مسابقة أدبية ذات جوائز مادية مُغْرية، وتقدّم للمسابقة الشاعر المتواضع الأستاذ (فرحات عبد الخالق)، وأخذ يترقّب النتيجة أملاً في الفوز، وعلم بذلك صديقه الشاعر الأستاذ (محمود غنيم) وكان زميله بدار العلوم، ثمّ في التدريس بإحدى المدارس الابتدائية حينئذٍ، فأعملَ حيلته في خديعة الأستاذ فرحات، بأنْ أحضرَ ورقةً تحمل اسمَ المجلّة في أعْلاها، وكانتْ لديه من قبل، وكتب بها خطاباً هذا نصّه:

بعد التحية، فيسرُّ المجلّة أن تبشركم بالفوز في مضمار المسابقة، وتهنّئكم بهذه المناسبة، وترجو أن ترسلوا صورتكم الشمسية لتصدّر بها قصيدتكم التي ستنشر في العدد القادم، وتقبّلوا فائق الاحترام، ثم عمل الأستاذ غنيم على أنْ يكون الخطاب صادراً من القاهرة، وعليه الختمُ البريدي الذي يدل على ذلك، فأعطاه لمن أرسله من العاصمة.

وجاء الخطاب إلى الشاعر المسكين، يحمل اسم المجلة مطبوعاً في صدره، وفي إيجازه الدقيق ما يدل على جديّة الموضوع، وكلّ الدلائل تُوحي بالتصديق، فطار فرحاً لزملائه بالمدرسة، وأخذوا يهنّئونه بالسبق، واقترح الأستاذ محمود غنيم أن يُقيم لهم الشاعرُ الفائزُ مأدبةَ غداءٍ تحدُّثاً بنعمة الله عليه، فوافق عن سماحٍ، وعجّل بالدعوة في اليوم التالي، فهُرع إليه نفرٌ من خاصّته، وكلّهم فرحٌ مستبشر بما نال الشاعر من فوز أدبي يفوق المكسبَ الماديّ، وفيهم من ألقى كلمةً بهذه المناسبة تلتْها كلمات، وتعجّل فرحات الشاعرُ المصوّر ليُسرع في مهمته، فيعجّل بإرسال الصورة للمجلّة، وجالَ بذهنه أن يذهبَ شخصياً للقاهرة كي يُسلِّم الصورة، وربما كانت مناسبةً سارّة لقبض المكافأة المالية، وأصبحَ الأمر جدّاً لا يحتمل المزاح، وكان الشهر شهر أبريل، فتقدّمَ إليه من يُخْبره أنّ المسألة لا تخرجُ عن المزاح، وأن السّبب يرجع إلى مُزاولة الكذبة المعهودة في إبريل، واضطربَ الشاعر مغيظاً، وقاطع الأستاذ غنيم أمداً طويلاً، ثم التأمت الجراحُ بعدَ أمدٍ!.

١٨٨ ـ من شعر ابن الرومي

لَـكَ مكْـرٌ يـدبّ فـي القـوم أَخْفَى مـن دبيـبِ البغضـاءِ فـي الأحشـاءِ
أو مسيرِ القضـاءِ فـي ظُلَـمِ الغيْـبِ إلـى مَـنْ يُـريـدُه بـالتّـواءِ
أوْ مِـنَ السّيـر فـي ضميـرِ محـبٍّ أدّبتْــهُ عقــوبــةُ الإفشـاءِ

* * *

من أحاديث الطّغاة

١٨٩ ـ طاغية رهيب

في عهد (ستالين) كثرتِ المؤلّفات الهاتفة بمجده، والداعية إلى تكريم بطل الحرية والحبّ ورعاية الفقراء، وبعث الرفاهية في روسية على نحوٍ شامل عام، ثم ماتَ ستالين، فانفجرَ البركانُ الغاضب يقذف بالحمم الحمراء لِتشويه شيّاً، وانهالتِ اللعنات على أسْوأ عهدٍ للطغيان، ولم يكنْ ستالين طاغيةً عند تولّيه الحكم فحسب، بل كان كأفراد عصابته سفّاحاً منذ عرفه التاريخ، وتُروى عنه هذه القصّة[1]:

في صباح يوم ٢٣/ ٦/ ١٩٠٧ غادرتْ مكتِبَ البريد التابع لمدينة تفليس بروسية عربتان مُطَهَّمَتَانِ يحوطهما نفرٌ مدجّج بالسّلاح من رجال البوليس، وكانت العربتان تحملان شحنةً من المال تقصدان بها بنك الدولة في الطرف الآخر من المدينة، وسارت العربتان في طريقهما، وكانت الشوارع غاصّةً بالعابرين من الناس، والجالسين على المقاهي، يتناولون طعام الإفطار، حتى وصلتا إلى مُنْحنىً من الطريق، يؤدّي إلى شارع فسيح، وقفتْ عنده امرأةٌ تقرأ صحف الصباح، فما كادت العربتان تقتربان من المرأة حتى طوت الصحيفة، وسُمِعَ صوتُ انفجارٍ مروّع، اهتزتْ له أركان المنازل الكائنة بالشارع جميعها، وتلاه انفجاراتٌ أخرى بلغ عددها ستة، وامتلأ المكان بالدخان، وصرخ الرجال وصاحت النسوة، وقفزت الخيلُ في رُعب وجنون، وتحطّمت نوافذ المنازل في دائرةٍ قدرها ميلٌ من الحادث! وأقبل في تلك اللحظة رجلٌ يرتدي ملابسَ ضابط من ضباط الجيش، حيثُ العربة المحمّلة بالمال، فانتزعَ الصناديق من أماكنها، وقفزَ على حصانه،

(١) مجلة الثقافة: ١٥/ ١٠/ ١٩٤٠م.

وعادَ من حيث أتى، بعدَ أن ألقيت القذائف المدمّرة لتحصد الأرواح دُون أن يلتفت أحدٌ في هول الكارثة إلى ما يصْنع مفجّروها الآثمون من نهب شنيع، أما الضابط الذي حمل النقود فقد كان أحد أفراد الشيوعيين، وأمّا الذين قذفوا القنابل المحرقة فكانُوا ستة يرأسهم طاغيةُ روسية (من بعد) ستالين، وقد دبَّر هذه الفظائع ليسلب المال.

وكان أثر الحادثُ المخرّب المدمّر من الرّوعة بحيث احتجّ عليه نفرٌ من الشيوعيين أنفسهم، وعقدوا اجتماعاً قرّروا فيه طرد الطاغية (ستالين) من زُمرتهم، ولكنّ زعيمهم الأكبر (لينين) دافع عنه، وأثنى على عمله الرائع، لإيمانه ببطولته وخدمته لزملائه، فأقرّ الشيوعيون صواب جريمته، وقالوا: إنه قدّم للحزْب أحسن الخدمات، لأنه وفرَّ له ما يحتاجُ من مال يكون ثروةً مدخرة لهم في الأزمات.

١٩٠ ـ دكتاتور متسلط

ظن المنخدعون أنّ روسية ستنعم بالأمان والحرية بعد سقوط القيصرية، وابتداء حكم الشيوعيين، ولكنّ الواقع المرير أثبت أن روسية شاهدت أسوأ العهود في حقبة هؤلاء الطغاة، وقد جرتِ الدماءُ أنهاراً على يد ستالين ما بيْن سنتي ١٩٣٦، ١٩٣٨ بدعوى التطهير، ولم يكنْ التطهير إلا استئصالاً لكل شخص يحاول معارضة الدكتاتور الرهيب.

يقول الكاتب الأمريكي (هارولدوني) في مجلة (نيويورك)، بعد حديثٍ عن الشيوعية:

«روسية يحكمُها رجل واحد، هو (جُوزيف ستالين) ينفّذ إرادته المطلقة بطريقةٍ لم تُتح للقيصر في جبروته، بل لم يظفرْ بها (هتلر)، لأنّ النظام السوفييتي متوغّلٌ في حياة الشعب الداخلية والخارجية، بطريقةٍ لم يسبق لها مثيل في حياة الإنسان، ومن ثمَّ كان من السهل على (الكرملين) أن يُعلن الرأيَ النهائي في السياسة العالمية، ما بيْن عشية وضحاها، كما فعلَ في الوقت الأخير، إذ أعلنَ

فصْم العلاقات الروسية بالأمم الديمقراطية الغربية، وارتباطها بألمانية ـ كان ذلك أول الحرب العالمية الثانية، ثم انقلبت إلى الضِدّ، لأطماعٍ عارضة ـ وفي مقدور (ستالين) أن يتصرّف كيفما شاء في سياسة روسية الخارجية، ولا يجرأ أحدٌ أن يرفع صوتاً ما بمعارضته في حال من الأحوال.

فروسية وإن كانت تعدُّ نفسها من الناحية النظرية أمّةً ديمقراطية بعد أن كانت ـ نظرياً ـ تُحكم من قبلُ حكماً دكتاتورياً، إلا أنها تنتهج النهجَ الدكتاتوري، حين تخضعُ لحكم الفرد المتسلّط، وتجاربُ الشيوعيين أكسبتهم علماً بأنّ الشعب الروسي يجبُ أن ينقاد، يجب أن يُقْهر، ويضيّق عليه بيدٍ من حديد، فلينين كان دكتاتوراً بعقله وأخلاقه قبل أن يكون دكتاتوراً بقوّته وجبروته، وجاء من بعده (ستالين) فأصبح أشدّ طغياناً وتجبّراً أكثر مما كان (لينين)، ويرجعُ نجاح ستالين كحاكِم مستبد منقطع النظير في العصر الحاضر، إلى خُبثه الزائد، واستهتاره الذي لا حدّ له.

وقوّة البوليس في روسية هي المصدر الحقيقي لنفوذ ستالين، والبوليسُ الرّوسي يقوم على نظام خطير في التجسّس وسفك الدماء، وتشجّع السلطة الروسية التجسسَ بين أبناء الشعب، حتى إنّ الجارَ في روسية يتجسّس على جاره، والشخص يشي بأفراد عائلته، وقد تصلُ بلاغات البوليس إلى حدّ الاختراع، ويضيع بسببها أبرياء كثيرون، إذ كلُّ إنسان في هذا البلد خاضع لستالين، وفي اللحظة التي تقع فيها الشبهة على إنسان يختفي أثره من الوجود.

ولا تعوزُ ستالين الوسائل التي يستحوذُ بها على الرأي العام في روسية، فهو يضعُ يده على الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما، وكلّ وسيلة من وسائل التعبير، فإذا أراد أن يطلب كلمة الرأي العام في المساء كانتْ بين يديه في الصباح دون عناء، وإذا نظرنا إلى ضحايا هذا المستبد الخطير، وإلى اليد الحديدية التي استولى بها على الشعب الروسي أفراداً وجماعات، أيقنّا بأنّ الحاكم المستبد السابق في عهد القيصرية لم يكنْ شيئاً إلى جوار ستالين.

أقول: والشيوعيون من العرب يعرفون ذلك، ويدافعون عنه، وقد انهارت

الشيوعية في أوروبة، وبقي هؤلاء وحدهم يتحسّرون ويبكون، لأنهم عملاء خسروا مجال كسب كبير.

١٩١ ـ قصّة فتاة

كان سكرتير اللجنة التنفيذية للمقاطعات الروسية صديقاً حميماً لستالين، وموضع ثقته، وهو الذي يختار أعوان الدكتاتور من الإداريين، وبخاصةً من السكرتيرات والخدم والسعاة، وكان يُقدّم لوظائف السكرتارية من تقع عينه عليها من الجميلات ذوات الحُسْنِ الخالب، وقد اختار لقراءات ستالين الخاصّة في ساعات فراغه فتاةً شابة حسناء، ذات أصلٍ أرستقراطي قديم، وكان (ستالين) يضطجع كل يوم في الصباح قبل أن يُباشر عمله الرسمي على أريكة ناعمة. حيثُ تجلسُ الفتاة أمامه لتقرأ عليه كلَّ ما يريد من صحف أو رسائل كتابيّة، أو برقيات خارجية، وبجانبه منضدةٌ تحمل أطباق الحلوى والفاكهة، وما يلزمُ من العقاقير الطبية، وقد أُعجب ستالين بقراءة الفتاة، وسرعة فهمها، وجودَة تعليقها على ما تقرأ، وعَدَّ مجلسها من أسْعد أوقاته اليومية.

وفي ذاتِ صباح أمر الدكتاتور بقدحيْن من البُنّ التركي الذي يحبّه، وكان من عادتها أن تتذوقَ أوّلاً ما يُقدَّم لستالين، كي يأمن أن يكونَ الشراب موضعَ خطر، وحينَ وضعت السّكر في الفنجان كانت عيْن الدكتاتور تلحظ بيقظةٍ لوناً في السّكر غير طبيعي، وهو شيءٌ لايُلحظُ إلاّ بتأمّلٍ فاحصٍ لا يُدركه غير شكّاكٍ حذرٍ دقيق، فتركها تشرب قدحها، ثم طلب منها أن تشرب القدح المعدّ له، فظهر عليها ما يدل على انتشارِ السّم، فلم يكفه أن تموت بين يديْه. ولكنّه تعقّبَ أهلها وأصدقاءها، ومن يُظنّ لهم بها أدنى صلةٍ عارضة، فاستأصلهم جميعاً بعدَ تعذيب شاق في السجون، ليعترفُوا بما يعلمونه من نوايا الحسناء، فقدْ يكون لها شركاء في المؤامرة قطعاً، ولا بدَّ أن يصل إليهم جميعاً، وقد احتاط حين لم يجد الدليل، فأعدمَ من يُشاع أنّه من معارفها.

أما صديقهُ الحميم سكرتير اللجنة التنفيذية للمقاطعات الروسية فقد أُبعد من مناصبه، وجُرّد منها تجريداً تاماً، وألْقي به في السجن أمداً طويلاً، لأنه لم

يُحسن الاختيار حين قدّم الفتاة لتكون سكرتيرة خاصة للدكتاتور، ومع اعتقاد ستالين بحسن نيته، ونشاطه في ماضيه، فقد وقع تحت طائلة العقاب.

١٩٢ ـ شاعر روسيّ

كانت العلاقات تبدو حميمة صادقةً بين ستالين والشاعر الروسيّ الكبير (مكسيم غوركي) إذ شاركه الكفاحَ في الماضي السياسيّ البعيد والقريب، وقد لحظ الدكتاتور أنّ ما يقدّمه الشاعر الروسي في المسرح الكبير بموسكو يحمل نقدات تهكميّة لأعوان ستالين، وهم أداتهُ الطيّعة فيما يقُومون به من انتهاكات ظالمة، كما لاحظ تأثيره الكبير في المجتمع الروسيّ، ولم يستطع أن يغدرَ علناً بصديقه الحميم فيزجّ به في السجن، ويُلفّق له تهمة الخيانة وهو من أعمدةِ الشيوعية الذين ناصرُوها بالدم والفكر والعذاب والمنفى، وله شعبيته الهائلة، فأمرَ بمن يدسّ له السمَّ البطيء في طعامه، ولم يكنْ يسكنُ معه غير ولَده، فاشتركَ معه فيما يأكل، وتوفّي الوالدُ والابن في وقتٍ مُقارب.

وخافَ الدكتاتور أن تحومَ شبهةٌ ما حول وفاة الشاعر الكبير إذا قُورنتْ بوفاة ولده، وكلتاهما كانتا مفاجأتيْن كبيرتيْن، فأمرَ بمحاكمة صوريّة للأطباء الذين تولّوْا علاج الشاعر، لأنّهم لم يستطيعُوا ملافاةَ الداء قبل استفحاله في رأي من ادّعى عليهم ذلك، وانتهتِ المحاكمة بإعدامهم رمياً بالرصاص، وفيهم من قدّمَ السمّ، كيلا يذيعَ فيما بعدُ شيئاً عن الجرم الفظيع.

ودارت الدائرة على المخرج المسرحي الكبير (ماير هولد) الذي كان يُخرجُ مسرحيات غوركي حاملةً بعض الانتقادات، وقد توسّل للطاغية وهو من أصدقائه الكبار، جازماً بأنّه كان يُلطّف كثيراً من المعاني والعبارات، ولولا غضبُ غوركي المتكرّر لما تركَ القليلَ مما يُنقد ويشرّح، إذ كان يثور في وجهه كلّما خالف النصَّ المكتوب، ويزعم له أنّهما فوق المحاسبة والنقد لمكانتهما من الدكتاتور والشعب معاً!.

على أنّ مكسيم غوركي مع ذلك لم يسلم من نقمة الخاصّة، لأنه انحرف

كثيراً عن صراحته المعهودة أيام (لينين) وفي زمان القيصرية السالف. كان الشاعر يحتاط إذن، ولم يُجْدِهِ الاحتياطُ شيئاً، بل ساقَ في طريقه نفراً من الأطباء المساكين.

١٩٣ ـ يا رسول الله

أتيتَ والنّاسُ فوضى لا تمرُّ بهم	إلاّ على صنمٍ قد هامَ في صنمِ
والأرضُ مملوءةٌ جَوْراً ومسخرةً	لكلِّ طاغيةٍ في الخلقِ مُحْتكِمِ
مسيطرُ الفرسِ يبغي في رعيّتهِ	وقيصرُ الرّومِ مِنْ كِبْرٍ أصمُ عَمِي
يعذِّبانِ عبادَ الله في شُبهٍ	ويذبحان كما ضحّيتَ بالغَنَمِ
والخلقُ يَفْتِكُ أقواهم بأضعفِهم	كالليثِ بالبُهْمِ أو كالحوتِ بالبَلَمِ

* * *

مبايعة شعرية

١٩٤ ـ إمارة شوقي

كان الذائع أنّ الذين عارضوا إمارة (شوقي) لشعراء العالمِ العربي همُ المجدّدون فقط، وفي طليعتهم (عبد الرحمن شكري) و(العقاد) و(المازني) ولكنَّ المحافظين ممّن ينهجون نهج شوقي ـ وكلّهم ينتمي إلى ما يُسمّى بمدرسة (البعث) التي تزعّمها البارودي ـ هؤلاء المحافظون كانوا يرفضُون هذه الإمارة كغيرهم، وقد تحدّث عنهم صديقُهم الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف فقال:

«إنّ الشاعر المعروف الأستاذ محمد الهرّاوي كان يَرى أن لقبَ إمارةِ الشعر بدعةٌ، وأنَّ لكل شاعرٍ مكانتهُ ووضعه، وامتيازه في عالم الشعر، فلما تَوجَّهتِ الدعوةُ لإقامة ذلك المهرجان لشوقي، أخذَ الهراوي يحرّض أصدقاءَه من الشعراء على مُقاطعة المهرجان، وعلى عَدم مبايعة (شوقي) بلقبِ الإمارة، وكانَ يعملُ مع (حافظ إبراهيم) في دارِ الكتب، فتحدّث معه في هذا الشأن، كما تحدّث مع الشيخ (محمد عبد المطلب)، وفي ليلةٍ اجتمعُوا مع لفيف كبير من أصدقاء الهراوي وحافظ، ودار حديثٌ صاخبٌ عن هذه المبايعة، واستخفّهم التهكم على شوقي فأخذ حافظ إبراهيم ينشد قولَه:

شـــال وانخبــــطْ   وادّعـــى العَبَـــطْ

معارضاً قول شوقي:

مـــالَ واحتجـــبْ   وادّعـــى الغضـــب

وفي اجتماع تالٍ أنشد الهراوي أصحابَه هذا القول، وهو وزنٌ جديد في الشعر (فاعلن مستفعلن):

إنَّ شـوْقـي شـاعـرٌ كُلُّنـا أَجَلَّـهْ
غيـر أنّـا مَعْشَـرٌ ليـس يـرَضَـى ذِلَّـهْ
وهـي جمهـوريـةٌ لاتَـرَى مَحَلَّـه

ولكنّ حافظاً قال: إنه سيشترك في حفلة المبايعة، فغضب الهراوي وسأله: أين ما اتفقنا عليه؟ فقال في ابتسام: أنا رجلٌ جبان، لا أستطيعُ أن أتخلّف، وفي المهرجان قام حافظ فأنشد قصيدةً رنّانةً قال فيها:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مبايعاً وهذي وفودُ الشرقِ قد بايعتْ معي!

وظلّ موضع عتابِ زملائه المعترضين.

١٩٥ - إمارةٌ أخرى

وحين انضمّ الدكتور (طه حسين) إلى الوفد المصري، كان حذراً هيّاباً من منافسة كاتب الوفد الأول الأستاذ (عباس محمود العقاد) فجعلَ يسترضيه بكل ما يمكن التوسّل به، وقد أُتيحت له الفرصةُ حين أصدر العقاد ديوانَ (وحي الأربعين) وَوَاجَه عاصفةً نقديّة تزعّمها الكاتب الكبير الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي) حين ذلك هتف طه حسين بمبايعة العقّاد أميراً للشعر، في حفلةٍ تكريميةٍ للعقاد، وفي مقالٍ تالٍ بمجلة (الرسالة)، وكان مما قاله طه حسين: إنّي لا أُومن في هذا العصر الحديث بشاعرٍ كما أُومنُ بالعقّاد، أومنُ به وحدَه، لأني أجدُ عند العقاد ما لا أجدُ عند غيره من الشعراء، فضعُوا لِواءَ الشعر في يد العقاد، وقُولوا للأدباء والشعراء: اسرعُوا واستظلّوا بهذا اللواء، فقد رَفعه لكم صاحبه.

وما كادَ رأي (طه) يذيع، حتى تناولَه المعارضون تهكّماً وسخرية، وكان من أوجع ما قيل، ما نظمه الشاعر الأستاذ (محمد حسن النجمي) حيث قال من قصيدة هازئة:

خَـدَعَ الأعمـى البصيـرْ إنّـه لَهْـوٌ كبيـرْ

أضحـــكَ الأطفَـــال مِنْـــهُ ... إذ دَعـــــاهُ بـــــالأميـــــر
أصبـــحَ الشِّعْـــرُ شعيـــراً ... فـــاطْـــرحـــوهُ للحميـــر

١٩٦ ـ جماعة الهراوي

وإذا كانت جماعةُ الهراوي لم تصبر على إمارة شوقي، وهو من أبرز شعراء عصره، وأسيرهم شعراً، وأبعدهم صيتاً، فإنها تستنكر أشدّ الاستنكار مبايعة العقاد، وتورُّطَ طه حسين فيما لجأ إليه، ورأت أن تَردّ على هذه الإمارة بمبايعة نسّـاخ في دار الكتب، ينظمُ الشّعر، ولا يقرض بيتاً صحيحاً، بل ولا يستطيع قراءته، ولكنّه يشغل نفسه بما يُضحك، و(دارُ الكتب) حينئذٍ تحفل بالشعراء الهازئين بإمارة العقاد، وبادّعاء هذا النسّـاخ ما لا يحسن، ومنهم الهراوي، وأحمد الزين، وأحمد رامي، وأحمد محفوظ، وكلّهم موظفون بدار الكتب، فرأوْا أن يُقيموا حفلـةَ مبايعةٍ لحسين البرنس النسّـاخ، وحدّدوا لها الموعد، وأعلنُوا عن مهرجان يُقامُ للبيْعة يتحدّث فيه أكثر من عشرة شعراء، كلّهم شاعرٌ نابه مجيد!

وترامَى الأصدقاء والأدباء على مشاهدة الحفل حيثُ أَجْلسوا أمير الشعر حسين البرنس في الصدر، وتَقدَّمَ كلُّ شاعر بقصيدته يُلقيها بين يدي المحتفَل به، ثم نُشرت القصائد جميعُها في الصحف اليومية، فكانتْ ردّاً لا يحتاج إلى إيضاح، ورأى الأستاذ محمد الأسمر أنْ يجمعَ هذه القصائد في ديوانه، بعد أَن ذكر المناسبة الفكاهية، فأَمْتعَ القرّاء بما لم يستطيعوا الرجوع إليه في الصّحف اليومية لبعُد العهد، وسننقل بعضاً مما قيل :

أ ـ من قصيدة حسين شفيق المصري :

يـا حمـاةَ القـريـضِ حَـول البرنْسِ ... أصبـحَ الشعـرُ دولـةً ذاتَ كُـرْسـي
وهـــــل الحكــــــمُ والإدارةُ إلاّ ... لبـرنـسٍ يضحـي بِـرَأْيٍ ويُمسـي
يَقْـرِضُ الشِّعْـرَ مثلمـا يَقْـرِضُ الفَـأْ ... رُ حبـالاً قـد فُتِّلَـتْ مِـنْ دمقْـسِ
أيهّـا الشـاعـرُ الكبيـر رَضِينَـا ... لَكَ أميـراً، فكُنْـهُ، تَفْـدِيْـكَ نَفْسِـي

ب ـ من قصيدة عبد الجواد رمضان :

دعتْـك وقـد تـوافَـر طـالِبُـوْهَـا ... وهْـل يحـوي العُـلا إلاّ بَنُـوْهَـا
أميـرُ الشِّعْـرِ أنْـتَ وإنْ تغـالـى ... وأسـرَف فـي الـدّعـايـةِ مُـدّعُـوْهَـا
جِيَـاعٌ تَـاجَـروا بـاسـمِ القـوافـي ... وقـد ربحُـوا الحيـاةَ وأَخْسَـرُوْهَـا
سـأحمـي عـرشهـا وأذودُ عنهـا ... زعـانـفَ للـرّذِيْلَـةِ سَخَّـروهـا
وهـل خُلقـت جـلالتُهـا لغيـري ... وشعـرِي أمّهـا وأنـا أبـوهـا

جـ ـ من قصيدة سيد إبراهيم :

إذا تفضّلـتَ يـا أميـري ... فـاقبـلْ إذنْ هـذه الإمـارهْ
وانهـضْ بـأعبـائهـا فخـوراً ... واصْنَـعْ عـن الفـنِّ كـلَّ غـارَهْ
فـالشعـرُ فـي مِصْـرَ يـا أميـري ... مستفعلـنْ فـاعِـلٌ فعـولُ
فكـن أميـراً علـى القـوافـي ... فـالنـاسُ ليسـتْ لهـم عقـولُ

د ـ من قصيدة محمد الهراوي :

إلى العريس فاصعدْ وامضِ بالأمرِ واقطعِ ... ومُـرْ وانْـهَ وامنـح مـا بـدا لـكَ وامنـعِ
وَصـرِّفْ أمـورَ الشعـرِ فـي الأمـةِ التـي ... تُميـتُ رجـالَ الشعـرِ فيهـا ولا تعـي
فـأنـتَ أميـرُ الشعـرِ غيـر منـازَعٍ ... وكـلُّ أميـرٍ غيـر شخصِـكَ مُـدّعـي

هـ ـ من قصيدة أحمد الكاشف :

يـا مـن يُـدبّـرُ سلطـانـاً ومملَكـةً ... وليـس فيهـا لـه بيـتٌ ولا نشـبُ
مـن لـي بسـدّتـك العليـا أُقبّلهـا ... ودونَ سـدّتِـك الأستـارُ والحجـبُ
لم يُجْدِني الجدُّ في قولٍ وفي عملٍ ... وقـد لعبـتُ عسى يُجْدِيْنِيَ اللّعبُ
إمارةُ الشعرِ خذْها يا حُسينُ فقد ... أتـى يبـايُعـك الإخـوانُ والصُّحُـبُ

و ـ من قصيدة محمد الأسمر :

يـا أميـرَ الشعـراءِ ... أنـتَ أولـى بـاللـواءِ

سيـــدي فلتَهَنـــأ اليَـــوْ	مَ بِمُلْـــكِ الأُدبـــاءِ
امـــرؤُ القيـــس علـــى بـــا	بـــكِ بعـــض الأمنـــاءِ
وأبـــو الطيِّـــبِ فـــي الـــدو	لـــةِ بعـــضُ الـــوزراءِ
والمعـــريُّ لـــدى الســـدّ	ةِ يَحْبُـــوْ للعمـــلاءِ
دولـــةٌ ليـــس بهـــا إلّا	كبـــار الكبـــراءِ

ولغير هؤلاء شعر من هذا الطراز، نتجاوزه اكتفاءً بما تقدّم، وكلُّه مدوّن في (ديوان) محمد الأسمر.

١٩٧ ـ تعليق حسن القاياتي

السيد (حسن القاياتي) شاعرٌ موهوب، ذو جزالةٍ وأسْرٍ وابتكارٍ، وقد اشترك في مبايعة البرنس ببيتين مُعبّريـنْ عن تهكّمِه المرير، وأذكرُ أننا كنا في مجلسِه بالسُّكرية، وجاءتْ ذكرى هذه المبايعة فقلت للسيد: إنّ إقامة الحفل التهكّمي سلبٌ لا إيجاب، فهو مواجهةٌ لم تُسْفِرْ عن نقْدٍ يحدِّدُ أسبابَ المعارضة، وأولى بالموقف مقالاتٌ هادفة، تتعرّض لشعر العقاد بالنقد، إذا كُنتُمْ تستطيعون نقده الموضوعي!

فضحك السيد، وقال: أصارحك يا أخي أنّنا لم نكنْ نستطيع، لأنّ العقاد يحتلُّ جريدةً يوميةً كبيرةً، وله فيها أكثر من عشرة تلاميذ، يسلّطهم على معارضيه بالحق والباطل، وطه حسين يحتلّ جريدة يومية مماثلة، وله فيها أكثر من عشرة تلاميذ، يسلّطهم على معارضيه بالحق والباطل؛ لقد كان في استطاعتنا أن نُواجه العقاد وحده أو نواجه طه وحده، مع العُسر الشديد في هذه المواجهة، أما أن نواجههما معاً ووراءهما الحشْد الجرَّار من المرتزقة، فسنخسر، لقد اقتحم (مصطفى صادق الرافعي) الميدان، وهاجم الإمارة المدّعاة بأسلوبه التهكمي، ولكنّ الرافعيَّ هو الرافعيُّ، وله أيضاً تلاميذه الذين يؤمنون بزعامته ويردّون كيد خصومه؟!

ثم سكن القاياتي وهو يقول: ذلك اعتذارٌ فحسب، وأنا ألمسُ ما به من

تقْصير، فهلْ ننتقل إلى موضوع جديد؟ على أنّي أعلمُ أنّ العقاد يبادلني المودّةَ، وقد تحدثَ عنّي بالخير، فكيف أشنّ حرباً لا نهاية لها! أما البيتان اللّذان أنشدهما السيد حسن القاياتي في حفلة المبايعة التي ذكرنا طرفاً مما قيل فيها فهُما:

يا حُسَينٌ يا عزيزي يا أميري ... يا أميرَ الشعر في اللّب الغَزيْرِ
سُدْ كما سادَ صريرٌ شدّما ... أمرّ الأقلام في وادي الزئير

* * *

عفو الكريم

١٩٨ ـ خلق نادر

الانتصارُ على النفس خلقٌ نادر، ويزدادُ ندرةً حين يكون هذا الانتصار استجابةً لعاطفةٍ شريفة، تقابل السيئة بالحسنة، ويتناسى صاحبها ما قُدِّم إليه من قوارص داميةٍ تترك أثرها البدنيّ في الجسم المعتلّ، وهذه المنزلة الرفيعة لا يُلقّاها إلا الذين صبروا، ولا يُلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم من المروءة والهمة، ومن هؤلاء إمامُ أهل السنة (أحمد بن حنبل) رضي الله عنه، فقد تمزّق جسده تحت سياط المعتصم في (محنة خلق القرآن) ثم كان منه ما نرويه الآن:

روى (ابن حِبّان) في كتابه (رُوضة العقلاء): قال: سمعتُ إسحاق بن أحمد القطّان بتستُر يقول: كان لنا جار ببغداد كنا نُسمّيه طبيب الفقراء، وكان يتفقّد الصالحين، ويتعهدهم؛ فقال لي: دخلتُ يوماً على أحمد بن حنبل، فإذا هو مغموم مكروب فقلت: ما لكَ يا أبا عبد الله؟ قال: خيرٌ، قلتُ: ومع الخير ماذا؟ فقال: امتحنتُ بتلك المحنة، حتى ضُربْتُ، ثم عالجوني وبرئت، إلا أنّه بقي في صُلْبِي موضع يُوجعني، هو أشدُّ عليَّ من هذا الضرب، فقلتُ: اكشفْ لي عن صُلْبك، قال: فكشف لي، فلم أرَ فيه إلا أثَر الضّرب فقط، فقلتُ: ليسَ لي به معرفةٌ، ولكن سأستخبرُ لك.

فخرجتُ من عنده، حتى أتيتُ صاحبَ الحبس، وكانتْ لي به معرفةٌ، فقلتُ له: أَدْخُلُ الحبسَ في حاجةٍ، قال: ادخُل، فدخلتُ وجمعتُ فتيانهم، وكان معي دريهمات فرّقتُها عليهم، وجعلتُ أحدِّثُهم حتى أَنِسُوا بي، ثمَّ قلتُ: مَنْ منكم ضُرب أكثر؟ قال: فأخذُوا يتفاخرون حتى اتّفقوا على واحدٍ منهم أنهُ الأكثر ضرباً، فقلتُ له: أسألُكَ عن شيء، قال: هاتِ؛ قلتُ: شيخ ضعيف ليس له صناعةٌ كصناعتكم، ضُرِب على الجوع ليقْتلَ سياطاً يسيرة، إلاّ أنه لم يمُتْ

وعالجوه وبرأ، إلاّ أنّ موضعاً في صلبه يُوجعه ليس له عليه صبر، قال: فضحكَ، قلتُ: ما الحيلة، قال: يُبَطُّ صُلبه، وتُؤخذُ منه هذه القطعة المريضة وتُرمى، لأنّها إذا تُرِكتْ وصلَت إلى فؤاده، فقتَلَتْه.

قال: فخرجتُ من الحبس، فدخلتُ على أحمد بن حنبل، فوجدتُه على حالته، فقصصتُ عليه القصّة، فسأل: ومَن يبُطّني قلتُ: أنا؛ فقام ودخل ثم خرجَ وبيده مخدّتان، وعلى كتفه فوطة، فوضع إحداهما لي، والأخرى له، ثم قعد عليها وقال: استخرِ الله، فكشفتُ عن صلبه، وقلتُ: أرني موضعَ الوجع، قال: ضعْ إصبعك عليه فإنّي أخبرك به، فوضعتُ إصبعي وقلت: أهاهنا؟ فقال: نعم وأسأل الله العافية، فوضعتُ المبضع عليه، فلما أحسَّ بحرارة الحزّ، وضع يده على رأسه، وجعل يردّد قوله: اللهمّ اغفرْ للمعتصم! حتّى انتهيتُ من أمري، وأخذتُ اللّحمةَ المصابةَ ورميتُها، وشددتُ العصابة عليه، وهو لا يزيدُ عن قوله: اللّهم، اغفر للمعتصم، ثم هدأ وسكن، ومضتْ فترة، فقلت: يا أبا عبد الله إنّ الناس إذا امتُحنوا دَعوا على من ظلمهم، وأنت الآن تدْعو لظالمك بالمغفرة، فقال: إني فكّرتُ فوجدتُ المعتصم ابن عمِّ رسول الله ﷺ فكرهتُ أنْ آتي يومَ القيامة وبيني وبين أحدٍ من قرابته خصومة، فهو مني في حِلٍّ.

١٩٩ ـ نادرة أخرى

لمّا سقطت الدولة الأمويّة، وتتبّع العباسيون فَلولها من الأمراء والولاة والجنود، خاف إبراهيمُ بن سليمان بن عبد الملك على نفسه، إذ توقّعَ الموت المحتوم، وجعَل ينتقل باللّيل من مكان إلى مكان، ويختبىءُ بالنهار في منزلٍ لا يراه به أحدٌ، حتى بلغ الكوفة، ونَظرَ فوجد طائفةً من الجند يسيرون بها، فخافَ أن يعرفوه، ولم يدْرِ إلى أين يتّجه، فصادَف داراً رحْبةً فسيحة، فدخَلها مذْعُوراً، ورآهُ صاحبُها على حالٍ من الخوفِ والارتباك، فلمْ يَسْألْه عن أمْره، وفهم أنّه مطلوب بثأر، وأدركتْهُ الحميّة، فهيأ لَه مكاناً حسناً، وجَعل يتعهّده بنعمِه، ويجلسُ معه في أوقاتٍ كثيرة، دون أن يسأله عن أمره، وقد لاحظَ إبراهيم بن سليمان أنّ صاحبه يخرج من المنزِل مُسافراً عِدّة أيّام في رحلات متواصلة، ثم

يرجُع آسفاً، وكأنّه لم يُحقق رغبة ما؟ على أنه يُوصي به أهلَ المنزل، ليقُوموا بإكرامه في غيابه كعادتهم في حُضوره.

وحين تكرّر السفَرُ والمجيء، وأَنِس كلٌّ من الضيف وصاحب المنزل بصاحبه، تقدّمَ إبراهيمُ إليه سائلاً: علامَ تتركُنا هذه الأيام، كأنك ترحل في تجارَة، وتعود حزيناً، ولم أرك مرة مسروراً بعد عودتِك؟

فقالَ: إنّ لي ثأراً مع بعض الهاربين من رجال بني أميّة، حيثُ أَقْدَمَ الفاجرُ إبراهيمُ بن سليمان بن عبد الملك على قتلِ أبي دُون ذنب، وكانَ والدي صاحبَ مروءةٍ يشفعُ للنّاس، وينصر الضعيف، ويساعد المظلوم، وقد شَهد على إبراهيم مناصراً رجلاً ضعيفاً سُلِبَ حقُّه، فتوعّده إبراهيم، وهدّدَه كي يكتُمَ الشهادة، فلم يعبأْ والدي بغير الحق، ولم يَدْرِ أنّ الفاجر إبراهيم قد رصَد له كميناً في طريق عودته، حيث خرَج أعوانُه، فقتلوه بليلٍ، وجاءَنا من يُخبرنا بأمرِه الفاجع، فلمْ أملِك صبراً، وصممتُ على الثأر لأبي من هذا الفاجر متى أُتيح لي أن أفعل، ثم أَذن الله، وسقطت الدولة الأمويّة، وتفرّق أمراؤُها في الكهوف والمغارات مختبئين، فعزمتُ على أن أنهضَ فأبحثَ عن غريمي ليلقَى جزاءه المحتوم قِصاصاً مفروضاً على يد وليّ الدم.

وما كاد الضيف يسمعُ الحديثَ حتّى بهت، وعَلتْه صفرةٌ أدركَه بعَدها ارتجافٌ شديد، فتعجبَ صاحبُ المنزل وسألَه: ما لكَ، هل تعرفُ شيئاً عن إبراهيم؟ وهل يعزّ عليك إلى هذا الحد، وهوَ قاتل آثم؟

فقال الضّيْفُ: بعَد أن أكْرمتْني وحفِظتْني في غيبتك وحضورك، فلا أنكرُ عليك أني إبراهيم بن سليمان! ولك أن تقتصّ مني الآن، فأنتَ على حق، وقد كنتُ سفيها طائشاً لا أدري عاقبة ما أصنع، ولكلِّ نفس أجل.

فبُهت الرجل، وجعَل يقوم ويقعد متحيّراً، ثم رجعَ إلى هدوئه، وتوجّه لضيفه قائلاً: أمّا أبي فسيلقاك غداً أمام ربّه وسيحاكمك إليه، وهو أعدلُ حاكم، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، وأما أنا فلستُ أخفر ذمتّي معك، وقد عاهدتُك على الصّون، ولكني لا آمنُ نفسي في لحظةٍ من لحظات الغيظ، أن

أنهالَ عليك طعْناً برمحي هذا، فاخرجْ لسبيلك، وأرادَ أن يصِلَه ببعض الزاد فأبى إبراهيم!.

٢٠٠ ـ من الغرب

كانتْ (مس أديت) سيدةً من عنصر كريم، ولها ثراءٌ موفور يجعلها تعيشُ عيشةَ السعداء، وقد فقدتْ زوجها في غرق باخرةٍ هَوتْ معه في قاع المحيط، فصممْت على أن تعيشَ على ذكراه، قانعةً بثروتها المالية عن الزّواج مرّةً أخرى، وكان عطفُها على الخدم موضع الحديث الدائم لكّل من يتصلُ بها، إذ كانتْ تغمرُ كلّ من يلوذُ بها من هؤلاء بما تحتاجُه أُسرتُه الفقيرة، دُون نظرٍ إلى الأجر الشهريّ المعلوم، وقد التحقتْ بخدمتها شابّةٌ شريرةٌ تتظاهرُ بالبراءة، وتبذلُ من الإخلاص الظاهري ما يُعمّي حقيقة مشاعرها الإجرامية، تلك هي الخادم (إديل) ذاتُ الذكاء الذي يستُرُ الملامح المعبّرة عن أحاسيس الشّر في أعماقها الدّفينة، وصادَفَتْ من كرم سيّدتها ما كان خليقاً أن ينزعَ من نفسها بذورَ الشرّ، إذ كَفَتْها وكَفَتْ أهلها المزعومين شرَّ الحاجة، وانتقلتْ بها من وضعِ سداهُ ولحمته الإملاقُ والعَوَز إلى وضعٍ كريم، يجدُ ما ينفق دون ضيق، بل ببذخٍ وإسراف.

ولكنّ الخادمة قد وقعتْ في هوَى لصٍّ شريّر تعوّد أن يتّخذها وسيلةً للسطو على أموالِ الأثرياء، إذ يتَقدّمُ بها للخدْمةِ عنْدَ من يعتقد فيهن الثراء، حتى إذا عرفتْ كلَّ شيءٍ عن منزل المخدومة اتفقتْ معه على الحضور في ساعةٍ تغيبُ فيها سيدتُها عن المنزل، كيْ يحضرَ فيسرقَ الجواهر، وكلَّ ما غلا ثمنهُ، وخّف حملهُ؛ وعلى هذا النمط دأبتْ (إديل) مع أربعِ أُسَرٍ كريمة.. وكانت تنتَقلُ من بلدٍ إلى بلد، مع عاشقها الفاجر، كيْلا تقع في أيدي الشّرطة بعدَ فرارِها مع عاشقها مُستولياً على ما يودّ من النفائس الثمينة....

وسارَ كلّ شيء في طريقه الطبيعي، إذ عرفت (إديل) مكان الجواهر، واستطاعتْ أن تصنعَ مفتاحاً للخزينة، تحتفظ به معها، ليسْهلَ الاستيلاءُ على الثروة دون جهد... وصادف أن (مس أديت) في اليوم الذي حددتْه (إديل) لارتكابِ الجريمة دَعتْها. وأعطتْها هديّةً لأسرتها، وطلبتْ منها أن تأخذ إجازةً هذه الليلة، لتسعَد بلقاءِ أحبائها، ولم تكُنْ لإديل أسرة في الواقع، ولكنها لفّقتْ

لها حديثاً مكذوباً عن عائلتها، كي تطمئنّ على أنها ليستْ ساقطةً، تعيشُ في كنفِ لصّ شرّير، وحارتِ الخادمُ فيما تصْنع، فالسّيدةُ لن تخْرجَ من المنزل بعدْ أن ألفتْ رحلتها، ثم هي الآن تغمرُها بهداياها الزائدة عن الحد المعقول، وذلك ما هزَّ نفسها من الأعماق، وصاحبُها الفاجرُ سيحضرُ الليلةَ في الميعاد، وقد يجدُ السيدَة وحيدةً فيقتلها كما فعلَ من قبلُ بثلاث ضحايا!!

لقد عاشت الخادمُ لحظاتٍ قاسية، لا تدْري ماذا تفعل، ثم صممتْ على أن تفضح أمرها للسيّدة حين استدعت البوليس ساعةَ حضور العاشق بدعوى أنها تلقّتْ مكالمةً مريبة تُوحي بمؤامرة تتعلّق بالسيدة، وأسرعَ البوليس في الحضور، وكَان اللّصُ ذكيّاً إذ رأىَ مِن رجال الشرطة ما أفهمَه خطورةَ الموقف، ففرّ على أعقابه منهزماً، ودُهشت السيدة، فاستدعتْ خادمتَها لتسألَها عن سَبب حُضُوْرِ البوليس.

فصرّحتْ لها بكلِّ شيء، وذكرتْ أنّها اشتركتْ من قبلُ في ثلاثِ وقائع للسرقة، ممّن ائتْمنوها على ذخائرهم، وكانَ في ذلك ما يؤدّي بالسيدة إلى إبلاغِ الشرطة عنها، فإنْ لم تفعلْ ذلك، فإلى طَرْدِها العاجل من المنزل، لأن جراثيم الجريمة تنتشرُ في أعماقها، ومن الجائزِ أن تكونَ وسيلةً طيّعةً لمؤامرةٍ أخرى، لقد فكّرتِ السيدة النبيلة في كلِّ احتمال، ثم دَعت الخادمة لتقولَ لهَا سأعطيك عشرةَ آلاف دولار لتعيشي عيشةً كريمةً بعيدةً عني، وأنْصحُكِ ألاّ تقْتربي من اللّص مرةً أخرى، لأنّ عائدَ المبلغ من البْنكِ سيقومُ بحاجتك، إذا لم تُوفّقي إلى عملٍ مساعد، وقامتْ إلى خزينتها فأعطتْها الدّولارات عن سماح! وهي تعلمُ أنها اشتركت في جريمةً كادتْ تُؤدّي إلى مصرعها! فماذا نقولُ في هذا؟

٢٠١ ـ من شعر الحَيْصَ بيَصَ

ملكنـا فكـانَ العَفْـوُ مِنّـا سجيّـةً ... فلمـا ملكتُـمْ سـالَ بـالـدَّم أبطـحُ
وحللْتمـو قَتْلَ الأسـارى، وطـالمـا ... غَدَوْنا إلى الأَسْرَى فَنَعْفُو ونَصْفَحُ
وحسبكمـو هـذا التفـاوتُ بيننـا ... فكـلُّ إنـاءٍ بـالـذي فيـه يَنْضَـحُ

* * *

وفاء الحيوان

٢٠٢ ـ تفضيل الكلاب

وقعَ في يدي كتاب (تفضيلُ الكلاب على كثير ممّن لبس الثياب) لمحمد بن خلف بن المرزبان، وقد نشره وحققه الأستاذ زهير الشاويش تحقيقاً جيداً، فقرأتُ طرفاً من نوادره العجيبةَ على أديبٍ فاضل، فثار ثورةً عنيفةً، إذ جعَل يتّهمُ مؤلّفي هذا الطراز من أدباء العرب بالوضع والادّعاءِ، وقَالَ فيما قاله: إنّ كُتّاب الغرْب وقد عاشَ بعْضَهم في جامعات أوروبة يسفّهون هذا اللغو، ويرونَه عبثاً ضائعاً، وطال النقاش في غير جدوى، لأنّ من الناس من يلجؤون إلى الرفض التام رفضاً يصحبه التشنّج والصخب، وكأنّك معهم في حومة قتالٍ، لا في ساحةِ جدالٍ.

ولا أدري كيف أسرعتْ المصادفات الحسنةُ بتقديمِ ما يُفْحِمُ صاحبنا المتسرّع؟ إذ وقعتُ دون بحثٍ متعمّدٍ على مقالٍ نادر للأستاذ الكبير (محمد فريد وجدي) تحت عنوان (ذكاء الحيوانات) ضربَ فيه أمثلة كثيرة تدلّ على وفاء الكلب، شاهدَها علماءُ أوروبيّون، وسجّلوها في كتبهم، وليسَ الكلبُ حيواناً متوحّشاً يألف الغابات والمغارات، حتى نجهلَ من أمره ما يدلُّ على سماته، إنّما هو حيوان أنيسٌ، يحرسُ المنازل، والمزارع، ولَه مع الإنسان ودٌّ لايكذب، فكيف نستهجنُ ما ورد في كتاب (ابن المرزبان) ونعدّه خيالاً لا صلةَ له بالواقع، وليسَ (ابن المرزبان) وحده هو صاحب هذا النمط في الحديث عن وفاء الكلاب، فكُتُبُ التّراث تزدحم بنوادر مشابهة تُسجّلها الصفحات، وكتابُ (الحيوان) للجاحظ أشهرُ من أن نُشير إليه، وقد ذكَر قصصاً نادرة تنطقُ بهذا الوفاء الذائع، ففيمَ الإنكار؟ وقد وجدْتُ أن أطرِفَ القارئ ببعض ما جاءَ في مقال الأستاذ (فريد وجدي) ففيه عبرة لمن ينشد الاعتبار.

٢٠٣ ـ ينقذ صاحبه

كان المسيو (هولو) يسير في يوم من أيام إبريل سنة ١٨٦٥م على شاطئ نهر السين بباريس في منتصف الساعة التاسعة مساء، فسمع نُبَاح كلبٍ في لهجة استغاثة صارخةٍ، فلمْ يتمالكْ نفسَه من الاتِّجاه إلى ذلك الصوت، وما قارب الكلبَ، حتى اندفَع إليه الحيوان المستغيثُ، وأخذَ يجذبُه من طرف ثوبه، ويقودُه نحو الساحل، فتبعه دون تردّد، حتى وَصل إلى حصانٍ ممدود في ضحْضاحٍ من الماء، فتأمَّل مشهدَ الحصان، فشاهد تحتَه رجلاً يحاول أن يسحبَ فخذه من تحتِه فلا يَستطيع، لثقل حجم الحيوان، وكانَ يرفع رأسَه في صعُوبة كيلا يختنق، فأسرع المسيو (هولو) إلى إعانة الحصان، وقد فكَّ القيود المتعلقة بالعربة خلفه كي ينهضَ خفيفاً. وبذلكَ أنقذ سائس الحصان، وقد كانَ يسيرُ جوارَه متّجهاً إلى الماء ليرويه، فسقط فجأةً عليه لِتَعبٍ ألمَّ به، فلم يستطِع الوقوفَ، ورأى الكلبُ ما أَلَمَّ بصاحبه في هذا المساء القائم، حيثُ لا يُوجد أَحَدٌ من المارة، فجعل يعدُو إلى الطريق العام نابحاً مستصرخاً، وَلولا ما قام به لهلك السّائس دون إنقاذٍ.

نَقرن هذه الحادثة بحادثةٍ ذكرها (ابن المرزبان) في كتابه المشار إليه، واستنكر صاحبُنا المتَفرْنِسُ حدوثها فقد قال (ابن المرزبان) عن أبي عبيدة ببعض التصرّف: خرجَ رجل من أهل البصرة إلى خارج البلدة ينتظرُ ركابه، فأتبعه كلبٌ لهُ، فجعلَ يضربه ويطرده، ورمَاه بحجر فأدماه، ولكنّ الكلب ظل يتبعُه، حتى تجاوزَ البصرة إلى العراء، فَفُوجئ بقومٍ يتحيّنون مجيئه، وقدْ عرفوا وقْتَ مُروره، وكانتْ لهم عنده غائلةٌ، فهجموا عليه، وأثخنُوه بالجراح، حتّى ظُنّ أنه مات، فرموْه في بئرٍ، وحثوا فوقه التراب، والكلبُ يرى ذلك، ويعْوي من بعيد، ويقدمُ عليهم فيرجمونه بالطوب ليبتعدَ، فلمّا انصرفُوا، أتى الكلبُ إلى رأسِ البئر، وجعلَ يفحص الترابَ بمخالبه، حتّى أظهر رأسَ صاحبه، وفيه نفسٌ يتردَّدُ، وهو مشرِفٌ على التلف لا محالة، إذ لم يبْقَ فيه إلا حشاشة نفسه، فبينما كان الكلب يزيح التراب بمخالبه، مرَّ أناسٌ فأنكروا مكان الكلب، ورأوا كأنه يحفر قبراً، فنظروا إلى ما يصنع وشاهدُوا الرجلَ المجريحَ في حالةٍ لا يستطيعُ معها النهوض فاستخرجوه، وحَملوه إلى أهله، ومازال يُعالَجُ حتى برئَ!.

٢٠٤ ـ طرفة أخرى

كما نقل الأستاذ (فريد وجدي) هذه النادرة، حين قال:

شُوهد في (بلجيكة) طفل في السادسة من عمره سقط عليه الثلج المتراكم فجأةً، فلم يستطع حراكاً، واشتدّ أهله في البحث عنه فلمْ يهتدوا إليه، فمكثَ عدة ساعات مدفوناً في هذا الجليد، حتى قيّضَ الله له كلب الأسرة، إذ شمَّ ريحه، فاندفع إلى المكان بسرعةٍ مدهشَـة، وأخذ يصيح بشدّة، ثم جعلَ ينبش الثلج بمخالبه، ليُظهر وَجْهَ الطفل، وسمع الأهل نباحَ الكلب، فوَفدُوا إليه، ورأَوْا جِدّه وكدحه في إزاحة الجليد، فعاوَنُوه على أملٍ، ثم فُوجئوا بالطفل المسكين مستغرِقاً في غيبوبة فأنقذوه، وهو بين الحياة والموت، وأسرعوا إلى تدفئته، وقد حفظوا الجميلَ للكلب، فحرصُوا على تغْذيته والاعتناء به! ولعلّ أمثال هذا الحادث قد كان دافعاً لبعض الرهبان في جَبَل (سان برنارد) أن يقودوا بعضَ الكلاب في هذه المنطقة الثلجية، ليشمّوا رائحة إنسانٍ ما دفنه الثلجُ، فيبادروا بإنقاذه، وقد عثروا ببعض المنكوبين، فأنقذُوهم مسرورين بهداية الكلاب.

٢٠٥ ـ طبيب يتحدث

كتب الجراح الفرنسي الشهير (بيبراك) يقول في إحدى مذكراته عن نفسه أنه خرج ذات يوم من منزله، فوجدَ كلباً جميلاً جداً، وقد أُصيب بكسورٍ في أصابعه، جعلتْه يتلوّى، ويصيح من الألم، فأمر الطبيبُ بإدخاله مستشفاه في منزله، واهتمّ بأصابعه، فجبر عظامها، ومازال بالكلب حتّى شفي مما أصابه، وكان الكلب يظهِرُ من أمارات السرور والارتياح ما يدّل على الشكر والعرفان، حتّى ظنَّ الجرّاح أنَّه لن يبرحَ منزله عقب البرء، ولكنّ الكلب كان لسيّدٍ آخر، فلم يستطع البقاءَ لدى الطبيب، فعجّل بالذهاب إليه، واستشعر الطبيب أسفاً على فراقه، ومضتْ خمسة أشهر، ونظر الجراح فوجدَ الكلب على عتبة داره، وقد جعل يلفّ حوله، ويظهر من دلائل الابتهاج ما تنطق به عيناه، فظن الطبيب أنّه انقطع مضطراً، وقد عاد إليه، ولكنّه أخذ يجذبه بطرف ثوبه ملحاً، وكأنه يريد أن يسير معه ليطلعه على شيء،

فانقاد الجرّاحُ له، فأوصله إلى كلبةٍ مطروحةٍ على مقربة من الدار، تشكو تكسّراً في أصابعها، على نحو ما كان صاحبُها من قبلُ، فأدرك الطبيب أنّ الكلبَ يدعوه إلى الاهتمام بها كما اهتمّ به، فدهش دهشاً كبيراً لصنيع الكلب، وقام بواجبه نحو المريضة البائسة.

٢٠٦ ـ عود إلى ابن المرزبان

روى المؤلف عمّن يسمى بنسيم، وهوشابٌ وسيمٌ نظيف، قال: كان لي صديقٌ يظهِرُ الودَّ، ولا يكادُ يفارقني، فسافرتُ معه إلى الدينور، ورجعنا، ومعي هميان مملوءٌ بالدنانير، فنزلْنا إلى موضع فأكلنا وشربْنا، فلما عمل فيَّ الشراب، عمد إليَّ فشدّ يديَّ إلى رجليَّ، وأوثقني كتافاً، ورمى بي في الطريق المهجور، وأخذ كل ما أملك ومضى، وظلّ الكلب معي، لم يمسّه بشيء، فرأيتُ الكلب يتركني ويمضي، ليأتي برغيف، ويطرحه إليَّ فآكله، وأحبُو بطيئاً إلى نقرةٍ ذات ماءٍ فأشربُ منها، وأرجعُ حبواً، والكلب يعوي طول الليل، فلا يسمعهُ أحدٌ في المكان المهجور، وهو كلّ يوم يذهب ساعةً وبعض ساعة، ويرجعُ لي بالرغيف، فكان زادي في الحياة، وفي اليوم الرابع وجدتُ ابني يتقدّم إليَّ ويبكي، فحلَّ وثاقي، وفكّ قيودي في الوسط واليدين والرجلين فتعجبتُ وقلتُ له: من أين علمتَ بمكاني، ومن دلّك عليَّ؟ فقال: هذا الكلب، يأتينا في كلّ يوم، فنطرحُ له الرغيفَ، فيأخذه ويَجري بعيداً ولا يأكله، وقد كان معك حين ذهبت إلى الدينور، فأنكرنا منه أنْ يأخذ الرغيف ويمضي دون أن يأكله، وفي اليوم الرابع تتبعْته لأرى أين ينتهي؛ فهذا ما أخبرني بموضعك.

فكان (نسيم) بعد هذا الحادث يُجلِسُ الكلب إلى جنبه، ويسهر على طعامه وشرابه، ويصحبه معه. يدخل بدخوله، ويخرج بخروجه...

٢٠٧ ـ مقدمة هادفة

اختار الأستاذ (محمد فريد وجدي) بعضَ النماذج الدالّة على إحساس

الكلب وسرعة تفكيره ليردّ على قوم أشاعوا بأنَّ الحيوان يسير بالغريزة وحدَها، وليس عنده نصيبٌ من الذكاء.

وقد بقيت هذه العقيدة إلى عصورٍ متأخرة، حيث كان الفيلسوف ديكارت يصفُ الحيوانات بأنها مجرد صور آليّة حيّة، فلم يعْترف للحيوان المسكين بأدنى تفكير نسبيّ، حتى استبحرت العلوم في القرن التاسع عشر، فرأى العلماء أنّ بجانب الإلهام الذي فطرها الله عليه عقلاً خاصاً تستعمله في أحرج المواقف، فيدفعها إلى النجاة، كما يتجلّى هذا العقلُ في تدبير الحيل، وإحكام الخطط، فكان الرجوعُ إلى إنصاف الحيوان إحدى معجزات القرآن الكريم في رأي الأستاذ وجدي، إذ إنّ القرآن يقول:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فقد دلَّ هذا النص الكريم على أن جماعات الحيوان أممٌ يربط آحادها رباطٌ اجتماعي متين العُرا، وأنّ منها ما يعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتةٍ كالنمل والنحل، وغيرها من الحيوانات، التي تعيشُ مجتمعة، وأنّ لكل جماعة منها لغةً يتفاهم آحادها بها، حتى إنَّ بعض العلماء عاشروا القردة عدة سنين في غاباتها، وجعلَ من لهجتها قاموساً، وما كان أحدٌ يتصوَّر هذه المنزلة للحيوان قبل القرن التاسع عشر، مع أنّ القرآن الكريم قد سبقَ العلمَ إلى هذه الحقيقة، بنحو ألف وثلاثمئة سنة، فقد قال الله تعالى حاكياً عن سليمان عليه السلام قوله:

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦]، ونسبَ للنمل كلاماً حين قال على لسان نملةٍ استشعرت الخطر من بُعْدٍ، حين علمتْ أنَّ جيوش سليمان ستتقدم إلى قرى النمل بعد أمد قريب:

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٨ـ١٩].

٢٠٨ ـ في عتاب صديق

تخيّرت من الأخلا ... قِ ما يُنفَى عن الكلبِ
فإنَّ الكلبَ مجبولٌ ... على النُّصرةِ والذَّبِ
وفيٌّ يحفظُ العَهْدَ ... ويحمي عَرْصَةَ الدَّرْبِ
ويعطيكَ على اللّينِ ... ولا تُعطي مع الضّربِ
ويشفيكَ من الغَيْظِ ... وَيُنْجيك من الكَرْبِ
فلو أشبهته لم تك ... كالطّودِ على القَلْبِ

* * *

شاعرات يتغزّلْن

٢٠٩ ـ حتى أبو العلاء

نَعَمْ! حتى (أبو العلاء) هذا الشاعر الحسّاس الرقيق، شارك في مأساةِ زوجِ الشاعر (القنوع) المعرّي، فقد كانتْ هذه الزوج شاعرةٌ حسّاسة، ذاتَ وجدانٍ مشبوب، ومِن مأساتها أنّها وقعتْ في حبّ والي المعرّة، أحبّتْه من جميع جوارحها، ولم تستطعْ أن تقاوِمَ وجدَها، فأعلنتْ حبَّها في أبياتٍ رقيقةٍ قالت فيها:

مـــاذا يَضـــرُّك أيهـــا الـــوالـــي	لـــو كنـــتَ مفتقـــداً لأحـــوالـــي؟
يـــا واليـــاً أنـــا مـــن رعيتِـــه	وعلـــى الـــرعيّـة طـاعـــةُ الـوالـــي
شُغْلـــي ببعـــدي عنـــك يشغلنـــي	ويصـــدّنـــي عـــن كـــلّ أشغـــالـــي

وطارت الأبياتُ إلى شعراء المعرّة، فجعَل كلُّ شاعرٍ ينسج على منوالها في قصائد من البحر والقافية حتى صارَ حديثُ العاشقةِ المسكينةِ خبراً يُتلى، وكان أبو العلاء في زهْو شبابه، فلمْ يستطع أن يرحَمَ الوالهة المسكينة، ولكنّه شارك في التشهير بها، إذ نَظَم قصيدةً من البحر والقافية كما فعلَ زملاؤه؛ ولعله راجع نفسه بعد أن ذاع شعره، فأنا أعرفُه حسّاساً رقيق الشعور لا يُجيزُ لنفسهِ أن يُسهمَ في مأساة وجدانية، ولكنّه فعل، وكان مما قال:

عَلقـت حبـال الشمـس منـك يـدي	وجـديـدُهـا فـي الضعفِ كـالبـالـي
وطلبـــتُ عنـــدَك راحـــةً وعلـــى	حســـبِ اعتقـــادي كـــان إذلالـــي
وظَنَيْـتُ فـي البَلْـوى منـامـي ولـم	تكُـــنِ المنّيـــةُ لـــي علـــى بـــالِ
يـــا جنّـــةً عـــرضـــتْ معجّلـــة	فـــاختـــرتُهـــا ونَسِيْـــتُ عُـــذّالـــي

والحقيقة جميعها في (سقط الزند) ولها شروحٌ عدّة! حتّى أبو العلاء!

٢١٠ ـ غزل المرأة

أما غزلُ المرأةِ في الشعر الحديث، فحدّثْ عنه ولا حرج، فقد امتلأتْ دواوينُ الشاعرات العربيّات ـ وغير العربيات ـ برائع الغزل الرقيق، ولكنّ غزل المرأةِ في الشعر القديم قليلٌ قليلٌ، وكنتُ نشرْتُ بحثاً متواضعاً بمجلة (الرسالة) الزيّاتية تحت عنوان (من غزل المرأة) عرضتُ فيه لهذه الظاهرة، وعلّلتها بما فتح الله به عليّ، ومن بعض ما جاء به حديثُ الشاعرة العاشقة (شقراء بنت الحباب) وكان من مأساتها أنّها أعلنتْ حبّها لشابٍ يُسمّى (يحيى) أعلنتْه في شعرٍ واضحٍ، وصَلَ حديثُهُ إلى زوجها، فجعلَ يضربُها بالسياط، فقالتْ بصدد ذلك من شعر مؤثر:

أأضربُ في (يَحيَى) وبيْني وبينه ... فَدافدُ لوْ سارتْ بها الريحُ كلّتِ
ألاَ ليتَ (يحيى) كلَّ يومٍ يزورني ... وإنْ نهلتْ منّي السياطُ وعَلّتِ

ويظهر أنّ الزوج الملتاعَ واصل الضّرب بالسياط، فأخذت الشاعرةُ تكيدهُ وتُخزِيه حين قالت:

أقولُ (لعَمْرٍو) والسياطُ تلُفّني ... لَهُنَّ على متنيّ شرٌّ دليل
فأشهدُ يا غيرانُ أني أُحِبُّه ... بسوطكَ فاضربني وأنت ذليل

ولا يَعرفُ مقدار انتقام العاشقة الجريئة إلاّ من يقدّر حرجَ الزوج، وتحدّيه بالمذلة، لأنّ الوصْفَ بالذلّ فوق كل احتمال، وصفٌ تتقدّم به زوجةٌ ناشز، لتكيد الزوج المجروحَ.

ومما قالت شقْراء بنتُ الحباب أبياتٌ أخرى ذكرها الأستاذ العقاد في مجموعته (عرائس وشياطين) وهي:

خليليَّ إن أصعدتُما أو هبطتما ... بلاداً هَوَى نفسي بها فاذْكُرانِيَا
ولا تَدعَا إنْ لامني ثَمَّ لائِمٌ ... على سَخَط الواشِيْنَ أنْ تَعْذُرانِيَا
فقد شفَّ قلبي بعدَ طولِ تجلُّدِي ... أحاديثُ من (يَحْيى) تُشيبُ النّواصِيَا
سأرعى ليحيى الودَّ ما هَبّتِ الصَّبا ... وإنْ قطعوا في ذاك عمداً لسَانيا

كما أذكر أني في بحثي المشار إليه بالرسالة، قد استشهدتُ لها بهذا البيت الذي توجّهه إلى زوجها متحديةً:

وأنــتَ إذا منعــتَ كــلام (يحيــى)   أتمنَعُنــي علــى يحيــى البكــاءُ!

٢١١ ـ شاعرة متحفّظة

وإذا كانت شقراءُ بنتُ الحباب، لمْ تتحفظْ حين أعلنتْ غرامها المشبوب، وتحدَّتِ العشيرةَ والأهلَ، فإنّ غيرهَا من العاشقات قد اعتصمتْ بالحَيْطَةِ، ولاَذَتْ بالتجمّل، حين أعلنتْ حُبّها واشتياقَها لمنازل الحبيب في (نَعمان) وكأنّها تشتاقُ للمكان لا لِساكنِه، غير مُنتبهةٍ لقول الشاعر:

ومــا حُــبُّ الــديــارِ شَغَفْــنَ قَلْبِــي   ولكــنْ حُــبُّ مَــنْ سَكَــنَ الــدِّيَــارَا

٢١٢ ـ الهوى اليماني

فقد تزوجت أعرابيةٌ ـ على غير رغبتها ـ ونزَحَ بها زوجُها إلى مكانه البعيد، ولكنَّها لم تنسَ مَن فارقته بنَعمان، فعبّرت عن شجاها بقولها المشبوب[(١)]:

ألاَ أيُّهـا الـرَّكْـبُ اليمـانـونَ عَـرِّجُـوْا   عَلَيْنَـا فَقَـدْ أَضْحَـى هَـوَانـا يَمَـانِيـا
نُسـائِلُكُـمْ هَـلْ سَـالَ نَعْمَـانُ بَعْـدَنـا   وحُــبّ إلينــا بطــنُ نعمــان وَادِيــا
فــإنَّ بِــه ظِــلاًّ ظليــلاً وَمَــوْرِداً   بـهِ يَنقـعُ القَلْـبُ الـذي كـان صَـادِيـا

وقارئ هذه الأبيات يدركُ ما وراءَها من زفراتٍ صاعداتٍ!

٢١٣ ـ غزل هندي

وللشاعرة الهندية (زين النساء) مأساةٌ، حين عشقتْ زوجَها، وقاسَمتْهُ

(١) قلت: إن الحنين إلى الأوطان لا يقل عن الحنين إلى المحبوب، ووادي نَعمان يقع بالقرب من عرفات. (الناشر)

الإخلاصَ والوجدَ، ولكنّ والدها القاسي قد اختلفَ مع صهره، وظنّه يطمعُ في ملكه من بعدِه، فاغتالَهُ دونَ رحمةٍ. وتركَ قلْبَ فلذته يحْتَرق ويتمزَّق. ثم عاوَدَ الكرّة مرةً أخرى حين حَرمَها من حبيبٍ كانتْ تريدُ أن تكونَ حليلتَهُ الشّرعية، في كنفِ الطُّهْرِ والعفافِ، فثارتِ الفتاةُ وغضبتْ، وعزَّ على والدِها أن تُخالِفَ رأيه، فأودَعها السجنَ، كي تَسكُتَ عن حنينها، ولكنّها واصلت حنينها الرائع، في قصائدَ باكيةٍ نظمتْها باللغة الفارسية (لغة الثقافة الهندية لمسلمي الهند في ذلك الحين) وكانَ مما قالت: والترجمةُ للأستاذ النشار والأستاذ حسين البشبيشي، حيث نظما كثيراً من قول الشاعرة في أبيات عربية:

يا جمالاً مِثْلُه ما شهدتْ ... أعينُ العالمِ في دنيا الشبابْ
أينْ لا أينَ طريقي أقتفي ... أثرَ الأقدامِ في داجِي التُّرابْ

• • •

قلبيَ المجروحُ أدْماه الهَوَى ... فَتنزَّى قطراتٍ من دَمِ
فانظر الآن تُشاهدْ عجباً ... زَهراً أنْتجَ تحت العَنْدَمِ

• • •

زهراتٍ يانعاتٍ نبتتْ ... بين عُروق فجرّتها الحَسَراتْ
موضعُ الأشْواكِ لما دُسْتُه ... نبَتَ الزَّهرُ مكان الخطواتْ

٢١٤ ـ من الغزل الإنكليزي

من قصيدة للشاعرة الإنكليزية الرقيقة (لُورنس هوب) نقلاً عن ديوانها الذائع (الغرام الهندي) والترجمَة للأستاذ (عباس محمود العقاد):

يا حبيبي، حين تَشْتهي استجابةَ الحب الكبرى، أقْبِل إليّ، والصباح يرتَع في الأنوار، والبلابلُ مِن حولنا مشوْقَةٌ تصدحُ بالغناء، بين الورودِ من حُمرٍ وبيض.

وكذاكَ حيث يقضي الله لي تلكَ الفريضة الحلوةَ القدسية، مذعنةً لمشيئَتِه الإلـٰهية كي أمنحَ الدنيا صورةً من جمالك، لأسلّمها للدنيا، ومعَها فرحي فيك.

ليس بي ياحبيبي أن أكتمكَ أمراً، ألستَ وشيكاً أن تلمسَ الخداع في ذلك العناق!

آه، على هـذا لا قِبلَ لي بنأيـك، فلا تنصرفْ عني، إنَّ روحي تهبُ لـك عزّتها، فاقْتسمها وخُذ نصيبك منها!

دعْ شعاع النجومِ حيثُ يتفرّق السحابُ الوئيد، يفضفضُ مُحيّاكَ في تمامه

إنهم لَلْقِدّيسُون مَن لهم نظائرُ تلك الوجوه

عجبي لهذا الوجه، ينشدُ في فؤادي ملاذَه ومأواه.

٢١٥ ـ شاعرة إيطالية

هي الشاعرة الإيطالية (كرستينا روزتي) والترجمةُ للعقاد أيضاً؛ تقول:

وَدِدْتُ لو ذكرتُ اليومَ الأول، والساعة الأولى، واللحظـة الأولى لحظـةَ اللقاء؛ أولَ لقاء:

وددتُ لـو أذكرها، أكانت مُضْحِيـةً أم غـائمةً؟ وفي الصيف كانتْ أو في الشتاء؟، إنّها انطلقتْ بنا غير مَرصْودة، وفي غير سجلّ محفوظ.

كنتُ في غفلةٍ عن النظر إلى ما أرى، وما سوف أرى، كنتُ في غفلةٍ عن شجرتي، وهي تنبتُ من جوف الثرى تلك الشجرةُ التي سيَنْقضي كمْ من ربيعٍ، وهي لا تحملُ زهرةً، ليتني أذكر ساعتها!

يومٌ من الأيام أتَى وانقضى، ولا أثر، كأنَّه ذوبُ الثلّج الذي مضى.

كأنّها لم تكن تَعْني شيئاً، أو كأنّها كانتْ تعْني كلَّ شيء، فلا يُسأل عنها.

ألا ليتني أستعيدُ اليوم ذكراها.

ذكرى اللمسة الأولى، إذ اليدَ تصافحُ اليدَ الأخرى.

آه لو كنتُ أعلم.

٢١٦ ـ شاعرة عربية

أما الشاعرة العربيّة، فهي الشاعرة الأصيلة ذاتُ الرّوح العالية، والحسّ النبيْل، ذاتُ العواطف الحارة، التي ارتفعتْ ولم تُبتذَل، والتي حلّقتْ في السماء، وتركتِ الأرض، هي الشاعرة الفلسطينيّة (فدوى طوقان)، فمنْ قصيدةٍ لها بمجلة (الرسالة):

ماذا أُحسّ هُنَا بأعماقي ... ترتجُّ أهوائي وأشواقي
بي ألفُ إحساس يحرّقني ... متدافعَ التيار دفّاقِ
ألفُ انفعالٍ، ألْفُ عاطفةٍ ... محمومةٍ بدَمي بأعراقي
ماذا أحِسُّ أحسُّ بي لهف ... حيرانَ يغمُر كلَّ آفاقي
جفّت له شفتايَ وارتعشتْ ... أظلالَه العطْشى بأحداقي

* * *

قلْبي تفورُ به الحياةُ وقدْ ... عمقتْ، ومدّت فيه كالأمدِ
فتهزُّ أغواري نوازعه ... صَخَّابَةً، دَفّاقةَ المدَدِ
ويظلّ منتظراً على شغفٍ ... ويظلُّ مرتقباً على وَقدِ
أحلامُ محرومٍ تُساوِرُه ... متوعدٍ في العيش منفردِ
ويودُّ لو تمضي الحياةُ به ... للحبِّ، مصدر فيضها الأبدي

* * *

من رسائل إخوان الصفاء

٢١٧ ـ شكوى الحيوان

قصة شكوى الحيوان من الإنسان من أجمل القصص في التراث العربي، إنْ لم تكن أجمل قصّة هادفة انْحدرت إلينا من تراث القرن الرابع المليء بأثمن الذخائر، وأعلقِ النفائس، وكاتبُها المجهولُ أحدُ (إخوان الصفا) الذين تركوا أبدعَ الرسائل الفلسفية الحافلة بما يمثّل الذهن المتحضِّر، ذِي الشعاب المختلفة المتنوعة، وَلَوْ أُتيح للرسائل مَن يتخصّص في تحليلها، ومعرفةِ أُصولها الفلسفية الغائرة في أطْباق الفكر الإنساني منذُ شهد وجودَه في مصر، والصين، والهند، واليونان، والرومان، إلى حين اكتسحه المدّ العربي الزاخر بتيّاره المتموج، لو أتيحَ لها هذا النّفرُ من المتخصّصين، لرأيْنا كيف تفتحتْ عقولُنا الماضية على آفاقٍ تشرِقُ بالنور وتتوهج بالضياء[1].

أمّا ظُلم الإنسان للحيوان فقد أَحَسَّهُ مفكّرٌ عملاق مِن مفكّري (إخوان الصفا)، ولمْ يشأْ أن يعبّرَ عن أحاسيسه في أسلوبٍ علمي يُرتّب القضايا المنطقية، واصلاً بها إلى النتائج الصحيحة، بل كانَ شاعراً عاطفياً في اتجاهه حين تخيَّل طوائفَ الحيوان قد فَزِعتْ من ظُلم الإنسان، ولمْ تَجِدْ منصفاً تشكو إليه ما ينزِلُ بها من الفَوادح غيرَ تلك الجنّ، لأنّه قادرٌ على الانتقام من الحيوان والإنسان معاً، ففزعت الطوائفُ المختلفة من الحيوان والطيور والزّواحف والحشرات والهَوامّ إلى الملك العظيم في مملكته الحصينة، لتُفْضي بشكواها إلى عادلٍ بصير.

ومن أجملِ اللوحات الفنيّة التي تُعرَض في متاحف أوروبة، لوحةُ هذه

---

(١) لقد كان لإخوان الصفا دور هدام في الحضارة العربية الإسلامية، انظر (إخوان الصفا)، للدكتور عمر الدسوقي. (الناشر)

الشكوى، إذ تأثّر بـالموضوع فنان حسّـاس، فرسَم مشهدُ المحاكمة يتصدّره ملكُ الجنّ بقُرونه الناهضة، وعينيه الملتهبتين، وحولَه حوارِيوه ممّن هم على شاكلته في الجهة اليمنى، وقد وَقَف ممثّلو الإنسان في الجهة المقابلة.

أما العجيبُ حقّاً، فهو ما جمعت اللوحة الخالدة من مشاهِد الحيوانِ والطير والزواحِف والهوامّ، وقد اجتمعتْ في مشهدٍ واحدٍ، يقفُ فيه الظّبي إلى جوارَ الأسدِ، والعصفورُ إلى جوار النَّسْرِ دون خوفٍ! لَوحةٌ رائعةٌ تحتاجُ إلى فنّان مبدع يشرحُ ما بها من ظلال خالطت الأضواء، ووجوهِ نَطقَتْ بـأبلغِ ما تُخفي السـراءُ؟ فأيْن هو؟ ولا أستطيعُ في هذه الشذرات أن أتتّبع كلَّ ما دار في مجلس سيد الجنّ ولكنّي أكتفي بـالتقاط بعض المشـاهد دون اختيـارٍ، لأنّها كلّها في مسـتوى واحد من الإبداع.

وقف زعيمُ البهائم ليقول: أيها الملك! كنا نحنُ وآباؤنا سكانَ الأرض قبلَ خلقِ آدم قاطنين في أرجائها في رغدٍ من العيش، ثم إنَّ الله خلق آدم، وكثرتْ ذُرّيتـه، فضّيقوا علينا الأماكن، وأخذُوا منّـا أسارى من الغنم والبقـر والخيـل والحمير، وسـخّرونا في الأعمالِ الشـاقّةِ، من الحمل والركـوب، والـدوران في الرّحى والدواليب، بالقهرِ والعذابِ طولَ أعمارنا، فهربَ منّا من هربَ، وشمّر بنو آدم في طلبِنا، فمَن وقَع منّا في أيديهم شدوا وثاقَه، ثم عذّبوه بالذّبح والسلخ وشق البطن وقطْع المفاصل، ونَتْف الريـش، وادّعـوا أنَّ هذا حق واجب لهم علينا، وأنهُم أربابٌ ونحن عبيد.

سمع الملك هذه الشكوى، وأمَر بطوائفِ الإنس، فحضرتْ لتردّ على الشكوى، وكانت قاعةُ المحاكمةِ تتّسعُ لكل حوارٍ، يجيءُ فيه الشاكي والمشكوّ منه، حيثُ أمرَ الملك أن يتحدّثَ عن كل طائفة ممثّلٌ لها، فتكلّم الحمارُ والجملُ والفيلُ والخنزيرُ والثورُ، وأدْلى كلٌّ بمواجعه الدّامياتِ.

فممّا قال الكبْش: أيّها الملك! لو رأيتَنا ونحنُ أسارى في أيدي بني آدم، يأخذونَ صغارنـا، فيفرّقون بينها وبين أمهاتها، ليسـتأثرُوا بألبانها لأولادهم، ويَجْعلُوها مشدودةً مِنْ أيديها وأرجلها، محمولة إلى المذابح والمسالخ، جائعةً

عطشَى، تَصيحُ فلا تُرحم، ثم نراهَا مذبوحةً، مشقُوقةً أجوافُها، مفرّقة أعضاؤُها ورؤوسها وكرُوشُها وأكبادُها في دكاكين القصابين، مقطّعةً بالسواطير، مطبوخةً في القدور، مشويّةً في التنور، ونحن سكوتٌ لا نستطيعُ أن نَبكْي أو نشكو، فإنْ شكَوْنا لا نجدُ من يَرْحَم، لو رأيتَنا كذلك أيها الملك لَرحِمْتنا.

أما الجمل فتكلّم قليلاً، ثم نظر إلى الخنزير، وصاحَ به: قمْ أيّها الخنزير، واذكرْ ما تلْقون مِن جوْرِ بني آدم، وكأنَّ الجملَ كان يعلمُ أنّ مصابَ الخنزير فوقَ كلّ احتمالٍ، فدعاه للإفصاح.

قال الخنزير: واللهِ ما أقولُ من كثرة اختلاف القائلين في أمرنا، أما حكماءُ الجنّ فالملك يعرف ما لديهم، وأما الإنسُ فقد كانوا أكثر اختلافاً وأبعدَ اتفاقاً، إنّ المسلمين يقولون: إنّنا ملعونون، ويستقبحون صورنا، ويستقذرون لحومنا، والرومُ يتنافسون في أكل لحومنا في قرابينهم، واليهودُ يلعنوننا من غير ذنبٍ منا إليهم، ولكنْ لعداوةٍ بينهم وبين النصارى، والأطباءُ من اليونان يتداوون بشحومنا، وساسة الدواب يخالطوننا بدوابهم وعلفها، لأنّ حالها يصلحُ بمخالطتنا، فقد تحيّرْنا لا ندري لمن نشكو، ومما نشكو ونتظلم، وقام غيرُ الخنزير كثيرٌ وكثيرٌ.

وكأنّ ملك الجان قد تأثّر بما سمع، فالتفتَ إلى جماعةٍ ممّن حضروا مجلسَه من حكماءِ الجن وقادتهم وقال: ألا تسمعون شكاية هذه البهائم والأنعام، وما يَصفون من جوْر بني آدم عليها، وقلة رحمتهم لها؟.

قال الحكماء من الجنّ: سمعنا كلّ ما قالوا، وهو حق، ومن أجلِ ذلك هَربت بنو الجان من بيْن أيديهم إلى البراري والقفار، ورؤوس الجبال، وبطون الأودية، وسواحل البحار، لما رأوْا من قبح أفعالهم، وسوء أعمالهم، ومع هذه الخصال كلّها لا يتخلّصون من سوء ظنهم بالجنّ، وذلك أنّهم يعتقدون أنَّ للجن في الإنسان نزعاتٍ وخبطاتٍ، وفزعاتٍ في صبيانهم ونسائهم وجهّالهم، حتّى إنهم يتعاوذون من شرّ الجن بالتعاويذ والرُّقى والتمائم وما شاكلها، ولم يروْا قط جنّياً قتل إنسيّاً، أو جَرحَه أو سرقَ متاعَه، أو نقّب دارَه، أو فتقَ جيبه أو بَتَرَ كُمَّه، أو قطع على مسافرٍ طريقَه، أو خرجَ على سلطانٍ أو أَخذ أميراً.

سمع الملك كلَّ ذلك فخلا للتشاور مع قُضاة الجن، فكلّهم أجمعوا على أن يُرسِلَ الملكُ رُسلاً إلى جميع الحيوانات التي لم تمثّل في المحاكمة، فتعرّفها الخبر، وتطلبَ منها أن تَبعثَ كلُّ طائفةٍ ممثّلاً لديها يصدعُ بآلامها وآمالها، وصدرَ الأمرُ بتأجيلِ المحاكمة حتى تأتي الوفود.

صدعَ المستمعون للأمر، وطافتِ الرسل بجميع الحيوانات والطيور والهوام والزّواحف، فجعلَ رئيسُ كلِّ طائفةٍ يبحثُ الأمرَ، ويختارُ من يمثّله.

وننقلُ مشهداً من مشاهد الاختيار، حيثُ وصلَ رسول الجن إلى ملك الجوارح ـ وهو العنقاء ـ فعرّفَه الخبر، فنادَى مُنادى الجوارح بين النسور، والعُقبان، والصّقور، والبُزاة، والشّواهين، والحدأ، والرّخم، والغربان، والبوم، والببغاء، وكلّ طيرٍ ذي مخلب مقوَّس المنقارِ، يأكلُ اللحم، ثم عرّفها الخبر، وما جاءَ به الرسول، فقالَ الوزير الخاصّ بملك الجوارح: ليس فينا أحدٌ يصلحُ لهذا الأمر غير البوم، قال الملك: ولِمَ ذلك؟ قالَ الوزير: هذه الجوارح كلُّها تنفرُ من الإنس، وتفزَعُ منهم، ولا تفهم كلامَهم، ولا تُحْسِنُ مخاطبتهم، ولا تجاورهم إلا البُوم، فإنّه قريبُ المجاورة لهم في ديارهم الخَرِبة، ومنازِلهم الدارسة، وقصورِهم البالية، فهو يعرفهم، وينظر إلى آثارِهم الباقية، ويعتبرُ بالقُرون الماضية.

فسمعَ البومُ ما قيل، فقالَ للملك: لا يُمكن المسيرُ إلى مجلس الحكم، لأنّ بني آدم يُبغضونني، ويتطيّرون برؤيتي، ويشْتُمونني من غير ذنب إليهم، ولا أَذيّة مني، فكيف إذا وقفتُ أمامَهم في المجلس، وأظهرتُ الخلاف، ونازعتُهم في الكلام والمناظرة؟

فقالَ الملك: ومَن يصلُح؟ فقال البوم: إنّ ملوك بني آدم يُحبون الجوارحَ من البزاة والصقور والشواهين ويكرمُونها، ويحملونَها على أكفّهم، فلو بعثَ الملكُ واحداً منها لكان صواباً، وبعدَ مشاورةٍ حاسمةٍ انتهى الأمر باختيارِ الببغاء، لأنّ بني آدم يحبّونه، فابتسم الببغاءُ ورحّب، وتوجّه إلى مهمته.

ومن الطريف أن ملكَ الهوام وهو الثعبان قد جَمع أبناء جنسه، وفيه الأفاعي، والحيّات، والعقارب، والضب، والحرباء، والخنافس، والعناكب، والنّمل، والجنادب، والبراغيث، والقمل، والصراصير، وكلّ ما يتكون في العفونات، أو يدب على رؤوس الأشجار، وحينَ رأى ملك الهوام هذه الطوائفَ قالَ متألّماً: من يصلُح من هذه الطوائف كي نبعثه للمناظرة، وأكثرها صمٌّ بكمٌ عميٌ، بلا يديْن ولا رجليْن، ولا جناحين، ولا مِنْقار، ولا مخلب ولا ريش على أبدانها، ولا صوفَ ولا فلوس، وأكثرُها حُفاةٌ عراة، مساكين بلا حيلة، ولا حولَ لها ولا قوة، وقد رقّ قلبُ الملك عليها، ودمعت عيناه، ثم دعا الله أن يكونَ لها حافظاً ومعيناً.

أسائل نفسي كيفَ يتجه المؤلِّف الفنّان بهذه الرحمة الدافقة إلى طوائفِ الثعابين والعقارب والحيّات؟ ألم تكنْ أسرابُ الحمام، وجماعات العصافير أولى وأحقّ! إن خَطَر الثعابين أقوى من خطر الآساد والنمور، فهل أرادَ المؤلّف الفنّان أن يُبدعَ فيأتي بما لا يخطرُ على بال!

وقد لبّت كل طائفة دعاءَ الملك الجني، وأرسلتْ من يمثّلها، ودارَ حوارٌ عاصفٌ يَشملَ عدة صفحات رائعة يصعبُ تلْخيصها، لأنّها من أجملِ صفحات البيان العربي، والبيان يَفْسِدُ بالتلخيص، إذْ كلّ لفظٍ له مدلول، وكلُّ حرفٍ لا يغني غناءَه سواه!

وقد انتهت المحاكمةُ إلى نتيجةٍ رضي عنها طوائف الإنس، لأنّها اختارتْ حكيماً فارسيّاً أبدعَ الدفاع، وأتى من وسائل الإقناع ما تمنت له النفوس، ودلَّ على فَضْلِ الإنسان بما لا ينكره غير الجاحد، فمالَ ملك الجنّ إليه، وختم المحاكمة بقوله: الآنَ حصحص الحق، وصدقَ الله الذي فَضَّل الإنسان على الحيوان، وعلى كثيرٍ من المخلوقات، فيا أيّها الحيوانات أنتم أعوانُ الإنسان فأَطيعوه، ولا تعصوا له أمراً، ويا بني آدم، أنتمْ سادةُ الحيوان، فعاملوه بالرّفق ولا تعتَدوا، إنّ الله لا يحب المعتدين.

٢١٨ ـ تعليق نقدي

ونسأل: هل كان للرسالة (رسالة الإنسان والحيوان) هدفٌ غير الدعوة إلى الرحمة وحسن المعاملة بين الإنسان والحيوان؟ سؤالٌ يجيب عنه الدكتور (زكي مبارك) فيقول:

«كاتبُ الرسالة متفوّق في علم الحيوان، ورسالتُه تجري مجرى القصص الطريف، ولكنَّ هذا القصص يدور حولَ محورٍ واحد، وهو شرحُ طبائع الطير والحيوان، ولذلك نَرى الكاتبَ يُبدئ ويعيد في الكلام عن خواصّ الكائنات الحيّة، التي استبدّ بها الإنسان، وينطلِقُ فيسردُ طبائعها جنساً جنساً، ثم يمضي فينطقها بما أُودعتْ غرائزها من ضُروب الأسرار، ولا يزالُ يمعن في الدرس والبحث حتى يمكّن القارئ من معارف جمة طريفة تشوّق العقل والخيال» فالرسالة كما قال القائل:

مِـنَ الـلائـي أَمَـدَّ بهـنَّ عقـلٌ　　　وهَـذَّبَهُـنَّ فكـرٌ وانتقـادُ

* * *

بين الحقيقة والخيال

٢١٩ ـ المرأة الطائرة

تحدثت الدكتورة (سهير القلماوي) في مقال تحت عنوان (المرأة الطائرة) عن قصّةٍ من قصص (ألف ليلة وليلة) تردّدتْ في الآداب العالمية، فروَتْها كُتبُ الآداب الألمانية والإنكليزية واليونانية والهندية والأسكتلنْديّة على أنَّها من آثارها الذاتيّـة، لأنّ كلَّ قاصّ من قصّاصي هذه الآداب المختلفـة جَعَل يُحـوِّرُها فـي التفصيلات تحويراً لا يُخفي اتحاد المضمون.

وخلاصةُ قصّة (المرأة الطائرة) كما جاءت في (ألف ليلة وليلة) أنّ الحسن البصري ـ وهو صائغٌ بالمدينة ـ توجّه إلى بُحيرةٍ ممتلئةٍ بالماءِ العذب فشاهدَ تسعةَ طيور في منظرٍ جذّاب، وكلُّها تُحيطُ بطائرٍ ممتازٍ يظهر عليه أنّه يحتلّ منها مكانَ الرئاسة، ثم نزعتِ الطيورُ ريشَها، فتحولتْ إلى غادات حِسانٍ لم يرَ حسن البصري أجملَ منهن، وكلّهـن يخْدِمْن الطائـرَ الذي يحتلّ مكان الرئاسـة، وقَد نزَع ثيابه الريشيّ، فبدتْ منها للعين فتاةٌ صارخة الحُسْنِ، لدرجةِ السحرِ والاندهاشِ، وقد جعلتِ الفتياتُ يمرحْنَ في الماء، فأوحى الحَظُّ للحَسن أنْ يتسلّل فيسرقَ ريشَ الفتاة الممتازةِ، حتّى لا تستطيعَ الطيران، وإذ ذاكَ يذهبُ إليها مُتودّداً، ويعملُ على اصطحابِها إلى قصره، وقد تمَّ له ذلك.

ولكنَّ الفتاةَ الرائعة الحُسن ظلّتْ مُغاضبةً له أمداً طويلاً، وظلّ يتذلّل لها ويتوسّل، حتّى استجابتْ بعد عُسرٍ شديدٍ، وقد عَرف أنّها ابنةُ ملكٍ عظيم لجزيرة (واق الواق) والقصّة ذاتُ طولٍ ساحرِ السياق، لأنَّ الفتاة قد اهتدتْ إلى ريشِها ولبسَتْهُ وطارتْ إلى جزيرة أبيها، وأخَذ الحسنُ يبحثُ، ويجدّ، ويخُوضُ أهوالاً وراءَ أهوال، حتى وصلَ إليها، وتشفّعَ لها بولديْها اللّذيْن أنجباهما، وهُما في حاجة إلى وجود الأب والأمّ في منزل واحد، ودار حوار طويل لا يعنينا الآن، إنّما الذي يعنينا أنها أصبحت مدداً لا ينفد.

وهذه القصّة ليست الوحيدةَ مما انتقلَ إلى الغرب من آثار الشرق، ولكنَّ عشرات القصص الرائعة التي صاغها كبارُ الأُدباء في أوروبة، وحازوا بها أكبرَ شُهرة في عالم القصص الأدبي، قد انتقلتْ إليهمْ من كنوز الشرق الحافلـة، ولَوْ تخصصّ نفرٌ من الأدباء ذوي الثقافة المزدوجة شرقاً وغرباً في تسـطير ما تشـابه من الأقـاصيص، وتردّدَ بين الشـرق والغرب، لتمتّع القرّاء بأجمل ضـروب الأدب المقارن، وليْست المسألة من الصعوبة بحيث تتعسّر، ولكنّها مع الجدّ المتّصل تُفضي إلى نفع جزيل، إذ تُصوِّر كيف تتّحد المشـاعر الإنسـانية في جميع أَصْقاع المعمورة، وإنِ اختلفَ أصحابها باختلاف الزمان والمكان، ولعلّي أشير إلى بعضِ هذه المتشابهات التي انتقلتْ من أدبنا العربي لتكونَ مَدداً كبيراً لغيره من الآداب.

٢٢٠ ـ من رواية ماكبث

أبدعَ (شكسبير) في روايته (ماكبث): تلك الرواية التي جعلتْ بطَلها يُصدّقُ كلامَ ساحرةٍ عرّافةٍ إذ بشّرته أنّه سيلي الملكَ بعد مصرع الملك الحالي، ورَجَعَ ماكبث إلى زوجته، فأخبرها بما قالت الساحرة، فاعتقدتْ صوابَ ما قالت، وجعلتْ تزيِّنُ له أن يَصرعَ الملك حين يأتي إلى زيارتهما أسبوعيّاً، كما تعوّد، وأكبَرَ الزوج أن يأتي هذا الجرمَ الفاحش، ولكنّ الزوجة أخذتْ تؤرقه وتُزعجه مصرّةً على التآمر كي تُصبح ملكةً متوّجة إذا تسنّمَ زوجُها العرشَ، وحين ضاقتْ به سهّلتْ له أن يُلصق الجُرمَ بحارسي الملك، فيلطّخ ثوبيهما بالدم، وإذ ذاك ينجو من التهمة، وقد تمّ الأمر على وجهه الكريه وصار ملكاً بعده، ثم حاول (ماكبث) أن يغتالَ وليّ العهد الذي عيّنه الملكُ الراحل، ليخلوَ الجوَّ لولده فشبّتْ حروب شنّها خُصومُ الملك بقيادة (مكديف) نجل الملك الصريع، وقد بَعثَ (ماكبث) من يستطلع الجيش الزاحفَ من أقصى البلاد ليقدرَ موقفه بإزائه، فاعْتلى المبعوثُ ربوةً عاليةً، وبدلاً من أن يَرى جيشاً يتحرّك رأى غاباً كثيفاً، وجُموعاً من الشجر تزحفُ رويداً رويداً، لُتضلّ الملك عن حقيقةَ الجيش، وكان هذا الغابُ يظلِّلُ جيشَ مكديف، حيثُ أمر القائدُ بأنْ يحملَ كلّ جندي شجرةً يسير تحتها متخفّياً، كيْلا يعلمَ أحدٌ بزحْف الجيش إذ لا يتصوّر (ماكبث) أنَّ الشجر يُواري جنوداً! وقد

أسفرتِ المعركةَ عن نجاح مكديف واندحارِ ماكبث، حيث لقيَ حتفه على يد الولد المنتقم.

٢٢١ ـ زرقاء اليمامة

نتساءلُ من أين أتى شكسبير بفكرة الشجر الزاحف! إنَّ قصّة (زرقاء اليمامة) العربيّة هي[1] التي أوحت له بهذه الحيلة، وخلاصةُ حديثِ الزرقاء ما ذكرهُ الثعالبي حيث قال:

هي امرأةٌ من جُديس، كانتْ تُبصر الشيءَ من مسيرة ثلاثة أيام، فلمّا قتلتْ جديسُ طَسْماً، خرجَ رجل من طَسْمٍ إلى حسّان بن تُبّع، فاستجاشَه، وأَرْغَبهُ في أخذ الثأر، فخرجَ في جيشٍ جرّار، فلما كانوا على مسافةِ ثلاثةِ أيام، صعدتْ زرقاءُ اليمامة السطحَ، فنظرتْ إلى الجيش، وقد أمروا أن يحمل كلَّ رجلٍ منهم شجرةً يستتر بها، ليُلبِّسوا على الأعداء، فقالتِ الزرقاء: يا قوم! قد أتتْكُم الشجرُ وجاءتْكم حمير، فلم يصدّقوها، ولم يستعدّوا، قالت: أحلفُ بالله، لقد أرى رجلاً تنْهش كَتِفاً، ويخصف نعلاً، فلم يُصدّقوها، حتى صبَّحهم جيشُ حسّان بن تبّع اليماني فاجْتاحهم، وصدقَتِ الزرقاء فيما رأت!

٢٢٢ ـ من شعر النابغة الذبياني

قال النابغة عن زرقاء اليمامة:

واحْكُمْ كحكْمِ فتاةِ الحيِّ إذ نظرتْ	إلى حمامٍ سِراعٍ واردِ الثَّميدِ
قالتْ: ألا لَيْتما هذا الحمامُ لنا	إلى حمامَتِنا أو نِصْفَه فَقَدِ
فحسّبوه فألفُوه كما زعمتْ	ستّاً وستّين لم تنقِصْ ولم تزدِ

* * *

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٣٠٠.

مختارات العقّاد

٢٢٣ ـ عرائس وشياطين

أما صاحبُ الشذرات الذهبيّة اليوم فهو الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد، حيث جمعَ شـذراتٍ رائعة من شـتّى آداب العالم في كتاب سـمّاه (عرائس وشياطين) ومختاراتُه الشعرية تدلّ على ذوْق الناقد الشاعر الأديب وفطنته، وكلُّها جيدةٌ مختارة، وسأقتطفُ منها ما يشْفي غلّة القارئ، وقد يشوّقُهُ ذلك إلى الإقبال على الأصل، والاحتفاظ به كأثرٍ أدبي رائع على صغر حجمه.

وقد قال العقاد في مقدمة المختارات: «هذه قصائد من الشعر العربي أو العالميّ، يكثرُ فيها الإيجاز، ويقلُّ الإسهاب، ويندرُ فيها المشهور المتكرّر على جميع الأسماع، ونُجيز لأنفسنا فيها الحذفَ والتبديلَ مداراةً لإسفافٍ في العبارة، أو إسفافٍ في الذوق والأدب، وعلينا تبعةُ القليل الذي طرأ عليها من الحذف والتبديل، وحسبنا منها شرطٌ واحدٌ، نرجـو أن يتّفق لها جميعاً في رأي قرّائها، وذلك أنّها من وحي العرائس والشياطين خيرُ ما يقرّبُ الإنسان إلى قلب الإنسان.

٢٢٤ ـ لشاعرة إنكليزية

لا تُناديني والصيفُ مشرقٌ أيّها الموت! إنّني في الصيف لن أجيبَ النداء!

حين يُوسوسُ العُشبَ ويتمايلُ بأعطافِه، لا ترفعْ إليّ صوتَك بالنداءِ من تلك الظلال السفلى!

حين يحنُّ الصفصافُ ويترَقرَقُ الماءُ، وحين يتوانَى الجدولُ وينعش الهواءُ.

حين يتموَّجُ اللّبلابُ على الأسوارِ، لا تناديني أيها الموت!

قلتُ لك: لا تناديني أيها الموت في ذلكَ الأوان، إنّك عبثاً تُنادي رافع الصوتَ، وفي إبّانِ الأزاهيرِ النامية لن أصغي إليكَ.

لكنّي سأصغي إليك حين يتجرَّدُ كلُّ حالٍ وحالية، ومرحباً بدعائك حين يُنْثَرُ الورقُ من الشجرِ على ثراه، وحين يُسمَعُ للسفوح فحيحٌ في العاصفِ المهتاج، حين يشمّ الرعاةُ من الشرق رائحةَ الثّلوج، حين يُهجَرُ الحقل للريح لتتولّى حصادَه، حين يصبحُ الإعصارُ حطّابَ الوادي الذي يطيحُ بأعوادِه، حين يصبحُ الثلجُ بذرةَ الأرض التي تنثرها السماء، حين ننفرُ من كل شيء، ولا نتوق لشيء ما.

نادِ يومئذٍ يا موتُ! ذلك الإصغاءُ والتّرحاب، فيومئذٍ أسمعُ وأنهضُ وأمضي.

٢٢٥ ـ لشاعرة برازيليّـة

طالَ الليلُ، وهدأَ القمرُ، وهبط المدُّ، وبردت الجدرانُ.

فامْضِ وامْضِ، وسِرْ حيثُ ترمي بك قدماكَ، فما بالشاعر من حاجةٍ إلى مأوى.

جاوزتَ البابَ الأخير، وبرزتَ إلى الفراغ الذي لا شيء فيه.

تقدّمْ، تقدّم، واخبطْ في جوف الظلام، فما بالشاعرِ في اللّيلة الساجية من حاجةٍ للرقاد.

تقدّمْ، وافْقد خطواتِك في هذا الليلِ إنّه مثلكَ مفقودٌ.

فما بالشاعر بين يَدي الفضاء مِن حاجة إلى حياة.

تقدّم وسرْ، ما شاءَ اللهُ لِلّيل أن يُخلقَ للسير فيه، ولا حاجةَ به إلى شيء

٢٢٦ ـ شاعرٍ صيني

نحن نبكي يوم نُولَد، وغيرُنا يبكي يوم نموت! لقد أحزَنُ وغيري صادحٌ بالغناء.

لقد أصدحُ بالغناءِ وغيري يُطيلُ البكاءَ. كلّه غاربٌ، كلّه ذاهب، كذلك الجدولُ المنساب كلّه غرورٌ، كله يدور كذلك الدولاب!

نجدّدُ الزنـاد، وما بـالنّار من تجديد، وما يبالي النّـورُ مِنْ مصباحٍ فانٍ أو مِصْباحٍ وليد.

إن تضْحكْ فحقيـقٌ بضحك السـاخر أولئكَ السـائحون إلى معابِـد بُوذا، وهياكل الجنة، يَروحون ويغدون وعند أصْنامها يركعون ويخشعون.

إنّما النّسك سأمةٌ وعناء، وإنما الركوعُ صداعٌ وإعياء.

طحالبُ على مستنقعاتٍ تسيح، وأينَ من يقبضُ لنا ظلالَ الريحِ؟

ويا ويلنا لو تُجابُ تلـك الصلوات، لفرّقتْهم بضحكاتي إذنْ إلى شـتاتٍ وفوات.

٢٢٧ ـ شاعر فارسي

ما الدنيا؟ ما الأُخرى؟ إذا لَمْ تكُن رمزاً للحب، إلى ذلك القادر على كل شيء!

وما الجمال؟ إنْ لم يكن شعاعَ النورِ الذي يتألق من حوله.

حقٌّ للجدول أن يُزهى بنفسه، إذْ كان من البحر المحيط فيْضُه ومداده

فما هو بالجدول بعدُ، ولكنّه هو البحرِ المحيط حيثُ كان

تنجمُ البذرةُ الصغيرةُ من الأرض، فتُولد لها الأوراقُ واللحاء والثمرات.

ولكنّ الشجرةَ الباسقةَ التي نجمتْ هكذا، هي وديعةُ حَبَّةٍ واحدةٍ ولا تزيدُ

أيتها الطلعة المعشوقة، قِفي بين ألْفِ مرآة، وانظُري حولك تَرَيْ ألفَ وجهٍ يلقاكِ

من كلّ مكان، ولكنها كلّها هي أنتِ دون سواك

فهبْ للرسّامِ قدرةً يحكـي بها هذا اللجيـنَ الوضّـاح؟ وقُـلْ: ما العيـونُ مؤتلقاتٍ بالنور؟

وما الخدودُ يخجِلْنَ الورودَ، وما الكلامُ؟ وما الصّورُ؟ وما الأصداءُ والأنغام؟

ما كلّ أولئك إلاّ هو الذي لا شيءَ سواه!

٢٢٨ ـ شاعر إيطاليّ

لم يزلْ نقابُ الطلِّ الضبابي يحجُبُ وجْنةَ الصباح الورديّة، واستمعْ هُناك! فما أخفَّ وطْأَ الثعالبِ وهي تركضُ في الآجام!

وعلى مهادِ الحرير ـ كلاراي ـ تُنْفِقُ ساعاتِ الكسل في الأحلام، يصعدُ إليها نسيمُ المروج البليل دافئ الأنفاسِ، وسيّانِ فيها العشبُ والأزهارُ في نضرةِ الجمال.

ارْفعي أيتُها السيدةُ الحلوة مِن ضجعتكِ الغائرةِ كلَّ ما في ذلك الرأسِ البديعِ من هالةِ فخار.

اسْمعي إلى الكلاب تعْوي في الفِناء، عُواءً كفيلاً بيقظةِ الموتى من القبور.

ألا تسْمعينَ البوق المَرِحَ يدعوكِ إلى الصيدِ؟ إليه، إليه، إنَّ الظباءَ قد فارقتْ خدورَها على نجاجِ البلُّوْط والعَوْسَجِ القديم.

لُفّي ذيْنك النّهْدَيْن الكاعبيْن في قباء، لهُ من الرّجولةِ شدٌّ وإحكام.

إني لأسمعُ فرسَك الحبيب يصهلُ في طربٍ وانتشاءٍ، ويدقُّ بالحافرِ القَلِقِ متْنَ الطريقِ المرصوفِ.

ها أنتِ ذي على السلالم سيّدتي، هلمّي هلمي بَدارِ بَدارِ

الصباحُ المورّد يتوهّجُ على القمم، فإلى المروج، إلى المروج، إلى الفضاء.

٢٢٩ ـ شاعر فرنسي

آه، إنّ نفسي حزينةٌ حزينةٌ من أجلِ امرأةٍ!

تعزّيتُ، وما من عزاء، وإنْ كان القلبُ قد فرَّ منها منذ زمن بعيد.

فرّتْ روحي، وفرَّ قلبي ليضمّد الجراح، والروحُ والقلبُ لا يَسْلُوَان!

تعزّيت وما من عزاء، وإنْ كانَ قلبي قد فرَّ مُنذُ زمنٍ بعيد.

ثم قالَ القلبُ الواهِنُ للروح الحائرة: أمُمكنٌ هذا؟ أليسَ هذا بعجيب؟

أيمكنُ أنّك فارقتِ منفيّة، ونأيتِ في حُزْنٍ وإباء؟

قالت الروحُ: وهل أعلم أنا ما هنالك؟

هلْ أدري في أيّ مكانٍ تُعدُّ لنا خفايا الشِّباك؟

جائزٌ أن أبتعِدَ حيثُ ابتعدتَ، وأرحلُ حيثُ رحلتَ، ولكني لم أبرحْ حيثُ كنتُ، ولا أزالُ أقيم!

٢٣٠ ـ شاعر روسي

سئمتُ موطني، وفي القلب حنينٌ إلى السّهوب الفيح.

أهجرُ الكوخَ الصغير، وأخبطُ في العراء كلصٍّ شريد.

أهيمُ النهارَ في أعطافِ الطريق، وتحملُني قدمايَ إلى ركنٍ وضيع، وصديقٍ حبيب إليّ يَسنُّ لي المديةَ وراءَ الحذاء.

على حفافي الطريق مروجٌ تضحك الشمسُ فيها. وتلك التي أترنَّمُ باسمها، ستزجرني طريداً على بابها وأعُود إلى بيتِ أبي بعدَ حين، فلا يحزنني منه السرور، ثم يغيبُ النور ذاتَ مساء، فأحملُ وزري وأمضي لطيتي.

الصفصافُ الأشهبُ عند الحائط المضفور يُطرِقُ، وفي إطراقِه مزيدٌ من الحنان.

وإلى القبر يحملونني غيرَ مغسول، ولا منْ يشيعني إلى مثواي غيرُ عاوياتِ الكلاب.

ولن يزال القمرُ يحومُ ويحومُ، وليخوضَ بمجاذيفه بين صفحات الماء، ولن تزالَ روسية على عهدها بين رقص وبكاء! على الأعوادِ المجاديل.

٢٣١ ـ شاعر عربي

من أحرج المواقف وأشدِّها انفعالاً في العاطفة أن يرثي شاعرٌ عدوّاً كانَ بالأمس صديقاً حميماً، وهذا ما تأرجح فيه أبو بكر الخوارزمي حين رثَى العدّو الصديق فقال:

لقد صادَتْ يدُ الأيامِ طيراً ... تضيقُ به حُبالةُ مَنْ يَصيدُ
صديقٌ قَدْ فَقدناهُ قديمٌ ... وَثُكْلٌ قَدْ وَجَدْناهُ جَديدُ
مُصابٌ وهوَ عِنْدَ النَّاسِ نُعْمى ... وَنَحْسٌ، وهو عِنْدَ النّاسِ عِيدُ
تُهَنِّئُني الأنامُ بِهِ وَلكنْ ... تُعَزِّيني المَواثِقُ والعهودُ
وسيفٌ قد ضربتُ به مراراً ... ومِنْ ضرباتِه بي لي شُهودُ
ومِنْ عجبِ الليالِيَ أنَّ خَصْمي ... يبيدُ، وأنَّ حُزْنِيَ لا يبيدُ
بكيتُ عليكَ بالعينِ التي لَمْ ... تَزَلْ مِنْ سُوْءِ فعلِك بي تَجُوْدُ
لَقَدْ أبكيتني حَيّاً وميتاً ... فقلْ لي: أيّ فعْلَيْك الرَّشيْدُ
فقد غادرتني في كلِّ حالٍ ... أذمّ الدهرَ فيكَ وأَسْتَزيدُ
فلا يومٌ تموتُ بهِ مجيدٌ ... ولا يومٌ تعيشُ بِهِ حميدُ!

* * *

عود إلى الحيوان

٢٣٢ ـ غرائب الحيوان

كنت تعرّضتُ في الشذرات إلى تطبيقٍ عمليٍّ لقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨] فأوضحتُ كيفَ يكونُ الحيوانُ اجتماعياً ذا نصيبٍ مُحْكَمٍ من النظام، وله قوانين تُرعى، وقواعدُ يخضعُ لها في مُجتمعه دون نشازٍ.

وقد كنتُ أطالع في مجلّدات (المقتطف) القديمة، فرأيتُ الدكتور (يعقوب صرّوف) يُترجِمُ عن الغَرْب مشاهِدَ رائعةٍ من مشاهد الحيوان والطير، تدلّ دلالةً واضحةً على أنّ للحيوان نُظماً خاصةً في المسكن والمأكلِ، والسعي لاجتلابِ الرزق، وقد ترتفعُ هذه الوسائلُ الغريزيّةُ إلى ضروبٍ من الأحْكام القضائية يكاد يتساوى فيها مع الإنسان، ومِنْ أروعِ هذه الضّروب ما يقُومُ به الحيوان من التقاضي والإشهادِ، وإصدارِ الحُكْم العادل، وتنفيذه على وجهٍ سريعٍ، وكلُّ ذلك قد شاهدهُ عُدولٌ صادِقون من أصحابِ المغامرات العلمية في أدْغال الغابات وأغوارِ الصحارى، ومخارم الجبال.

يقول الدكتور يعقوب صروف، في كتابه (فصول من التاريخ الطبيعي): وحقوقُ التملّكِ مرعيّةٌ عند كثيرٍ من أنواع الحيوان، فكلابُ الأسواق يستقلُّ كلُّ منها بناحيةٍ من السوق، يأكلُ ما يُرمى فيها من فضلات المنازل، ولا يُبيحُ لكلبٍ غيرَه أن يُقاسمه رزقه إلا نادراً، والعناكبُ لا يتعدّى أحدُها على بيْتِ غيْره، ما لم يكن أَقْوى منه كثيراً، والنملُ يحسبُ أنّه مالكٌ شرعيّ للقرية التي يحتفرُها، وللأرض المجاورة لها، فلا يدعُ نمْلاً غيره يعتدى عليها.

هذا ما قالَه الدكتور صروف، وقد لاحظتُ شخصيًا ما يؤكِّد ذلك، إذ إنّ في كل شارعٍ من شوارع المدينة التي أسكنها (المنصورة) صندوقاً كبيراً لجمع

القمامـة فكنتُ أُلاحِظُ تجمّـع القطط حـولَ الفضلات، حينَ يَعْمُـرُ الصندوق بـالطعام، ولا يُـوجَدُ بينها قطٌّ غريب ممّا نألفـه في الشـارع، فإذا جاءَ قطٌّ وافدٌ مصادفةً سمعت من المُواء ما يُنذِرُ بالاصطدام، فينسحبُ الغريب مقهوراً، وكأنّه يعرفُ أنْ لا حقَّ له في الزّاد.

٢٣٣ ـ محاكمة الحيوان

نقلَ الدكتور صرّوف عن الرحالة الأب (يوجان) الفرنسي، أنَّ خُطّافاً بنى عُـشّاً، فرآهُ عصفورٌ، فدخَلَ إليه وامتنَع فيه عليه، فـذهب الخُطّاف، واستعانَ بِرفاقه، فجاءتْ عشراتٍ عشراتٍ، وحاولتْ إخراجَ العصفور فلم تستطعْ، لأنّه كـان مُحاطاً بالقشِّ من كلِ جانب، وكان ينقـر بمنقارِه التي تهاجمه نقراً شـديداً فيصدّها ويطردُها صارخةً من الألم، ولما أعْياها أمرُه، رجعتْ عنه، وظنَّ الناظرون أنَّ العصفور قد تغلّب عليها، ولكنّها ما غابتْ حتى رجعتْ والطينُ ملءُ أفواهها، فهجمتْ على المنفذ، وسدّتْه بالطين، لتَقتل العصفور خنْقاً جزاءَ اعتدائِه!

أَلا تذكرنـا هذه الطرفـةُ بما حكاه الجاحظ من أنَّ قبّـرةً هجمتْ حيّةٌ على أفراخِها، فجعلتْ تُرفرفُ فوقَ رأسها ومعها أشواكٌ من شجرة النّخل، فإذا فتحتِ الحيّة فمها أسقطتْ فيه شوكةً، ثم والَت العمل، حتّى امتلأَ زُور الحيّة بالشـوك ولاقتْ حتفها!

٢٣٤ ـ محاكمة الغربان

شاهد بعضُ الرحّالة في جزائر (إيسلندة) محاكمةً عجيبةً للغربان، حين عقدتْ مشهداً قضائياً لتنفيذ حكم صارمٍ على مجرم منها، فقد اجتمعتْ طائفةٌ من الغربـان على تلٍّ مرتفع وسْـطَ فضاءٍ متّسـع، وأخذتْ تتفاهم بالنظـرِ قرابةَ عدّة ساعات، وتميلُ طائفةٌ على طائفةٍ كأنّها تتفهّم عنها ما يدورُ بخواطرها، ثم انفردَ من بينها اثنـانِ في دائرةٍ تتّسـعُ حولَهما من الغربان كيلا يحاولا الفرار، وهمـا المُذنبان في رأي جماعة الغربان، وحين جاءَ وقتُ التنفيذ، تجمّعت كلُّ الطيور،

وأخذتْ تهجم على المذنبين هجماتٍ قاسيةٍ نقراً وجرْحاً وتمزيقاً حتى لَفَظَا روحيهما، وإذ ذاك تفرّق الجمعُ تاركاً الجثتين في العراء.

أما القسّ (آرمندفكس) فقد روى ما يشبهُ ذلك في مقاطعةٍ إنكليزية، حيث سمعَ نعيباً شديداً من أصواتٍ عالية، ثم مدَّ ببصره فإذا طوائفُ من الغربان تسدُّ وجه الفضاء، فوقف القسُّ بعيداً خلف شجرة ينظر ما يحدث، فشاهدَ عشراتٍ من الغربان تتجمَّعُ، وتلتفّ حتّى تكوِّنَ دائرةً، يقفُ في وسطها غرابٌ مسكين ينكسُ رأسه إلى الأرض، وينظر نظراتٍ حائرة، وكأنّ يطلبُ الصفحَ، وبعد قليلٍ وثبتْ عليه عدّةِ طيورٍ جارحة، ومزّقتْهُ تمزيقاً، ثم تفرّق الجمعُ.

يقول القس (آرمندفكس): إنّ الغراب مشهورٌ بالسرقة والاختلاس، إذ يسطو بعضهُ على عِشاشِ الكبار فيسرقها في غيبتها، ويجيء المسروق منه، فيعلمُ ما جرى له، فيُسرعُ إلى محاكمة السّارق، فإذا كانَ صغيراً نُبِّهت أمّه، وإذا عاودَ، وقع الحكم عليها، لأنها لم تهتم بتربيته الخلقية.

٢٣٥ ـ طائر اللّقلق

اللقلقُ ـ كما يقول الدميري في كتابه (حياة الحيوان) ـ طائرٌ أعجميٌّ طويلُ العنقِ، يأكل الحيّات، وفي صوته حركةٌ واضطراب، ومن ذكائه أنّه يتّخذُ له عشّينْ، يسكن في كل واحدٍ منهما بعض السنة، فإذا تغيّرَ الهواء، انتقلَ إلى العشِّ الآخر، وربما ترك بيْضَه دون أن يحمله معه.

وقد نقل الدكتور (صرّوف) عن جرّاحٍ فرنسي يقيم في (أزمير) أنّه رغب في الحصول على لقلقٍ، فلم يوفَّق، لشدة احتراس الطائر من الوقوع في يده، ثم اهتدى إلى عُشٍّ للقلقين، فاختلسَ بيض العُشّ، وأبدله ببيض الدّجاج، فلما أفرخ البيضُ، ورأى الذكر أنَّ أولاده من جنس آخر، غاب ثلاثة أيام ثم عاد مع جماعةٍ من اللّقالق أخذت تطالِعُ الفراخ الصغيرة، وتنظر إلى الأمّ، وكأنّها تستغرب، ثم وثبتْ عليها بعنف، وجعلتْ تمزّقها تمزيقاً قاتلاً، حتى فقدتْ حياتها، وكأن حكمَ الإعدامِ قد نُفِّذَ فيها لجريمة الزّنى التي اتُّهمت بها ظلماً.

وليست هذه الحادثة فريدةً، فقد روى الرحالة (ستنلي) الإنكليزي شبيهاً لها، وزادَ بـأنّ اللقالق لم تكتفِ بـإعدام الأم بل توجهتْ إلى الصغار من زُغْبِ الدجاج، فحصدتها حصداً.

٢٣٦ ـ مالك الحزين

الطائـرُ (مالكُ الحزيـن) معروفٌ في كتب التـراث، وقد ضَربَـه (بيدبا) الفيلسوف الهنديّ في كتاب (كليلة ودمنة) مثلاً للّذي يرى الرأيَ سديداً محكَماً لغيره، ولا يستطيعُ أنْ يراه لنفسه، وتعجّب من ذلك الفيلسوف الهندي، ولكنّي لا أرى وجهاً للعجب، لأنّ الذي يرى الرأيَ لغيره، لا يكونُ مهتّماً اهتماماً شديداً بالافتراضات المختلفة، والاحتمالاتِ المتوقّعة، إذ لا تَجْني العاقبةُ عليه، ولكنَّ صاحبَ المشـكلة يحذرُ العاقبة، ويفرض الاحتمالات، ويتخيَّلُ النتائجَ، وهنا يقعُ في حيرةٍ لا تمكّنه من إصدارِ الحكم الصحيح.

هذا الطائر (مالك الحزين) قد تحدّث عنه الرحالة الفرنسي (لاكوري) فذكَر أنّه كان يركب ذات يوم قارباً يمخرُ به الماءَ، فشاهدَ قريباً من الشاطئ جماعةً من طيور مالك الحزين تحدِّقُ بطائرٍ منها، وقد وقف حزيناً صامتاً، وكأنّه يرتعش، وقد ابتعدتْ عنه جماعةٌ، وتركتْ حِراسَتَه لجماعةٍ أخرى، وجعلت تهزُّ رؤوسَها، وتنظُر، وتصعِّد وتصوِّبُ وكأنها تفكّر، ثم عادتْ مسرعةً في حركة جنونيّـةٍ، وانقضّتْ على الطائر المسكين، ومزّقتْه تمزيقاً..

يقول (لاكوري) لا سَببَ لذلك كلّه، غيـر أنّ الطائر المسكين قد خالفَ شرعيةَ جماعة في موقفٍ من مواقفه، فأجْمعتْ على محاكمته، ثم اتّضح لها بعد المداُولة صحةَ اتهامه فقامتْ بالتنفيذ.

٢٣٧ ـ نتيجة واضحة

والنتيجـة الواضحةُ لكلٍّ ما تقدم هي ما قـرّره صاحبُ كتاب (فصول في التـاريخ الطبيعي) حيثُ قال: لقدْ تمكّنتْ طوائفُ الحيوان من مغالَبةِ الطبيعـة

بواسطةِ تعاونها وتناصُرِها، وكلُّ نوعٍ خالفَ ذلك النظام عادَ أمره إلى الانقراض، وكلُّ نوعٍ اجتهد في تطبيقه زادَ ونما وازدهر، فمهما كثُر عددُ اللقالق والبجعِ فكلٌّ يرجعُ إلى وكره، ولا يَعتدي على جارِه، فإذا اعتدى عصفورٌ على عُشّ عصفورٍ آخر، وسَرَقَ منه قشّةً، اجتمعتْ عليه العصافير، وزجرتْه عن غيِّه، وهكذا لكلّ عصابةٍ من عصائبِ الطيور، مَقرٌّ خاصّ تبني فيه أوْكارَها، ومقرٌّ خاصّ تصيدُ فيه، ولا يمكن أن تتعدّى عصابةٌ على مكانِ عصابةٍ أخرى، وهذا التناصرُ قد ربّى في الحيوان الأعجم عاطفةَ الحبّ والنجدة، فترى أنثَى الحيوان الأعجم ترأَم ولدها، كما ترأَمُ الأمُّ الحنونُ طفلَها الرضيع.

وكثيراً ما نرى الحيوانات تعطفُ على المصاب منها، وتسعى له في الطعام والشراب، فقد ذكر الرحالة الشهير (برهم) أنّه رأى غرابيْن يُطْعِمان غراباً ثالثاً وقعَ في جوف شجرة مكسورَ الجناح، فأخذا على عاتقيْهما أنِ يُطعماه حتّى يستردَّ قوتَه.

ولا أدْري أين قرأتُ ما يُشبه هذا، حين شُوهدَ كلبٌ يحملُ كلَّ يومٍ رغيفاً، ويذهبُ به إلى مكانٍ آخر، فتبعه صاحبُه، فوجدَه يحملُ الطعامَ إلى كلبٍ ضَريرٍ كسيحٍ.

٢٣٨ ـ محاكمة الإنسان للحيوان

على أنّ الطريف حقاً ما دوّنه المؤرّخون عن محاكمةِ الإنسان للحيوان في التاريخ القديم، فقد قرأتُ فصولاً تتحدّثُ عن هذه الغرائِب، ومن بينها ما كتبهُ الدكتور (عزّ الدين فراج) حيث قال تحت عنوان (الفئران متّهمةٌ أمام القضاء).

عُثِرَ على بعض الوثائق تُشير إلى محاكمةِ طائفةٍ من الفئران في بلدة (أوتون) في القرن الخامس عشر، بتهمة التجمهر في شوارع القرية بشكلٍ مزعجٍ للراحة، وتقدّمَ للدفاع عنها (شاسانيه) المحامي الفرنسي الذي نال شهرةً واسعةً بسبب هذه القضية، فقال: «أطلبُ التأجيل، لأنّ الفئران لم تتمكنْ من الحضور، لأنّ فيها الرضيع والمريض والعجوز، فوافقتِ المحكمةُ على التأجيل، ومَنحت الفئرانَ مهلةً، لكي تستعدّ للحضور، ولما حلَّ ميعاد نظر القضيّة، دفعَ محامي المدّعى

عليها بدفعٍ جديد قال فيه: «إنّ الفئرانَ تُذعِن لأوامر القضاء، ولكنّها تخشى هجوم القطط»، فقالَ القاضي: «من الواجب تأمين المتّهم على حياته»، فردَّ الدفاعُ قائلاً: «لهذا نطلب من المحكمة أن تأمرَ بحبس القطط قبلَ انعقاد مجلس المحاكمة، لنكونَ مطمئنّين على حياة الفئران» وقد وافقتْ المحكمةُ، ولكنّ أهل القرية رفضوا التنفيذ، فاضطُرت المحكمةُ إلى أن تحكم ببراءةِ الفئران، لأنّها حُرِمَتْ وسائلَ الدفاع المشروعة.

هذه قصّة عجيبة سجّلتها الوثائق، وما أعلّق عليها إلا بافتراضِ أنّ أهلَ القرية قد انزعجوا من كثرة الفئران، وقرروا إبادتها، فقامَ فريقٌ منهم يعارض الإبادةَ، واستدعى الأمر إلى رفع المسألة أمام القضاء، وكان المحامي الكبير (شاسانيه) في صفّ الذين يرون عدم الإبادة رعايةً لبعض المعاني الخُلقيّة، وانتهى الأمرُ بعدم الإبادة! هذا ما أتصوره أنا شخصيّاً!

وهناك محاكمةٌ شهيرةٌ وقعتْ في فرنسة (لِديكٍ) زعمَ صاحبُه أنّه باض بفعلِ السحرة، وكان حديثُ السحرة يملأُ الأذهان في تلك الأيام، وقد تولّى الدفاع عن الديك مُحامٍ قال في مرافعته «كيفَ يكونُ الديكُ مسؤولاً عن واقعةٍ لا حيلةَ له فيها، ولكنّ الحكمَ صدرَ ضدّ الديك فذُبح».

وهناك محاكمة ثالثةٌ وقعتْ في فرنسة سنة ١٥٤٥، إذ رفعَ أصحابُ مزارع القصبِ بمقاطعة (سان جوليان) قضيةً على حشرات السوس، بتهمةِ إتلاف الكروم والأشجار، وظلّت القضية تنظر قرابة أربعين عاماً!!

٢٣٩ ـ حكمة

وما الإنسانُ والحيوانُ إلاّ قريبٌ ـ حينَ تنظرُ ـ مِنْ قريبِ

* * *

وقفات شعرية

٢٤٠ ـ الجارمُ سَترَ مِصْر!

كان أستاذي الكبير (محمد هاشم عطية) أستاذ الأدب العربي بكليتي دار العلوم واللغة العربية، كثيرَ الحديث في جلساته عمّا شهدَه من المحافل الأدبيّة في مصر، وله شذورٌ لطيفةٌ عن (حافظ) و(شوقي) و(المنفلوطي) و(البشري) و(حفني ناصف) و(الجارم) و(محمد الخضري) وغيرهم من أساتذةِ الأدب وأعلامِ الجيل، ولو أتيحَ لهذه الذكريات التي سمعناها منه أن تسجَّلَ لأحيت عصراً حافلاً برموزه الكبيرة، ولكن أحاديثَ المجالس الأدبية تمضي دون تدوين، كما يهبُّ نسيمٌ من الروض ينعِش النفسَ لحظات وينقطع.

كان الحديثُ يدورُ حول الأستاذ (علي الجارم) ومنزلته الأدبيّة في مصر، والأستاذ هاشم ـ لشيءٍ لا أعلمه ـ لم يكن من المعجبين بالجارم، لأنّه يُقارنه دائماً بشوقي، وكنتُ أناقشه كثيراً حولَ منزلة الجارم الأدبيّة، وأذكرُ أنّه احتدَّ عليَّ مرةً. وقال: أتُراني أجهلُ مكانةَ الجارم حتى تُحاولَ أنْ تعرّفني به: إنّ للجارم موقفاً خالداً في نفسي لا أستطيعُ أن أمحوَ أثره مهما تطاولتْ عليه الأيام:

اشتقتُ أن أسمعُ حديث الأستاذ عن الجارم فقلتُ: بربّك أسعفْني بما لديك، فابتسمَ هاشم ابتسامةً يملأ ضياؤها وجهَه الأسمر حين يبتسمُ، ثم قال بعد أن تَلألأ بريقُ عينه كعادته:

حين مات أميرُ الشعراء أحمد شوقي أُقيمت لتأبينه حفلةٌ كبرى بدار الأوبرا الملكية، حضرها نفرٌ من شعراء البلاد العربيّة وكتّابها، وقد افتُتِحَتِ الحفلة بكلمة لكاتب مصريٍّ لم تكن موضع الاحتفال، وقام الشاعرُ اللبناني الكبير (بشارة الخوري)[1] فألقى قصيدةً رنّانةً، كان لها دويٌّ هائل، وهي قصيدته الشهيرة التي مطلعُها:

---

(١) الأخطل الصغير. (الناشر).

قِفْ في رُبا الخُلْدِ واهتفْ باسمِ شاعِرِهِ　　فَسِـدْرَةُ المُنْتَهى أدْنى منابِـرِه

وقد لاقتْ تصفيقاً حاراً لا سيّما حين تعرّض الشاعرُ لمديح مصرَ نفسها، فقال فيما قال:

يـا مصرُ ما وقعتْ عينٌ على حَسَنٍ　　إلاّ واطلعتِ ألْفاً مِنْ نظائِـره

وجرى على هذا النحو مع سمّوٍ في التصوير، وجودةٍ في التعبير، وارتفاع في الخيـال، ثم قامَ الدكتـور (منصور فهمي) فألْقى كلمةً تكادُ تكونُ أكاديميةً متخصّصةً، إذ قَصَرها على الفلسفة في شعر شوقي، فلم يكنْ لها حظٌّ وافرٌ من الارتياح، وتلاهُ الأستاذُ (أنطون الجميّل) فأتى بالبدع الساحر في حديثه عن شوقي تحليلاً ووصفاً واستشهاداً، وغَمرَ الجوَّ شعورٌ بالحسرةِ على مكانةِ مصر، إذ تفوّق بشارة الخوري وأنطون الجميل على صاحبيْهما تفوُّقاً طامَنَ من الكبرياء الأدبيّة لأبْناءِ وادي النيل، ولكنَّ الجارم نَهض بعدَ ذلك، فألْقى أروعَ قصيدةٍ قيلتْ في شوقي ومطلعها:

هـل نعيْتُـم للبحتـريِّ بيـانَـهْ　　أو بكيتُـمْ لِمعْبَـدٍ ألحـانَـهْ

فنَقلَ الحَفل جميعَه من جوٍّ إلى جوٍّ، وبَلغَ حدَّ الإبداعِ في قوله:

كَـمْ يتيـمٍ مـن المعـاني غـريـبٍ　　مُسحـتْ كفُّـه عليـه فصـانَـهْ
ونفـورٍ أزْرى بصيّـادهِ الطّـب　　وأعْيـا قسيـهُ وسِنـانَـهْ
نظـرةٌ تلتقـي بـه ينهـبُ الـواد　　ي وأُخْـرى تـراه يطـوي رِعـانَـهْ
تَسبُـق السّهـمَ عينُـه فتـراه　　يتلـوَّى تلـوِّيَ الخَيْـزُرَانَـهْ
ثـم يَخفـى فـلا تـراهُ عيـونٌ　　ثـم يَبْـدو فـلا تشُـكُّ عيـانَـهْ
أَجْهـدَ الفـارسَ المُلـحَّ وأفْنـى　　نَبْلَـهُ حـولَـه، وأضْنـى حصـانَـهْ
وهو يعدُو لا الرأسُ مالَ من الأين　　ولا قَبلَـه شكـا خفقـانَـهْ
مـدَّ شـوقـي إليـه نظـرةَ سحـرٍ　　عَـوّقـتْ دُونَ شَـوْطِـهِ جـريـانَـهْ
فـأتَـى مِشيـةَ المقيَّـدِ يَسْعَـى　　بيْـن هـولٍ وذِلّـةٍ واستكـانَـهْ

ومضى الشاعر في هذا التصوير الرائع منتقلاً من خاطرٍ إلى خاطرٍ، حتى قال:

عـالِمٌ بـالنفـوسِ مـا غـاصَ مَيْـل ... فـي خفـايـا النفـوسِ حتّـى أبـانَـهْ
أودعَ الـدهـرَ مِسمعيْـه عـن الكـونِ ... حـديثـاً فلـم يُطِـقْ كتمـانَـهْ
ذاكَ سـرُّ الإلـه يختـصّ مَـن شـا ... ءَ بـآثـارِ فضلِـه سبحـانَـه

وهنا صاح الأستاذ البشري هاتفاً: هذا أبدعُ ما يقال!! الجارمْ سَتَر مصر!! ورنَّتْ كلمة البشري بين السامعين (الجارمْ ستر مصر) فأحدثتْ تصْفيقاً جديداً في الحفل، وكأنّها بيتٌ شعريٌّ رائع..

٢٤١ ـ الخروج عن الموضوع

قلتُ: إنّ بشارة الخوري، قد خرج عن الموضوع الأصلي وهو تأبين شوقي إلى الحديث عن مصر بنوعٍ عام، فأصابَ ارتياحَ الجمهور، حين قال:

يا مصرُ! ما انفتحتْ عينٌ على حَسَنٍ ... إلاّ وأطلعـتِ ألفـاً مـن نظـائـرِه
ولا تفتّقـتِ الأفكـارُ عـن أدبٍ ... إلاّ وأنْبتـت روضـاً مـن بـواكـرِه
لبنـانُ يـا مصـرُ مصـرٌ فـي مـآتِمِـه ... كمـا علمـت ومصـرٌ فـي بشـائـرِه
هـل كـان قلبُـك إلاّ فـي جـوانحِـه ... أو كـان دَمْعُـكِ إلاّ فـي محـاجِـرِه
أو كـان مَنْبـت مصـر غيـر منبتِـه ... أو كـانَ شـاعـرُ مصـرَ غيـرَ شـاعـرِه

وهو خروجٌ لايُعّد نشازاً، لأنّ الجوَّ الخطابي في محادثة الجمهور المتلقّي يفسحُ لهذا الاستطراد، ويُحلّهُ المحلَّ اللائق، وليس (بشارة الخوري) بواحدٍ في ذلك، فكثيرٌ من شعراء النهضة ينهجون هذا النهج، أذكر أنّ الشاعر اللبناني الكبير الأستاذ (شبلي ملاّط) كان قد وَفدَ إلى مصر في مناسبةِ مُبايعة شوقي بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ أي قبل قصيدة الرثاء بخمس سنوات، فألقى قصيدةً ضافية بهذه المناسبة، لم تقتصرْ على مُبايعة شوقي بإمارة الشعر بل تعدّتها إلى الحديث عن مصر أولاً، ثم عن العرب والإسلام ومحمّدٍ ﷺ ثانياً، وقد هزّ الشاعر الكاثوليكيّ

الكبير قلوبَ السّامعين حين تعرَّض لنبي الإسلام وعهد الخلافة الزاهر، وعصر العرب بالأندلس، فأطربَ وأمتعَ حين قال:

مَنْ للـزمـانِ بمِثْـلِ فَضْـلِ مُحمَّـدٍ ... وعـدالـةٍ كعـدالـةِ الخَطّـابِ
رفـع الـرّسـولُ عمـادَ أمّـةِ يَعْـرُبٍ ... وأعـزَّهـا بـالأهـلِ والأصحـابِ
غَشـتِ الفتـوحُ وصفّقـت رايـاتُهـا ... فـي الشـرقِ فـوقَ أبـاطـحٍ وهِضـابِ
حـيٌّ الجـزيـرةَ فـي مسـارحِهـا ومـا ... فـي الـريـفِ مـن ريٍّ ومـن إخصـابِ
واسمـع فـديتُـكَ نبـرةً مضـريّـةً ... عـربيّـةً فـي منطـقٍ خـلّابِ
واستنشـدِ القـرآنَ قَـوْمـاً جـوَّدوا ... منـه بـآيٍ فـي النفـوسِ عِـذابِ
واقـرأ بـه فُصْحـى اللّغـاتِ مـدّلـةً ... فـي المشـرقَيْـن بجـوهـرِ الأحسـابِ
لـولا يـدُ الإسـلامِ لـم تسلـمْ بهـا ... فيهـا مـنَ الأخـلاقِ والآدابِ
مَن لم يَصُن لغةَ الجدودِ فليسَ في ... قـوميّـةٍ تُنميـه لـلأنْسـابِ

والمعاني جيّدة، وقد قالت الصحف في تقريظ قصيدة شبلي ملّاط: إنها قصيدةُ الحفل، مع أنّ ما قيلَ فيه من الشعر كان رفيع المستوى، قاله أمثال (خليل مطران) و(حافظ إبراهيم) و(محمد عبد المطلب).

٢٤٢ ـ من قصيدة لحافظ إبراهيم

وفي موقفٍ آخر طُلِبَ من (حافظ إبراهيم) أن يُنشدَ قصيدةً في حفلةٍ أقيمت لتكريم (عدلي باشا يكن) و(عدلي باشا) رجل عظيم حقًّا، ولكّنه كان خصماً لزعيم الأمة (سعد زغلول) وحافظٌ يحبُّ سعداً، ويعلمُ أنّ كلَّ ما يقال في مدْح نظيرِه لا يُقابل في الجمهور بالاستحسان! وهو يعدُّ موظفٌ حكومي، وقد طُلِبَ منه أن يقولَ قصيدةً في صاحب الاحتفالِ، وإذا كان لا بدَّ من الثناءِ على عدلي، فليَقتصِد الشاعرُ مراعاةً لحرجِ الموقف، وليلجأْ إلى الاستطراد مبتدئاً بمدح مصر، فمُطيلاً في وصْف تاريخها القديم، ثم يلمُّ بعدَ هذه الجولة الشاسعة بالدعوة إلى الوئام، ونبذ الخلافِ، ومراعاةِ التسامُح في قبول الآراء المختلفة، فلكلٍّ وجهة، والخطأُ غير مقصود، هكذا تخلّص شاعرُ النيل تخلصاً فريداً، وقد حازتْ قصيدتُه

قبولَ الشعب، وظلّتْ تتردّدُ على الأفواهِ حتى أنشدتها (أمُّ كلثوم) في حفلٍ غنائيٍ، وفيها يقولُ على لسان مصر:

وقفَ الخَلْقُ ينظرونَ جميعاً ... كيف أبني قواعدَ المجدِ وَحْدي
وبناةُ الأهرامِ من سالفِ الدّهر ... كفوني الكلامَ عِندَ التحدي
أنا تاجُ العلاء في مفْرق الشرقِ ... ودُرّاته فرائِد عقدي
أيّ شيءٍ في الغربِ قد بَهرَ الناسَ ... جمالاً، ولم يكنْ منه عندي
أنا إنْ قدّر الإلـه مماتي ... لا ترى الشرقَ يرفعُ الرأس بعدي
ما رَماني رامٍ وراحَ سليماً ... مِن قديمٍ عنايةُ اللهِ جُندي
كم بَغَتْ دولةٌ عليَّ وجارت ... ثم زالَتْ، وتلك عقبى التعدّي

٢٤٣ ـ نوح العندليب

هو ديوان شعريٌ رائع لشاعر الشام الكبير الأستاذ (شفيق جبري)، وممّا يحوي قصيدة في رثاء الشاعر الشاب (هاشم الرفاعي) وقد قال الشاعرُ عن هذه القصيدة، إنّه جاءتْه برقيّةٌ من مصر يدعوه رئيسُ المجلس الأعلى للفنون والآداب ليشاركَ في تأبين الشاعر هاشم الرفاعي، فأدركتْه الحَيْرَةُ، لأنه لا يعرفُ شيئاً عن الفقيد، وقد ذهب إلى السفارة المصريّة في دمشق يسألُ عن الشاعر، فلمْ يظفر بردّ، وكلّ ما عرف عن الشاعر أنّه شابٌ كانَ قد قدم إلى دمشق، وألقى بها قصيدةً، فبحثَ شفيق جبري عن القصيدة وقرأها، وَوَجد فيها روحاً وطنيةً خالصةً، فصمّم على أن يشيد بهذه الروح، وذلك لا يكفي لِملء الموقف المهيب في حفْلٍ يضُمّ كبار الشعراء في مصر، وإذ ذاك تذكّر أنّ الشاعر شابٌ لم يهنأْ بالحياة، وفي الحديث عن الشباب الغارب ما يملأُ الخواطرَ بالأفكارِ اللاهبة، وهكذا تخلّص شفيق جبري من حيرته، ونظم قصيدةً بارعةً قال فيها:

يا زهرةً لو أُمْهلت ... ملأت نوافحُها الرحابْ
ما زينةُ الدنيا إذا ... جفّ الصِّبا، وخَبا الشهاب
ولساعةٌ مِنْهُ أحبُّ ... إليَّ مِـ ن مُلْك الركاب

الشعرُ ناسبَ بيننا ... إن لم يكنْ نسبٌ قراب
فتحتْ علَيّ جراحه ... لمّا أمَضَّت كلَّ باب
لم يبقَ من ماءِ الشبا ... بِ وقد جرى إلا السّراب
ملّيتُه كهْلاً ولم ... أنعمْ به غَضَّ الإهاب
فإذا بكيتُ، فقد بكيتُ ... بهِ لياليَّ العذاب
الدمعُ دمعي إنْ هَمَى ... والجرحُ جُرحي إن أذاب

٢٤٤ - بيت رائع

يقول أحد الشعراء:

فليتَ الباكياتِ بكلِّ أرضٍ ... جُمِعْنَ لنا فَنُحْنَ على الشبابِ

* * *

في عالم الأرواح

٢٤٥ ـ ويسألونك عن الروح

نعرف بحوثاً ضافية عن الروح في عالم الغيب قام بها أساتذةٌ كبار في جامعات فرنسة وإنكلترة وأمريكة، ومنهم (روسل) و(وليم كروكس) و(أوليفر لودج) وغيرهم وفيهم نفرٌ من رؤساء الجامعات، وأقطاب البحث في علوم الطبيعة والكيمياء والفلك، وكان المعقول أن نقرأ ما كتبه هؤلاء الكبار، ولا نسارعُ بالتكذيب وادّعاء الدجل والشعوذة، لأنّ هذا النفر من كبار أقطابِ العلمِ الحديث، لا يبغونَ غير البحث عن الحقيقة، ولَنْ أجبر القارئَ على تصديق كلّ ما يقال، بل أدعوه إلى أن يقرأَ في تؤدة ثم يصدر حكمَه بإمعان، والمادّيون من فلول الماركسيين وأشياعهم يحاربون هذا الاتجاه، لأنّهم لا يؤمنون بأنّ الإنسان مركب من روح ومادّة، بل هو جسم ينفعل بمؤثراته التي تهمّد داخله، فيهمد بنفادها! أما المؤمنون فعليهم أن ينظروا للأمر نظرة جيّدة، لأنه يخدم قضية الإيمان بالله وباليوم الآخر، والقولُ بالشعوذة والدجل ينطبق على الجهلة من أدعياء الكشف والولاية الكاذبة، ولكنه لا يمكن أن يُوصَم به نفر من رؤساء الجامعات في أرقى معاهد العلم، فهم بحصانتهم العلمية فوقَ الشبهات.

مرةً أخرى أقول: إنني لستُ داعيةً لمذهب، ولكني أدعو القارئَ إلى أن يبحث ويتأمَّلَ قبل أن يسارعَ بالرفض.

٢٤٦ ـ ظاهرة متكررة

نشهد أناساً من المُحْتضرين في ساعاتهم الأخيرة يهتفون بأسماء موتى رحلوا من قبلُ إلى عالم الغيب، ويتحدّثون عنهم كأنهم أمامهم، يرونهم رأي العيان، والعامةُ تقول لمن يتذكر الموتى: إنّه دَخلَ في الديوان، ومَعْنى ذلك أنّه

اتصل بقوم غير قومه من الراحلين، وهذه الظاهرة ليست في البيئة العربية وحدَها، ولكّنها تكررتْ دوماً في البيئات الأوروبيّة، واضطر الكبار من العلماء إلى بحث هذه الظاهرة، ومحاولة تعليلها، وهذا ما سأعرِضُ له.

والذين ينكرون أن تَحْضَّر أرواح هؤلاء الموتى يقولون: إنّ الحالة النفسيّة للمريض المحتضر تجعلُه يفكّر فيمن سبقوه إلى علم الغيب، وبدوام التفكير في هؤلاء الراحلين، تختلِطُ حواسّهُ، فيتخيّل حضورَهم، وينادي بأسمائهم التي تذكرها، فالمسألةُ منبعثة من العقل الباطن فحسب، وذكرياتُ المريض هي التي تتمثّل له في صورة أشباح فهو من هذه الناحية كالنائم الذي يحلم، فيرى في الحلم أناساً لا حقيقة لوجودهم في عالم الواقع، هذا ما يقوله المفكرون.

ولكن تكرار هذه الظاهرة بإلحاح، قد دفع كثيراً من العلماء إلى الذهاب إلى المستشفيات العامة، لرؤية المرضى المحتضرين وتسجيل ما يقولون، مع أنّ رؤية المحتضر وما يعاني من هول الاحتضار لا تَبْعثُ القدرةَ على البقاء المتكرّر لهذه المسألة إلا لَدَى أفراد ذوي أعصاب قويّة، وقد وَهبوا أنفسهم للبحث العلمي، متحمّلين ما يلقون في سبيله من عناء، ليصلوا ما يريدون من تمحيص الحقائق وقد وصلوا.

٢٤٧ ـ السير وليم باريت

السير (وليم باريت) أحدُ العلماء الإنكليز الذي شغفوا بالبحوث الروحية، وقد أَخذَ على نفسه عهداً أن يدرس مئات الحالات الخاصّة بالاحتضار، فكان يكتب لأصدقائه من أطباء المستشفيات ليسْتدعوه لمشاهدة نفرٍ من المحتضرين، وإذا تعذّر حُضُورهُ كَتبوا له كلّ ما يقوله المحتضر في مذكراتٍ أَخذ يفحصها مع زوجته العالمة (ليدي باريت)، وقد تمّ له جمع عدد كبير من الحالات، كتب عنها سفراً حافلاً، وقدّمه إلى جمعية البحوث الروحية بلندن، ثم أذاعه على القّراء في كتابٍ مطبوع، وفيه وصفٌ دقيق لكلّ حالة شاهدها، وقد قال عن كثيرٍ من هؤلاء: إنّ أحدَهم ينْسى آلامه فجأةً، ويتهلّلُ وجهُه، ويقول: ماذا أرى؟ أهذا أنتَ يا فُلان، لَقد جئْتَ لتصحبني!!

وأكبرُ دليلٍ اعتمد عليه المؤلف في هدم التفسير النفسي الذي يجعلُ العقلَ الباطِنَ سبباً لهذه الأقوال هو أنّ بعض المحتضرين كاد لا يعلم بوفاةِ مَن حضروا إليه، فيُدهَشُ المريض، ويصيحُ أأنتَ هنا؟ إذ كثيراً ما يكون المريضُ قد أقامَ طويلاً في المستشفى، وماتَ أحد أقربائه، ولم يُعْلِمْهُ أحدٌ بموته كيْلا يتأثر بفراقه، فتتضاعف آلامه، ثم يُفاجأُ المريض برؤية روحه وقد خفَّت إليه، فيقول لمن حوله: لماذا لم تُخْبروني بأنّ فلاناً قد مات!

٢٤٨ ـ نصّ صريح

كتب الأستاذ (عبد الغني علي حسنين) تلخيصاً لمضمون كتاب (السير وليم باريت) وبه هذا النص القاطع:

«وإني أورد حالةً من هذه الحالات، اختَرْتُها لا لأنها مؤثرة، بل لأنّ فيها جميع العناصر التي يتطلّبها البحثُ، إذ إنّ طفلةً في الثامنة من عمرها تُدعى (جيني) لها صديقةٌ في مثل سنها تُدعى (أُدِيث) وقد مَرِضت (جيني) ونُقلت إلى المستشفى، وفي أثناء مرضها تُوفيت (أُديث) فجأةً، وكُتِم الخبر عن جيني، فلما جاءَ الموت يطلبُ (جيني) صاحت في دهشة: انظُروا هذه هي (أُديث) إنها تقول: إنها ستكون معي، لماذا لم تخبروني بذلك؟

يقول المؤلف: تدلّ الظواهر على أنّ المحتضر يُدرك أنّ في الحجرة طائفتيْن من الناس، الطائفة المعتادة من أهل الدنيا، وطائفة أُخرى من عالم الغيب، لا تقلّ وضوحاً لديه من الطائفة الأولى، ومثلُ هذه الحالات تضطّر الإنسان إلى التسليم بالغَرْض الروحي، حتّى إنّ البروفسور (شارل ريشيه) لم يجد بدّاً من التسليم بأنَّ نظريّتهُ عن الحاسّة السادسة لا تكفي لتعليل هذا النوع من الظواهر، والبروفسور (شارل) أستاذٌ فرنسي شهير من علماء الفسيولوجيا، كان يشتغل بالبحوث الروحية، ويُعلّلها بافتراضِ حاسّةٍ سادسة تَتنبأُ بالغيب، ولكنّ هذا الافتراض يعجزُ عن تعليل هذه الحالات التي تُثْبت رؤية أناس لا يعرف المحتضر شيئاً عن ارتحالهم السابق، ويفاجأ بأرواحهم الشفافة تخفُّ لاستقبالِه، فيتساءَلُ دَهِشاً.

٢٤٩ ـ قصّتي العظمى

اسمُ كتابٍ ألّفه نقيبُ الصحافة في إنكلترة (هانْن سوافر) وترجمهُ القانوني الكبير الدكتور (رؤوف عبيد) وكيل كلية الحقوق بجامعة عين شمس سابقاً، ومؤلف الكتاب كان يُنكِرُ حدوث أيّ اتصال بالعالم الآخر، ويُعارِضُ في تهكم مَن يقومون بالوساطة الروحية بين الميت والحيّ، ثم حدث أنْ تُوفي صديقُه وأستاذُه (نورث كليف) ملكُ الصحافة في عصره، فرأى أن يجرّب الاتصالَ به عن طريقِ وسيطٍ روحي، وفُوجئ (هانن سوافر) بأحاديث صديقه، وقد أَخْبَره عنْ أمورٍ لا يُمكن أن يعرفها غيرُه، إذ كانتْ سرّاً بينهما، لا تدرى الوسيطةُ عنها شيئاً، ومِن هنا آمن (هانن سوافر) بأنّ العالم الروحي موجودٌ حقيقة، وأنَّ عليه أن يُسهم في البحوث الروحيّة، فافتتح دائرةً للوساطة في منزله، ونَشَر عدّة مؤلفات تتضمن حالاتٍ كثيرة لأرواح شاءتْ أن تتصل بأقاربها، وأن تخبرهم عن أشياء خاصّة في أماكن معينة، وكأن ما تُخبر به الأرواح يجد تحقيقه الواقعي، وقد أراد (سوافر) أن يكتبَ قصّــةَ حياته، وأن ينشــر بعض الأحاديث التي وردت من عالم الغيب وثبت واقعها الملموس، فألف كتابه (قصتي العظمى) الذي أنقل منه هذه النادرة:

لَقَدْ قالت الوسيطة ذات يوم لأصدقائها في المجلس الروحي: «أمامي روحُ فتاةٍ ترجو ملحّة أن أتصل بوالدتها» فَوافَق الحاضرون على الاستماع إليها، فقالتِ الروح: «اسمي (ببسي مانِنْج) وأودُّ أن أبعثَ برسالةٍ خاصة إلى والدتي، وهي تسكنُ في المنزل رقم ١٤ شارع (كانتربري) في (بلاك بورن) لأني تُوفيتُ في عيد الفصح الماضي مصابةً بالتدرّن الرئوي، ومن قبل ذلك توفي أخي في حادث سيارة، وهو معي الآن، ويَحزَنُ شديداً حين يرى والدتي لا تزالُ تبكي علينا معاً».

وبعد يوْمين أرسل (هانن سوافر) برقيةً بعنوان الأم، ضمّنها كلَّ ما قالت الروح، فجاءَ الردُّ يقول: لا يمكنني أن أعبّر عن سعادة نفسي ببرقيتكم، فقد كِدتُ أقفزُ إلى الشارع من شدّة فرحي، وكنتُ أبكي وأضحك في آن واحد، وهذه البرقية تُســاوي عندي ذهبَ الأرض كلّه!!! صحيحٌ أنّ ابنتي ماتتْ في يــوم عيد الفصح

الماضي، وأنّ ابني مات قبلها بتسع سنوات في حادث سيارة»، فهل يمكنني أن أتصلَ بهما؟

رأت جمعية (هانن سوافر) أن تستدعي الأم على نفقتها، لأنّها كانت فقيرة، وجاءت روح البنت، وكان مما قالت: «إني أذكر يا ماما كيف كانت وفاة أخي صدمةً كبيرةً لك، هو معي الآن فلا تجزعي» فخرجت الأم مرتاحة!

وبهذه المناسبة أذكر أنّ العلامة الروحي العميق الأستاذ (محمد فريد وجدي) صاحب كتاب (على أطلال المذهب المادي) بأجزائه الثلاثة، قد نَشَر في مجلة (الأزهر) في سنوات ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١، فُصولاً متتابعة تتضمّنُ أمثال هذه الجلسات الروحية، ليكون القرّاء على بينة مما يحدث في الدوائر الروحية بأوروبة، وليسَ الأستاذ وجدي مشعوذاً أو دجالاً، ولكنه باحثٌ يبذل ماله وجهده وعَرقه في اكتشاف المساتير المجهولة! وقد كان يتحدّثُ لنا عن الموت، وكأنه سَفَرٌ إلى دولة مجاورة قريبة؛ ويعجَبُ لن يستهولونه ويخافون من وقوعه! لقد هوّن الموت علينا كثيراً . .

٢٥٠ ـ إلى اللقاء لا وداعاً

وهذا عنوان الكتاب الذي ألّفه (والتربليارد) المحلّف القضائي بإنكلترة، وفيه يُعلن عن تجاربه الروحية التي تثبت أنّ الموت ليس الفراق الأخير، وإنّما وراءه لقاءٌ محتوم، وكانت زوجتُه تعاونه على بحوثه الروحيّة، وقد وصلت إلى مستواه العلمي في هذا المجال. ثم سبقته إلى عالم الخلود، فكانت روحها تزورُه وتكلّمه بلسان الوسيط، وهو متأكد تماماً من صوتها واتجاهها الفكري فيما تتحدّثُ عنه، وقد قالت له: إن شاباً منذ ثلاث سنوات مات بمرض ذات الرئة في مستشفى (كذا) وذكرتِ الاسمَ، وكان يسكن في منزل رقمه (١٨) بضاحية (كلايف رود)، وقد تركَ حبيبتَه واسمها (مس كارول) تسكنُ في منزل رقم (٢٢٩) بناحية (فلينت ستريت)، وهو يرجو أن يبلِّغها الزوج شوقه وسلامه، كما يرجو أن يُخبر أباه أنّ أمّه معه، وهي تهدي إليه تحيتها القلبيّة.

قام الزوج وسار متجهاً إلى رقم (٢٢٩) فلينت ستريت، وطرق الباب. فلما فُتح ظهرت من ورائه شابة فسألها: هل أنتِ (مس كارول)؟ فأجابت: نعم، فقال لها: هل تعرفين شاباً اسمه (آرثر فريزر) فقالت دهشةً: ماذ تعني؟ وماذا تبتغي منه؟ لقد كان حبيبي، ومات بذات الرئة منذ سنوات، ثم أجهشت بالبكاء، وذهبت إلى منضدة في وسط الغرفة، ألقت عليها ذراعيها، وظلّت تبكي فأخذ المؤلف يُهدئها، ويذكر لها صلته بالعالم الروحي عن طريق الوسيط، وأنه يحمل رسالة تحيةٍ إليها.

ثم أرشدته الشابة إلى منزل والد (آرثرفريزر) فسأله: هل لك زوجة ميّتة؟ فقال: نعم، قال: وهل فقدت ولداً مات بذات الرئة؟ قال نعم؟ قال: وهل كانت له حبيبة تسمى (مس كارول)؟ قال نعم! فقال الزوج: أحمل رسالة من عالمه الروحي إليك، وهو يبلغك سلامه؟.

اطمأنّ المؤلف إلى صحة الأنباء، ثم اتجه إلى المستشفى الذي مات به المريض، ورجا القائم على الدفاتر الخاصة بالموتى أن يقرأ سجلّ الراحلين منذ ثلاث سنوات، فجاء بالسجل، وأخذ يبحث معه فوجد ما يأتي:

الاسم: آرثرفريزر

العمر: ٢٣ سنة

المرض: ذات الرئة

التاريخ: ٢١/ ٩/ ١٩٢٠

هنا زال كل هاجس يبعث على الشك، وخرج المؤلف سعيداً بما وصل إليه من النتائج، مرةً ثانية أقول: إن هذه حقائق تزيدُ المؤمنين إيماناً، وأنّ المنكرين لا يملكون دحضها أمام الدلائل الصادقة.

٢٥١ ـ من تاريخ الصحابة

صديقي الأديب العالم الأستاذ (محرز أحمد خفاجي) المدير بوزارة التربية والتعليم سابقاً روى أنّ زوجته الراحلة وهي من ذوات الفضل الواسع، إذ كانت

تبسط كفّها بالعطاء الجزل لمن تعرف ومن لا تعرف، وقد لقيت ربها صابرة على المرض، مع تقوى وإيمانٍ لا يُحدَّان.

روى أن الفقيدة جاءت في المنام لأختها، وأخبرتها أنّ بالدور الأول من المنزل كيساً مليئاً بالسكّر، وتودّ أن يُفرّق صدقةً على الفقراء من الغد، وكان أهلُ البيت جميعاً لا يعلمون شيئاً عن هذا الكيس، فنهضوا إلى المكان المشار إليه، فوجدوا السكر كما وصفتِ الراحلة الكريمة، وقاموا فوراً بتوزيعه، وهم يتعجبون لصدق الرؤيا، لأن الأخت تُقيم في قرية بعيدة ولا تعلم شيئاً عما في المنزل!.

ذكرّني هذا الحادث بما قرأتُه في كتاب (لباب الآداب) للأمير (أسامة بن منقذ) حيث قال:

في حرب اليمامة كان (ثابت بن قيس) رضي الله عنه يُقاتل المرتدين تحت راية خالد بن الوليد، ورُزق الشهادة، وكان على صدره درعُ نفيسة كانت لآبائه، فمرّ به رجلٌ من الضاحية، فأخذها منه وهو قتيلٌ، فجاء ثابت إلى بلال بن رباح في منامه وقال له: يا بلال! إنّي أوصيك بوصيـة، فإيّاك أن تقول: هذا حُلم فتضيّعها، إني لمّا قُتِلتُ بالأمس جاء رجلٌ من ضاحية نجد، وعليَّ درعي فأخذها، وأتى بها منزلـه، فأكفأ عليها بُرمـةً، وجعل على البرمـة رحلاً، وخبـأه في أقصى العسكر، وإلى جانب خبائه فرسٌ، فأتِ خالد بن الوليد فأخبره، فليبعث إلى درعي ليأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ فأخبره أنَّ عليَّ من الدين كذا، ولي من الدّين كذا، وسعدٌ ومباركٌ غُلاماي حُرّان، فإياك أن تقول هذا حُلمٌ فتُضيّعه.

فلما أصبح بلال أتى خالداً رحمه الله، فأخبره الخبر، فبعث خالدٌ نفراً إلى الدرع، فوجدوه كما قال، فلما قدم بلال رحمه الله المدينة، أتى أبا بكر الصديق رضوان الله عليه، فأخبره بوصية ثابت بن قيس فأجازها، فلا نعلم أحداً من المسلمين أُجيزت وصيتُه بعدَ موتِه على هذا الوجه إلا ثابت بن قيس رحمه الله.

وروايـة (لباب الآداب) هذه رُويت في كتب كثيرة، منها رواية الحاكم في (المستدرك) ورواية (الدر المنثور) للسيوطي، وبعضها رواه (الطبري) في تفسيره.

٢٥٢ ـ من ديوان الحماسة

أحفظُ من زمن بعيد هذه المقطوعة البارعة لأحد الشعراء:

ألا مُخبِرٌ فيما يقولُ جليّةٌ ... وهل يرجعنْ بعدَ المماتِ دفينُ؟

أسائِلُه عن غائبٍ كيف حالُه ... ومن نَزلَ الغبراءَ كيف يكونُ؟

رُبىً حولها أمثالُها إن أتيتها ... قرينَكَ أشجاناً وهُنّ سكونُ

كفى الهجر أنّا لم يضحْ لك أمرُنا ... ولم يأتنا عما لديكَ يقينُ!

* * *

في التأني السلامة

٢٥٣ ـ سوء العجلة

على الإنسان ألا يعجل، ففي العجلة الندامة، وفي أحداث التاريخ هزائم كثيرة نتيجة التعجل غير المتمهّل، وأعقبها ندم شديد، نعم إنّ الحَسْم السريع بالإقدام قد يكون له ما يبرّره إذا حُسبت الوقائع، وقدّرت النتائج، ولكن الاندفاع دون تروٍّ متعقل يأتي بأوخم العواقب، وقبل أن أذكر من طُرف التاريخ ما يدلُّ على ندامة المتعجل أنقلُ هذه الواقعة عن كتاب (كليلة ودمنة):

كان والدان يُحبّان نجلَهما الصغير، وقد اضطرت الأمُّ لمبارحة المنزل، فقالت لزوجها: اقعدْ عند الصبيِّ حتى أغتسلَ وأرجع إليك، فانطلقت المرأةُ، ولم يلبث الأب إلا قليلاً حتى جاءَه رسولٌ من شخصية كبرى يدعوه للقائه، فخرج معه، ولم يخلّف أحداً في رعاية ولده، إلاّ (ابن عرس) وكان قد ربّاهُ ودرّبه على حراسة المنزل، فتركه عند ابنه، وكان في المنزل ثعبانٌ ضخم لا يعلمُ عنه الوالدان شيئاً، فخرج من جُحْره قاصداً الغلام. فوثب عليه ابنُ عرس وقطّعهُ قطعاً، وأقبل الرجلُ إلى المنزل بعد فراغه من مهمّته، فلقيه ابنُ عرس يسعى كالمُبشِّر له بما صنع، فلما رآه الوالد ملطّخاً بالدم، سُلِبَ عقلُه. وتأكّد أنه قتل ولده، فلم يتأنَّ، ولم يتثبت في أمره، بل ضرب ابنَ عرسٍ بعصاً كانت معه ضربةً شديدةً فقتله، ودخل إلى منزله فوجد الولدَ حياً والثعبان مقطّعاً مقتولاً، فجعل النادمُ يدقّ صدره، ويلطم وجهه، وينتف لحيته، ويقول: ليتَ هذا الغلام لم يُولد، ولم أتسبب في قتل هذ الحيوان الشجاع.

٢٥٤ ـ ندم الإسكندر

هزم الإسكندر جيوش (دارا) ملك الفرس بشجاعة جنوده، وفي مقدمتهم

القائد الباسل (كليتوس) وما زال الإسكندر يطيرُ من نصرٍ إلى نصر، حتى طوى المراحل الشاسعة بين (مقدونية) و(نهر سيحون)، وتقدَّم إلى (سمرقند) فأقام بها حفلةً باهرة ابتهاجاً بانتصارته، ودعا إليها كبار القوّاد، ورؤساء الكتائب، ودارتْ كؤوس الخمر، فزادت من تيه القائد الأعظم وتعاليه، ولحظ جنوده ذلك، فأقبلوا يتملّقونه بأكبر عبارات الإعجاب، وقد قال بعض المتملّقين للإسكندر: إنّ أباك فيليب على عظمة انتصاراته، وشدّة كفاحه، لم يُحقق نصراً يُذكر إلى جوار نصرك.

ومضوا في انتقاص الأب والإسكندر فرحٌ يبتهج بما يسمع، ولكنّ قائده (كليتوس) وكان صاحبَ فضلٍ كبير على الإسكندر إذ نجّاه في معركة (كرانيكوس) حين رأى السيف يكاد يهوي على رأسه، فسارع ليضرب كفّ حامل السيف في عجلةٍ ظافرة، فسقط من يده، ونجا الإسكندر بعد أن كان قريباً من أجله، هذا القائد لم يرق له أن يتمادى المضبّاط في نفاقهم الكريه، فصاح بالإسكندر: ما لهؤلاء المادحين ينتقصون قدر (فيليب) العظيم، ومآثره ليست أقل من مآثرك، بل أعظم، فهو الذي أنشأ الجيش المقدوني وسلّحه، وقدّمه ذخيرة لك، ولولاه لم تفعل شيئاً!

لو كان الإسكندر في وعيه الطبيعي لعرف أن مدح أبيه مدحٌ له، وأنّ قائده صادقٌ لا يكذبُ ولا ينافق، ولكنّه صاح بالقائد، وأخذ يسبه مع الحاضرين، وكلّهم إلب عليه، فلم يملك (كليتوس) إلا أن صاح بالإسكندر: تذكر أنَّ حياتك دينٌ لهذه اليد التي أنقذتك في معركة (كرانيكوس)، ولم يتحمّل الإسكندرُ هذا الرد الصادق الذي يعرف الجميع حقيقته، فقام مخترطاً سيفه، وهوى به فوق رأس (كليتوس) فخرّ صريعاً لوقته.

ومضتْ ساعات، فعاد للإسكندر صوابُه بعد أن كانت الخمر لعبت به، فارتمى على فراشه يصرخُ من النّدم، ويلعن نفسه نادماً يصيح: يالي من مجرم! قتلتُ من أنقذ حياتي. ودافع عن تاريخ أبي! وظلَّ بعدها مجروحَ القلب حتى ماتَ بعد قليل.

٢٥٥ ـ ندم ملك حمير

كـان حسان التُّبعيّ ملك اليمن، صاحب قسـوة وجبروت، وقد نفر منه أصحابُـه، لأنه يتّهم بالظنـة، ولا يأخذُ بالقسطِ، ويُسارع بسفك الدماء لأهونِ الأسباب، حتى حذّره ذوو قرباه! وقد زيّن واقعه الجائر لأخيه عمرو، أن يأتمر به مع نفرٍ من حاشيته، فجمع أذواء اليمن فقال لهم: أنتم تعرفون سيرة أخي، وأنّه بالغَ في جرائمه، ولا بدّ من الخلاص منه، فكلّهم وافق عمراً، واستعدوا لنصرته، إلاّ زعيم واحـداً هو ذو رُعين الحميري، فقال لـه: أيها الأمير يمكنك أن تُسـدي النصح إلى أخيك، وتحذِّره عاقبة أمرِه، وتُخبره بتذمر الناس في مملكته، وهو يعلم إخلاصك وصدق سريرتك، وقد يفتح عينه على حقيقة آثامه، فيكفّ عنها استجابةً لنصيحتك.

ولكنَّ المجتمعين ثاروا بذي رُعين، واتّهموه بممالأته على طُغيان حسّان، وزادوا فقالوا، ربّما كان عيناً له، وأشاروا بقتله، ولكنّ عمراً قال: إنه يحاولُ أن يُنقذ البلاد من القتل الآثم، فلا يكون أولَّ بادئى به بعد حسّان، وسكت ذو رعين واجماً، فقال له عمرو: فيم تفكّر. فقال: لقد وفد على خاطري هذان البيتان:

ألا مـــن يشتـــري سهـــراً بنـــومٍ	سعيـــدٌ مـــن ينـــامُ قـــريـــرَ عيـــن
فـــإمـــا حميـــرٌ غـــدرت وخـــانـــت	فمعـــذرة الإلـــه لـــذي رعيـــنِ

وأرجـو أن يكتبهما الأمير لديه في صحيفـةٍ، فقد يرجع إليهما إذا جدَّ أمرٌ، فابتسم عمرو، وأخذ الصحيفة بما فيها. ودفنها إلى خازنه.

ثم إن المؤامرة قد تمت على يد (عمرو) بمعاونة الأذواء ممن حرّضوه، وظنّ أنّه سينعمُ بالحُكم في هدوء، ولكن هؤلاء الذي أشاروا عليه بالغدر، جعلوا يتنصّلون من مؤامرتهم، وزادُوا فأشاعوا في الناس أنَّ عمراً أسوءُ من أخيه، وأنّه يعتزم شروراً لا حدّ لها، وكان النّدم قد بلغ من نفسه عمرو مبلغه، إذ صَعب عليه أن يقوم بجريمته، وأن يستمع إلى قوم هم أعداؤه وأعداءُ أخيـه معاً، فامتنع عليه النوم، وجعل يقوم من رقـاده فزعاً بعد أن يرى من الأحلام ما يُزعِجُـه ويؤرقه، وجاءته الأنباء بأنّ الأذواء يشيعون عنه السوء، ويقولون: إنَّ حسان أفضل منه،

فعوّل على أن ينتقم ممن زينوا له الشر. وجعل يدعوهم واحداً واحداً، ليستأصل شأفتهم غير عابئ بالنتائج، وكأنّه يقول: عليّ وعلى أعدائي، ثم جاء دور ذو رُعين، فدعاه الملك، وعرف الرجل ما دبّر الملك من الشرّ فقال له: مهلاً مهلاً، إن لديك أمانة لي كتبتها في الصحيفة، وأعطيتها لخازنك، ففكّر الملك مليّاً، وقال: صحيح ما تقولُ، ودعا الخازن فأتى بالصحيفة، وقرأ البيتين فقال لذي رعين: كأنّك كنت تعلمُ ماذا سيكون حين قلت: «ألا من يشترى سهراً بنوم» فأنا أبحثُ عن النوم فلا أجدُه، ثم استوزره، وجعله صاحب سرّه.

٢٥٦ ـ ندم جبلة

كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة بالشام، وحين رأى الإسلام ينتصرُ على الروم والفرس معاً، عزم على أن يُسلم، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذن في القدوم عليه بالمدينة، فأذن له، وقدِمَ الملكُ في خمسمئة فارس من عُكٍّ وجُفْنة، وقد ألبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب، ولبس هو تاجه الذهبي، ودخل المدينة، فلم يبقَ بها أحدٌ إلاّ خرج ينظر إليه، حتى النساء والصبيان، فلما انتهى إلى عمر رحب به، وأدنى مجلسه، ثم أراد الحج، فخرج معه جبلة! فبينما هو يطوف بالبيت، إذ وطئ على إزاره الممتدّ المطرّز بالذهب عربيٌّ من فزارة، فالتفت إليه جبلة، مُغضباً، ولطمه فهشّم أنفه، فاستعدى عليه أمير المؤمنين، فبعث إليه قائلاً: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمتَ أخاك هذا الفزاري فهشمتَ أنفه؟ فقال متكبّراً: إنّه وطئ إزاري فحلّه، ولولا حرمة البيت لضربتُ الذي فيه عيناه، فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت، فإما أن ترضيه، وإلاّ أقدتُك منه، قال الملك: أتُقيدُه مني، وأنا ملكٌ وهو سوقة؟! فقال عمر: يا جبلة! إنّ الإسلام قد سوّى بينكما، فما تفضُله في شيء إلا بالتقوى، قال جبلة: لقد رجوتُ أن أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية، قال عمر: دعْ عنك هذا؟ فإنك إذا لم تُرض الرجل أقدْتُه منك؟ قال: إذن أتنصّر، قال: إن تفعل ضربتْ عنقُك! قال: أخّرني إلى غد يا أمير المؤمنين! قال: ذلك لك!.

فلمّا كان جنح الليل خرج جبلةُ مُستخفياً، وفرّ إلى القسطنطينية نزيلاً على

هرقل، فتنصّر وأقام عنده، وقابله القيصر بالترحاب بدءاً، وجعل له قصراً ذا حاشية وأتباع، ولكنّه نظر فوجد نفسه سجين القصر لا أمرٌ ولا نهيٌ، وجميع ما يحصل عليه كرمٌ من القيصر، ولو شاء لأذلّه، ومضتِ الأيام فضاق بموقفه، وجعل يتفكّر في أمره، وكأنّه قارن بين تغطرس الروم وتواضع المسلمين، فرأى الفرق شاسعاً فجعل الندمُ يأكل قلبه وجعل ينشد الشعر ترفيهاً عن نفسه، ومما قال:

تنصّرتِ الأشرافُ من أجلِ لطمةٍ ... وما كان فيها لو صبرتُ لها ضررْ
فيا ليتني أرعى المخاض بقفرةٍ ... وكنتُ أسيراً في ربيعةِ أو مُضرْ

٢٥٧ ـ ندم عاشق

والعاشق هو (قيس بن ذُريح) صاحب (لبنى) إذ تزوّجها بعد حُبٍّ مبّرح، وحين اقترن بها، شُغل عن كل شيءٍ سواها، ومضت الأيام، ولم تُنجب له، فأصرّ والدهُ على طلاقها، وامتنع مستكثراً هذا الفعل الشنيع، وطال اللّجاجُ بين قيس ووالديه، وهو مصمّم على البقاء معها، وتدخّل أصدقاء الوالد كي يميلوا بقيس فما استطاعوا، فلمّا رأى الوالد صلابة ولده، جمع الناس، وقال: أحلفُ بالله لا يكنُّني سقفُ منزلِ أبداً، وأظلّ في حرِّ الشمس، وأنتقل في قبائل العرب شاكياً عقوقه حتى يحين أجلي، وكذا قالت أمُّه، وتواطأ رهطُ السوءِ على الزوج المسكين، فودّع هناءته، حين ألقى يمين الطلاق، وقد [illegible] أهلُه يظنّون به سلواً، ولكنّه مرضَ، وتفاقمت علته، ورفض أن يتزوّج بعدها، فكان ندمُه الشديدُ عاملاً شديداً في حسرة والديه، وجعل يُنفّس عن صدره بأبياتٍ جُمعت أخيراً في ديوانٍ خاصّ به، ومما قال مخاطباً نفسه:

أتبكي على لُبنى وأنت تركتَها ... وأنت عليها لا محالة أقدرُ
فإنْ تكنْ الدنيا بلبنى تقلّبتْ ... عليَّ. فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان فيها للأمانةِ موضعٌ ... وللكفِّ مرتادٌ وللعينِ منظرُ
وللحائمِ العطشان ريٌّ بريقها ... وللمرح المُختالِ خمرٌ ومسكرُ
كأنّي لها أرجوحةٌ بين أحبلٍ ... إذا ذكرةٌ منها على القلبِ تخطرُ

* * *

من حديث السرقات

٢٥٨ ـ سطو مؤلم

انتدبتُ لتدريس مادّة الأدب الحديث في إحدى الجامعات العربيّة، وكان من نصيبي أن تكون الفرقة الرابعة من فرق الكلية قسمةً بيني وبين أستاذٍ من أساتذتي، الذين تعلّمت على أيديهم أثناء الطلب بمصر، وكان المنتظر أن نؤلّف للطلاب معاً مذكرةً ضافية تشمل أهم النقاط العلمية في المقرر المنهجي، وتُزوَّد بشتى المراجع الكافية لهداية الطّلاب إلى التّوسع إذا حاولوا ذلك.

كان ذلك من المقرر المنتظر، ولكنّي وجدتُ زميلي الراهن، وأستاذي السابق، يدعوني إلى زيارته بمنزله، فظننتُ أننا سنرسم خطّة التأليف، حين يتحدّد لكل منّا موضوعاته التي سيكتب المذكرة الأدبيّة بخلاصتها، ولكنّ الأستاذ طلب مني أن استقلّ بكتابة المذكرة دونه. لأنّـه مريض، ولأنّه استدعاني لأرى قوارير الأدوية، وعلب العقاقير، فأعفيه من جُهد لا يحب أن يرهقه، وهو واثق كلَّ الثقة من كفايتي.

خرجت متجهاً إلى منزلي بعزيمة قوية، كي أواصِلَ وحدي البحث دون انتظار لجهدٍ ما لأستاذي، وقد تفرّغت للعمل الكادح، وكانتْ رغبتي أن أسطّر شيئاً ذا بال، فلا أكتفي بالشائع المكرّر، وهُنا استعنت بمطبوعات حديثة جعلتُ آخذ منها وأدع، سالكاً سبيل النقاش الجادّ فيما لا ترتاح إليه نفسي من الآراء، وما زلتُ أوالي البحث والتحرير قرابة ثلاثة أشهر، حتى استوى المنهج في كتابٍ لائقٍ بمستوى الجامعة والطّلاب، ثم وقفتُ أمام مسألة هامة، هي كتابةُ اسم المؤلف؟ إنّ من حقي أن أقتصر على اسمي، ولا يُمانع أستاذي في ذلك. ولكنّي أعرف أنّ الكلية ستطبع المذكرة على الآلة الكاتبة وتُصوّرها كعادتها في كلِّ المواد ومع كلِّ الأساتذة، ولعلّ اسمي وحدَه يبعث على التساؤل؟ وقد يظهرُ أستاذي

بمظهر المتقاعس، ولذلك كتبتُ الاسمين معاً، اسمي واسمه كمؤلفين متعاونين؛ كيلا أسبِّب حرجاً لأستاذي، حرجاً متوهَّماً، أو حرجاً حقيقياً، هكذا فعلتُ وقد لقيني الأستاذ شاكراً ومقدّراً.

ولكنّي بعد قرابة عامين، وجدتُ أحد الزملاء يطبعُ كتاباً له في المقرّر المعهود، ويأخذ من المذكرة المكتوبة على الآلة الكاتبة أربعين صفحة متوالية دون أن يشير بحرفٍ واحد إلى مصدرها، وكأنّه الذي كتب هذه الصفحات بما تحمل من آراء، بل بألفاظها المحدّدة، حتى بعلامات الترقيم، والانتهاء بذكر المراجع، كما دُوِّنت دون زيادة أو نقصان!.

وضاق صدري، فاتّجهتُ إلى المؤلف المزعوم منكراً ومحتداً، فقال لي: لقد تحدّثتُ مع زميلك وأستاذك عن رغبتي في الاستفادة من المذكرة التي ألّفها معك، فأبدى سرورَه، وأشار عليَّ أن آخذ ما أشاء! واستنكرتُ أن يكونَ ذلك عملاً مشروعاً، حتى ولو أجازَه أحد المؤلفين، كما استبعدُت أن يأذن له الأستاذ في هذا السطو المنكر، وممّن؟ من غيره لا منه، حيث لم يكتبُ حرفاً واحداً، وإنّما دفعني حيائي من حرج موقفه أن أُظهر المذكرة باسمي وحدي وأغفل اسمه.

وانتهزت فرصة لقائي بأستاذي فاستشعر قبل أن أتكلّم ما جئتُ من أجله، وقال: لن تتحدث قبل أن تتناول الفاكهة معي! قلتُ، وهل علمت لماذا جئتُ؟ قال: نعم يا بنيّ! إنّ فلاناً جاء إليّ، وطلب الاستعانة بالمذكرة، لأنه يعرف أنّي أحد مؤلفيها، وكنتُ أظنّ أنه سيطبع مذكرةً على الآلة الكاتبة، ويوزعها على الطلاب، فلم أرَ بأساً من نجدته، ثم فوجئتُ بأنّه طبع الكتاب في دار نشرٍ ذائعة، وسرق منك ما سرق، قلت: أفتاذنُ لي أن أكتب نقداً له بمنع! ففوجُئت بالأستاذ يغضب ويمتعض، ويصيح في وجهي، أنت تبرّعت لي بنصف الكتاب، وقد أخذ أربعين ورقةً مما تبرعت به، وأذنتُ له في ذلك، فهل أجبرتُك على أن تكتب اسمي؟ وإذا فعلت وكتبت، فلماذا تنازعني في هبة قمت بها!.

لم أجدْ ما أُردّ به على أستاذ كبير، يظّن السرقة العلمية هبة، وهبةً منه هو، وتنازعتني عدّة عوامل متضاربة، أأسكت أم أتكلّم، ثم آثرتُ السكوت.

٢٥٩ ـ سطو مريب

أما السطو المريب حقاً، فهو ما تسفر عنه هذه الحادثة؛ لقد كان الأستاذ (محمود محمود) وكيلاً لجمعيّة تسمّى (جمعية مكارم الأخلاق بمصر) ولها مجلةٌ تحمل اسمها، أخذت تصدرُ قرابة عشرين عاماً في صورة جيدة، ما بين سنوات ١٩١٨، ١٩٣٨، ثم هوى بها الخط، فجعلت تصدر في صورة ضئيلة، وكأنما أدركها المشيبُ بعد شباب مزدهي، وهكذا الأيام!.

كان الأستاذ (محمود محمود) يكتب في كلّ عدد مقالاً عن تفسير آية من آيات الله، ويذيله بإمضائه (محمود محمود) وكيل جمعية مكارم الأخلاق، والأستاذ بمدرسة المعلمين العليا، حتى اكتمل له ما يقربُ من مئةٍ وخمسين مقالاً، هذا إلى أبواب أخرى يوقعها بإمضائه. وكلّها تنتمي إلى الفقه أو الحديث الشريف، مما يجزم بأنّ ثقافة الرجل ثقافةٌ دينية، وله أسلوبه الهادي المتواضع، حيث كان في أكثر أحواله، يكتفي بتلخيص ما قاله المفسّرون، ولا يكاد يأتي بالجديد، ولكل إنسانٍ طاقة وميدانُ كفاحِه والذي يقدّم للقراء خلاصة ما قرأ يفيدهم دون شك، ففيهم من لا يستطيع أن يقرأ الأمهات من كتب التراث!.

قلت هذه المقدمة. لأدهش القارئ حين يعلم أن رجلاً ينتسب إلى العلم، ويعمل واعظاً، يسمّى (محمود محمود) كاسم الأستاذ المفسّر، عثر مصادفةً على مجموعة من مجلات (مكارم الأخلاق) وبها المقالات المتتابعة في تفسير كتاب الله، فوقف طويلاً عند صاحب المقالات، ثم تأمّل فوجد أنّ المجلات قد مضى على صدورها أكثر من نصف قرن، ويستطيع أن يجمعها، ويكتب اسم المفسّر (محمود محمود) في الصحفة الأولى تحت العنوان (مع آيات الذكر الحكيم) ثم بحث عن الناشر فوجده، حيث أصدر الكتاب، ومضى يذيعه على الناس على أنّه من تأليفه! وأن (محمود محمود) الحاضر هو الذي شرح وفسّر وجمع وطبع!.

وقع في يدي الكتاب، ولا أدري لماذا تذكرت حين قرأت تفسير سورة (قَ) أنّي قرأتُها من قبل، وطافت بذهني (مجلة مكارم الأخلاق) فتركت المنصورة

سريعاً إلى القاهرة، لأبحث عن مجلّدات المجلة في دور الكتب، ووفّقني الله، فاهتديت إلى الأصل، اهتديتُ إلى النقل حرفياً دون أدنى تحوير، وبحث عن المؤلف السارق، وكتبت إليه بما رأيت.

لم يكد يصلـه الخطاب ـ وهو لا يعرفني من قبـل ـ حتى أسـرع للقائي، وقابلني بوجهٍ شاحب، وكأنّه مذنب يُقدّم للقضاء بتهمة لا مفرّ من ثبوتها. وقال لي: أنا لم أفعل شيئاً، إنّ الكتاب باسم الرجل الذي تحدّثت عنه، وقد أردتُ أن أطبعه باسمه هو؟ وإذا وقع في منطق الأغرار أني المؤلف فما ذنبي؟ وأحسّ أنه لم يقنعني، فقال: سأموت ويبقى الكتاب، وسترجع نسبته إلى صاحب، فاترك الأمر يا أخي، فقد اكتسبتُ مكانة علميّة، وحرامٌ أن أشوَّه هكذا.

لقد آثرتُ أن أصبر، حتى مضى المؤلف الجديد إلى ساحة ربّه، فأعلنت المسألة واثقاً أنّه بعد مماته قد ترك الأمر لصاحبه!.

٢٦٠ ـ سطو فاضح

أستاذنا (محمد هاشم عطية) كان من كبار أساتذة الأدب العربي في كليتي دار العلوم واللغة العربية، وله كتاب في تاريخ الأدب الجاهلي (كتاب يتيم، لم يشفعه بكتابٍ آخر) ولكنه جيد في موضوعه، وأسلوبه الأدبي يرقى به إلى مُستوى الجاحظ، وذوي الديبـاجة المصقولة عن أعلام البيـان، هذا الكتاب طبع عدة مرات، إذ ظل مقرراً على الطلاب قرابة خمسة عشر عاماً أو تزيد.

ثم جاء ناشرٌ لبناني، فرأى اسم المؤلف مجهولاً لديه، وإذا أعاد طبعه فلن يبلغ الكسب الطائل الذي يبتغيه، فطبعه باسم المستشرق الإنكليزي (ج ـ هيدارث دوت) منشوراً عن مكتبة الثقافة بلبنان، وقد حاولتُ أن استقصي ما كُتب عن هذا المستشرق، فوجودت الأستاذ نجيب العقيقي في كتاب (المستشرقون) لم يذكر عنه أيَّ مؤلَّف خاص بالأدب الجاهلي، وإنما تتجه بحوثه إلى اللغة العامية في مصر، وأساليب التربية بها، وأذن فالناشر المزوِّر قد وضع اسمه من ابتكاره هو؟

وفي الكتاب ما ينفي انتسابه إلى أي مستشرق، لو كان الناشر على حظٍّ قليل

من الثقافة إذ به فصل طويل تحت عنوان (أقوال علماء المشرقيات في الأدب الجاهلي) ومصدره الأوحد كتاب (الشهاب الراصد) للأستاذ محمد لطفي جمعة، لأنّ الأستاذ (محمد هاشم عطية) لا يعرف لغةً أجنبية، فكيف يكتب مستشرق عن زملائه، ومرجعه الوحيد كتاب عربي لباحث عربي (كتاب يلخّص ولا يستكمل).

كما أنّ في حديث المؤلف عن المعلقات آراء نسبها إلى شيخه (أحمد السكندري) فأراد الناشر أن يطمس اسم السكندري، وهو الجهد الوحيد الذي بذله في نسخ الكتاب، كيلا يشي بالأصل، لأن الشيخ السكندري لم يكن أستاذاً لأحد من المستشرقين، إنما كان أستاذ المؤلّف بدار العلوم فزميلاً له في التدريس من بعد.

وأضيف إلى ما تقدّم أنّ المستشرقين جميعاً يذهبون إلى عدم وجود النثر بالأدب الجاهلي، ولكنّ الأستاذ هاشم قد عقد فصلاً طويلاً ينفي هذا الرأي، ويردّه بأقدر ما يملك من حجج، فكيف يعقل أن يأتي مستشرق بما يخالف اتجاه زملائه ثم لا يردّ عليهم بأسمائهم راجعاً إلى مصادرهم الأصلية، لا إلى ما رجع له الأستاذ مترجمات الأستاذ (محمد لطفي جمعة)!.

لقد كتبت بحثاً إضافياً عن هذه الجريمة في مجلة (الثقافة) بمصر، منذ زمن بعيد، ولكنّ المناسبة قد جاءت لتلخيصها في هذه الشذور، فلعلّها تردع من يحاولون الاغتيال القاهر لآثار الباحثين جرياً وراء مكسب خسيس.

٢٦١ ـ سرقة مشروعة

قال الأستاذ (أحمد الزين) في تقريظ كتاب (فيض الخاطر) للدكتور (أحمد أمين):

قد سَحرتَ النُّهى بسحرٍ مبينٍ	فاتّقِ اللهَ يا يراعَ أمينٍ
وسلبتَ القرّاءَ أفضلَ ما أو	دَعَهُ اللهُ في سليلِ الطينِ
وعجيبٌ لسارقٍ حدُّه الشرعيُّ	فينا تقبيلُ تلك اليمينِ
ويميناً لو أنّهم أنصفوهُ	كتبوا فيضه بماءِ العيونِ

* * *

نفوس كريمة

٢٦٢ ـ نستر بعضاً

حدثني صديقي قائلاً :

كنت أبعثُ خادمة فقيرةً تَشتري لي كيلو من البرتقال في أيام مختلفة، حين تأتي إلى المنزل للخدمة في الأسبوع مرّة، فلاحظتُ أنّها تحضِرُ كميّةً من البرتقال تزيدُ نصف كيلو عن المطلوب والثمن واحد!

وتكرّر هذا بصورة لافتة، فرأيتُ أن أتتبّع الأمرَ، فذهبتُ إلى بائعة البرتقال؛ وهي امرأة فقيرة أيضاً، وقلت لها: إنّ (فُلانة) تأخذُ منك كمية من البرتقال أكثر من الوزن المطلوب.

فقالت البائعة في هدوءٍ: فلانةٌ امرأةٌ فقيرةٌ، وتُربِّي أطفالاً، فإذا اشترتْ مني شيئاً فأنا أُعطيها فوق ما تطلب بكثير، نحن الفقراء يجب أن يستر بعضنا بعضاً!

لقد ظنّتِ البائعةُ أنّ الخادمةَ تشتري البرتقال لأولادها، فجعلت تعطيها أكثر من حقّها، ولم تُرد أن تشعرَها بما تفعل، كيلا تحرجها!

قلت في نفسي حين سمعت هذه القصة: يالله، بائعةٌ فقيرةٌ لا تبلُغ ما يقوم بأَودِها إلاّ بالكد والتّعب، تعرف المشترية المسكينة، فتتصدق عليها دُونَ أن تحسّ بفضلها، وترى ذلك واجباً عليها يتكررّ كلّما حضرت للشراء!

وفي الأغنياء من تُمَد إليهم الأيدي المسكينة سائلةً بعض القوت الضروريّ، فلا تجدُ غير الطرد والازدراء! فهل يتعلم الناس؟

٢٦٣ ـ عبد أسود

كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من كبار الأثرياء والكرماء في صدر الإسلام، وقد خرج يتفقد ضيعةً له بالطائف، فنزل على نخيلِ قوم، وجلس تحت

الظّل بحيث لا يراه حارسُ الزرع، وهو غلامٌ أسود جلس يتهيّأُ للطعام، وأمامه ثلاثةُ أرغفة، فَدَنَا منه كلْب جعل ينظرُ إليه، فَرمَى له رغيفاً فأكله الكلب، واستمرّ ينظر إليه، فرمى له الرغيف الثاني، فإذا الكلبُ يأكل وينظر، فرمى له الرغيف الثالث، فتعجب عبدُ الله من عبدٍ يرمي جميع طعامه، ولا يأكل شيئاً، فتقدّم إليه، وقال له: يا غلام! كم قُوتُك كلّ يوم؟ فقال: ثلاثة أرغفة؟ قال عبد الله: وماذا ستأكل بعد أن قدّمت قوت اليومِ إلى هذا الكلب؟ فسكت العبدُ ولم يتكلّم، فقال عبد الله: أفصْح أرشدك الله!

فقال العبد: يا سيدي إنّ أرضنا هذه ليست بأرض كلاب، ولابدّ أنَ هذا الكلب جاءَ من أرض بعيدة، وعليه أمارات الجوع، فلما أعطيتُه الطعام جعل ينظر ويتمنّى، فلم أستطع أن أمنع عنه طعامي جميعه، وهو ذو روح مثلي، يجوع ويتمنّى الطعام! قال عبد الله: وماذا كنت صانعاً اليوم وقد تكرّمتَ بقوتك على الكلب، فقال العبد: أقضي اليوم بدون طعام، وقد تعوّدتُ ذلك، ولله الحمد والفضل، فسأله عبد الله قائلاً: أين سيّدك؟ فقال: هو في مكان كذا، وهذا النخل نخْلُه، والمكان تحت قبضته، وأنا خادمه؟ فتوجّه عبد الله إلى سيده، واشترى النخل والعبد والمكان جميعاً، وأعتق العبد ووهب له كل ما يحرسه.

لم يكنْ يظن العبدُ حين قدّم طعامه للكلب أن إنسياً ينظر عليه، ولكنّه عرفَ أنَّ الله من فوقه يرى وينظر، وقد كافأه ربّه حين ألهم عبدَ الله بن جعفر أن يصنع ما صنع، وهذا جزاء الدنيا وللآخرة أوفى وأجزل.

٢٦٤ ـ راعٍ قنوع

حدّث أحمد بن يوسف في كتابه (المكافأة) فقال عمّن سمّاه أبا حبيب المقرّي:

«ضاقت أحوالي فلم تُبق لي إلاّ جارية أحبّها، ومنزلاً أسكنه، فبِعتُ المنزلَ بألف دينار وخرجت إلى مكة بالجارية، وقلتُ لها: احتفظي بهذا المال واجْعليه في حزامٍ تشدّين عليه وسَطكِ، فكانت إذا نزلت منزلاً أثناء الرحلة، حَفرت في

خيمتها حُفيرةً، وأودعتْ المالَ وطمّتها، حتى يأذن الركبُ بالرحيل، فتأخذَ المال وترده إلى الحزام في وسطها.

واتفّق أن رحَلْنا معجلين ذات صباح، وكانت الجارية نائمةً، فأيقظتُها للرحلة، فنهضت ونسيت أن تأخذَ المال، وفي الطريق تذكّرت، فأخبرتني في فزعٍ وخوْفٍ، فحارَ فكري، وطاش روحي، ولم أدْر ما أعمل، ودخلنا مَكة، فحدثتْني نفسي ببيعها، فلم يطْعني قلبي، فلما رجعْنا من الحج، ومررنا بالطريق نفسه، جئتُ إلى المكان، وأخذتُ أبحثُ عن موضع المال، وأنا أدورُ بعينيّ يميناً وشمالاً، فرأيتُ غلاماً فوق رابية يرعى غنيماتٍ له، تقدّم إليّ، وأنا أكتم ما في نفسي، ولا أريدُ أن أخبرَه بشيءٍ، فقالَ لي: وْيحك، ما تطلب، قلتُ: شيئاً أودعته هذا المكان ونسيتُه، فقال: صفْه لي، فقلت: كيسٌ أحمر فيه كذا وكذا، قال: ومالي فيه إن دَلَلْتُك عليه، قلت: نصفه، قال: فانهضْ معي، وذهب إلى الرابية التي كان يجلس عليها، وقَدَم لي الكيس تامّاً لم يفُتح، فحمدتُ الله عز وجل وأخرجتُ المال، وقسمته قسميْن، وقلتُ له: اخترْ أيّ قسمٍ تريد، فقال الغلام: أرى المال كثيراً، واكتفي بنصف النصف، فقسّمت النصف، وقلتُ له: اخترْ، فقال: وهذا كثيرٌ أيضاً واكتفي بنصفه، فقسّمت الباقي، وقلت له: اخترْ، فضحك الغلامُ كالساخر، وقال لي: ياعبد الله، أين ذهبَ عقلك؟ أأتركُه كّله حراماً، وأتركُ النصفَ حلالاً، ونصف النصف حلالاً، ثم آخذ شيئاً، هذا والله ما لا يكون؟ قلتُ: يا غلام أنتَ حرٌ أم مملوك، فقال: مملوك لبعض شيوخ الحيّ، فأسرعتُ إلى سيده أرجوه أن يبيعني إياه، وأعلمتُه القصة، فقال: أتريد أن تعتقه لفعلة واحدة فعلَها معك، وهو عندي منذ عشرة أعوام، ولَه كلّ حين فعلة حسنة، لا يقدر عليها الحرّ، اذهب يا شيخ، فأنا أعتقه وآخذ أجره قبل أن تحوزَ عليه!

٢٦٥ ـ مع معن بن زائدة

قالَ (معن بن زائدة) لما هربتُ من (المنصور) خرجتُ من باب (حرب) بعد أنْ أقمت في الشمس أياماً لأسوّدَ وجهي فلا يعرفني أحدٌ، وقد خففت لحيتي

وعارضيَّ، ولبستُ جبّة صوفٍ غليظةٍ، وركبت جملاً، وخرجتُ عليه لأمضي إلى البادية، فتبعني عبدٌ أسود يتقلّدُ سيفاً، حتى إذا غبت عن الحرس ووجدتُ نفسي خالياً في الطريق تقدّم العبد، وهو شديدٌ قويّ، ومعه سيفه، فقبض على خطام الجمل، فأناخه، وقبض عليَّ، فقلتُ له: ما شأنك؟ قال: أنتَ بغية أمير المؤمنين المنصور، وقد جعل لمن يقدمُ بك مالاً جزيلاً. فقلتُ له: ومن أنا حتى أكون بغية أمير المؤمنين؟ قال: أنت معن بن زائدة! قلتُ: يا هذا! اتقِ الله، وأين أنا من مَعْن؟ فابتسَم ساخراً، وقال: دعْ هذا عنك، فأنا واللهِ أعرفُ بك من كلِّ إنسانٍ، فقلتُ له: إن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهرٌ حملتُه معي بأضعاف أضعاف ما بذله المنصور في سبيل القبض عليّ، فخُذهُ حلالاً ولا تسفك دمي.

قال الأسود: هاته، فأخرجتُه إليه، فنظر إليه ساعة، وقال: صدقتَ في قيمته، ولستُ أقبله حتى أسألك عن شيء، فإنْ صدقتني أطلَقْتُك. قلتُ: قُلْ ما بدا لك. فقال: إنّ الناس قد وصفوك بالجود والكرم، فأخبرني: هل وهبتَ جميع مالك؟ قلتُ: كلاّ. قال: فهل وهبتَ نصفَه؟. قلت: لا. قال: هل وهبتَ ثلثه؟. قلت: لا؟.

فجعل يسألُ وأنا أقول: لا، حتى قال: هل وهبت عُشْره، فاستحيت، وقلت: أظن أني فعلتُ هذا. فقال: واللهِ ما ذلك بعظيم وأنا فقيرٌ محتاج، ورزقي عشرون درهماً في الشهر، وهذا الجوهرُ قيمته ألفُ دينار، وقد وَهبْتُه لك لتعلمَ أنّ في الدنيا من هو أجودُ منك، مهما اشتهر كرمك في الناس، فلا تعجبك نفسك يا معن، ولتحقّر بعد ذلك كلَّ مكرمةٍ تأتيها، ولا تتوقفْ عن فعل الخير، فإنّه حاميك وراعيك، ثم رمى بالجوهر إليّ وخلاّ خطامَ الجمل وانصرف.

قلت: يا هذا، لقد فضحتني، ولَسفكُ دمي أهون عليَّ مما قلتَ، فخذ الجوهرَ راشداً فلستُ في حاجةٍ إليه، ومعي سواه، فضحك وقال: كأنّك يا معنُ أردت أن تكذّبني في ادّعائي الجود، فوالله ثم الله لا آخذ على المعروف ثمناً، فتضيقُ الحياة في وجهي، وتركني مهرولاً!

قال معن: ثم شاء الله ومَنَّ عليّ بالعفو والحرية بعد (يومِ الهاشميّة) ورجع

إليّ جاهي ومالي ومكانتي عند أمير المؤمنين، وجعلتُ أسيرُ في الطريق الذي قـابلني فيه العبد لأعثر عليـه، وأجعله من خاصّـة أصحابي، فما لقيته على كثرة البحث، وتعقّب المارّين، وطول السؤال عنه بأوصافه التي عرفتها فيه، حتى يأست، وضجرت! فكأنَّ الأرض قد ابتلعته، وهو والله أكرمُ منيّ وأجود، إذ رفض الثروة الطائلة وهو فقير محتاج!

إنّ النفـوس الكريمـة لا تحفلُ بلـونٍ، فقـد يكون الأسـود الجواد سـيداً لآلافٍ من بخلاء البيض، وقد قال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

٢٦٦ ـ يوم الهاشمية

أشرتُ إلى يوم الهاشمية في سياق الحديث عن (معن بن زائدة) وهو يوم شهير من أيام التاريخ و(الهاشميةُ) مدينة بناها السّفاح أولُ خلفاء بني العباس قريباً من الكوفة، وكانت موئل بني العباس قبل أن يبني المنصور (بغداد) وفي هذه المدينة ثار (الرّاوندية)[1] على (المنصور) وهم قومٌ من أهل خراسان كانوا يتبعون أبا مسلم الخراساني، وأرادوا الانتقامَ لمصرعه، فانتهزوا فرصةَ ابتعاد الجند عن منزل الخليفة، واجتمع منهم زهاء ستمئة شخص، وحاصَروا المنزل، وهمّوا باقتحامه، فتقدّم المنصورُ راكباً فرسه، وهو لا يأمَنُ على نفسه من شدّة الوَجَلِ. فرأى شخصاً ملثّماً يتقدّم فيمسك بزمام فرسِه؛ ثم يهجمُ على من يحاولون قتل المنصور، ويلتحم معهمَ في معركةٍ ساخنة، حتى انقَشع القومُ، وتعجّبَ المنصور من هذا البطل الملثم، وحين انتهت المعركة دعاه، فكشفَ اللثام عن وجهه، فقال المنصور: من أنت لله أبوك، فقال: ابن زائدة، أنا طُلْبَتُكَ يا أمير المؤمنين، أنا معن! قال المنصور: قد أمّنك الله على نفسك، ومثلك يصطنع. ثم أخذه معه، وخلعَ عليه، وحباه، وصار من صفوة رجاله، في هذا الموقف يقول بعض الشعراء مخاطباً (معنَ بن زائدة):

---

(١) الزنادقة هم منسوبون إلى (راوند) مدينة بنواحي أصبهان. (الناشر)

مـا زلـت يـومَ الهـاشميـةِ مُعْلِنـاً　　بـالسيـفِ دونَ خليفـةِ الـرحمـنِ
فمنعـتَ حـوزَتَـهُ وكنـتَ وِقـاءَهُ　　مـن وَقْـعِ كـلِّ مهنّـدٍ وَسِنَـانِ

ولم يكن (معن) بعد ذلك محابياً للمنصور، بل كان يعارضه فيما يرى فيه وجهاً للمعارضة، وقد وشى به قومٌ لمسلكه هذا، فَنَهرهم المنصور وقال: أريدُ رجلاً مثل (معن) ولا أريد أطفالاً.

٢٦٧ - مِنْ أَحسَنِ ما قيل..

ذرينـي فـإنَّ البخـلَ يـا أمَّ مـالـكٍ　　لصـالـحِ أخـلاقِ الـرِّجـالِ سَـرُوْقُ
ذرينـي وحُظّـي فـي هـواي فـإنّنـي　　على الحَسبِ الزاكي الرفيع شفيقُ
ذرينـي فـإنّـي ذو فَعـالٍ تهمّنـي　　نـوائـبُ يغشـى رُزؤهـا وحُقُـوقُ
وكـل كـريـمٍ يتّقِـي الـذمَّ بـالقِـرَى　　وللحمـدِ بيـن الصـالحيـنَ طـريـقُ
لعمـرُكِ مـا ضـاقـتْ بـلادٌ بـأهلِهـا　　ولكـنَّ أخـلاقَ الـرِّجـالِ تضيـقُ
سلي هل جفاني من عشيرٍ صحبتهُ　　وهل ملَّ رحلي في الرجال رفيقُ
وهل يحبوني القومُ الكرامُ صحابتي　　إذا اغبـرَّ مخشـي الفجـاجِ عميـقُ

* * *

لكل أجل كتاب

٢٦٨ ـ خلٌّ مُسمّم

لكل إنسان أجلٌ، ومن العجائب أن تَحدُثَ من الأهوال ما يُعتقد معه وقوع الموتِ المحتومِ، ثم ينجو الإنسان ممّا يكتنفُه من موتٍ محقق، لقد جرت أحداث واقعية تنطق بذلك.

قال الأمير (أسامة بن منقذ) في كتاب (الاعتبار): تقدَّم رجلٌ مريض إلى الطبيب المعروف في عصره (يُوحنا بن بطلان) وعلائم الموت تلوحُ بين عيْنيهِ، إذ كَبرت بطنُه وتورّمت، واصفرَّ لونُه، وتغيّرت سحنتُه، وعُرِفَ أنّ به داءُ الاستسقاء، فقال الطبيب: قد بلغَ بك الداء مبلغاً لا يُرْجى منه الشفاء ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

واعتقد ابنُ بطلان أن الرّجلَ سيموتُ اليومَ أو الغد، ولكنّه شاهده بعد عدة أيام، وقد استردَّ صحته، وأصبح شاباً صحيحاً لا يُوجد به أثر من المرض، فقال له: أأنتَ الذي جئتَني تَشْكو من الاستسقاء؟ قال: أنا، قال الطبيب: فماذا صنع الله بك حتى غدوت صحيحاً، وبماذا تداويت؟ فقال الرجل: أنا فقيرٌ، ولست أملك شيئاً أتدواى به، وليس لي من الدنيا إلاّ والدةٌ ضعيفة، كانت تأتيني كلَّ يوم بشرابٍ من الخلّ أشرب منه، وآكلُه بالخبز الجاف، وشعرت أنّ المرضَ يزولُ شيئاً فشيئاً بعد الشراب، فأسرعَ الطبيب يقول: هل بقي شيءٌ من الخل لأفْحصه، قال: نعم، فأسرع الطبيبُ إلى دار الشاب، ليرى بقيّة الخلّ في القدر، وأفرغه في قِدْر أخرى، فَوجَد في الأسفل رأسَيْ ثُعبَانين ميتين، فعرف أنَّ سمَّ الثعبان هو الذي أكلَ الورم، ورزق المريضَ الصحّة! ولكنْ من الذي يقْدرُ على وصف السمّ مجازفاً؟ فأخذ ابن بطلان يقلّب كفّه ويقول: ما كان أحدٌ يقدر على شفائك بسمّ ثُعبانينْ إلا الله عزَّ وجلَّ. . لو زادت الكمية لقُتلتْ.

٢٦٩ ـ من فوق الجبل

عزم الرحالة الشهير (أنتوني يَنش) على أن يصعدَ إلى أعلى قمة في جبال (الألب) وطلبَ من المرشد المهيأ للمساعدة أن يكون رفيقه في الصعود، وكانت العادةُ أن يُحضِرا حَبْلاً طويلاً متيناً، يربطان به وسَطَهما، ويذهب كلُّ صاعدٍ في طريقه، والحبْلُ مشدودٌ عليه، فإذا عَثر أحَدهما بهوّة، نَادَى صاحبَه المشدودَ معه في حَبْل واحد، ليسحبَه بقوتِه، فينجو، تلك كانت طريقةً متبعة في اجتيازِ قمم الجبال.

وصعَد الرجلان، وفي لحْظةٍ عصفتِ الريحُ عصفاً شديداً، وسقطت صخرةٌ ثلجيـةٌ كبيرةٌ من تحتِ قدم المرشـد، فأصبَح معلّقاً في الفضاء، ونَظر فإذا هوّة سحيقة، كانت الثلوج تسترُها، ولن تمضي حتى يهوي فيها إلى غير رجعة، وسمع (أنتوني) صُراخَ المرشد، فتقدّم نحوه، فوجَده يصيح! أقطع الحبل، اقطع الحبل، وإلاّ جررْتُك معي فنهلكَ معاً، والأفضل أن يهلِك واحدٌ فقَط، ولكنَّ الرّحالة أكْبرَ موقفـه، وصمّم على إنقاذِه قَدر ما يستطيعُ، فبادر إلى أعلى القمـة، ونظر إلى صاحبه، فوجده أمامَ خطرٍ محقَّقٍ لا منْجاة منه، وهو يقول: اقطعِ الحبلَ لا فائدةَ، قد انتهى الأمر.

وكانت العواصفُ تشتد، والمرشدُ في أسوء حالة من شدّةِ البرد، وارتطام قطع الثلوج فوق رأسه، حتى ودَّ أن يستريح بالموت. فجعَل يصرخُ أريد أن أهوي لأستريح، والرّحالةُ حزينٌ لا يدري ماذا يصْنع.

ثم أتى الليلُ بظلامه فخاف المرشـد أن يستقبله الظلام ببْرد أشدّ. فجعل المرشد يحاوِلُ قطعِ الحبل بأسنانه، مادام الرحالةُ مصمّماً على معونةٍ ميئوس منها، ثم قطع الحبلَ، وأدركَ الرّحالةَ أن صاحبه قد سقط في الهوة، ولكنّه نظر، فوجدَ الحبل قد حَرَّكَ قطعةً ثلجية كبرى، جاءت فسدّت الهوّة. ووقع المرشـد فوقها خائـر القُوى، فأسرعَ إليه، وحمله فاقدَ الوعي، وحملَه حتى انتهيا إلى السفحِ، وبادرَ بعِلاجه، فأفاق المرشد ليرى نفسه نائماً في مستشفى يعالجُ به من آثار البرد، فلم يدرِ تعليلاً لما حدث، وجاء الرحالة، فأخبره بأنَّ صخرة الثلج قد كانت معجزةَ الإنقاذ! ولولاها لصارَ من الهالكين.

٢٧٠ ـ آجال

تحدث القاضي الفاضل الأستاذ (حسن جلال) بمجلة (الثقافة) عن أحداث عجيبة، تدلُّ على أنَّ الأجل له ميعادٌ لا يسبق، ومن هذه الأحداث، وجميعها غريبة في بابها:

كان القطار الحديديُّ يمرُّ فوق كوبري (طلخى) ذاهباً إلى المنصورة، وكان به سيّدٌ ثريٌّ، يركب في الدرجة الأولى، ومعه خادمُه، يركبُ في الدرجة الثالثة، فحين قربت المدينة، أراد الخادم أن يلحق بسيّده في مكانه، فاجتازَ العربة إليه، ولكنّ قدمه قد زلّت في الفُرجةِ بين العربتيْن فوقع تحت القطار، ومن تحته البحر، وكلاهما موتٌ محقق، ذلك بالسّحق تحت العجلات، وهذا بالغرق في الماء، ومعروفٌ أنّ القضبان التي يجري عليها القطار تحملها (فلنكات) من الخشب مُتباعدة بَعض الشيء، وماءُ النهر يجري من تحتها إلى غايته! وهُنا حدثت المعجزة فإنّ الخادم وقع بين المُتَّسع المنفرج في الفلنكات فَسقَط في سفينةٍ كانت تعبرُ الماء، وخَرجَ سليماً إلى المحطة ليلحق سيّده، فوجده ثائراً غاضباً لتأخّره عن لقائِه قبلَ أن يقفَ القطار، وصَرخَ في وجهه كيف أحملُ الحقيبة إلى الرصيف، وأنت معي ولا تُسرع إليّ!

فأخذ يعتذر إليه، ثم أخبره بما كان فذُهل، وأدرَك أنّها معجزة! تلك ألتي جعلت السقوطَ بين الفرجة المتّسعة أوّلاً، ثم جعلتْ السقوط على ساحة السفينة ثانياً! أليس ممّا يكاد يستحيل، ولكنّه تحقق فعلاً!

٢٧١ ـ ثورة البركان

أما الحادث الثاني الذي أشار إليه الأستاذ (حسن جلال) فهو ثورة بركان (كراكانوا) سنة ١٨٨٣م.

و(كراكانوا) جزيرةٌ صغيرة آسيوية، تقع بين جاوة وسومطرة، وكانت في ذلك الحين مستعمرةً هولندية، وتبلغُ مساحتها خمسة أميال، وكان على شاطئها الجنوبي جبلٌ شاهق ينطح السماء، والناسُ يعرفون أنّه موضع بركانٍ خامدٍ، كان

يثور في السنين الماضية، ولكنّه الآن هامد ميت، يقول الأستاذ (جلال):

لم يكن البركان هامداً كما تصوّر ساكنو الجزيرة، ففي السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٨٣م هبَّ البركان مذعوراً من نومته الطويلة، كأنما ألهبته سياطُ الجن، وشهد العالم من عربدة هذا المستيقظ المذعور أضخمَ ثورةٍ بركانيةٍ تعيها بطونُ التاريخ، فإنّ الجبلَ انشقَّ انشقاقاً من مفرقِ رأسهِ إلى طرفِ قدمهِ، وطار في الفضاء في كلّ مكانٍ، فأغرقت حممُه الملتهبةُ كلَّ مكانٍ بالجزيرة، وبلغتْ كثافةُ هذا الطفح المدمّر في بعضِ الأماكن مئة قدم أو تزيد، واستحالت الجزيرة كلُّها إلى قطعةٍ من اللهيب بما فيها ومَنْ فيها.

وقد ذكرت الصحف أنّ عدد سكان الجزيرة كان يُقَدَّر بثلاثين ألفاً، هلكوا جميعاً، هؤلاء هم الأناسيّ، عدا الحيوانات والطيور والحشرات والهوام، إذْ كان الثّوران من الرهبةِ بحيثُ لم يستطعْ أحدٌ أن يقاومه، وقد أحْجمت البلادُ المجاورة عن تقديم أيةِ معونةٍ، إذ لم يتصّور الناسُ أنه قد بقي أحدٌ يتنفّس.

وبعد أن همدت النيران، وهدأتِ حِدّة الجمرات، ورَجعَ البركان إلى هدوئه، جال العلماء من أنحاء الأرض يبحثون عن آثاره المدمّرة، لعلّهم يعرفون جديداً لا يتخيلونه، وانطلقتِ البعثات العلمية في كل مكان تنقّب، وتجمعُ الغرائب، وتدّون الملاحظات.

ولكن بعضٌ أفرادها أخذُوا ينْصتون إلى طرْقٍ ينبعث من بعض الحُفر المسدودة، فأسرعوا إلى مصدرِ الطَرْقِ، وبَعد أن أزالوا فوّهة الحفرةِ، وَجدُوا سرداباً طويلاً مشوْا فيه، فَرَأَوْا إنساناً آدمياً لايزالُ على قيد الحياة، فعنُوا به، ونقلُوه إلى مكانٍ أمينٍ، وعالجوه بالطعام والشراب، حتى استَردَّ صحته بعد أيام، وبسؤاله عن أمره، ذَكَر أنه كان مسجوناً في هذا السرداب، وقد حُكم عليه بالإعدام بجريمةٍ مؤلمة ارتكبها، وقبلَ التنفيذ بيوم ثار البركانُ، فذهب أهلُ الجزيرة جميعاً، غير أنّه رأى في السجن بقايا طعام أُعد لزملائه المسجونين مع آنية شرابٍ ممتلئة بقدر كبير من الماءِ، فعرف أنَّ مأساته في هذا السرداب ستطولُ، ولابدّ أن يقتصد ما أمكن في الزاد شراباً وطعاماً، فقد يُتَاحُ له الخلاص إذا هيأت

الأقدارُ من يزيح هذه السدود، وقد تحّقق أملهُ حين سمع الحركة من حوله، فأخذ يواصل الطرق ليهتدي إليه الباحثون!

وكان حادثاً عجيباً تحدّثتْ عنه الصحفُ، وظلّ موضع استغرابها شهوراً طوالاً، ولكنّه أمر رائع!!

٢٧٢ ـ مما روى الجاحظ

نقل الجاحظ في كتاب (الحيوان) هذه النادرة:

وزعمَ علماء البصريين أنّ طاعوناً جارفاً جاء على أهل دار، فلم يشكّ أحدٌ من تلك المحلّة، إنه لم يبق فيها صغيراً ولا كبيراً، وقد كان فيها صبيٌّ يرتضع ويحْبو، ولا يقومُ على رجلْيه، فعمد مَن بقي من المطعونين من أهل تلك المحَلة، إلى باب تلك الدار فسدَّه، فلما كان بعدَ ذلك بأشهر، تحوّل فيها بعضُ ورثة القوم، ففتح الباب، فلمّا أفضى إلى عرصة الدار، إذا هُو بصبيّ يلعبُ مع أجراءِ كلبّة، وقد كانتْ لأهل الدار، فراعه ذلك، فلم يلبثْ أن أقْبلت كلبةٌ كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبيُّ حبا إليها، فأمكنتْه من ضرعها، فجعل يعيش على لبنه، فظنّوا أنّ الصبيّ لمّا بقي في الدار وصار منسياً، واشتدَّ جوعه، ورأى أجراء الكلبة تستقي منها حَبَا إليها، فعطفتْ عليه، فلمّا سقتْه مرّة أدامت ذلك له، وأدام هو الطلب.

يقولُ الجاحظ: والذي ألهم هذا المولودَ مصَّ إبهامه ساعةَ يولد من بطن أمّه، ولم يعرف كيفيّة الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع من لبن الكلبة، ولو لم تكن الهداية شيئاً مجعولاً في طبيعته، لَما مَصَّ الإبهام وحلمةَ الثدي، فلما أفرطَ عليه الجوعُ، واشتدت حالتُه، وطلبت نفْسُه، وتلك الطبيعة فيه، دعته تلك الطبيعة، وتلك المعرفة إلى الطلب والدنو من الكلبة.

فسبحان من دبّر هذا، وألهمه، وسوّاه، ودلّ عليه.

أقول: وفي قصة حي بن يقظان للفيلسوف الأندلسي (ابن طفيل) حادثة

كهذه الطّرفة، إذ روى المؤلف قصّة رضيعٍ ماتتْ أمّه، فعطفتْ عليه ظبيةٌ، وجعلتْ ترضعه، حتى استوى واستعان على قوّته بنفسه.

٢٧٣ ـ من شعر المتنبي

لابدَّ للإنسانِ من ضجعةٍ ... لا تقلب المضجعَ عن جنبه

نحنُ بني الدنيا فما بالُنا ... نعافُ ما لابدَّ من شُربِهِ

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ ... ميتةَ جالينوس في طِبِّهِ

وربّما زادَ على عُمْرِه ... وزادَ في الأمنِ على سِربِهِ

فلا قضى حاجتَه طالبٌ ... فؤادُه يخفق من رعبه

فغايةُ المفرِطِ في سِلْمِهِ ... كغايةِ المُفْرِطِ في حَرْبِهِ

* * *

أساطير الأولين

٢٧٤ ـ أساطير الجن

تُروى عن (الجن) وصلتها بالإنس ـ وبخاصّةٍ شعراء الجاهلية ـ أساطيرُ كثيرة، يكتفي بعضُ المؤرّخين بتكذيبها، والقول بأنّها ملفّقة مخترعة، وهذا بدهيّ. ولكنّ وراءَها أشياء هامة، تجعلُها ميداناً للدراسة المتأنية، إذْ إنّها تُصوّر عقليةَ مخترعها، وأوهامَ المجتمع الذي تردّدت فيه، كما تعرِضُ نموذجاً من التفكير الخياليّ لقومٍ سمحوا لظنونهم أن تمتدّ إلى مدىً واسعٍ، ولم يَفُتْ السابقين من الباحثين أن يقفوا طويلاً عند ما تُوحيه هذه الأساطير، فجاءَ الباحثون بما فتحَ الله به عليهم من التأويل.

ولعلّ (الجاحظ) في القديم كان أوّلَ من رصد هذه الظاهرة، ونقل عن شيخه (أبي إسحاق النظّام) ما يفسّرُ مدلولها الواقعي.

قال الجاحظ عن أستاذه:

«وأصلُ هذه الفكرة أنّ القومَ تأثّروا بوحشة بلادهم، ومن أقام بالصحراءِ منفرداً استوْحَش، وابتلى بالوسوسة، وتمثّل له الشيء الصغير كبيراً، فإذا اشتملْت عليه الغيطان، وسمعَ صياحَ بُومةٍ أو مُجاوبة صدى، تصوَّر في نفسِه كلَّ شيءٍ باطلٍ. وربّما كان أحدُهم كذّاباً، فيأتي بشعْرٍ يزعُمُ فيه أنّه رأى الغيلان وكلّمها، ثم يتجاوز ذلك فيقول: قتلتها، ثم يتجاوز ذلك فيقول: رافقتها وتزوجتها».

وأذكرُ أني قرأت في رحلة المستشرق السياسيّ (عبد الله فيلبي) إلى منطقة الربع الخالي بالجزيرة العربية تعليلاً معقولاً لما يُسمع في الصحراء من أصواتٍ متجاوبة، يقولُ عنها الأقدمون: إنّها عزيفُ الجن، إذ قال فيلبّي: إنّه رأى هضاباً من الرمال تتراكم وتتجمّعُ بعضُها فوق بعضٍ، فإذا هَبّت العاصفة الشديدة حرّكتها

من أسفل وأعلى فيُسمع لتضارب الرّمل وتناثره صوتٌ ـ سمعه فيلبّي مرات عديدة ـ هذا الصوتُ يتجاوبُ مستمرّاً لبعض فترات حتى تهدأَ الريحُ، وقد سمعَه الأعراب من قبلُ، فظنوا أنّه عزيفُ الجنّ! مع أنّه صوتُ الريحِ الثائرةِ بتراكم الرّمالِ.. وهذا احتمال.

٢٧٥ ـ من الأكاذيب

قول (النظام) فيما روى الجاحظ ربّما كان أحدُهم كذاباً، فيزعُمُ أنّه رأى الجن وحادثها وتزوّجها، له شواهد كثيرة، منها ما حكاه من يسمّى (عمر بن يربوع ابن حنظلة) من أنّه قابل (السعلاة) إحْدى مخلوقات الجن فعشقها، وأراد أن يتزوّجها، فقال له أهلُها: إنّك ستجدُها خيْرَ امرأةٍ، ما لم ترَ برْقاً، كأنّهم حذّروه من حنينها إلى وطنها إذا رأت البرق، فكان زَوْجُها (عمر بن يربوع) يستُر البرقَ عنها إذا لاحَ في الأفق، كيلا تفرَّ، وقد ولدت له أولاداً، فغفل عنها ليلة ولاح البرق، فقعدت على جملٍ كبيرٍ وفرّت هاربةً، وقالت:

أَمْسِكْ بنيكَ عمرو إنّي آبق ... برقٌ على أرضِ السعالى آلق!

ولا أدري كيف يستر البرق في السماء!!

وكأنّ كذاباً آخر أعجبتْه فرية (عمرو بن يربوع) فَنَسجَ على منوالها، فقد حدّث الخوارزمي في شرحه بيتَ أبي العلاء المعري:

إذا لاحَ إيماضٌ سترتُ وُجوهَها ... كأنّيَ عَمْرٌو والمطيُّ سُعَالى

فذكَر قصّة (ابن يربوع).

ثم قال: ومِن ذلك ما حكى بعضُ العلماء (البَنَاكِتيَّة) نسبة إلى مدينة فيما وراء النّهرِ، تُدعى (بناكت) أنّ أميراً من أمراء هذه البلاد اصطاد من البحر جاريةً جِنّية جميلةً وجدَها في مياه (سَيْحون) فوكّل بها من يحفظها ويرقبها ويتعهّدها، بإدخالها في الماء حتّى بقيتْ عندَه مدّة، وولدتْ له أولاداً، فأمِنوا فرارَها، وتَغافلوا عنها فانتهزت الفرصةَ، ورَمتْ بنفسها إلى بَحْر سيحون، فَغابَتْ عن الأنظار.

يقولُ الخوارزمي: وهذه الحكاية إن كانت صدقاً فذاك، وإلاّ فقد عارضتُ كذباً بكذب.. وهو الوَاقع.

٢٧٦ ـ تأبّط شراً

قالَ (عمرو بن أبي عمر الشيباني): إنَّ تأبّط شراً كان أعدى ذي رِجلينْ وذي ساقينْ، وذي عَينينْ، وكان إذا جاعَ لم تقُم له قائمة، فكان ينظرُ إلى بعضِ الظِّباء بأسفل الوادي، فيقَع نظُره على أسمنها، ثم يجري خلفها فلا يفوتُه الظبي حتى يأخذه فيذبحه بسيفه، ويشويه ويأكلُه.

وإنما سُمّي تأبّطَ شراً، لأنه فيما حُكي لنا، لقي الغولَ في ليلة ظلماءَ، وفي موضع يُقال له: (دِحّى بطان) في بلاد (هُذيل)، فأخذتْ عليه الطريق، فلم يزلْ بها حتّى قتلها وباتَ عليها، فلما أصْبحَ حملها تحتَ إبطِه، وجاءَ بها إلى أصحابه، فقالوا له: (لقد تأبّط شراً) فصارَ اسمُه، واسمُه الأصح ثابت بن جابر، وقد نَسبوا له أنّه قال شعراً في قتيلته، ومنه:

وإنــي قــد رأيــتُ الغُــولَ تهــوْي	بسَهْــبٍ كــالصَّحِيْفَــةِ صَحْصَحَــانِ
فقلُــت لهــا: كــلانــا نضــوُ أيْــنِ	أخُــو سفــرٍ فخلّــي لــي مكــانــي
فشــدّتْ شَــدّةً نحــوي فــأهْــوى	لهـــا سَيفــي بمصقــول يمـــانــي
فــأضْــربهــا بــلا دهــشٍ فخــرّتْ	ســـريعـــاً لليــديــن وللجِــران
فلـــم أنفــكّ متكئـــاً عليهـــا	لأنظــر مُصبحــاً مــاذا أتــانــي

٢٧٧ ـ عن الأعشى

يُروى حديث عن (الأعشى) لا تدري من ذا لَفّقَه، وقد يكون لفّقه بنفسه، ليثبِت أنّه يُوحى إليه من أرض عبقر، وهي وادي الجن في بلاد العرب، وبذلكَ يعظمُ ما يقولُ، ويتردّدُ شعرُه في الآفاق قال الأعشى: خرجتُ أريدُ (قيس بن معدي كرب) بحضرموت، فضللتُ في أوائل أرضِ اليمن، لأنّي لم أكن سلكتُ

هـذا الطريقَ من قبلُ، فـأصَابني مطرٌ، فرَميْتُ ببصري أطلبُ مكانـاً ألجأُ إليه، فوقعتْ عيني على خِباءٍ من شَعرٍ، فقصدتُ نحوه، وإذا أنا بشيخٍ على باب الخِباء، فقـال بعد أن سَـلّمتُ عليه: هلمَّ، وأدخلَ نـاقتي خِباءً آخرَ كان بجانب البيت، فحَطَطتُ رَحلي وجلستُ، فقال: مَن أنتَ؟ قلتُ: أنا الأعشى؛ أقصُد قيسَ بن معدي كرب، فقال: حيّاك الله، أظنّك امْتدحْته الشعر، قلتُ: نعم، قال: فأنشِدْنيه فابتَدأتُ مطلعَ القصيدة:

رَحلَـتْ سميّـةُ غـدوةَ أجمـالهـا غَضْبـى عليـكَ فما تقـولُ بـدالهـا؟

فلما أنشدتُه هذا المطلع قال: حسبك؛ أهذه القصيدة لك؟ قلتُ: نعم، قال: مَن سُميّةُ التي تنسبُ بها، قلت: لا أعرُفها، وإنّما هو اسم أُلقي في رُوعي، فنادىَ يا سميّة: اخرْجي، وإذا بجارية جميلة خرجتْ، فوقفتْ، وقالت: ما تريد يـا أبتِ؟قال: أنشـدي عمّك قصيدتي التي مدحـتُ بها قيـس بن معدي كرب، فاندفعْت تنشدُ القصيدة، حتّى أتتْ على آخرها لم تَخرم منها بيتاً، فلمّا أتمتّها، قال: انصرفي، ثم قالَ: هل قلْت شيئاً غير ذلك؟ قلتُ نعم: كان بيني وبين ابن عمٍّ لي يقال له: يزيْد بن مسهر، ما يكونُ بين بني العمّ، فهجاني وهجوتُه فأفحمته، قال: وماذا قُلتَ فيه؟ قال: قلت:

ودَعْ هُـريـرةَ إنَّ الـركـبَ مُـرْتَحِـلُ وهـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أيّهـا الـرَّجُـلُ؟

فلمّا أنشدتُه البيتَ الأول، قال حسبُك، مَن هُريرةُ هذهِ التي نَسبت بها؟ قلتُ: لا أعرفها، وسبيلها سبيلُ التي قَبلْها، فنادَى: يا هُريرة، فإذا جاريةٌ قريبة السنّ من الأولى خرجت، فقال: أنشدي عمّك قصيدتي التي هجوتُ بها يزيدُ بن مسهر، فأنشـدَتهْا من أولهـا إلى آخرها، لم تخرمْ منها حرفـاً، فسـقط في يدي، وتحيرّت وتغشّتْني رعدةٌ، فلما رأى ما نزل بي، قال: ليفرجْ رُوعُك، يا أبا بصير، أنّا هاجِسُك، مِسْحل بن أثاثة، الذي ألْقى على لسانك هذا الشعر.

قال الأعشى: فسـكَنتْ نفسي، ورجعتْ إليَّ، وسكنَ المطر، فَدلَّني على الطريق، وأراني سَمْتَ قصدي، وقالَ: لا تَعج يميناً ولا شمالاً حتى تقعَ ببلاد قيس.

٢٧٨ ـ عَبيد بن الأبرص

وهذه قصّة تنسب إلى راويها يحيى بن أكثم، حيث حدّث بها أمير المؤمنين هارون الرشيد، وما أظن القاضي يفرغ لرواية هذه الأفاكيه، ولكن أصمعياً جريئاً اخترع القصّة، ونسبها إلى يحيى ليكون لها مكانها من الاعتبار، قال الراوي: قال الرشيد[1] ليحيى بن أكثم أتعرفُ قائلَ هذا البيت:

الْخيرُ أبقَى وإنْ طالَ الزّمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ!

فقال يحيى: حدّث عبيدُ بنُ الأبرص قال: كنتُ في بعض السنين حاجّاً، فلما توسطتُ البادية في شدة الحرّ، سمعتُ ضجةً عظيمةً في القافلة، ألحقتْ أولّها بآخرها، فسألتُ عن القصة، فقيل لي: انْظرْ، فنظرتُ فإذا أنا بشجاعٍ أسود فاغرٍ فاه كالجذع، وهُو يخُور كما يخور الثور، ويرغُو كرغاء البعير، فهالني أمره، وبقيتُ لا أعرف ماذا أصنع، فَعدلْنا عن طريق إلى أخرى، فإذا الشجاع أمامنا، ولم يتجرّأ أحدٌ على الاقتراب منه، فقلت: أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرّب إلى الله بالخلاص منه، فأخذتُ قربةً من الماءِ فتقلّدتُها، وسللْتُ سيفي، فلمّا رأى القربةَ سكنْ. ثم فتح فاه، فحملتُ فمَ القربةِ إلى فمهِ، وصَبْبتُ به الماء كما يُصَبُّ في الإناءِ، فلمّا فرغتُ مضى نازحاً، فتعجّبتُ من تعرّضه لنا، وسُرعة انصرافه دون أن يمسَّ أحدَنا بسوءٍ.

ثم عُدنا في طريقنا ذلك، وحَططنا رِحالنا في ليلةٍ مظلمةٍ مدلهمةٍ، فأخذتُ شيئاً من الماء وعَدلت إلى ناحية من الطريق، فنمتُ بعض الوقت، وانتَبهت، فلم أجدْ للقافلة حِسّاً، فقد ارتحلوا، وبقيتُ وحدي، فأخذتْني الحيرة، ولم أدري ما أصنعُ، وجعلتُ اضطربُ، فسمعتُ هاتفاً ينادني بالرَّجزِ، ويقول فيما يقول:

يا أيّها الشّخصُ المضلُّ مركبَه دونكَ هذا البكرُ منّا فاركبُهْ

---

(١) لم يصحب يحيى الرشيد، فلعله المأمون، كما كان ينبغي أن يلاحظ واضع الطرفة.

فنظرتُ، فإذا ببكر نائم عندي، وبكري إلى جانبي، فأنختُه وركبتُه، ومعي إلى جانبي بكري، فلما سرتُ قدر عشر أميال لاحتْ لي القافلة، وانفجرَ الفجرُ، ووقفَ البكْر، فعلمتُ أنّه قد حان نزولي، فتحولتُ إلى بكري، وجعلتُ أسألُ عن صاحب هذا الفعل الطيب، فالتفتَ إليَّ البكرُ، وهو يقولُ:

أنـا الشجـاعُ الـذي ألفيتَـي رَيضـاً ... واللهُ يكشِـفُ ضُـرَّ الحـائـرِ الصـادي
فجـدُتَ بـالمـاءِ لمّـا ضـنَّ حـامِلُـهُ ... نصْفَ النهارِ على الرَّمْضاءِ بالوادِي
الخيـرُ أَبقَـى وإن طـالَ الـزمـانُ بـه ... والشـرُّ أخبـثُ مـا أوْعيتُ مـن زادِ
هـــذا جـــزاؤكَ منّـــا لا تمُـــنَّ بـــه ... لـكَ الجميـلُ علينـا، إنّـك البـادي

قال الراوي: فعجب الرشيد، وأمرَ بالقصّة فكتبت، والأبيات فرُويت، وقال: لا يضيعُ المعروفَ أينما وضع؟

٢٧٩ ـ من شعر الحطيئة

مِـنْ يَفْعَـلِ الخَيْـرَ لا يَعْـدَمْ جَـوَازِيَـهُ ... لا يَـذْهَـبُ العُـرْفُ بَيـن اللهِ والنّـاسِ

* * *

أمثلة رائعة

٢٨٠ ـ من ستر مؤمناً

قال صديقي: رأيتُ اليومَ عجباً، فقد كنتُ أسيرُ مشيّعاً جنازة (فلان) وكان مفتّشاً كبيراً بوزارة المالية، فلمحتُ بين المشيِّعين رجلاً يبكي بحرقةٍ، وعليه من ملامح الحُزْنِ ما يدلّ على أنّه أقربُ أقربائه، فسألتُ عنه، فقال أهلُ الراحلِ: إنهم لم يروْه إلا اليوم، ولا يَعرفون عنه شيئاً، فدفعني الفضُول إلى معرفة أمرِه، وانتظرتُ حتى انْتهى الدّفنُ، ودنوت منه أعزّيه وأصبّرُه، حتى إذا ملك نفسَه، سألتُه عن صِلته بالفقيد، فقال: إنّـه لم يرهُ منذ عشرةِ أعوامٍ، وإنّما قرأَ نَعْيـه في الصحف، فـأدركتْه الحسرةُ عليه، ورأى مِنْ واجبـه أن يكونَ أول المشيّعين، مستمطِراً عليه رحماتِ السماء، فتعجبتُ بعضَ التعجب، وسألتُ: وعلام بلغ بك الحزنُ هذا المبلغ؟ وأولادُه وإخوتُه لا يبكون كما بكيت، فقال في انكسارٍ: لي معه قصّةٌ وسأرويها لك، لأنفس عن صدري، قلتُ هيّا، فبدأ يقول:

كنت منذ عشرة أعوام صَرّافاً ماليّاً بإدارة حكومية، وكانت الأموال تحت يديَّ، فمرض والدِي مرضاً شديداً، واحتجتُ إلى أنْ أمدَّ يديّ لمال الدولة، فأخذتُ خمسمئة جنيه راجياً أن يوفقني الله لسدادها فيما بعد، ولكنَّ الحظ العاثر شاء أن يحضرَ المفتش الماليّ بعد ثلاثة أيام، لبَحثِ خزينة الإدارة، فسقط في يدي، وعلمتُ أني مُؤاخذ بجريمتي، وسقطتِ الدموع من عينيّ، فرأيتُ الرجل يسألني لماذا تبكي يا بنيّ؟ فقصصتُ عليه ما قمتُ به من السرقة لعلاج والدي، وانخرطتُ في البكاء، فقال لي: أريد أن أرى والدك، فذهبتُ معه إلى المستشفى. وتأكد من صدقي، فقال يابني: سأدفع لك خمسمئة جنيه، وهي زكاتي في هذا العام، فتعال معي لتستلمها، وتضعها موضع ما أخذتَ، فلم أصدّق نفسي، ولكنّه بادر بالذهاب، وجاءني بعد ساعة بالمال، وقال: لقد اضطررتَ لتُنقذ أباك، ولم تَصرف المبلغ في ترفٍ أو كَماليات! ولكنْ لا تعدْ لمثل هذا، ومنْ يومها لم أرَ

وجهه حتى قرأت نعيه بالأمس!

ثم قال الرجل: وأنا أعرف من المفتشين من يتلمّسون العِللَ لعقاب مرؤوسيهم، ومن ينتحلون المآخذ انتحالاً، أمّا هذا النوع الكريم من الفضلاء فلم أرهُ من قبلُ ولا من بعدُ.. ولا أظنني سأراه.

٢٨١ - مكرمة أخرى

روى ياقوت في الجزء التاسع عشر من (معجم الأدباء) هذه المكرمة في ترجمه (هلال بن المحسن الصابي): «قال القاضي (ابن عيّاش): عرفتُ رجلاً اتصلتْ عطلته، وانقطعت مدته، فزوَّر كتاباً عن الوزير (أبي الحسن بن الفرات) إلى عامله بمصر المادرائي يتضمّن الوصاية به والإحسان إليه، فارتابَ العامل في الخطاب، لأنَّه وجد الصيغة أكثر مما يعهدُ في مراسلات ابن الفرات، فراعاهُ بقدر، واحتبسه عنده على وعدٍ وَعَدهُ به، وكَتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر ما كان، ويَعرض عليه الكتاب المزوّر، فقرأ أبو الحسن الخطاب، فَوَجد الرجل يكتُب أنّه من ذوي الحرمات والحقوق الواجبة على الوزير فسكتَ قليلاً، ثم عرض الخطاب على جلسائه، فمنهم من أشَار بتعذيب المزوّر، ومنهم من أشار بحبسه، ومنهم من أشار بقطع إبهامه كيْلا يعود إلى جريمته، فقال ابن الفرات: ما أبعدكم عن الخير، وأقصاكم عن المعروف، رجلٌ توسَّلَ بجاهنا، واستمدّ رزق الله بالانتساب إلينا. ويكون من رأيكم فيه هذا الذي أسمع! ثم إنّه أخذ الكتاب، ووقّع بقلمه عليه قائلاً: هذا كتابي وَلا أدري لم أنكرتَ أمره، واعترضتْك شبهة فيه، وليس كلُّ مَن خدمنا وأوجب حقّاً علينا تَعرفه، وهذا رجُلٌ خدمني في أيام نكبتي، وما أعتقده في قضاء حقّه أكثرَ مما كلّفْتُكَ في أمره من القيام به، فأحْسِن تفقّده، ووفّرْ رِفْدَه، وصَرِّفْه فيما يعُود عليه نفعه، ويصلُ إلينا بما يتحقّق به ظنُّه ويتبيّن موقعه».

ووصل الكتاب إلى العامل، فقام نحو صاحبه بأكثر مما يجب، ولم يمض وقت حتى دخل يوماً على الوزير ابن الفرات رجلٌ ذو هيئة مقبولة، وأقبلَ يُثني

عليه ويبكي، ويُقبّل الأرض، فقال ابن الفرات: مَن أنت؟ بارك الله فيك، فقال: أنا صاحبُ الكتاب المزوّر إلى عاملك، وقد سَتَرْتني سَترَكَ الله، فضحك ابن الفرات وقال: كم وصَل إليك منه؟ فقال: وصلَ إليَّ ممّا جمع لي عشرون ألف دينار! فقال ابن الفرات: الحمد لله، أقمْ عندنا وسنَرعاك بما أنت له أهل، واختبَرهُ فوجدَه كاتباً سديداً، فاستخدمه، وأجرى عليه العطاء الكثير.

٢٨٢ ـ امتحان الأطباء

كان أمين الدولة (ابن التلميذ) رئيس (المستشفى العضدي) ببغداد، وقد فَوّض إليه الخليفة الإشرافَ على صناعة الطب، وامتحان من يزاولها من الناس، وفي مجلسٍ من مجالس الامتحان، حَضَر شيْخٌ له هيئة ووقار، ولم يكن يعرف شيئاً كبيراً في صناعة الطبّ. فلما جاءَ دَوْره في الامتحان ورآه أمينُ الدولة صامتاً لا يشارك في الإجابة، قال له: ما السببُ في كون الشيخ لا يشارِك زملاءَه في البحث حتى أعرفَ حقيقة علمه؟

فقال الشيخ: يا سيدنا! وهل تكلّمتم في شيءٍ لا أعرفه وقد مرنت عليه منذ سنوات؟

فقال ابن التلميذ: وعلى مَنْ قرأتَ هذه الصناعة؟

فقال الشيخ: يا سيدنا إذا صَارَ الإنسانُ في مثل هذه السّن فما يليق به أن يُسألَ عن أساتذتِه، بل يُسأل عن تلاميذه، فقد ماتَ أساتذتي منذ زمن طويل.

قال أمين الدولة: جرت العادةُ أن أسأل عن الكتب الطبيّة التي قرأها من يزاوِلُ المهنة، فماذا قرأتَ؟

قال الشيخ: سبحان الله العظيم! صِرْنا إلى حدّ ما يُسأل عنه الصبيان، لمثلي لا يقال ماذا قرأت، بل يُقَال: ماذا ألّفت؟ وسأحدّثُك عن ذلك بعدَ حينٍ.

وسكت (ابن التلميذ) حتى خلا المجلسُ، ثم رأى الشيخ يدنو منه ليقول: ياسيدي: إعلمْ أنّي شختُ وكبرت، وأنا أمارس هذه الصناعة، وليس لي بها علم

كثير إلا ما جَرَّبتُه شخصياً بالمران، ولي أولادٌ وأصهار، فَسألتُك بالله ألاّ تفضَحني بين الناس، وألاّ تمنعْني التكسب لعيالي.

فسكت (ابن التلميذ) مفكراً ثم قال له: ولكنْ على شرط، هُو ألاّ تهجم على مريضٍ بما لا تعلم، ولا تشيرُ بفصد ولا بدواء مسهّل إلاّ للمرض القريب العادي.

فقال الشيخ: هذا دَيدني، ولذلك وثق الناس فيّ، ثم صفّق ابن التلميذ فحضر الجماعة، فوجَّه إليهم الخطاب قائلاً هذا شيخُكم، وقد عرفتُ فضلـه وكُنت جاهلاً قدره من قبل.

ومضى الامتحان، فجاء رجل ليسأله ابنُ التلميذ: على من تعلّمت هذه الصناعة؟ فقال الممتَحن: يا سيدي أنا من تلاميذ هذا الشيخ، وعنْه أخذتُ طرقَ العلاج، فابتسم (ابن التلميذ) وحار فيما يردُّ على الرجل، وأمهله لمجلس آخر.

٢٨٣ ـ في مجلس المأمون

كان (المأمونُ) مغرماً بمجالسة العلماء من حكماء وأطباء ومهندسين، فَمن أَنس فيه كفاءةً رفع قدره، وأجرى عليه الراتب المكافئ، لذلك رغب أحد الدارسين لمسائل الهندسة أن يحظى برعاية المأمون، ويُسمَّى (إبراهيم بن الأعجمي) فتوجّه إلى (سند بن عليّ) المنجم ليمهِّد له طريق الحضور إلى مجلس الخليفة، وكانتْ بابن المنجم وعكَة، فأحاله على محمد وعلي ابْنَيْ (موسى بن شاكر) وكانا صاحِبَي الأمر في المسائل الهندسيَّة، وبهما حَسَدٌ لكل نابغ في هذا الفن، كيْلا يتفوّق عليهما في مجلس المأمون، فناقشاه ليخذلاه ويبخساه فضله، وكان (السَّندي بن شاهك) حاضراً مجلس النّقاش، ففطن إلى غبْن وَلَدَيْ مُوسى بن شاكر، وعزَّ عليه أن يرجعَ إبراهيم خائباً، فتقدم إلى المأمون، وأسرَّ إليه بما كان، فسارع بإحضاره، وَجَعل يسأله فلا يجيب لعظم هيبته وإجلاله لمقام أمير المؤمنين، فالتفتَ المأمون للسَّندي وقال له: ماذا ترى؟ صاحبك لا يعرف شيئاً، فقال السندي: يا أمير المؤمنين: نحنُ جلساؤك وقد تعوَّدنا نقاشك

ومحاورتك ومع ذلك تأخذنا الرهبة والهيبة منك فننقطع في النقاش وهذا غريبٌ طارئ، وفد إلى حضرة أمير المؤمنين ويداه ترتجفان وقلبُه يدق، فلا بد أن ينقطع مهما كان مهندساً حصيفاً، وأشهد أمام أمير المؤمنين أني بعض تلاميذه! فليُسبغ الخليفةُ الرحيم فضله عليه إذا شاء.

فنظر المأمون متعجباً، وقال: أأنت تلميذُ ابن الأعجمي؟ فقال السندي: نعم يا أمير المؤمنين فسكت الخليفة ملياً، ثم قال: إذنْ هو من مهندسي الدولة من الآن، وله حجرتُه ومعمله وراتبه الكريم! فنهض ابن الأعجمي يُقبِّل يد الخليفة، ثم تراجَع بظهره إلى الوراء حتى بلغ باب الخروج، فأشار المأمون على السندي أن يخرجَ معه ليؤنسه ويبدّدَ هيبته، فقال له ابنُ الأعجمي: سيدي أتقول إنك أخذت عني وأنا أستاذُك؟ متى كان ذلك يا سيِّدي!!.

قال السندي: لا عليك، ستكون معي في عمل واحد، وسأعلِّمك كل ما يلزم من الرأي، فقد عزَّ عليَّ أن ترجع حزيناً يائساً، وكُلّنا طلاب علم.

وهكذا بدأ ابن الأعجمي العمل مجاوراً السّندي، ومازالَ به حتى أصبحَ ذا فهمٍ وإتقان.

٢٨٤ ـ عن الفضل بن الربيع

كُنت قرأت مقالاً للأستاذ (عبد الفتاح أبو مدين) لا أدْري أين موضعه الآن؟ ولكنّي أذكر خلاصته، وهي أن رجلاً ضاقت به الحال فزوَّر كتاباً بإمضاء الفضل بن الربيع إلى صاحب خزانته، يأمُره أن يصرفَ لحامل الكتاب ألف دينار، وما كاد صاحبُ الخزانةِ يفعلُ حتى قَدم الفضلُ، فسقط المزوِّر مغشِيَّاً عليه، ونظَر الفضلُ إلى صاحب الخزانة متعجباً، فأطلعه على الكتاب، فقال الفضل، عجباً، ولماذا يُغمى عليه، وقد أمرتُ له بصرف الدنانير، أهو يستقلُّها! أيقظُوه، وأعطُوه ما كتبت، ثم خرج، وحاول القوم إنهاضه حتى استفاق، وهو يظنُّ الخطر قد أحدق به، ولكنَّه وجد صاحب الخزينة يقدِّم له المبلغ، ويقول: لماذا ترتجفُ هكذا عند رؤية الفضل، وقد أكرمك، وأعطاك الأمر بالصَّرف دون تأخير، فتسلَّم

صاحبنا الدنانير، وهو ما يكادُ يصدّق.

إن هذه المكارم النبيلة في حاجةٍ إلى تحليلٍ وافٍ يكشِفُ ما تتضمن من نفائس الأخلاق، ولكني في هذه الشذرات راوٍ لا محلِّل!!.

٢٨٥ - حلم وصفح

وعـوراء جـاءتْ مـن أخٍ فنبـذتُها ... ورائـي وعنـدِي لـو أشـاءُ نكيـرُ

صبـرت لهـا والصبـرُ منـي سجيَّـة ... وإنـي علـى مـا نـابنـي لصبـورُ

ومـا أنـا ممـن يقسـم الهـمُّ أمـرَه ... ويسـألُ مـن يلقـاه كيـف يسيـرُ

ولكننـي كـالـدَّهـرِ أُشفِـي وأَشتفـي ... وأقضـي ولا يقضـي علـيَّ أميـرُ

* * *

في عالم الطبّ

٢٨٦ ـ الطب قديماً

في أحداث الطب القديم طرائفُ تلذّ القارئ، لأنَّ الطِّب بأي وسيلةٍ من وسائله عُرِفَ منذ نشأت البشرية، لأنَّ لكل مريض أهله الّذين يحاولون التخفيف عن مصابه، بما يملكون من وسائل، وهذه الوسائل مهما كانت بداءيتها الساذجة نوعٌ من الطب كما يتوهَّمون.

ومن طرائف أخبار الفراعنة في (مصر) أنَّ الكاهن كان الخاصّ بعلاج المرضى، وكان لهُ خادمان يسيران معه، يحملُ أحدُهما كتاب العزائم الخاص بالرقى والتعاويذ، ويحملُ الثاني صندوق العقاقير الطبية، وكانوا يوجِّهون العزائم والرقى إلى أحد آلهتهم وبالأخصّ الإله إيزوريس، ويقُول الكاهن في رُقْيته: يا إيزُوريس اشْف هذا المريض، كما شَفْيتَ حُوريس من آلامه المبرحة. خلِّصْني من أمراضي المستعصية كما خلَّصت فلاناً وفلاناً، ويذكر عدَّة أسماء لمرضى تمَّ شفاؤهم على يد الكاهن.

أما العربُ فكانوا في الجاهليّة يقومون بالعلاج المبْني على التجربة المشاهدة، وأطباء العلاج إذ ذاك من أُسرٍ تتوارث العلاج ابناً عن أب عن جد، وكان الكيُّ آخر الدواء مع شرابٍ لبعض النباتات المجرَّبة، ولم يقتصر العلاجُ على الإنسان، بل اشتهر من العرب أطباءٌ بيطريّون يعالجون الدّواب من الخيل والبغال والحمير والإبل بما يَعرفونه من العلاج المجرَّب، وقد اشتُهر (الحارث بن كلدة الثقفي) بأنه طبيب العرب، وقد دعاه (كسرى) إلى زيارته، ودارت بين الرجلين محاورة تناقلتها كتب الأدب على ما فيها من مبالغات! هذا إن تمت المقابلة فعلاً!.

٢٨٧ ـ عرافان شهيران

وفي صدر الإسلام كان العرَّافون يشتهرون بمداواة المرضى، ويُصدرون من أنواع العلاج ما يبشِّر بالبرء، وقد اشتهر بالشفاء من العشق عرَّافان كبيران هما عرَّاف نجد، وعرَّاف اليمامة، وكان لديهما شرابٌ خاص بالبرء من الهوى، تصحبُه بعض الرقى والعزائم، ويظلّ العاشقُ أسبوعاً كاملاً يشرب هذا الدواء، ويتناوبه العرَّاف بالرقى والتعاويذ حتى يسلو، والسلوُّ هنا لا يكونُ من الشراب والتعاويذ، بل يكونُ بما يُحاول به العرَّاف طيلة الأسبوع أن يَصرفَ العاشق عن مَحبوبته، فيقول: إن فلانةً وفلانةً وفلانةً أحسنُ منها وأجمل، وأنك رجلٌ، فلا ترْضى أن تَخضْع لأب فتاةٍ يكرهك، ويراك أقلَّ من أن تكون صهراً له مع أنَّ أباك أشرف منه وأفضل، وما يَزال به كذلك حتى يُوهنَ من عزمه، فيَعْرف باباً للسلو.

وقصَّة عروةُ بن حزامٍ مع عفراءَ معروفةٌ، فحين اشتدَّ به الوجدُ وظهرت علائم الموت في وجهه، بعثَ والده إلى عرَّافي نجد، وعرَّاف اليمامة، فجاءا معاً لمحاولة شفائه، وظلَّ كل منهما أسبوعاً يزاولُ مهمَّته الطبيَّة والنفسية في جدٍّ، فما وصلا إلى حلّ، وقد عبَّر عُروةُ عن تَجْربته مع هذين الطبيبين في قوله:

جَعلتُ لعرَّاف اليمامة حكمَه ... وعرَّافِ نجْدِ إنْ هما شفياني

فقالا: نعم نشفي من الداءِ كلِّه ... وقاما مع العوَّاد يبتدرانِ

فما تركا من رُقية يعلمانها ... ولا شَربةٍ إلا وقد سقياني

فما شَفيا الدَّاء الذي بي كلَّه ... ولا ادَّخرا نُصحاً ولا ألواني

وقالا: شفاك الله، والله ما بنا ... بما حَملت منك الضلوع يدانِ

٢٨٨ ـ في العصر العباسي

مرض أبو جعفر المنصور، فلم يُفلح أطباء بغداد في علاجه، فأُشيرَ عليه باستقدام كبير الأطباء من (جنديسابور) فحضر على عجلٍ، واهتَّم بأمره، فكانَ الشفاء على يديه، ومن ثمَّ أصبَح رئيساً للطِّب في (بغداد)، وزاوَل عمله في قصور الخلافة والأمراء حتى صار له ذكر عظيمٌ ومال جزيل.

ومرضَ (الرشيد) مرَّةً فلم يستطع (بختيشوع) طبيبُه الخاص أن يُبرئه سريعاً، فشكَّ في أمره، وأرادَ أن يمتحنه، فأحضر خادماً لهُ وأمَره أن يأتي ببولِ إحْدى الدواب، ويضعه في قارورة، ثم يعرضه على (بختيشوع) على أنه بولُ الرشيد، وقد تمَّ ذلك، وحضر بختيشوع ونظر إلى ماءِ القارورة، فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان. فقال (أبُو قريش) وقد كان حاضراً ولا يعلم حقيقة الامتحان: كذبت هذا بول إنسان، فقال له بختيشوع: أيها الشيخ الكريم إذا كان هذا إنساناً فلعلَّه تحوَّل إلى بهيمة، فضحك الرشيد، وسأل الطبيب من أين عرفت ذلك؟ فقال (بختيشوع): ليس له قوام بول الناس ولا لونهُ ولا رائحته، فقال الرشيد: وماذا يأكل صاحب هذا البول؟ فقال بختيشوع: يأكل الشعير، فابتسَم الرشيد، وأمر له بخلعة حسنة، وجعله رئيس الأطباء.

أقولُ: لم يُحسن الرشيد امتحان الطبيب، لأنَّ الفرق بين بول الحيوان والإنسان مما يدرك العامة في الحقول، وكان الأولى أن يكون الامتحان في موضوع آخر.

٢٨٩ ـ امتحان آخر

كان (الإفشين) قائداً لجيش (المعتصم) في حرب الخرَّمية، وكان يُحضر الأدوية للجرحى من بعض الصيادلة فلا تُفيد في شيءٍ، فحاول أن يمتحِن هؤلاء بما يبيِّن صحة الدواء، فقال لزكريا الطيفوري من بعض خاصته: ما نفعل في هؤلاء الصيادلة، وكلّهم كذابون، فقال زكريا: هناك سابقةٌ أيها القائد! فقد تشكَّك المأمون في ذمَّة صيادلة بغداد، وحار فيما يصنع بهم، فقال له بعض جلسائه: إنهم لا يطلُب منهم أيَّ دواءٍ إلا أحضروه، ولو لم يكنْ لديهم استبدلوه بشيء مما عندهم، فقال المأمون: سأُحْضِرُ اسماً من ذاكرتي لدواء لا وُجودَ له، وأبعثُ لسؤالهم عن هذا الدواء، وذكر المأمون اسم (سقطينا) وأرسل إلى جميع الصيادلة، فكلّهم بعث بدواء لا يُشبه دواء الآخر، ومنهم من أتى ببعض البذور، ومنهم من أتى بقطعةٍ من حجر، ومنْهم من أتى بوبرة جمل، فعنّفهم جميعاً، وأشهر أمرهم للناس.

قال صاحبُ الإفشين: وأنت، أيها القائد: عليك أن تفْعلَ هذه التجربة مع من عندك من الصيادلة، فاخترعَ (الإفشين) اسماً، وأرسل في طلبه من هؤلاء، فبَعْضهم أرسل الدواء وبعضُهم قال: إنَّه لا يعرف عنه شيئاً، فأحضرهم جميعاً، وصرَّح لمن قال إنَّ الدواء ليس عنده بمزاولة المهنة في معسكره وفي البلاد التي يحكمها أمير المؤمنين، أمَّا من اعْتَرف بوجود الدواء لديه فقد فضحهم وشهَّر أمرهم، ومنعهم من العمل في الصيدلة، ثم أصدر أمراً بنفيهم إلى الجبال.

٢٩٠ ـ طبيب نفسي

تقدَّم الطبّ النفسي اليوم تقدُّماً ملموساً، وعلى تقدّمه هذا لا يزال باباً للخديعة عند قوم، مهما حملوا أرقى الشهادات، وقد عُرف هذا الطب في القديم، واستعمله (ابن سينا) في علاجٍ أشرتُ إليه من قبلُ في هذه الشذرات المتواضعة، ومن هذا الوادي ما تمَّ على يد طبيبٍ بغدادي ماهر هو (أبو البركات هبة الله بن ملكا) إذ عُرض عليه مريضٌ يعتقد أن فوق رأسه قدراً مملوءً بالماء يثقل عليه، ولا يستطيعُ الخلاصَ منه، وبَطَلَتْ كلُّ محاولةٍ لإقناعه بوهْمه الخاطئ، إذ كان المريض كلَّما مشى تحت سقفٍ منخفض ركع إلى الأرض، كيْلا يصطدم القِدر من فوق رأسه بالسقف، وجاء أمرُه إلى أبي البركات، فحضر إلى منزل المريض الواهم، وقال لأهله: إذا حادثْت مريضكم وشرعْت في الأخذ والرد معه فأحضروا قدراً مملوءةً بالماء، وَضَعوا ساتراً من خلفِهِ، وارفعوها إلى محاذاةِ رأسه، وسأتكلَّم معه ثم أُعْلِنُ أني سأضرب القدر بهذه الخشبة ليقع، وجلس مع المريض، وطمأنه بأنَّه يرى القدر مملوءةً بالماء، ولا بدَّ من إزالتها، وجعل يتلو بعض التعاويذ، ثم رفع الخشبةَ وضرب بها فوق رأس المريض، فأسرع مَنْ خلف الستار وقذف بالقدر، فسال الماء وامتدَّ في المنزل. فدهشَ المريض حين رأى القدر مكسورةً والماء يسيل، وأقبلَ على الطبيب يصافحه ويقبِّله ويقول: قد كنتُ أحمل هذا الهمَّ فوق رأسي، ولا يصدِّقني أحد، ولولا وجودُ هذا الطبيب العظيم لصرت مجنوناً، ثم شُفيَ المريض، وعاد صحيحاً في كلِّ تصرفاته، ويذكر ماضيه المؤلم، وكأنه أفاق من كابوس.

٢٩١ ـ طبيب دمشق

أما طبيب دمشق (اليبرودي) وكان من أعظم أطباء القرن الخامس الهجري، وله دارٌ للعلاج الطبي بسوق (جيرون) فقد تحدث كثيراً عن تجاربه مع المرضى، ومما قالهُ هاتان الطرفتان:

١ ـ عبرتُ يوماً في سوق (جيرون) بدمشق فرأيتُ إنساناً قد راهن زميلاً له على أن يأكل خمسةَ أرطالٍ من لحم فرسٍ مسلوق مما يُباع في الأسواق، فأكبرتُ ذلك، وانتظرت لأرى العاقبة، فوجدتُه كلَّما أمعن في الأكل أخذَ يشربُ ماءً مثلّجاً، مما لا تحتمله قواه، وكأنَّه في رأيه يُساعده على الهضم والبلع، فقلتُ: لا بد أنْ سيُغمى عليه بعد قريب، وسيكون في حالةٍ أقرب إلى الموت. فلمّا انتهى من الطعام، وكسب الرهان، تبعْتُه إلى المنزل، لأشهدَ عاقبته، فلم يكنْ غير قليل وأنا واقف أمام المنزل حتى سمعتُ الصراخ والعويل، لأنّ أهل الرجل قد وجدوه ساقطاً على الأرض لا يتحرّك، فتيقَّنوا من وفاته، فأتيتُ إليهم لأفحص الرجل، ثم أخذتُه إلى حمّام قريب، وفتحت فمه بمعاونة أحد أقاربه، وجعلتُ أُسقِطُ فيه ماءً مغلياً مع إضافة بعض المواد المقيّئة، فأخذ يتقيأ شيئاً فشيئاً، حتى تحركت عيناه، وأخذ يعودُ إلى صوابه، وواصلت العمل إلى أن أفرغ كلَّ ما في جوفه، وعاد سليماً، وذاعت المسألة بين الناس وأحدَثَتْ شهرةً لي.

٢ ـ أما الطرفة الثانية فهي أنَّه رأى بدمشق خبّازاً يخبز الدقيق بمحلّه، ومرَّ عليه رجلٌ يبيع المشمش، فاشترى منه قدراً كبيراً، وجعل يأكل الفاكهة بالخبز الحار الخارج من النار لوقته، فلما فرغ من طعامه خرَّ مغشياً عليه، فإذا هو ميْتٌ، فجعل أهلُه يزدحمون عليَّ، ويرجون معاونتي في أمره، وقد يئس بعضهم، فأَحْضر الكفن، واستعد لغسله، فقلت لهم: حُطّوه أمامي، وأخذت أفحصُ موضع قلبه فإذا به لا يزالُ يدقُّ، ففتحتُ فمه وسقيْتُه شيئاً مقيِّئاً، فجعل يلفظ ما بداخله وداومت الشراب حتى فتح الرجل عينيه وأخذ يتكلَّم، وقام ليشكرني مُقبِّلاً قدمي، فقلت له: لا تأكُل الحار الساخن مع المشمش، فإنهما يُميتان الفيلة

والجمال فكيف بالإنسان! فقال: لا أذوقُ المشمشَ بعد الآن، ولكنَّ الخبز لا حيلةَ لي فيه.

٢٩٢ ـ يقول المتنبي

قال المتنبي بعد إصابته بالحمّى:

وزائــرتــي كــأنَّ بهــا حيــاءً ... فليــسَ تــزورُ إلاّ فــي الظّــلامِ
بــذلــتُ لهــا المطــارِفَ والحشــايــا ... فعــافتهــا وبــاتــتْ فــي عِظــامــي
يضيــقُ الجســمُ عــن نفســي وعنهــا ... فتــوسعــه بــأسبــاب السّقــامِ
يقــولُ لــيَ الطبيــبُ: أكلــتَ شيئــاً ... وداؤك فــي شــرابــك والطعــامِ
ومــا فــي طِبِّــه أنــي جــوادٌ ... أضــرَّ بجسمــه طــولُ الحمــامِ

* * *

عالم الغيب

٢٩٣ ـ عراك في غير ميدان

تشبّ معاركُ علميّة في أمور مشتهرة قُتلت بحثاً، ومع ذلك نجدُ من يُحاول بعثها، فما يكادُ يكتب عنها، حتى ينطلق الصوت المعارِضُ، ليعيد ما قيلَ من قبلُ، كما أعاد البادئ حديثَ مَنْ سلفَه، دونَ الوصول إلى فكرةٍ جديدةٍ تجعلُ من النقاش شيئاً طريفاً.

ومما احتربتْ فيه بعضُ الأقلام قضيةُ علم الغيب بالنسبة للنبيِّ، سواءٌ كان النبيُّ محمداً ﷺ أوْ مَنْ سَبقه من الأنبياء، والمسألةُ ليست من قضايـا العصر التي يترتَّبُ عليها اتِّجاهٌ خاص، حتى يُعادُ بحثُها، ولكنّها مسـألةٌ قديمةٌ، لا يترتبُ عليها تغييرُ وضعٍ، أوتجديد حالة، ولْنفرضْ أنَّها مسألةٌ خلافيَّةٌ بالنسبة لمن يَتَعبَّدون بأقوال الفقهاء دون الرجوع إلى الأصول الصحيحة، فما جدوى إعادة القول دُون إضافـةٍ ما، وقد عـنَّ لي أن آتي بشذراتٍ مُركَّزةٍ تُضيء بعض الجوانب، عَساها تُفْلح في إغلاق بابِ الجدل لدى من يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

٢٩٤ ـ النصوص الصريحة

يقول الله تعالى:

١ ـ ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٢ ـ ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩].

٣ - ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٤ - ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].

٥ - ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

هذه نصوصٌ صريحةٌ فيها المقنعُ كلّ المقنع لمنْ يقرأُ كتابَ الله. دون أن يتأثر برأيٍ قاله مؤلفٌ في كتاب، بل كان عليه أن يعلم أنَّ (القرآن) مهيمنٌ على كلّ قول، ولكنّ حوادثَ خاصةً رُويتْ في كتب السيرة، وهي بخصوصيتها المحدودة تكونُ استثناءً لا يخرِمُ القاعدة، وقد أوحى الله بها إلى رسوله ﷺ في ظروفٍ تستدعي هذا الإيحاء، هذه الحوادث ذاتُ الاستثناء كانتْ - في رأيي - مَوضعَ الاشتباه لدى مَنْ يدَّعون علم الغيب لأنبياءِ الله، دُون أن يرجعوا إلى النصوص الصريحة التي لا تحتمل التأويل.

٢٩٥ - الحوادث الخاصة

يقول الله عز وجل: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]

ومعنى الآية أن من معجزات النبي أن يُطلِعه الله على غيبٍ يتحتَّم علمه، حذراً من وقوع مغبَّةٍ لا تُحمد، والاطلاع حينئذٍ أمرٌ خاص، له وقتهُ المعلوم، وليس للنبيِّ أن يدَّعي معرفةَ الغيب بالإطلاق العام، إذ يعلم أن الغيب مما استأثر الله بعلمه، ولكنه يُوحِي لنبيِّه في بعض ساعات الخطر، بما يكشِفُ له وجه الحقيقة، وأقولُ في بعض الساعات، لأن أخطاراً كثيرة تتهدّدُ النبوةَ، ولا يُوحِي ربُّ العزة بشيءٍ عنها، وسأشيرُ إلى بعضها فيما بعد.

١ ـ فمن القسم الأول، وهو ما يُوحي به الله في بعض ساعات الخطر دَرْءاً لمغبّة وخيمة، ما جاء من أنّ حاطب بن أبي بلتعة كاتَبَ قريشاً برسالةٍ يُنبئهم فيها بما عزَمَ عليه الرسولُ ﷺ من السير إلى فتح مكة، إذ أرسل كتابه مع جاريةٍ كانتْ لبعض بني عبد المطلب، فوضعَتْه تحتَ شعرها، وسارتْ تُريد مكة.

فأُلهِمَ رسولُ الله ما اقترف حاطبٌ من ذنب، وأرسل علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلب منهما أن يلْحقا بالجارية، ويأخذا كتاب حاطبٍ منها، وسرعان ما أوْقفاها، وجعلا يُفتِّشان فيما ظهر، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي: إنّي أحلفُ بالله ما كَذبَ رسولُ الله ولا كَذبنا، ولتُخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنّك، فلما رأتْ أنْ لامناص من إظهار الكتاب، حَلّتْ شعر رأسها وأخْرجتْهُ، فأتيا به إلى رسول الله ﷺ، فسألَ حاطباً، فاعترفَ في أسفٍ، وهمَّ عُمر بقتله، ولكنَّ رسول الله ﷺ عفا عنه، وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

٢ ـ ومنه ما تحدَّث به سلمان الفارسي رضي الله عنه عن يوم الخندق، حيثُ قال: ضَربتُ صخرةً صلبة من صخور الخندق يوم الأحزاب فغلظتْ عليَّ، واستعصى أمرُها، ورسولُ الله ﷺ ينظر جهدي، فتقدّم، وأخذ المعول من يدي، وضرب به ضربةً لمعتْ ببرقٍ ساطع، ثم ضرب الثانية والثالثة، فلمع برقان منهما، فقلتُ لرسول الله ﷺ: بأبي أنت وأمّي، ما هذا الذي يلمعُ تحت المعول وأنتَ تضرب؟ فقال ﷺ: أَوَقدْ رأيت يا سلمانُ؟ قال: نعم، فقال: «أمّا الأولى فإنَّ الله قد فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانيةُ فإنَّ الله قد فتَح عليَّ بها الشامَ والمغربَ، وأما الثالثةُ فإنَّ الله قد فتح عليَّ بها المشرق، وكان الأمر كما قال. وقد عاش سلمانُ حتى رأى اليمنَ وفارسَ وبلاد الشام تُذعن للإسلام.

٣ ـ ومنه ما حدثَ في غزوة (تبوك) حين مرّ رسول الله بالحِجْر، فرأى ماءً

يهمّ المسلمون بشربه فنهاهُم عنه، ثم قال لهم: «ولا يخرجنَّ أحد منكم الليلة إلا ومَعه صاحبُه، فأطاعوا، غير رجليْن لم يبْلغهما النهي، فخرجَ أحدُهما لقضاءِ حاجته، فأخذه الخناق، وخرجَ الثاني من بعده لمثل ما ذهب الأوّل، فهبتْ ريح فحملتْه إلى مكان بعيد، وعلم الرسولُ بما كان، فقال: ألمْ أنهكم أن يَخرجَ منكم أحد، إلا ومعه صاحبه، فأمّا الذي أدركه الخناق، فقد دَعا له الرسولُ فشفي، وأما الآخرُ فقد ضلَّ حتى قدم إلى بلاد طيئ، فبعثتْ به إلى المدينة إكراماً لرسول الله ﷺ.

وفي السيرة أمثالٌ لهذه الثلاث.

أما الأخطارُ التي قُوبل بها الرسول ﷺ ولم يعلمْ مغبّتَها، حيثُ لم يُوحِ له الله بشيءٍ، فكثيرةٌ كثيرة، وكتبُ السيرة تَقُصُّها بتفصيلٍ وإشباعٍ، وقد ألمَحَ إليها الأستاذ (أحمد محمد جمال) حين قال:

«لو كان النبي ﷺ يعلمُ الغيبَ كلَّه، لاستكثرَ من الخير، ولما مسَّه سوء أعدائه ومكايدهم، وحَسب لكل هزيمةٍ في المعارك التي هُزِمَ فيها المسلمون حسابها، قبل أن تلوحَ الخاتمةُ، ولما أسِف على كُفْرِ من كفر، ولما حَزن على مُسارعة من يُسارعون إلى الكفر، أو على قول من يقولون: لستَ مرسلاً، ومن يطلبون منه مطالب الإعْنات والإعجاز، إذ إنَّ من يعلم ما سيحدثُ له لا يُبالي به إذا حدثَ، فقد استقرّتْ نفسُه على تلقيه واستقباله، ولكنَّ النبيَّ ـ كما يذكر القرآن في عدَّةِ مواضع ـ كانَ يأسفُ، وكان يهمّ أن يبخع نفسه، وكان يضيق صدرُه بما يفاجأُ به من كروب».

٢٩٦ ـ السابقون من الأنبياء

هذا عن رسول الله خاتم الأنبياء ﷺ، أمّا ما يؤكدُ أنّ سابقيه من الأنبياء والمرسلين لم يكونوا يعلمون الغيب، فما تشهدُ به هذه الحقائق:

١ ـ لقد أكل آدم عليه السلام من الشجرة، ولم يكُ يعلم أنَّها خديعةٌ من وساوس إبليس، ولو علم لما أكل، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢].

٢ ـ لقد سأل نوحٌ ربَّه في شأن ابنه، ولو علم أنَّه من أهل النار ما همَّ بسؤال، وهذا ما يدل عليه قوله فيما رواه رب العزة على لسانه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، فقال له ربه: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٦].

٣ ـ خاف إبراهيم عليه السلام من الملائكة حين نزلوا بساحته، ولو عَلم الغيب ما خاف، يقولُ الله تعالى حاكياً أمره: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٨].

٤ ـ حـارَ لوطٌ في أمره مع قـومه حين خفّوا إليه، يُـريدون إيذاء أضيافه، وصاح بهم ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾، فطمأنتْه الملائكـة هاتفةً ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨٠ ـ ٨١]

٥ ـ ويعقوبُ لم يكن يعلمُ من أمر يوسفَ على وجه اليقين شيئاً، ولو علم ما ابيضَّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم، وأقولُ على وجه اليقين، لأنَّ إحساساً داخليّاً كان يعتاده هَاجِساً بالأمل، والأملُ سلوى المحزونين، وإن كان بعيداً بعيداً، وهو ما عبَّر عنه بقوله لبنيه: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

٦ ـ أما موسى فلم يكن يعلمُ شيئاً عن ارتدادِ قومه في غيبته حتى أخبره الله بقوله: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه: ٨٥ ـ ٨٦].

٧ ـ وداوُد عليه السلام، تَسوَّر الملكان عليه المحراب، فما عرفهما ساعتئذٍ حتى إذا فكّر في أمرهما متئداً استغفر ربه، وخرَّ راكعاً وأناب ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [سورة صٓ: ٢٥].

٨ ـ وسليمانُ لم يعرف السبب في غياب الهدهد، فتوعَّده وهدَّده بالذبح، فلما جاءه قال له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٣].

٩ ـ وعيسى عليه السلام لم يعرفْ أنصاره إلا حينَ أجابوا سؤاله حين قال: ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف: ١٤]، وما أظنّنا بعد هذه الأدلة الساطعة في حاجةٍ إلى مزيد..

وبعدُ، فهذه نصوص قاطعةٌ لا تقبلُ التأويل، ورجاؤنا ممن يُثيرون القضايا العلميـة للإثارة الجدلية فحسـب، أن يتَّجهوا إلى ما يُفيد النـاس في معاشـهم ومعادهم، فذلك أحرى بالكاتبين.

* * *

الخُطوةُ الأولى

٢٩٧ ـ أول مقالة

ما أجمل أحلامَ الصبا، كان الفتى المراهق في هذا العهد الناضر، يحلمُ بغدٍ مشرقٍ ساطع، ويخيَّل إليه أنَّه أصبح قابَ قوسين من تحقيق حلمه متى ظهرت لعينه أولُ بادرة.

أذكر أنَّ أوَّل مقالةٍ كتبتُها كانت بمجلة (الرسالة) وأنا طالبٌ في السنة الثالثة بالمعهد الابتدائي، كنت قرأتُ نقداً نحوياً للأستاذ (عبد المتعال الصعيدي) ففهمتُ منه أنَّه هو الذي يتحدَّث عن رأيه، لا أنه ينقل كلام سواه، وبدا لي وجهٌ آخر فيما نقله فسارعتُ بالرد عليه، وكان الأولى أن يوجَّه الرأي إلى من نقل عنه، وقرأ صاحب (الرسالة) نقدي فرآه صواباً، وبادر بنشره في العدد (٣٤٢) الصادر بتاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٤٠م.

وظهرت مجلة الرسالة يحمِل فهرسها أسماء كبار الكتاب من أمثال أحمد حسن الزيات، وزكي مبارك ومحمود محمد شاكر، وإبراهيم ناجي، وصلاح الدين المنجد، ثم اسمي المتواضع، ولم أصدّق عينيَّ، لأن نشوةً ملكتْني جعلتني أسير في الشارع إلى غير قصدٍ، بل جعلتني أطرُقُ منازلِ زملائي الطلبة، لأقولَ لهم: إني قد نشرتُ نقداً بالرسالة، وقد تعجبتُ من هذا الشعور الطاغي الذي تملَّكني، وهذه الفرحة التي جعلت تُقيمني وتقعدني، وخلتُني إنساناً شاذاً أو مجنوناً، ولكني قرأتُ لكثير من الكتّاب ما يشبِهُ مشاعري، بل وما يفوقها سطوةً وفيضاناً، فاطمأننتُ إلى أني لم أكن مجنوناً، ثم رأيتُ أن أُتحِفَ القارئ هنا ببعض ما قرأتُ.

٢٩٨ ـ عبد الرحمن شكري

الأستاذ (عبد الرحمن شكري) أحد أساطين الأدب الحديث، وأوَّل ثلاثة من ذوي التجديد الشعري المعاصر، حيث كان هو وزميلاه الأستاذ عباس محمود

العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني من حملة لواء التجديد شعراً ونقداً، وقد عُرف اتجاههم باصطلاح نقدي هو (مدرسة الديوان) هذا الشاعرُ الكبير، والناقد القدير، تحدث عن شعوره لدى نشر أوّل أثرٍ أدبي له فقال في كتاب (الاعترافات):

«إني لأذكرُ يومَ نُشِرَتْ لي أولُ قصيدة، وقد اشتريتُ الجريدة التي نُشِرَتْ فيها، وصرت أقرأ القصيدة مراتٍ عديدةٍ، وكان يخيّل إليّ أنَّ الحروفَ ترقصُ على الجريدة، وصِرْتُ أخبط خبط الضالّ في الأزقة والطرق، وكلّما نظر إليّ أحدٌ حسبته قد قرأ القصيدة، وأُعجِبَ بها، وكان يخيَّل إليّ أنها أحدثتْ أثراً بالغاً في نفوس الناس، وأنها أصلحتْ من عواطفهم، وقوتها، وزادتْ في عظم نفوسهم، وأنها ستحدث تغييراً في سنن الوجود وأنظمته، وخيل إليّ أنَّ الهواء الذي كنت أنشقه في هذا الكون هذا اليوم غير الهواء الذي أنشقه كلَّ يوم، ولا يعدلُ مقدارَ هذا السرور شيء غير الحزن الذي نالني حين قرأتُ نقداً لها في إحدى الجرائد، فخيّل إليّ عند قراءته أنَّ هناك مؤامرةً تدبَّر في هذا الوجود يُرادُ بها ضُرّي والإساءةِ إليّ».

هذا الحزنُ الذي غمر الأستاذ (شكري) قد غمرني أيضاً حين قرأتُ في العدد التالي من الرسالة ردَّ الأستاذ (عبد المتعال الصعيدي) عليَّ إذ أعلن أني أخطأت حين وجهتُ النقد إليه، وكنتُ قسوتُ في الرد عليه، فذكرتُ عبارةً لا موجبَ لها، فكان من الحتم أن يقسو، وقد شمتَ بي بعضُ الزملاء، فكنتُ أحاوِلُ أن أعتزلهم، وكأني ارتكبت جرماً.

٢٩٩ ـ الأستاذ حافظ محمود

يُعتبر الأستاذ (حافظ محمود) أحدُ شيوخ الصحافة الكبار في مصر، وقد كان نقيباً للصحافيين أمداً غير قصير، ورئيساً لتحرير مجلة (السياسة) الأسبوعية الأدبية زمناً طويلاً، حيث تنازل له الدكتور (محمد حسين هيكل) عن رئاسة التحرير، تقديراً لمكانته الأدبيّة، وقد تحدَّث كثيراً عن ذكرياته الصحفية في كتبٍ مختلفةٍ، ثم أفرد في مجلة (الثقافة) فصولاً أخرى تدور هذا المدار، ومما كتبه في (الثقافة) حديثاً شائقاً عن أول مقالٍ نشره بالصحف قال فيه:

«كانت البلاد مشغولةً بالمحاكمات السياسية، فقلت في نفْسي لأكتب موضوعاً عن نفسيَّة القاضي، ونفسية المتهم، ولأجرب نشره في أعظم الصحف الثقافية آنذاك، وهي جريدة (السياسة) الأسبوعية، ولأبْعث بالمقال عن طريق البريد، ووضعتُ المظروف الذي يضمُّ المقال في غسَق الليل في صندوق البريد الكبير، الذي كانت الجريدة تضعه على بابها، وبينما كنتُ أصلِّي الجمعة في (مسجد البهلول) بالقرب من دارنا في حي (السيدة زينب)، قابلني زميل كريم بكلية الحقوق، وقال لي مبروك، فاتجه ذهني إلى الامتحانات، وقلتُ له: ومِنْ أينَ عرفت؟ فقال: من جريدة (السياسة) اليومية، لأنَّها نشرت إعلاناً عن مجلة السياسة الأسبوعية، وفيه موضوعُ نفسية القاضي ونفسية المتهم، بقلم الأديب (حافظ محمود) ولو كان ما قرأتُه عن نتيجة الامتحان وتفوّقي فيه لما أحسستُ بكلِّ هذه النشوة التي أحسستُ بها في هذه اللحظة، لكنّها كانت نشوة أرَّقتني فصحوتُ قبل الفجر، ثم توضأتُ، وقصدتُ مسجد (السيدة زينب) فصليت، وخرجتُ إلى باعة الصحف فاستوقفتُ أحَدهم، وابتعتُ منه نسخةً من (السياسة) الأسبوعية، ووقفتُ تحت عامود النور في الشارع لأقرأ مقالي».

لم يتمادَ الأستاذ (حافظ) في تحليل مشاعر النشوة كما فعل الشاعر الكبير (عبد الرحمن شكري)، ولكنَّ أرقه طول الليل، وقيامه قبيل الفجر، وقطعُ الوقت في الصلاة حتى تحين ساعةُ الشراء، كلُّ ذلك يؤكِّد انفعالاتٍ لذيذة أحسَّ بها الكاتب الكبير.

٣٠٠ـ الأستاذ علي الطنطاوي

من منا لا يعرف أديب العربية المبين الأستاذ (علي الطنطاوي)، وقد تحدّث عن كل خلجة أحسّ بها في حياته المباركة حديثاً مضمخاً بالعطر، ومما كتبه حديثه عن أول مقالٍ نشرهُ في جريدة، لقد كتب مقالاً أدبياً وهو غلام يافع، وعرضه على رفيق صباه الشاعر المطبوع الأستاذ (أنور العطار) فأُعجب به، وأشار بنشره في مجلة (المقتبس) التي كان يصدرها الأستاذ (أحمد كرد علي) في دمشق، فاتجه الفتى من فوره لرئيس التحرير.

يقول الأستاذ الطنطاوي: ولم يكنْ من إخواننا مَنْ يعرف طريقَ صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها، وكنا يومئذٍ متلبّسين بجريمة الحياء التي أقلع عنها شباب اليوم، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه، فأخذ الأستاذ (أحمد كرد علي) المقال وقرأه، فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً، ونظر في وجهي فرأى فتى فطيراً فعجب أن يكون ذاك من هذا، وكأنَّه لم يصدقْه، فاحتال عليَّ حتى امتحنني بشيءٍ أكتبه له، زعم أنَّ المطبعة تحتاجُ إليه، فليس يصحُّ تأخيره، فأنشأتُه له إنشاءَ من يُسابق قلمُه فكرَه، فازداد عجبُه، ووعدني بنشر المقال غداة الغد، فخرجتُ من حضرته، وأنا أتلمَّس جانبي أنظر هل نبتت لي أجنحةٌ أطير بها، لفرط ما استخفَّني من السرور، ولو أنّي بُويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد، وسرْتُ بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً، وما أحسبني نمتُ تلك الليلة ساعةً، بل لبثتُ أتقلَّب على الفراش، أتصوّر أيَّ جنة عدن سوف أدخلُ في غداة الغد، أيّ كنز سأجدُ، وجعلتُ أترقَّب الصباحَ ولا ترقبَ عاشقٍ متيَّمٍ ينتظرُ وصلاً بعدَ هجران، حتى إذا انبثق الفجر وأضحى النهار، أخذت الجريدة فإذا فيها المقال، وبين يديه كلمةٌ لو قيلت للجاحظ لكانت كبيرةً عليه.

والطريفُ أنَّ للأستاذ الطنطاوي مقالات يذمُّ فيها حرفة الأدب، ويُبدي ندمه الشديد أن صار أديباً مرموقاً، ويتساءلُ ماذا كسب من عشرات الآلاف من الصحف التي دوّنها، وهو كلام يقال في ساعات الضيق فحسب، ولكن سرعان ما يحلّ الصفاء.

٣٠١ ـ أول قصيدة

قالَ صاحبي: نشأتُ أحبُّ الشعر، وأقولُه بيني وبين نفسي، ولا أجرؤ أن أذيعَه بين زملائي خشية أن تسقط منزلتي إذا رأوني أجري في ميدانٍ لستُ من أربابه، ثم مات صاحبُ جريدة (الأهرام) جبرائيل تقْلا باشا، وشاهدتُ قصائد المراثي تنثال على الجريدة فتسارع بنشرها، وتوالت القصائد تحمِلُ أسماء المشهورين والمغمورين معاً، فخطر ببالي أنَّ الجريدة فتحتْ مجالها لكلِّ قائلٍ،

وأنّي إذا قلت شعراً في رثاء صاحب (الأهرام) فسيجدُ مجاله للنشر في أكبر صحيفةٍ في العالم العربي، وهي فرصةٌ يجب ألاّ تفوتني، ومن ثَمَّ فقد خلوتُ إلى نفسي، ونظمت عِدَّةَ أبياتٍ نشرَتْها (الأهرام) بالعدد الصادر بتاريخ ١١/٧/١٩٤٣، وكان منها هذه الأبيات:

أنْفذَ الموتُ في العرين سهامَهْ ... فعزاءً إن أسكتتْ ضرغامَهْ

كيف يجدي العزاءُ في خطبِ شعبٍ ... أوْقَد الهمُّ في حشاه ضرامَهْ

قام يستقبلُ الضياءَ صباحاً ... فرأى الكونَ لم يفارِقْ ظلامَهْ

فاجأتْه (الأهرامُ) سوداءُ ولهى ... نكسَ الحزنُ فوقها أعلامَهْ

وبُكاءُ (الأهرامِ) أولُ شيءٍ ... يقفُ الشعبُ في ارتباكٍ أمامَه

أين (تقلا)؟ قم اسأل اليوم (تقلا) ... كيف ألقى إلى المنايا زمامَه

ولما كنتُ طالباً بمعهد الزقازيق الديني فقد كتبتُ تحت اسمي (طالب بمعهد الزقازيق) ولكنّ الجريدة جعلت عنوان القصيدة (دمْعَة معهد الزقازيق) وهو عنوان لم يخطر ببالي أن أكتبه، وقد سررتُ كثيراً بنشر الأبيات وأخذت أباهي بها، ولكن لم أكد أذهب بعدَ يومٍ إلى المعهد، حتى استدعاني شيخُ المعهد، وسألني محتجّاً: من خوّلَ لك أن تتحدث باسم المعهد في رثاءٍ لم أُستَشَرْ في أمره، وربّما وجدتُ لديَّ ما يمنع نسبته إلى المعهد؟ قلتُ: إنّي لم أختر العنوان، ولكنَّ الجريدة هي التي كتبتْه، قال: هذا غيرُ معقول، وقد ورطّتَ المعهد في أمرٍ لَيْس من شأنه، وسكتَ غاضباً، ثم خرجتِ (الأهرامُ) في اليوم التالي بمقالٍ رنَّان في رثاء صاحبها، بقلم فضيلة الشيخ (محمود أبو العيون) شيخ معهد الإسكندرية، وظهرت مجلة (الأزهر) ناعيةً الرجل بمقالٍ كبيرٍ ملأ صفحةً واسعةً من صفحاتها، فأخذتُ المقالين، وذهبتُ بهما إلى شيخ المعهد، فقال: لستَ وحْدك، إذنْ فقد زال الخطر.. مع أنّه لم يوجد خطرٌ ما أصلاً!.

* * *

أعياد حزينة

٣٠٢ ـ عيد الشعراء

لم يحتفلْ شعراء العربية بعيدي الفطر والأضحى في العصور الماضية كما احتفلُوا في العصر العباسي بالأعياد الفارسية كعيد النيروز، وعيد المهرجان، وكلّ ما يُروى عنهم في هذا المجال، هو تهنئة الخلفاء بالعيد، بمعنى أنَّ الكلام عن هذا الموسم الحافل يأتي عرضاً خلال المديح، وأظهرُ مثالٍ لذلك قصيدة (البحتري) في تهنئة (المتوكل) التي يقول فيها:

فانعمْ بيومِ الفطرِ عيداً إنَّه ... يومٌ أغرُّ مِنَ الزمانِ مُشَهّرُ
أظهرتَ عِزَّ الملكِ فيه بجحفلٍ ... لجبٍ، يحاطُ الدينُ فيه ويُنْصَرُ

ومضى الشاعر يصف الموكب الذي ظنَّ الجبال تسير فيه، وسمع الخيل تصهل، والفوارس تتنادى، والسيوف تلمع، والرماحَ تعلو، والناسَ يتطلَّعون لرؤية الخليفة. ويعتقدون أنَّ مشهدَه من نعم الله التي لا تعدّ، وهذا شيء، وشعور البهجة بيوم العيد شيءٌ آخر.

على أنَّ هناك شعراء آخرين، فاجأهم العيد في ظروفٍ نفسيَّة عسيرة، تتطلَّب الحزنَ لا الفرح. فانبعثوا يتحدَّثون عن مشاعرهم الشجية في يومٍ يُفترض فيه أن يكونَ يومَ مسرَّةٍ، لا يومَ حُزْنٍ، ومن هؤلاء بحسب الترتيب التصاعدي في الزمن (محمود سامي البارودي) و (المعتمد بن عبَّاد) و (أبي فراس) و (المتنبي) وغيرُ هؤلاء الأربعة موجودٌ لا محالةَ، ولكنَّ المكان لا يتَّسع للجميع.

٣٠٣ ـ البارودِيُّ الفارس

(محمود سامي البارودي) اشتهر بأنه رب السيف والقلم، لأنَّه شجاعٌ

صنديدٌ، خاضَ المعارك الحامية في أوروبة مع الجيوش العثمانية، ووصف أهوالَها الشداد، وقد مرَّ عليه عيدُ الفطر سنة١٢٩٤هـ، وهو يقاتل الروس في حربٍ مشهودةٍ، انتقلتْ وقائعها إلى رومانية والصّرب والجبل الأسود. وكابدَ من أزمات الحرب ما أحسنَ تصويره حين تحدَّث عنْ جيوش الأعداء، وقد قدِموا مِنْ كل صوب، قباح النواصي، غبر الوجوه، مزعجي الأصوات:

إذا راطنُوا بعضاً سمعتَ لصوتِهم	هديراً تكادُ الأرضُ منه تميدُ
قباحُ النواصي والوجوهِ كأنَّهم	لغيرِ أبي هذا الأنامِ جنودُ
لهم صُورٌ ليستْ وجوهاً، وإنَّما	تُناطُ إليها أعينٌ وخدود
يخورون حولي كالعجولِ وبعضُهم	يهجِّن لحن القول حين يحيدُ

وفي سوادِ هذه المعارك، جاءَ إلى الشاعرِ من يذكّره بأنَّ هذا اليومَ يومُ عيد المسلمين، هُنا جعل (البارودي) يقارن بيْن من يقضي النعيمَ سعيداً يلبس الجديد، ويركب الفارهَ، ويطعمُ اللذيذَ، ويبيت جذلانَ ناعماً ذا نشواتٍ، وبين من تسوقه الأهوال إلى خوضِ الحتوفِ بين الأرماح والسيوفِ، فإذا انقضتِ المعركةُ وخلا وقتاً ما لنفسه في (سَرَنْسوف) تذكَّر غربته القاسيةَ، واستشعر البرودة بين الثلجِ والأعاصيرِ وذلك بعض ما صوَّره في قوله:

ألا أيها اليومُ الذي لم أكُنْ له	ذَكوراً سوى أن قيل: ذلك عيدُ
أتسألُنا لبْسَ الجديد سفاهةً	وأثوابنا ما قَدْ علمتَ حديدُ
لِيهْنَ بهِ مَنْ باتَ جذلانَ ناعماً	أخا نشواتٍ ما عليه حقودُ
ترى أهلَه يستبشرون بقربِهِ	فهم حولَه لا يَبرحون شهودُ
إذا سار عنْهم سار وهو مكرَّمٌ	وإنْ عادَ فيهم عاد وهو سعيدُ
فمَنْ لغريبٍ (سَرَنَسوف) مقامه	رمتْ شمْله الأيامُ فهو لهيدُ
بلاءٌ بها ما بالجحيم، وإنما	مكانُ اللظى بَلْجٌ بها وجليدُ

وما ظنك بعيدٍ ينقضي بين الرماح والخيل، والثلج والجليد، والعدوُّ الدميم المنظر، والهول المترقب عن قريب.

٣٠٤ ـ المعتمد بن عباد

سيرةُ (المعتمد بن عباد) ملك (أشبيلية) ذائعة مشتهرة، فقد كان (المعتمد) شاعراً جواداً جعل قصره شبيهاً بقصر (الرشيد) في دولة (بني العباس)، بل كان أعطف على الأدباء من (هارون الرشيد) لأنَّ الخليفة العباسي كان يسمعُ ويتذوّق فحسب، أما (المعتمد) فكان شاعراً راويةً ناقداً، ينظمُ الشعر، ويستمعُ إلى المدائح، فيبدي فيها رأيه النقدي، وقد أزعجتْه حروبٌ كثيرة بينه وبين الفرنجة، فاضطرّ إلى الاستعانة بملك المغرب (يوسف بن تاشفين) فأعانه في معركة (الزلاقة) التي انتهت بانتصار المسلمين، وأبدى فيها (المعتمد) من ضروب البسالة والإقدام نظير ما أبدى ملك المغرب، حتى كان الفوز مشتركاً بينهما، ولكنَّ (ابن تاشفين) طمع في الأندلس، وأخذ يتمحّل الأسباب لإسقاط (المعتمد)، ويجدُ من المنافقين من يساعدونه على اتساع ملكه، ويسعون بالنقيصة والمعابة في بطلٍ سبق أن نالوا خيرهُ، وتأزَّم الموقف أمداً محدوداً، حتى استطاع (ابن تاشفين) بقوته أن يُسقِط المعتمد، وأن يسوقه مع زوجته ومن بقي من أولاده على ظهر الحياة أسراء سُجناءَ في (أغمات) وسُجن الملك الشاعر الجواد في منزل ضيق، بعد الجاه الممتد، والصيت المُدوّي، ومن نذالة بعض الشعراء أنهم قصدوه مستجْدين وهو في العسر الشديد، فجعل يجودُ عليهم بما يلبس من الثياب، وفي هذه الآونة مرَّ عليه العيد حزيناً أسيراً، ينظر إلى أولاده في أسىً ضارعٍ، وحزنٍ كئيبٍ، فهاجت شاعريته الحزينة، ونظم قصيدةً باكيةً قال فيها:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا ... فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا

ترى بناتِك في الأطمارِ عاريةً ... يغزِلْنَ للناس ما يملكنَ قطميرا

بَرزْنَ نحوك للتسليمِ خاشعةً ... أبصارهنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأْنَ في الطينِ والأقدامُ حافيةٌ ... كأنَّما لم تطأْ مسكاً وكافورا

قد كان دهرُك إنْ تأمرْه ممتثلاً ... فردَّك الدَّهرُ مَنْهياً ومأمورا

مَن باتَ بعدَك في مُلكٍ يُسرُّ بهِ ... فإنَّما باتَ بالأحلامِ مغرورا

وقد قرأت أكثر ما كُتب عن (المعتمد) من المؤلفات، فاستوقفتني عبارةٌ

موجزةٌ هي وحدها تغني عن ألف كتاب في تصوير نفسيّة هذا الملك الشاعر، حيث إنَّه حين عزم على الاستنجاد بملك المغرب أمام الملك الصليبي، خوَّفه بعضُ أخصَّائه من أطماعِ (ابن تاشفين)، وذكر أنه في مشاعره نحوه مثل الأذفونش الفرنجي كلاهما متنمِّر متحفز، فقال المعتمد: لأنْ أرعى الإبل عند ابنِ تاشفين خيرٌ من أن أرعى الخنازير عند الأذفونش! وهي جملةٌ تكفي في مغزاها عن مئات الصفحات.

٣٠٥ ـ أبو فراس الحمداني

شاعرٌ شابٌ أمير، كان ابن عم (سيف الدولة)، ولكنَّه كان يُحسُّ بارتقاءٍ سامٍ في مشاعره، وتستدعيه همَّةٌ عاليةٌ إلى مساماة الملوك، ومقارعة الأبطال، وهذا ما كان يستشعره سيف الدولة في أعماقه دونَ أن يصرِّح به، فلم يكنْ يطمئن كثيراً لطموحه السامق حذراً على موقف أبي فراس من أولاده بعده، إذ هو الأولى والأجدر برئاسة بني حمدان، لذلك كان يرميـهِ في المهالك مع اعتزازٍ ببسـالة لا ينكر، فكان صاحبَ كرٍّ وفرٍّ، وهجومٍ وصيالٍ، فإذا رجعِ إلى حلب ومنبج أيام السلام، فتح قصره للضيفان، وجعلَ يُعطي ويهب دون خوفٍ من الإملاق، ثم شاء له الحظ أن يقعَ أسيراً في بلاد الروم، فكان أكبر ما يسوؤه في الأسر أنَّه لم يستطع أن تُضرب له الخيام قافلاً من الغزو، معطياً الناس بما يضمن لهم غنى اليد، ويضمن له حسنَ الأحدوثة، وقد عبَّر عن بعض ذلك حين قال:

تمـرُّ الليـالـي ليسَ للنفـعِ مـوضـعٌ ... لـــديَّ ولا للمعتفيـــن جنـــابُ
ولا شُدَّ لي سرجٌ على ظَهر سابحٍ ... ولا ضُـربـتْ لـي بـالعـراءِ قبـابُ
ولا بـرقـتْ لـي فـي اللقـاء قـواطـعٌ ... ولا لمعتْ لي في الحروبِ حرابُ

وقصيدة أبي فراس التي مطلعها:

أراك عصـيَّ الـدمـعِ شيمتُـكَ الصبرُ ... أمـا للهـوى نهـيٌ عليـكَ ولا أمـرُ

شهيرةٌ جداً، وقد غَرَّدتْ بها (أم كلثوم) فملكت القلوبَ والأسماع، وهي

تصوُّر نفسيَّة البطل طليقاً وأسيراً بأحسن ما يقوله قائل، وللقارئ أن يتصوَّر بعد هذا شعور أبي فراس حين يدهمه العيد في (خرشنَّة) أسيراً عند أعدائه، وحين يتلفَّت فلا يجد الأمَّ الحانية، والرفقة الأحباب، بل يجدُ الوَحشة والاغتراب، فيقول باكياً:

يا عيدُ ما عُدتَ بمحبسوب	على معنَّى القلبِ مكروبِ
يا عيدُ قد عُدتَ على ناظرٍ	عن كلِّ حُسْنٍ فيك محجوبِ
يا وَحشة الدارِ التي ربُّها	أصبح في أثوابِ مربوبِ
قد طلعَ العيدُ على أهلِها	بوجهِ لا حُسنٍ ولا طيبِ
مالي وللدَّهرِ وأحداثه	لقد رماني بالأعاجيبِ

٣٠٦ـ أبو الطيب المتنبي

الحديث عن (المتنبي) مكررٌ معادٌ، لأن الشاعر رزق حظاً واسعاً في الذيوع والانتشار، وقد أصبحت حياته وشعره معاً موضعَ التحقيق المتواصل، والتحليل الدائم، ولكنَّ ذلك كله لا يمنع أن نقول وجه الحقِّ في هجائه لكافور، فقد دأبتْ بعضُ الأقلام على مؤاخذةِ كافور، بلْ على هجوه دون حق. وقد بسطت هذا الموضوع أكثر من مرَّة، ولكنّي اَضْطرُ إلى إيجازه في نقاطٍ محدَّدة، ليعرف القارئ أنَّ المتنبي كان ظالماً، وأنَّ كافوراً كان مظلوماً، لقد وفد المتنبي على مصر مادحاً كافوراً، فوجدَ عنده أضعافَ ما وجدَ عند سيف الدولة من العطاء والاحتفاء، أنزلَهُ القصر الفخم، وأعطاهُ الخدم والعبيد، ومنحَه المال الوفير، ولكنّه كان يطمع في أنْ يهبه مملكةً يحكمها! وقد صرَّح بذلك أكثرَ من مرة حين قال:

وغيرُ كثيرٍ أنْ يزورك راجلٌ	فيرجع ملكاً للعراقين واليا

فهل كان كافورٌ من البله إلى حدٍّ يجعله يبعثُ بالمتنبي الشاعر إلى إمارة أو مملكة يديرها، ولا يبلُغُ ذلك إلا رجلُ إدارةٍ وبصرٍ بتصريف الأحكام، ومراعاةِ ما يلزم من أمور الجيش والمال والزراعة والاستثمار، حتى تسير السفينة في بحرٍ من الفجاءات! لم يكن المتنبي في رأي كافور وفي رأي العقلاء جميعاً مؤهَّلاً

لذلك، فإذا لم ينلْ مبتغاه فليس الذنبُ ذنب كافور، ولكنه ذنبُ الحزم الجازم، الذي يضعُ الرجل المناسب في المكان المناسب، وقد تحدَّى المتنبي كافوراً بمصر في بعض المواقف فسامحه، ولم يؤاخذه بشيءٍ، كما اتَّصل ببعض أعدائه ومدحهم مبالغاً، فلم يؤاخذه في شيءٍ أيضاً! ثم بدا له أن يفرَّ من مصر في يوم عيد فلم يشأ أن يتعقَّبه، ولو شاء لأمر أحدَ أتباعهِ في البلاد التي يقول عنها المتنبي نفسُه:

يـدبِّرُ الأمـرَ مِـنْ مصْـرَ إلـى عـدنٍ	إلـى العـراقِ فـأرضِ الـرومِ والنّـوبِ

لأمرَ أحد هؤلاء بتعقبه، ولكنه تركه، لتأتيه أهاجيه الكثيرة دون موجب خلقي، أو داعٍ إنساني، فمن المؤاخذ إذن؟ المتنبي أم كافور؟ لقد هرب المتنبي من مصر في يوم عيد، وكان من الضيق والألم والحسرة على خيبة آمالٍ توهَّمها بخياله الشاطح، وحلمه الجامحِ، بحيث ابتدأ قصيدته بقوله:

عيـدٌ بـأيَّـةِ حـالٍ عُـدتَ يـا عيـدُ	بمـا مضـى أَمْ لأمـرٍ فيـك تَجْـديـدُ
أمَّـا الأحبـةُ فـالبيـداءُ دونَهـم	فليـتَ دونـك بيـداً دونهـا بِيْـدُ
إنـي نـزلـتُ بكـذَّابيـن ضَيْفُهـم	عن القِرى وعنِ التَرحـال محدودُ
ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسِهِمُ	لاّ وفـي يـدِه مـن نتْنِهـا عُـودُ
مـن كـلِّ رخـوٍ وكـاءِ البطـنِ منفتـقٍ	لا في الرجالِ ولا النسوانِ معدودُ

وللقارئ أن يقرأ ما قاله من قبلُ في مدحِ كافور[1]، ليعرفَ أنَّ المتنبي كان كاذباً في أحد قوْليْهِ، وليس للكاذب أن يحكم بمقتضى هواه..

* * *

(١) لقد نبه العلامة حسام زاده إلى أن المتنبي لم يمدح كافوراً، لأن مدائحه هي أهاجٍ من لون آخر، انظر كتابه (قلب كافوريات المتنبي من المديح إلى الهجاء)، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، وكتاب (كافوريات المتنبي)، للدكتور نعمان القاضي. (الناشر)

يتحدثون عن باريس

٣٠٧ ـ باريس الساحرة

وقعَ في يديَّ كتاب عن (باريس) جمعه الأستاذ (أحمد الصاوي محمد) حيث استكتبَ طائفةً من الأدباء والمفكرين الذين زاروا (باريس) وقضوْا سنوات في ربوعها، إما لطلب العلم في كلياتها ومعاهدها، وإما للرحلة الخالصة للراحة تارة، والباعثة على اللهو تارة أخرى، والكتابُ الذي يؤلِّفه عدة مفكرين أمتعُ للقارئ في موضوعه من كتاب يؤلِّفه فردٌ واحدٌ، لأن كلَّ من اشترك في التأليف يتحدَّثُ عن أفضل ما يعي من الذكريات، وأنضج ما اتَّضح له من الأفكار، فيأتي من مجموع ذلك ما يشبعُ القارئ، ويطلِعُه على وجهات نظر متعدِّدة.

وقد عُرِف (الصاوي) بأنه عاشق باريس، إذ أكثر من الكتابة المفرطة المادحة لها، فلمَّا وجدَ نفسَه قد قال كلَّ شيءٍ أراد غيرَه أن يقولَ، وأحسبُ أنّه اختار من المقالات ما يتَّفق مع مشربه الخاص، لأن ناحية النَّقد الموضوعي جاءتْ قليلةً جداً في مختاراته بالنسبة لناحية التقريظ، ولكنَّا نحمدُ له أن تركَ بعض مظاهر النقد يحسّها القارئ غالباً بين السطور، دون أن تكونَ صريحةً جهيرةً تنادي على نفسها، والكتاب طرفةٌ أدبيةٌ وتاريخيةٌ معاً.

٣٠٨ ـ رفاعة الطهطاوي

أحبَّ المؤلف حين اختار بعض ما قاله (رفاعة الطهطاوي) عن (باريس) في كتابه الشهير، وهو أولُ كاتب مصري في هذا العصر استقلَّ بحديثِ هذه العاصمة الكبيرة، وقد كان (الطهطاوي) مبعوثاً مع الطلبة المصريين الذين أوْفدهم محمد علي لتلقي العلم بمدينة النور، كما كانوا يصفونها ولا يزالون! ولك أن تتصور مشاعر عالم أزهري شرقي ينتقلُ فجأةً من صعيدِ مصرَ إلى باريس، فيرى من

مظاهر الحضارة الحديثة ما أدْهشه وقذف به في طوفان من التفكير، ولكنَّه لم يفْقد صوابه حين جعل يوازن بين الشرق والغرب، والماضي والحاضر موازنةً محايدةً لا سبيل للغلو بها، فالرجلُ واقعيّ يشاهِدُ فيتعجَّب ويسطر.

وفي كتاب (الصاوي) صفحات كثيرة عن المرأة سلوكاً وتعليماً ومخادنةً، ولكن من أطرف ما قيل عن المرأة ما تحدَّث عنه (رفاعة الطهطاوي) حين قال:

«إنَّ النساءَ يُسافرن وحدهنَّ أو مع رجلٍ ينفقُ معهنَّ على السفر، ويتفقن عليه مدة سفرهنَّ معه، لأنَّ النساءَ متولِّعات بحبِّ المعارف، والوقوف على أسرارِ الكائناتِ والبحثِ عنها، فهنَّ يأتينَ من بلادِ الفرنجةِ إلى مصر ليرينَ غرائبها من الأهرام والبرابي، فهنَّ كالرجال في جميع الأمور، نعم قد يوجدُ منهنَّ نساءٌ غنيات مستورات الحال، تُمكِّن من أنفسهن الأجنبي وهنَّ غير متزوجات، فيشْعرن بالحمل، ويخشين الفضيحة بين الناس، فيظهرْن السّفر لمجرد السياحة، أو لمقصدٍ آخر لبلدٍ بعيد، ويضعْن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربَّى في البلاد، ومع هذا فالأمر ليس بشائع، وما كلُّ بارقةٍ تجودُ بمائها، ففي نساء الفرنسية ذوات العرض، ومنهنَّ من هي بضدِ ذلك، وهو الأغلب، لاستيلاء فن العشق في فرنسة على قلوبِ الناس ذكوراً وإناثاً».

٣٠٩ ـ الأكل على الأرض

أبدى الطهطاوي تعجُّبه من المائدة الفرنسية، حين تُصفُّ حولها المقاعد، ويجلس الآكلون عليها في نظامٍ متداول، لأن الحال في الشرق غير ذلك، وفيما كتبه العالم الأثري الشهير (سليم حسن) عن ذكرياته الباريسية ما يحسن أن نقْرنه بحديث الطهطاوي حيث قال عن خادمته (مير):

كان حبّ (مير) الشديد لي يجعلني أتغاضى عن كثير من هفواتها معي، وكانتْ كذلك تتغاضى عن هفواتي، غير أنها لم تغتفر لي زلَّةً في آدابِ الأكل مرَّة، وصارتْ تعيّرني بها، طول مدة إقامتها عندي، وذلك أني تشوقتُ مرَّةً أن آكل بيدي متربّعاً على الأرض، فأمرتُها بأن تهيئ لي المائدة، وتغلِق الباب، فظننتْ أن

معي في الحجرة شخصاً آخر، لا أريدُ أن تراه، فأخذتْ تتلفت في أرجاءِ الحجرة، ولما لمْ تجد أحداً أغلقت الباب وانصرفت، غير أنَّ حب استطلاعها جعلها تختلس النظر من كوَّةٍ صغيرةٍ بالباب فوجدتني واضعاً كلَّ ما على المائدة في أرض الحجرة وجالساً متربعاً آكلُ بيدي، فأدهشها جداً هذا المنظر الغريب، وفتحت البابَ فجأةً وقالتْ بصوتٍ مرتفعٍ: «أرى حيواناً يأكل» فأجبتُها: «وقد طبخَ له حيوان آخر»، فلما حضرتْ إلى مصر معي ورأت بعض الناسِ يأكلون هكذا، خطرتْ لها هذه الذكرى السابقة، وقالت: الآن فهمت.

٣١٠ ـ سكن البنسيون

يتحدَّث (أحمد الصاوي) عن مسكنه بالبنسيون فيقول ملخصاً:

هذا البيتُ العائلي الذي نزلْته أول نزولي بباريس متواضع، يقدِّمون لك سَرْدينة صغيرة، أو قطعة من السجق بحجم نصف الريال، أو بعض الفجل والزبد حساءً في العشاء، ثم قطعةً من الجُبن ذي الرائحة الخبيثة تنكرها أولَ عهدك بها، وتأباها الإباءَ كلَّه، ثم يعضُك الجوعُ بنابه، فتعودَ أدراجك كارهاً، وتنتهي بأن تأكلها متفلسفاً، ثم شيئاً من الفاكهة الرديئة كبرتقالة في حجم ليمون مصرَ الصغيرِ، أو بعضَ المربَّى المجهولة الصِّنف، أو البسكويت التافه، فإذا تحدّث الصاوي عن زميلاته في هذا المسكن قال:

«فتاة رومانية تدرس الفنون الجميلة، وأخرى تدرس البيانو، وإيرلنديّة تدرس الغناء، ورُوسية تحضِّر لجائزة الآداب، وبولونية ويوغوسلافية، وتشيكية تَدْرسن اللغة الفرنسية، ليُدرّسْنها بعد ذلك لبنات وطنهنّ، وثلاث صربيات إحداهنَّ مسلمة تدرسُ الحقوق.

وكانت الصربيّة التي تدرس القانون من ألطف البنات وأذكاهن، إذا مشتْ تثنَّتْ كغصن البان، وكان لها في البيت صاحبٌ بلغاريٌّ، وأنت تعلم أنَّ الصربَ والبلغارَ أولاد عمٍّ. وكان معي مصريٌّ فنّان، يتشبثُ بحب هذه الصربية، وهي لا تُقبل عليه، ولا تُعرضُ عنه، فتزيدُه جوىً وصبابةً، حتى سكرَ ليلة فباح لها

بحبه أمام الناس، وتورّط».

هذا نمطٌ من أنماطِ السكنِ الجامع في باريس، وهو سكنٌ يُشغل عن الدراسة الخالصة لا محالة، لأنَّ الأهواءَ تتنازعه في كل اتجاهٍ.

٣١١ ـ مدرسة سان كلو

وإذا كان مجتمع مدرسة الفنون الجميلة مُعربداً على نحو ما أشرنا من قبلُ، فإنَّ مجتمع مدرسة (سان كلو) العُليا كان مجتمعاً متَّزناً، ينشد الطرب، ولكن في أدبٍ رزينٍ هادئ، وقد كان المربِّي الكبير الأستاذ (أحمد فهمي العمروسي) أحدُ الطلاب بهذه المدرسة، وقد أقيمت حفلة للتعريف به، حين التحق بها، تحدث عنها فقال:

«يوم دخولي مدرسة (سان كلو) احتفل طلاب السنة الأخيرة بالمستجدِّين، وكان برنامج الحفلة يقضي أن يُغني كلُّ طالب من السنة الأولى أنشودةً، فلما جاء دوري اعتذرتُ بأنّي لا أعرفُ الغناء باللغة الفرنسية، فاقترحوا أن أغنّي بالعربية، على أن أُترْجِمَ لهم معنى ما أقول، فارتقيتُ المنصَّة، وقلت هذين البيتين المنسوبين لعنْترة بن شدَّاد:

حَكّمْ سيوفكَ في رقابِ العُزَّلِ ... وإذا نزلتَ بدارِ ذُلٍّ فارْحلِ
وإذا بُليتَ بظالمٍ كنْ ظالماً ... وإذا لقيتَ ذوي الجهالة فاجهلِ

ثم تَرْجمْتُها بالفرنسية، وإذا هم يُقابلون هذه المعاني بتصفيقٍ حاد، حتى نهضَ أحدُ الأساتذةِ وقال: إنَّ العرب كانوا يعشقون الحرية، وكانوا متشبِّعين بمبادئ القرآن، الذي ينصُ على مقابلة المثل بالمثل، حيثُ يقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ويقول: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن النوادر التي ذكرها الأستاذ العمروسي أنَّه تسلَّم خطاباً جاءه من مصر بعنوان (أحمد أفندي فهمي العمروسي) واطّلع عليه أحدُ الطلاب فلم يفهم كلمة

(أفندي) بالمعنى المتداول، فبحث عنها في القاموس الفرنسي فوجدَ أنّ أول معنى لها هو ابنُ السلطان، وما هي إلا دقائق حتى ذاع الخبرُ في المدرسة، والتفَّ الطلاب يسألونني: هل أنت ابنُ السلطان؟.

واستطردَ الأستاذ العمروسي، فذكر طرائف أُخرى من هذا القبيل.

٣١٢ ـ قصيدة شوقي

في كتاب (باريس) مقالاتٍ جيدة لشعراء من الشرق والغرب، منهم الأستاذ (خليل مطران) و (ولي الدين يكن) وغيرهما، مع قصيدة (شوقي) في نابليون، وهي قصيدةٌ رائعةٌ حقاً ختمها أمير الشعراء بقوله الصادق:

يا كثيرَ الصَّيد للصيد العلا ... قمْ تأمَّلْ كيفَ صادَتْك المَنونْ
قمْ تَرَ الدنيا كما غادرْتها ... منزل الغدر وماء الخادعينْ
وتَرَ الحقَّ عزيزاً في القنا ... هيِّناً في العُزَّل المستضعفينْ
وترَ الأمرَ يداً فوق يدٍ ... وترَ النَّاسَ ذئاباً وضئينْ
وترَ العزَّ لسيفٍ نزقٍ ... في بناءِ الملكِ أو رأيٍ رزينْ
سنن كانت ونظم لم تزل ... ونساءٌ فوق باع المصلحينْ

* * *

يتحدَّثون عن (ميّ)

٣١٣ ـ كبرى أديبات العرب

من أغرب الأنباء في عالم التأليف أن يُحاولَ كاتبٌ استهواءَ قُرَّائه، فيؤلِّفَ كتاباً عن حياة الآنسة (ميّ) كُبرى أديبات العرب، فيختار لعنوان الكتاب اسم (المجنونة) كأنَّ تجارة السوق أصبحتْ العاملَ الأول في إهانةِ ذكريات النوابغ، و(ميّ) لم تكن مجنونةً، ولكن ادَّعى الوصوليون من أقاربها جنونها، ليقوموا بالوصاية على ما تمتلك من عقار! لم يكن ذا قيمة غالية تبيح لهم هذا الانتهاز!! وقد ألقتْ من المحاضرات، وكتبت من المقالات ما يعصف بهذه التهمة، فجاء مؤلف الكتاب ليجعلها أبرز صفة للأديبة النابغة تكونُ الواجهة الأولى للكتاب، على أنَّ المؤلف لم يأت بشيءٍ جديدٍ عن الأديبة النابغة، فقد صدرت عنها كتبٌ ممتازة، أنزلتها المنزل اللائق بها في تاريخ الأدب الحديث.

وكان أولَ من أفردَ مؤلَّفاً خاصاً بالكاتبة النابغة هو الشاعر الباحث الأستاذ (محمد عبد الغني حسن) إذ شاءت مجلَّة (المقتطف) غبّ وفاتها أن تصدِرَ كتاباً تذكارياً، يُخلِّدُ هذه الراحلة الفذَّة، واختارت الأستاذ (محمد عبد الغني حسن) لهذه المهمَّة، فأبدعَ فيما ألَّف، كما أنَّه تحادث مع نخبةٍ من كبار رجال الفكر في مصر عن (ميّ) ممَّن لهم صلة قوية بها، وسجَّلَ أحاديثهم في كتابه، وسأختارُ من آرائهم في هذه الشذرات ما ينفحُ بعبير هذه الأديبة الممتازة، ذات السبق الفريد.

٣١٤ ـ طـٰه حسين

تحدَّث الدكتور (طـٰه حسين) عن الآنسة (ميّ) مرَّاتٍ عدَّة، ومن أصدقِ ما قاله عنها ما جاء بالجزءِ الثالث من كتاب (الأيام) حين سمعَ الآنسة (ميّ) في حفلة تكريم الشاعر (خليل مطران) لأوّل مرَّة، فاستولت على مشاعره استيلاءً مدهشاً، بدا أثره في قوله:

«لم يرضَ الفتى عن شيءٍ مما سمع إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطربَ له اضطراباً شديداً، وأرّقَ له ليلته تلك، كان الصوتُ نحيلاً ضئيلاً، وكان عذباً رائقاً، وكان لا يبلُغُ السمعَ حتى ينفذ منه في خفَّةٍ إلى القلب، فيفعلَ به الأفاعيل، ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئاً، ولم يحاولْ أن يفهمَ من حديثه شيئاً، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث. وكان صوت الآنسة (ميّ) التي كانتْ تتحدَّث إلى جمهورِ الناس للمرَّةِ الأولى، ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته تلك أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة (أحمد لطفي السيد) وقد جلسَ إليه فقال وسمع منه، ثم ما زال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل (مطران) وإلى ذكر تلك الفتاة التي تحدَّثت فيه، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك، وقد سأله مدير الجريدة عما قالت الفتاة، فلم يُحسن ردّاً، وإنما لجلج في القول، وأثنى الأستاذُ على (ميّ)، ووعد الفتى بأنه سيُقدِّمه إليها في يوم قريبٍ، وابتهج الفتى بهذا الوعد المضروب، وإن لم يُعْرِبْ عن ابتهاجه، وظلَّ يرقُب البرّ، ولكنّ الأستاذ نسيه، واستحيا الفتى أن يُذكِّره، فحملَ نفسه على المكروه، وأعرض عن ذكر (ميّ)، ومضتْ أيام وأشهر، وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه، وأعطى مدير (الجريدة) رسالته عن أبي العلاء، فقرأها، ورضي عنها، ولكنه لم يردَّها إلى الفتى، وإنما قال له: إنما ستُردُّ إليك رسالتك بعد أيام، لأنّ الآنسة (ميّ) قد طلبتْ أن تقرأها، وسمع صاحبنا ذكر (ميّ) فبدا عليه شيءٌ من الوجوم، وكأنَّ الأستاذ لاحظ ذلك، فذكر وعده القديم.

ثم وصف الدكتور زيارة (ميّ) مع أستاذه، وكتب عن دهشته البالغة سطوراً صادقة، أُحيل القارئَ عليها في الجزء الثالث من الأيام.

٣١٥ ـ منصور فهمي

نحن ننقل ما ذكره الدكتور (منصور فهمي) عن (ميّ) الكاتبة، حيث قال:

إنني أُعِدُّ الطريقة التي جرت عليها (ميّ) في كتاباتها، مما يصحُّ أن يكون مثلاً للكتابة الراقية، لأنها كانت تمكِّن لما تكتبه، بشتَّى الأفكار العالية، والمعاني

الشريفة التي خلصتْ لها من ثقافة عريضة، ودراسة طويلة جادَّة، ولم تكتف (ميّ) بالفكرة المتمكِّنة، والمعنى الدقيق، والرأي المنخول، بل كانت فوق ذلك تُعنى باختيار الألفاظ الملائمة، والعبارات الموائمة، لتتساوى هذه الألفاظ المتآلفة المتجانسة في سُلَّمٍ موسيقيٍّ تتردَّد في أذُنِ السامع أو القارئ رنيناً موقّعاً، ولحناً مؤتلفاً، فلا يحسُّ نبواً في لفظ أو خشونةً في تعبير.
ولقد أُعجبتُ بالآنسة (ميّ) محاضرةً، كما أُعجبتُ بها كاتبةً، فقد كانت في هذا المضمار مجلّية، ولا أعدو الحقَّ إذا قلت: إنها كانت محاضرةً من أرقى طراز، وأعلى غرار، ولعلّ أسباباً كثيرةً اصطلحت على تفوّقها في هذا الميدان، فقد كان لها مِنْ عذوبة صوتها، وحُسْنِ أدائها، وحلاوةِ إلقائها، ووسامتها، وحسنِ سماتها معينٌ على ذلك، وكانت تميّزها حين تقف للخطابة في حفل، أو المحاضرة في جمع، ثقةٌ بنفسها، واعتداد بشخصيتها، فما عرفتُ أنها تهيَّبتْ منبراً، أو خشيت موقفاً، أو غشيتها سحابةٌ من جُبنٍ، أو جلَّلتها غمامة من خوف، بل كانت دائماً واثقةً شجاعةً.

وللدكتور (منصور فهمي) كتابٌ مستقل عن الآنسة (ميّ) ألقاه محاضراتٍ بمعهد الدراسات العربية، فجاء نمطاً من التحليل الأدبي الصادق، حافلاً بالمواقف والمشاهدات.

٢١٦ ـ مصطفى عبد الرزاق

أما الإمام الأكبر الشيخ (مصطفى عبد الرزاق) فقد قال عنها:

لا أظن أحداً ممن عرف الآنسة (ميّ) يشك في أنها كانت متنوعةَ الثقافة، وأنها كانت مشغوفةً بالتحصيل والاستفادة، وكانت دراستها فيما أعتقد دراساتٍ أدبيّةٍ، أعني أنها تذهبُ إلى ناحية التفكير الأدبي والاجتماعي والأخلاقي، من غير أن تنزع إلى نزعةِ التخصص التي تدعُو إلى الدخول في تفصيلات المسائل العالية، أو في استعمال الأساليب الفنِّية في التعبير، وليس هذا الذي ذكرتُ غضَّاً من قيمة (ميّ) العلمية، لأنه إذا كان أثرُ العلماء المتخصصين أثراً كبيراً في ترقية

الفكر الإنساني، فإنَّ أثرَ العلماء المتأدِّبين في ترقية هذا الفكر ، ليس أقلَّ شأناً، ولعلَّ الأفكار والأبحاث العلمية التي لها صِبْغتها الفنِّية لا تصلُ إلى دور العمل ودور النفوذ إلى عقول الشعوب وقلوبها إلا بوساطة الأدب.

أما حديث (ميّ) الغالب فكان باللغة العربية الفصحى، ومع تأنّقِ (ميّ) في شأنها كلِّه، وفي حديثها على الخصوص، فإنها كانتْ تصل إلى جعل اللغة العربية لغةَ حديثٍ في مجمعٍ راقٍ، ليس كلُّ شاهديه من أنصار اللغة الفصحى من غيرِ أن يشعر أحدٌ من سامعيها بأن حديثها أقلُّ سلامة، أو أظهرُ تكلُّفاً من حديث المتكلِّمين باللغة العربية العادية.

وأظنّ ميّاً خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمةً كبيرةً، لأنه إذا كانت الجرائدُ والمجلاتُ أعانتْ على التوفيق بين منازع الراغبين في استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين في استعمال اللغة العاميَّة، أو ما يُشبه اللغة العامية، فإنَّ ميّاً أسْدتْ هذه الخدمة نفسها إلى اللغة العربية في ناحية لا تصلُ إليها الجرائد، وهي ناحية التخاطب والتحاور.

٣١٣ ـ أحمد حسن الزيات

وُلدت (ميّ) وعاشت كما يُولد النهر من قطر السماء، فتربِّيه الطبيعة في الينابيع الهادئة الفسيحة، ثم تبعثه برسالةِ الحياة إلى حوضه، فيشقّ بالجهد والصَّبر طريقه الموحش، في صخور الجبل، وقفار الأرضِ، وأصول الغاب، ثم يُلقي على شاطئ الوادي ما حُمِّلَ من خير الله، فيحيا المواتُ، وتتجمَّعُ الخيراتُ وتنشأَ الحضاراتُ، ويتكلمُ التاريخ، ثم يأخذُ النهر مجراه بين الحقول الناضرة، والمدن العامرة، شادياً بالمال والجمال والحب، حتى يذهبَ في عُبابِ البحر، كما تذهبُ الروح الطيبة في فضاء اللانهاية.

كانت (ميّ) في حياة القاهرة ظاهرةً من الظواهر العجيبة، والعجيبُ فيها أنها كانت كممدوح (المتنبي) واحدةً من ناس دنياها وليست منهم، كانت جنساً من الخلق الجميل تميَّز بخصائص الجنسين، فكان فيه أفضلُ ما في الرجل، وخيرُ ما في المرأة، فمن كان يسمعُها خطيبةً في محفل، أو يشهدها محدثةً في منزل،

كان يحسبُها، وقد استدارت على رأسها الأنيق هالةٌ من السحر والفتنة (قلْيوب) إحدى بنات الإلـه (جوبيتـر) التّسـع، وآلهات الفنون التسـعة، قد سـرقتْ من أخواتها فنونهنَّ، ثم هبطتْ من فوق (البرناس) إلى ضفاف النيل.

ومن يستطع أن يفهم (ميّ) غير هذا؟ وهي فتاةٌ قد نشأت في عهدٍ كانت المرأةُ فيه شيئاً من المتاع، ترى ولا تعلم، وتسمع ولا تفهم، ثم تحذق هي الكتابة، والخطابة والشعر والموسيقى، والفلسفة والتصوير، وتُتقن العربية والفرنسية، والإنكليزية والإيطالية، والألمانية والإسبانية، وهي لم تُولد في قصر، ولم تتخرَّج في جامعة.

لقد كان لِميّ وصالون ميّ في أدب العصر سماتٌ وآثارٌ ألهمتْ (صبري) وأوهمت (الرافعي) وألهبت (جبران) ثم أخرجتْ من سوادِ المداد صوراً مختلفة الألوان، متنوعة الأفنان، أضافت إلى ذخائر الفكر الإنساني ثروة.

٣١٨ـ عباس محمود العقاد

ما تتحدثُ به (ميّ) ممتعٌ، كالذي تكتبه بعد رويَّة وتحضير، فقد وُهِبتْ ملكةَ الحديث في طلاوةٍ ورشاقةٍ وجلاءٍ، ووُهبتْ ما هو أدلّ على القدرة من ملكة الحديث، ونعْني به ملكة التوجيه، وإدارة الأحاديث بين الجلساء المختلفين في الـرأي والمزاج والمقام، فيكونُ في مجلسها عشـرة، منهم الوزير، والموظف الصغير، ومنهم المحافظ، والمغالي في التجديد، ومنهم المرِحُ الثرثار، والوقور المتزمّت، فإذا دار الحديث بينهم أخذ كلٌّ منهم حصَّته على سنة المساواة والكرامة، وانفسح مجالُ القول لرأيه، وللرأي الذي ينقضه ويشتدّ في نقضه، وانتظم كلُّ ذلك في رفق ومودَّة ولباقة، ولم يشعر أحدٌ بتوجيهها وهي تنقل الأحاديث من متكلِّم إلى متكلِّم، ومن موضوع إلى موضوع، فإنها تتوجه بغيرِ موجّه، وتنتقل بغير ناقل، وتلك غايةُ البراعة في هذا المقام.

وكانت لها فطنةٌ في الضحك تحيي المساجلة، وتزيّن الحوار، ولكنَّ فطنتها للمواقف الضاحكة كانت أدقّ من فطنتها للنكتة واشتراكها فيها، وكانت كبيرة

الإعجاب بفكاهة المصريّين، التي تسمّيها (النغاشة) أو القافية التي لا تعذر ولا ترحم.

وكنّا نتبادل الرأي كثيراً، ونختلف كثيراً، ولا نستغربُ هذا الخلاف، ولا نكفُّ عن تبادل الآراء، لأنَّ الخلاف بين كل أنثى وفيّة لطبعها، وكلّ رجل وفيٍّ لطبعه، أمرٌ من البداهة بمكان، فهي تنظر بعينيّ حواء إلى حقائق الدنيا، وهو ينظرُ بعين آدم، وكلاهما مخلِصٌ في خلافه ومستفيد، واسمها (ميّ) اختصارٌ لاسم (ماري) باختيار أول حروفه الميم، وآخر حروفه الياء، ولكنها أحبت الاسم لعربيته لا لاختصاره، فاسم ماري ليس بالاسم الطويل ولا الكثير الحروف.

٣١٩ـ هُدى شعراوي

رأيتُ في (ميّ) إنساناً غيرَ عادي، لقد حباها الله، وهو واسعُ الفضل بعقلٍ كبير، ولكنَّ قلبها كان أكبر من عقلها، فقد كان ذلك القلب يتّسع لمعانٍ شتى من الرحمة والعطف والحنان، وكانت (مي) عاليةَ النفس، فما عرفتُها تدنَّتْ إلى دنيَّة، أو تنزَّلتْ إلى أسفل، وكانت واسعة آفاق التفكير، فما عرفتها وقفتْ عند حدٍّ محدود، وكانت بعيدةَ الإدراك، فما رأيتُ منها قصوراً فيه، ومع تلك الصفات المحبوبة، كانت بعيدةً عن الغرور، منزَّهةً عن الانخداع، فما عرفتها زُهيت بعلمٍ، أو تباهت بذكاء، أو دلَّتْ بتفكير، ولكنَّها كانت تعرِفُ قدر نفسِها في تواضع جميل، وبساطة محبوبة، ولم تكن (مي) على وسامتها ووضاحة وجهها جميلةً بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها، وروحها أجملُ من صورتها، فكانت بين الجميلات لا تقلُّ عنهن فتنةً، ولا أضأل نصيباً من الجاذبية، فسرُّ جمال (مي) كان في روحها، وجمال الروح يسمو على كل جمال.

وحديث السيدة هدى عن جمال (مي) حديث سيِّدة عن آنسة، وذلك يكفي في التعليق، وأختم هذه المختارات بقول العقاد:

أين في المحفلِ ميٌّ يا صحابْ   عوَّدتنا هاهنا فصلَ الخطاب

* * *

حيوانات معاصرة

٣٢٠ ـ كلب العقاد

كان للأستاذ (العقاد) كلبٌ أليفٌ أطلق عليه اسم (بيجو) وقد مات الكلب، فكتب عنه الأستاذ الكبير مقالاً تحليلياً شرح خواطره نحوه من خلال ما كان يُبدي الكلبُ من حركات، وماله من مواقف معه، ثم رثاهُ بقصيدةٍ شعريَّةٍ ذاتَ صدقٍ مخلص، ومنذ ظهرت قصيدةُ العقاد ومقالتهُ عن كلبه، ونفرٌ من المتأدبين يحاولون محاكاته، فيبدون أنَّهم يحسّون العطف على الحيوان الأليف، ويخصونه في المنزل بأطايب الطعام، ونظيفِ المكان، ولكنَّ ذلك كلّه تقليدٌ لا طبعَ به، وهو يذكرنا بسيّدةٍ اشتهرتْ بمواقفها الاجتماعية المصطنعة في دور البرّ، شاءتْ أن تصطفي كلبةً من طراز أوروبي، فأخذت تدلّلها، وتصحبها معها في حفلات تجمعُ مثيلاتها، وهي تُعلن أنَّ رحمتها دافقةً بالحيوان الضعيف، ولكنَّ منافسةً لها تحدثتْ عنها بأنها رأتْ في مطبخها ذاتَ مرّة قطّةً جائعة، فلم تكتفِ بطردها، بل سَكبتْ عليها شواظاً من الماء الساخن، وحين قالت لها: أهذه هي الرحمة التي تتحدثين عنها؟ قالت في غضب: ليست قطّتي!!.

نعودُ إلى حديث العقاد، فنذكر أنّ صديقه وتلميذه الأستاذ (طاهر الجبلاوي) كان يُحاول محاكاته فيما يقدرُ عليه، ويدعُ ما لا يقدر، وقد شاء أن يُربّي كلباً يخصّه بحنانه، فجعله حديثه ومشغلته، ثم شاء القدر أن يموت الكلبُ، وقام الجبلاوي برثائه كما رثى العقادُ كلبه، وجلس مع صديقه يُعلن أساه، ويسأله أن يشاطره القرّاء بقصيدةٍ يرثي بها الفقيد الراحل، وقد استجاب العقادُ لرغبة صديقه، وأنشأقصيدةً فكاهية قال فيها:

حزناً على كلب طاهرٍ ... فإنه طاهرُ الكلابْ
تَشابَها في خليقةٍ ... واتّفقَا، شيمة الصحابْ
ورُبّما عَيّ طاهرٌ ... وكلبُه حاضرُ الجوابْ

فليـــسَ يُـــوفيـــه حقَّـــه مـــن اكتئـــابٍ أو انتحـــابْ
إلا إذا بـــــاتَ نـــــابحـــــاً نبـحَ المســاعيــر فــي الخــرابْ

• • •

لا تســـألــــوا رحمـــةً لـــهُ قـــد رحـــم اللهُ واستجـــابْ
لعلَّـــه مـــاتَ قـــانِطـــاً مـــن أزمـــةِ الأكـــلِ والشـــرابْ
منتحـــراً فـــي شبـــابـــه وهكـــذا يفعـــلُ الشبـــاب
أراحـــه اللهُ مـــن ضنـــىً أنقـــذهُ القبـــرُ مـــن عـــذابْ
فليحمـــــدِ اللهَ ربَّـــــهُ مَـــنْ جـــاعَ فلْيـــرض بـــالتـــرابْ

٣٢١ ـ قطة أحمد شوقي

تحدث الأستاذ (حسين أحمد شوقي) نجل أمير الشعراء عن قطَّةٍ أليفة استقراطية، حاولَ أمير الشعراء أن يمنعها من الاختلاط (بقطط الرعاع) وفوجئ بأنَّها تلد، رَغم الاحتياط الشديد، وهي قصَّةٌ طريفة، أُحاول تلخيصها فعلاً عن مجلة (الرسالة) العدد ١٩ السنة الأولى:

يقول الأستاذ حسين شوقي: كُنّا في الآسْتانة بعد خلع السلطان عبد الحميد، وكان أثاثُ القصر يباع بالمزاد العلنيِّ، فذهبنا نشهدُ ما يُعرض من طرائف التحف، ونفائس الكنوز، وما كادتْ أبصارُنا تقع على (زيْنل) القطَّة الاستقراطية الرائعة، حتى تشاورنا بشأنها، واشتراها والدي بخمسة جنيهات، وتساوي الآن خمسمئة!

كـانت (زيْنل) تجلسُ على كرسيّ القطيفة في الصالـون الصغير، ترتّل أناشيدها (المواء) في هدوء، وكمْ كان شعرها جميلاً، يُحاكي بياضُه الناصع، ثلج الجبال في الأناضول، وكانت نعومة شعرها مدهشةً فاتنةً، أمَّا عيناها فكانتا تعكسان ما تُشاهده على ضفاف البسفور، من خضرةٍ زمرديةٍ، وكان لحم كفيّها طرياً ناعماً إلى حد أننا كُنا نجد لذةً في القبضِ على تلك الأكفّ الظريفة، وكان صيد الفئران والصراصير من الأمور الحقيرة التي لا تتعرضُ لها (زيْنل) كما تفعل القطط الأخـرى، لأن تسليتها الوحيدةَ أن تلعبَ بكرةٍ من الخيْط الحريـري،

فتضربها بيدها الصغيرة، وفي ذات يوم وقعتْ حادثةٌ مدهشة، حيَّرت جميعَ من في المنزل، هي أنَّ (زيْنل) حامل، ربَّاه! كيف زلّت هذه الاستقراطية العريقة، فاجترأ عليها قطٌ حقيرٌ من قطط الشارع، وهي التي كانتْ تُرى وحدَها دائماً، وتنفرُ من كل مخالطةٍ لأبناء جنسها، وتنظر إلى هذا الطراز باحتقار شديد، وكأنَّها شعرت بخطئها، فما كادتْ تضع الصغار، حتى هجرتْها في قسوة، ولم تشأ إرضاعها، فاضطررنا أن نُغذِّيها باللبن، ولعلَّها كانت تعلم أنَّ أولادها من نسلِ الصعاليك، فلا يجوز لها أن تعيش أو أن تنسب إليها.

ثم انتهتْ حياتُها بالموت في واقعة طريفة، لأنَّها كانت تأكلُ لحم الدجاج وحْدَه، وتعرضُ عن كلِّ طعامٍ غيره، وفي إجازةٍ سنويةٍ عائليةٍ، تركناها للخدم وسافرنا، وجعلنا لها مقرَّراً من الدجاج، ولكنَّ الخادم كان أكلُ اللحم ويرمي لها بالعظم، فترفَّعتْ عما يُقدَّم لها من حُطام لا تعهدهُ، وآثرتِ الموت جوعاً! وأنا أقول: أهذا معقول!!.

٣٢٢ـ كلبة الأستاذ تيمور

وشبيهٌ بقطةِ شوقي كلبةُ الأستاذ (محمود تيمور) فقد تحدث عنها، وِفْقَ ما جاء بمجلة (الثقافة) فبراير ١٩٧٩م، وكان تيمور قد دعا طبَّاخهُ (مُحيي) ليمنع الكلبة (سالُومي) من الدنوّ من باب الفيلا، ولا يجعلها تتَّصل بكلبٍ ما من الكلاب المصرية، ولفت ذلك نظر جليسه الرِّوائي الأستاذ (يوسف السباعي) فقال له: يا محمود بك: لم نعرف قصة (سالومي).

فابتسم الأستاذ (تيمور) وقال: هذه الكلبة من سُلالةٍ سويديةٍ أصيلة، بعيدة عن التهجين، لأن عُروقها نقيَّة، وقد اشتراها من السويد بعد أن قرأ شجرةَ الأنساب عن عائلتها، فعرف أنَّها سويديَّة أرستقراطية لحماً ودماً، بشهادة متخصِّصٍ في تربيةِ الكلاب.

فقال (الأستاذ السباعي): هل المطلوب من الأخ (مُحيي) أن يمنع (سالومي) من الاختلاط وما الخسارة المترتِّبة على ذلك؟

فقال تيمور: إذا تحققتُ يقيناً من واقعة الاختلاط، وشهدَ بها شهودٌ عدولٌ فسأضطرُ للسفر إلى السويد من جديد، والبحثُ عن (سالومي) أخرى! .

وضحك الأستاذ السباعي، ولكنه لم يسأل تيمور عمَّا سيصنع إذا جاءت الأخرى، واستجابت إلى صوت الغريزة، وكرَّرتْ واقعة الأولى؟ أتُسافر مرَّةً ثانية! لتكرر المأساة من جديد.

٣٢٣ـ سندباد عصري

للدكتور (حسين فوزي) كتابٌ سمّاه (سندباد عصري) وهو سردٌ لأحداث رحلةٍ علميةٍ قام بها على باخرةٍ تقطع المحيط الهادي مع كبار الباحثين من علماء أوروبة، اكتشافاً لبعض الأحياء المائيةِ التي يعجُّ بها المحيط، وقد كتبَ فصلاً بديعاً عن (مِشْمِشَة) وهي قطَّة صحبتْ البعثة وأسهمت في نشاطها.

يقول الدكتور (حسين) ما ملخَّصه: كان ركَّاب الباخرة ذكوراً جميعهم، إلاّ (مشمشة)، وقد اشتركت في نشاطنا العلمي، إذ كانت لا تقربُ الأسماكَ التي تصيدها شباكنا، لأنَّها تحترم بحوثنا، وتقدِّر قيمتها الحضارية.

وقد بلغتْ سنَّ الحمل، وهي معنا، فجعلتْ تدور في كلِّ مكان بالسفينة، وتملأها مواء، وهي مدفوعة بغريزة تتنبَّه فيها لأول مرّة، فقلتُ لأصحابي: هذه الهرةُ أيها السادة تفضلُ عندي بني الإنسان، وهي تذكّرني بأوضاعنا الاجتماعية، التي تضطرنا إلى كبْت أهمِّ غرائزنا، وأسوءُ من كبتها الإمعانُ في تحقير مظاهرها، حتى لننظر إلى المرأة التي تعمل لها مخلصةً نظرتنا إلى المجرمين، هذه القطَّة التي تتأفَّفون من موائها ليلَ نهار، أشجع من ابن آدم، فهي حينما طلبتِ الأليفَ أعلنتْ ذلك على رؤوسِ الأشهاد بلا هوادةٍ وبغير خجل.

وكلام الدكتور (حسين) يحتاجُ إلى تعليقٍ ليس هذا موضِعُه، فالشذراتُ موضع استطراف، وليست مجال تحقيق، وقد عادت (مشمشة) بعد رحلةٍ تسعة أشهر إلى مصر عذراء طاهرة!.

٣٢٤ ـ حديث المازني

الكاتب الكبير الأستاذ (إبراهيم عبد القادر المازني) رحيمٌ ودودٌ، وذو إلْف وتسامح، ولكن لا أدري لماذا تحدَّث عن القطط حديث الغاضب الناقم، حيث لم يدعْ سوءةً من سوءاتها إلا جسَّدها بقلمه المصوّر، أتُرى هذه المخلوقات الـوديعة قد أتلفتْ كثيراً من زاده وطعامه ومحتويـات منزلـه، ففاجأهـا بالعداء الصارخ في قوله:

من غرورِ القط أنَّه لا يستأنس أبداً، يسكن بيتك، ويأكلُ طعامك برضاك، أو على الرغم منك، ومع ذلك لا يكونُ منك إلا على حرْف، تمسح له شعره فيثني أرجله تحته، ويُرخي جفنيه، فكأنك تستلم حجراً مقدَّساً من فرطِ ما يكون من انصرافه عنك، تُقدِّمُ له اللُّقمة من الخبزِ، فينظر إليها شزراً، ويُعرضُ عنها محتقراً، ويُحوّل رأسه عنك بكبر دونه كلّ كبر، فإذا كان ما تعرضه عليه لحماً طرياً، أو سمكاً أهوى عليه بأسـنانه وهو عابـسٌ متهجِّم، وانتزعـه منك كأنَّما ستُدنِّسه بلمسه، ولا يكون معك إلا متحرزاً متخوفاً يتوقع الخيانة.

والعامَّة تعتقد أنَّ للقطط سبع أرواح، وما أظنُّهم إلا صدقوا، ومن كان يشك في ذلك، فليتأمل كيف يسقط القطّ من فوق السطح العالي فلا يزيد على أن ينظر يمنةً ويسرةً، ثم ينهض ويمضي، وما رأيت قطَّين اتفقا قط، وما اجتمعا إلاّ تحفُّزاً للقتال، فترى كلاًّ منهما قد رفع ذيله وقوَّس ظهره وراح يجسّ الآخر بعينه ويدورُ حوله ليغافله وينشب فيه أظفاره، والقطة هي الدابة الوحيدة التي تأكلُ أولادَها، فمن كان يعرِفُ حيواناً آخر يفعلُ ذلك فليخبرني.

وفي بيتنا قطٌّ لا يزالُ كلّما أوينا إلى مضجعنا يتسلل إلى المطبخ، ويرفعُ كلَّ غطاءٍ، عن كلِّ وعاءٍ، ويقلبُ كلَّ صحنٍ، ويعبثُ بكلِّ ما في المكان، وليست نقمتي عليه من أجل ما يسرق، فقلَّما يجد لدينا شيئاً، ولكنْ من أجل الضجَّة المزعجة التي يُحدثها في الصحون والأطباق التي يكسرها، فنهبّ مذعورين من فرطِ الضوضاء ونذهب إلى المطبخ عسى أنْ ندرِكَ شيئاً قبل أنْ يتحطَّم، وإذا

بالقط اللعين حين رآنا يقفز من الرف إلى النافذة دفعةً واحدةً . .

ومقالُ المازني طريفٌ يتحدَّث عن أشياء نراها ولا نكاد نلتفت إلى مغزاها، وقد وصفَ احتيال القط على صيد الفأر، ومداعبته القاسية إيَّاه حين يقع في يده، قبل أن يأكله، وصفاً يذكِّرنا بحديثِ الجاحظ عن هذا الحيوان، فكلا الكاتبين من أمراء البيان.

٣٢٥ ـ رثاء شعري

قصيدة الشاعر ابن العلاّف العباسي في رثاء القط مشتهرة، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أنَّها قصيدة رمزية، قيلت في رثاء الخليفة الشاعر (ابن المعتز) ولكنَّ ذلك استنتاجٌ بعيد، لأنَّ روح القصيدة بعيدةٌ عن الرمز، وقد كان القط المرثي شرهاً، يأكلُ فراخ الجيران، وهو حيّ، فترصَّده الموتورون وقتلوه، فقال ابن العلاّف:

يا هرُّ فارقتنا ولم تَعُدِ ... وأنتَ مِنّا بمنزلةِ الولدِ

فكيفَ ننفكُّ عن هواكَ وقد ... كنتَ لنا عدّة من العددِ

متى اعتقدت الأذى لجيراننا ... ولم تكنْ للأذى بمعتقدِ

تدخلُ برجَ الحمام متئداً ... وتُخرجُ الفرخَ غير متَّئدِ

وتطرحُ الرّيشَ في الطريقِ لهمْ ... وتبلعُ اللحمَ بلعَ مزدردِ

أذاقكَ الموتُ من أذاقَ كما ... أذقتَ أطياره يداً بيدِ

لا باركَ الله في الطعامِ إذا ... كان هلاكُ النفوسِ في المِعَدِ

كم أكلةٍ داخلتْ حَشا شرِهٍ ... فاخرجتْ روحَهُ من الجسدِ

* * *

في موسم الحج

٣٢٦ـ حتى الحج

حتى الحج، صرفه بعض الناس إلى غير وجهه، فإذا كانت الكثرة الكاثرة تهرع إلى مكة المكرمة لتذكر الله في أيامٍ معدوداتٍ، فإنَّ من الناس من يحج لغير العبادة، وبعض هؤلاء من الشعراء الذين لم يطيقوا كتمان مشاعرهم، فجعلوا موسمَ الحج مجالاً للغزلِ العاطفي، وهي سنَّة قد بدأ بها (عمر بن أبي ربيعة) وتابعه من وافق مأربهُ لحاجةٍ في قلبه، وأخباره في ذلك مستفيضة ولكنَّا نختار منها ما فيه موعظة لمن اعتبر.

قال صاحب (الأغاني): حجَّ أبو الأسود الدؤلي ومعه امرأتُه، وكانت جميلةً، فبينا هي تطوف بالبيت، إذ عرضَ لها (عمر بن أبي ربيعة) فأتتْ أبا الأسود فكلَّمته، وأتاه أبو الأسود فعاتَبهُ، فقال له عمر: ما فعلتُ، فلمَّا عادت إلى المسجد عاد فكلَّمها، فأخبرتْ أبا الأسود فأتاه في المسجد، وهو مع قوم جلوسٌ، فأنشدَ:

وإنـي ليُثنيني عـن الجهـل والخنـا ... وعـن شتـمِ أقـوامٍ خـلائـقُ أربـعُ
حيـاءٌ وإسـلامٌ وتقيـا وإننـي ... كـريـمٌ، ومثلـي قـد يضـرُّ وينفـع
فشتَّـانَ مـا بينـي وبينـك إننـي ... علـى كـلِّ حـالٍ أستقـلُّ وتظلـع

فقال له: لستُ أعودُ يا عمّ إلى كلامها بعدَ اليوم، ولكنّه نكث عهده، وعاد إلى طبعه، فغازلها فغضب أبو الأسود وخرجَ معها متوشِّحاً سيفه، فلما رآه عمر من بعيد فرَّ هارباً، فتمثل أبو الأسود بقول الشاعر:

تعدو الذئابُ على مَنْ لا كلابَ له ... وتتَّقي صولـةَ المستـأسِدِ الحـامي

وأمرأة أبي الأسود هذه كانت جميلةً رائعة الحُسْنِ، ولفرطِ إحساسها بسطوةِ حسنها، كانت تدل على زوجها، إذ تسألهُ إذا جاءَ أين كُنت؟ وإذا خرج:

أين تذهب؟ حتى أمَلَّتهُ، وضاق ذرعاً بحسابها، وقال أبياتاً جيدةً منها هذا البيت النادر:

شغلــتْ نفسَهــا علــيَّ فــراغــاً ... هــل سمعتــم بــالفــارغِ المشغــولِ؟

٣٢٧ - قيس العامري

أمَّا قيس العامري فقد اشتهر أمره وترك أهله، وهام في الصحراء مجنوناً، وجزعَ والده لما نزلَ به، فجعل يُرسِلُ إليه من يعودُ به إلى قومه، فكان يستجيب ثم لا يلبثُ أن يشردَ، فقيل لوالده: لو احتلتَ عليه، وأخذته إلى مكة حاجّاً بيتَ ربّه، وداعياً الله أن يصرفَ عنه بلواه، لكان في ذلك خيرٌ كثير، وذهب الوالد إلى نجله، فحبَّبَ إليه أن يحجَّ معه، وطالَ الحوار، حتى قبلَ قيْسٌ مضطراً، وفي صيحات التكبير والتهليل، جعل الوالد يصغي لقيس كي يُشارِكَ القوم، فكان لا يفعل، ثم طلب الخلوة بنفسه فخلا، وجالَ لسانهُ بالقريض، فظنَّه القومُ يصفُ ما شاهد من روعةِ الحجّ، واستمعوا إلى ما قال، فأنشدهم قوله:

ذكــرتُــكِ والحجيــجُ لــهُ ضجيــجٌ ... بمكــةَ والقلــوبُ لهــا وجيــبُ
فقلــتُ ونحــن فــي بلــدٍ حــرامٍ ... بــهِ للهِ أخلصــتِ القلــوبُ!
أتــوبُ إليــكَ يــا رحمــنُ ممّــا ... جنيــتُ فقــد تكــاثــرتِ الــذنــوبُ
فــأمَّــا عــن هــوى ليلــى وتــركــي ... زيــارتهــا، فــإنــي لا أتــوبُ

ولم ييأسْ والدُه، بلْ أصرَّ على أن يُتمَّ قيسٌ مناسك الحج، وذهب به بعد عرفات إلى منى، وأعدَّ له الحصى ليرمي الجمرات ففعل، ولكنه نظم بعد ذلك أبياتاً قال فيها:

وداعٍ دعا إذ نحنُ بالخَيْفِ من مِنىً ... فهيَّــج أطــرابَ الفــؤادِ ومــا يــدري
دعــاً بــاســم ليلــى غيــرَهــا فكــأنَّمــا ... أطارَ بليلى طائراً كان في صدري
دعــا بــاســم ليلــى ضلَّــل اللهُ سعيــه ... وليلــى بمنــأى عنــه فــي مهمــهٍ قَفْــرِ

وهي أبياتٌ تُذكِّرنا بأبيات الشريف الرضي في مثل هذا الموقف:

وراميــنَ وهنــاً بــالجمــار وإنمــا ... رموا بين أحشاءِ المحبِّين بالجَمْرِ

رموا لا يبالون الحشا، وتروَّحوا خليلين، والرامي يصيب ولا يدري
فيا بؤسَ للقُرب الذي لا نذوقهُ سوى ساعةٍ، ثم الفراقُ مدى الدهرِ

وحجازياتُ الشريف مشهورةٌ ذائعةٌ، وقد خصَّها الدكتور زكي مبارك بتحليلٍ رائعٍ، في الجزءِ الثاني من كتابه (عبقرية الشريف الرضي).

٣٢٨ ـ أبو نواس

وما لأبي نواس والحج!؟ لقد حجّ مضطراً، حيثُ حجَّتْ صاحبته (جنان) وقد تعذَّر عليه أن يلقاها ببغداد، فخيِّلَ إليه أنه سيظفرُ بلقائها في ساحة البيت، وهي تطوف، ولم يكتم مراده، بل صرَّح به حين قال:

ألمْ ترَ أنني أفنيتُ عمري بمطلبها، ومطلبها عسيرُ
فلمَّا لم أجدْ سبباً إليها يقرّبني وأعيتني الأمورُ
حججتُ وقلتُ قد حجَّتْ جنانٌ فيجمعني وإيَّاها المسيرُ

وقد أذلَّه الله بحب (جنان) إذ كانت تترفَّع عنه، وتُسيءُ القولَ فيه، وهو يُرسِلُ إليها فلا يأتي الرسول إلا بما يسوءُه ويكربُه، وهذا ما عناه في قوله:

وابأبي مَن إذا ذُكرتُ له وطولَ وجدي به تنقّصني
لو سألوه عن وجه حجتِه في سبّهِ لي لقالَ يعشقني
نعم إلى الحشرِ والتَّنادِ نعمْ أعشقُه أو أُلفُّ في كفني

وقد ظفر الشعر العربي بفريدةٍ رائعةٍ من فرائد (أبي نواس) تصلُح أن تسمَّى (أنشودة الحج) لأنَّه في رحلته إلى مكة تأثَّرَ بما شاهد من ضجيج التلبيةِ والتكبيرِ، فأخذه الطربُ، وقال رَجَزاً سمعه الناسُ، فجعلوا يرددونه معجبين، وما زال يُردَّدُ للآن، ومنه مخاطباً ربَّه:

لبَّيكَ، قد لبيتُ لك لبَّيكَ إنَّ الحمدَ لك
والملكَ لا شريكَ لكْ ما خابَ عبدٌ أمَّلك
أنتَ له حيثُ سلك لولاكَ يا ربِّ هلك
يا مُخطئاً ما أغفلك عَجِّلْ وبادِرْ أجلَك

٣٢٩ـ حجّ بشار

أرجف الناس (ببشار) بعد أن كثر مجونه، وتعددتْ وقائعه مع الجواري والمتبذّلات، وخاف عقاب أولي الأمر، بعد أنْ وصله إنذارُ المهديّ وتهديده، فأشار عليه بعضُ عارفيه أن يذهبَ إلى مكّة حاجًا، فيعلن للنّاسِ أنه أتمَّ عهداً، وبدأ عهداً، وراقتِ الفكرة للشاعر بدءاً، ولكنّه بعد أن أعلن السّفر عاوده انتكاسُه، وخافَ أن تكثر الشائعات من جديد، فاتّفق مع صديقٍ له يُسمَّى (سعد بن القعقاع) أن يبدءا الرحلة من (بغداد) على أن يقضيا وقت الحج في قرية (زرارة) وهي بعيدة عن بغداد، وبها بعض أماكن اللهو والخمر، فإذا عاد الغائبون عادا معاً، وتمَّ ذلك، فغابَ بشار عن بغداد مع صاحبه، ثم رجعا برجوع القوم، وأخذ بشار يتحدَّث عن إحرامه، وطوافه، وسعيه، ووقوفه بعرفات، ومروره بالمزدلفة، ومبيته بمنى، ثم قامَ نزاعٌ بينه وبين صديقه (سعد بن القعقاع) على أمرٍ ما، فتشاتما وتسابّا، ورأى سعد أن يعلن الحقيقةَ حين جهر بماكان من أمرِه مع الشاعر في (زرارة) فقال:

ألــم تــرنــي وبشـــاراً حججْنـــا	وكـــانَ الحــجُّ مِــنْ خيــرِ التجــاره
خــرجنـــا طـــالبــيْ سفــر بعيــد	فمـــالَ بنـــا الطــريــق إلــى زراره
فــآب النـــاسُ قــد حَجُّــوا وبــرُّوا	وأُبنـــا مــوقــريــنْ مــن الخســاره

٣٣٠ـ عود إلى أبي نواس

عاد(أبو نواس) إلى بغداد بعد أن ذاعت أرجوزته في الحج (لبّيكَ إن الحمد لك) وقد تناقلها البغداديون معجبين، وظنُّوا أن الشاعر قد تاب نادماً، وأخلص لله تائباً، وبدا منه ما يدلُّ على ذلك، ولكنْ لأيامٍ معدودةٍ، حيثُ عاودهُ حبّ المجون واللهو، فرأى أن يتركَ العاصمة، ويذهب إلى أماكن اللهو بعيداً عنها، وفي قُرى (قُطربّل) و (كلواذى) و (طيزناباذ) وهي مليئةٌ بالحانـات والمواخير، ما يشبع نهمته، وكان شيطانهُ قويَّ التأثير، فأسلم إليه أمره، ولم يكد يقابل إخوانه هناك حين استقبلوه متسائلين عن حجِّه، فابتسم وأنشدهم قوله:

قالوا تنسَّكْ بعدَ الحج، قلتُ لهم: أرى وأرجو وأخشى طَيْزَناباذا
ما أبعدَ النسكَ من قلبٍ تضمَّنه (قُطْرُبّلٌ) فَقُرى بنَّا فكلواذا
فإن سلمتُ وما قلبي على ثقةٍ من السلامةِ لم أسلم ببغداذا

ثم أقام بكلواذى طويلاً بين مراحه ولهوه، وهي ميناءُ بغداد، ترسو فيها السفن التجارية القادمة من واسط والبصرة، أو القادمة من شمال بغداد عن طريق دجلة، وقد جاء بها من بغداد مَن قابلَ أبا نواس، وأخبره أنَّ أمره قد اشتُهر في العاصمة، وأنَّ الناس قد يئسوا من توبته، واعتبروا حجَّه مرفوضاً من ربه، إذ لو قبله لتاب عليه، ولم يعكف هكذا على اللهو في أماكنه العابثة، فضحك أبو نواس، وقال: إذن سأرجعُ لبغداد إذا انتشر الحديث. .

٣٣١ ـ أمير الشعراء

كان (أحمد شوقي) يخاف السفر إلى أيِّ مكان، ويعدُّه مدعاةَ خطرٍ متوقَّع، وهو الذي قال عن الطائرة:

أركبُ الليثَ ولا أركبُها وأرى ليثَ الشَّرى أوفى ذماما

وقد اعتزم الخديوي (عباس) وهو شاعرهُ الأول، ومستشاره الوفي أن يحجَّ بيتَ الله في حاشيةٍ من الوزراء والعلماء وذوي الشأن ومعه والدتُه (أمّ المحسنين) وبعض الأميرات من البيت المالك، فاقترحَ على (شوقي) أن يصحبَه في الرحلة الميمونة، وقد هُيئتْ له وسائلُ الراحة في ركب الأمير الجليل، ولكنَّه أخذ يعتذر، ويُبدي من وسائلِ التضرّعِ ما لم يكنْ جديراً بمثله، فالسفرُ مأمونٌ، والموكبُ جليلٌ مهيبٌ، وبه أصدقاؤهُ من الحاشية، الذين لا يُشعرونه بالاغتراب، وكأنَّه أحسَّ حرجَ موقفه، فأنشدَ قصيدةً في مدحِ (العباس) قال فيها:

لكَ الدينُ يا ربَّ الحجيجِ جمعتهم لبيتٍ طهورِ السّاحِ والعَرَصَاتِ
دعاني إليكَ الصالحُ ابن محمَّدٍ فكانَ جوابي صالحُ الدعواتِ
وخيَّرني في سابحٍ أو نجيبةٍ إليكَ، فلمْ أخترْ سوى العَبَراتِ

وقـدَّمـتُ أعـذاري وذلّـي وخشيتـي وجئـتُ بضعفـي شـافعـاً وشكـاتـي
فيا ربِّ! هل تُغني عن العبد حجةٌ؟ وفـي العمـر مـا فيـه مـن الهفـواتِ

وهي هفـوةٌ انتهزها شـاعرُ النيل (حافـظ إبراهيم)، فقال في قصيدةٍ بهذه المناسبة، مادحاً (العباس) ومعرِّضاً (بشوقي):

ولـو أنني خُيِّرتُ لاخترتُ أن أرى لِعيسِـكَ وخْـدي حـاديـاً متـرنِّمـا

٣٣٢ـ حجٌّ غيرُ مبرور

للأستاذ أحمد حسن الزيات بالجزء الثاني من (وحي الرسالة) مقال تحت هذا العنوان، ألمَّ فيه بحديث حاجٍّ مزيف، كان يتظاهرُ بالحج، ليروِّج تجارته في المخدرات، فقال عنه:

«قالَ جاري: إنَّ العجيبَ من أمر هذا الرجلِ أنَّه يحرصُ كلَّ الحرصِ على أداء الحجِّ في كـلِّ سنة، وهو لا يُقيمُ الصلاة، ولا يُـؤتي الزكـاة، ولا يصومُ رمضان، ولا يكادُ يتشهد، فكيف يقومُ دينه على ركنٍ واحدٍ من أركان الإسلام؟.

فردَّ آخرُ يقول: إنَّه لغزٌ لا يُحَل، وسرٌّ لا يُدرَك، ثم ابتسمَ حين ذكر في همس: ألم تُلاحظْ وأنت من جيرةِ هذا الحاج، أنَّه يجلبُ مقاديرَ من التمر والحلوى على خلافِ ما جرتْ به العادة؟ فقال صاحبُه: وما السرّ في ذلك؟ قال: السرّ أنك إذا شققتَ تمرةً من يابسِ التمرِ، أو فتحتَ علبةً من عُلبِ الحلوى، وجدتَ فيها الكنزَ الذي يُنفق منه طولَ العام، نوعٌ من الحشيش له تُجَّاره المعروفون لديه، قلنا: وماذا يصنعُ مع الجمرك؟ فقال الرجل: صلّوا على النبي يا جماعة، والله لو كان على حُدودنا تفتيش، ما دخلَ مصر أفيونٌ ولا حشيش».

أقول: ومثل هذا الحاج المزيَّف جديرٌ بقول من قال متظرِّفاً:

رأى البيتَ يُـدعـى بـالحـرامِ فحجَّـه ولو كان يُدعى بالحلالِ لما حَجّا!

* * *

مديح ذو وجهين

٣٣٣ـ مدح أم هجاء

حين أُحيل الباحث الفاضل الأستاذ (محمد أحمد برانق) إلى المعاش أقام له زملاؤه في وزارة التربية والتعليم حفلةَ تكريمٍ كبرى، وقد جمعوا نفقات الاحتفال من تبرعات المشاركين في الحفل، ومن زملاء الرجل في مراحل حياته التعليميَّة، وممَّن سعدوا بالتلمذة له من المدرسين، وعددهم كثير، وكان الحفل في مظهره العام شائقاً بديعاً، إذ توالى الخطباءُ والشعراءُ منوّهين بمآثرِ الأستاذ برانق، ثم جاء الدور على صديقه الأستاذ (محمود غنيم) وهو من زملاء الأستاذ تلميذاً ومدرساً فقال قصيدةً لا أقولُ إنها أشبه بالهجاء، بل أقول: إنها من الهجاءِ الصريحِ، فقد قال ما معناه: إنك لم تُرزق أيَّةَ موهبةٍ، ولكنَّ مالك كثير، لأنَّ حظلك سعيد، وقد رُزقتَ مهارةَ اليهودِ في اصطيادِ النقود، وقد بَنيْتَ عشراتِ البيوتِ الحجرية، ولكنَّها كلَّها لا تُساوي بيتاً من شعري، وإذا أردتَ أن أمدحكَ فابذلْ لي بعض مالك، لأجدَ ما يدفعُني إلى مديح أمثالك، والقصيدة نابيةٌ في موضعها التكريمي، ومنها هذه الأبيات:

لم تُؤتَ شعراً مثل شعر	أبي العلاء أو الوليدِ
لكنْ رُزقتَ مهارةَ الصِّهْيونِ في جمعِ النقودِ	
كم تَقْتني من ضيعةٍ	كبرى ومن بيتٍ مشيدِ
لكنْ بيوتُك لا تُساوِ	ي شطرَ بيتٍ من قصيدي
سبْحان من قَسَمَ المواهبَ	والحظوظَ على العبيدِ
رجلٌ يسودُ بِعِلْمهِ	وسواهُ بالحظِّ السعيدِ

وأكبرُ مأساة خلقية، هي أنَّ الذين اشتركوا في حفلة التكريم، وأسهموا بنقودهم في الاحتفال قد صفَّقوا للشعر، واستعادوه، وأخذوا القصيدة، ونشروها

في أكثر من مجلة، لأني قرأتها بمجلتَي (الأدب) و (الرائد) وجريدة (الجمهورية)! فما معنى هذا، ولماذا اشتركوا في الاحتفال إذا كانوا يَحْملون عاطفة الجحود لصاحب الاحتفال! أليست هذه مأساة!!؟

على أنَّ الشاعر (غنيم) قد تجنَّى على زميله، فالأستاذ (برانق) لم يكسب المال بالحظ السعيد فقط، ولكنْ بجدِّه العلمي، فلهُ كتبٌ قيِّمةٌ في التاريخ مثل (الوزراء العباسيون) في جزءين، و(أبي العتاهية) (بحث تحليلي) و (تاريخ البرامكة) (بحث جامع مستوعب) هذا إلى كتب مدرسية كثيرة قرَّرتها وزارة التربية والتعليم على المدارس المختلفة! فكيف لا يكون عالماً ذا جهد ملحوظ.

٣٣٤ـ حافظ إبراهيم

اشتُهر شاعر النيل (حافظ إبراهيم) بالفكاهة البارعة، ويشاركه في ذلك صديقه الباحث العالم حفني ناصف، وقد أُقيمتْ حفلة تكريميَّة للشاعر المطبوع (حفني ناصف) بمناسبة انتقاله من القضاء إلى التفتيش بوزارة المعارف، وتحدَّث فيها كثيرٌ من أهلِ الأدبِ، ومنهم (حافظ إبراهيم) وقد غلبت روحُ الفكاهةِ على حافظ، فأراد أنْ يُداعبَ صديقه بتذكار الأيام الماضية حينَ كان طالباً فقيراً في الأزهر، لا يأكُل غير الجبن والمشّ، ولا يعرف مطابخَ اللحمِ والسمنِ، بل يبذلُ جهده في قراءة الحواشي والمتون الأزهرية، مع صديقه (محمد سلطان)، وقد صارَ فيما بعد رجلاً فاضلاً من كبارِ الباحثينَ، ذكرَ حافظ ذلك في دعابة خفَّتْ على السمع، وتلقَّاها (حفني ناصف) في حفلة تكريمه بارتياح، ومما قال شاعرُ النيلِ مخاطباً صديقه:

لاتنسَ عيشاً تولَّى	ما بين شرحٍ ومتنِ
ولَّى شبابُك فيه	ما بين مدٍّ وغنِّ
وذُقتَ من (جاءَ زيدٌ)	ومن شروحِ الشَّمنِّي
ما لم تُذِقْكَ الليالي	قلبْن ظهر المِجَنِّ
أيام (سلطان) يلهو	بمشِّه ويغنِّي

يبيــتُ يَقْصــعُ مــا لــم	أُسمّــه أو أكنـي
أيــام يــدعــوكَ حِفْني	مــن الحيــاة أَجِـرْني
مَــنْ لــي بــدرهــمٍ لحـمٍ	عليــه حبَّــةُ سمْــن
فــإنْ غــدوتَ وزيــراً	يــومــاً وجئتنــي نهنّــي
فــلا تقــلْ مــن غــرورٍ	يــا أيهــا النــاس إنــي

والدعابة في القصيدة ذات روح مرحة، وقد هزّت عواطف المستمعين، واستعادها حفني مسروراً، لأنَّ روح الحب تغمُرها، وليست روح الحسد والتَّعالي.

٣٣٥ ـ علي محمود طه

حين مات شاعر الجندول الشهير (علي محمود طه) أقامَ له أدباء الدقهليَّة موطن ميلاده حفلاً تأبينيّاً، دعوا إليه كبار الأدباء والشعراء في مصر، فألقوا كلماتِ الرثاء حارةً صادقةً وجاءَ دور الأستاذ (حبيب الزحلاوي) وهو ناقدٌ شديد اللهجة، فتعرَّضَ لحياة الشاعر الخاصة، ووصفه (بالبوهميَّة)، وذكرَ أنَّ كثيراً من عاشقاته اللائي تحدَّث عنهن في شعره كنَّ من وحي خياله، ولم يعرف عنهنَّ شيئاً في رحلاته إلى أوروبة، ولكنَّه وقع أسيرَ الوهم، وعبْداً لأحلام اليقظة.

وكانت أسرةُ الشاعر وأقرباؤه الأدنون من حضورِ هذا الحفل فساءَهم أن يُوصف الشاعر في حفلة تأبينه بالتبذُّل والاستهتار و(البوهميَّة) وبدا الضيقُ على الوجوه، فقام من الخطباء من يعارض الزحلاوي، وكادتْ تكون معركةً كلاميَّةً لا مبرَّرَ لها، ثم انتهى الحفل في حالةٍ من التبرم الساخط.

وكان الأستاذ الزيات صاحبَ مجلة (الرسالة) أحدَ شهودِ الحفل، وممَّن ألقوا كلمةً بارعةً كان لها صداها الطيب في النفوس، فاجتمع بالمتحدِّثين، وعاتب الأستاذ (حبيب الزحلاوي) على تورّطه فيما قال، فردَّ بأنه يرعى حقَّ التاريخ، لاينساقُ مع الهتَّافين والمصفقين، فقال الزيات: هناكَ فرقٌ بين ما يقالُ في حفلةِ تأبين يقيمها أصدقاءُ جازعون لهولِ الفراق، ووحشة البعاد، فهم

يذكرون أحسن مناقب الراحل الكريم مترحّمين، وبين ما يقال في درسٍ أدبي بالجامعة، أو في كتابٍ تحليلي عن أدبِ الشاعر، ففي المقامِ الأول، لاتذكر غير المحاسن، وفي المقام الثاني للباحثِ أن يقول مايشاء! وكان كلامُ الأستاذ الزيات قولاً فصلاً في هذا المجال، حيث أقنع به الحضور وكلّهم أدباء مرموقون!.

٣٣٦ ـ موقف مشابه

أذكر أني دُعيتُ لمناقشة رسالةٍ جامعيّةٍ تتحدث عن شاعرٍ معاصرٍ اشتُهر اسمه في اوائل هذا القرن ثم عفى عليه النسيان، وقد لاحظتُ أنَّ الدَّارس قد رفعهُ فوق قدره، وقرنه بكبار شعراء العصر في مُستوىً واحد، كما تغافل عن مساوئ شعره، وهي واضحةٌ لا شك فيها، وكان عليَّ أن أوضِّح ذلك في جلاءٍ لا لبس فيه، ولكنّي فوجئتُ بأسرةِ الشاعرِ جميعها، ومنها زوجتهُ العجوز وقد جاءتْ محمولةً لتشهد ما تَعدُّه تكريماً لزوجها، ومنها ولده الطبيب الشهير، وقد تقدَّم بكلمةٍ يقول فيها: إنَّه باسْمِ الأسرة يشكرُ جامعةَ الأزهر التي أنْصفتْ شاعراً لا يقلُّ في إبداعه عن مستوى شوقي وحافظ، وقد تنكَّر له الباحثون، حتى جاءت كلية اللغة، فردت له اعتباره، كما غمرت الجلسة بعد هذه الكلمة روحُ الإعجابِ الخالصِ بشاعرٍ مظلومٍ، آنَ أنْ يُنْصَف.

وكان ازدحام الصفوفِ الأولى بأسرة الفقيد، وقد علا البِشر وجوهَهم، ممَّا أوقعني في حيرةٍ شديدةٍ، فإذا قُلتُ ما أعددتُه من هناتِ الشاعر، وما أخذته على الدارس من الوقوع في مبالغة لا داعي لها في مجال البحثِ العلمي، إذا قلت ذلك فإني أتجاهل شعور الزوجة العجوز، التي جاءت محمولةً على الأعناق، كما أعصف بالكلمة التي قالها ولده الطبيب مباهياً فخوراً.. لذلك رأيتُ أن أتنازلَ عن نصفِ ما لديَّ من المآخذ، وأن أقول قبل توضيح النصف الآخر: إنَّ كل شاعرٍ لابدَّ له من أخطاء، وإنَّ شوقي وحافظ ومطران والبارودي وهم كبار الشعراء في هذا العصر، لم يسلموا من أخطاء وُجّهت إليهم، فإذا كان شاعرُ هذه الرسالة ممن وقعوا في أخطاءٍ فنّيّةٍ تجاوز عنها الدارس فليس هذا بمنتقصٍ فضله الكبير ومضيتُ أُحصي بعضَ ما تجاوز عنه الدارس، وكان الوجوم يجلِّلُ بعضَ الوجوه في

الصفوف الأولى، ولكنّي عقّبتُ أخيراً بما يُعيد البسمةَ للوجوه!! وهل كان في وسعي أنْ أفعلَ غير ما فعلتُ!.

٣٤٤ ـ تكريم الهلباوي

الأستاذ إبراهيم الهلباوي كان محامياً كبيراً خطيراً، لأنَّه اشتُهر ببلاغة الحجة، وقوة المنطق، بحيث يرتجل في مرافعاته القانونية من التبريرات والعلل ما يُدهِشُ خصومه، وقد قال العقاد: إنَّ لسان الهلباوي قد دخل التراث الشعبي، فأصبح العاميُّ يقول لمن يَبْرع في المجادلة «ولا لسان الهلباوي».

لقد أقيمت حفلة تكريم لهذا الرجل بمناسبة اختياره نقيباً للمحامين، وانطلق زملاؤه يشيدون بمواهبه، ولكنَّ زميلاً ثائراً خرج عن موضوعِ التكريم، وذكر حادثةَ دنشواي التي كانت سبباً لأكبر خطيئةٍ وقع فيها الهلباوي، حين طالب بإعدامِ المتهمين، وهم مصريون! وقد تكهربَ الموقف، ولم يُنقذ الحفلَ غير وقوف الهلباوي نفسه، قائلاً في قوّة: إنَّه يشكرُ زميلهُ الذي تعرّض لهذه المسألة، فقد كان ينتهزُ فرصةً للحديث عنها فلا يجد، ثم انبرى يَعْرِضُ ما اعتزمَ عليه الإنكليز من محاولة إعدامِ عشرة نفوس، ومعهم القوة والبطش، فحاول أن يدفعَ عن المتهمين بكل ما أمكن من الحجج، حتى وقفَ الأمرُ عندَ هؤلاءِ الأربعة! فحمد الله أنَّ الشرار لم يمتدَّ إلى أكثر منهم، وقَبِلَ المرافعة درءاً لخطرٍ أكبر إذا ركب المحتلُّ رأسَهُ! ثم ذهب إلى مجلس زميله الذي هاجمه من قبل فعانقه والدمع يترقرق من عينه، وتتابع الخطباء من بعد. .

هذا الموقف يدل على قوةِ نفسٍ، وشجاعةِ خاطرٍ، وهو رمزٌ لذخيرةٍ نفسيَّةٍ لا يتسلَّح بها غير القليلين، إذ لو كان الأمرُ متعلِّقاً بغير الهلباوي لما كانت هذه النتيجة.

٣٤٥ ـ من كلام البشري

يقول الكاتب الكبير الأستاذ عبد العزيز البشري عن الهلباوي في كتاب

(المرآة): «خطيبٌ أيُّ خطيب، لقد كان يقفُ في الجمهرة، والناسُ أكثرُهم على غيرِ رأيه فيما يجولُ فيه، فما يزال يدورُ على مواطنِ إحساسهم، يحسّها من هنا ومن هاهنا، في رشاقةٍ وخفَّةِ قولٍ، ولطفِ شاهدٍ، وبراعةِ نكتةٍ، حتى إذا آنسَ من الآذان تطامنا من جماح، واسترخاءً بعدَ عصيان، هجمَ منها بكلّه على النفوس، فظلَّ يهزُّها هزّاً، ويرجُّها رجّاً، فما الفحلُ إذا هدرَ، ولا الليثُ إذا زأرَ، ولا البحرُ إذا زخرَ، بأشدَ صولـةً على الأسماع من الهلباوي حين يتدفّقُ في الكلام، فما يروعك من هذه الجماهير الواجمة، إلا أنْ تراها برغمها، قد أرسلتْ حناجرها بالهتاف، وبعثتْ أكفَّها بالتصفيق».

* * *

أخلاق مريضة

٣٣٩ ـ عقوق الأدباء

الأصل في ذوي الثقافة العريقة، والأدبِ البارعِ أنْ يرتفعوا في سلوكهم الشخصي إلى مستوى القدوة الصالحة، لأنَّ الذين يقرؤون لهم من مئاتِ القرّاء يظنُّون أنَّ إلهامهم الأدبي أثرٌ بارزٌ لسموٍّ نفسي وإشعاعٍ روحي، ولكنَّ الواقع المؤلم لا يجعل هذا الأصلَ قاعدةً عامة، بل يُرينا من ضرائبِ الشذوذ الإنسانيّ ما نحارُ في تعليله، وإنَّ الإنسانَ ليُدهشُ حين يرى بعض الأميّين ـ وكثير ما هم ـ ذوي سلوك خلقي أمثل، وهمْ بعدُ لم يستفيدوا من مطالعةِ كتابٍ، أو يُلمّوا بصالة درسٍ، على حين نرى أصحابَ الثقافة المعترف بها ينحرفون ولا يخجلون.

وأضربُ أمثلةً مشهودةً لبعضِ ما أعنيه، فأذكر أنَّ الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الزين رحمه الله وقد كان ملء السمعِ والبصرِ في جيله أدباً وشعراً وتحقيقاً وروايةً، تركَ الدنيا على غير انتظار، وخلَّفَ ديواناً شعرياً نُشرتْ بعضُ قصائده في الصحف من قبلُ، وقد وقفَ أخوه الأديبُ الشاعرُ القاضي الأستاذ (محمد الزين) منه موقفاً أدعُ الأستاذ (عباس خضر) يتحدَّث عنه فيما كتبه تحت عنوان (قاضٍ يحبس ديوان أخيه).

قال الأستاذ (عباس خضر) بمجلة (الرسالة) ١٣/ ١١/ ١٩٥٠ ـ ببعض التصرف:

على إثر وفاة الشاعر الفقيد (أحمد الزين) توجَّه إلى منزله أخوه الشيخ (محمد الزين) القاضي الشرعي بمحكمة (الزقازيق) وتلطَّفَ مع زوجةِ أخيه المتوفّى، فطلب الديوان ليطبعه وينشره، فأسلمتْهُ إيّاه واثقةً من حسنِ نيّته، ومرّتِ الأيام، ولم تجدْ صدىً للنشر غير معاذير لا حقيقة لها، ثم رأتْ لجنةُ التأليف والنشر والترجمة أن تنشرَ الديوانَ تقديراً للشاعر الراحل، فقرّرتْ طبعهُ مع التنازل عن حقِّها المادّي

لنجلِ الفقيد ـ وهو طفلٌ صغير ـ وبقيتْ للشيخ القاضي كي يردَّ الديوان، فلم تتلقَّ منه أيَّ ردّ، وعلمت الزوجةُ، فسارعتْ للقاء القاضي رغبةً في ربح مادّي تحتاجُ إليه في غلاء العيش، فلم يستجبْ لها، مُصرّاً على احتباس الديوان، فاستعانتْ ببعض أصدقائه، فأخذ يُبدي معاذيرَ واهية، لا يصدِّقها أحد، إذ يزعمُ أنَّه اتفق مع بعضِ الناشرين تارةً، وأنَّ زعيماً كبيراً سيرعى الديوان بنفوذه تارةً أخرى، ومضتِ الأيام، ولم يتحقق شيءٌ، فكررت الرجاء وعادتِ الزوجة تلحف في الطلب متأثرةً، حتى غلبها البكاء، ولكنَّ الأخ قال لها: إذا أحسَّ هذا الكرسي أثراً لبكائك، فقد أحسستُ، وعاجلها بالخروج!

أقول: إنَّ الشيخ القاضي يتعاطى الشعر، وقد نشرَ بعضَ قصائدِه في مجلاتٍ متواضعة، وكأنَّه أحسَّ أنَّ ديوانَ أخيه إذا نُسِبَ إليه سيرفع من قيمته، فأصرَّ على احتجازه، ولكنَّ لجنةَ التأليف والترجمة والنشر، فهمت الغرضَ المنكر، فاتصلتْ بأصدقاءِ الشاعر وزملائه في دار الكتب، وطلبتْ منهم أن يجدّوا في جمعِ كلِّ ما يعثرون عليه من شعره في مختلف الصحف والمجلّات، وقد شمَّر هؤلاء عن ساعد الجدّ، فجمعوا قدراً كبيراً مما قاله الشاعر الراحل، وظهر الديوان في أجملِ مظهرٍ، ولكنَّ ما فُقدَ أكثر ممّا جُمعَ! وكأنَّ القاضي وقد عرف أنَّ العيون متَّجهةٌ إليه، وأنَّ رجالَ النقدِ لن يسكتوا عن شرِّه، قد آثرَ السكوتَ المطلق.. ولم يستطع أن يبلغَ مأربه المنحدر، وهو أخٌ شقيق! وقاضٍ أديب.

٣٤٠ ـ يوميات الفيلسوف القانع

منذ أظهر الكاتب الكبير السيد (مصطفى لطفي المنفلوطي) روائعه الخالدة (ماجدولين) و (الفضيلة) و (الشاعر) و (في سبيل التاج) وهي قصصٌ غربيَّة قرأ ترجمتها، وصاغها بأسلوبه الساحر، فهزَّتْ مشاعر القراء، وطبعتْ عشرات الطبعات، حتى كادَ يُنسى اسم المؤلف حين لا يُذكرُ غير اسم الكاتب المبدع، منذُ ذلك، وبعض أساتذة الأسلوب البياني يطمحون إلى احتذاء المنفلوطي فيما صنع، وكانَ الأستاذ الأديب (محمود مصطفى) أستاذ الأدب بكلِّية اللغة العربية قد

استراح إلى مثل هذا العمل، فاتّفق مع زميله في المدرسة الأستاذ (أسعد عبد الملك) أن يُترجمَ له (اليوميات) ترجمةً حرفيّةً عن الفرنسية، ويقوم هو بما قام به المنفلوطي من الصياغة الأدبيّة، وظهرت (اليوميات) تحملُ اسم الصديقين معاً: محمود مصطفى وأسعد عبد الملك.

ثم مات الأستاذ (محمود مصطفى) بعد خمسةَ عشرَ عاماً من ظهور (اليوميات)، وظهرت الطبعة الثانية تحملُ اسم الأستاذ (أسعد عبد الملك) وحده.

يقول الأستاذ (محمد فهمي عبد اللطيف) بصدد هذا الحادث، تحت عنوان (جنايةٌ أدبيّة) بمجلةِ الرسالة الصادرة بتاريخ ٢١/ ٧/ ١٩٤٧ :

«وفي هذه الأيام ظهر كتاب (يوميات الفيلسوف القانع) في طبعةٍ ثانية، ولكنَّه يحملُ اسم الأستاذ أسعد عبد الملك وحده، ويعلِّلُ حضرته هذا الاستئثار بملكية الكتاب، بأنَّه أولاً رأى أنَّ أسلوبَ الكتاب في طبعته الأولى أشبه بأسلوب الجاحظ وابن المقفع، خصوصاً الصدر الأول فعمدَ إلى تبسيطه، وحذف ما فيه من كلماتٍ وتعبيراتٍ رآها غريبةً عميقة، لا تناسبُ روحَ العصر، ومن جهةٍ ثانيةٍ فإنَّ الأستاذ (محمود مصطفى) نزل له عن الإسهامِ في الترجمة، بعقدٍ مؤرَّخٍ في ٥/ ٩/ ١٩٢٧».

أما مسألةُ تغيير الأسلوب، فإنها جنايةٌ على أسلوبِ الأستاذ (محمود مصطفى) لأنَّها مسخٌ لجهده، وجنايةٌ على الكتاب، لأنه حطٌّ من قيمته، على أنّي قابلتُ بين الطبعتينِ فلم أرَ هذا التغيير، إلا في كلماتٍ وتعبيراتٍ كان الأستاذ محمود مصطفى يشرح معناها، فحسبها صاحبُنا غريبةً لا تلائمُ روحَ العصر.

وأمّا مسألةُ العقد، فقد تنازل الأستاذ محمود عن الحق الماديّ، ليتولى الأستاذ (أسعد) مهمةَ التوزيع، أمّا (الحقُّ الأدبي) فمحفوظٌ دونَ مساس! وهل يحقُّ لدور النشر التي تشتري حقَّ تأليف الكتب من المؤلفين أن ترفع أسماءَهم، وتدّعي أنها من تأليفها، ومن عبقرية أموالِها. إنَّها تجارةٌ بأكفانِ الموتى، وجنايةٌ أدبيةٌ أضعُها تحت الأنظار.

٣٤١ـ تأبين الشيخ علي محمود

حين انتقل إلى رحمة الله شيخ القراء بالديار المصرية الأستاذ (علي محمود) اعتزم عاشقو فنّه أن يُقيموا حفلةً تأبينيّةً كبرى تناسبُ مقامه الكبير، وقد رأوا أن تُسندَ رئاسةُ الحفل إلى الوزير القدير الدكتور (محمد صلاح الدين) وزير الخارجية، وأحد المعجبين بالراحل الكبير، فقبلَ رئاسة الحفل عن سرور وتقدير، ولكنَّ القائمين على الحفل طلبوا من الوزير الدكتور أن يُلقي كلمةً مسهبةً تتضمَّنُ تاريخَ الشيخ، وأثره البارز في الحقل الفني، فاعتذرَ لكثرةِ أعبائهِ الحقيقيةِ بوزارة الخارجية أثناءَ الحرب العالمية الثانية، ومحاولة الجيوش الألمانية اقتحام مصر بقيادة القائد الألماني (روميل) فرأى الذين تقدَّموا بهذا الاقتراح أن يقومَ أحدُهم بكتابة الكلمة الضافية متضمِّنةً أحسن ما يُقالُ عن الرجل، ثم يلقيها الدكتور صلاح، فيكون ذلك تنويهاً كبيراً بالراحل، حين يتحدَّث عنه أكبر وزيرٍ في الدولة! وتردَّد الرجل، ولكنَّه أمام الإصرار، خضع لما أرادوا، وأقيمتْ الحفلة بدار الأوبرا الملكية، وافتتحها الدكتور (صلاح الدين) بالكلمة الحافلة، وقد اهتمَّتْ بها الصحف اليومية، وذكرت فقرات كثيرة منها، أمَّا مجلَّة (الصباح) فقد نشرتها جميعها منسوبةً إلى الدكتور (محمد صلاح الدين) كما هو المشاهد الملموس.

ومضى عشرون عاماً، ذهب فيها عهد، وجاء عهد، وأصبح الوزير الوفدّي غير مرغوب في ترداد ذكره مع مكانته السياسية والفكرية المعترف بها لدى الأصلاء، ففُوجئ القرَّاء بكلمة ضافية تُنشرُ في مجلَّة (المجلّة) خاصّةً بالشيخ (علي محمود) وهي نفسها الكلمة التي نشرتها مجلة (الصباح) من قبل معزوّة للدكتور (محمد صلاح الدين)! ولكنها ممهورة باسم أديبٍ مشهور! ووصلتْ إلى المجلة تعليقاتٌ تستنكِرُ أن تُنشرَ كلمة الدكتور محمد صلاح الدين معزوّةً إلى غيره، وطلب رئيس التحرير من الكاتب أن يُفصحَ عن تعليلِ ما كان، فقال: إنَّه صاحبُ الكلمة، وقد كتبها للدكتور (محمد صلاح الدين) حين رأت اللجنة أن يقومَ بإلقاءِ كلمةٍ في الحفل، ومن حقِّه الآن أن يستردَّ ما كتب!.

وأنا أرى أنَّ كاتب الكلمة ـ إنْ صحَّ زعمه ـ لا يجوزُ له أن يستردَّ هديَّةً سبق أنْ أهداها غير مُجْبر، وبهذا الإهداء قد انقطعت صلتُه بها! وما كان له أن يبعث الحرج لنفس إنسانٍ كبيرٍ لم يشأْ أصلاً أنْ يقول، ولكنَّهم أجبروه على أن يقول فكيف يُعلن سرَّه وهو ما زال حيَّاً يرزق؟.

٣٤٢ ـ نصوصٌ أدبيّة

من الاحتيالِ الأدبي غير الحميد أذكر هذه النادرة:

أرادَ أحدُ كبارِ المفتِّشينَ الأوائل بوزارة التربية والتعليم في عهدٍ من العهودِ السابقةِ أن يُؤلِّفَ لطلاب المدارس الثانوية كتاباً في النصوص الأدبيَّة يحمل اسمه وحدَه، وليس لديه من الوقتِ وإنْ شئتَ فقُلْ من الموهبة ما يُساعده على إتمامِ العملِ الأدبي على نحوٍ سديد.

ولكنَّه يعرف الموهوبين من المدرسين، وقد مرَّ عليهم مفتِّشاً، فلم يرَ من العيب أنْ يختارَ عشرةَ نصوصٍ أدبيَّةٍ شعريَّةٍ ونثرية، تمثِّلُ العصر الأدبي الذي يتحدَّثُ عنه المقرر، ويعطي كلَّ مدرِّسٍ نصَّاً واحداً راجياً أنْ يبْذُل جهده في شرحه، تمهيداً وتعقيباً وكشفاً عنْ خوافي اللغة والبيان والنحو، حتى يظهرَ على أفضلِ ما يُرجى! وقد حدَّد المدَّةَ الزمنيةَ الكافيةَ لهذا العمل، فتمَّ له ما أراد، واكتملَ بين يديه كتابٌ أدبيٌّ حافلٌ بالنصوص المشروحة، والتعليقات الكاشفة، والأسئلةِ الموضِّحةِ، وسِيْقَ الكتابُ إلى المطبعة، فتداوله الطلاب مع بدءِ العام الدراسي.

ولكنَّ المدرسين لم يعجزهم أنْ يعرفوا أنفسهم، وأن يجتمعوا في نادٍ (تربويّ) ليتحدَّث كلُّ واحدٍ منهم عن قصيدته التي سهر من أجلها، وجاءَ الخبرُ إلى المفتِّش، فأخذ يسترضي ويستعطف، ووعد بالترقية الماجلة ليضمنَ السكوت!.

* * *

رثاءُ الأحياء

٣٤٣ ـ رثاء الراحلين

يُصاغُ الرثاء شعراً أو نثراً في بكاء الراحلين، وتعداد مآثرهم، ووصفِ الحرقة الكاوية لبعادهم، فالراحل العزيز إذنْ لا يقرأُ ما قيل فيه، وإنْ كان يتمنَّى أنْ يُقالَ عنه كلّ جليل نبيل، ولكنَّ غرائب الحياة كثيرة، ومن هذه الغرائب أنْ وجدنا أناساً قرؤوا مراثيهم وهم أحياء لظروفٍ شاذَّةٍ جعلتْهم يعرفون ما قيل عنهم، قبلَ أنْ يتجاوزوا البحر إلى الشاطئ المهيب، ومن هؤلاء مَن سَعِدَ سعادةً تامَّةً بما قرأ في كلمةِ النعي، وأخذته النشوة، فبعث إلى مَنْ كتبها شاكراً، ولنبدأْ بحديث الأستاذ الكبير (أحمد حسن الزيات) صاحب مجلة (الرسالة) الشهيرة، حيثُ أذاعتْ بعضُ شركاتِ الأنباء العالمية خبرَ وفاته دون تحقيق، فنهضَ أديبان سعوديان لرثائه، هما الأستاذ الكبير (عبد الله بن خميس) والأديب الفاضل (عبد الرحمن فيصل المعمّر)، وقرأ الأستاذ الزيات ما كُتب عنه، فردَّ عليه بهذه الكلمةِ البليغةِ ذاتِ الصدقِ المبين.

٣٤٤ ـ كلمة الزيات

أرسل الكاتب الكبير إلى جريدة (السعودية) التي نشرت رثاءَه هذا الخطاب المؤثر:

أخويَّ الأعزّين (عبد الله بن خميس) و (عبد الرحمن بن فيصل بن معمّر)، لأول مرّة في تاريخ الإنسان يقوم ميّتٌ ليعذرَ من نعاه، ويشكرَ من رثاه، ولأول مرّةٍ في تاريخ الأدبِ يقوم كاتبانِ يجوزُ عليهما ما يجوز على الناس في هذا العصرِ من كفرانٍ بالجمال، ونكرانٍ للجميل، فينثرانِ معنى الوفاء نثراً كأزهارِ الروضِ عَطِرَ الألفاظ، نضيرَ الجُملِ على قبرِ كاتبٍ غريبٍ لم يرياهُ في مكان، ولم يُعايشاهُ في وطن، ولم يُلابساهُ في صداقة، وكلّ ما بينهما وبينه صلة أدبية عامة، يكفي في

التعبير عنها إذا قطعها الموتُ كلمةٌ مجملةٌ تُكتبُ من وراء القلب، فتنفي الجرحَ وتدفعُ الملام، وتشغلُ حيِّزاً من المجلّة، ولكنَّ ما كتبتماه يا أخويَّ، نمطٌ آخرُ غير ذلك كلِّه، عبراتٌ من الكَلِم لا يسكبها إلا قلبُ ابنٍ بارٍّ على أبٍ حنون، وزفراتٌ من الأسى لا ينفثُها إلا صدرٌ مؤمنٌ أسيفٌ على أخٍ شهيد، وشهادتانِ لذَوَيْ عدلٍ كلّ ما أتمناه على أهلي أن يُدرجوهما في كفني، لألقى بهما الله! لقد مِتُّ في الجزيرة، وكلُّ حيٍّ سيموت، ولقد بُعثتُ في الجزيرةِ وكلُّ ميتٍ سيبعث، والبعثُ عمرٌ جديد، وأجلٌ مستأنف، والمتنبّي عاشَ طويلاً بعد أن بعثَ إلى سيف الدولة يقول:

يـا مـن نُعيتُ علـى بُعـدٍ بِمجْلِسِـهِ　　　كـلٌّ بمـا زَعَـمَ النّـاعـونَ مُـرْتَهَـنُ

وشتَّانَ بين من نعاني ونعى أبا الطيب، نعاه ناعية للشماتة والعبرة، ونعاني ناعيَّ للأسف والحسرة، والفضل لكما يا أخويَّ في أنّكما حققتُما لي أمنيةً لم تتحقق لحيٍّ من قبلي، وهي أنْ يقرأَ الميتُ بعينيه ما كُتبَ بعد موته.

٣٥٣ ـ فكري أباظة

يروي الصحافي الكبير الأستاذ (فكري أباظة) في كتابه (حواديت) هذه الطرفة ص(٦٤) تحت عنوان (ميت حي) ببعضِ التصرف:

ما كدتُ أدخلُ في الصباح محلَّ (سيمونز) لتناولِ الفطور، حتى حدثَ ذعرٌ شديدٌ، فتياتُ المحلِّ الأجنبيات يذرفْنَ الدموع، وقد سقطَ عاملٌ من العمال على ظهره حين رآني، فتساءلتُ، فعلمتُ أنَّ خبرَ وفاتي كان قد ذاع، وتقدَّمتْ إحدى الفتيات الأجنبيات بنسخةٍ من جريدةِ (الجورنال ديجيبت) فقرأتُ فيها بين خطوط الحدادِ السوداءِ نبأَ وفاتي مع صورتي، ورثاءً طويل تفضَّلَ به زميلي الأستاذ (إدجار جلاد) ثم تاريخ حياتي بالتفصيل، وأخرجتْ فتاةٌ أخرى جريدةَ (البروجريه) وفيها نفسُ النعي، ونفس الرثاء!.

وتفسير الحكاية أنَّ أخي المرحوم (شكري أباظة) توفّي بباريس قبل هذا

النشر بأسبوعين، وكان معروفاً بفرنسة، فرأت الإذاعةُ الفرنسية أنْ تقولَ عنه كلمةً، ولكنَّ المذيعَ المختصّ في القسمِ العربي، ظنَّ أنَّ (فكري أباظة) هو المتوفّى لا(شكري أباظة) وسمعتْ شركةُ أنباء الشرقِ الأوسطِ المصرية نبأ الوفاة من الإذاعة الفرنسية، فوزّعت النبأ على الجرائد، ولم تتنبَّه إلى الخطأ الجرائدُ الفرنسيةُ الصادرةُ في مصر، فكان ما كان من أمرِ الجريدتين السابقتين، وسارعتُ بالاتصال تليفونياً بالأستاذ (إدجار جلاد) الذي نشرَ خبرَ الوفاةِ والرثاء، فدُهشَ، وقال مستنكراً: من أنت؟ قلتُ: أنا واللهِ (فكري أباظة) لا أزالُ حيّاً يُرزق وتهدَّجَ صوتُ صديقي (إدجار جلاد) وسمعتُ مزيجاً من الحزنِ والفرحة، وربَّما البكاء والضحك معاً.

وقد هطلَ مطرٌ من برقياتِ التعازي في الداخل والخارج على الأسرة مشاطرةً في الحزنِ على الراحل العزيز.

٣٤٦ ـ صاحب المقطم

عاشَ (فارس نمر باشا) أحد أصحاب جريدة (المقطم) ثلاثةً وتسعينَ عاماً، شاركَ فيها في أعمالٍ تجاريةٍ وعلميةٍ وسياسية، وهذه الأخيرة كانت موضع النقدِ كثيراً، لمساندته الاحتلالَ البريطاني، بحيثُ أصبحت جريدةُ (المقطم) لسانَ حالِ الاحتلال، وقد مرِضَ مرَضَ الموت، وأحسَّ باقترابِ أجله، فتوقَّعَ أنْ يُكتبَ عنه بعض ما لا يرضيه، ورأى أن تكونَ جريدة (المقطم) بينَ الجرائد لسانَ الثناءِ عليه، وقبل وفاتهِ بيومين دعا كبار المحرِّرينَ بالجريدة، وطلبَ منهم أن يُعِدُّوا كلماتِ الرثاء، ليتأكَّدَ مما يقولون، وكان الموقفُ يدعو إلى ترضيةِ الراحل! فأُعِدَّت الصفحات الخاصَّة بالنعي على نحوٍ يُرضي المريضَ المحتضِر، إذ جلِّلت الصفحاتُ بالسواد، وفي أعلى الصحيفة الأولى من (المقطم) الصادر في ١٧/ ١٢/ ١٩٥١ بالخط العريض (فجيعة مصر والشرق في وفاة المرحوم الدكتور فارس نمر باشا) وفي الصدر صورته الكبيرة، مع مقال تحت عنوان (أسرةُ تحرير المقطم تبكي

عميدَها)، ومقالٌ آخر تحت عنوان (ترجمةُ حياةِ فقيدِ العلمِ والصحافة)، ومقالٌ حارٌّ مؤثّرٌ للأستاذ الكبير (وديع فلسطين)، وانتقل الحديث إلى صفحاتٍ داخليّةٍ كلِّها تمجيدٌ للراحل، وقد قرأ (فارس نمر) في لحظاته الأخيرة كلّ ما أُعد، ولكنَّ هذا كلّه شيء، وما قاله التاريخ عن الرجلِ شيءٌ آخر!.

لستُ أريدُ أنْ أشير إلى سيرة (فارس نمر) ولكني أقرأ ما كُتِبَ عن جريدة (المقطم) في كُتُبٍ مستقلة، فأراها كانت شوكةً في جنب مصر المستعمَرة، والذين يروْنَ أنَّ مهادنةَ الاستعمار ضرورةً التجأَ إليها أمثال فارس نمر، ينسون أنَّ المهادنة شيءٌ، وتبرير الطغيانِ شيءٌ آخر، وأنّه لا يستوي في منطق الحق كاتبٌ مخلصٌ كافحَ العدوَّ، وتعرّضَ للنفي والسجنِ والاضطهاد، وحُورِبَ في رزقه وأهله، مثل الشيخ (عبد العزيز الجاويش) وكاتبٌ يملك الضياعَ الواسعة، والعقاراتِ المتعدِّدة، لأنّه يتمتّعُ بنفوذِ الغاصبين، ويحاربُ المخلصينَ من رجالِ الوطنِ العزيز!.. إنَّ كلَّ ما أعنيه في هذا المجال أنْ أعدَّ فارس نمر ممّن قرؤوا بعضَ ما يقالُ عنهم بعد الرحيل، وذلك بتدبيرٍ حصيف.. لقد نقل لي هذا التدبيرَ أحدُ محرِّري جريدةِ المقطم، فالعهدة عليه فيما روى وحدَّث.

٣٤٧ـ صالح جودت

الشاعر الغزلي الرقيق صالح جودت، تحدَّث في مجلة (الثقافة) (٢٠/ ٥/ ١٩٣٩) عن صديقه شاعرُ الشباب (محمد عبد المعطي الهمشري) فذكرَ أنهما كانا صديقيْنِ حميمينِ بمدينةِ (المنصورة) لا يكادانِ يفترقان، إلّا عند النّوم، وقد جمعَ بينهما حُبُّ الشعرِ والجمال، وفي ذاتِ يومٍ قرأا معاً مقالاً حارّاً كتبهُ الأستاذ الكبير (محمد لطفي جمعة) في جريدة (البلاغ) مودّعاً الشابَّ الفقيدَ الشاعرَ (أحمد العاصي) حيثُ ماتَ منتحراً في ميعةِ شبابه، وكانَ على حظٍّ وافرٍ من الشاعرية، فتأثّرا كثيراً بمقالِ الأستاذ (محمد لطفي جمعة) وتساءلا؟ هل إذا ماتَ أحدُهما اليومَ سيجدُ من يقومُ برثائه كما فعلَ الأستاذ (جمعة)؟ وانتهيا إلى أنَّ ذلك بعيد بعيد، ثم اقترحا أنْ يقومَ كلُّ واحدٍ منهما برثاءِ أخيهِ فوراً، ليندرَ الباقي ما قال الراحلُ،

وتفرَّقا على وجوبِ تنفيذ هذا الاقتراح، وبعدَ يومين قابلَ الأستاذ (الهمشري) صديقه (صالح) وأَسمعهُ ما قاله في رثائه وهو هذا:

أيُّها السّاري تمهّلْ في خطاك ... إنَّ في القبرِ فؤاداً ما سلاكْ
ودَّعَ الأحلامَ في رقدتِهِ ... والأماني، ولم يذكرْ سِواكْ
وإذا نادَيْتَهُ في قبرِهِ ... هبَّ في القبرِ مجيباً لِنداك
ليسَ يبغي أنْ يرى الجَنَّةَ في ... نفخةِ الصُّوْرِ، ولكنْ أنْ يراك
وضريحي بين أشجارِ الأراكْ ... فتعالَ، واسقِه علِّي أراك
إنْ اتخذتَ اليومَ غيري في الهوى ... فأنا للآنَ لم أعشقْ سِوَاك
هاتفٌ في الموتِ يدعوني كما ... كان في الدُّنيا إلى وَكْرِ هَواك

أمَّا الأستاذ صالح فقال: إنَّه تشاءمَ أنْ يقول شعراً في رثاء شابٍ مكتمل القوة، ريَّان الحياة، ولم يفِ بما تعهَّد، ثم شاء القدرُ أنْ يموتَ (الهمشري) قريباً، وأنْ يستشعرَ صالح اللوعة عليه، فيرثيهِ رثاءً حقيقيَّاً يقولُ فيه من قصيدةٍ بارعةٍ:

كنتُ ألقاكَ والحياةُ تجافيني ... أو إعصارُها يهدُّ بنائي
فإذا ما سمعتُ ضِحْكتكَ العَذْ ... بَةَ أحببتُ بعدَها أعدائي
وتمشّى السلام في جوِّ نَفْسي ... وتطهَّرتُ مِنْ طويلِ عَنائِي
وقرأتُ الحياةَ فيك كتاباً ... شاعريَّ الآمالِ والآلاءِ
تَطأُ اليأسَ باعتدادِ الأماني ... وتذلُّ الزمانَ بالكبرياءِ
وتغنِّي وتنهبُ العمرَ نهباً ... شأن من ألهمَ اقتراب الفناءِ

ويُخيَّلُ إليَّ أنَّ قصيدةَ الهمشري السالفةِ لم تُقلْ في إنسانٍ معيَّنٍ، ولكنَّها قيلتْ على لسانِ عاشقٍ مهجور، هكذا فهمتُ، وإنْ خالفني الأستاذ (صالح جودت) فيما حكاه!.

* * *

سيدنا في الكُتَّاب

٣٤٨ ـ فقيه الكتَّاب

كان فقيه الكتَّاب المعلِّم الأول في القرية في الأجيالِ الماضيةِ، وكانتْ مهمتُه غالباً تقتصرُ على تحفيظِ كتابِ الله، وله تلميذٌ يُدعى بالعريف، ينوبُ عنهُ في تحفيظِ الصغار، وكتابةِ الألواح.

وفي كُتَّاب القرية تخرَّجَ نفرٌ من أعلامِ الفكرِ المعاصر، وقد تحدَّثوا عنه حديثاً يشيعُ السخط في كثيرٍ منه، لأنَّه لم يكنْ رحيماً شفيقاً بتلاميذه، بل كانتْ عصاهُ تهوي على المهمل والمجتهدِ معاً في أحيانٍ كثيرةٍ.

وللأستاذ (محمد عبد الجواد) كتاب سمَّاه (كتَّاب القرية) أتى فيه على كلّ ما يمكنُ أنْ يتَّصلَ بتاريخِ الكتَّاب وفقيهه وعريفه مع إيضاحاتٍ بالرسومِ والصورِ الكاشـفةِ.

أمَّا كبارُ الكتَّاب فقد حلا لهم أنْ يتحدَّثوا عنهُ في فِقراتٍ متعدِّدة، و جُمعتْ في كتـابٍ منفردٍ لفسَحتْ باباً للموازنةِ والتحليل، ومن هؤلاء (طـٰه حسين) و(أحمد أمين) و(أحمد حسن الزيات) و(محمد حسنين هيكل)، وهم ما هم في تاريخِ الأدبِ الحديث.

٣٤٩ ـ طـٰه حسين

أفاضَ (طه حسين) في (الأيام) في حديثِ الفقيه، وكان يحملُ له عداءً واضحاً، تجلَّى في كل ما كتبه عنه، وليس الفقيه وحدهُ الذي اختصَّ بهذا العداء، لأنَّ طه قد امتدَّ بسخطه إلى جماعة من الفضلاء، لا يستحقُّون السخط، وقد كتبتُ بمجلة (الهلال) فصلاً تحتَ عنوان (شخصياتٌ مظلومةٌ في كتابِ الأيام)

كشفت هذه الناحية بجلاءٍ موضِّحاً ما تراءى لي من أسبابها.

يقول طه حسين عن سيدنا الفقيه: وكان منظرُ سيدنا عجباً في طريقه إلى الكُتَّاب، وإلى البيتِ صباحاً ومساءً، كان ضخماً بادناً، وكانتْ دُفّيته تزيدُ في ضخامته، وكان يبسط ذراعيه على كتفي رفيقَيْه، وكانوا ثلاثتُهم يمشون، وإنَّهم ليضربونَ الأرضَ بأقدامهم ضرباً، وكان سيدنا يرى صوته جميلاً، وما يظنُّ صاحبنا ـ طه حسين ـ أنَّ الله خلق صوتاً أقبحَ من صوته، وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٩]، إلاّ ذكر سيدنا وهو يوقع أبياتاً من البردةِ في طريقهِ إلى الجامع.

وبعد أنْ أفاضَ الدكتور في شجونٍ من أفعالِ الفقيه قال عن العريف: أمَّا العريفُ فكان يكرهُ سيدنا، لأنَّه أثرٌ غَشَّاشٌ كذَّابٌ، يُخفي عليه بعضَ مواردِ الكتَّاب، ويستأثرُ بخيرِ مايحملُ الصبيانُ من طعام، ويزدريه، لأنَّه كان ضريراً يتكلَّفُ الإبصار، وكان قبيح الصوت، يتكلَّفُ حُسْنَ الصوتِ.

وأمَّا سيدنا فكان يكرَهُ العريف، لأنَّه مكّارٌ داهية، ولأنَّه يخفي عليه كثيراً مما ينبغي أنْ يعلمه، ولأنَّه سارقٌ يسرقُ مايُوضعُ بين أيديهما من الطعام وقتَ الغداء، ويختلسُ أطايبه، ولأنَّه يأتمرُ مع كبار الصبيانِ في الكتَّاب، ويعبث معهم على غفلةٍ منه، فإذا صُليت العصر، وأغلق الكتَّاب كان بينه وبينهم مواعيدُ هناك عند شجرِ التوتِ أو عند القنطرةِ أو عند معملِ السكر، ومن غريبِ الأمر أنَّ الرجلين كانا صادقَيْن مصيبَيْن، وأنَّهما كانا مضْطرَيْن إلى أنْ يتعاونا على كُرهٍ ومضض، أحدُهما يحتاجُ إلى أنْ يعيش، والآخرُ يحتاجُ إلى من يُدبِّرُ له أمر الكتَّاب.

٣٥٠ ـ أحمد أمين

تحدث (أحمد أمين) عن عصا الفقيه القصيرةِ التي يُضربُ بها الطفلُ القريبُ منه، والطويلةُ التي يرمي بها طفلاً في آخرِ الحجرة، يراهُ يلعبُ ولا يحفظ، وإلى جانبِ هذه العصا (فلقةٌ) وهي عصا غليظةٌ من خشبٍ متين، قد ثُقِبَ في وسطها ثُقْبان يبعدُ ما بينهما نحو شبر، ورُكِّبَ في هذين الثُّقبين سَيْرٌ من جلدٍ أو نحوه، فإذا شكا

الولدَ أبوه أو غضبَ عليه سيدنا أَدْخلَ رجليهِ في هذا السير، ولواه عليهما، وأمسكَ بطرفِ (الفلقة) ولدانِ كبيرانِ شديدان، فلم تستطع الرِّجلانِ الحركةَ وانهالَ عليه سيدنا ضرباً بالعصا، والولد يصيح.

فإذا حان الظهر جمعَ سيدنا من كلّ ولدٍ مليمين، أو ثلاثة، أو خمسة، ثم بعث بولدٍ كبير، فأتى بماجُورَيْن مملوءين، أحدهما فيه قليلٌ من الفول النابت، وكثيرٌ من المرق، والآخرُ مملوءٌ مخللاً بمائه وخلّه، وتحلّقَ الأولادُ حلقةً، وأخرجَ كلٌّ رغيفهُ، وكان قد أحضره معه في الصباحِ تحتَ إبطه، وضربوا بأيديهم في (الماجورين) وأكلوا هنيئاً مريئاً.

وكان سيدنا غريبَ الأطوارِ، عُرِف في الحي باسم الشيخ (سيد المجاذيب) يلبسُ المرقَّع من الثياب، فلم أرَهُ يوماً يلبسُ مركوباً جديداً، ولا عمَّةً نظيفةً، ولا قباءً ولا عباءةً جديدين، فكأنّه يتحرّى القديم في كلِّ شيءٍ ويشتريه، كان يتزهّدُ في أكله ولبسه وحديثه، ويهزأُ بالناسِ ولا يعيرهم التفاتاً، فهو يمشي مشياً يُشبهُ الجري، ويأكلُ في الشارعِ وهو على هذه الحال، وإذا ناداهُ مُنادٍ لا يلتفتُ إليه، وكان في المجالسِ العامةِ غريباً، ينتحي ناحيةً وحدَه، ويفرُّ من الناسِ ويستوحشُ منهم، وفي مجالسةِ الخاصّةِ واعياً لطيفاً أنيساً.

٣٥١ ـ أحمد حسن الزيات

اهتمَّ (الزيات) بوصف فقيهِ القريةِ (سيدنا الشيخ حسن) فذكرَ أنَّ في وسط جبينهِ سمةً ظاهرةً في شكلِ الزبيبةِ من أثرِ السجود، وفي أعلى ذقنه ندبةٌ غائرةٌ كطعنةِ المسمارِ من المشاجرة، وليس بين طولِ السجودِ وحبِّ المشاجرةِ تناقضٌ في خلقِ الشيخ، فقد كان رقيقَ القلب، مرهفَ الشعور، يهتاجُ لأدنى باعث، ويبكي لأقلِّ حادث، ويتأثّرُ لأيِّ خبر، فهو شديدُ الرضا إلى حدِّ الاستكانة، سريع الغضب إلى درجةِ البطش، ورضاهُ وغضبهُ لا يخرجان عن حميّته لدينه، أو عد[illegible] لرأيه.

كنتُ كسائرِ الأطفالِ أكرهُ الكتّاب كراهتي للموت، وأخافُ من الفقيهِ

مخافتي من الهولة، وكان أسعد أيامنا نحنُ الأطفال يوم يموتُ في القريةِ ميّت، فإذا سمعنا في الصباحِ الباكرِ صراخَ النعي على بعضِ السطوح، طفرْنا من السرور، وسكرنا من الطرب، لأنَّ هذا الميت سينقذنا طولَ النهارِ من طلعةِ الفقيه، فقد كان (الشيخ حسن) هو الذي يبني قبره، وهو الذي يغسِّله ويكفِّنه، ثم يلحده، ويلقِّنه، وفيما بين ذلك يُشاركُ الجزارَ في ذبيحته، ويرأسُ المنشدين في جنازته.

فإذا لم يكنْ في القريةِ ميت يشغلهُ تجهيزه، ولا في بعضِ الدورِ فُرنٌ يؤخِّرهُ بناؤه، فرغَ لنا بنظرته القاسية، وجريدتهِ الجاسية، وصيحتهِ المنكرة، فهو طولَ النهارِ متمكِّنٌ في جلسته، ونحن قعـودٌ على أرضِ المنظرة، بعضنـا ينقلُ من المصحف، وبعضنا يحفظُ من اللوح، وبعضنا يُسمِّع أمامه الدرس القديم، أو يحفظُ الدرس الجديـد، فإذا عثرَ ولجَّ به العثـار أنحى على فخـذه بالجريـدةِ المبرومة، ثم يأمُرنا أنْ نجهرَ بـالقراءة، حتى يضيعَ في صياحنا بكاءُ المضروب، ويتطايرُ غضبُ سيدنا إلى نـواحي المنظرة، فتنخلع قلوبنا من الرعب، ويتداخل بعضنـا في بعض، كما تتداخل الخرافُ في الحظيرة إذا سمعت صوتَ الذئب، على أنَّ سيدنا كان في غير ساعة الدرسِ، طيبَ القلب، رقيقَ الكبد، لا ينفكُّ في صلواتهِ يدعو الله أنْ يجعلَ أولادهُ من حملةِ القرآن، وطلبةِ العلم.

٥٢ ـ محمد حسين هيكل

لم يدخل الدكتور (محمد حسين هيكل) الأزهر الشريف كما دخلَ (طه حسين) و(أحمد أمين) و(أحمد حسن الزيات)، ولكنَّه قرأ القرآن في المكتب قبلَ أنْ يلتحقَ بالمدرسةِ الحكومية، ووصفَ بعضَ ما عاناهُ في الكتاب وصفاً بديعاً في كتابه (في أوقات الفراغ) حيث قال:

ما أنسَ لا أنسَ يوم العلقةِ المليحة، أذكرها اليوم، وقد مضتْ عليها سنون، فيعتريني الخوف، كنا ذاتَ يومٍ في السوق، وكان من عادتي أنْ أحضرَ لسيدنا نصْفَ بريزةٍ من أبي كلّ سوق، فلمَّا أصبحنا ذلك اليوم، وأردتُ مقابلةَ والدي، علمتُ أنَّه نـائم، فألححتُ وبكيت، وصرخـتُ حتى استيقظَ من شـدةِ ما أحدثتُ من

الجلبة، فخرجَ يسألُ عن الأمر، فلمَّا علمهُ غضبَ مني، وأمسكَ بأذني، وضربني كفّاً، وطردني، ولم يُعطني حتى ولا قرش السوق.

فذهبتُ إلى الكتَّاب، بعد أنْ كفكفتْ أمي دمعي، وأعطتْني قطعةً من السكر لتُسكتني، ولمَّا وصلتُ نظرَ سيدنا إليَّ نظرةَ الأمل، وقد خاب ظنَّه، لأني لم أضع يدي في جيبي، فتعلَّل، وسألَ عن سببِ تأخّري، ولما أخبرته استشاطَ غضباً، لأنَّه كان ناوياً كما علمتُ فيما بعد أن يشتري بردعةً لحماره من السوق، وأنذرني إنْ لم أحفظْ لوحي قبلَ الإفطارِ بالعقوبة، وفعلاً لم أحفظْ لضيقِ الوقت، فنادى بعلْج من أولادِ المكتب، فدنا إليَّ، وحملَ بيديه رجليَّ فوقَ كتفه وأمسكَ سيدنا بعضاً من جريد، وقامَ على أطراف أظافره، ونزل ضرباً وأنا أصيح وأصرخُ مستغيثاً، وذلك كلُّه لا ينفع، لأني أضعتُ عليه أمله في شراء البردعة، وهذا العلجُ العنيف ممسكٌ بي بكل قوته، والأولاد ينظرون إليَّ، ولا تدمعُ عيونهم رحمةً لي، ورأسي مطروحٌ على الأرضِ أقلِّبُه من شدةِ الألم، فينال التراب وجهي، وبقيتُ كذلك، حتى مرَّ رجلٌ بالبابِ فرآني، فدخلَ وشفعَ فيّ، فقبلَ سيدنا شفاعته بعد (العلقة).

٣٥٣ـ الأرانب

أشارَ الأستاذ (أحمد أمين) إلى حفلة الغذاء اليوميةِ بالمكتب، وأشيرُ إلى حفلةٍ أخرى يومَ شم النسيم حيثُ يصرُّ فقيه القريةِ أنْ يُحضرَ كلُّ طفلٍ أرنباً حيّاً من منزله ليأكلَ جميعُ الأطفالِ في المكتب، كما يحضر الولدُ قدْراً من الأرزِ والخضار، وإذا كان عدد الأطفال كثيراً، فإنَّ ما يذبح لا يتجاوزُ عُشْرَ ما يأتي، ويبقى ما تأخذهُ زوجةُ الفقيهِ للمنزل، لتبيعَ منهُ في السوقِ تارةً، ولتأكلَ منه إذا احتاجتْ إلى طعام، وهذا قليلٌ بالنسبةِ لما يباع، وفي ذلك قال بعض المتهكِّمين:

عـريفـي الخبيـثُ لـه حيلـةٌ ... تـدلُّ علـى منتهـى الشَّيْطنـه
يضـمُّ الأرانـبَ فـي بيتـهِ ... ليـأكـلَ منهـا جميـعَ السَّنـه
وكنّـا نـداريـه مـن خـوفنـا ... ومـن حقّنـا اليـومَ أنْ نلعنـه

أمَّا ما يدَّخرُ من الأرزِ فيكفي عدَّةَ شهور..

* * *

من زائرات البيت الحرام

في موسم الحج

٣٥٤ ـ مقدمة

حفظ التاريخُ أسماءَ عزيزةً لسيداتٍ فضليات كانتْ زيارتُهن لبيتِ الله في موسم الحج مصدرَ خَيْرٍ ويُمْن، لأنَّ الشعورَ الديني النبيل قد حملهنَّ على أنْ يكُنَّ ذوات أثرٍ طيبٍ يبقى حديثَ الأجيالِ من بعدهن.

والمرأة إذا كانتْ مؤمنةً صادقةَ الإيمان، ووجدتْ في يدها سَعةً من الرزق، فإنَّ عاطفتها الدينيّة تدفعُها إلى أنْ تقومَ بما يُشبع هذه العاطفة برّاً وفضلاً.

وبعض الكاتبين من المؤرِّخين لا يروقُ له أنْ يتحدَّث عن هذه المآثر، دونَ أنْ يُعقِّبَ عليها بما يحسبُه تحليلاً نفسيّاً لإرْضاءِ النزعاتِ الشخصيّة، ومرحباً بهذه النزعات الشخصية إذا أثمرتْ خيرها في حقلِ المعروف، فأتتْ كلَّ لونٍ بهيج، وخيرٌ لنا أنْ نُبارِكَ هذا التيار ليكونَ قدوةً دائمةً للخالفين عن السالفين مِنْ أنْ نُظهرَ البراعةَ في تسْجيلِ مُبرِّراتٍ لا نملكُ دليلها الأكيد.

إنَّ الواقعَ المشهود يُسجّل أنَّ بعضَ الفضليات قد قمن بمآثر جليلة، أدَّتْ إلى خيرِ العامَّة، وأرسلْنَ الألسنَ بالدعاء، ومن حقّ هؤلاءِ على التاريخِ أنْ يرصد ما فعلْنَهُ ابتغاءَ مرضاتِ الله، مما تردَّد صداهُ في الصفحاتِ على مرِّ الأعصار.

وواضحٌ أنّي لا أحاول حصرَ الفُضْليات، فهذا ما لا يقومُ به فردٌ واحدٌ، أو يستقلُّ به كتاب مفرد، ولكنّي أضربُ الأمثلةَ مما قرأتُ، متذكراً قولَ القائل:

وإذا فاتكَ التفاتٌ إلى الماضي ... فقد غابَ عنكَ وَجْهُ التأسّي

٣٥٥ ـ زوجُ المهدي

وأولُ ما أذكر من هؤلاء الفُضليات (الخَيزرانَ) زوجَ أمير المؤمنين المهدي الخليفة العباسي، فقد كانتْ جليلةَ القدرِ في قصر الخلافةِ أيام المهديّ، وكان لها رأيها الحاسم في تصريف كثيرٍ من الأمورِ إذ كان زوجها الخليفةُ يرجعُ إليها مستشيراً فمُنفِّذاً ما توحي به، وقد سجّلتْ في صحيفةِ أعمالها طرائف زاكيةً من أعمال البرّ، تتّجه إلى إنشاءِ المساجد، ورعاية الأيتام.

ثم رأتْ أنْ تحجَّ بيتَ الله الحرام فتهيّأ لها من الموكب الحاشد ما يناسبُ قدرها العظيم زوجاً لأميرِ المؤمنين، وقد حملتْ من بغداد من طرائفِ الغذاءِ والكساءِ وبَدْراتِ المال، ما كان حديثَ الرائح والغادي في الموسم المشهود، ثم بدا لها أنْ تقومَ بعملٍ تاريخيٍّ يضمنُ لها حُسْنَ الأحدوثة، إذ سألتْ عن دارِ (الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي) وهي أولُ دارٍ اجتمعَ فيها المسلمون لأداءِ الصلاةِ بعيداً عن أنظارِ المتربِّصين، وكانت تعلمُ أنَّ أبا جعفر المنصور اشتراها من حَفَدَةِ الأرقم بمالٍ كثير بذلهُ في إرضائهم، كي يتنازلوا عنها، ولكنَّها بقيتْ على حالها دونَ عمارةٍ ما في عهد المنصور، فأرادتْ أنْ تحلّها المحلَّ اللائقَ بمنزلتها كأوّل معهدٍ دينيٍ في الإسلام، فاشترتْ ما حولها من الدّور، وأحاطتها بِسورٍ متين، وقد كُتِبَ اسمها في لوحةٍ تسجّل مأثرتها، فكان الناسُ فيما بعد يسمّونها (دار الخيزران)، ثم بدأ بتجديدها من بعد ذلك.

وحين تركتِ الخيزران مكّة قاصدةً المدينة المنوَّرة لزيارةِ صاحبِ الروضةِ الشريفةِ ﷺ رأتْ أن تكسو الحجرةَ الطاهرةَ بستائر حريرية مرصّعة بالألوانِ الزاهية، وهي أولُ من كسا الحجرةَ الشريفة، وفرّقتْ كثيراً من الصدقاتِ بهذه المناسبة، وأرضَتْ شعورها الدينيّ بما قامتْ به في مكّة والمدينة من أعمال.

٣٥٦ ـ زبيدة زوج الرشيد

إنَّ حديثَ (عين زبيدة) التي فجّرتها السيدة الفاضلة في (مكّة) ممّا تواترَ ذكره، وقد تردّد في كتب التاريخ بأسلوبها التقريري، ولكنَّ الأستاذ (عبد الله

عفيفي) مؤلِّف (المرأة العربيّة) قد كتب عنه كتابةً حيّةً كاشفةً حين قال في الجزء الثاني من كتاب (المرأة العربيّة):

لم يكنْ لأهل مكّة من المناهلِ إلاّ المسايل، يجودها المطرُ أحياناً، وبعضُ الآبارِ التي تفيضُ آناً وتجفُّ آناً، فإنْ جَفاهم الغيثُ عاماً اشتدَّ البلاء.

أما الحجَّاج، فكانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤودهم ويوقرُ صدورهم، وقد أخذ بقلبِ السيدةِ (زبيدة) ما علمتْ في حجِّها من أنَّ راويةَ الماءِ تُباعُ بدينار! وأنَّ الفقيرَ إنَّما يتبلَّغُ بما يتساقطُ من قطراتِ الغنيّ، فاعتزمتْ أنْ تحفرَ لأهل مكَّةَ، ولقصَّادِ البيتِ الحرام، نهراً جارياً يتصلُ بالماء وبمساقط المطر، مع بُعدِ الشقةِ ووعورةِ الطريق!

ولم يسنح بخاطرِ أحدٍ منذُ عهدِ (إسماعيل) صلواتُ الله عليه حتى عهدِ (زبيدة) مثلُ هذا الخاطر الوثَّاب، خاطرِ إجراءِ نهرٍ بين شعابِ مكَّة، بلْ ولم يتمنَّهُ متمنٍّ، لأنَّـه أبعدُ من حدِّ التمني، أمَّـا (زبيدة) التي تحكمُ على خـراج الدولـة الإسلامية، فقد اعتزمتْ أن تُجري هذا النهرَ مهما بلغت نفقاته.

دعتْ خازنَ أموالها، وأمرته أن يدعو العُرفاءَ والمهندسينَ والعمَّالَ من أطرافِ الأرضِ ليحفر النهر فاستعظمَ خازنُها الأمر، وما سيُسْتنفدُ من المال فيه، فقالتْ له تلك الكلمة الخالدة: اعملْ ولو كلَّفتْكَ ضربة الفأسِ ديناراً! فأذعنَ، وساقَ إلى مكَّة أهلَ الكفايةِ من كلِّ مهندسٍ وعاملٍ، فأخذوا يصلون منابع الماءِ في شـعفات الجبال، ويُظاهرون ذلك بما يحتفرون من الآبار، وما يُعمِّقـون من المسـايل، ثم يغلغلـونَ ذلك بين أعطافِ الصخورِ تارةً، وفي أعماقِ الأرضِ طوراً، حتى ينتهي ذلك إلى النهر الذي احتفروه.

وأهمَّ ما اعتمدوا عليه (عينُ حنين) في جبالِ «أوطاس» إلى الشمالِ من (عرفة) وعلى مدى خمسةٍ وثلاثينَ كيلـو متراً من (مكَّـة) أعزَّها الله، ثم ظاهـروا ذلك بمجْرىً آخرَ من (وادي النَّعمان) من مسايل (جبال كرى) إلى الشرقِ والجنوب من (عرفات) على مدى عشرة كيلومترات منها، وعزَّزوا المجْريين بعد ذلك بسبعِ أقنية، تتبَّعوا فيها مساقطَ السيل، فسارَ ذلك كله في ممَّرٍ عظيمٍ بين الصخور حتى

إذا انتهى إلى (مِنى) انحدرَ في خزّانٍ عميقٍ نقروه لذلك في الجبل، وسمَّوه (بئر زبيدة) ومن هناك يسير الماء في فرعين، يذهبُ أحدُهما إلى (عرفات) وينتهي الآخرُ إلى مسجدِ نمرة، ولكيلا يأسنَ الماءُ صُرف ما فضل منه من ريّ الظِّماء إلى بركة (ماجن) بالمسفلة، وزُرِعَ حولها الزهرُ والتَّمرُ، وهذا العمل الخارقُ في بابه لا يحتاجُ إلى تعليق..

٣٥٧ـ أميرات كريمات

لا تُعنى كتب التاريخ العام كثيراً بتسجيل رحلاتِ الحاجّاتِ والحاجّين إلى بيت الله، وبذلك ضاعَ المفيدُ الجيّدُ من أخبارِ هذه الرحلات، ولكنَّ كتبَ الرحلاتِ قد أنقذتْ من الضياعِ مواقفَ نبيلة لمن تكبدْنَ المشاقَّ في سبيلِ الله سعياً وإنفاقاً وبذْلاً للمعروف.

وقد تحدَّثت (رحلةُ ابن جبير الأندلسي) فيما تحدَّثتْ عن ثلاثِ سيداتٍ كريماتٍ من البيتِ السلجوقي الشهير، قُمنَ بالحجِّ أثناءَ مقدمِ ابن جبير، فكشفَ عن مآثر فاضلة قُمْنَ بها عن أريحيّةٍ ماجدة، وتُقىً عظيم، هُنَّ الملكةَ (خاتون بنت الأميرِ مسعود السلجوقي) والأميرةَ (أم عز الدين صاحبِ الموصل) والأميرةَ ابنة (الدقوس) صاحب أصبهان، وكلّهنَّ صاحباتُ فضلٍ غامر، ومُنافسةٍ كبيرةٍ في أعمال البر.

ويقولُ صاحب الرحلة: «إنَّ شأنهنَّ جميعاً عجيبٌ فيما قُمْنَ بسبيله من أعمالِ الخير».

أمّا الملكة (خاتون) فقد كانت في مُفْتتحِ شبابها، ولكنّها ذاتُ صلاحٍ وإيمان، فقد حرصتْ على أن تصلّي بين القبْرِ والمنبر، ومن فوقها المحفَّة المانعة لرؤية الناسِ لصلاتها، والعامةُ يتزاحمونَ على مشهدها، ومقامعُ الحرَّاسِ تدفعُهم عن ساحتها.

ثم مَشتْ إلى الجهةِ الغربية من الروضةِ المكرَّمةِ، فقعدتْ في مكانٍ قيلَ عنهُ: إنَّه كانَ مهبطَ جبريلَ عليه السلام، وأُرخيَ السترُ عليها، وقد عَلِمتْ أنَّ

(صدرَ الدين الأصبهاني) رئيس الشافعيَّة سيُلقي درساً دينيّاً، وعِظةً خُلقيّة، فانتظرتْ حتى سمعتْ الدرس، ويقول ابن جبير عن تأثيرِ هذا الواعظِ: إنَّه أطار النفوسَ خشيةً ورِقَّةً، وتهافتَ عليه الأعاجمُ يُعلنونَ التوبة، وقد طاشتْ ألبابهم، وذهلتْ عقولهم!! إلى حديثٍ ممتدٍّ يدورُ هذا المدار.

ثم الْتقتْ بصاحبتيْها، وهما تكبرانها سنّاً، ولهما جلالةٌ وهيبة، فتنافسنَ كلّهنَّ في إسداءِ ما بأيديهن من المال على كثرته، وفرح بهنَّ ذوو الحاجاتِ فرحاً لا يُحدّ، إذ أعطينَ ما فاق حدَّ الآمال، ولعلَّ الأميرةَ الشابَّةَ كانتْ أكثرهنَّ هبات، إذاختصَّها الرَّحالة بوصفٍ جيّد.

ولم تقتصرْ سعادةُ الحجَّاج بهنَّ على مكانِ الحرمِ الشريف، بل تعدَّى ذلك إلى طريقِ الرحلةِ الممتدَّةِ منَ الحجازِ إلى الموصل، فأصبهان، حيثُ لاذَ بهنَّ الحُجَّاجُ خائفينَ من هجومِ قُطَّاعِ الطريق، وما كان أكثرهم في هذا العهد، حيثُ تمكَّنَ الشيطانُ من نفوسهم، فسوَّلَ لهم إرهابَ من سَعَوْا لبيتِ الله طائعين، فكان موكبُ الأميراتِ بكثرةِ جنوده، وهيبةِ حرَّاسه، ويقظة أُمنائه شعاراً واقياً، وحمىً آمناً.

وكان ابنُ جبير ممن ساروا في ركب الأميرات، وقد وصفَ استقبالَ الموصِليينَ للأميرة (أمّ عز الدين) وصْفاً باهراً، حيث جُلِّلتْ أعناقُ الإبل ورقابُ الخيلِ بالحرير الملّونِ والقلائدِ الثمينة، وجُعلتْ قُبَّةُ الأميرةِ مُغشَّاةً بسبائكِ الذهبِ! وكان مشهداً أبهتَ الأبصارَ، وأحدثَ الاعتبار، ونحن لا نحبِّذُ هذا الإغراقَ المسرف في مظاهرِ الزينة، ولكننا نتحدَّثُ عن أمرٍ وقع، ومشهدٍ سُجِّل، ناقدين ما به من إسراف.

٣٥٨ ـ أميرة مغربيَّة

هي الأميرةُ الماجدةُ (خُناثةُ بنت الشيخ بكار المغفري) زوجةُ سلطان عصره بالمغرب (إسماعيل بن محمد العلوي) المتوفى سنة١١٣٩، وكانت ذاتَ جمالٍ رائعٍ، فوقعتْ من نفس السلطانِ أجملَ موقعٍ، زيادةً على اهتمامها بالثقافةِ الدينيّة

والأدبيّة معاً، ممّا جعلها موضعَ الإعجابِ والعجب، والغريبُ أنّ كتبَ المغربِ قد أسهبت في تاريخ زوجها السلطان العلوي، فأُفردتْ كتبٌ كثيرةٌ لترجمة حياته، وتسجيلِ وقائعه، حيث قام في المُلْك ستين عاماً، وهو أمدٌ طويل، اتسعَ لأعمالٍ حرْبيّة، واتساعٍ عمراني كبير، ولكنّها لم تكتب عن هذه السيدةِ المثاليةِ ما يشفي الغلّة، وظلتْ سيرتُها مطويّة، حتى ظهرَ مخطوطٌ للإسحاقي في خزانةِ القرويّين يتحدَّث عن أمجادها الكثيرة، ومما قاله عن رحلتها إلى الحجّ ما أنقله عن مجلة المنهل حيثُ نقلت (المجلة) عن مخطوطِ الإسحاقي قوله[1]:

إنَّها آثرتْ أشرافَ ينْبع بعطاياها الفاخرة، وهدايا سيدة لم يعرفوها من ذي قبل، وكسَتْهم أنواع الثياب الرفيعة، علاوةً على المبالغ النقدية الذهبية الباهظة.

كما رُويَ عنها أنَّها أغدقت خيراتها على سائرِ رجالِ العلمِ والفضلِ بمكة المكرمة، ليْلةَ فتحِ البيتِ المباركِ خصِّيصاً لها من لدن شريفِ مكَّة، الأمرُ الذي ظلّ أحدوثةً يُنعتُ بها المغرب على الدوام، وقد دفعها حبُّ الخيرِ إلى اقتناءِ [illegible] بمكة، يقعُ في أشرفِ بقعةٍ، بما يناهِزُ الألفَ مثقالٍ من الذهب، حبستها على جماعةٍ من المقرئينَ والطلبة، وكتبتْ بذلك حُجةً للمعْنيّين بالأمر، وعيَّنت ناظراً ليسهرَ على ريعِ الوقفِ وتوزيعه، وقد أنشدَ شعراءُ مكَّة قصائدَ كثيرة بهذه المناسبة.

وما نُقلَ عن (الإسحاقي) سطورٌ تحتاج إلى بسط في عدَّةِ صحائف، وقد قال (الزركلي) في (الأعلام)[2]: إنَّها حجَّتْ عام١١٤٢، فعمَّت الناس بعطاياها، حتى بلغ ما أنفقته في حجَّتها مئةَ ألفِ دينار، كما ذكر أنَّ لها علماً بالفقه والأدب، وهذا ما جعلها موضعَ مشورةِ زوجها السياسية، إذ كانت تشاركه على مسرحِ الأحداثِ وتُبْدي من الآراءِ ما يكونُ موضعَ الاحتفاءِ والتنفيذ.

لا أنسَ أنْ أُشيرَ إلى رحلةِ (أمّ المحسنين) أم الخديوي عباس الثاني إلى مكَّة، مصاحبةً ولدها الخديوي في موكبٍ حاشدٍ، فقد كان لها موكبٌ خاصٌّ

---

(١) مجلة المنهل، ربيع الأول ١٣١٤هـ، ص٢١٢.
(٢) الأعلام: ٢/ ٣٢٤.

يحفَلُ بسيداتِ البيتِ الحاكمِ من الأميراتِ والنبيلات، وبذلتْ من العطاء ما عناهُ أحمد شوقي حين قال:

وأُمّ أمير النيل في الركب هالةٌ	مِنَ العزّ في أترابها الخفراتِ
أقلّتْ عُلاها في خباءٍ من القنا	صوابحُ كالإيوانِ ذي الشّرفاتِ
تجلّ نساء المسلمين ثناءها	ويبْسُطن راحَ الحمد مبتهلاتِ
أخذْنَ بتقواها وسِرْنَ بهديها	ومنها علمنَ البرّ والصدقاتِ
مواكبُ لم تُعْهَدْ لغيرِ (زبيدةٍ)	ببغدادَ في الأعيادِ والجمعاتِ
أعادتْ حديثَ (الخيزران) وعزَّها	وما أغدقتْ من أنعمٍ وهباتِ

إنَّ من الوفاءِ أنْ نسجِّلَ للفاضلاتِ فضلهنَّ، إذ قُمْنَ به في أشرفِ مكانٍ، فصدرنَ عن إيمانٍ واثقٍ، وكرمٍ نبيلٍ. وما أشرت إليه في هذا المقال قليلٌ من كثير.

* * *

تكبّر ذليل

٣٥٩ ـ مقدمة

تحدثت في هذه الشذراتِ عن محاسن شتَّى لبعضِ الفضلاء ممن أسلفوا العملَ الصالحَ عن طيبِ خاطر، وصفاءِ نفس، وقد آنَ أنْ أتحدَّث عن بعضِ المآخذِ لدى نفرٍ آخر، لأنَّ الليلَ بسواده والنهارَ بضوئه، يمثّلانِ لعبةَ الحياةِ على المسرح، فلا بدَّ منهما معاً، ولن تلزم الخير إلاّ إذا عرفتَ الشّر، وقد يكون فيما أذكرُ طرفـةً يسمر بها السامرون، ويبتسمُ لها الساخرون، وهل يُطاقُ العيشُ دونَ ابتسام.

٣٦٠ ـ تراجُع واضح

عُيِّن بعضُ من يحملون الرتبـةَ العسكريةَ رئيسـاً لإحدى المُدن الهامةِ في الصعيد، وقد وفدَ إليها وهو يعتقدُ أنّه كنبيٍّ مرسل، يجبُ أنْ يُطاعَ ويُسمع، ورأى من المتزلّفينَ مَنْ شجَّعه على هذا الاعتقاد، فأخذ يُصْدرُ الأوامرَ الجريئةَ دون معارضةٍ ما، وكلَّما لقيَ الإذعانَ أخذ يفكرُ في مشروعٍ تالٍ، وقد رسخَ في اعتقادهِ أنّه لا يُسألُ عمَّا يفعل.

وقد لحظَ أنَّ المدينةَ على اتِّسـاعها وامتلائها بـالمدارسِ والإداراتِ الحكومية، لا تضمُّ ساحةً شعبيةً يجتمعُ فيها الطلاَّبُ والطالبات، ليزاولوا أعمالَ الرياضة، فدعا أعيانَ البلدةِ والموظَّفين، وجعلَ يُهاجِمُ تخلُّفَ المدينةِ بالقياسِ إلى مُدنِ الوجهِ البحري، وقال: إنَّه سيُنشئ ساحةً شعبيَّةً، يلتقي فيها الطالباتُ والطُّلاب بعدَ الفـراغِ من الدروس، لمزاولةِ الألعابِ المختلفـة، وسيُعيِّنُ لها مُدرِّبين ومُدرِّبات، ومشرفين ومشرفات، ليتمّ للبلدةِ وجهها الحضاري، وكان الاقتراحُ في زمنهِ المبكِّر جديداً على الأسماع، إنْ لم يكنْ ناشزاً كلَّ النشازِ في مرأى عقولِ أهلِ الصعيد، فسكتَ السامعون على مضض، ولكنَّ مواطناً متواضعاً

عُرف بين الناسِ على فقرهِ الماليِّ بحماسته الدافقة، وحميّته المشتعلة، هذا المواطنُ الفقيرُ الذي لم يرهُ الرئيسُ من قبل، وقفَ يُعلنُ رفْضهُ للاقتراح، لأنَّه سيسببُ بعضَ الجرائمِ لا محالة، واستكثرَ رئيسُ المدينةِ أنْ يقومَ هذا المجهولُ بمعارضتهِ في لهجةٍ صارمة، وأعيانُ البلدةِ لا يتكلَّمون، فقامَ شامخاً يقولُ للمتحدِّث في لهجةِ استهزاء: مِثْلكَ لا يفهمُ شيئاً في هذه الأمور، وعليكَ أنْ تنسحبَ سريعاً من الاجتماع، ولكنَّه فُوجئ بما لم يتوقَّع، فُوجئ بالشابِ المتحمِّس يقولُ له: أنتَ يا ريِّس تسكُنُ وحيداً في البلدة، وزوجتكَ بالقاهرة، وتريدُ أنْ تتسلَّى على بناتِ الناس! وهذا ما أفهمُه فاحْترس، فذُهشَ الرجلُ، واحمرَّ وجهه، وطلبَ من المأمور ـ وكان حاضراً ـ أنْ يأمرَ بحبسهِ حتى يُحقِّق معه فيما قال، وأنهى الاجتماعَ غاضباً، وخرجَ الناسُ وهم على رأي الشاب!.

ولكنَّ نفراً يعرفون عنوانَ الزوجةِ في القاهرة، كتبوا إليها يقولون: إنَّ زوجكِ أغضبَ رجلاً شهيراً بأخذ الثأر، وعائلته كلُّها تلتزمُ ذلك، ومنهم من مكثَ في السِّجنِ أمداً طويلاً، وقد حبسَ أحدَ شبابهم دون جريرة، فصمَّموا على أنْ يخطفوا ابنك عند خروجه من المدرسة، ردّاً على سجنِ هذا المظلوم، ومعهم العنوان، وقد أمْهلوكِ أسبوعاً! فاحذري.

فوجئ رئيس المدينةِ بزوجتهِ تحضرُ على غير انتظار، وهي في غاية الفزعِ والرعب، تصيحُ به بمجرَّدِ رؤيته، ستقْتُل ولدكَ بتهوّرك، ولا بدَّ أنْ يخرجَ الحبيسُ من محبسه فوراً قبل أن يحصل الشرّ، وزادَ صراخُ الزوجةِ وبكاؤها، فحارَ الرئيس دهشاً، ورأى أن يذهبَ إلى الحبْسِ ليعملَ على إخراجِ الشابّ مسترضياً، وظنَّ أنَّ المسألةَ ستقفُ عند هذا الحدّ، ولكنَّ الشاب زجرهُ في عنف، وصاحَ في وجهه، تشْتمني أمامَ الناس، وتأتي لمصالحتي في الخفاء، لا بدَّ أنْ تعتذرَ لي يومَ الجمعةِ في المسجد، وانصرفَ شامخاً!

لم يجدْ صاحبنا بدّاً من التراجعِ والاعتذارِ العلني، ورأى في وجوهِ الناسِ شماتةً ظاهرةً فلم يُطق البقاء، وقدَّمَ طلباً إلى المسؤولين يرجو أنْ ينتقلَ من البلدة، ولو إلى الجحيم!.

٣٦١ ـ كتب الأزهر

درسَ بعضُ الناسِ بالأزهرِ قرابةَ تسع سنوات، ثم تركه إلى كُلِّيةِ دارِ العلوم، وسافرَ في بعثةٍ إلى إنكلترة لمدَّةِ سبع سنوات، عادَ بعدها يحملُ درجةَ الدكتوراه، فعُيِّنَ مدرِّساً بالجامعة، ولكنَّه كان في دروسه ينتهزُ كلَّ فرصةٍ ليحملَ على الأزهر وتأخّرِه العلمي، وكُتبه البعيدةِ عن منهجِ العصر، فإذا سُئلَ عن كتابٍ منها يشذّ عن هذا المنوال، قال: ولا ورقة!

وشاعَ ما يقولُ على الألسنة، بل كتبَ ما يُنبئ عنه في بعضِ مذكراته التي يقرؤها طلابه، وجعل من رسالتهِ أنْ يدعو إلى منهجٍ جديد، يُخالفُ ما هو معْروفٌ في الكُتبِ المصرية، وبخاصَّةٍ كتب الأزهر التي لا تُسمنُ ولا تُغني من جوع، كما قال.

ولكنَّ ظروفاً اجتماعيّةً ساقتهُ إلى كلّية اللغة العربية بالأزهرِ يشفعُ في أمرِ طالبٍ فُصِلَ لغيابهِ الطويل دون عذر، وهو من ذوي قرابته، وقد رَجَوْهُ أنْ يتوسّط في رجوع الطالب، فقدمَ إلى عميدِ الكلّيةِ الأستاذ (محمد محيي الدين عبد الحميد) رحمه الله، والرجُل علم في نشرِ كتب التراث، وله وزنُه الثقيل في دُنيا العلم والعلماء، فما جلس أمامَ العميد، وهو يعلمُ عنه تهكُّمهُ بالكتبِ الأزهرية، حتى نوى أنْ يُؤاخذه على تهجُّمه الملحّ، ولم تضع الفرصة، فإنَّ الزائرَ الفاضلَ أرادَ أنْ يسترضي العميد، فقال له: إنَّه تربَّى في الأزهر، وقرأ كُتبَ الأزهرِ كلّها، وأحاطَ بما فيها، فنظرَ إليه العميدُ نظرةً مُتنمِّرةً، وقال له: مِثْلُكَ لا يفهمُ كُتبَ الأزهر، وليس عندكَ أيّ استعدادٍ علميٍّ لاستيعابها، ثم صفَّقَ بيده، ونادى الحاجب، فقال له: أحضرْ كتابَ (المواقف) لعضد الدين الإيجي، وكتاب (سلم الوصول) للأسنوي، وأوّلهما في علمِ الكلام، وثانيهما في الأصول، ثم قال له: هذه كُتبُ الأزهر، وأمامكَ البابُ الأولُ من كلِّ كتاب، هل تستطيعُ قراءته! قال الزائرُ دهشاً: هل أنا في موقفِ امتحان؟ فقال الشيخُ: تزعمُ أنَّكَ قرأتَ كتبَ الأزهر، وأتحدَّاكَ أنْ تفهمَ شيئاً مما بين يديك، هلُم! أتحسبُ أنَّ كتبَ الأزهرِ هي كتبُ السيرةِ

النبويةِ والتاريخ وحدهما!! كتبُ الأزهرِ هي كتبُ المنطقِ والأصولِ والفلسفةِ والتوجيه، وهي بريئةٌ من مثلك!

قامَ الدكتور عاضباً، ولم يكمّل وساطته، إذ داهمه الطوفان!

٣٦٢ ـ قرشٌ واحد

كان (إبراهيمُ المويلحي) من كبارِ الكتّابِ في عصره، وله في مضمارِ السياسةِ جولاتٌ ترتفعُ به تارةً، وتنخفضُ أخرى، غير أنَّه كان مهيباً لدى خُصومه، ومخشيَّ العاقبةِ لدى أصدقائه، لأنَّه كان فارِصَ القلمِ واللسانِ معاً!

وقد توثّقتْ صلتهُ بالخديوي إسماعيل، فصارَ من كبارِ رجالِ الدولة، يحرصُ الرؤساء على استرضائه، ليقولَ عنهم كلمةً طيّبةً لدى وليّ الأمر، أمّا زُملاءُ والدهِ من كبارِ التجار فكانوا ينهضون له وقوفاً إذا مرَّ بشوارعهم، فإذا دخلَ محلاًّ من المحلاتِ كان ذلك سعادةً كُبرى لصاحبه.

ولكنَّ الدنيا لا تدوم، فقد ذهبَ (إسماعيل) مُبْتعداً عن العرش، وسافرَ معه (إبراهيم المويلحي) حيناً من الزمنِ سكرتيراً لجنابه، ومبعوثاً سياسياً له لدى السلطان في (تركية)، ثم سئمَ العملَ الرّتيب، فعادَ إلى (مصر) ولم يجدْ من الناسِ ما كان يعهده من حُسنِ الاستقبال، فقد تنكَّرَ له رجالُ الحكم، وخاصمته الصحف لأمورٍ عدَّتها عليه، وقضى وقتاً في الردِّ والهجوم، حتى ما كادَ يسلم يوماً واحداً من بلاءِ الدفاعِ والتبرير، والتهجُّم والاحتيال، وقد كان غيظه أشدَّ من جماعةِ التُجَّار، الذينَ كانوا يركعون أمامه من قبل، ثم هم يُقابلونه بأقْسى الفتورِ والنفور.

وفي أصيلِ يومٍ ساقته قدماه إلى (حي الحمزاوي) وهو حينئذٍ مِنْ أعظمِ الأحياءِ التجاريةِ بالقاهرة، فرأى تاجراً عرفهُ من قبل، فاتّجهَ للسلامِ عليه، فلم يقف التاجر، ونظرَ إليه نظرةَ المتأفّف، فتركه (إبراهيم المويلحي) وهو يغْلي من الغيظ، ثم فكَّرَ في أمرٍ يهينهُ به إهانةً لا يُمحى أثرها من نفسه، فرجعَ ثانيةً وطلبَ أنْ يشْتري من المحلّ فنجاناً للقهوة، فنهضَ التاجرُ يُقدِّم له ما عنده ليختارَ ما يشاء، فجعلَ يسألُ عن الأثمانِ حتى عرف أنَّ أقلَّ ثمنٍ هو القرشُ الواحدُ لفنجانٍ صغيرٍ، فاشترى

الفنجان، ودفعَ للتاجرِ القرش، ثم رمى بالفنجانِ على البلاط، فتكسَّرَ قطعاً قطعاً وقال للتاجر: يا هذا إنَّ الذي يقومُ من مكانهِ ويقْعد لأجلِ قرشٍ واحدٍ لا يجوزُ له أنْ يتكبَّرَ على المويلحي، وأنْ يُبدي النفورَ حين تقعُ عينه عليه! أفهمتَ ما أعنيه!

٣٦٣ ـ شراء الموز

الأستاذ (عبد السلام) واسعُ الثراءِ، له العقارُ والمرتَّب، وودائعُ البنك، وما يرتفعُ به عن زملائهِ الموظفين مادياً، ولكنَّه يخاصم محلاّتِ الفاكهة، ويراها من الكماليات.

وقد اشتاقَ مرَّةً إلى الموز حينَ وجدهُ منضَّداً في عناقيد هندسيَّة أمام محلّ الفاكهة، فحدَّثته نفسهُ بشراءِ شيءٍ منه، ولكنَّه تريَّثَ عدَّةَ أيامٍ حتى إذا صَمَّمَ بعدَ اشتدادِ حنينه، أرادَ أنْ ينتهزَ غيابَ التاجرِ وقيامِ بنتهِ الشّابّةِ مقامه حتى يعود، ليستطيعَ مساومتها، وقد اتَّفقَ معها على الثمنِ بعد حوارٍ طال، ثم رأى أنْ يقولَ لها في لهجةٍ متذلِّلة، وكأنَّه يتسوَّل:

بُنيَّتي! لا أشتري الموزَ لنفسي، ولكنَّ مريضاً بالمستشفى العام ينتظره، وعليَّ أنْ أختارهُ إصبعاً إصبعاً، خالياً من أيِّ نقطةٍ سوداء، كيْلا تؤثِّرَ على صحَّةِ المريض، فربَّما تسوءُ حالته ونحنُ نُريدُ له الشفاء!

سكتت البائعةُ الصغيرةُ كالمندهشة، وتوالى المشتري الفاضل يقولُ في لهجةٍ منكسرةٍ:

لو أكلَ المريضُ موزةً واحدةً بها آفةٌ سوداءُ لأثَّرتْ في حياته، وربَّما مات، وحرامٌ أنْ أتحمَّلَ ذنبهُ أنا وأنتِ، فاتْركيني أخترْ له ما ينفعه.

وهنا قالت له البائعةُ الصغيرةُ في ابتسام: أيهمُّكَ أمر المريض يا شيخ؟ قال: نعم، قالتْ: اشترِ له قدراً كبيراً من الموز، اثنين ثلاثة كيلو، واخترْ منها ما تريد من الموزِ النظيف، حتى لا يموتَ وتتحمَّل ذنبه يا مسكين!

لم يتوقَّع الأستاذ هذا الردَّ من البائعةِ الصغيرةِ، فاحمرَّ وجههُ وقالَ غاضباً:

والله لنْ أشتري منك!

فضحكتْ هادئةً، وقالتْ في تهكُّم: ولا من غيري، أنتَ ما لكَ وللموز؟ ابحثْ عن رأسِ فجل!

وسارَ المشتري، فلقيَ أحدَ أصدقائه، فلحظَ عليه سمات الغضب، فقال له: مالك؟ فقال: كلُّ الناسِ صاروا أولادَ حرام! حتى البائعةُ الصغيرة!!

٣٦٤ـ حكمة

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا   وما لزمانِنا عيبٌ سوانا!

* * *

كرمٌ أصيل

٣٦٥ ـ مقدِّمة

قد تقعُ أحداثٌ صغيرةٌ لرجالٍ عظامِ النفوس، فيكونُ لها أثرها من التوجيه الخلقي إذا أخذتْ حقَّها من التدوينِ والذيوعِ، لأنَّها بمغزاها الرائع، تُعطي مفهوماً صحيحاً يجبُ أنْ يُحتذى، وأنا أسمعُ بكثيرٍ من هذه الأحداثِ الصغيرة، لكنّي لا أجدُ من يفيها حقها من الإشارةِ والتحليل، على حين نرى من المواقفِ السطحيّةِ ما تدورُ حوله الأحاديث رياءً وزُلْفى لمن نسِبَتْ إليه هذه المواقف، بل ربَّما اختُرعت المواقفُ الهامشيَّةُ اختراعاً، لتكونَ أداةً للتَّقربِ والنفعِ العاجل، لذلك رأيتُ أنْ أُشيرَ إلى مواقف قد تبدو صغيرةً في مضمونها، ولكنَّها كبيرة جداً في انتمائها الخلقي، وأثرها النفسي البعيد.

٣٦٦ ـ فكرة طيبة

كان أحدُ العلماءِ من أئمَّة المساجدِ في القاهرة، ذا سمعةٍ طيبةٍ في مجتمعه، لأنَّه يؤثِّرُ بسلوكهِ واتجاههِ قدرَ ما يُؤثِّر بوعظهِ وخطبه، لذلك تجمَّع حولهُ المريدونَ من كلِّ صوب، وروَوْا عنه الأعاجيبَ في إيثارهِ وتواضعهِ وتفانيهِ في قضاءِ حاجاتِ المعوزين، وقد سافرَ أحدُ هؤلاءِ المريدين إلى بلدٍ عربيٍّ للتجارة، ورجعَ غانماً كاسباً، فتحسَّنَ وضعُه الماليّ إلى حدٍّ لم يكنْ ليحلمَ به، ورأى أنْ يُهدي شيخَهُ إمامَ المسجدِ هديَّةً تُناسبُ قدره عند نفسه، فقدَّمَ له ثوباً كبيراً من الصوفِ الجيِّد، يحتوي على ثلاثينَ من الأمتارِ ذاتِ الثَّمنِ المرتفعِ، وظنَّ أنَّه سيكْسو بها نفسه، والمختارين من ذوي قرباه.

وصلتِ الهديَّةُ للإمام، وعرف أنَّ صاحبها قدْ منَّ الله عليه باليسارِ والنعمة،

فتقبَّلها بقبولٍ حسن، وأخذ يفكِّرُ في أمرها على نحوٍ يُسعده حقّاً، فأرسلَ إلى بعضِ تجّارِ القماشِ من مريديهِ في الحيّ، وسأله كم يكْفي هذا القدر من الصوف إذا فرّقته على من يستحق، فقال يكفي عشرةَ أشخاص، لكلِّ إنسانٍ ثلاثةُ أمتار!

قال الإمام: وإذا أخذتـه أنتَ لتبيعهُ في محلِّك، وتعطيني بدله قدراً من القماش الذي يصلحُ للجلابيبِ الخاصَّةِ بفقراءِ الحيّ من الرجالِ والنساء، ففكَّرَ التاجرُ وقال يبلغ ثمنه ما يساوي مئةً وستينَ متراً! فقالَ الإمام: وإذا كان الجلبابُ خمسةَ أمتارٍ فسنكْسوا اثنين وثلاثينَ من الناسِ إذن؟ قال التاجر: نعم!

فتهلّل وجه الشيخ، وقال للتاجرِ: خذ الصوفَ يا صاحبي، وهيِّئ لنا القماشَ الشعبي، وسيصلكَ من يحملُ ورقةً مني ليأخذ خمسةَ أمتارٍ فحسب، وخلا الإمامُ لنفسه، ليكتبَ أسماءَ من يعرفهم من المحتاجين، فأحصاهم عدّاً، وبعثَ إليهم ليأخذَ كلُّ محتاجٍ ورقـةً عليها خاتَمهُ، ويذهب إلى التـاجر فيتسلم ثوبه، وهكذا تمَّ التوزيعُ في أمدٍ قريب.

وجاءَ التاجرُ للشيخِ يقول له: لِمَ لمْ تُبْقِ لنفسكَ ثوباً من الصوفِ لا يبلغ غير ثلاثةِ أمتار، فقد تحتاجُ إليه قريباً!

فقال الشيخ: لقد أخذتُ الصوفَ كلَّه في ميزاني عندَ الله يا رجل، فكيفَ تُريدُ أنْ تُنقِصَ هذا الميزان يومَ الجزاء! إنَّ الله قد جعلني واسطةً بينه وبين هؤلاءِ الناس.

٣٦٧ ـ فلسفة عالية

كان الإمامُ الأكبرُ الأستاذ الشيخ (مصطفى عبد الرزاق) أستاذاً للفلسفةِ الإسلاميةِ بالجامعة قبلَ أنْ يلي مشيخةَ الأزهر الشريف، وكان رحمهُ الله ذا نفسٍ مطمئنَّةٍ، ونظرة عميقة، منسجماً مع الروحِ الفلسفي للمادةِ التي يقومُ بتدريسها.

تحدَّث عنه أحدُ زملائه من أساتذةِ الكلِّيةِ بعد رحيله، مُشيداً بمآثره، فكان مما قال: إنَّ الشيخ كان يسعى جُهدهُ لقضاءِ مآربَ ذوي الحاجة، وبخاصَّةٍ تلاميذ

الكلّية، فكان يخصم من راتبه الشهري مبلغاً كبيراً لسدادِ مصروفاتِ ذوي الحاجةِ ممن لا يستطيعونَ السداد، ثم يجدُّ في البحثِ الدائبِ عن وظائفَ مناسبة لهم بعد التخرج، ليمضوا سعداءَ في طريق الحياة، ومن نوادره العجيبةِ في هذا الاتجاه أنَّ طالبَيْنِ من المتخرِّجين سَعَيا إليه لينهض بالوساطة لهما في عمل حكومي، وكان أحدُهما مُقرَّباً منه لجدِّه ونشاطه، واهتمامه بالبحثِ الجامعي على نحوٍ سارّ، أمَّا الآخرُ فلم يكنْ يعرفُ عنه الأستاذ غير أنَّه طالبٌ بالكلّيةِ فحسب، وقد انتهى مسعاه إلى تيسُّرِ وظيفةٍ واحدةٍ لأحدِهما، فجعلها من نصيبِ الطالبِ الذي لا يعرفُ عنه شيئاً ولم يجعلها من نصيبِ طالبهِ الأثيرِ لديه.

قال الراوي: ودهشنا لذلك أكبرَ الدهش، وسألنا الأستاذَ عن هذا الإيثارِ ومدعاته في نفسه، فقال: إنَّه أعطى الوظيفةَ لمن لا يعرف، لحكمةٍ واضحة، لأنَّه بذلك سيفْرضُ على نفسه أنْ يواصلَ المسعى لتحقيقِ أملِ طالبهِ النجيب، لشدَّةِ اهتمامهِ به، أمّا لو أعطاهُ الوظيفةَ ابتداءً، فقد يتقاعسُ عن تلبيةِ حاجةِ زميله، فتفترُ همَّته، وهو بشر! فليأخذ نصيبه الفوريّ، ومن الغد سأواصلُ المسعى بجدٍّ ونشاط، وسيُيسّرُ الله وأصل! وفعلاً لم يمضِ شهرٌ حتى كانتِ الوظيفة في يد الطالب، لأنَّ الشيخ لم يدَّخر وسعاً!

ما رأي القارئ في هذا النظر الفلسفي! بل في هذا النظر الإنسانيّ؟

٣٦٨ ـ شهامة مفرطة

كان نادي (سليمان باشا) بالقاهرةِ في أوائل هذا القرن مأوى الكبار من الباشوات، ومنهم الوزير والسفير، وعضو البرلمان، وكبارُ القوَّادِ من رجالِ الجيش، ووجهاءِ الأعيانِ من الموسرين، ومن يتخذُ الجلوسَ بالنادي، والتمتُّعِ بمآكلهِ ومشاربهِ وجلسائهِ مجالَ فخرٍ ومباهاة.

وفي أُمسيةٍ من أماسيّ الربيع الدافئةِ جلسَ أحدُ الباشواتِ الضخام بأسمائهم وثرواتهم ووظائفهم، فرأى ماسحَ أحذيةٍ يتقدَّمُ إليه راجياً أنْ يأذنَ له بمسحِ حذائه، فقامَ كمنْ لدغتهُ عقرب، وضربَ بكفِّه ساخطاً، فحضرَ المشرفُ على النادي، فقال

له في غطرسة: ما هذا الذبابُ البشري!؟ إنّنا جئنا هنا لنستريحَ من رؤيةِ الرعاع!

وكان الأديبُ اللّغوي الثري الأستاذ (وحيد الأيوبي بك) على مقربةٍ منه، فشهدَ هذا المنظرَ الوقحَ مُتألِّماً، وفكَّر فيما يُغضبُ الباشا، ويعطيه درساً لا ينساه، فتقدَّمَ للمشرفِ العام على النادي، وسأله: متى يتغدى الباشا في النادي؟ فقال: إنَّه يتناولُ الغداءَ دائماً في الساعةِ الثانيةِ ظهراً، ويكونُ وحيداً إلاّ إذا دعا في بعضِ الأحيانِ باشا من طرازه!

فقال الأستاذ وحيد: إنَّه يريد أن يحجزَ النادي مأدبةً كبرى تسعُ ثلاثينَ ضيفاً، وأن يكون ذلك غداً في الساعةِ الثانيةِ حين يهمّ الباشا بتناولِ طعامه، على أنْ يكونَ الطعامُ لكلّ ضيفٍ من طرازِ ما يأكلُ الباشا، ولا ينحدرُ عن مستواه، ثم دفعَ الحسابَ جميعه ليتمَّ الإعداد.

وفي الموعدِ المرتقب، حضرَ الباشا ليجلسَ وحدهُ على مأدبته الخاصَّة، ونظرَ فإذا الأستاذ (وحيد الأيوبي) يتقدَّمُ ثلاثينَ ضيفاً مِنْ ماسحي الأحذية، وبائعي السجائر، ومتسكّعي الطرقات، ويدخل بهم النادي ليجلسَ معهم على المائدةِ الممتدَّةِ ذاتِ الطولِ البعيد، وقد مُلِئتْ بأفخرِ أنواعِ الطعام، ففوجئ الباشا بما لم يتوقع، فقام يصرخُ في وجهِ المشرف، ويقولُ له: ما هذا؟ هل نحن في (بولاق): أو في الباطنيّة!! فأجابَ المشرفُ في هدوء: يا باشا! الطعامُ ملكٌ لمن يدفع، ووحيد بك دفعَ المطلوب، إذا أردتَ طرده فادْفع الثمن لأعطي كلَّ آكلٍ ما يأكلُ به في مكانٍ آخر، بعد أن يسمحَ وحيد بك! فقال الباشا: إنَّها مهزلة! ثم خرج دون أن يأكل!

هنا تهلّل وجه وحيد بك، وقال: لقد أردتُ أنْ أطرده بطريقتي الخاصَّة، كما طردَ بالأمسِ ماسحَ الأحذيةِ المسكين! ليعلمَ أنَّ القصاصَ عادل، وكان أحد المصورين على مقربة، فالتقطَ صورةَ المأدبةِ ومن عليها من البؤساءِ، ونشرها في الجرائدِ مُفصَّلاً أسبابها، ومعها حديثٌ وافٍ لوحيد الأيوبي عن دواعي هذا الكرمِ العجيب!.

٣٦٩ـ حديث رسول الله

جاءتني سيدةٌ تبلغُ الخمسين من العمر، ولم أكنْ رأيتها من قبل، وبيدها ملفٌّ يجمعُ بعضَ الأوراق، وقالت في هدوء:

أنا فلانة، متزوّجةٌ من صديقكَ فلان وكريمة الأستاذ (ع) أحد علماءِ الأزهر الشريف الذين فارقوا الحياةَ منذ ثلاثين عاماً، وكان أبي أستاذَ فلان وفلان ممن تتردَّدُ أسماؤهم يومياً في إذاعةِ القرآنِ الكريمِ وكانوا دائماً يزورون أبي في المنزل، وكنتُ صغيرةً وأنا أشاهدهم يجلسونَ عندَ أبي حتى إلى ما بعد صلاةِ العشاء، ولكنّي أشعُر بالحسرةِ وأبكي لأني لا أسمعُ اسم والدي، وهو أستاذُ الجميع، (هكذا قالت) وقد تحدَّثتُ مع أستاذٍ فاضلٍ في ذلك، فقال لي: إنَّك تُريد أنْ تكتب دائماً عن الراحلينَ من العلماءِ وتُذيعُ عنهم أحاديثَ كثيرة، فتردَّدتُ أنْ أفاجئكَ بالزيارةِ على غيرِ معرفة، وشجعني زوجي، وقال: إنَّه صديقكَ، ولا بدَّ أنَّكَ ستجبر خاطري إذا عرفتَ صلتي به، ومعي أوراق كثيرة تحملُ بعضَ مقالاته، فلعلَّكَ تفيدُ منها، وتكتب عنه، وترسم صورته!

أخذتُ أتذكرُ بيني وبينَ نفسي ما أعرفه عن أبيها، فعرفتُ أنَّه كان يشتغلُ بمراجعةِ الكتبِ الدينية في إحدى المطابعِ الشهيرة، كما كان شيخاً لبعضِ المعاهدِ الأزهرية، وله آثارٌ تدلُّ على فضله، ولكنَّه مع ذلك لا يتميَّزُ بميزةٍ كبرى تجعلهُ مدارَ حديثٍ متَّصل، فسكتُّ مفكراً فيما يمكنْ أنْ أقوله، وقد أُعجبتُ بوفاءِ السيدةِ لأبيها، وقد سافرتْ من القاهرةِ إلى المنصورة، لا لشيءٍ إلّا لتبحثَ عمن يتحدَّثُ عنه.

وبعد لحظةٍ قالتِ السيدة: أذكرُ أنَّ والدي كان مريضاً، وكان الليلُ بارداً في الشتاء، فأوقدتُ (وابور الجاز) ليُدفئ قدميْه، وهو عاكفٌ على تصحيحِ أوراقٍ تجمعُ حديثَ رسولِ الله ﷺ، فعزَّ عليَّ أنْ يسهرَ هكذا وهو مريض، فقلتُ له: ياأبي! اتركْ مامعك، واسترحْ في السرير، فالشتاءُ شديدُ البرد، ودِفءُ (الوابور) لا يكفي، فنظرَ إليَّ نظرةً طويلةً وقال: يا بنيَّتي إنَّني أخجلُ من رسول الله ﷺ، حينَ أتركُ

حديثه دونَ مراجعة، والمطبعةُ تنتظرُ المسودَّاتِ في الصباح، لو كان كتاب أحدٍ غير رسولِ الله لقُمْتُ!!

قالت السيدةُ ذلك عفواً دونَ أنْ تقصدَ إثارتي، فشعرتُ برجفةٍ في كياني وقلت: إنَّ هذا الصَّنيعَ وحدَه يوجبُ عليَّ أنْ أكتبَ عنه، فهو أدلُّ على معدنه من عدَّةِ مجلَّدات.

ذكَّرني هذا بالأستاذ (محمد زاهد الكوثري) رحمه الله، إذ كان يُصحّح كتاباً في التفسيرِ أو الحديثِ ـ لا أذكر ـ وقد كان في احتياجٍ شديدٍ للمال، فهو غريبٌ في مصر ولا وظيفةً رسميَّةً يأكلُ منها، وقد عرضَ عليه صاحبُ المطبعةِ مبلغاً نظيرَ قيامهِ بالتصحيح، فأبى وأصرّ، وقال كلمته الشهيرة لصاحبه: أخشى أنْ يضيعَ ثوابُ الآخرةِ بما آخذهُ منك! رحمهما الله!.

* * *

شوارد أدبية

٣٧٠ ـ مقدمة

تقعُ بين المدرِّسينَ في المدارس، والأساتذةِ في الكلِّياتِ طرائفُ يُستظرفُ تسجيلها، وقد يكونُ بها بعضُ المرارةِ التي تُوجبُ المؤاخذة، ولكنَّ الناس هم الناس، فمنهم الزهرُ والشوك، والحديثُ عن المثالِ الصالحِ موضعُ عبرةٍ كالحديثِ عن المثالِ السيِّئِ تماماً، فالأوَّلُ يُقتدى به ويُحتذى، والثاني يُجتنبُ ويُحذر، فإذا كتبنا عن بعضِ هذه النوادرِ فقد نجدُ ترويحاً للنفس، وأبدأُ بهذهِ النادرةِ الفكاهية، وهي تمتُّ إلى النحوِ والإعراب.

٣٧١ ـ همزة أنّ

دارسو النحو يعرفونَ المواضعَ التي تُفتحُ فيها همزةُ إن، والمواضعُ التي تُكسرُ فيها هذه الهمزة، وليستْ بالشيءِ الصَّعبِ العسيرِ تحْصيلُه، فإنَّ طلابَ المعاهدِ في القسمِ الابتدائي يحصِّلونها جيداً دون إجهاد.

وكتابُ (قواعدِ اللغـةِ العربيةِ) الذي كان مقـرّراً على المدارسِ الثانويةِ في الأربعينيـاتِ قد تحدَّثَ عن هذهِ المواضع بإفاضـة، وأفـردَ لكلِّ بابٍ صفحتينِ شفعهما بالأمثلةِ والتمرينات، وليْتهُ يعودُ ثانيةً للطلاب، فقد كان البديلُ موضعَ نظر.

وحين كانَ هذا الكتابُ منَ المقرَّراتِ في درسِ اللغةِ العربيّة، كان الطالبُ (م. س) يتعثَّرُ دائماً في الامتحانِ النهائي، ووقفَ عندَ شهادةِ الثقافة، وهي حينئذٍ كانت تُؤخذُ قبل الثانوية بعام، وقفَ سنوات، وهو يتعثَّرُ في درس اللغة العربية، ويُعيدُ العامَ من أجلها، حتَّى ضجَّ والده، وكان أحد كبارِ الأساتذةِ بكلِّيةِ اللُّغةِ العربية، وقد أجهدَ نفسهُ في إعطاءِ ولدِهِ الدروسَ الخصوصيَّة في كلِّ مادةٍ ومن

بينها مادةُ اللغةِ العربية، إذ كان لا يجدُ نشاطاً في التدريسِ لولده، ويُفضِّلُ أنْ يقومَ بذلك مدرِّسٌ آخر، وكان الرجلُ محدودَ الثراء، لا يملكُ غير مرتَّبِهِ الذي يقومُ بضروريّاتِهِ دونَ كماليات، ولكنَّهُ كان يقتصِدُ ويجورُ على الأسرةِ من أجلِ هذه الدروسِ التي كانت نزيفاً شهرياً لا طاقةَ له به، وقبلَ الامتحانِ بأسبوع، أرادَ أنْ يختبرَ ولدهُ فيما حصَّل، ولكنْ فيما يختبره؟ إنَّهُ لا يجيدُ غير دروسِ اللغةِ العربية، فلتكن المقياسَ لما حصَّلَ من الدروس، ونادى الطالبَ وأمرهُ أنْ يُحضرَ كتابَ القواعدَ ليكونَ موضعَ الاختبار، وسارعَ الولدُ بإحضاره، فأخذ الأستاذُ يُراجعُ فهرسَ الكتاب، حتى اهتدى إلى موضوعِ الكسرِ وموضوعِ الفتح، وهما كما قلْتُ يستغرقانِ أربعَ صفحات، كلُّ موضوعٍ له صفحتان، فاستوعبَ في لحظاتٍ المقرَّرَ الدراسي بهذهِ المادة، ثمَّ قالَ لولده: أجبْ عمَّا يأتي: متى تُفتحُ همزةُ إن، ومتى تُكسر؟ فقال الابنُ بلهجةِ الاستخفاف: أهذا سؤال؟ كلُّ شخصٍ يعرفُ الإجابةَ، فاطمأنَّ الوالد، وأشرقَ وجههُ بالارتياح وقال: ولكنّي أريدُ أنْ أسمعها منك، فقالَ الابنُ مستخفًّا: الموضوعُ بسيط، تُكسرُ همزةُ إنّ إذا وُضعتْ الكسرةُ تحتَ الألف، وتفتحُ الهمزةُ إذا وُضعت الفتحةُ فوقها!!.

لا أدري لماذا لم يتحمَّل الأستاذُ جهلَ ولدهِ فسقطَ على الأرض، وكان متَّكئاً على المنضدة، وظهرَ أنَّهُ أُغميَ عليه، فلمَّا عُولجَ وعادَ إلى صوابه، عاتبهُ بعضُ الزملاء على شدَّةِ انفعاله، فقال: كيفَ لا يُغمى عليَّ؟ وقد علمتُ أنَّ جميعَ الموادِ ستكونُ من هذا الطرازِ لدى هذا الجهول، عَوضي على الله!.

٣٧٢ ـ ذكاء حصيف

كان ناظرُ المدرسةِ الثانويةِ يشغلُ نظارةَ أرقى مدرسةٍ في القاهرة، وقد جاءَ إليه مذيعُ إحدى القنواتِ الإذاعية، طالباً منه أنْ يعدّ كلمةً تُلقى في الإذاعةِ بمناسبةِ ابتداءِ العامِ الدراسي، حيثُ يوجهها للطلّابِ بعامةٍ في مصر، وهو ناظرُ أكبرِ مدرسة! والناظرُ في أصلهِ مدرسُ رياضيات، ولم يكن الأدبُ إحدى هواياتهِ كما يتعلَّل، فماذا يصنع؟

لقد أحضـرَ ثلاثةَ أسـاتذةٍ من مدرِّسـي اللغةِ العربيَّـة، عُرفوا بالقدرةِ على الكتابة، فهم خطباءُ المدرسةِ ومحررو صفحاتِ المجلة، ومقدِّمو الأحاديثَ الصباحيّة، وطلبَ من كلٍّ واحدٍ منهم على انفرادٍ أنْ يكتبَ كلمةً في الموضوع المقترحِ عليه، وأنْ يتقدَّمَ بهـا صبـاحَ الغد، لضرورتهـا الملزمـة، وسـرعانَ ما استجابَ الأساتذةُ ووقعَ في يدهِ ما أراد.

فبعثَ إلى مدرِّسٍ يعرفهُ من مدرسةٍ أخرى، وقدّمَ له الكلماتِ الثلاثة، على أنْ يختارَ منها جميعها كلمةً مناسبةً بحيثُ لا يُهملُ واحدةً منها، وقد قال: إنَّه كتبَ الموضوعاتِ جميعها، ثمَّ بدا له أنْ يختصرَ فعزَّ عليهِ أنْ يُهملَ شيئاً، ويذكرَ شيئاً، على أنْ يعيدَ النصَّ المختارَ مشكولاً، واضحَ النقاطِ والفواصل، فاستجابَ المدرِّس، وفي الموعدِ المحدَّد ذهبَ الناظرُ لإلقاءِ الكلمة، وقدْ حازت القبول، فاختيرتْ للنشرِ في مجلةِ الإذاعةِ بعدَ إلقائها، وجاءت المجلةُ إلى المدرسة، فقرأها المدرسـون الثلاثة وظنَّ كلُّ واحدٍ أنَّ الناظـرَ قد اسـتعانَ بجزءٍ يسيرٍ من موضوعه، وإذن فقد أضفى الجديدَ من لَدُنْ نفسه!

قلتُ لصاحبي حينَ حدَّثني هذا الحديث، ولا أدري كيفَ وقفَ على سرّه: ماذا يصنعُ الناظرُ إذا اجتمعَ الأساتذةُ الثلاثة، وحدَّدَ كلّ أستاذٍ ما أُخذَ منه، ولم يبـقَ لهُ شـيءٌ ما، فقالَ مُبْتسـماً: هذا غيرُ متوقَّع، وهو ما فهمهُ الناظرُ بذكائهِ الحصيف.

٣٧٣ـ عمامة بيضاء

كان (محمد نيازي باشا) مديراً للدقهلية في الثلاثينيات، أيامَ كان المديرُ يحملُ الباشوية، وله سلطةُ الوزيرِ في إقليمهِ فلا معقِّبَ لحكمه، فتقدَّمَ إليهِ ذاتَ صباحٍ إنسانٌ بشكوى عادلة، وكان حسَنَ المظهر، نظيفَ الحلّة، يُؤخذُ من منظرهِ أنَّه يحتلّ وظيفةً مرموقة، فسألهُ عن وظيفتهِ في اهتمام، فعلمَ أنّه مدرسٌ بالمرحلةِ الابتدائيةِ أُولى مراحلِ التعليم، وكانت المدارسُ حينئذٍ تتبعُ مجلسَ المديريةِ التي يرأسهُ المدير، وهو صاحبُ الكلمةِ النافذةِ فيه، فلمْ يُخْفِ انفعالهُ الغاضب،

وأخذَ يصيحُ : كيفَ يكونُ هذا المدرِّسُ بهذه الأبَّهة! ماذا أبقى لكبارِ الموظفين، وراتبهُ أربعُ جنيهات؟ ثم أصدرَ أمراً بأن يلبسَ مدرِّسو المرحلةِ الأولى في جميع مدارسِ الدقهليةِ العمامةَ والكاكولة، وانتشرَ الخبرُ في القطرِ المصري وعارضهُ الدكتور (طه حسين) بمقالٍ ناريٍّ في صحيفةِ (الوادي)، ولكنَّ مجلسَ المديريةِ قد وافقَ على القرار، وأصبحَ مُلزِماً مهما كانتِ المعارضة!

وفي يومٍ من الأيام ذهبَ المديرُ المتكبِّرُ إلى زيارةِ بعضِ القرى، ومِنْ عادتهِ في مثلِ هذه الزياراتِ أنْ يجدَ العمدةَ وشيخَ البلدِ وأعيانها في استقباله، وهُمْ في العادةِ لا يزيدونَ عن عشرةِ أشخاص، ولكنَّهُ حينَ تركَ سيارتهُ وصافحَ المستقبلين، لحظَ جمعاً حاشداً على البعد، فظنَّ أنَّ البلدةَ قد خرجتْ لاستقباله، ولكنَّ الناسَ تهيبوا لقائه، فوقفوا على بُعد، فقال للعمدةِ: لماذا لا يقْتربُ هؤلاء، وقد جاؤوا لاستقبالي، أنا أُحبُّ ملاقاةَ الشعب!

فقال العمدةُ: يا باشا! أتلمحُ صاحبَ العمامةِ هناك، إنَّه فضيلةُ الواعظ، وكان بالمسجدِ اليومَ وألقى الدرسَ بعدَ صلاةِ الظهر، ومن عادةِ الناسِ أنْ يستقبلوهُ فرحينَ وأنْ يُودِّعوهُ عندَ سفره، وها هم أُولاءِ قد خرجوا من المسجدِ خلفه، ولنْ يرجعوا حتى تأتي السيارة، ويركبها مسافراً بسلامةِ الله!!

قال الباشا: وهل علموا بمقدمي؟ فقال العمدةُ وكانَ ساذجاً لا يعرفُ المداراةَ: هم لا يعرفونكَ يا باشا ولا يهتمّونَ إلاّ بأهلِ العلم.

احمرَّ وجهُ الباشا وأمرَ السائقَ بالرجوعِ ثانيةً غاضباً على القرية!! وخيالُ عمامةِ الواعظِ لا يبرحُ عينه! وكأنَّها في رأيهِ لا تستحقُّ الاستقبالَ والتوديع!! ثم اشتدَّتِ الحملةُ على موقفهِ من ارتداءِ العمامةِ للمدرِّسين، فأمرَ بأنْ يلبسَ كلُّ مدرسٍ ما يشاء، وقال له أحدُ أعضاءِ المجلس: أبهذه السرعةِ يا باشا؟ قال: ظننتُ العمامةَ أقلَّ من الطربوشِ فإذا هي في القريةِ كلُّ شيء!!.

٣٧٤ ـ موقف حرج

كان أحدُ الشعراءِ مُدرِّساً بإحدى المدارسِ الثانويَّةِ للبنات، وكانت صلتُه

طيّبةً بالزميلات، ومن بينهنَّ مدرِّسةٌ فاضلةٌ ذاتُ مظهرٍ حسن، وجمالٍ يلفتُ النظر، وهي على درجةٍ عاليةٍ من الخُلقِ المتواضع، والسلوكِ النظيف، فحازتْ تقديرَ الزملاءِ والزميلاتِ معاً! وفي إحدى الإجازاتِ الصيفيّةِ كان الشاعرُ يصطافُ بالإسكندرية، فقرأَ في الصحفِ نعيَ هذه المدرِّسةِ الممتازة، وعلمَ أنّها تعرضتْ لأزمةٍ صحيّةٍ عقبَ الوضع، فصعدتْ روحُها على غيرِ انتظار، فتأثّرَ تأثُّراً شديداً، ونظمَ في وداعها رثاءً صادقاً أسمعهُ بعضَ زملائهِ ممن كانوا يصطافونَ معه! وبهِ وصفٌ لمحاسنها الآسرة.

وانتهت الإجازةُ وعادَ إلى المدرسة، وقد نسيَ الرثاءَ تماماً، ولم يعدْ يفكرُ في إذاعته، ولكنَّ زوجَ الفقيدةِ جاءَ إلى ناظرةِ المدرسةِ ذاتَ صباح، وكانت من الفضلياتِ المثاليات، فأعلمها أنّه سمعَ بالأمسِ من فلان (الزميل الذي استمعَ إلى القصيدةِ من قبلُ) وكان يجلسُ معهُ على المقهى، أنَّ الأستاذَ فلان قد رثى زوجتهُ وأنّه أطنبَ في ذكرِ محاسنَ تُسيئُ إليها، ويريدُ الآنَ أنْ يطّلعَ على الرثاء، إذ لا يجبُ أنْ تكونَ الراحلةُ موضعَ القيلِ والقال!

فُوجئتِ الناظرةُ بالموضوع، وكانت لا تعلمُ عنهُ شيئاً، وهي ذاتُ فضلٍ وكياسة، فقالتْ في لهجةٍ قويّةٍ للزوج: إنّها سمعت الرثاءَ ولمْ تجدْ به إلاّ كلّ وفاءٍ وإخلاص، وأنَّ الشاعرَ قد تخلّفَ اليومَ عن الحضور، إذ أخذَ إجازةً عارضة، وعليكَ أنْ تحضرَ في الصباحِ لتلقاه.

وما خرجَ الزوج، حتى استدعت الشاعر، وطلبتْ أنْ تسمعَ القصيدةَ فقرأها عليها، فقالت: عليكَ الآنَ أنْ تنظمَ قصيدةً جديدةً لا تصفُ فيها محاسنَ الفقيدةِ أو جمالها الذي تحدّثتَ عنه، بل تتحدَّث فقط عن سلوكها التربويِّ مع الطالبات، وتعهُّدها لفريقِ المكتبةِ بالتوجيه، واجتهادها في النشاطِ المدرسي، وتأتي بالقصيدةِ الجديدةِ معكَ في الصباح، وحينَ أدعوكَ تظهرُ أنّكَ لا تعرفُ شيئاً عن موضوع الدعوة، ثم تذهب لتحضرَ القصيدةَ وتقرؤها في غيرِ اهتمام، فالمسألةُ حسّاسةٌ جداً..

وجاءَ الصباحُ وقد سهرَ الشاعرُ في إعدادِ قصيدةٍ تشملُ العناصرَ المتّفقِ

عليها وحدَها، ثم حضر الزوج، فاستدعتِ الشاعر، وقامتْ بوساطةِ التعريفِ بينه وبين الزائر، وقالت: إنَّه جاءَ يشكركَ على اهتمامكَ برثاءِ الراحلةِ العزيزة، ويريدُ أنْ يسمعَ القصيدة، فقال: إنَّها في مكتبه، وسيخرجُ لإحضارها، وسرعانَ ما قدمَ وقرأ، فنهضَ الزوجُ شاكراً، وقبَّلَ الشاعرَ في وجنته، وقال للناظرة: ماذا أصنعُ برفاقِ السوء؟ وقد أوغروا صدري، وقذفوا بي إلى متاهاتِ الظنون، وسأنتقمُ الآنَ ممن افترى!

فابتسمتِ الناظرةُ وقالتْ للزوج كالناصحةِ المجرِّبة: إطوِ الموضوعَ ولا تُفكِّر فيه إطلاقاً، لأنَّ الناسَ بمجرَّدِ حديثكَ عنه سيخْتلقون ويزيّفون، وها قد رأيتَ!.

موقفٌ كريمٌ لا يُنسى من مربِّيةٍ أصيلةٍ ذاتِ خلقٍ رصين..

* * *

رحّالة يصف الخطباء

٣٧٥ ـ عن ابن جبير الرحالة

نشأ (ابن جبير) في بيئةٍ دينيةٍ، وأسرةٍ علميَّة، فاتَّجهَ إلى علومِ الشريعة، ثم رحلَ إلى شتَّى البلادِ الإسلاميَّة، فكان من همّه الأكبر مقابلةُ العلماءِ والخطباءِ والوعَّاظ، والتحدُّثِ عن مواقفهم الخطابية لذلك يستطيعُ مؤرِّخُ الحركةِ العلميةِ في عصرِهِ أنْ يعتبرَ رحلتَـهُ من أوثقِ المراجـعِ التي يُعتمدُ عليها، إذ كـان الرجلُ صادقاً في كلِّ ما تحدَّثَ به، وقد رأيتُ أنْ أقتبسَ من رحلتِهِ ما يُشيرُ إلى بعضِ مواقفِ الخطباءِ والوعَّاظِ في عصره، لأنَّ عهدنا الآنَ وإنْ كانَ حافلاً بالمدارسِ والكلِّياتِ الجامعيةِ قد تقهقرتْ فيهِ الخطابةُ إلى حدٍّ مؤسف، وكان المنتَظرُ أنْ ترتقي برقيِّ الثقافةِ الجامعيةِ، وازدهارِ الطباعةِ والصحافةِ والتأليف، ولكنَّ الاتِّجاه إلى وسـائلِ الإعلامِ البرَّاقةِ كادَ يحجبُ تأثيرَ الكتاب، وفقدتْ بذلك الخطابـةُ مكانها في التوجيهِ والإرشاد.

وقد شـاهدَ (ابنُ جبيـر) خُطبـاءَ من كلِّ نوع، وفي أكثر من اتِّجاه، لذلك كان حديثهُ عنهم شائقاً جذَّاباً، وله دلالتهُ البعيدةُ في تفسيرِ أحوالِ المجتمع، وما يزخرُ به من تيَّارات.

٣٧٦ ـ مراسيم وتقاليد

أبدعَ (ابنُ جبير) في تصويرِ الخطيبِ المكِّي الذي شهدهُ يومَ الجمعةِ بالمسجدِ الحرام، حيثُ تتبّعهُ تتبُّعاً يقظاً منذُ رآهُ داخلاً من البابِ النبويّ، لابسـاً ثوباً أسـودَ مُحلَّىً بالذهب، مُتعمِّماً بعمامةٍ سوداءَ، وعليهِ طيلسانٌ رقيق، وقد أخذَ يتهادى بين رايتين سوداوين، يُمسكُهُما رجلانِ من المؤذِّنين، وبين يديهِ ساعٍ في يدهِ عودٌ مخروطٌ أحمر، قد رُبطَ في رأسهِ حبلٌ قوي، وفي طرفهِ عذبةٌ صغيرةٌ ينفضها بيده

ويُرسلها في الهواء، فتأتي بصوتٍ عال، يُسمعُ من داخلِ الحرمِ وخارجه، كأنَّه يُعلمُ الناسَ بمقدمِ الخطيب، ولا يزالُ يضربُ بالسوط، حتى يأتي الخطيبُ إلى الحجر الأسود، فيقبّله ثم يسعى إلى المنبر، وقد جرى أمامه رئيسُ المؤذنين، ليفتحَ الستارة، فيصعدَ الخطيبُ إلى الدرجةِ الأولى، ويتسلَّم السيفَ من المؤذِّن، ويضربُ بنعلهِ درجاتِ المنبرِ ليُسمعَ لها صوتٌ عال، فإذا انتهى إلى أعلاهُ تلفَّتَ يميناً وشمالاً وهو يقول: السلامُ عليكمْ ورحمةُ الله، فيردّ الناسُ عليه السلامَ، ثم يقعد، ويتبادرُ المؤذِّنونَ برفعِ أصواتِهم بالأذان.

وهنا تُركَّزُ على جانبي المنبرِ رايتانِ سوداوانِ يُمسكهما مؤذِّنانِ ريثما توضعانِ في حلقتين بخشبِ المنبرِ أُعدَّتا لذلك، فإذا انتهى من الخطبةِ وأدّى الصلاةَ، عمدَ المؤذِّنان إلى الرايتيْنِ فحملاهما، وتقدَّمَ آخرُ فجعلَ يُفرقعُ بالسوطِ أمامَ الخطيبِ وهو سائرٌ يستظلُّ بالرايتين، حتى يصلَ إلى الحجرة، فيكونُ ذلك إيذاناً بانتهاءِ الموقف.

هذا ما ذكرهُ (ابنُ جبير) عن مراسمِ الاستقبالِ والتوديع، وكنّا نودُّ أنْ يوجز لنا موضوعَ الخطبة، وأيَّ الأغراضِ تناولتْ، لنعرفَ درجةَ البيانِ عندَ القائل، ولكنَّه لم يفعل.

٣٧٧ ـ الخطيب الغلام

كان من عادةِ المكِّيينَ أنْ يجعلوا ليْلاتِ العشرِ الأخيرِ من رمضانَ مناسبةً للاحتفالِ بمن حفظَ (القرآن) من الصبيان، وفي هذه المناسبةِ يحتفلُ الوالدُ بابنهِ احتفالاً كبيراً في الحرمِ المكِّيِّ.

وقد شاهدَ (ابنُ جبير) بعضَ هذه الاحتفالات، فرأى ثُريَّاتٍ كبيرةٍ من الشمعِ أضاءتْ حولَ أنواعٍ كثيرةٍ من أطايبِ الفاكهةِ، من رطبةٍ ويابسة، ثم وُضعَ وسطَ الحرمِ محرابٌ أُقيمَ على أربعةِ أعمدة، تتدلّى منه المصابيحُ المُسْرَجةُ، وتُحاطُ دائرتهُ بمساميرَ مدبَّبةِ الأطرافِ ليُغرزَ فيها الشمع، فتتوزَّعُ الأنوارُ على شكلٍ بديع، وبالقربِ من المحرابِ منبرٌ مجلَّلٌ بكسوةٍ ثمينة، وبعدَ أنْ يُعدُّ ذلك

كلّه، يحضرُ الإمامُ الطفل، فيصلّي التراويحَ ويختم، والمسجدُ يموجُ بالناسِ من حوله، ثمَّ يخرجُ من المحرابِ في أحسنِ ملبسٍ، فيستقبلُهُ سدَنةُ المسجد، ويوصّلونهُ إلى منبره، حيثُ يصعدُ عليه في وقارٍ وأناةٍ، ثم يجلسُ وأمامهُ قُرّاءٌ يبتدرون القراءةَ بلسانٍ واحد، فإذا أكملوا القدرَ المتّفقَ عليه من الكتابِ الكريم، قامَ الإمامُ الطفلُ خطيباً، فصدع بخطبته، وبين يديهِ قومٌ وقوفٌ يمسكونَ الشمعَ بأيديهم، ويرفعونَ أصواتهم بالدُّعاء، فيسكت الخطيب حتى يفرغوا من الوِردِ المقرَّر، ثم يعودُ إلى الخطبةِ ثانياً، مشيراً إلى البيتِ العتيقِ عندَ وُرودِ ذكرهِ في الخطبة، وينزلُ بعدَ الانتهاءِ ليتناولَ الطعامَ والحلوى والفاكهةَ ممَّا أُعدَّ على نحوٍ متَّسع، ووالدُ الخطيبِ مبْتهج، وقد أنفقَ عن سخاءٍ وكرم، وذلك قليلٌ في جانبِ الاعترافِ بابنهِ حافظاً لكتابِ الله، وإماماً يؤمُّ الناسَ في المحراب، ويُصلّي بهمُ التراويح، ثمَّ خطيباً يصدعُ بالوعظِ المؤثّر، وهذا المشهدُ يتكرّرُ كلَّ ليلةٍ من الليالي العشر، وكلَّ ليلةٍ لا تقلُّ عن الأخرى فخامةً وكرماً وتسبيحاً وقراءة، وهذا ممَّا اختصَّ به البيتُ الحرامُ في هذه الأيامِ السعيدةِ من رمضان!.

٣٧٨ ـ الخطيب الدعيّ

مِنَ الخطباءِ من يتَّخذُ من المواقفِ ما لا يُرضي الخُلقَ الكريم، وقد شاهدَ (ابنُ جبير) في (المسجدِ النبوي) بالمدينةِ المنوَّرةِ موقفاً آلمه، إذ صعدَ الخطيبُ على المنبرِ ليُلقي كلمته، فتقدَّمَ إلى مقامهِ بين الراياتِ السود، وانتهى من الخطبةِ الأولى فجلس، لينظرَ إلى جماعةٍ من الخدمِ يخترقون الصُّفوف، ويتخطَّوْنَ الرقاب، طالبينَ الأجر، وهم لم يفْعلوا ما يُؤجرون عليه، والحاضرونَ يعرفون ذلك، فمنهم من يطرحُ لهمُ الثوبَ النفيسَ من الحرير، ومنهم من يخلعُ عمامتهُ فيهديها، ومنهم من يتجرَّدُ عن ثوبهِ فيلقي به، ومنهم من لا يسمحُ حالُه بهذه النفائس، فيهدي ما في طوقهِ مهما صغر، وكثيرٌ منهم يمدُّ يدهُ بالدينارِ والدينارين، ومن النساءِ من تطرحُ حلي لها وتُخرجُ خاتمها فتُلقيهِ إنْ طوعاً وإنْ كرهاً، والخطيبُ في أثناءِ ذلك يرمُقُ أتباعهُ المستجدينَ بلحظاتٍ كريهة، وكأنَّه يحثُّ الناس على البذلِ إلى أنْ كادت المدةُ تنقضي بدونِ صلاة، وقد ضجَّ من ضجّ من هذه الأفعالِ

الموبقة، وظهرَ في وجوههمُ الإنكار، والخطيبُ مُتلمِّظٌ يدورُ بعينه، وقد أراقَ عن وجههِ ماءَ الحياء، فاجتمعَ له من هذا السحتِ شيءٌ عظيم، قلَّما أرضاه، وبلغَ مُبْتغاه، قامَ وأكملَ الخطبةَ وصلَّى بالناس، وانصرفَ العقلاءُ باكينَ على الدين، يائسينَ من صلاحِ الدنيا، وكأنَّهم شاهدوا علاماتِ الساعةِ ولله الأمر.

أقـول: إذا كان هـؤلاءِ العقلاء قد كرهـوا هذا التسـوُّلَ الكريه، فلمـاذا لا يرفعونَ أصواتهم بالاحتجاج، ولماذا لا يقابَلُ الخطيبُ بالنكران، ويُنزعُ من مجلسهِ الذي أخلَّ بشرفه! إنَّنا في كلِّ زمانٍ نفقدُ الرأيَ العامَّ الجريء.

٣٧٩ ـ يوم خاص بالنساء

يقول (ابنُ جبير): إنَّ يومَ التاسعِ والعشرينَ من رجب يُجعلُ خاصّاً بالنساء، فلا يدخل البيتَ من الرجالِ غيـر السَّـدنةِ من بني شـيبة، فيجتمعُ النسـوةُ من كلِّ صوب، ولا تبقى امرأةٌ بمكَّةَ إلاّ وقد جاءتْ تنتظرُ الدخولَ أمامَ الباب قبلَ أنْ يُفتح، فإذا تمَّ ذلك سالتِ الأفواجُ كموجِ البحر، وتسلسل النساءُ بعضهنَّ ببعض وتشـابكن، وقد تقعُ إحداهـنَّ ـ وكثيراً ما يحدث ـ فتصيحُ مولولـة، ومكبِّـرةً ومهلِّلة، وقد دُمْنَ على ذلك صدراً من النهار يطفْنَ بالكعبةِ، ويلْثمنَ الحجرَ في شوق، وللزحامِ رهبةٌ لا تتصوَّر، وهذا اليوم عندَ النساءِ يومُ عيد، فهُنَّ مع الرجالِ مغبوناتٌ مسكينات، وفي الأيامِ الأخرى كنَّ يريْن البيتَ الكريم، ولا يستطعن الدخـول، ويلْحظنَ الحجرَ المباركَ ولا يستلمنه، وحظُّهنَّ من ذلك الأسـفُ الشديد، وقصارى أمرهنَّ الطوافُ على البعد، وهذا اليوم ـ يومُ التاسعِ والعشرينَ من رجب ـ هو اليومُ الخاصُّ بهنَّ، فهنَّ يرتقبْنه ارتقابَ الأملِ العزيز، ويُكْثرْنَ من التأهُّبِ والاستعدادِ له، والله ينفعهنَّ في ذلك! وكان هذا في عهدِ ابنِ جبير أمَّا الآنَ فالحالُ غير الحال.

٣٨٠ ـ في أكناف العراق

تحدَّثَ (ابـنُ جبير) عن بغدادَ حديثاً ناقداً، فأهلها في رأيـه يتصنَّعونَ

التواضعَ رياءً، ويزدرونَ الغرباء، ويظهرونَ أنّهم فوقهم، والواحدُ منهم يتصوَّرُ أنَّ الوجـودَ كلَّه يصغرُ بالنسـبةِ لبلده، كأنَّهم لا يعتقدونَ أنَّ للهِ عباداً سـواهم، يسحبونَ أذيالهم بطراً، ولا يغيّرونَ في ذاتِ الله منكراً.

ويهُمنا هنا حديثُ الوعظِ الخطابي، حيثُ اهتمَّ الرَّحالةُ بمجالسِ الإرشادِ والتذكير، واستحسنَ منها مجالسَ معدودة، منها مجلسا الإمامِ (رضيِّ الدين القزويني) و(أبي الفرج الجوزي).

أمَّا عن (القزويني) فقد قال الرحالةُ عنه: إنَّه رئيسُ الشافعيةِ في عصره، ومجلسه الوعظيُّ بعدَ صلاةِ العصرِ من يومِ الجمعة، وقد قدِمَ فصعدَ المنبر، وأخذ القرّاءُ أمامهُ يتلون كتابَ الله على كراسيّ أُعدتْ لذلك، فأتوا بتلاحينَ مطربة، ونغماتٍ معجِبة، ثم نهضَ الإمامُ القزويني فخطبَ في سكونٍ ووقار، وتصرَّف في أفانينَ من العلومِ أكثرها من تفسيرِ كتابِ الله عزَّ وجلّ، وحديثِ الرسولِ الكريم ﷺ، ثم توالتْ عليهِ الأسئلةُ من كلِّ جانب، فأجابَ وما قصَّر، ودُفعتْ إليهِ عِدَّةُ رقاعٍ منها، فجمعها في يـده، وجعلَ يُجيبُ على كلِّ رقعة، إلى أنْ فرغَ من جميعِ ما بيده، وقد سَرَتْ حُميّا وعظِهِ إلى النفوس حتى أطارتها خشوعاً، وفجَّرتها دموعاً، وبادرَ التائبونَ إليهِ سقوطاً على يدهِ وقوعاً، فكم ناصيةٍ جُزَّت، وكم زفراتٍ تصاعدتْ، وشهقاتٍ توالتْ، يقولُ ابنُ جبير: «فبمثلِ مقامِ هذا الشيخ المباركِ تُرحم العصاة، وتُتغمَّدُ الجناة، وتُستدامُ العصمةُ والنجاة».

٣٨١ـ أبو الفرج الجوزي

أطنبَ ابنُ جبير في وصفِ عظمةِ (أبي الفضائل علي بن الجوزي) إطناباً محمـوداً، وذكرَ أنَّ من أبهرِ آيـاتهِ أنَّهُ يصعدُ إلى المنبرِ، ويبتدئ القرَّاءُ بالقرآن، وعددُهم ينيفُ على العشرين، فلا يزالون يتناوبونَ آياتٍ من سورٍ مختلفاتٍ إلى أنْ يفرغـوا، وهنا يأخـذُ هذا الإمامُ الغريبُ الشـأنِ في إيرادِ خطبتهِ عَجِلاً مبْتدراً، ويشرحُ الآياتِ حسبَ ترتيبها في القراءةِ لا مقدّماً ولا مؤخّراً، ثم يكملُ الخطبةَ على قافيةِ آخرِ آيةٍ ممَّا قُرئ، ونحنُ نعجبُ من هذا الارتجالِ البديع، ثم بعدَ الفراغِ

من شرحِ الآيات، يأتي برقائقَ من الوعظ، وآياتٍ بيِّناتٍ من الذكر، تطيرُ لها القلوبُ اشتياقاً، وتذوبُ الأنفسُ احتراقاً، ثم يعلو الضجيجُ، وتتصاعدُ الشهقات، ويأتي التائبونَ فيتساقطونَ على الأستاذِ تساقطَ الفراشِ على المصباح، كلٌّ يُلقي بناصيته، فيجزها، ويمسحُ على رأسهِ داعياً له، ومنهم من يُغشى عليه، فيُرفعُ في الأذرع.

يقول ابن جبير: «فشاهدنا هؤلاً يملأُ النفوسَ إنابةً وندامة، ويُذكِّرُ بأهوالِ يومِ القيامة، فلو لم نركب ثبجَ البحر، ونعتسفَ مفازاتِ القفر، إلاّ لمشاهدةِ مجلسٍ من مجالسِ هذا الرجل، لكانت الصفقةُ الرابحة، والوُجهةُ المفلِحة، والحمدُ لله على أنْ منَّ بلقاءِ من يشهدُ الحجازُ بفضله، ويضيقُ الوجودُ عن مثله، وفي أثناءِ مجلسهِ يبتدرونَ المسائل، وتطيرُ الرقاع، فيجاوبُ عليها أسرعَ من طرفةِ عين، والفضلُ بيدِ الله، يؤتيهِ من يشاء».

ولابنِ الجوزي كتابُ (صيدُ الخاطر) وهو اعترافاتٌ صادقةٌ كأحسنِ ماقرأنا في هذا الباب، وقد قال عن نفسه: «وقد تابَ على يدي في مجالسِ الذكرِ أكثر من مئتي ألف، وأسلمَ على يدي أكثر من مئتي نفس، وكم سالتْ عينُ متجبِّرٍ بوعظي لم تكنْ لتسيل»، وهذا ليسَ بفخرٍ، ولكنَّهُ تسجيلٌ لما حصلَ وشوهدَ، وقد حضرَ ابنُ جبيرٍ بعضَ هذه المجالس، فجاءَ بما يُصدِّقُ هذه الاعترافات.

إنَّ للخُطبِ روعتها، وللوعظِ هيبتُه، وقد حسبَ بعضُ الناسِ أنَّه أهلٌ لذلك، فتصدَّى لغير ما يُحسِنُ فنفرَ منه السامعون، وأخذ يلومهم لهجرهم حديثَ الدعوة، وأَوْلى أنْ يلومَ نفسه، لأنَّه سعى إلى الهيجاءِ بغيرِ سلاح.

* * *

ابن بطوطة ومشاهد الكرم

٣٨٢ ـ مقدمة

كُتُبُ الرحلاتِ في التراثِ العربي، هي التي تُصوِّرُ النواحي الاجتماعية التي لم تهتمَّ بها كتبُ التاريخِ السياسي، مع أنَّها هي التاريخُ الحقيقي للشعوب، وقد كانت (رحلةُ ابنِ بطُّوطة) في الطليعةِ من الرحلاتِ العربيةِ التي كشفتِ النقابَ عن تيَّاراتٍ شتّى في المجتمع الإسلامي جميعه، ولا أتحدَّثُ عن رأيي مُزكِّياً هذه الرحلةَ العجيبة، ولكني أَنقلُ ما قالهُ السائحُ الأوروبيُّ الكبيرُ (سيتزن) عن هذه الرحلة، حيثُ ذكرَ متسائلاً؟ «أيوجدُ سائحٌ أوروبي يفتخرُ بمثلِ ما قدَّمهُ ابن بطُّوطةَ للأجيالِ المتتابعة؟ هل كان في وِسعِ أُمَّةٍ أوروبيَّةٍ منذُ خمسةِ قرونٍ أنْ تجدَ من أبنائها من يجوبُ بلادَ العالم، وهو على مقدرةٍ من استقلالِ الحكم، والقدرةِ على الملاحظة، والدقَّة في الكتابةِ مما توفَّرَ لدى ابنِ بطوطة»! وهو اعترافٌ من رحالةٍ محايد، صدرَ عن نزاهةٍ واقتناع.

على أنَّ الذين يقولون: إنَّ الديمقراطية قد تقدَّمتْ في هذا العصرِ بما لم تتقدَّمْ به في عصر ابنِ بطوطة يجبُ أنْ يُجيبوا على هذا السؤال، هل يمكنُ لرحَّالةٍ معاصرٍ الآنَ أنْ يذهبَ إلى بلدٍ لا يعرفُ لغته، ويجدُ من استقبالِ الملوكِ والوزراءِ والحكَّامِ ما وجدهُ ابنُ بطوطة، وهو شخصٌ غريب، ليس سفيراً سياسيَّاً، أو أميراً في موطنه! ولكنَّه وجدَ من سرعةِ الاتّصالِ والجلوسِ مع الملوكِ ما لا يُتاحُ الآنَ لأيِّ رحالـة، إلاّ إذا كان ذا وضع سياسيٍّ كبير، فالمساواةُ من قبلُ قد وجدتْ تنفيذها العملي قبلَ أنْ يتشدَّقَ بها الآنَ من يجعلون الحضارةَ الأوروبيَّةَ أساسَ هذهِ المساواة! مع أنَّ الإسلامَ قد شرعها منذُ خمسةَ عشرَ قرناً كما هو معروفٌ دونَ إنكار.

٣٨٣ ـ معاني الكرم والإحسان

حينَ قرأتُ (رحلةَ ابنِ بطّوطة) وضعتُ لها فِهْرِساً يضمُّ النظائرَ والأشباهَ تحتَ عنوانٍ واحد، ومن هذهِ النظائرَ ما شهدهُ الرحالةُ من مظاهرِ الكرمِ الحقيقي في دورِ التعليم، وفي دورِ الضيافة، وفي مجالسِ الملوكِ والأمراء، بلْ في البيوتِ العامَّة للفقراءِ ممن لا يكادونَ يملكونَ أكثرَ من قوتِ اليوم، وسأعرضُ الآنَ طائفةً من هذهِ النماذج كما سجَّلها الرحَّالةُ الحصيف.

ففي مصر ذكرَ ما شاهدهُ من الزوايا التعليميَّةِ التي أُعدَّتْ لمن يشاءُ تلقِّي العلمَ من الناسِ فقال: وكلُّ زاويةٍ بمصرَ تختصُّ بطائفةٍ من الفقراء، وأكثرُهم من الأعاجمِ الوافدين، ولها شيخٌ وحارس، ومِن عاداتهم أنْ يأتي خادمُ الزاويةِ إلى الطلاب، فيسألَ كلَّ واحدٍ عمَّا يشتهيه، فإذا اجتمعوا للأكلِ جعلوا لكلِّ إنسانٍ خبزهُ ومرقهُ في إناءٍ على حدة، لا يُشاركه فيه أحد، وطعامهم مرَّتانِ في اليوم، ولهم كسوةٌ في الشتاءِ وكسوةٌ في الصيف، ومرتَّبٌ شهريٌّ من المال، ولهم الحلوى من السكَّرِ كلَّ ليلةِ جمعة، والصابونُ لغسيلِ أثوابهم، والآجرّة لدخولِ الحمَّام، والزيتُ للاستصباح، وأكثرهم عُزّاب، وللمتزوجينَ زوايا على حدة [ونحنُ الآنَ في المُدنِ الجامعية لا نقْبلُ المتزوجين] ومن المُشترطِ عليهم حضورُ الصلواتِ الخمس، واجتماعهم بالقُبَّة داخلَ الزاوية، فيجلسُ كلُّ إنسانٍ على سجادةٍ خاصةٍ به، ويقرؤونَ القرآنَ في أجزاءٍ من المصحفِ الشريفِ توزَّعُ عليهم، وإذا أتى قادمٌ من بلدٍ بعيد، يقفُ على الباب، فيراهُ خادمُ الزاوية، فيخرج إليه، ويسألهُ عن بلدهِ التي قدمَ منها ومن شيخهُ هناك؟ فإذا عرفَ صحَّةَ قولهِ أدْخلهُ الزاوية، وفرشَ له السجَّادةَ في موضعٍ يليقُ به، وأراهُ موضعَ الطهارة، فيجدّد الوضوءَ، ويصلِّي ركعتين، ويصافحُ الشيخَ وزملاءهُ المقيمين، ثم يجلسُ معهم، وقد انتظمَ انتظامهم، فلم يَعدْ بالغريب.

٣٨٤ ـ أصحاب الفتوة

الفتوّةُ الإسلاميةُ أصلٌ من أصولِ المجتمعِ الإسلامي، وتُنْسبُ في مبدئها

إلى الإمامِ (علي بن أبي طالب) لأنَّه المثلُ الأعلى في الشجاعةِ والكرمِ معاً وهما عمادُ الفتوَّة، لذلك ضُربَ المثلُ به، فقيل:

لا سيفَ إلاّ ذو الفقارِ ولا فتىً إلاّ علي

وقد وجدَ (ابنُ بطُوطة) في رحلتهِ إلى تركية ويُسمِّيها البلاد الروميّة، في كلِّ بلد، وفي كلِّ قريةٍ مكاناً خاصّاً بالغرباء، ويُعَدُّ لهم فينامونَ ويأكلونَ ويلبسون، ابتغاءَ وجهِ الشهامةِ والمروءة، ويتضايقونَ حينَ لم يجدوا ضيفاً في يومٍ ما، فيجتمعونَ للأكلِ معاً، وهم يذكرونَ القرآنَ، ويطربونَ بالغناءِ والذكر، يقولُ ابنُ بطُوطة: «فلمَّا صلّيتُ المغربَ عادَ إلي الرجلِ (وقد تحدَّثَ بأنَّه عرفه من قبل) فذهبتُ معه إلى زاويته، فوجدناها زاويةً حسنةً، مفروشةً بالبُسطِ الروميةِ الحسان، وبها الكثيرُ من الثريَّاتِ العراقية، وخمسةٌ من السرجِ الكبيرةِ ذاتِ الضياءِ البرَّاق، وقد اصطفَّ بالمجلسِ جماعةٌ من الشبان، ولباسُهم الأقبية، وفي أرجلهم الأخفاف، وكلُّ واحدٍ منهم متحزِّم، وفي وسطهِ سكِّين، وعلى رؤوسهم القلانس البيضاء، فإذا استقرَّ بهمُ المجلسُ أُتوا بالطعامِ الكثير، والفاكهةِ والحلواء، وبعدَ ذلك يأخذونَ في الغناءِ والرقصِ (يريدُ حفلاتِ الذكر) وطالَ عجبي لسماحتهم، وكرمِ نفوسهم».

والغريبُ أنَّ الرجلَ الذي عرفَ (ابنُ بطُوطة) أولاً، وكلَّمهُ بالتُّركيَّة التي لا يعرفها الرَّحالة، لم يكنْ موضعَ اعتبارِ (ابنِ بطُوطة) نظراً لتواضع ملبسه، ولذلكَ تأفَّفَ منه حينَ دعاهُ للزاوية، وقال: هذا رجلٌ مسكينٌ فكيفَ يُضيّفُ الغرباء؟ ولكنَّ أحدَ الحاضرينَ ضحكَ من قولِ الرَّحالةِ وقال له: هذا أحدُ الفتيان، وهو من الخرَّازين (صنَّاع الأحذية) وفيه كرمُ نفس، وأصحابهُ الذينَ معهُ أكثر من مئتي صانع، وكلّهم يشتركون في ضيافةِ الغريبِ والاحتفالِ به، ولهم زاويةٌ كبيرةٌ للضيافة، ينفقونَ عليها بالليلِ ما يكسبونهُ من العملِ بالنَّهار!!

على أنَّ بلادَ الرومِ لم تكن الوحيدةَ في هذا المجالِ الأخويِّ، فقد قال (ابنُ بطُوطة): إنَّه لم يرَ في الدنيا أجملَ فعالاً من التُّرك، ويُشبههم في ذلك أهلُ شيرازَ وأصفهان، إلاّ أنَّ هؤلاءِ أكرمُ وأشفق.

٣٨٥ ـ وفي الصومال

تحدَّثَ (ابنُ بطُّوطة) عن سلطانِ (كلْوا) من بلادِ الصومال، فقال: إنَّه كثيرُ الغزوِ في سبيلِ الله، ويأخذُ الغنائمَ فيصرفها حسبَ الشريعةِ الإسلامية، ويجيئه الكثيرونَ من شتَّى البلادِ القاصيةِ فيعطيهم سهمَ ابنِ السبيل، وهذا السلطانُ به تواضعٌ شديدٌ، ويجلسُ مع الفقراء، ويأكل معهم، ويُعظِّم أهلَ الدينِ والشرف.

حضرتُه يومَ جمعة، وقد خرجَ من المسجدِ قاصداً منزله، فتعرَّضَ له أحدُ الفقراء الغرباء من اليمن، فقال له: يا أبا المواهب، فقال: لبَّيك، فسلْ حاجتكَ، فقال: أعطني هذه الثياب التي تلبسها، فقال: نعم أعطيكها، فقال اليمني: السَّاعة، فقال: نعم الساعة، ورجعَ إلى المسجد، فدخلَ بيتَ الخطيب، ولبسَ ثياباً سواها، وخلعَ ما عليهِ من الثياب، وقال للرجل: ادخلْ فخذها، ففعل، ورأى الناسُ ذلك، فعَظُمَ شُكرهم للسلطانِ على ما بدرَ من تواضعهِ وكرمه، وبلغَ ابنُ السلطانِ ذلك، فذهبَ لليمني، وطلبَ الكسوةَ على أنْ يأخذَ مكانها عشرةً من العبيد، فلمَّا علمَ السلطانُ بذلك دعا اليمني، فقال له: ولك زيادةٌ عن العبيدِ مثلهم وحِمْلانِ من العاج.

ولمَّا توفِّيَ هذا السلطان، وُلِّيَ أخوهُ (داود) فكان على الضدِّ منه، وإذا جاءهُ سائلٌ يرجو الصدقةَ قال له: ماتَ الذي كان يُعطي ولم يتركْ بعدهُ ما نعطيه، وقد تُقيمُ الوفودُ عندهُ طويلاً فلا يُعطيهم غيرَ القليل، حتى انقطعَ الناسُ عن بابه.

٣٨٦ ـ مظاهر الأبَّهة والثراء

وما أكثرَ ما وصفَ (ابنُ بطُّوطة) مظاهرَ الأُبَّهةِ والثراءِ لدى السلاطينِ والملوك، وقد أسهبَ كثيراً فيما شاهدهُ لدى السلطانِ المُعظَّم (أوزبك خان) فتحدَّثَ في صفحاتٍ كثيرةٍ عن مراسيمِ استقبالهِ للناس، وجلوسهِ في المشهدِ العام، ومما قاله: إنَّ من عادتهِ أنْ يجلسَ يومَ الجمعةِ بعدَ الصلاةِ في قبَّةٍ من الذهب، وفي وسطها سريرٌ مكسوٌّ بصفائحِ الفضَّةِ المذهَّبة، وقوائمهُ فضَّةٌ خالصة، رؤوسها مرصَّعةٌ بالجواهر، ويجلسُ على السرير، وعلى جانبيهِ زوجاتهُ الأربع، وتُلقَّبُ

الزوجةُ (بخاتون) وقد نصبت كراسيّ عن الشمالِ واليمين، جلسَ فوقها أبناءُ الملـوكِ والأمراءِ الكبار، ثم الأمراء الصغار، وأتى بالطعامِ على موائدِ الذهبِ والفضة، وكلُّ مائدةٍ يحملها أربعةُ رجال، وأكثر من ذلك، وطعامهم لحومُ الخيل، والغنمِ المسلوقة، وتُوضعُ بين يدي كلِّ أميرٍ مائدةٌ، ويأتي مُقطِّعُ اللحم، وعليهِ ثيابٌ من حرير، وقد رُبطَ عليها فوطةُ حرير، وفي حزامهِ جملةُ سكاكين في أغمادها، فإذا قدمت المائدة، قعدَ مقطِّعُ اللحم بينَ يدي أميره، ويُؤتى بصفحة صغيرةٍ من الذهب، وفيها ملحٌ محلولٌ بالماء، فتُقطِّعُ اللحومُ قِطعاً صغاراً، ولهم صنعةٌ دقيقـةٌ في قطْعِ اللحمِ مختلطاً بالعظمِ.

ثم يـؤتى بأواني الذهبِ والفضـةِ للشرب، وأكثرُ شُربهم من نبيذِ العسل، فإذا أرادَ السلطانُ أنْ يشربَ أخذتْ بنتهُ الأميرةُ بيديها وخدمتْ برِجْلِها (طأطأتْ إلى الأرض) وناولتْهُ القدح.

ثم تأخذُ قـدحاً آخرَ، فتناوله (الخاتـون الكبرى) فتشـربَ منه، ثم توزِّعهُ على الخواتينِ الباقيات، حسبَ ترتيبهن.

ثم يأخذُ وليُّ العهدِ القدحَ ويخدم، ويناولهُ أباه، ثم الخواتين، ثم أخته، ويخدمُ لجميعهنَّ ثم يقومُ الولد الثاني، فيأخذ القدحَ ويسقي أخاه، ويخدمُ له.

ويقومُ الأمراءُ الكبارُ متداولون سُـقيا أبناءِ الملـوكِ على نحوِ وصفهُ ابـنُ بطُّوطة في إسهاب، حتى وصلَ إلى انتهاءِ الحفل، ثم توزَّعُ المشاربُ والمآكلُ على الناسِ في عرباتٍ تحملُ الطعامَ وتمضي إلى المنازل! وأنا لا أدري أيّ كنوزٍ من الذهبِ والفضَّةِ صُنعتْ منها الأطباقُ والأسرَّةُ والأقداحُ!! ومن أينَ أتى ذلك كلّه! وكأنَّ المعدنَ زجاجٌ أو نحاس!.

٣٨٧ ـ مأدبة أخرى

أطالَ (ابنُ بطُّوطة) في وصفِ مآدبَ مماثلةً شاهدها في (الهند) و (الصين) و (فارس) و (بلاد الأفغان)، وكلّها ذات بذخٍ لا يُحدُّ، ولكنْ لم تبلغْ هذا المبلغَ من الـ..رفِ الزائد، لأنَّ الأطباقَ هنا كانت من نحاس، ولم تكنْ من الذهب والفضَّةِ

كمائدةِ سلطانِ (هَنَوْر) وهو ذو دينٍ وخلُقٍ يأتي إلى الصَّلاةِ في جماعةٍ دائماً، وبعدَ الانتهاءِ من الصَّلاة، يدعو الحاضرينَ إلى موائده، وترتيبها أنْ تحضرَ المائدةُ النحاسيَّة، وعليها صفحةٌ من نحاسٍ يسمُّونها (الطّالم) وتأتي جاريةٌ حسناءُ ملتحفةٌ بثوبٍ من حريرٍ، فتقدِّمُ صحافَ الطعامِ بين يدي الملك، ومعها مغْرفةٌ كبيرةٌ منَ النحاس، فتغرفُ بها من الأرز مغرفةً واحدةً، ثم تصبّ عليها السمن، وتجعلُ مع ذلك عناقيدُ الفلفلَ المملوح، والزنجبيلَ الأخضر، فيأكل الإنسانُ لقمةً ويُتبعها بشيءٍ من الموالح، فإذا تمَّت الغرفةُ الأولى، غرفتِ الجاريةُ غرفةً أخرى من الأرز، وأفرغتْ عليها دجاجةً مطبوخة، لتؤكلَ مع الأرز، فإذا تمَّت الغرفةُ الثانية، أفرغتْ غرفةً ثالثةً من الأرزّ، ومعها لونٌ آخرُ من الدجاج، فإذا أُكلتِ اللحومُ جاءتْ بألوانٍ من السَّمك، فإذا أُكلَ السَّمكُ جاءتْ بألوانٍ من الخضرِ مطبوخةً بالسمن، فإذا فرغَ الآكلُ من ذلك جاءهُ طبقُ اللبنِ الرائب، وبه يختمونَ طعامهم، ويُعلم مِنْ حضورهِ ألاّ شيءَ بعده.

أقول: إنَّ الطريقَةَ المتَّبعةَ اليوم في الفنادقِ الكبرى عندَ تناولِ الطعامِ حيثُ يأتي على أجزاءَ متفرِّقة، لوناً بعدَ لون، حتى تنتهي الوجبةُ! هذه الطريقة قديمة، وليستْ أوروبيَّة مستحدثةً كما رأينا.

٣٨٨ ـ ملاحظة أخيرة

هذهِ صنوفٌ من المكارمِ رآها (ابنُ بطُوطة) في أنحاءَ شتَّى من مدنِ العالمِ وممالكه، وفيما رأى موائد كثيرة في البلادِ العربيةِ لم أعرضْ لها، لأنَّ الكرمَ العربيَّ ممَّا لا خلافَ عليه، وقد توارثهُ العربُ في الجزيرةِ جيلاً عن جيل، حتى انتقلَ إلى الحيوانِ من الإنسان، وهو ما عبَّرَ عنه شاعرُ الحماسةِ بقوله عن كلبهِ المضياف:

يكـادُ إذا مـا أبصـرَ الضيـفَ مُقبِـلاً ... يُكلِّمُــه مِــنْ حُبِّــهِ وهــو أعْجَــمُ

* * *

مناظرات علمية

٣٨٩ ـ مقدمة

حضرنا في الثلاثينياتِ والأربعينياتِ كثيراً من المناظراتِ الأدبيَّةِ والاجتماعيةِ بالجامعةِ المصريَّة، وقاعةُ (يُورث) بالجامعةِ الأمريكيَّةِ بالقاهرة، فكان لها دويٌّ كبير، وجمهورٌ يتعهَّدُها بالحضورِ الدائم، ولا أدري لماذا خَبتْ جذوةُ هذهِ الندواتِ الفكرية، وهي ضروريةٌ جداً في هذا الزمنِ الذي انتشرتْ فيهِ وسائلُ اللَّهو، فانصرفَ الناسُ عن العلمِ والكتابِ إلى المسلسلاتِ الهابطة، وأشرطةِ (الكاست) وملاهي (الفيدْيو) وألعابِ الكرة، ممَّا لا نفْعَ وراءهُ غير ما يجني التبذُّل والإسفاف.

وللمناظراتِ في التراثِ الإسلاميِّ تاريخٌ أيُّ تاريخ، حيثُ ازدهرتْ في العصرِ العبَّاسيِّ حينَ انتشرتْ مسائلُ الكلامِ، وقام العلماءُ بالردِّ على الزنادقةِ والملحدين، ثم انتقلَ الحوارُ إلى المسائلِ الفقهيَّةِ فكانتْ تُعقدُ المناظراتُ بينَ علماءِ المذاهبِ المختلفة، وكانتْ تسيرُ على نهجٍ حميدٍ تارةً، وتنحرفُ إلى الادِّعاءِ والتهجُّمِ تارةً أخرى، ممَّا دعا الإمامَ (الغزالي) إلى عقدِ شروطٍ للمناظرةِ الصحيحة، منها:

١ ـ أنْ يكونَ المناظِرُ مُجتهداً يُفتي برأيه، ولا يتقيَّدُ بمذهبٍ كي يرجعَ للحقِّ متى اتَّضحَ له.

٢ ـ وألاّ يناظرَ إلاّ في مسألةٍ وقعتْ فعلاً أو قريبةِ الوقوع، كيْلا يتَّسعَ المجالُ للمسائلِ الفرضية التي يكثرُ فيها اللُّجاجُ دونَ جدوى.

٣ ـ وأنْ تكون في الخلوةِ على وجهِ الاستحباب، لأنَّ العددَ الكثيرَ يبعثُ المُناظرَ على التمسُّكِ برأيهِ حُبّاً للسيطرةِ والاستعلاء.

٤ ـ وأنْ يكون في طلبِ الحقِّ كناشدِ ضالَّةٍ، لا يفرِّقُ بينَ أنْ تظهرَ الضالَّةُ على يدِهِ أو يدِ غيره، ويرى مناظره زميلاً له في معركةٍ واحدةٍ لا خصماً يتحدَّاه.

٥ ـ وأنْ يناظرَ من يتوقَّعُ الاستفادةَ منه من أهلِ العلم، لا من يُحسنونَ الكلامَ المنمَّقَ دونَ تعمُّقٍ في المضمون.

وهذهِ شروطٌ جيدةٌ أضافَ إليها الإمامُ (الغزالي) شروطاً أخرى، وعدَّدَ مثالبَ المناظراتِ وآفاتها، فذكرَ منها: الحسد، والتكبُّر، والترفُّع على الناس، والخداع، والاستكبار عن الحق، والمماراةُ فيهِ مع وضوحه، والرياء.

ونشيرُ اليومَ إلى بعضِ المناظراتِ التاريخيَّةِ التي دُوِّنتْ في كتبِ العلم، وتناقلها الدارسون.

٣٩٠ ـ بين الأشعري والجبائي

نقلَ ابنُ خِلّكان في (وفيّاتِ الأعيان) مناظرةً بينَ (أبي الحسنِ الأشعريِّ) شيخُ أهلِ السُّنة، و (أبي عليٍّ الجبائي) شيخُ (المعتزلة) في مسألةِ (رعايةِ الأصلح ووجوبها على الخالق) كما يذهبُ المعتزلة، وقد عارضها (الأشعريُّ) فاتَّجهَ إلى (الجبائيّ) قائلاً:

ما رأيكَ في ثلاثةِ أخوةٍ أحدُهم كان مؤمناً بارّاً تقيّاً، والثاني كان كافِراً فاسقاً شقيّاً، والثالثُ كان صغيراً فماتوا على حالهم؟

قال الجُبّائي: أمّا المؤمنُ البارُّ التقيُّ ففي الدرجاتِ [يريدُ الجنّة]، وأما الكافرُ ففي الدركاتِ [يريدُ النارَ]، وأمّا الصغيرُ فمن أهلِ السّلامة [أي أنه لا يعذب]

فقالَ الأشعريُّ: إذا أرادَ الصغيرُ أنْ يذهبَ إلى درجاتِ التقيِّ البارِّ فهل يؤذنُ له؟

قال الجُبّائي: لا لا، لأنّه يقالُ له: إنَّ أخاكَ إنّما وصلَ إلى هذهِ الدرجاتِ بسببِ طاعاتِهِ الكثيرة، وأنتَ لم تكنْ مثله.

قال الأشعري: فإنْ قالَ الصغيرُ: التقصيرُ يا ربِّ ليسَ مني، فإنِّي لم أعشْ حتى أُطيعَ وأعملَ الصالحات، فبماذا يردُّ عليه؟

قال الجُبّائي: يقولُ لهُ الباري جلَّ وعلا، كنتُ أعلمُ أنَّكَ لو بقيتَ لعصيتَ وصرْتَ مستحقّاً للعذاب، فراعيتُ مصلحتكَ ومتَّ صغيراً.

قال الأشعري: فإنْ قال الكافرُ الذي دخلَ جهنَّمَ: يا ربِّ! وإنَّكَ كما علمتَ حالَ أخي الصغيرَ علمتَ حالي، فلِمَ لمْ أمتْ صغيراً حتى أتجنَّبَ العذاب! ولِمَ راعيْتَ مصلحتَه ولمْ تُراعِ مصلحتي؟

قال الجُبَّائي [منفعلاً] إنَّكَ مجنون!

فقالَ الأشعري: لا، بلْ «وقفَ حمارُ الشيخِ في العقبة»، وسكتَ الجُبَّائي دونَ ردّ.

قالَ ابنُ خِلّكانِ تعليقاً على هذهِ المناظرة: وهذهِ المناظرةُ دالَّةٌ على أنَّ الله عزَّ وجلّ خصَّ من شاءَ برحمتهِ، وأنَّ فعالَه غيرُ معلَّلةٍ بشيءٍ من الأغراض.

٣٩١ ـ مناظرة نحوية

اشتهرت مناظرةُ (سيبويه) مع (الكسائي) في مجلسِ (يحيى بن خالد البرمكي) اشتهاراً كبيراً، حتى أُلِّفتْ فيها الكتب، ونُظمتْ فيها القصائدُ، لأنَّ التدليسَ والزُّوْرَ قد وقفا دونَ الاتِّصاف، وسأروي موجزَ خبرها كما ذكرهُ أستاذنا الشيخ (محمد الطنطاوي) في كتابهِ (نشأةُ النحو) حيثُ قال:

طمحتْ نفسُ (سيبويه) إلى الشخوصِ إلى (بغداد) أملاً في الحظوةِ لدى الخلفاء، فارتحلَ إليها، وما يدْري ما خبَّأهُ الغيْبُ له، فرُبَّ ساعٍ لحتفهِ، كما قال الشاعر:

والمرءُ قد يرجو الرَّجاءَ مؤمِّلاً والموتُ دونه!

ونزلَ ضيفاً عندَ (يحيى بن خالد البرمكي) وزيرِ (هارون الرشيد) فاعتزمَ

يحيى الجمعَ بينه وبينَ الكسائي، بعدَ أنْ عرَّفَ الرشيدَ جليَّةَ الأمر، وعيَّنَ يوماً للمناظرة، فحضرَ (سيبويه) أوّلاً، وتلاقى مع الفرَّاءِ والأحمرِ تلميذي الكسائي، فسألوه، وجعلا يُخطِّئانهِ في الإجابةِ، وأغلظا له القول، فقالَ لهما: لستُ أُكلِّمكما حتى يحضرَ صاحبكما، يعني شيخهما الكسائي.

وجاءَ (الكسائي)، فغصَّتِ الدارُ بالحضورِ على مشهدٍ من يحيى وابنه جعفر، وبدأ الكسائي الحديثَ فقالَ لسيبويه: تسألني أو أسألك.

فقالَ سيبويه: سلْ أنتَ.

فقالَ له: هلْ يقالُ: كنتُ أظنُّ العقربَ أشدَّ لسعةً من الزنبورِ فإذا هو هي أو يقالُ: فإذا هو إيَّاها.

فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوزُ النصبُ.

فسألهُ عن أمثالِ ذلكَ مثلَ: خرجتُ فإذا عبد الله القائمُ أو القائمَ.

فقالَ: كلُّه بالرفعِ.

واحتدمَ الخلافُ بينهما طويلاً، فقالَ يحيى: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمنْ يحكمُ بينكما؟

فقالَ الكسائي: هؤلاءِ همُ الأعرابُ ببابك، وفدتْ عليكَ من كلِّ صقع، يُحضَرون ويُسألون.

فقال يحيى: لقدْ أنصفت، واستدعاهم، فتابعوا الكسائيَّ.

فأقبلَ الكسائي على سيبويه وقالَ له: قد تسمعُ أيُّها الرجل، فاستكانَ سيبويه، وانقبضَ خاطِرُه.

فقالَ الكسائيُّ ليحيى: أصلحَ الله الوزير، إنَّه قدمَ إليكَ راغباً، فإنْ شئتَ ألّا تردَّهُ خائباً، فرقَّ له يحيى وجبرَ كسره، فخرجَ من بغداد، وتوجَّهَ إلى فارس يتوارى منَ الناسِ من سوءِ ما لحقه، ولمْ يقدرْ أنْ يعودَ إلى البصرة، وكانَ إمامها دونَ منازع، فماتَ غمّاً بفارس في ريعانِ شبابه، وقالَ في احتضارهِ متمثِّلاً:

يؤمِّلُ دنيا لتبقى لهُ ... فوافى المنيَّةَ دونَ الأمل

ويرى جمهرةُ العلماءِ أنَّ السياسةَ قد لعبتْ دوراً كبيراً في هذا الموقف، إذ تُصوِّرُ الأمرَ على أنَّه حُكْمٌ بين البصرةِ وبغداد لا بينَ سيبويه والكسائي، وماوافقتِ العربُ الكسائيَّ إلاّ لعلمهم أنَّه ذو حَظْوةٍ عندَ الرشيدِ وحاشيته، وهمْ على يقينٍ أنَّ الحقَّ مع سيبويه، على أنَّه رُويَ أنَّهم قالوا ذلكَ بإيعازٍ من رجالِ الدولة، ولذلكَ طلبَ سيبويه أمرهم بالنطقِ بها، لكنَّه لم يُستمع إليه، يقولُ العلاَّمةُ الشيخُ (محمد الطنطاوي): «وبعدُ، فإنَّ الحقَّ مع سيبويه، والقرآنُ الكريمُ أصدقُ شاهدٍ له، إذ يقولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨]، ولو ثبتَ النصبُ لكانَ خارجاً عن القياسِ واستعمالِ الفصحاء، ولذا تحمَّل النحويونَ للنصبِ التأويل على أوجهٍ، رُدَّتْ عليهم.

وفي كتابِ (نفح الطيب) للمقري فصلٌ خاصٌّ بهذهِ المسألة، وما قيلَ فيها تكلُّفاً وتعنُّتاً والردّ على ذلك».

أقول: ما كنتُ أظنُّ أنَّ الخلافَ في إعرابِ كلمةٍ يكونُ هو وحدَهُ مجالَ المناظرة، وموضع الترجيح، كانَ الأجدرُ أنْ تُثارَ مسألةٌ نحويةٌ ذات أصلٍ وفروعٍ واستشهادٍ، ليُدلي كلُّ إمامٍ برأيهِ في إسهابٍ وإشباع، ومعهُ الدليلُ منَ النصوصِ العربيَّةِ المعترفِ بها، أمَّا أنْ يكونَ النقاشُ في كلمةٍ واحدةٍ، ثمَّ يكونُ الأعرابُ وحدهم الحكم، وهم مُدلِّسونَ مموِّهون، فهذا ما يُستغربُ حدوثُهُ في مجلسِ (يحيى بن خالد)، ولكنَّ المؤامرةَ قد دبِّرتْ بليل، إنْ كانت كما يقولُ الرواة.

٣٩٢ ـ مناظرة كلامية

اشتدَّ الخلافُ في مسألةِ (خلقِ القرآن) وتورَّطِ (المأمون) و (المعتصم) و(الواثق) في تعذيبِ كبارِ الفقهاءِ وسجنهم، ومنهم من قُتِلَ مظلوماً، حتى عمَّ الخطب، وهي جريرةٌ أليمةٌ ما كان للمأمونِ أنْ يقعَ فيها، وهو المنادي بحرِّيةِ الرأي. ولكنَّ تأثيرَ المعتزلةِ عليهِ كانَ شديداً.

وكانَ من عادتهِ ومَنْ جاءَ بعدهُ أنْ يعقدوا مجلساً للمناقشةِ يتصدَّره (أحمدُ

ابنُ أبي دُؤاد) ليناقشَ من يُنكرُ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ، ثمَّ يحكمُ عليهِ ظلماً دونَ حق، وفي مجلسٍ من هذهِ المجالسِ المستكبرة، جلسَ (أحمدُ بن أبي دُؤاد) في حضرةِ (الواثقِ بالله) ليناقشَ عالماً لمْ يذكرِ التاريخُ اسمه، ولكنْ قيلَ إنَّه شيخٌ مهيبٌ صمَّمَ على أنْ يُجابهَ الباطلَ مستشهداً دونَ حذر، فتقدَّمَ عاليَ الرأسِ إلى ابن أبي دُؤاد.

فقالَ له: ما تقولُ في القرآنِ يا شيخ؟

فردَّ الشيخُ في نبرةٍ عاليةٍ: دعني أسألُكَ أنتَ قبلَ أنْ تسألني، هلْ كتمَ محمَّد ﷺ شيئاً منَ الرسالة؟

قال أحمد: لا لمْ يكتمْ شيئاً.

قالَ الشيخُ: أتحفظُ قولَ الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال: نعم.

قال الشيخُ: هلْ دعا رسولُ الله ﷺ إلى القولِ بخلقِ القرآنِ مع أنَّه لمْ يكتمْ شيئاً؟

قالَ أحمد: لمْ يدعُ إلى ذلك.

فالتفتَ الشيخُ إلى (الواثق) وقالَ له بلهجةٍ مطمئنةٍ: سجِّلْ ذلكَ عليه.

قالَ الشيخُ لأحمد: هلْ علمَ رسولُ الله ﷺ شيئاً ممَّا تقولُ من خلقِ القرآن.

فقالَ أحمدُ في تردُّدٍ: نعم.

قال الشيخُ: وهل دعا الناسَ إلى الإقرارِ بذلك؟

قال أحمد: لمْ يدعُ إلى شيء.

قالَ الشيخُ: هل علمَ الصحابةُ والخلفاءُ الراشدونَ.

قال أحمد: لمْ يعلموه.

فقالَ الشيخ: وإذا لم يعلموه، فكيفَ تعلمهُ أنت؟

ثمَّ التفتَ إلى (الواثق) فقال له: سجِّلْ ذلكَ عليهِ يا أميرَ المؤمنين!

قال أحمد: إنهم علموه ولم يذيعوه.

فقال الشيخ: وإذا لم يذيعوه، فكيف تذيعه أنت، وتعذِّبُ الناس عليه، ثم التفت إلى (الواثق) فقال له: سجل ذلك عليه ياأمير المؤمنين!

ونظرَ الخليفةُ إلى أحمدَ فوجدهُ مضطرباً، لا يستطيعُ أنْ يُجيبَ، فقالَ للشيخ: انصرفْ يا رجل، انصرف يا رجل، وأنهى المجلسَ وهو يتساءلُ بينهُ وبينَ نفسه، كيفَ ندعو إلى شيءٍ لمْ يُدْعهُ الرسول ﷺ، ولمْ يُدْعهُ الخلفاءُ الراشدون، ولمْ يُدْعهُ الصحابة!

كنتُ أودُّ أنْ يسجِّلَ التاريخُ اسمَ هذا البطلِ الجريء، ولكنَّ الذينَ رووا المناظرةَ قالوا: إنَّهُ شيخٌ فاضلٌ جاءَ من بلدةٍ تُسمَّى أَذَنهْ على شاطئ نهرِ سيحان، فقامَ مقاماً لمْ يقمهُ سواه، وكانَ لا يتيقَّنُ من نجاتهِ حينَ جابهَ الطغيان، ولكنَّه أصرَّ[1]..

ألا صَلَّى الإلهُ على نفوسٍ   ترى في الحقِّ مَصْرَعَها لِزاما

* * *

(١) هذا قريب مما جرى لعبد العزيز الكناني المكي عندما ناظر بشر المريسي في حضرة المأمون حول خلق القرآن، والمناظرة بتمامها في كتابه (الحيدة)، وهو من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق. (الناشر)

طرائفُ من حياةِ كاتبٍ كبير

٣٩٣ ـ ترجمة ذاتية

يُعجبني من كاتبِ الترجمةِ الذاتيَّةِ أنْ يكونَ أقربَ إلى الصدق، لأنَّ الصدقَ الحقيقي قد يكونُ مستحيلاً، إذ لا يجوزُ للأديبِ الشَّرقيِّ أنْ يفضحَ نفسهُ أمامَ الملأِ العام، كما يفعلُ المتحلِّلونَ في أوربة، وقد قرأتُ كتابَ (حياتي) للدكتور (أحمد أمين) أكثرَ من مرَّة، وتحدَّثتُ عنه أكثرَ من مرّة، لأنَّه يُشعرُ القارئَ بالقربِ من الواقع، والبُعدِ عن البطولاتِ المزيَّفة، التي يتخذها بعضُ كتَّابِ السيرِ الذاتيَّة، ليُرضوا أنانيتهم المريضة، وأنا أعرفُ كاتباً من هؤلاء، شاءَ أنْ يتنقَّصَ أسرتهُ، ويفتري على أبيهِ وأخيهِ وأقاربه، ليعلمَ القرَّاءُ أنَّه اعتمدَ على موهبتهِ وحدها، حينَ كان العالمُ من حولهِ يقفُ ضدَّه، وفي القرَّاءِ من يميلُ إلى تصديقِ كلِّ ما يقال، ولكنَّ فيهم من يعرفُ كبواتِ القلمِ في هذهِ المزالق، وقد جنَّبَ الله الدكتورَ (أحمد أمين) كثيراً من هذهِ المزالق، لذلكَ رأيتُ أنْ أختارَ للقارئ ما يأخذُ منه العبرةَ في بعضِ ما حكاه، والمسألةُ لا تزيدُ عن كونها تاريخاً يُروى، فإلى كتابِ (حياتي).

يعترفُ الكاتبُ أنَّه مِنْ حيثُ مشاعره الخاصة يعيشُ في عالمٍ وحده، إذ تقعُ الأحداثُ على وجدانهِ فينفعلُ بها انفعالاً خاصَّاً به، ويُقوِّمها التقويمَ الذي يُسألُ عنه وحده، لأنَّ الحادثةَ الواحدةَ قد يبْكي منها إنسانٌ أشدَّ البكاء، ويضحكُ منها آخرُ أشدَّ الضحك، ولا يبْكي منها ولا يضحكُ ثالث، كأوتارِ العودِ الواحدِ يُوقِّعُ عليها كلُّ فنَّانٍ توقيعاً منفرداً لا يوقِّعه فنَّانٌ آخر.

٣٩٤ ـ مواقف الرجولة

يُعجبُ الكاتبُ بمواقفِ الرجولةِ التي شهدها، ويثني على أصحابِ هذهِ المواقفِ ثناءً متكرِّراً، ومن هؤلاءِ (حسن عاصم باشا) و (عاطف بركات باشا)

وهما بالنظرِ لأبناءِ هذا الجيلِ يكادانَ يكونانِ مجهولان، أمَّا من عاصرهما من الناسِ فيعلمونَ مكانهما العالي في دُنيا السلوكِ الحميد.

لقد كان (حسن عاصم باشا) رئيساً لقلمِ (الخديوي) وكان المنتظرُ منه أنْ يلبِّي رغباتِ الخديوي في أخصِّ ما يطلبُ من الأمور، ولكنَّه عارضهُ معارضةً جادَّةً حينَ لزمتِ المعارضة، إذ أرادَ (الخديوي) أنْ يستبدلَ أرضاً جيدةً بأرضٍ ضعيفةٍ من أراضي الأوقاف، فعرضَ الأمرَ على المجلسِ الأعلى للأزهرِ، فعارضَ الشيخُ (محمد عبده)، وعارضَ (حسن عاصم) ومعارضةُ الشيخِ محمد عبده منتظرة، لأنَّه كان يجهرُ دائماً بالحقِّ أمامَ الرؤساءِ دونَ خشية، أمَّا معارضةُ (حسن عاصم) فقد كانت شديدةَ الوقعِ على نفسِ (الخديوي) وبادرَ فعزلهُ من منصبهِ المرموقِ في السراي، فلم يعبأ الرجل، وكأنَّ أمراً ما لمْ يحدث.

وممَّا ذكرهُ الدكتور أحمد أمين عن عاصم باشا أنَّه كان المشرفَ العام على التعليمِ بمدارسِ الجمعيَّةِ الخيريَّةِ الإسلاميَّة، وقد تبرَّعَ أحدُ أعيانِ (المحلّة الكبرى) بأرضٍ لبناءِ مدرسةٍ للجمعيةِ مع نفقاتِ بنائها، ووقفَ عليها أملاكه، ثم أرادَ أنْ يُدخلَ ابنَه في المدرسة، وكانتْ سِنُّهُ تزيدُ شهراً عن المدَّةِ المقرَّرة، فأبى (عاصم باشا) وقال: لقد تبرَّعَ هذا الرجلُ للجمعيَّةِ بالأرضِ والنفقاتِ فيجبُ أنْ نشكره، ولكنَّه أرادَ أنْ يُخالفَ القانونَ فيجبُ صدُّه، وعدمِ الاستماعِ إليه، وأصرَّ على موقفهِ رغمَ شفاعةِ الكبارِ ومنهم الشيخ (محمد عبده) و(حسن عبد الرازق) وهما من أعضاءِ الجمعيَّة، فلمَّا ألحوا عليه، قدَّمَ استقالته، فاضطروا للنزولِ على رأيهِ مكرهين، وأنا أرى أنَّ عاصمَ قد تشدَّدَ في غير موجبٍ! فزيادةُ شهرٍ عن السنِّ القانونيَّةِ ليستْ بذاتِ خطرٍ، ولكنَّه التشدُّدُ المتزمِّت.

٣٩٥ ـ الامتحانُ الشفوي

تعرَّضَ الأستاذُ للامتحانِ الشفويِّ بمدرسةِ القضاءِ الشرعيِّ حينَ كان طالباً، فقالَ: إنَّ اللجانَ الشفويةَ كانت معتدلةً ماعدا لجنةَ الشريعةِ والعلومِ الأزهريَّةِ، فقد كانتْ من الصعوبةِ بحيثُ أعدَّتْ مواضيعَ الامتحانِ في أصعبِ المقرراتِ العلميةِ، إذ تتألَّفُ اللّجنةُ من ستَّةِ أساتذةٍ من الشيوخِ الكبارِ، جلسوا

على الأرائكِ وجلسَ الطالبُ فوقَ فروةٍ في الأرضِ، ويدأ يقرأُ في الموضوعِ الأوَّلِ من الكتابِ المقرَّرِ، ويشرحُ ما يقرأُ شرحاً صحيحاً، ولكنْ سرعانَ ما انهالتْ عليهِ الأسئلةُ من كلِّ أستاذٍ، فيجيبُ قدرَ ما يستطيعُ، وقد غشَّاهُ العرقُ، وكادَ يرتبكُ، وقد جلسَ على الفروةِ ستَّ ساعاتٍ متوالياتٍ، لا تتخلَّلها راحةٌ ما، ولمْ يشربْ حتى كوبَ ماءٍ، وكلٌّ من الممتحنينَ يخرجُ من حينٍ إلى آخرَ يتمشَّى ويتربَّصُ، ومن حينٍ إلى آخرَ تُقدَّمُ إليهمُ القهوةُ والليمونَ، ثمَّ أُفرجَ عنهُ، يقولُ الأستاذُ: «فلمَّا حاولتُ القيامَ لمْ أستطعْ أنْ أمدَّ رجلي، ولا أنْ أعدلَ قامتي، وأخذتُ في ذلك وقتاً، حتى عرفتُ كيفَ أقومُ، وكيفَ أمشي، ولم أدرِ كيفَ ذهبتُ إلى بيتي، ولا كيفَ قضيتُ بقيَّةَ نهاري وليلي، ومهما كان الأمرُ فقد نجحتُ، ولكنْ تأخَّرَ ترتيبي - في الامتحانِ الشفوي - من الأوَّلِ إلى السادسِ، وكان هذا الامتحانُ الأزهريُّ على هذا الوجهِ الشَّاقِّ أوَّلَ امتحانٍ في مدرسةِ القضاءِ وآخرهُ، إذ احتجَّ عاطف بك على الطريقةِ المتَّبعةِ فيهِ، فقصرتْ مدَّتهُ، وتساهلَ الممتحنونَ في درجاته».

وأقولُ: إنَّ هذهِ الطريقة الشَّاقَّة ظلَّتْ متَّبعةً في الأزهرِ حتىَ عهدِ المراغي، ولكنْ مع اختصارِ الوقتِ، إذ كان الطالبُ يقضي ساعتينِ، وحيناً أكثرَ أو أقلّ، ثمَّ لا يُرهقُ بالامتحانِ في كلِّ العلومِ شفوياً، بلْ تُختارُ العلومُ الأمَّهات، ويُتركُ غيرها اعتماداً على النجاحِ في الامتحانِ التحريري..

٣٩٦ـ عاطف بك بركات

رجلٌ في جِدِّهِ من طرازِ (حسن عاصم باشا) وقد نالَ رتبةَ الباشويةِ فيما بعد، حينَ صارَ وكيلاً لوزارةِ المعارف، ومن مواقفهِ أنَّ الخديوي أوصى أنْ ينالَ الشيخُ (محمد المهدي) الأستاذُ بمدرسةِ القضاءِ الشرعيِّ درجةً ماليةً كبيرةً في المدرسة، ولكنَّ عاطف رأى أنَّ غيرَه أحقُّ منه، فاجتمعَ مجلسُ الإدارةِ برئاسةِ شيخِ الأزهر، وعضويةِ كبارِ المسؤولينَ في الدولة، وكلُّهم يرى أنَّ المسألةَ صغيرةٌ لا تستحقُّ مغاضبةَ (الخديوي) من أجلها، فوافقوا على منحِ الدرجةِ للشيخ

(المهدي) وصمَّمَ على معارضةِ هذا الاتِّجاه، فلمَّا جاءتْ أكثريَّةُ الأصواتِ مخالفةً رأيه، صمَّمَ على أنْ تُدوَّنَ معارضتُه في المحضر، ومُنحَ الشيخُ الدرجة، وكان لا يعلمُ معارضةَ عاطف، فذهبَ إليهِ شاكراً، فقالَ له: لقد عارضتُ منْحكَ، ولو استطعتُ لأوقفتُ المنْح، فقالَ المهدي: وإذن، فالشكرُ لله وحده.

٣٩٧ ـ قصة الزواج

تحدَّثَ الأستاذُ عن قصَّةِ زواجه، فقدَّمَ للحديثِ بأنَّ الزواجَ لعهدِهِ كان يخْضعُ للتقاليدِ القديمةِ، إذ يسمعُ الشابُّ من أحدِ أقاربهِ أنَّ لفلانٍ بنتاً في سنِّ الزواج، وقد يأتيهِ الخبرُ من (الخاطبة) التي تدورُ في البيوتِ وترى الشابَّات لتكونَ الواسطة ولها الأجر، وإذ ذاكَ يتقدَّمُ الشابُّ لخطبةِ مَنْ لمْ يرها من قبلُ لأنَّه اعتمدَ على الوصفِ فحسب.

يقولُ الأستاذُ: «كنتُ أتلمَّسُ الزواجَ من أمثالي من الأوساط، لا أطلبُ الغنى ولا الجاه، ومع ذلك وقفَتِ العمامةُ حجرَ عثرةٍ في الطريق، فكم تقدَّمتُ إلى بيوتٍ رضوا عن شبابي، وعن شهادتي، وعن مرتبي، ولكنْ لم يرضوا عن عمامتي، فذُوا العمامةِ في نظرهم رجلٌ مُتديِّن، والتديُّنُ يُوحي عندهم بالتزمُّتِ وقلَّةِ التمدن، والالتصاقِ بالرجعيةِ، والفتاةُ يسُرها الشابُّ المتمدِّنُ، وقد رضيَ بي قومٌ، وأحبُّوا أنْ يروني، فذهبتُ إليهم أحملُ كتاباً إنكليزيّاً، لأُريهم أني متمدِّن، وحشرتُ في كلامي بعضَ كلماتٍ إنكليزيَّةٍ فاستغربوا ذلك، وفهمتُ أنهم أُعجبوا بي، ولكنْ بلغني أنَّ الفتاةَ أطلَّتْ من الشبَّاك عليَّ وأنا خارجٌ، فرأتِ العمامةَ والجبَّةَ والقفطان، فرُعبتْ، ورفضتْ رفضاً تامَّاً أنْ تتزوجني رغمَ إلحاحِ أهلها، وشاءَ القدرُ أنْ تتزوَّجَ هذهِ الفتاةُ ـ فيما بلغني ـ شابّاً أنيقاً كاتباً في بعضِ الوزارات، ولكنَّه كان سكِّيراً عربيداً أذاقها المَرارَ في حياتها الزوجية، ثمَّ طلَّقها، ومازال يسوءُ حالها حتى تزوجتْ بعاملِ تلغرافٍ، وجاءتْ إليَّ وأنا قاضٍ في محكمةِ (الأزبكيَّة) تطلُب من زوجها النفقة».

أليستْ هذهِ مفارقة!!

٣٩٨ ـ عقوقٌ أم ماذا؟

من أوجعِ ما كتبهُ الأستاذُ (أحمد أمين) ما اشتكى منه إزاءَ عقوقِ طلاَّبهِ وزملائهِ بعدَ أنْ تركَ عمادةَ كلِّيةِ الآداب، ورجعَ أستاذاً، فرأى من التلوُّنِ والجحودِ ما قالَ عنه:

«هذا فلانٌ كان صديقي يومَ كنتُ أستطيعُ نفعه، فلمَّا سُلبتْ مني هذهِ المقدرة، تلمَّسَ الوسائلَ ليكونَ عدوِّي، فإنْ لم يجدْ أسباباً اختلقها، وإنْ لم يجدْ فرصةً لإظهارِ هذهِ الخصومة تعمَّدَ إيجادها.

وهؤلاءِ الذينَ كانوا يتهافتونَ على إقامةِ حفلاتِ التكريمِ لي يومَ انتخبتُ عميداً، فأرفضها وأرفضها، لم يفكِّروا في إقامةِ حفلةِ وداعٍ يومَ تركتُ العمادة.

وهذهِ التليفوناتِ التي كانت تدقُّ كلَّ حينٍ للسؤالِ عن صحتي، وطلبِ موعدٍ لزيارتي، لإظهارِ الشوقِ أوَّلاً، والاطمئنانِ على صحتي ثانياً، والرجاء في قضاءِ مصلحةٍ ثالثاً، لم تعدْ تدقُّ إلاّ للأعمالِ الضروريةِ، التي ليسَ فيها سؤالٌ عن صحة، ولا إعلانُ أشواقٍ.

وهذا صندوقُ البريدِ الذي كان يمتلئ بالخطاباتِ المملوءةِ بالطلباتِ والرجاواتِ أصبحَ فارغاً، إلاّ من خطاباتٍ عائليةٍ، أو مسائلَ مصلحيَّة.

وهذهِ أيَّامُ الأعيادِ التي كان يموجُ فيها البيتُ بالزائرينَ من الصباحِ إلى المساءِ يهنئونَ بالعيدِ، أصبحتْ كسائرِ الأيَّامِ، أجلسُ فيها على المكتب، فأقرأُ وأكتبُ، ولا سائلَ ولا مجيب.

وهذهِ صورةٌ للناسِ لم تكنْ جديدةً عليَّ، فقد قرأتُ مثلها في الكتبِ كثيراً، وسمعتْ عنها كثيراً، ولكنْ لعلَّ أسوأها أثراً في نفسي ما شاهدتهُ من قلَّةِ الوفاءِ في بعضِ طلبتي، فقد كنتُ أعتقدُ أنَّ الرابطةَ العلميَّةَ فوقَ كلِّ الروابط، أمَّا أنَّ طالباً يخرجُ على أستاذهِ ويُجرِّحه، ويقدحُ فيهِ بالكذبِ والأباطيلِ فشيءٌ لمْ أكنْ رأيته، فلمَّا رأيتُه استعظمتُه، وحزَّ في نفسي، وبلغَ أثرُهُ أعماقَ قلبي:

وصرتُ أشكُّ فِيمَنْ أصطفِيهِ   لعلمي أنَّهُ بعضُ الأنامِ

٣٩٩ ـ موقف ترفيهيّ

لم يخلُ كتابُ (حياتي) من ذكرِ بعضِ المواقفِ الترفيهيَّة، رواها الأستاذُ كما وقعت، دونَ افتعالٍ، فكانتْ بصدقها البريء داعيةً للابتسامِ السَّار، ومن هذهِ المواقفِ ذكرياتُه عن بعضِ القرى الريفيَّةِ في (سويسرة) وما شاهدهُ من نظافةِ البيتِ الريفيّ، حيثُ ترعى الأبقارُ في المروجِ النظيفة، ثمَّ تعودُ إلى مبيتها في قاعاتٍ نظيفة، أُضيئتْ بالكهرباء، وفُرشتْ بألواحِ الخشب، وحُدِّدَ لكلِّ بقرةٍ منامها، ومجرى ما يخرجُ منها، فلا ترى إلاّ نظافةً وأناقة.

ثمَّ سافرَ الأستاذُ إلى (بروكسل) ليُلقي محاضرةً عن أبي حيَّان التوحيدي في مؤتمرِ المستشرقين، فذهبَ قبلَ الموعدِ إلى حلاّقٍ بروكسلي لا يعرفُ كلمةً إنكليزيَّة، وهو لا يعرفُ كلمةً فرنسيَّةً، فكانَ إذا حدَّثهُ الحلاَّقُ بالفرنسيَّةِ أجابَهُ بالإيماء، وهو لا يفهمُ ما يعني، حتى كانتِ النتيجةُ أنَّ الحلاَّقَ حلقَ رأسَ الأستاذِ بالموس، ولم يتْرُكْ بها سوى شعراتٍ صغيرة، يقولُ الأستاذ:

وأنا مضطرٌ عندَ دخولي قاعةَ المؤتمراتِ أنْ أخلعَ قبَّعتي، فلم أجدْ بها شعراً يُقاومُ البرد، ولايُجمِّلُ المنظر، وقصصتُ القصَّةَ على زميليَّ الدكتور (طه حسين) والدكتور (عبد الوهاب عزَّام) فضحكا وأغرقا في الضحك، وقالَ الدكتور (طه حسين): إني سأضعُ روايةً أسمِّيها (حلاّقَ بروكسل) على وزنِ (حلاّق إشبيلية) ونظمَ الدكتور (عبد الوهاب عزَّام) قصيدةً أذكرُ منها:

ونظــرَ الأستــاذُ فــي المــرايــة فلــمْ يجــدْ فــي رأســهِ شعْــرايَــه

وهذهِ طرفةٌ تصلُحُ أنْ تكونَ ختاماً معقولاً لما سبقها، والكتابُ سِفْرُ أدبٍ وتاريخٍ وسياسةٍ وسلوكٍ فوقَ أنَّه ترجمةٌ ذاتيةٌ مُصطفاة!!.

* * *

اختلاقٌ كاذبٌ

٤٠٠ ـ مقدِّمة

من الناسِ مَنْ يختلقونَ أموراً لا حقيقةَ لها، وتمضي الأيام، فلا يكتفونَ بتصديقِ الناسِ لها، بلْ تكونُ لديهم كأنَّها حقٌّ واقعٌ، فهم يتحدَّثونَ مثلاً عن مصيبةٍ لم تحدُث، ويتلقّونَ التعازيَ من الأصدقاءِ والأهل، ويزدادُ العجبُ حينَ يبكونَ وتتساقطُ دموعهم، وكأنَّ مشاعرهم قد تأثَّرتْ بحدثٍ واقعيٍّ.

وكنتُ أعجبُ لذلك حينَ تأتيني الأنباءُ عن أمثالِ هؤلاء، ولكنَّ أحدَ أصدقائي قال لي: وفيمَ العجب؟ إنَّ الممثّلَ على الشاشةِ البيضاءَ يبكي وتتساقطُ دموعه غزيرة، وهو يمثِّلُ دوراً لم يقع في الحياةِ، بلْ كانَ من اختراعِ المؤلِّف، فمنَ السهلِ على من توهَّمَ شيئاً خياليّاً أنْ يتأثَّرَ بما توهَّمَ فيبكي.

وفي قريةٍ من القرى ادَّعى غريبٌ نزلَ البلدةَ أنَّه ابنُ فلانٍ المتوفّى، وكانَ يذهبُ إلى قبرهِ كلَّ أسبوعٍ مع الزائرين، ويبكي أحرَّ بكاء، ثمَّ اعترفَ بعد أنْ بلغَ من العمرِ أرذله، أنَّ المسألةَ كانتْ عبثاً، ليجعلَ له جذوراً في القرية، فلا يُقال: إنَّه غريب! وقد صدَّقَ الناسُ دعواهُ حينَ زعمَ أنَّ والدهُ تزوَّجَ بأمِّهِ في قريةٍ نائيةٍ وقد ماتتْ بعدَ أنْ فارقها بزمن، ولم تُخبرهُ إلاّ في مرضها الأخير.

٤٠١ ـ خطابات وهمية

كان أحدُ الشبابِ في مدينةِ (الزقازيق) يتلقَّى أسبوعياً خطاباً عاطفياً من فتاةٍ تُقيمُ في عاصمةٍ أخرى، فيقرأُ الخطابَ على ملأ من أصدقائهِ متأثِّراً، ويجيبُ عليه، ويعرضُ الردَّ على أصدقائهِ حيثُ يجلسونَ دائماً في (قهوةِ المثلث) وهو في غايةِ النشوةِ والارتياح، وقال له بعضُ زملائهِ: إنَّ هذهِ أسرارٌ يجبُ ألاّ تُذاع، إذ كيفَ تكونُ نبضاتُ القلوبِ نهباً مشاعاً بينَ الأصدقاء، لا سيَّما وحبيبتكَ التي

تكتبُ الرسائلَ متزوجةٌ، ولها ولدٌ، وإذا كنتَ تكتمُ اسمها وبلدتها، فقد يُوجدُ من يعرفها بالقرائنِ والأدلَّة، فقال: إني أشعرُ براحةٍ تامةٍ حينَ أقرأُ رسائلها لكم، وقد احترتُ في أمري.

ومكثَ أكثر من عامينِ تأتيهِ الرسائلُ مكتوبةً على الآلة، إذ لا يليقُ أنْ تكتبَ الحبيبةُ خطاباً بخطِّ يدها، إذ قد يقعُ في يدٍ لا تحفظُ السِّر، فيشيعُ من أمرها ما ترجو أنْ يظلَّ طيَّ الكتمان، أقولُ: مكثَ أكثر من عامين، وقد اجتمعَ لديهِ أكثرُ من أربعينَ رسالة، يحفظها ويُنسِّقها حَسْبَ تواريخها الواردة، ثمَّ جاءَ في بعضِ الأحيانِ متألماً فقال: إنَّ رسائلها لم تعدْ تصل، وأخذَ يتأوَّهُ كمن فقدَ كنزاً من أثمنِ الكنوز، وطالَ عليهِ الأمر، أو ظنَّ أنَّه طال، وجاءنا وهو يلطمُ خدَّه، ويقول: إنَّه سافرَ حيثُ تقيم، وعلمَ أنَّها ماتتْ في حريقٍ شبَّ بالمنزلِ بعدَ انفجارِ (وابور الغاز) فأخذنا نواسيهِ ونعزِّيهِ وهو يُمعنُ في البكاء!

وبعدَ أمدٍ غير يسير، عرفنا من أحدِ أصحابِ (الآلاتِ الكاتبةِ بالزقازيق) أنَّ فُلاناً هذا كانَ يأتيهِ أسبوعياً برسالةٍ غراميةٍ يزعمُ أنَّها وصلتْ إليه، وكانَ ينْفِحُه مبلغاً كبيراً كيلا يُذيعَ السِّر، ثمَّ يذهبُ إلى عاصمةٍ مجاورةٍ فيضعُ الرسالةَ بالبريدِ مُتَّجهةً إليه! فالحبيبةُ مزعومةٌ مُختلقةٌ! أمَّا كيفَ بكى لموتها؟ وكيفَ لطمَ خدَّهُ فهذا ما لا ندريه!؟

٤٠٢ ـ حديث الأستاذ نقولا يوسف

الأديبُ الإسكندري المعروفُ (نقولا يوسف) كان يجلسُ دائماً في (كازينو كليوبترة) العامرِ بالزوَّارِ في موسمِ الصيفِ بالإسكندريةِ، وأكثرُ قصصهِ مستوحاةٌ مما كان يرى ويسمعُ من أبناءِ الروَّاد في هذا الموسمِ، ومن أطرفِ ما رواه لي ثمَّ سجَّلهُ فيما بعد، ولا أدري أينَ سجَّله، فأنا لم أقرأ جميعَ مؤلَّفاته! أنَّ فتاةً حسنةَ المنظرِ، غاليةَ الثيابِ، كثيرةَ الزينةِ، وفدتْ إلى الكازينو، فكانتْ قِبلةَ الأنظار، وقد أخذَ بعضُ الحاضرينَ يتودَّدُ إليها، فكانتْ تردّ في احتشامٍ، ولاتسمحُ بالمحادثةِ إلاّ في حدودِ المجاملةِ اليسيرة، وقد سألنا عنها عاملَ الكازينو الذي يقدِّمُ لها المشروباتِ، ويظفرُ وحدهُ بحديثها، فقال: إنَّها ابنةُ ثريٍّ كبيرٍ هو عضوٌ في

مجلسِ الشيوخِ، والعضوُ المنتدبُ في مجلسِ إدارةِ شركةٍ كبرى، ومن ذوي الثراءِ الذي لا يُحدّ.

وفي يومٍ من الأيامِ رؤيتْ تجلسُ مع شابٍّ وسيم، تظهرُ عليهِ دلائلُ الثروةِ والجاه، وتبارحُ (الكازينـو) معه، وتأتي، فعرفنـا بديهةً أنَّه أحدُ أصدقائها في (القاهرة) وأنَّ منزلتهُ الماديَّةِ والاجتماعية لا تقلُّ عن منزلتها، ولكنَّ بعضَ الزوَّارِ بعدَ قرابةِ أسبوعينِ أخذَ يُحدِّقُ في هذا الشاب، فتحيَّرَ في أمرِه، لأنَّه يعرفُ ساعياً للبريدِ بمنطقةِ (كرموز) مثلهُ تماماً، فهل يتلاقى الشبيهانِ إلى هذا الحدّ، ودفعـهُ الفضولُ إلى الاسـتقصاء، فذهبَ إلى كرموز حيثُ يعمل، وعرفَ من زملائهِ أنَّ حاله قد انقلبَ فجأةً منذُ ثلاثةِ أسابيع، إذ باعَ منزلهُ الذي يمتلكه، وهو من طابقٍ واحدٍ متواضع، واشترى بالثمنِ بذْلتينِ وحذائينِ، وأخذَ يظهرُ في مظهرِ الأثرياءِ! قال الزائرُ المتربِّص، ولمْ أُطقْ صبراً على استغفالهِ هذهِ الفُتاة الرائعة، فأسرعتُ إليهِ في مجلسه العاطفي، وقلت: إنَّكَ لم توزِّعِ البريدَ منذُ يومين، وإنَّ الإدارةَ ستسألك، ففوجئَ بما لم يتـوقَّع، ونادى صاحبتَهُ فخرجا مـن المكان!

وعلمتُ ـ بعدَ يومين ـ أنَّه أخذَ يعتذرُ لها، وقال: إنَّه وقعَ في حبِّها، فباعَ منزله، ليحظى بالجلوسِ معها، وقد كذبَ حينَ ادَّعى أنَّه نجلُ ثريٍّ كبير، ولا بدَّ أنْ ينصرفَ بعدَ أنْ افتُضِحَ أمرُه، إذ كان لا يبغي غيرَ التشرُّفِ بالجلوس، أمَّا وعدُ الزواجِ الذي ارتبطتْ به معه، فهي الآنَ في حِلٍّ منه!

ثمَّ حدثَ ما لم يكنْ مُتوقَّعاً، فإنَّ الفتاةَ اللامعة، قالتْ له: أنا متمسِّكةٌ بهذا الوعد، ويكفي أنْ تكونَ قد بعتَ المنزلَ من أجلي، وأنا مثلكَ تماماً، لستُ ابنةَ عضوٍ في مجلسِ الشيوخِ، وعضوٍ منتدبٍ في شركةٍ كبرى، فأنا (خيَّاطة) أُقيمُ في حيّ (شبرا) وقد قيلَ إنَّ اصطيادَ الأثرياءِ سهلٌ في موسمِ الصيفِ، فحرصتُ على أنْ أظهرَ بمثلِ هذا المظهرِ، أما وقد انكشفتِ الأمورُ فقدْ أحببتكَ وأنا طوعُ أمركَ، فقالَ لها: وما العملُ؟ وقد فقدتُ منزلي! قالت: اجتهدْ في النقلِ إلى القاهرةِ، وتسكن معي!.

٤٠٣ ـ الحياةُ الغاربة

والحياةُ الغاربةُ تكونُ بعدَ انتهاءِ عهدِ الوظيفةِ والاتّكالِ إلى المعاشِ حتى يحين قدرُ الله.

وكانَ أحدُ هؤلاءِ الذينَ قضوا الحياةَ دونَ زواج، قد بلغَ الساحل وهو وحيد، وأخذَ يعرضُ حياته الماضية، فعرفَ أنَّ الذنبَ ذنبهُ، وأنَّ والدتَهُ قد عرضتْ عليهِ وهو في مقتبلِ العمرِ فتياتٍ كثيرات، منهنَّ الجميلات، وبناتُ الحلالِ من الأسرِ الطيبات، وهو موظفٌ حكومي يطمعُ هؤلاء في مثله، ولكنَّه أبى إلاّ أنْ تكونَ الزوجةُ ابنةَ موظفٍ مرموق، يساعدهُ على الرُّقيِّ السريع، أو ابنةَ ثريٍّ مقْتدرٍ له العقارُ والأطيان، ليستريحَ إلى ما سيصيبهُ من الميراث! ومثلُ هذيْنِ لا يرغبانِ إلاّ في النظراءِ والأمثال، وهذا ما يتعذَّرُ على مثلهِ، ولكنَّه أصرَّ على الموقف، وبكلِّ إباء.

وتقدَّمتِ السنونُ به حتى بلغَ الخمسين، فأخذَ يرجعُ إلى بناتِ الأُسرِ التي رحَّبتْ به من قبل، وقد نشأَ فيها من بلغتْ سنَّ الزواجِ من الشابَّاتِ الجميلات، فأعرضتْ عنه في إباءٍ وقالتْ: لا بدَّ أنْ يبحثَ عن امرأةٍ أرملةٍ في سنِّهِ لترضى به، فازدادَ ألماً، وأصرَّ على الامتناعِ إلاّ أنْ يبلغَ مناهُ من الآنساتِ الجميلات!

ثمَّ أُحيلَ إلى المعاش، وكان وحيداً بعدَ أنْ ماتتْ أمُّه، فلمسَ من الناسِ ازوراراً حيثُ كانَ لا يزورهُ أحدٌ إلاّ في المناسباتِ البعيدة، وعزَّ عليهِ أنْ يبقى بالبلدةِ مهجوراً، هكذا، فاختارَ أنْ ينزحَ إلى عاصمةٍ كانَ يعملُ بها قبلَ عدَّةِ أعوام، وعرفه من عرفه من الناس، وسألوا عن حالهِ بعدَ الانتقال، فقصَّ عليهم أنَّه تزوَّج، وأنَّ زوجتهُ قد ماتتْ في الولادةِ العسيرة، وقد أقسمَ ألاّ يتزوَّجَ بعدها، وهذا خطؤه، لأنَّه الآنَ في حاجةٍ إلى زوجةٍ وإلى أولاد، بل إلى أحفاد!

وكانَ يُخرجُ من جيبهِ صورةً لزوجةٍ جميلةٍ في زيِّ الزفافِ وقد وقفَ بجوارها، ويعرضُ الصورةَ على الزوّارِ من معارفِ الزمنِ الماضي باكياً منتحباً،

والحقيقةُ أنَّه رأى صورةً جميلةً لعروسٍ تقفُ مع عريسها، فحملها إلى مصّورٍ ناشئ، وطلبَ منهُ أنْ يقفَ جوارها ـ مع فارقِ السنِّ ـ ويأخذَ الصورةَ جامعةً لهما، ورضيَ المصّورُ نظراً للأجرِ السَّخي، فكانتْ هذهِ الصورةُ عزاءَه! ولا أدري هل سمحتِ الأيامُ بمن يكشفُ هذا التزوير، أو أنَّ المسألةَ مرَّتْ بسلام!.

٤٠٤ ـ القصَّة الأخيرة

أمَّا القصَّةُ التاليةُ فأمريكيَّةٌ قرأتها معرَّبةً، وقالَ كاتبها: إنَّها قصَّةٌ واقعيَّةٌ، لم يزدْ عن أنْ نقلها كما سمعها ممن شاهدها رأيَ العيان.

كانتِ الفتاةُ التي تنزلُ الفندقَ جميلةٌ جذَّابة، وكانتْ تلبسُ ثوبَ الحدادِ سواداً في سواد، بحيثُ لا يظهرُ إلاّ وجهها الأبيضُ الجميلُ تحتَ شعرها الأسودِ اللمَّاع، وهي صغيرةٌ لم تعْدُ العشرين، وكانتْ تخرجُ وحدها إلى الحديقةِ المجاورةِ مُطرقةً كاسفة، دونَ أنْ يصحبها أحد، وقد تعمَّدَ أحدُ المقيمين بالفندقِ أنْ يجلسَ إلى جوارها على المائدةِ أثناءَ تناولِ الطعام، وكان ذا ثراءٍ وجاه، يتحدَّثُ عنه عارفوهُ باهتمامٍ وتقدير، وقد سمعتْ الكثيرَ عنه دونَ أنْ تشتركَ في الحديث، ثمَّ بدأ فسألها في لطف: أرجو ألاّ تكونَ الآنسةُ قد أُصيبتْ بمكروه.

فقالتْ في لهجةٍ حزينةٍ: لقد انتُزعَ مني أعزُّ إنسانٍ لديّ، إنَّه خطيبي، ولا أريدُ أنْ أُحمِّلكَ همومي.

فابتسمَ متلطِّفاً وقال: لاتقولي مثلَ هذا، أنا أُحبُّ أنْ أشاركِكِ كلَّ همومك، وأنا أُتابعكِ في اهتمام!

فقالتْ: يا سيدي! أنا أعلمُ أنَّ هذا عطفٌ منك، ولكنَّ الحزنَ يشملني وحدي.

فقالَ مُتعجِّلاً: حرامٌ أنْ تلزمي الصمت، وأنْ تعيشي وحيدةً وأنا أُرحِّبُ أنْ أكونَ رفيقكِ في الجلوسِ بالحديقةِ حينَ تذهبينَ وحدك! وأكونُ أنا تحتَ رعايتك، ودارَ نقاشٌ هادئ انتهى إلى الموافقة.

وحينَ جلسا معاً في الحديقةِ أخذتْ تفيضُ في الحديثِ عن خطيبها الفقيد، وكيفَ عقدَا النيَّةَ على الزواجِ في الربيعِ القادمِ، وكانتْ له أملاكٌ واسعةٌ في إيطالية واسمهُ الكونت (كذا) ولمْ أرَ أنبلَ منه في حياتي، ولكنَّه وقعَ في مشاجرةٍ مع بعضِ الخُصومِ فتبارزا وانتصر، ورجعَ إلى حيثُ يتربَّصُ به أجلُه، إذ غرقَ به جندولٌ ببعضِ البحيرات! فجعلَ صاحبها يتألمُ لحالها، ويقولُ: سأشاركُكِ مُصابكِ من الآن، وسأظلُّ صديقكِ فلا تقولي: إني وحيدة، فمسحتْ طرفها بيدها، تغسلُ ماترقرقَ من الدموع، ثم فتحتْ حقيبتها وقدَّمتْ له صورةً في حرزٍ مخمليٍّ جميل، وقالت: إنَّه هو!! كم كان جميلاً!

فنظرَ صاحبها إلى الصورةِ وابتسم، وقـال: رحمه الله، يستحقُّ أنْ تحـزني عليه! ألا يمكنُ أنْ أكـونَ ظلاًّ له في اعتبـارك، فسكتت.

ومضتِ الأيامُ، وأُعلنتِ الخطبةُ والزفاف، ثم كانت تستأذنه في أنْ تذهبَ إلى بلدتها القريبـةِ أياماً لتزورَ أهلها، ثم تستسـمحهُ أنْ تزورَ أهلَ الفقيد، فهم يعتبرونها بعضَ الأسـرة، فكانَ يسـمحُ ويتـركُ لها أنْ ترحلَ كما تشـاء، فلا بدَّ للزوجينِ من فتراتِ انقطاع، يشتعلُ أثناءها الحبُّ وتتجدَّدُ الأشواقُ عندَ اللقاء!

وجاءتْ ذاتَ مرَّةٍ حزينةً تتمارض، وأخذَ الزوجُ يرفِّهُ عنها ما استطاع، ودارَ الحديثُ عن الراحلِ العزيز، فقالت: إنَّه زارها في الحلمِ أياماً متوالية، وأنَّها مكتئبةٌ من أجله، وأخرجتِ الصورةَ من الحقيبةِ وجعلتْ تُقبِّلها، فلم يملكِ الزوجُ أنْ يقولَ مبتسـماً: لقد سكتُّ عن هذهِ الكذبـةِ منذُ اللقاءِ الأوَّلِ، إنَّ الصـورةَ ياسيدتي لصديقي فلان، وكانت معروضـةً بمحل (كذا) وعلمتُ أنَّكِ اشـتريتها بتحرِّياتي الخاصَّة، والمحلُّ موجود، أنذهبُ إليهِ معاً.

هنا سقطتْ على كتفهِ باكيةً، وقالت: كذبـةٌ عشقتها، وكانتِ السـببَ في حبِّكَ إيَّـاي! فضمَّها إلى صدرهِ، وقـال: ليسَ للكذبِ عمرٌ طويل، فليرحلْ منذُ الآن!.

* * *

أربعة رجال

٤٠٥ ـ بيتٌ لأبي تمَّام

(أبو تمَّام الطائي) شاعرٌ مؤرِّخٌ معاً، وسأفصِّلُ ذلك في حديثٍ تالٍ إنْ شاءَ الله، فقد حفلَ شعرهُ بإشاراتٍ كثيرةٍ لوقائعِ التاريخِ العربيّ، وبأسماء مختلفةٍ لأفذاذٍ كرامٍ من أعلامِ الأمَّةِ العربيَّة، وأساطينِ التراثِ الإسلامي، بل إنَّ بيتاً واحداً من أبياتهِ الكريمةِ قد ضمَّ أربعةً من هؤلاءِ الأفذاذ، وهو قوله:

إقدامُ عمرٍو في سماحةِ حاتِمٍ … في حِلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

والبيتُ من قصيدةٍ عامرةٍ مطلعها:

ما في وقوفِكَ ساعةً من باسِ … نقضي ذمامَ الأَرْبُعِ الأدْراسِ
فلعلَّ عينكَ أنْ تعينَ بمائِها … والدمعُ منه خاذِلٌ ومواسي

ومن أجملِ أبياتها قولُه في شأنِ الحبيبة:

وإذا مشَتْ تركتْ بصدركَ ضِعْفَ ما … بحليّها من كثرةِ الوَسْواسِ
قالتْ وقدْ حُمَّ الفراقُ فكأسُه … قد خولطِ الساقي بها والحاسي:
لا تَنسينْ تلكَ العهودَ فإنَّما … سُمِّيتَ إنساناً لأنَّكَ ناسي

ويجمُل أنْ نشيرَ إلى الأعلامِ الأربعةِ الذينَ تحدَّثَ عنهمُ الشاعرُ الكبيرُ في البيتِ الأوَّل.

٤٠٦ ـ إقدامُ عمرو

أمَّا عمرو في هذا البيتِ فقد كنتُ أحسبُ أنَّه (عمرو بن العاص) فاتحُ البلادِ، ورجلُ الكياسةِ والدهاءِ، ولكنّي وجدتُ (الخطيبَ التبريزي) يقولُ في شرحهِ: إنَّه (عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي) ونقلَ ذلكَ غيرُه عنهُ، فمن هو عمرٌو هذا؟

إنَّهُ الفارسُ الخطيرُ، صاحبُ الغاراتِ الشهيرةِ، ويُكَنَّى (أبا ثور) وله وقائعُ كثيرةٌ في الجاهليّةِ والإسلامِ. فقد أسلمَ على يدِ رسولِ الله ﷺ، وجاهدَ أعظمَ المجاهدةِ في حروبِ المسلمينَ، وقد قالَ الأستاذ (محمود مصطفى) في هامشِ كتابِ (هبةُ الأيّام فيما يتعلّقُ بأبي تمّام) إنَّ عمراً هذا هو الذي ضربَ الفيلَ في حربِ (القادسيّة) بالسّيفِ، فولّى الفيلُ مذعوراً بعدَ أنْ أرهبَ المسلمينَ، وانهزمتِ الأعاجمُ ابتداءً من هذهِ الضربةِ المفزعةِ، والمشهورُ أنَّ أوّلَ من ضربَ الفيلَ بالسيفِ في لقاءِ الفرسِ هو البطلُ الخالدُ (المُثَنّى بن حارثة الشيباني) وفيهِ يقولُ (الفرزدق) مُفتخراً:

ومنّا المُثَنّى ضاربُ الفيلِ سيفُه ببابِلَ، إذْ في فارسٍ حكم ببابل

فلعلَّ (المُثَنّى) بدأ بالضربِ في بابلَ، وتلاهُ (عمرو) فضربَ الفيلَ في القادسيّةِ، وكلا الرجلينِ بطلٌ مغوارٌ، وقد وقعتْ بينَ عمرو بن معدي كربَ وعمر بنُ الخطّابِ رضيَ الله عنهُ مناقشاتٌ تناقلتها كتبُ الأدبِ، منها، أنَّ الفاروقَ سألهُ بعدَ أنْ أبلى بلاءً حسناً يومَ القادسيةِ: ما تقولُ في الحرب؟

فقالَ على البديهةِ: مُرَّةُ المذاقِ، إذا كشفتْ عن ساقٍ، فمنْ صبرَ عرفْ، ومن ضعُفَ تلِفْ،

قالَ عمر: فما تقولُ في الرُّمح؟

قال: خليلُكَ، وربَّما خانك.

قال: فما تقولُ في النِّبال؟

قال: هي المنايا تُخطئ وتُصيبُ!

قال: فما تقولُ في السيف؟

قال: عبدُكَ تأمرُه فيطيع.

ويظهرُ أنَّ الفاروقَ كان يسألُ عنْ أشدِّ السِّلاحِ قوةً، فوجدَ عمراً جديراً بالجوابِ، لخوضهِ الأهوالَ، وهكذا يُظهِرُ عمرُ حرصهُ الدائبَ على تحقيقِ قولِ الله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكان لعمرو سيفٌ يُسمَّى (الصمصامة) وُصفَ للفاروقِ فأحبَّ أنْ يراهُ، فبعثَ يطلبُه، فنظرَ فيهِ عمرُ طويلاً، ولم يـرَ فيهِ أكثرَ ممَّا في سواهُ مِنَ السيوفِ، فقالَ لعمرو: إنَّه كبقيَّةِ ما نرى؟ فضحكَ عمـرو وقال: يـا أميرَ المؤمنين! لقدْ نظرتَ إلى السيفِ، ولم تنظرْ إلى اليدِ التي تضرِبُ به، فقالَ عمرُ: هو ذاك.

ومن شعرهِ:

أمِـنْ ريْحـانـةِ الـداعـي السميـعُ ... يـؤرِّقنـي وأصحـابـي هجـوعُ
أشـابَ الـرأسَ أيَّـامٌ طِـوالٌ ... وهـمٌّ مـا تقـرُّ بـه الضلـوعُ
وسـوقُ كتيبـةٍ دلفـتْ لأخـرى ... كـأنَّ نهـارَهـا رأسٌ صليـعُ

٤٠٧ ـ سماحةُ حاتِم

ومَنْ لا يعرفُ حاتماً؟ وقد سارَ ذكرهُ في الآفاقِ مشرِّقاً ومُغرِّباً، وقد ورِثَ الكرمَ عن أمِّه (عُتبةُ بنتُ عبدِ الله) إذ كانت من أندى النَّاسِ يداً، وقد ضيَّقَ عليها إخوتُها حينَ رأوْها لا تُبقي شيئاً بيدها حينَ يأتيها السائلُ، فلمَّا بكتْ: رحموها، وأعطوها إبلاً كثيرةً، فجاءتْ امرأةٌ من هوازنْ فسألتها، فأعطتها جميعَ ما بيدها، فتعجَّبَ إخوتُها، وقالوا: كيفَ وقد كان يُغني السائلةَ جملٌ أو جملانِ؟ فقالتْ: ذُقتُ الحِرمانَ حينَ ضيَّقتمْ عليَّ من قبلُ، فعزمتُ على ألاّ أدَّخرَ شيئاً إذا جاءَني السائلُ.

وكانتْ تفرحُ حينَ تجدُ حاتماً وهوَ غلامٌ صغيرٌ، يُخرجُ طعامهُ من الخيمةِ، وينتظرُ حتى يجدَ من يمرُّ ليشاركهُ الطعامَ، فإذا لمْ يجدْ أحداً ذهبَ إلى أقصى الطريقِ يتفقَّدُ النَّاسَ ليجدَ من يُشاركه!

وقد تزوَّجَ (ماويَّة) وهي سيدةٌ من أشرفِ بيوتاتِ العربِ، فلمَّا رأتْ ما هو عليهِ من السَّرَفِ، فارقتهُ، وأقامتْ في مكانٍ آخر، فأتاها ضِيفانٌ عليهم مذلَّةُ الجوعِ وليسَ عندها شيءٌ، فأرسلتْ إلى حاتمٍ، ففرحَ واستبشرَ، وأتى بناقتينِ فذبحهما، فأكلَ الضِيفان وشبعوا، فقالتْ (ماويَّة): هذا الذي تركتُكَ من أجلهِ، وستترك

ولدكَ ولا مالَ لهم، فطمأنها مُخبراً، أنَّ الكريمَ لا يُضامُ، وأنَّه جرَّبَ ذلكَ كثيراً، وقد اشتدَّ الزمنُ على النَّاسِ، ولكنَّه ما وقعَ في ضيق.

وحُكِيَ عن عليٍّ كرَّمَ الله وجهه أنَّه قالَ: يا سبحانَ الله! ما أزهدَ النَّاسَ في الخيرِ، عجبتُ لرجلٍ يجيئه أخوهُ في حاجةٍ، فلا يرى نفسهُ للخيرِ أهلاً، فلو كُنَّا لا نرجو جنَّةً، ولا نخافُ ناراً، ولا ننتظرُ ثواباً، ولا نخشى عِقاباً، لوجبَ علينا أنْ نطلبَ مكارمَ الأخلاقِ.

فقامَ إليهِ رجلٌ وقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، أسمعتَ هذا من رسولِ الله؟ قالَ: نعم، وما هو خيرٌ منه، لقدْ أتتْنا سبايا طيئٍ، وفيهنَّ جاريةٌ حسناء، تقدَّمتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالتْ: يا محمَّدُ! هلكَ الوالدُ، وغابَ الوافدُ، فإنْ رأيتَ ألاّ تخلِّيَ عنِّي، فلا تُشمتْ بي أحياءَ العربِ، فإني بنتُ سيِّدِ قومي، كانَ أبي يفكُّ العاني، ويحمي الذمارَ، ويُقري الضيفَ، ويُشبعُ الجائعَ، ويُفرِّجُ المكروبَ، ويُطعمُ الطعامَ، ويُفشي السلامَ، ولم يردَّ طالبَ حاجةٍ قط، أنا بنتُ حاتِمِ طيئٍ.

فقالَ لها النبيُّ ﷺ: يا جاريةُ! هذهِ صفاتُ المؤمنِ، خلُّوا عنها، فإنَّ أباها كانَ يُحبُّ مكارِمَ الأخلاقِ.

٤٠٨ ـ حلمُ أحنف

هو (أبو بحر الضحَّاك بن قيس) وكان من كبارِ السَّادةِ في تميمٍ منذُ نشأ، إذ كانَ يتصدَّرُ الكهولَ، ويُبدي الرأيَ، فيجدُ الموافقةَ عليهِ، وكانَ قصيراً، ليسَ ذا منظرٍ حسنٍ، وقد جلسَ ذاتَ صباحٍ على النهرِ بالكوفةِ وعليهِ ثوبٌ مُخرَّقٌ، وبيدِه كِسرةُ خبزٍ يأكلها، مع كوزٍ فيهِ بعضُ الماءِ، فمرَّ عليهِ شخصٌ غريبٌ، فناداهُ ليأكلَ معهُ، ونظرَ الرجلُ إلى ما يأكلُ الأحنفُ، فكأنَّه استخفَّ بهِ، وأخذَ يتأمَّلُ هذا الذي يدعو إلى الطعام، وليسَ أمامهُ غيرَ كِسرةِ خبزٍ، وكوزٍ من الماءِ، وأثناءَ ذلكَ جاءَ إليهِ ملأ يتنازعونَ في مسألةِ قتيلٍ، ليحكمَ بينهم، فحكمَ بالدِّيةِ، فقالَ أهلُ الجاني: ليسَ لدينا ما ندفعُ، فقالَ الأحنفُ: أنا أدفع، كم تطلبون؟ فقالوا: مئتا بعيرٍ. فقالَ: هي لكم فخذوها من مكانِ كذا. فدُهشَ الغريبُ، وأخذَ يسألُ من هذا الذي يدفعُ مئتي بعيرٍ، ولا يأكلُ غيرَ كِسرةِ الخبز؟ فقيلَ له: ويلكَ، ألا تعرفُ

سيِّدَ بني تميمٍ الأحنفَ بن قيسٍ فتقدَّمَ إليهِ معتذراً، وهو يقول: يا سيِّدي لكأنَّكَ المعنيُّ بقولِ ليلى الأخيليّة:

ومخـرَّقٍ عنـهُ القميـصُ تخـالُـه بيـنَ البيـوتِ مـن الحيـاءِ سَقيمـا
حتـى إذا رُفِـعَ اللـواءُ رأيتَـهُ تحتَ اللـواءِ على الخميسِ زعيمـا

علمَ برسالةِ محمد ﷺ، وسألَ عنهُ من أتى من قومهِ بعدَ زيارةِ المدينةِ، ومقابلةِ الرسـولِ ﷺ، فسمعَ ما أعجبهُ، وقالَ لقومهِ: إنَّه يدعوكمْ إلى مكارمِ الأخلاقِ فاتَّبعوهُ، فأسلموا، وأسلمَ معهمُ الأحنفُ، ولكنَّه لم يأتِ إلى المدينةِ إلاّ في خلافةِ عمرَ رضيَ الله عنهُ، وشهدَ حروبَ الفتحِ الإسلاميِّ بالعراقِ وفارس، وكان قائداً أحرزَ انتصاراتٍ شهيرةٍ، ثمَّ شهدَ مع عليٍّ رضيَ الله عنهُ وقعةَ صفِّين، وأبلى بها بلاءً عظيماً، وحينَ وفدَ على رأسِ تميمٍ إلى معاويةَ بعدَ أنْ استتبَّ له الأمرُ، قالَ معاويةُ: واللهِ يا أحنفُ ما أذكرُ يومَ صِفِّينَ إلاّ وجدتُ عليكَ حزازةً في قلبي، فقالَ له الأحنفُ: واللهِ يا معاويةُ إنَّ القلوبَ التي أبغضناكَ بها لا تزالُ في صدورنا، وإنَّ السيوفَ التي قاتلناكَ بها لا تزالُ معنا، وإنْ تدْنُ منَّا، ندْنُ منكَ، وإنْ تبتعدْ تباعدْنـا، وخرجَ دونَ أنْ يلتفتَ إليهِ، وكانـت أختُ معاويـةَ تسـمعُ الحديثَ من وراءِ حجابٍ، فقالتْ لمعاويةَ: مَنْ هذا الذي يتهدَّدُكَ ويتوعَّدُكَ، فقالَ لها: اسكتي، هذا سيِّدُ بني تميمٍ، إذا غضبَ، غضبتْ معـهُ مئةُ ألفٍ من تميمٍ، لا يسألونهُ فيمَ غضبَ!

ولمَّا أرادَ معاويةُ مبايعةَ يزيد، وكانَ الأحنفُ في بعضِ مجالسهِ، سأله: ماذا ترى يا أبا بحر؟ فقال: يا معاويةُ أخافُ اللهَ إنْ كذبتُ، وأخافكمْ إنْ صدقتُ.

فقالَ له معاوية: جزاكَ الله خيراً، ونقلَ الحديثَ إلى موضوعٍ آخر.

٤٠٩ ـ إياسُ بنُ معاوية

كانَ أحدَ الأذكياءِ في عصرهِ، ورأساً من رؤوسِ الفصاحةِ والبيانِ، ويُحكى عن فطنتهِ أمورٌ عجيبةٌ، يضيقُ المقامُ عن ذكرها جميعها، منها، أنَّه نظرَ إلى آجُرَّةٍ، فقالَ لأصحابـهِ: إنَّ تحتها حيوانـاً يتنفَّسُ، فأزاحوها فوجدوا حيَّةً تتلوَّى على نفسـها، فتعجَّبوا وقالـوا: كيفَ عرفتَ؟ قـال: إنَّ الآجُرَّ حولها جامدٌ، ولكنَّها

وحدها تحملُ رطوبةً يسيرةً خفيفةً لا تُرى إلاّ بتأمُّلِ نظر، فعرفتُ أنَّ تحتها حيواناً يتنفَّس.

وقد أرادَ أنْ يتحلَّلَ من القضاءِ حينَ أشارَ عليهِ بهِ (عمرُ بنُ عبدِ العزيز) فلمْ ينفعِ احتيالهُ، لأنَّ رغبةَ عمر في توليتهِ القضاءَ كانت شديدةً، وله في ذلكَ أعاجيبُ تُروى، ولكنَّه كان مع شدَّةِ اعتدادهِ بنفسهِ يرجعُ إلى الحقِّ متى ظهرَ لهُ وجههُ الصحيحُ، وإنْ خالفَ قوله؛ وهذا من سماتِ الرجولةِ المعتزَّةِ بنفسها، لأنَّ من الاعتزازِ بالنفسِ أنْ تعرفَ لغيركَ موضعهُ، وترى لهُ ما ترى لنفسكَ من التوقيرِ إذا صادفَ الصوابَ.

ويُروى أنَّه قالَ: ما غلبني أحدٌ قطُّ في مجلسِ القضاءِ سوى رجلٍ واحد، وذلكَ أني كنتُ أحكمُ في قضيَّةٍ بالبصرةِ تتَّصلُ بنزاعٍ على بُستانٍ ادَّعاهُ رجلانِ متنابذانِ، فدخلَ عليَّ رجلٌ فقال: هذا البستانُ لفلانٍ، وأشارَ إلى أحدِ المتخاصمينِ فقلتُ: كم عددُ شجرهِ؟ فسكتَ، فقلتُ له: لماذا لا تُجيبُ وأنتَ تعرفُ البستانَ؟ فقالَ الرجلُ: منذُ كم سنةٍ يجلسُ القاضي هذا المجلسَ.

قلتُ: منذُ كذا.

فقال: هل تعرفُ عددَ الخشبِ في سقفِه، وقد جلستَ فيهِ ما جلستَ؟

فتحيَّرتُ في سؤالِه، إذ لم يقعْ في خاطري أنْ أعدَّ خشبَ السقفِ، ثمَّ قلتُ: معكَ الحقُّ، وأجزتُ شهادتهُ، ودعوتهُ أنْ يكونَ عوناً لي في بعضِ ما أُزاولُ من الأحكامِ فامتنعَ، وقال: ورائي ما يشغلني!

وجاءَ إليهِ يهوديٌّ في غيرِ مجلسِ القضاءِ فقالَ: كيفَ يزعمُ المسلمونَ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونَ ولا يُحدثونَ، فقالَ إياس: أكُلُّ ما تأكلهُ أنتَ تُحدثهُ، قال: لا، بل يجعلُ الله بعضهُ غذاءً. قالَ إياسُ: فلمَ تُنكرُ أنْ يجعلَ اللهُ طعامَ أهلِ الجنَّةِ بقدرِ الغذاءِ الذي يقيمُ أجسامهم، فقالَ اليهوديُّ: إنَّكَ لا تُطاق.

هذا آخرُ ما تيسَّرَ جمعهُ من هذهِ الشذراتِ، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات.

* * *

دقائق النفوس

٤١٠ ـ بين البُخل والاقتصاد

في كتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد تحديدٌ دقيقٌ للفرْق بين البُخل والاقتصاد، لأنَّ البخل في رأي المؤلِّف هو التضييقُ على النفس، ومنع اليسير الهيّن عمّن يستحق، وتحمّل المذلَّة الكبيرة في اكتساب اليسير الضيئل.

أما الاقتصاد فإمساكُ الرجل ما في يده خوفاً من مذلّة المسألة، فهو يضعُ الشيء في موضعه. ويصبر عما لا تدعو إليه الضرورة، ولا يستكثر من المودّات خوفاً من أن يتكلَّف ما لا يتحمَّل.

وإذن فالذي يرعَى أمورَ نفسِه دون أن يتحيّفَ الفقير في حقِّ الله نحوه مقتصدٌ، يحسبُ حساب الغد، ويرى المال صوْناً للعرض، فيتحاشى أن يُتلفه في غير جدوى فيكون مُسرفاً مبذِّراً.

وهذا ما يُخطئ فيه الكثيرون، حيث يعدّون المسرف المِتلاف كريماً. والمقتصد المدقِّق بخيلاً، مع أن الأول سفيهٌ، والثاني مقتصد.

أعرف من أصدقائي من يرميه الناس بالبخل، وهو على غير ما يُتَّهم به، فهو يرعى حق الله في ماله، ويعطف على الفقير حين يراه ذا حاجة، ويوصِدُ بابه في وجه من يسأل الناس إلحافاً، مدَّعياً الفقر، وفي طوقه أن يعمل فيكسب، فيريح ويستريح.

ولهذا الصديق مواقف يحسبها الناسُ عليه، وهي مما تُحسبُ له، لقد كان والده يُطعم الناس في ليلةٍ خاصَّةٍ من ليالي العام، فيحُضر أربعين فقيراً يتناولون العشاء لديه في هذه الليلة كل موسم، وقد أوصى ولده أن ينهج نهجه في إحياء هذه الليلة، فقام بتنفيذ الوصية فعلاً، ولكن على طريقته، إذ أخذ يدعو من يراه

أهلاً للإحسان، فيأكل معه وحيداً في يوم، ثم يدعو غيره في يوم آخر فيأكل معه مما يأكل ساعة الغداء، وهكذا حتى يُتمَّ الأربعين من الفقراء في أربعين من الأيام متفرّقة غير متَّصلة، وهو بذلك قد نفذَّ الوصية بجوهرها لا بمظهرها، دونَ أن يحدث الضجيج الصاخب في ليلة واحدة! والناس ينتقدونه فيما فعل، وأنا لا أراه إلا مُصيباً غير مخطئ، فقد أشبع الجائعين على فترات، وليس من المهم أن يجتمع المحتاج وغير المحتاج في ليلة خاصة يتحدث بها الناس.

ومن مبتكراته أنه يوصي من يُقدّمون الهدايا من أصهاره لبناته في دَوْرِ الخطبة أن يُحضروا ما ينفع، لا ما يذهب هباءً، فقد عهد الناس يُقدّمون أكداس العنب والتين والبلح في المواسم، فلا تصبرُ دون تلف، وتصبح عبئاً في المنزل، فأوصى الخاطبين أن يحضروا الأرز والقمح والسكر وما لا يتعرَّض للتلف، ولم يعبأ باعتراض المعترض، إذ أشار بما فيه النفع.

وله مواقف مشابهة يتأمَّلها العاقل فيجد الرجل مقتصداً غير بخيل، وله مكرماتٌ حقيقية يتقدَّم بها سرّاً لذوي الحاجة عن سماح! فكيف يوصف بالبخل لأنه يحارب الإسراف!.

على أني ألحظ في كثير من العجب، أن الناس اليوم لا يلومون المبذّر السفيه، بل يمتدحونه على سفهه ما دام المال في حوزته، ويصفونه بالكرم والسخاء، فإذا حانت عاقبتُه، ودارتْ عليه دائرة الإفلاس قابلوه باللوم الجارح، وأنْحوا على إسرافه السابق باللوم والتثريب، مع أنهم كانوا يبالغون في مديحه من قبل، وهكذا يتحقَّق قول القطامي:

والناسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائلونَ لهُ　　　ما يَشْتهي، وَلأُمِّ المُخْطِىءِ الهَبَلُ

٤١١ ـ كرم كافور

أساءَ المتنبي إلى كافور الإخشيديِّ إساءةً بالغةً، إذ أمعن في هجائه دون وجه حق، فقد أعطاه كافور أكثر مما كان يُعطيه سيفُ الدولة، فلم يقنع، إذ كان يطمع في أن يكون والياً على إقليم كبير، وهذا ما صرَّح به في قوله:

وغَيْــرُ كثيــرٍ أنْ يــزورَكَ واجِــلٌ فيَــرْجِــعَ مَلْكــاً للعــراقيــن وَالِيَــا

وكافـور رجل دولةٍ، لا يرى أن يتولّى قيادةَ الأقاليم غير إداريٍّ متمرّس، لا شاعرٌ طامح، فكان بعيد النظر حين أبى أن يجعل المتنبي في موضع لا يملؤه! ولو كان كافور سيّئ التصرّف لمنح الشاعر ما أراد، ولكنه حاكمٌ مسؤول!.

ولكافور مكرماتٌ نادرة، نذكر منها هاتيْن النادرتين:

قدمَ كافور إلى مصر عبْداً رقيقاً شديدَ السواد، مثقوبَ الشفة السُّفلى، مشوَّه القدمين، ثقيل البدن، ولكنه كان ذا همَّةٍ عالية دفعته إلى أن يشقَّ طريقه في الصخر حتى استقام له سلطانٌ مكين لا يتزعزعُ، وقد خرج ذات يوم على رأس موكبه المحتشد، فمرَّ ببعض الطرق المألوفة، فترجَّل عن فرسه، ووقف على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء، ثم سجد سجدة الشكر لله، حتى إذا فرغ، التفت إلى القوم، فقال في تواضع عجيب: لقد كنتُ عبداً لطبّاخٍ يقيم في هذا المكان، وكان يضربُني ضرباً مبرِّحاً، ويجيعني إجاعة قاتلةً، رغم ما أبذله من عمل شاق، وقد ضربني ذات يوم في هذا الموضع الذي سجدت به الآن بمغرفةٍ ساخنةٍ على رأسي، فلم أحتملْ حرارتها اللاهبة، ووقعتُ على الأرض مغشيّاً عليّ، وها أنا ذا أتذكر الحادث فجأةً، فلا يسعني غير أن أسجد شاكراً لله!.

أما الطرفة الثانية، فقد حكاها كاتبه أبو بكر المحلّي، فذكر أن كافوراً كان يعدُّ ليلةَ العيد أحمالاً من الذهب، ويبعثُ بها في الليل إلى المستورين من الناس، قال أبو بكر: فكنتُ أسيرُ مع الأحمال، وأقوم على توزيعها، حتى أتيتُ منزلَ الشيخ أبي عبد الله بن جابار، وكان آية الآيات في الورع والزهد، فتقدَّمتُ إليه بمئة دينار، وقلتُ: هذه هدية من كافور، فقال الشيخ: قل له نحن نُحبُّه لله، وندعو له في الصلوات، وما نفسد الدعاء بصلةٍ من المال، فراجعته، فلم يقبل الهدية، وسرت إلى كافور فأخبرتُه، فقال: ياأبا بكر: اذهب إليه ثانيةً، وقلْ له في تذلُّل واسترحام: إنَّ كافوراً يقرئك السلام، ويقول لك: ليست الهديةُ هديةَ كافور العبد الأسود، إذ ليس لأحدٍ مع الله ملكٌ ولا شركة، أتدري من معطيك؟ وعلى

من رددت؟ المعطي هو الله يابن جابار، وأنت لا تُفرِّق بين السبب والمسبِّب.

قال أبو بكر: فأسرعت بالذهاب إلى الشيخ، وأبلغته كل ما قال كافور، فبكى متأثِّراً، وقال لي: أين ماحملت؟ فأخرجتُ الهدية، فأخذها، وقال: لقد علّمنا الأستاذ التصوُّف ـ والأستاذ لقب كافور ـ فقلتُ له: أحسنَ الله جزاءَك، ومضيتُ إلى كافور، فأخبرته بقبول الهدية، ففرح فرحاً شديداً، كأنما بُشِّرَ بتحقيق أملٍ عزيزٍ.

٤١٢ ـ استشهادٌ ناقصٌ

ظهر كتابٌ للدكتور (مَنريت) أحدُ رجال الطب المشهورين، يتحدَّث عن تجربة علمية له مع (قِرْد) من نوع الشمبانزي عاد به من غابات إفريقية، وبذل معه جهداً كبيراً حتى استطاعَ أن يأكل على المائدة، ويختار ما يرجو من الطعام، وقد سمّاهُ (فاتو) ثم عرضه على أصدقائه في احتفال صغير، ليكون شاهداً على رقيّ القرد، واقترابه من سلوك الإنسان، يقول الدكتور (هوفمان) أحدُ من حضروا مأدبة الطبيب[١]:

«كانَ أولَ مرةٍ خرج فيها (فاتو) في مجمع من الناس، في حفلة غذاءٍ أقيمت بمنزل الدكتور (منريت) دعا إليها لفيفاً من الأطباء والعلماء ورجال الصحافة، فدخل عليهم (فاتو) منتصبَ القامة، يسير على ساقيه الخلفيتين كالإنسان، وأغلق البابَ من ورائه في خفَّةٍ ولطف، ومرَّ يُحيّي الضيوف المدعوّين، واحداً واحداً، ثم أخذ مكانه في مؤخرة المائدة، وكان الطعامُ الذي قُدِّم عليها ـ وهو طعامُ المدعوين ـ يتألف من سمك ولحم وخضراوات وفاكهة، وكان (فاتو) يتناول الطبقَ من جاره، ويملأه لنفسه بأدبٍ، ويأكلُ بنظامٍ دقيقٍ. وكل ما لُوحظ عليه في تناول الطعام أنه يكثر من أكل الخضراوات والفاكهة، وكان يحتسي كأس النبيذ فيمسكها بيده، ويرتشف الجرعة خلفَ الجرعة في هدوء ونظام، وفي أثناء تناول

---

(١) الرسالة (العدد ٣١٠).

القهوة دعاهم الدكتور (منريت) للتدخين، فقام (فاتو) دونَ أن يشير أحدٌ إليه بذلك، فقدَّمَ للحاضرين لفافات التبغ، ثم تناول اللفافةَ الخاصة به، وأوقدها وأخذ يدخّن في لذَّة واستمتاع».

وكأن الدكتور (منريت) بما عرضَ على الجمهور من أمر هذا القرد، يريد أن يثبتَ أنه انتقل إلى مرحلة (الإنسان) وهذا وَهْم، لأن تعليم الحيوان من الفصائل العليا سهل هيّن، فصاحبُ السرك البهلواني، يأتي بالدبِّ، ويدرِّبه على أن يحمل الفانوس من الأرض، ويضعُه على رأسه ويرقص به دون أن يسقط، كما يدرِّب الليث ـ وهو المفترس الخطير ـ على أن تركبه الأطفال، ويضربه الناس إذا تلكأ، دون أن تظهر منه بادرة سخط، وتدريب الكلاب على الاصطياد، ثم البحث عن آثار الجرائم الغامضة مما اشتهر أمره، ولم يقلْ أحدٌ إن فصائل الدببة والأسود والكلاب قد اقتربت من الإنسان في الفهم، إن الذي يُقال في ذلك: إن درجة الذكاء عند بعض الحيوانات أرقى من سواها، والقردُ أعلى الحيوانات في نسبة الذكاء.

ثم إن الحيوانات في ذكائها المشار إليه تقف عند المشاهد الملحوظ فقط، فلا تُفكّر في الغد، ولا تحسب حساباً لما سيعترضها من المشكلات، وإذا ادّخر النمل بعض الطعام، فذلك عمل غريزيٌ بحت، لا صلة له بالذكاء! كما يبني الطائر عشَّه، ليكوِّن أسرة جديدة، وكل هذا شيء غريزيٌّ، ولا صلة له بارتقاء الحيوان إلى مستوى الإنسان، لنتخذ من ذلك برهاناً على نظرية فسَدَ برهانُها الاستدلالي حيث ظلَّت الحلقة مفقودة بين الإنسان وما عداه، وقد اعترف (دارْوين) صاحب نظرية التطور، أن فجوةً واضحةً في نظريته لم يستطع ملأها، إلا على سبيل الفرض العلمي فقط والغرض العلمي لا ينهض دليلاً منطقياً إلا إذا أيَّده البرهان!.

٤١٣ ـ من كتب التراث ومن المشاهد لدينا

يقول القاضي التنوخي في كتاب (نشوار المحاضرة) نقلاً عن الفقيه المحدث ابن عيّاش:

قال الفقيه الكبير: مررت في شارع الخُلْد ببغداد، فرأيت قرداً معلّماً حوله

الناس، فيقول له القرّاد (صاحب القرد) أتشتهي أن تكون بزّاراً، فيومئ برأسه إلى الأرض، علامة الموافقة، وكأنه يقول: نعم، فيقول القرّاد: أتشتهي أن تكون عطّاراً، فيومئ القرد برأسه إلى الأرض علامة الموافقة، وكأنه يقول نعم، فيأخذ القرّاد بذكر عدّةٍ من الصناعات، حدّاد، نجّار، حلاّق، طبّاخ، خبّاز، زيّات، طحّان، وفي كلها يومئ القرد برأسه إلى الأرض علامة الموافقة، وكأنه يقول نعم، ثم يقول القرّاد: هلْ تشتهي أن تكون وزيراً؟ فيحرّكُ القردُ برأسه جهة اليمين وجهة الشمال، ويجري فارّاً من القرّاد، فيضحكُ الناس، ويعجبون!.

وكانت الوزارة في العصر العباسي الثاني زمن القاضي التنوخي وابن عيّاش، مصدر خطرٍ على صاحبها، إذ يُنقل منها قهْراً إلى السجن فالتعذيب، وقد يُقتل دون محاكمة! حتى اعتذر عنها الكثيرون من الفضلاء، وشاع الأمرُ لدى العامة والخاصة، فانتهز القرّاد هذا الوضع الغريب، ودرَّب القرد على قبول المهن المتواضعة، ورفض الوزارة، لينالَ إعجاب المشاهدين.

هذا في القديم، أما في الحديث فقد روى صديقي الأستاذ (محمود عزت عرفة) هذه النادرة قال: كنت أشهدُ في بعض قرى الصعيد فتىً ريفيّاً يقتادُ حماراً أسود قميئاً، علّمه بعض الأضاحيك، وسمّاهُ (ظريفاً) فكان يومئ إليه فيهوي إلى الأرض ساكناً، ثم يبدأ فيقول له: هل تتزوّج من جِرْجا؟ فيخفضُ رأسه إلى الأرض، فيسأله: هل تتزوج من سوهاج؟ فيخفض رأسه إلى الأرض، ويكرّر الأسئلة من أبوتيج؟ من أسيوط؟ من فرشوط، من طهطا، من أخميم، وكلها من بلاد الصعيد، والحمار يخفض رأسه إلى الأرض عند كل سؤال، فإذا قال له صاحبه: هل تتزوّج من القاهرة؟ وثب الحمارُ من رقدته، وهو يهزُّ رأسه فرحاً نشيطاً، والجمهور يصفق ويضحك! وهذا حمار لا قرد.

٤١٤ ـ ناقةٌ تخاف الحب

يقول شاعرٌ ذو حسّ رهيف، إذ تخيّل الناقةَ تحذرُ أهوالَ الحب فتتحاشاه، فهي عاقلةٌ مفكرةٌ:

أقولُ لِنضوٍ أوْهنَ السيرُ عظْمَها فلمَ يبْقَ منه غيْرَ هشٍّ مجلّدِ:

خُذيني، ابتلاك الله بالشوقِ والهوى وشـاقـكِ تحنـانُ الحمـامِ المغـرِّدِ
فولَّت سريعاً خوف دعوة عاشقٍ تجـوبُ بـي الظلمـاءَ فـي كـلِّ فـدْفـدِ
فلمَّا ونتْ في السيرِ جدّدتُ دعوتي فكانتْ لها سوطاً إلى ضحوةِ الغدِ

* * *

مروءة كريمة

٤١٥ ـ مروءة المهلّب

(المهلّب بن أبي صُفرة) بطلُ الأبطال في معارك الخوارج في العصر الأموي، لا ينازعُه في ذلك أحد، ولكن هذه البطولة تمتدّ إلى نواحٍ خلقية أخرى منها المروءة، وللمروءة عِطْرٌ فوّاح، لا ينكر جدواه إلا الجاحدون، فقد وفد الشاعر (زياد الأعجم) على حبيب بن المهلب، وهو بخراسان، وتوثّقتْ بينهما علائقُ الودِّ حيناً، ثم تغيّر عليه، فبينما هو وحبيبٌ ذات عشيَّة في مجلس حافلٍ، إذ سمع زيادٌ حمامةً تُغنّي على شجرٍ بدار حبيب، فهزّتْه شاعريته، وقال في شبه ارتجالٍ مخاطباً الحمامة:

تغنّي أنت في ذِممي وجاري ... بأنْ لا يذعروكِ ولنْ تُضاري
إذا غنّيتني وطربتُ يوماً ... ذكرتُ أحبتي وذكرتُ داري
فإما يقتلوك طلبتُ ثأراً ... بقتلهمُ لأنكِ في جواري

فتعجّل حبيب ـ يريد إغضاب الشاعر ـ وأخذ سهماً فرمى الحمامة، وخرّت صريعةً، فغضب زياد، وقال: قتلتَ جاري، بيني وبينك أبوك المهلب، وذهب إليه شاكياً صنيع ولده، فقال المهلب: زيادُ لا يُروّع جاره، لقد لزمتْ حبيباً الديةُ، وقدرُها ألفُ دينار، فقال حبيب: إنما كنت أمزح، فقال المهلب: أبو أمامة زياد لا يروّعُ جاره، فادفعْ إليه ديةَ الحمامة، فدفعها حبيبٌ ألف دينار! فقال زياد:

فللّهِ عيناً من رآى كقضيّةٍ ... قضى لي بها شيخُ العراقِ المهلّبُ
قضى ألفَ دينارٍ لجارٍ أجرتُه ... من الطيرِ حضّانٌ على البيضِ يطرَبُ
رماهُ حبيبُ بنُ المهلب رميةً ... فأنفذَه بالسهم، والشمسُ تغربُ

فقـــال: زيـــادٌ لا يُـــروَّعُ جـــارُه   بلى! جارُه جاري، ومل[1] جارِ أقربُ

فبلغت الواقعة الحجاج، فقال: ما أخطأتِ العربُ حين جعلت المهلب رجلَها.

٤١٦ ـ حمامة وقطة

قرأت للجاحظ كلاماً عن الحمام ـ لا أملك مصدره الآن ـ يقول فيه: لقد شـاهدتُ الحمام وراقبتُه، فرأيت أعماله شبيهة بأعمال الإنسـان، إذ كلُّ ما بين الرجل والمرأة تجده واضحاً بين الحمامة الذكر والحمامة الأنثى، ففي الحمام ما يلتزم أنثى واحدة لايتعدّاها، ويمتنع عن الشراب والطعام إن ماتت، وفي الحمام ما تخـون ذكرها، وتطير مع ذكـرٍ آخر، ثم تهجره أيضاً، وفي الحمـام ما يحتضن فرخه، ولا يتركه حتى يشبَّ، وفيه ما يجفوه، حتى يكاد أن يموت.

قلتُ: وقد شاهدتُ بتجربتي صنوفاً من أخلاق القطط، تختلفُ من قطة إلى أخرى، حيث أسْكُن عدة أعوام، أمام فضاء متّسع، تأتيه القطط، وتقيمُ في زواياه، فكنت أعطف على الأم إذا لزمت أولادها الصغار، وتعذَّر عليها أن تجمع بين رعاية الأولاد، والبحث عن الطعام، فأقدّم لها طعامها من بقايا المائدة عظماً ولحماً وسمكاً، فكنت أرى إحدى القطط حين يقدَّم لها الطعام، تأكله دون أن تُشرِكَ صغارها، ثم تذهب لإرضاعها، على حين أرى قطةً أخرى، تُسرع بإحضار الصغار، فتأكل معها، أما الثالثة فهي ذات الإيثار العجيب، لأنها تسارع فتحضر الصغار، وتتركها تأكل دون أن تشاركها، ولم تكن تجربةً واحدة لي بالنسبة لها، بل كنت أراها تلتزم هذا الإيثار، فما تذوق مما يقدَّم شيئاً ما! ولا أكتم القارئَ أني أكبرتُ حنانها، فكنت أزيد الكمية لتجد ما تأكل بعد أن يشبع الصغار، وهنا رأيتُها تأكل الباقي حين يعزف الصغار بتأثير الشبع، وتترك الطعام! أليست الأمومةُ إذنْ ذات مستويات في الحيوان والإنسان؟.

---

(١) أصلها: من الجار، وتدغمُ في الشعر تساهلاً، ورواية الأغاني (وجارةُ جاري مثل جاري وأقربُ).

٤١٧ ـ مروءة نادرة

جاء رجلٌ تحمّل مغارماً دفعها في دية كبيرة إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، فسمع الحسن ما قال: وفكّر بعض الوقت، ثم قال له: ياهذا، حقُّ سؤالك إيّاي يعظم لديَّ، ومعرفتي ما يجب لك تكبر علي، ويدي تعجزُ عن نيلك ما أنت أهلُه، والكثير في ذات الله تعالى قليل، وما في مكنتي وفاءٌ بقدرك، فإن قبلت الميسور، ورفعت عني مؤونة الاحتيال والاهتمام لما أتكلّف من أمرك فعلتُ ما في طوقي دون تأخير.

فقال الرجل: يا ابن رسول الله! أقبلُ القليل، وأشكر العطيّة، وأعذرُ من المنع، فدعا الحسن رضوان الله عليه وكيله، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها، ثم قال: هات الفاضل من ثلاثمئة ألف درهم كانت لديك، فأحضر خمسين ألفاً، قال: فما فعلت خمسمئة دينار كانت لديك؟ قال: هي عندي، فقال: أحضرها، فأحضرتْ، فدفع الدراهم والدنانير للرجل، فقال له وكيله، والله ما بقي لدي شيء، فقال الحسن: لا أيأس من فضل الله، وقد حسب الرجل ما أخذ، فوجده يزيد المثل عن قدر الدين، والحسن يعرف ذلك، ولكنّه أراد أن يكون لدى السائل ما يمكّنه من الرخاء، جزاءً لما تحمّل من المغارم! وكان من المقبول أن يعطيه الدية وحدها، ولكنّه الحسن بن علي رضي الله عنهما.

بعض الباحثين ينكر أمثال هذه القصص، ويعتدّها أساطير تتداولها الكتب دون تحقيق، ومصدر الخطأ عنده، أنه يقيس مجتمع اليوم، بمجتمع المسلمين في صدر الإسلام، فإنَّ أهل هذا العصر لم يكونوا يرون المال جبلاً راسياً لا يتزحزح، ولكنهم يعلمون أن المال غادٍ ورائح، وتبقى من بعده الأحاديث والذكر، وهذا ما قاله حاتمٌ في الجاهلية، قبل أن يشرق نورُ الإسلام، فيدعو إلى البرِّ والإيثار، ويعلنُ أن الصدقةَ بعشر أمثالها، وقد تتضاعفُ إلى سبعمئة، وآلُ بيت رسول الله ﷺ أولى الناس اتباعاً لهدي رسول الله ﷺ، فإذا فعل الحسن ذلك فقد جرى من المعروف على عرق. وقد عاش الحسن في زمن الفتوح، وتدفّق العطاء على

المسلمين، فأثْرَوا وآثروا، وليس بمانعٍ أن يعطوا ما لديهم لأن رجاءهم في الله كبير.

٤١٨ ـ ليلة القدر

لا ينكر أحدٌ فضائل ليلة القدر، فهي خير من ألف شهر، والملائكة يتنزّلون فيها مع الروح الأمين بإذن ربهم من كل أمر، وفي الأثر أن بهذه الليلة ساعةً للدعوة المجابة، والعامّة من المسلمين يُكثرون الدعوات في موسمها الحافل، والله قريبٌ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد سمعتُ نادرة تتعلق بهذه الليلة، ورأيتُ من تتحدث عنهم هذه النادرة، فهي حقيقةٌ واقعةٌ أذكرها لطرافتها[١].

اعتاد بعضُ الفقراء أن يصلي العشاء في مُصلًّى متواضع على حافة ترعةٍ ملأى بالماء، يجاورها طريق زراعيٌّ تسير فيه العربات في تواصلٍ لا يكادُ ينقطع، ومن هذه العربات ما يحمل أقفاص الفاكهة، وما يحمل صفائح الجبن، وما يحمل أكداس السمك، من مكان إلى مكان، وقد جلس صاحبنا بعد صلاة العشاء في مُصلاّه ليلة القدر أمداً غير قصير، حتى انصرف المصلُّون وبقي وحيداً، وقد شمَّ رائحة السمك في الصناديق التي تحملها السيارات عابرةً غير منتظرة، فاشتهى أن يكون له نصيب منه، ودعا الله في سرّه، والليلةُ ليلةُ القدر، ولم يمض أمدٌ يسير، حتى رأى لفافة من القماش ملأى بالسمك، تُقذفُ عليه من سيارةٍ عابرة، ففرح فرحاً شديداً، وتأكد أن الليلة ليلة القدر، وأن الدعوة قد استجيبتْ على الفور، وسُرعان ما حمل اللفافة، وتوجَّه بها إلى زوجته، وقصَّ عليها ما كان من رغبته، فدعائه، فاستجابة الدعاء! وبدل أن تفرح الزوجة غضبت وطال خصامُها، وقالت للزوج: لا يتركُك الفقر أبداً، طلبت قدراً من السمك نأكله في يوم أو يومين، لماذا لم تطلبْ الذهبَ والفضة لنسعد بعد هذا الشقاء؛ وقد كانت فرصة العمر، إذ فتحت لك أبواب السماء، والزوج يهدِّئها، فتقلّب كفّاً على كفّ! وتكاد تصرخ.

---

(١) في القصص نوادر تفوقُ ما سجّله أجدادنا في كتب التراث، ومن الخيرِ أن يروي كلُّ كاتب ما يعرف من هذه النوادر العجيبة! ليتواصل المدّ إلى أبعد مطارحه.

بعد أربع سنوات من وقوع هذا الحادث، جلس أحد شبان القرية، يتحدَّث عن أخطائه التي يرجو أن يتغمَّدها الله بعفوه، فقال: لقد ركبتُ عربة السمك ذاتَ مساء، فأجلسني السائق في الأعلى مع الصناديق، عطفاً عليّ، حيث لم تكن معي أجرةُ السيارة، ولكني قبل أن أصل إلى القرية بدقائق اختلستُ قدراً من السمك، ووضعْته في ثوب قديم أحملُه، ورميتُ به في المصلَّى، لأرجع فأتسلّمه، دون أن يلحظ عليَّ السائقُ شيئاً، وما كدت أغادر العربة حتى رجعت إلى المصلَّى، وأخذت أبحث عن لفافة السمك فلم أجد شيئاً، فخيّلَ لي أن اللفافة سقطت في ماء الترعة، فخلعتُ ملابسي، ونزلت أبحث في القاع طويلاً حتى تعبت، ولفحني برد الليل، وأنا عارٍ أنتفضُ، فرجعتُ مريضاً، ولزمتُ الفراش أسبوعاً كاملاً، ولم آسفْ على مرضي لأنه كان عقاباً من الله.

وكان صاحبُنا يسمعُ في انتباه، فأسرَّ الأمر في نفسه، ورجع إلى زوجته يقول: ألا تتذكَّرين لفافة السمك! لم تكنْ من السماء، ولكن فلاناً سرقها لنفسه، وقذف بها فكانت من نصيبي فهل لا تزالين حزينة؟.

وكان عجيباً أن تقول الزوجة: نعم لا أزال حزينة لأنك لو كنت قد طلبت المالَ، لأرسل الله لك من يسرق صرّة النقود، ويرمي بها إليك! وهذا منطق حواء.

٤١٩ ـ غلطة نحوية

كشفت الإذاعات العربية في مختلف الدول عن فداحة ما يجهله الكثيرون من قواعد النحو، فقد يتحدَّث عالم أو مهندس أو محامٍ في أمر من الأمور، وفي حديث مكتوب معدٍّ، فيروعك أن تلمس الأخطاء النحوية واللغوية في كثير مما قال، وقد يكون المتحدث من معارفك فتصارحه بما جال في خاطرك نحو خطئه المتكرِّر، وتظنّ أنه سيأخذ الأمر مأخذ الجد، وسيحاول أن يتعلَّم المبادئ الأولى لقواعد النحو، لأنه نسيها عن يقين، ولكنه يضحك ملء فمه، ويُظهر عدم الاكتراث لأن المسألة شكليّة لا تتصل بالجوهر!.

أجل! صار الخطأ النحوي واللغوي في أحاديث الإذاعة والتلفزيون خطأ شكلياً لا يتصل بالجوهر، بل صار التنبيه عليه تقهقراً إلى الوراء، وتزمُّتاً لا مبرِّر له، وإني أهدي هؤلاء المتساهلين هذه القصة ذات المغزى الكبير.

كانت الدكتورة سهير القلماوي وهي في مرحلة الدراسات العليا بكلية الآداب قد ألقت محاضرةً أدبيةً أمام أساتذتها الكبار، وكلهم من أعلام الفكر في مصر، فقوبلت المحاضرة بالثناء لدسامتها الأدبية، وكان الدكتور طه حسين بين السامعين، فطلب منها أن تقابله غداً في دار جريدة (كوكب الشرق) للحديث في مسألة مهمة، وحدَّد لها الساعة في صرامة.

قالت الدكتورة: وجلست أفكر، ماذا يريد أستاذي؟ لم يدْعُني قطُّ إلا لعملٍ ذي شأن، أو لمسألة ذات خطر، ثم هو يتعجّل المقابلة، ما سرُّ هذه العجلة؟ أكانت المحاضرة سخيفة إلى هذا الحد؟ إنه لن يستهزئ بها مهما يكن، لأن المحاضرة كلّفتها جهداً كبيراً، وأثنى عليها كبار الأساتذة!.

ثم والت الدكتورة خواطرها نحو اللقاء المرتقب تترى في عدة صفحات، وخلاصة هذه الخواطر أنها لم تَبِتِ الليلة من كثرة القلق. وأنها تركت أعمالاً كثيرة لأن شجونها لم تكن تستقر، ثم حان الموعد، وتحدث الدكتور فقال: «لقد غلطت غلطاً نحوياً في عبارة ما، فإما أن تقلعي عن هذه الغلطة، وإما أن تطلعي على الناس بمذهب جديد، لا يفرّق في إعادة الضمير على الجمع، بين جمع مذكَّر أو جمع مؤنَّث! دوّني في مذكّراتك أن أستاذك قد استدعاك من العباسية إلى عابدين من أجل غلطة نحوية، لأن الأمر خطير في رأيي.

هذا خلاصة مقال كتبته الدكتورة سهير القلماوي عن خطأ نحوي واحد في محاضرة أدبية تشمل عدَّة صفحات، فماذا يقول العابثون اليوم بقواعد النحو، وقوانين اللغة، ولماذا لا يأخذون للحديث عدَّته العلمية فيُريحون ويستريحون؟.

٤٢٠ ـ الله والعقل

يقول الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الصافي النجفي:

إذا طغــى العقــلُ علــى ربِّــه	فــالعقــلُ معنــاهُ هــو الجهــلُ
يعتــرضُ العقــلُ علــى خــالــقٍ	مِــنْ بَعــضِ مصنــوعــاتِــه العقــلُ
إنْ بــانَ فضــلُ العقــلِ فــي صنعــه	فصــانــعُ العقــلِ لــه الفضــلُ
عبــدتُــه لــم أدرِ مــا كُنهــهُ	والجــزءُ لا يعــرفُ مــا الكــلُّ
لــم أدرِ إلا أنــه خــالقــي	وأننــي لشمســه ظــلُّ

* * *

طرائف أدبية

٤٢١ ـ نوادر التلميح

التلميح ـ في بعض معانيه ـ هو الإشارة الخفيّة إلى معنى لا يناسب المقام أن يصرّح به، وهو بعض ما يقصد من كلمة (اللحن) المرادة من قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وفي قول الشاعر:

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا　　　واللحن يفهمه ذوو الألبابِ

ومن نوادر اللحن ما دار حول أبي الطيب المتنبّي، حيث حكوا أنه كان قد تمكّن من نفس سيف الدولة الحمداني تمكُّناً أورثه الغرور والترفُّع على زملائه من الشعراء في البلاط الحمداني، لذلك ثارتْ ثائرتهم، وتحرّشوا به أكثر من مرَّة، حتى هاجمه أبو فراس الحمداني مهاجمة ضاريةً، ضاءلت من نفسه، إذ لم يستطع أن ينهض لابن عم سيف الدولة، بمثل ما ينهضُ به لغيره من مرتزقة الشعراء، هؤلاء الذين قال فيهم أبو الطيب:

أرى المتشاعرينَ غُرُوا بذَمِّي　　　ومَنْ ذا يحمد الداءَ العُضَالا
ومَن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ　　　يجد مُرًّا به الماءَ الزلالا

وقد كان الشاعران الخالديان ممن اشتركوا في انتقاص المتنبّي وتجريحه لدى سيف الدولة، وقد قالا له ذات مرَّة: من هذا الذي يُنشدك في العالم الطويل قصيدةً واحدة، فتمنحه عليها ما يقنع ثلاثمئة شاعر يقولون ثلاثمئة قصيدة، فسكت الأمير قليلاً، ثم قال للخالديين، أدعوكما إلى معارضه قصيدته التي يقول في مطلعها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي　　　وللشوقِ ما لم يُبقَ مني وما بقي

لأنظر هل تبلغان مبلغه، فوافقا مبدئياً، ثم أحضرا القصيدة فقرأها على تؤدةٍ ومهل حتى بلغا قول المتنبي:

إذا شاء أن يلهو بلحيةِ أحمقٍ   أراهُ غباري ثم قالَ له: اِلحقِ

فوقفا طويلاً، وقرّ لديهما أن سيف الدولة يُعرِّض بهما أسوءَ التعريض تلميحاً دون تصريح، لأن القصيدة ليست من روائع المتنبي، حتى تستحق المعارضة، فامتنعا على غيظ كظيم.

هذه النادرة الحمدانية لا نرى مانعاً من تصديقها، وترجيح وقوعها، لأن سيف الدولة كان مقتنعاً بأصالة الشاعر الكبير، وكان من التذوُّق الأدبي بحيث يسهل عليه أن يختار قصيدةً ذات تلميح مُوجع، ثم هو لا يخشى أثر التلميح في نفس الخالديين، فكلاهما متزلّفٌ يرجو ويخشى، فإذا ردَّ عليهما ردّاً موجعاً عن طريق التلميح، فقد رحمهما من التصريح.

٤٢٢ ـ نادرة ثانية تُروى

مما تتناقله كتب الأدب أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي الشهير، كان يصطفي أبا بكر الهذلي الأديب الراوية لمسامرته، وكان من عادة أبي بكر ألا يبدأ الحديث إجلالاً للخليفة، بل ينتظر حتى يُسأل فيُجيب، وقد وعده أبو جعفر ذات مرةٍ بجائزة مالية، ثم تراخى عن الوفاء بوعده لأمر ما قام بنفسه، فبينما هما سائران ذات يومٍ بالمدينة في موسم الحج، إذ مرّا بدار عاتكة، التي كان يشبِّب بها الأحوص الأنصاري، فقال الهذلي للمنصور: ياأمير المؤمنين، هذه دارُ عاتكة التي يقول فيها الأحوص:

يادارَ عاتكةَ التي أتعزَّلُ   حَذَرَ العِدا، وبها الفؤادُ مُوَكَّلُ
إني لأمنحك الصدود وإنني   قسماً إليك مع الصدود لأميلُ

فعجب المنصور من أبي بكر كيف بدأه بالكلام دون سؤال على غير العادة، ثم أخذ يستتيد أبيات القصيدة ـ وكان يحفظها ـ حتى بلغ قول الأحوص:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ، وبعضُهم مَذِقُ اللسانِ يقولُ ما لا يفعلُ

فتذكَّر وعده السابق، وعلم أن الهُذَليّ، يذكّره به، إذْ عليه أن يفعل ما يقول، فبادر بوفاء وعده ومنحه الجائزة دون إمهالٍ.

تروي الكتب هذه النادرة مثالاً للتلميح البعيد، ولا أدري لماذا أستبعدُ أن تكون هذه الطرفة الأدبية حقيقةً واقعةً، إذ أعرفُ أن هيبةَ المنصور تمنعُ أن يشير الهذليّ إلى أنه مَذِقُ اللسان يقول ما لا يفعل، وهو يعلم أن المنصور غضوبٌ متشدِّد، وإذا بلغت هيبته من نفسه حدّاً يمنعه أن يبتدئ الكلام، فكيف يلجأ إلى المؤاخذة عن طريق التلميح، وليست كل النوادر مُلفَّقةً، ولكن منها ما وقع حقّاً، وما يُستبعد وقوعه، وشواهد الحال ذات ترجيحٍ في الحكم.

٤٢٣ ـ نادرة ثالثة

ولدينا نادرة ثالثةٌ تتَّصل بالمتنبِّي أيضاً، هذا الذي شغل الناس في حياته وبعد مماته أيضاً، فقد ذكروا أن الشريف المرتضى كان يكثر من النقد الأدبي لشعر المتنبي في مجالسه العلمية، وقد تعرَّض لمثل ذلك في مجلس حضرهُ الشاب الناشئ أبو العلاء المعري لأول عهده ببغداد، فلم يُطقْ صبراً على هجاء المتنبي، وقال للشريف المرتضى: لو لم يكن لأبي الطيب المتنبي إلا قصيدته التي يقول في مطلعها:

لَكِ يا منازلُ في القلوب منازِلُ أَقْفَرْتِ أنت وهُنَّ مِنْكِ أواهِلُ

لكفتْه سبقاً وإبداعاً، قالوا: فأطرق الشريفُ بعض الوقت، ثم صاح: أخرجوا هذا السفيه، فطرد أبو العلاء، وتغيَّر وجه الشريف المرتضى، ثم قال لتلاميذِه، لم يختَرْ هذا المجترئ قصيدة المتنبي هذه إلا ليلمِّحَ لقوله فيها:

وإذا أتتكَ مَذَمَّتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كامِلُ

هذا ما قيل، وأنا أستبعد هذه النادرة أيضاً، لأن مكانة الشريف المرتضى

عند أبي العلاء الشاب الناشئ حينئذ كانت أعظم وأكبر من أن يكون ناقصاً، وقد مدحه المعرّي من قبلُ، وقال في رثاء والده قصيدةً رنَّانةً طرب لها الشريف الرضي والمرتضى، فمن المستبعد، وهذه منزلته لدى الشريف أن يُقابَل بالطرد، وهو غريبٌ عاجز يطلب العلم في بلد بعيد!! والشريف ذو نخوة ومروءة تمنعانه من هذه الزلَّة، ولم يكن بينه وبين المتنبي ثأرٌ شخصي، ولكنه ناقدٌ فحسب، فلا يبلغ به النقد إلى درجة التعصُّب، واستنكار كل صواب.

٤٢٤ ـ متنبِّية أخرى

لازلنا مع المتنبي، ولكن في عصرنا الحاضر، فقد كان الشاعر المصري الفكه (إمام العبد) ممن يُعجبون بشعر المتنبي، فهو يشغل سامعَه برواية شعره، والحديث عنه في مجالس الأدب بالقاهرة، وما أكثرها على عهد إمام وحافظ والبشري ومطران، وقد أفاض ذات مساء إمامُ العبد في إطرائه للمتنبي، فاعترضه الأستاذ الكبير محمود أبو النصر وكان من أكبر المحامين ورجال السياسة في عصره، وقال له: ياإمام هل تحفظ قصيدة أبي الطيب التي مطلعها:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ ... بما مضى أمْ لأمرٍ فيك تجديدُ

فشخصَ إليه إمامُ العبد، وتأمّل طويلاً، إذ رأى في لهجة أبي النصر ما يدلُّ على الاستخفاف والسخرية، فأدرك أنه يعني قولَ المتنبي من القصيدة:

لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعصا معه ... إنَّ العبيدَ لأنْجاسٌ مناكيدُ

وكان والدا إمام عبديْن رقيقيْن جُلبا من السودان، فكظم الشاعر غيظه، وهدَتْه بصيرته إلى مفاجأة كبيرة، إذ قال للأستاذ محمود أبو النصر، إنها قصيدة جيدةٌ، وأحسنُ بيت فيها هو قول المتنبي:

ما كنتُ أحسبني أحْيا إلى زمنٍ ... يُسيئني فيه كلبٌ وهو مَحْمودُ

فكال له صاعاً بصاع، وهي نادرةٌ تحدَّثت بها الصحف حينئذٍ، وما تزال ترْوى، ووقوعها المُشاهد يؤكِّد صدقَ الكثير مما قيل في هذا الكتاب.

٤٢٥ ـ فنُّ التورية

التوريةُ بابٌ من أبواب التلميح، لأن المتكلِّم حين يـذكر لفظاً يحتمل معنيين، ولا يـريد أن يوقع نفسـه في حـرجٍ إذا كـان ما يـريده ذا أثـرٍ سيِّئ لدى المخاطب، فيلجأ إلى ما يحتمل أكثر من معنى، ليجد في المعنى الثاني مخرجاً من الحرج، على أنه لا مفرّ من الحرج في واقع الأمر، لأن المعنيّ بالقول يُدرك جيداً أن صاحبه يعتصم بالتورية ليجدَ باباً يخرج منه، لا لأنه لا يريد المعنى الصعب، وهذا واضحُ لا لبس فيه، وقد شاعت التوريـة في أدب العصر المملوكي شـيوعاً واضحاً، حتى غلبت على بعض الشعراء، وعُرفوا بها، ويقول ابن حجة الحموي مؤرخ الأدب في هذا العصر عن التورية:

«هذا النوعُ من الكلام ما تنبّه لمحاسـنه إلا من تأخّر من حُذّاق الشـعراء، وأعيـان الكتّاب، ولعمري إنهم بذلـوا الطاقـة في حُســن سلوك الأدب، إلى أن دخلوا فيه من باب التورية، لأن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها سحراً، وسحرُها ينفثُ في القلوب، ويفتح أبوابَ العطف والمحبّة، وما أبرز شمسها من غيـوم النقد إلا كل ضامرٍ، ولا أحرز قصباتِ السـبق فيها مـن المتأخريـن إلا الفحول..

والقاضـي الفاضـل هو الذي عصـر سـلافة التوريـة لعصره، وتقـدّم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره، فإنه رحمه الله كشف بعد طول التحجُّب سترَ حجابها، وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها».

وقـد نتجاوز عن قول ابن حجة: «إن التورية أغلى فنون الأدب وأعلاهـا سحراً»، لأنه يحكم بذوق عصره لا بالمتعارف لدينا الآن، وعصر ابن حجة كان عصر البديع بجميع مُحسّناته، فإذا أشادَ به فهو ابن الزمن الذي لا يعدُوه.

٤٢٦ ـ مثال جيد للتورية

اتخذت التورية في العصر المملوكي سلاحاً من أسلحة الهجاء، فشـاع استعمالها لدى الشعراء تملُّحاً وظرْفاً، لا أقول الشعراء فقط، بل لدى كبار الفقهاء

والمحدّثين، وهم الذين ينزّهون ألسنتهم عن اللغو، ومن أمثلة ما قاله كبار العلماء في هذا الباب، ما وقع بين الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في علم الحديث كما وصفوه في زمانه، وبين زميله ومنافسه المحدّث الكبير بدر الدين العيني، وما منهما إلا له مقام معلوم، وكانت المنافسة بينهما منافسة علماء، لا تتّخذ طريق المجاهرة والإعلان، لأن منزلتهما العلمية لا ترتضي ذلك، ولكنها تأخذ بابَ التلميح الخفي عن طريق التورية اللطيفة، وقد كان ابنُ حجر يتعاطى الشعر، وله ديوانٌ مطبوع، كذلك كان البدرُ العيني يحرص على أن يكون مبرّزاً في كل فنون الأدب ومناحي العلم، وتصادَف أن بنى الملك المؤيَّد مسجده الشهير بالغورية، وعيّن به البدر العيني أستاذاً للحديث، ولم يكن بناءُ المئذنة مُتْقَناً، فمالتْ عن استوائها، وهدَّدت المارّةَ بالسقوط، وتحدث الناس بذلك، فقال الحافظ ابن حجر مورّياً:

لجامع مولانا المؤيَّدِ رَوْنَقٌ ... منارتُه بالحُسْنِ تزهو وبالزَيْنِ
تقولُ (وقد مالتْ عن القَصْدِ): أَمْهِلُوا ... فليس على جسمي أضرُّ من (العَيْنِ)

والتورية في كلمة (العين) لأن المعنى الظاهر منها هو العين الباصرة التي حسدت المئذنة، والمعنى المستتر عن العامة ويعرفه الخاصة فهو (العيني) بدر الدين الذي يدرّس الحديثَ بالمسجد، وكان فألاً سيئاً عليه وعلى المئذنة.

ولم يسكت البدر العيني عن هذا التلميح المقصود، فردَّ على صاحبه قائلاً:

منارةٌ كعروس الحُسْنِ إذْ جُليتْ ... وهَدْمُها بقضاءِ الله والقدرِ
قالوا أُصيبتْ بعينٍ قلتُ: وَيْحَكُمُ ... ما أوجبَ الهَدْمَ إلا خِسَّةُ (الحَجَرِ)

فالتورية هنا في كلمة (الحجر) لأن المعنى الظاهر منها هو الطوب الذي استعمل في البناء، فلم يكن صلباً قوياً يتحمّل ما فوقه، والمعنى المستتر عن العامة ويعرفه الخاصة هو (ابن حجر) الذي تعرّض لذمّ صاحبه فقوبل بما يستحق.

٤٢٧ ـ طرفتان شعريتان

ومن قول (البهاء زهير) مؤثراً التلميح عن التصريح:

وصرِّحْ إذا حدَّثتَ بالبانِ والحِمَى وإيّـاكَ أن تنسـى وتـذكـرَ زَيْنَبـا
أشرْ لي بوصفٍ واحدٍ من صفاتها تكـن مثـلَ مـن سمَّـى وكنَّـى ولقَّبـا

وقول معاصره (عمرُ بن الفارض) أيضاً:

يـاأخـتَ سعـدٍ مـن حبيبـي جئتِنـي بـرسـالـةٍ أدَّيْتِهـا بتلطُّـفِ
فقـرأتُ ما لم تقرأي، وشـهدتُ ما لم تشـهدي، وعرفتُ مـا لم تعرفي

* * *

نوادر علمية

٤٢٨ ـ نادرة لغوية

دأبَ بعضُ اللغويين على تلفيق نوادر أدبية، يُرادُ بها شرحٌ موجزٌ لبعض التعبيرات مع إسناد هذه النوادر إلى أعلام من الصحابة والسلف المتقدِّم، وموطن الضعف في هذا العلم اللغوي هو إسناده إلى من لم يقولوه، وبذلك يفقد بعض تأثيره لدى من يتمسَّكون بصدق الرواية وصحة الإسناد، ولكن جمهور المتأدِّبين، يرون في هذه القصص الملفَّقة جمعاً لبعض المعاني المبعثرة، يقرّبها للذهن، ويدنيها من الذاكرة، ولا حرجَ عليهم في ذلك إذ يروونها، ونحن نعلم أن من المقامات الأدبية بعض وضعه الهمذانيُّ والحريريُّ والزمخشريُّ لتعليم اللغة فحسب، فلنعدّ هذه النوادر من لغوية وفقهية وكلامية ونحوية مما وضع للتعلم والحفظ، دون نظر إلى توثيق المصدر، وإلى درجة الإسناد، وحسبُها أن أدّت مضموناً علمياً يعلقُ بذهن القارئ أكثر مما يعلق به لو سِيْقَ في مضمونٍ خشنٍ جافٍّ.

ولنضرب المثلَ لذلك ببعض هذه الطُّرَف، وإنها لكثيرةٌ في التراث العلمي.

قال ابن الشيخ الأندلسي في كتابه المسمَّى (الألبّاء): اختُلفَ في الحين، فيُروى أن رجلاً أتى أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقال له: إني حلفتُ ألا أكلم أخي حيناً، فقال له أبو بكر: لا تكلّمه مدى الحياة، ثم أتى عمر رضي الله عنه، فقال له: مثل ذلك، فقال عمر: لا تكلّمه سنةً، ثم أتى عليَّ بن أبي طالب كرم الله وجهه فسأله هذا السؤال، فقال: لا تكلّمه إلى غروب الشمس، فقال الرجل: سبحان الله، ثلاثةٌ من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم، يختلفون في أمرٍ واحد، مع أن رسول الله ﷺ يقول: «أصحابي كالنجوم من اقتدى بهم فقد اهتدى».

قال ابن الشيخ الأندلسي: «وقد قال الفقيه أبو محمد عبد الله الوحشيّ

الورّاق بصدد ذلك، لقد تأوّل أبو بكر في يمين هذا الرجل خبرَ قوم يونس عليه السلام، إذ قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٨]، وتأوّل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وذلك أنَّ النخلة تؤتي أكلها كلّ عام، وتأوّل عليٌّ رضي الله عنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٧] وذلك مما يتكرر كل يوم».

فواضع هذه النادرة كان يريد أن يذكر معاني الحين، كما عبَّر عنها القرآن الكريم، فجاء بثلاث آيات مختلفات المعنى، ولفَّقَ روايةً تجعلُ ثلاثة هذه المعاني منسوبةً لثلاثةٍ من أفاضل الصحابة، ولا أحكم الآن على مشروعية هذا التلفيق، ولكنني أنبِّه إلى أنَّ غرضَ الواضع هو تفسير بعض كلمات القرآن.

والأَوْلى أن نبتعدَ في ذلك عن صحابة رسول الله ﷺ، لأنهم القدوة قولاً وعملاً بعد الرسول ﷺ، فما يجوزُ أن ينسب إليهم ما لم يقولوه..

٤٢٩ ـ نادرة مشابهة

ومن قبيل هذه الطرفة ما جاء في كتاب (المِخلاة) لبهاء الدين العاملي، حيث روى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لقي حذيفة بن اليمان، فقال له عمر: كيف أصبحت ياحذيفة؟ قال: أصبحتُ أحبُّ الفتنة، وأكرهُ الحق، وأصلِّي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء، فغضب عمرُ غضباً شديداً، وقابل عليَّ بن أبي طالب، فحدَّثه بما سمعَ من حذيفة في شيء من الغضب عُرِف في وجهه، وفي نبرات لسانه، فاستعادهُ عليٌّ ما قال، ثم فكَّر بعض الوقت حتى اهتدى إلى تفسير ما عناه حذيفةُ، فقال لعمر: صدَقَ حذيفةُ ياأميرَ المؤمنين، إنَّ حذيفة حين قال: أحبُّ الفتنةَ، فإنما يعني المال والبنينَ، لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وحين قال: أكره الحقَّ، فإنما يعني الموتَ، لأن الله عزَّ وجلّ يقول: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [سورة قٓ ١٩]، وحين قال: يصلِّي بغيرِ وُضوءٍ فإنه يعني أنه يصلِّي على رسول الله ﷺ كلَّ وقتٍ دون

أن يُفْرَض عليه أن يتوضأ، وحين قال: لهُ في الأرض ما ليسَ لله في السماء فإنما يعني أن له زوجةً وولداً، وليس لله من زوجة أو ولد، فقال عمر: لقد أصبتَ.

وواضحٌ أنّ واضعَ هذه القصـة يعرف غَيْـرَةَ الفاروق رضي الله عنـه على الدين، فأسند الغضبَ إليه، ويعرف صراحة حذيفة بن اليمان وصدق حديثه، فـأنطقه بما ينبئ عن هذه الصراحـة بوضوح[1]، ويعرف أن علـيَّ بن أبي طالب هو بـابُ مدينة العلم، وأن عمر كان يستفتيه فيما أعضل، وهو القائل: قضيـةٌ ولا أبا حسنٍ لها، فجعله صاحب الفتوى، ولكنْ فاتَ هذا الواضع شيءٌ هامٌّ، هو أن عمر رضي الله عنه ما كان ليصبرَ على قول حذيفة، حتى يلقى عليّاً، ولكنه كان سيسـتوضحُه في الحال معنى ما يـريد، إذ من طبيعتـه الحسـمُ السريع، وهـو لا يخشى في الله لومة لائم، وقد تُعتبر هذه القصة من باب (المعمَّى) وهو ضربٌ من الألغاز الأدبية له مكانه في كتب الأخبار والمسامرات.

٤٣٠ ـ نادرة فقهية

جاء رجلٌ يتّجر في القماريِّ ـ نوع من الحمام المغرّد، وواحدُه قمْريّة ـ إلى الإمام مالك رضي الله عنه يستفتيه في أنه حلف يميناً بالطلاق أن قمريَّهُ لا يهدأ من التغريد، فقال الإمام مالك: يارجلُ! لقد طُلِّقتْ زوجتُك لأنَّ القمريَّ يسكتُ في فتراتٍ كثيرةٍ، وكان الشافعيُّ تلميذاً يحضر مجلس الفقه في درس أستاذه مالك، فعلم بما ردَّ به الإمامُ، وفكَّر بعض الشيء. ثم ذهب إلى الرجلِ فسأله: ما الذي يغلبُ على القمريّ لديك؟ السكوتُ أم التغريدُ؟ قال الرجل: التغريد، وهذا ما دفعني إلى أن أقسمت بالطلاق، فقال له: أرى أن امرأتك لم تطلق، وجاء الخبر لمالك، فاستحضر تلميذَه ليقول له: بماذا أفتيتَ في مسألة القمري؟ وما دليلك؟ فقال الشافعي: إنك حدّثتنا عن عبد الله بن يزيد عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن عن فاطمـة بنت قيس: أنها أتـت النبي ﷺ فقالت: يا رسـولَ الله! إن أبـا جَهْمٍ

---

(١) لقد نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات وهذا منها، فكيف يقع من صحابي جليل؟!!. (الناشر)

خطبني، فهل أتزوَّجه، فقال ﷺ: «إنَّ أبـا جهم لا يضعُ عصاه عن عاتقه»، وقد علم رسولُ الله ﷺ أنَّ أبا جَهْمٍ يأكل ويشرب وينامُ ويستريحُ، وهو في كل ذلك يضع عصاه عن عاتقه، فعلمنا أن المراد غالبُ أحوال أبي جهم، وكذلك تغريد القُمري إنما يكون بأغلب الأحوال، فوافق مالكٌ ولم يستنكر!.

فهذه النادرة قد تكون ممَّا حدث فعلاً، إذ لا غرابة تدعو إلى استبعادها، وقـد يكون من يحبون أن يستكثروا من فضائل إمام مذهبهم قد وضعها، ليبرزَ حُسن استنباط التلميذ، وبلوغه ما لم يبلغ الأستاذ، وهذا ما نشهده فيما يسمَّى بكتب (المناقب) وكان الأَولى بهؤلاء الذيـن يحاولون الموازنة بين إمامٍ وإمـامٍ بقصد الغلبة والتفوّق فحسب! أن يعلموا أنه لا كبير في العلم، وأن الأئمة الأربعة وغيرهم من ذوي الفضل لا يـرضون هذا المسـلك، وكلٌّ منهم يعترفُ بالفضل الراسخ لقرينه، ويباهي به، فكيف يَخلُفُ من بعدِهم خلف منابذ؟.

لقد تحدث الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في بعض أحاديثه الداعية إلى احترام الأئمة جميعاً دون تفريق، فقال: إني دُهشتُ حين سألني بعضُ الناس قائلاً: أتجوزُ صلاةٌ من يذهب مذهب الشافعي مؤتمَّاً بمن يذهب مذهبَ أبي حنيفة؟ وحين تجهَّمتُ غاضباً، كانت دهشتي أكثر حين علمتُ أنه سمع من فقيه حدَّد اسمه بأن الصلاة لا تجوز، فلم يسعني إلا أن أضرب كفَّاً بكفٍّ، وأقول في أسفٍ: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٤٣١ ـ نادرة نحْوية

قالوا: اجتمعَ الكسائي واليزيدي عند الرشـيد، فتحدثا في بعض مسـائل العلم، وما يهتمان في أكثر ما يتحدثان إلا بالنحو، فقال اليزيديُّ للكسائي: أتجيزُ هذين البيتين:

مـــا رأينـــا خـــرَبـــاً نقَّـــر ... عَنْـــه البَيْـــضَ صَقْـــرُ
لا يكـــونُ العَيْـــرُ مُهْـــراً ... لا يكـــونُ، المُهْـــرُ مُهْـــرُ

فقال الكسائي: يجوزُ على الإقواء، والصحيحُ لا يكون المهر مهراً بالنصب.

فقال له اليزيدي: انظر جيداً، فلم يتكلَّم الكسائي، فقال اليزيدي: لا يكونُ المهرُ مهراً محالٌ في النصب، والبيتان جيدان، وإنما ابتدأ فقال: المهرُ مهرٌ، ثم ضرب اليزيديُّ بقلنسوته الأرض، وقال: أنا أبو محمد، فقال له يحيى بن خالد البرمكي ـ وكان بالمجلس ـ: خطأ الكسائي مع حُسْنِ أدبه، أحبُّ إلينا من صوابك».

وكي نوضِّحَ المسألةَ نقول: إن معنى البيت الأول أن الخرب ـ هو ذكر الحبارى ـ إذا باض، فهو الذي ينقر بيضه ليخرج الفرخُ، وما رأينا صقراً يقومُ مقامه، ومعنى البيت الثاني إنَّ العَيْرَ عيرٌ، والمهرَ مهرٌ ولا يكون العيرُ مهراً، وإذن فقول الشاعر (المهر مهر) جملةٌ مستأنفة، وقد ظنَّها الكسائي غيرَ ذلك ـ فيما روت النادرة ـ إذ جعلها اسماً وخبراً ليكون، وبذلك حكم (بالإقواء) والإقواءُ هو اختلافُ حركةِ الرويِّ، وهو مضمومٌ في البيت الأول، وعلى رأي الكسائي كان يجب أن ينصب!!.

وأذكر أن أستاذنا الشيخ محمد الطنطاوي في كتاب (نشأة النحو) قد أخذ على الكسائي تعبيره (بالإقواء) وقال: إن الصحيحَ أن يقول الكسائيُّ: يجوز على (الإصراف) لا على الإقواء، لأن الإقواء يكون بين الرفع والجر، وهنا بين الرفع والنصب، أما الإصرافُ فاختلاف الحركة مطلقاً، سواء كانت رفعاً أو نصباً أو جرّاً، وقد عقَّب عليه الدكتور البحاثة محمد أحمد سحلول، فقال: إن الكسائي يتبع أبا عمرو ويونس بن حبيب لأنهما يجعلان الإقواء مثل الإصراف تماماً!! وهذا رأيٌ صائبٌ، وبعد هذا الحوار العلمي أقول: إني أستبعدُ ألا يفهم الكسائي البيتَ مع وضوحِه لمن هو أدنى مرتبةً من العلم من الطلاب، فهل تكون النادرة موضوعةً لترجيح شيخ على شيخ؟.

٤٣٢ ـ نادرة عروضية

في القرآن الكريم آياتٌ شريفةٌ جاءت وفقَ الوزن العروضي دونَ قصدٍ، لأن العلماء هم الذين بحثوا عن هذه الآيات، مباهاةً وإظهاراً لبراعة التنقيب، ومنها

قوله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فإنه يصلحُ أن يكونَ بيتاً يكتب هكذا:

لــــنْ تَنَـــالُــــوا البِـــرَّ حتَّـــى   تُنفِقُـــــوا مِمّـــــا تُحِبُّــــــون

وأظنُّ أنَّ بعضَ شعراء العصر العباسي قد اقتبسه في شعر له، ولبعض العلماء مختاراتٌ من الآيات الكريمة شملت جميع بحور الشعر، إذ استشهد لكل بيتٍ بنصٍّ قرآني! ومن البديهي الواضح أن القرآن ليس بشعرٍ، ولكن ذلك نمطٌ من اجتهادِ العروضيين.

وفي هذا النطاق أذكر أني قابلتُ بعض الفضلاء، فذكرتُ له قولَ الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣]، وقلتُ له: من أي بحر؟ وهو عروضيٌّ متمرِّسٌ فوقف حائراً، فقلت له: إن الآية من بحر الرجز وتُكتبُ هكذا:

إنـــي وجـــدتُ امـــرأةً تمْلِكُهُـــم   وأُوتيـــتْ مِـــنْ كـــلِّ شـــيءٍ ولَهـــا
عرشٌ عظيم. . . .

فدُهش كثيراً، وسألني: هل اهتديت إلى ذلك وحدَك، فقلت له: كلا، بل وجدتُ البيتَ في ديوان (ابن الوردي) إذ نظم قصيدةً ضمَّنها هذا النص الكريم، ولكني أضيفُ إلى ذلك أن آخره يصلح بيتاً آخر من مجزوءِ الرَّمَلِ يكتب هكذا:

أوتيـــــتْ مـــــن كـــــلِّ شـــــيء   ولهـــــا عـــــرشٌ عظيـــــمٌ

وكلام الله أعلى وأرفعُ من أن يكون شبيهاً ببعض الأوزان، ولكن عاشقي القرآن يفتِّشون في خباياه ليتحفوا القرّاء بالطريف.

٤٣٣ ـ وصف القرآن

يقول نابغة البيان العربي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله عن القرآن الكريم:

آياتٌ منزّلةٌ من حول العرش، فالأرضُ بها سماءٌ، هي منها كواكبُ، بل هي الجندُ الإلـٰهي قد نُشر له من الفضيلة عَلَمٌ، وانضَوَتْ إليه من الأرواح مواكبُ، وما كان القرآن إلا نور الشمس لايزالُ الجاهلُ يطمعُ في سرابه، ثم لا يضعُ منه قطرةً في سقائه، ألفاظٌ إذا اشتدَّت فأمواجُ البحارِ الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاسُ الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عُمادُها ونظامُها، وتصفُ الآخرةَ فمنها جنَّتها وضرامها، ومعانٍ بينا هي عذوبةٌ ترويك من ماء البيان، ورقةٌ تستروح منها نسيم الجنان، وبينا هي ترفُّ بندى الحياة على الضمير، وتهبّ عليها بأنفاس الرحمة، إذا هي بعد ذلك إطباق السحاب، وقد انهارت قواعده، والتمعت ناره، وقصفت في الجوِّ رواعده.

* * *

الملثَّمون

٤٣٤ ـ المقنَّع الكندي

المقنّع من يضع القناعَ على وجهه متنكّراً كي لا يعرفه أحد، وسبب هذا التنكُّر لا ينتهي لأمرٍ واحدٍ، بل قد تعدّد الأسباب لدرجة التناقض، إذ هناك من يضع القناع على وجهه كيلا يحسده أحد، إذ بلغ من الجمال مبلغاً يصل به وبناظره إلى الخطر، وهناك من يضع القناع على وجهه كي يستر دمامةً مؤلمةً مُنِيَ بها فآلمته وأوجعته، ويرى في الاختفاء سبيلاً لراحته وراحة سواه.

والمقنع الكندي من الطراز الأول، من الذين يضعون القناع كيلا يحسدوا، إذ يقول مؤرِّخوه: إنه رُزق صباحةَ الوجه، وكان يرجع مريضاً إذا نظر إليه إنسانٌ ما بتأمُّل، فيعتقد أنه قد حُسد، ونحن هنا نُثبتُ شعوراً تلبّس المقنع، وتملّك تفكيره، فأدّاه إلى أن يلتثم، ولسنا في معرض من يصدّق أو يكذّب.

وقد كان المقنَّع الكندي من شعراء العصر الأموي المقلّين، ولا ترجعُ قلّةُ ما قال، لأنه ليس في قدره أن يكثر، فقد ترجع إلى عزوفه عن المدائح والنقائض التي اشتهرت في عصره، ودوّى بها صيت جماعة من الشعراء، لأن المديح عند فريق من طراز المقنَّع الكندي لا يليق بكرامة الشاعر الأبيّ، لأن المادح في صميم أمره سائلٌ يرتزق، أما النقائض فهجاءٌ مرٌّ يتبادله القائلون، ومن أحسن كمن أساء في الميزان الخلقي لدى المقنَّع، أما الميزان الأدبي فله نقّاده العدول.

كان المقنَّع ذا مروءة وأريحية، فهو كريمٌ جوادٌ، ذو منزلةٍ مقصودةٍ، وساحةٍ آهلةٍ، إذ كان لا يردّ سائلاً، بل جعل يستدينُ ويستدين ليرضي حاجة القصّاد، حتى لامه أقربوه وعاتبوه، فقال يردُّ عليهم:

يُعاتبني في الدَّيْنِ قومي وإنما ديوني في أشياءَ تُكسِبهم حَمْدا

أسـدُّ بـه مـا قـد أخلّـوا وضيَّعـوا ثغـورَ حقـوقٍ مـا أطـاقـوا لهـا سَـدَّا
وإنَّ الـذي بينـي وبيـن بنـي أبـي وبيـن بنـي عمّـي لمختلـفٌ جـدّا!
فـإنْ أكلـوا لحمـي وفرْتُ لحومهـم وإنْ هـدَمـوا بيتـي بنيـتُ لهـم مجـدا
وإنْ ضيَّعـوا غيبـي حفظـتُ غيـوبهـم وإنْ هُـم هوَوْا غيّـي، هويتُ لهـم رُشْدا
لهـمْ جُـلّ مـالـي إن تتـابـعَ لـي غنـى وإن قـلَّ مـالـي لـم أكلّفهـم رِفْـدا
ولا أحمـلُ الحقـدَ القـديـم عليهـمُ وليس رئيس القومِ منْ يحملُ الحِقْدا
وإنـي لَعَبْـدُ الضيـفِ مـادامَ ثـاويـاً ومـا شيمـةٌ لـي غيـرَهـا تُشْبِـه العَبْدا

يقول الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي تعليقاً على هذه الأبيات: «إن من يسمعُ هذه القصيدة يكبر هذه المكرمة ويُجلُّها، وينظر إليها في علياء سمائها، كما ينظر الفلكيُّ الراصدُ إلى كوكبه، ويشعر كأن نورها قد لمع فامتدَّ شعاعُه إلى جوانب نفسه فأضاءها».

٤٣٥ ـ المقنَّع الخراساني

يقول أبو العلاء المعرّي:

أرفـقْ إنمـا البـدرُ المقنـع رأسـه ضـلالٌ وغـيٌّ مثـل بـدر المقنّـع

والشاعر يتحدث هنا عن المقنَّع الخراساني، وهو من المقنَّع الكندي على طرفي نقيض، حيث كان أعورَ دميماً ذا برص، فكان يتّخذ قناعاً من ذهب، يخفي به دمامته البشعة، هذا في مظهره الحسي، أما في مخبره النفسي فقد طمح به الغرور، واستخفَّ قومَه فأطاعوه، حين حكى لهم أن روح الله عز وجل قد حلَّتْ في آدم عليه السلام، وأخذت تتنقل في جميع الأنبياء والأولياء حتى انتهت إليه، فصار إلٰهاً! وقد عظم أمره بالتفاف السفلة والرعاع حوله، إذ أباح لهم من المحرَّمات ما استهوى النفوس المتعطِّشة للارتواء الدنيء.

وحين عظم خطرُه جرّد له المهدي العباسي كتائب يقودُها أمهرُ قواده، وأشجع رجاله، ولكن اعتصامه بالجبل مع وعورة المسالك بخراسان قد أدى إلى

انهزام جيوش الخلافة في كرّاتٍ متتابعة حتى انزعج المهدي، وأعدَّ جيشاً قاهراً لا يُغلب، فاستطاع أن يدهمَ الطاغية في حصنه المنيع، فيما وراء النهر، وحين أحسَّ المقنع بقرب الخطر، وتحقُّق وقوعه، جمع نساءه وأولاده، وسقاهم السمّ، فماتوا جميعاً، ثم شرب هو الآخر ليلحق بهم، وقد كان متملِّقاً للغرائز الهابطة حين أسقط عن أتباعه فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج، ونادى بالإباحية المطلقة في النساء والأموال، فاستهوى الضعفاء، وحرص على أن يستأصل من يمتنع عن تقديم أمواله وعبيده إليه، لتكون شركةً للجميع كما يزعم، وهي نزعةٌ مزدكية قرأ عنها، فحاول تطبيقها، وغرَّه خضوعُ من حوله، فتألَّه.

أما قول أبي العلاء:

أرفـقْ إنمـا البـدرُ المقنـع رأسـه ضـلالٌ وغـيٌّ مثـل بـدر المقنّـع

فيتضمن إشارةً تاريخيةً إلى بعض تمويهات هذا الطاغية الدجّال على من التفَّ حوله من الأوشاب والرعاع، لأنه أنبط بئراً في بعض جبال خراسـان، ثم طرح زئبقاً رجراجاً فوق الماء بأعلى الجبل، فكان شعاع الزئبق يرتسمُ في الأفق كأنه بدر ساطع، فيستخفّ قومه حين يقول: هذا البدر بدري، وأنا أطلعتُـه في سمائي، يظهر في كل ليلة كاملاً دون أن يبدأ هلالاً، ويستمرُّ في النموِّ حتى يصير بدراً، ثم يأخذ في النقصان حتى يدركه المحاق! وقد عُرف عندهم ببدر المقنع، وهو ضلالٌ وغيٌّ كما ألمح أبو العلاء، وفي البيت العلائي تحاملٌ على المرأة، وهو ما عُهِدَ عن المعري، وأراه كان قاسياً حين جمع بينها وبين المقنع لأدنى الملابسات!.

وإذا كان المعري قد اختصَّ المقنع الخراساني بهذه الإشارة، فـإن حافظ إبراهيم شاعر النيل قد اختصَّ المقنع الكندي بإشارةٍ مماثلة حين قال:

(وسَـلْ يلْـدزاً) إنـي رأيـتُ جمـالهـا على الدهر قد أنسى جمالَ المُقنَّعِ

في قصيدة يمدح بها شوقي، فيقول: إن قصيدته التي مطلعها:

سـلْ يلـدزاً ذاتِ القصـورْ هـل جـاءَهـا نبـأ البـدورْ

كانت ذات جمال فائق أنسى جمال المقنع، وهو اصطياذٌ للمعاني تبعثُ عليه القافية لا أكثر ولا أقل.

٤٣٦ ـ المقنَّعون في عكاظ

كان الثأر في الجاهلية أمراً لا محيدَ عنه، وكان الموتور يترقَّب الموسمَ في عكاظ، ليشفي صدرَه من واتره، وكادت تتحوَّل السوق إلى مذابح، فرأى كثيرٌ من شيوخ القبائل أن يفدَ الخائف على نفسه مقنَّعاً، لا يكشف وجهه حتى لا يُعرف، ومن هنا كثر الملثَّمون في السوق، ولكن في فرسان العرب من رأى في اللثام مهانةً، ومظنَّة جُبْن تلحق بشجاعته، فترك اللثامَ، وجاء سافراً غير مقنع، ومن هؤلاء طريف بن تميم العنبري، إذ قتل رجلاً من شيبان، وحرصتْ شيبان على إدراك ثأرها منه، فجعل كلُّ شيباني ينظر في وجهه، وكأنه يريد أمراً، ولوثوق طريفٍ من نفسه أظهر تهاونه، وقال أبياتاً مطلعها:

أوَكلَّمـــا وَرَدَتْ عُكـــاظَ قبيلـــةٌ بعثـــوا إلـــيَّ عـــريفَهـــم يتـــوسَّـــمِ!

والتوسُّم للتفرُّس في الوجه لمعرفة صاحبه، ولكن حياة طريف كانت مهدّدة، فلم ينجُ مِنْ مصيره حين تربَّص به من اغتاله، ولو لجأ إلى التقنُّع باللثام ما عرفه أحد.

وممن عُرف عنهم التقنُّع في غير موسـم عكاظ، وضَّاحٌ الشـاعر اليمني، وأبو زُبيد الطائي، ولكل منهما علَّة دفعته إلى القناع.

٤٣٧ ـ وضّاح اليمن

مات أبوه وهو طفل، فانتقلت أمه إلى أهلها، وتزوَّجت رجلاً من أولاد الفرس، وشبَّ وضاحُ في حجره، وكان صبياً جميل الصورة، فادَّعى الفارسيُّ أنه ولده، وجاء أعمامُه فخاصموه، وأقاموا البيّنة على انتسابه إليهم، فحكم لهم أميرُ اليمن، وأوصاه أن يتقنَّع كيلا يُسبي النسـاءَ، فلزمَ القناعَ في أكثر تجواله، وقـد

هويَ فتاةً جميلةً تسمّى (روضة) وافتتن بها، وقد مانعته وماطلته على شغف الحسان به، وإذا كان كلّ بعيد مرغوباً، فقد هام بها وضاحٌ، وأنشد فيها شعراً يسيلُ رقّةً وعُذُوبةً، ومما قال:

أيا روضةَ الوَضّاحِ ظِلُّكِ وارفٌ ... وأهلُوكِ، لو جادوا علينا بمنزلِ
أخيذُكِ وضاحٌ سلبتِ رشاده ... فإنْ شئتِ أحييه وإن شئتِ فاقتلي

وكانت المأساة أليمةً، لأن (روضة) مرضت بالجذام، فهجرها من هاموا بها، ومنهم وضّاح!.

والرواةُ ينقلون روايةً مكذوبةً عن وضاح، وضعها هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وكان شعوبياً يتعصَّب على العرب، وفحواها أن أمَّ البنين زوجة أمير المؤمنين الوليد قد هامتْ به، وكان يختفي في حجرةٍ بقصرها، وقد فاجأها الخليفة فدسَّته في صندوقٍ خشبي! والقصة مكذوبةٌ، كشف الأستاذ محمد بهجة الأثري زيفها بأدلَّةٍ لا تنقض، ومع هذا الحسم القاطع بتكذيبها فلازلنا نجد من يسطرها، ومن ينسجُ منها مسرحية ذات فصول، والحقُّ أحقُّ أن يتبعَ.

٤٣٨ ـ أبو زبيد الطائي

وهذا مقنَّعٌ آخر، كان يلبس القناع ليخفي عوراً بعينه، وهو شاعرٌ كبير، وقد اختلف في إسلامه، فمن الرواة من نفاه، ومنهم من أيّده، والراجحُ أنه أسلم، لأنه أوصى بأن يدفن إلى جوار والي المدينة، ولن يتمَّ هذا الجوار إلا بين ذوي دينٍ واحدٍ، وكان ذا رحلات يتجه فيها إلى بلاد الفرس، وقد صادفه أسدٌ ضخمٌ في بعض هذه الرحلات، فلم تنجُ القافلة منه إلا بعد هولٍ أيِّ هول، وظلَّ أبو زبيد يروي حديث الأسدِ طيلةَ حياته، ويتحدث عنه شعراً ونثراً، وكتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلاَّم أوْعى كتاب لحديث أبي زُبيد مع الأسد.

ومما يُذكر أن عثمان رضي الله عنه قد استمع إليه، فلم يُطق أن يتمّه لرُعبِ ما وصف، وصاح به: اسكتْ قطع الله لسانك، فقد أفزعت قلوب المسلمين، وكان أبو زبيد ذا تيهٍ وفخرٍ على ما أرعبه من لقاء الأسد.

٤٣٩ ـ من غزل أبي الشيص الخزاعي

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليسَ لي   متـأخَّـرٌ عنـه ولا متقـدَّمُ!
أجدُ الملامَةَ في هواكِ لذيذةً   حُبّاً لذكركِ، فلْيَلُمْني اللُّوَّمُ
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أُحبُّهم   إذا كان حظِّي منك حظِّي منهمُ
وأهنتني فأهنتُ نفسي عامداً   ما من يهونُ عليك ممن يكرَمُ

* * *

قوّة الذاكرة

٤٤٠ ـ عهدُ الرواية

كادَ ينتهي عهد الرواية الشعرية عند أدباء اليوم، إذ إن الذين يحفظون روائع القصائد ومختارات الدواوين على مرِّ العصور أصبحوا من القلَّة بحيث لا يسمع بهم أحدٌ، وقد كُنّا في الجيل الماضي نجد من الأساتذة من يحفِّزنا على الرواية الممتدة في شتَّى عصور الأدب، جاهليةً وإسلاميةً وعباسيةً وأندلسية، وكان الشعر الحديث متطلَّعَ أنظارِنا، فما تظهر قصيدةٌ لشوقي أو حافظ أو أحمد محرم أو مطران أو الجارم حتى يتسابق التلاميذ إلى حفظها، وإلى المباهاة بفرائدها الغالية، حين تضمُّ القصيدة صورةً رائعةً، أو حكمةً بالغةً.

وكانت بعض السهرات الشعرية تنعقد للمطارحات الأدبية، وطريقتُها أن يبتدئ أديبٌ فيروي بيتاً من الشعر، فإذا كانتْ قافيته الميم، ابتدأ زميله فروى بيتاً من الشعر يبتدئ بحرف الميم، فإذا كانت قافيته الباء مثلاً ابتدأ مُطارِجُه ببيتٍ يبتدئ بحرف الباء، فإذا جاءت قافيته دالاً ابتدأ المطارحُ الآخر ببيتٍ من الشعر يبتدئ بحرف الدال.

وكان لأستاذنا الكبير (أحمد شفيع السيد) رحمه الله (أستاذ الأدب العربي بكلِّية اللغة العربية) سبقٌ ظافر في مجالس المطارحات، إذ كان يحفظ خلاصة الدواوين الشعرية، منذ عهد امرئ القيس إلى عهد أحمد شوقي إلا ما لم يقع في يده.

وكذلك كان الأقدمون من الأدباء، يعتمدون على الذاكرة في أكثر ما يرْوُون، فهم ينتخلون عشرات الكتب، وآلاف الأوراق، لينقلوا عنها ما تضمُّ من شعرٍ ونثرٍ، ونوادر وتواريخ، وما عُدِمت الآن جزالة الفكرة، ونصاعة الديباجة إلا بعد ضياع عهد الرواية، واعتماد الشعراء على ما يقرؤون لا على ما يحفظون.

وقد تناقلت كُتبُ التراجم الأدبية القديمة من عجائب الذاكرة ما لا يمكن أن يتطرّقَ إليه الشكُّ، أو تصيبه المبالغة في شيء، لأننا رأينا في العصر الحاضر مصداق ما نقلته الكتب عن سالفي المتقدمين، فقد وفد إلى مصر في مطلع هذا القرن الأديب المغربي الكبير الشيخ (أحمد الأمين الشنقيطي) رحمه الله، فأبدى من عجائب الذاكرة ما كان موقع الدهشة، حيث حفظ مما نعرف ـ قراءةً لا حفظاً ـ من أشعار الدواوين المشتهرة والمخطوطة ما حيَّر الأفهام، بحيث كان لا يُسأل عن شاعرٍ إلا روى عنه، واستجاد له، هذا غير إلمامه الجيد بأحاديث الصحاح في مسانيدها المعروفة إلماماً يشمل المتن والسند! والإلمامُ بالسند عجيبةُ العجائب، لأن الأسماء تتشابه من نصٍّ إلى نصٍّ، ووجود هذا الألمعي في عصرنا الراهن، ومشاهدةُ أساتذتنا إياه، وإجماعُهم على خارقته النادرة في الحفظ مما يُصدّق ما يُروى عن السابقين.

وحين ندعو إلى جودة الحفظ وسعة الرواية واستعادة أمجاد الذاكرة، نذكر بعض الطرف الدالة على صدق ما نشير به من الاهتمام بهذا المنحى، ليرى من يقتصرون اليوم على قراءة الكتب الهشّة، والمجلات المصوّرة، أنهم بمعزلٍ عن المجد، وهؤلاء أحبُّ إلينا مع سطحية ما يحصّلون، من نفرٍ آخرين يكتفون بمشاهدة المسرحيات التلفزيونية، والمسلسلات الإذاعية، وأنباء الكرة، وأخبار الفنانين والممثلات، يكتفون بذلك عن التحصيل الأدبي، ويحسبون أنهم على شيء.

٤٤١ ـ حافظة الإمام البخاري

قدم الإمامُ البخاريُّ إلى بغداد محدّثاً جامعاً حافظاً، لا مثيل له في عصره، فتسامع العلماء بكثرة حفظه، وسعة روايته، فاجتمع إليه نفرٌ من أصحاب الحديث، وعدُّوا له مئة حديث، فقلَبُوا متونها وأسانيدها، إذ جعلوا متن كل حديث من هذه المئة مسنداً إلى رُواة غير رواته، ودفعوا إلى عشرة رجالٍ منهم عشرة أحاديث لكل رجلٍ، وأمروهم إذا حضروا مجلس البخاري أن يَلْقَوه بهذه الأحاديث على وجهها المحرَّف في الإسناد، فلما حان مجلسُ الإمامِ، واطمأنَّ به المجلس، بادرهُ واحدٌ

من العشرة، فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديث، بإسناده المخترع، فقال البخاريُّ رضي الله عنه: لا أعرفه، فكان العلماءُ ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: فهمَ الرجل، ومن كان من العامة يقضي على الإمام بالعجز والقصور وقلّة الاطلاع، ثم انتدب رجلٌ من العشرة فسأله عن حديث آخرَ بإسناده المحرّف، فقال: لا أعرفه، ومازالوا كذلك وهو يقول: لا أعرف، لا أعرف، حتى فرغوا من الأحاديث المقلوبة، فالتفت البخاريُّ إلى الأول منهم، وقال له: أمّا حديثُك الأول فهو كذا، وإسنادُه عن فلان وفلان وفلان لا كما ذكرت، ثم التفت إلى الثاني وفق ترتيبهم في السؤال فقال: أمّا حديثُك الثاني فهو كذا، وإسنادُه عن فلان وفلان وفلان لا كما ذكرت، ثم إلى الثالث فالرابع فالخامس حتى انتهى إلى العاشر، وهو يصحّح كل إسنادٍ، ويردُّ كل متنٍ إلى أصله، فأقرَّ الحاضرون بفضله، واندفعوا إلى يده يقبّلون ويتبرّكون.

هذا وقد بدت قوّة الذاكرة لدى الإمام البخاري في غير الرواية، حين بدأ بالأول فالأول، فذكر لكل سؤال حديثه وصوّبه، ولم يكن السائلون يجلسون في صفٍّ واحدٍ، بل هم متفرّقون في الحلقة الكبيرة، فكان يشير إلى صاحب السؤال وفق ترتيبه في القول، وذلك ما يشهدُ بقوّة الملاحظة، ودقّة الانتباه، وهو بعض ما فُوجئ به المجلس، فوق المفاجأة بقوّة الحفظ، ودقّةِ الإسناد.

٤٤٢ ـ أبو بكر الخوارزمي

توجه الأديب الذائع الصيت أبو بكر الخوارزمي إلى الصاحب بن عبّاد في موطن وزارته بأرّجان، وكانت حضرةُ الصاحب موْردَ القاصدين من أعيان الأدب، وأعلام البيان، وكلهم شائع الذكر، مستفيض الحديث، فلما أتى البابَ وطلب الإذن له بالدخول، قال لأحد الحجّاب: أعلم الصاحب أعزّه الله أن أحد الأدباء ببابه يستأذنُ في الدخول عليه، فذهب الحاجبُ ليؤدّي الرسالة، وكان الصاحبُ ذا صلفٍ وتيهٍ ومباهاةٍ، فقال للحاجب: أخبر صاحبك أني ألزمتُ نفسي ألا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيتٍ من شعر العرب، فأسرعَ الحاجبُ، وأعلم

الخوارزميّ بما قال الصاحب، فقال أبو بكر: ارجع إلى الصاحب واسألْه: أهذا القدر الذي ألزمتَ نفسَك به من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فذهب الحاجبُ وأبلغ الرد، فقال الصاحب: لن يكونَ هذا الزائر غير أبي بكر الخوارزمي فأدخلوه، واحتفل الصاحبُ بالزائر عدَّة أيام، ولكن جفوةً كبرى وقعت بين الرجلين، إذ كان الصاحبُ لا يطيقُ أن يعارضه أحدٌ إذا تكلَّم في الأدب، فما ظنّك بمن يجرؤ على أن يصحّح أخطاءَه، وقد أغدقَ عليه الصاحبُ من العطاء ما أراد به استمالته إلى السكوت، ولكنَّ الخوارزميَّ يرى نفسه بمنزلة الأستاذ من الصاحب، فلا يسكت عن خطأ، وظهرت دلائلُ الجفوةِ والاستثقال في وجه الصاحب، فآثر أبوبكر الخوارزمي أن يرتحل، وما مضتْ شهورٌ حتى لقي ربه، وجاءَ النعيُ إلى حضرة الصاحب، فوقعَ في زلَّةٍ خُلقيّة حين شمت بالرجل شماتةً لا تنتظرُ من كبير في هذا الموقف، فقد قال هذين البيتين:

أقولُ لركبٍ من خوارزمَ قادمٍ: أماتَ خوارزميّكمْ، قالوا: نعم
فقلت: اكتبوا بالجصِّ مِنْ فوقِ قبره ألا لَعَنَ الرَّحْمَنُ من يكفُرُ النِّعَمْ

٤٤٣ ـ المتنبي وأبو العلاء

تحدَّث الشيخ يوسف البديعي في كتاب (أوج التحرّي عن أبي العلاء المعرّي) عن أدباء يتمتعون بقوَّة الذاكرة وصِدْق الرواية، ومنهم الشاعران الشهيران أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري.

فممَّا حكاهُ البديعي عن حافظة أبي الطيب ما رواه عن محمد بن يحيى العلوي، قال:

«كان أبو الطيب المتنبي، وهو صبيٌّ، ملازماً للورّاقين، فكان علمه من دفاترهم، وأخبرني ورَّاقٌ قال: ما رأيت أحفظَ من ابن عَيْدان ـ يريد أبا الطيب ـ فقلتُ له: كيف كان ذلك؟ قال: كان اليومَ عندي وقد أحضرَ رجلٌ كتاباً في نحو ثلاثين ورقةً يريد بيعه، فأخذ ابنُ عيدان ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: ياهذا، أريدُ بيعه، وقد قطعْتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه، فهذا إن شاء الله تعالى

يكون بعد شهر، فقال ابن عيدان: فإن كنتُ قد حفظتُه في هذه المدَّة فماذا لي عليك؟ قال الورَّاق: أهبُ لك الكتاب، قال: فأخذتُ الدفترَ من يده، وأقبل يتلوه، حتى انتهى إلى آخره».

وممَّا حكاه عن أبي العلاء المعري - وكثيراً ما حكي عنه، أنَّ بعض أصحاب المعري قال: كان لأبي العلاء جارٌ سمَّانٌ - يبيع السمنَ - وكان بينه وبين رجلٍ من أهل المعرَّة معاملة، فجاءه ذلك الرجل، وحاسبه برقاعٍ يستدعي فيها ما يأخذُه منه عند حاجته إليه، وكان أبو العلاء يسمع محاسبتهما، وبعد مدَّةٍ وجد أبو العلاء جاره السمان يتأوَّهُ ويتململ، فسأله عن حاله فقال: كنتُ حاسبتُ فلاناً برقاعٍ كانت له عندي، وقد عَدِمتُها، ولا يحضرني حسابه، فقال أبو العلاء: ما عليكَ من بأسٍ، أنا أملي عليك حسابه، وأخذ يملي الحسابَ رقعةً رقعةً، والسمان يكتبٍ حتى فرغ، فما مضيت إلا أيامٌ يسيرة، حتى وجد السمَّانُ رقاعه الضائعة، فقابل بينها وبين ما أملى أبو العلاء، فطابقَ إملاؤه الواقع.

قلت: وهذا في أرقامٍ حسابية قد يضلُّ فيها الذهن لكثرتها، وحفظ القصائد أهونُ من حفظها بكثير، فلا نعجب إذا كان المعري قد حفظ كل ما سمع من الشعر للمرة الأولى.

ونظير ذلك ما ذكره البديعي أيضاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، نقلاً عن المبرد صاحب (الكامل) حيث روى أنَّ نافعَ بن الأزرق، وكان مِنْ أعلم الناس بفقه الخوارج أتى ابن عباس يوماً، فجعل يسأله في أحكام مختلفةٍ حتى أملَّه، وابن عباس يظهر الضجرَ، ثم مرَّ عليهما عمرُ بن أبي ربيعة وهو في أوائل شبابه، فسلَّم وجلس، فقال له ابن عباس: ألا تُنشدنا شيئاً من شعرك، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ ... غداةَ غدٍ أَمْ رائحٌ فمهجّرُ؟

حتى أتمَّها. وعددُ أبياتها ثمانون، فقال ابنُ الأزرق لابن عباس، لله أنتَ يا ابن عباس، نضرب إليك أكباد الإبل لنسألك عن أحكام الدين فتُعرِض، ثم

يأتيك غلامٌ من قريش، فينشدك سفهاً فتسمعُه!!

قال ابن عباس: تالله ما سمعتُ سفهاً.

فقال ابن الأزرق: لقد قال هذا الغلام:

رأتْ رجلاً أمَّا إذا الشمسُ عارضَتْ فَيُخْـزَى وأمـا بـالعَشِـيِّ فَيُخْسِـرُ

فردَّ ابن عباس: ما هكذا قال الغلام، وإنما قال:

رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ فيضحـى، وأمـا بـالعشـي فَيُخْصِـرُ

فتعجَّب نافع، وقال أوَ تحفظ كلَّ ما سمعته الآن.

قال: نعم، ولم أسمعْه إلا الآن! ولو شئتَ لأنشدُتك جميع ما قال.

قال نافع: إذنْ فأنشد، فردَّد ابن عباس الأبيات جميعها!.

قلت: وقد تكون الأبيات أقلّ من ثمانين، وقد يكون ابن عباس قد اكتفى ببعض عن بعض، لأنه بشر، ولكن ذلك لا يمنع الاعتراف بقوة ذاكرته، وصدق روايته، وهذا ما نعنيه.

٤٤٤ ـ حافظ الرواية

كتب أستاذنا الجليل (محمد هاشم عطية) فصلاً بديعاً عن حافظ إبراهيم الشاعر الراوية بمجلة دار العلوم (يونية سنة ١٩٣٧) ذكر فيه سَعةَ اطِّلاع شاعر النيل، وقوة حافظته، وشمول روايته الشعرية لكبار الشعراء في الصدر الأول من عصور العربية الزاهرة جاهليةً وأموية وعباسية، ثم قال رحمه الله:

وكنا حوله ليلةً وهو يتغنَّى بقصيدة أبي تمَّام التي مطلعها:

الحـقّ أبلـجُ والسيـوفُ عـوارِ فحـذارِ مـن أُسـدِ العـريـنِ حـذارِ

حتى وصل إلى قول الطائي:

سُودُ اللبـاسِ كـأنمـا نُسِجتْ لهـم ... أيـدي الجنـوبِ مطـارِفـاً مِـنْ قـارِ
بكـروا وأسْـروا فـي مُتون ضَـوَامِـرٍ ... قيـدتْ لهـم مـن مَـرْبـطِ النجـارِ
لا يبـرحـون ومَـنْ رآهُـمْ خـالَهُـم ... أبـداً علـى سَفَـرٍ مـن الأسفـارِ

ثم التفت حافظ إلى أصحابه فسأل: ماذا يصف أبو تمَّام بهذه الأبيـات؟ فقال أحدنا: يصف خيلاً، وقال آخر: يصف فرساناً، فتهافت بما سمع، وقال: لا، بل يصفُ قوماً مصلوبيـن على جذوع الخشب التي اقتيدت لهم من مربـط النجار.

وقال الأستاذ هاشم: أما ما أذاعه حافظ للبحتري وأبي الطيب والشريف، والمعري، فيضيق بنا المقام لو جلوناه، وبهذا وأشباهه سيّر حافظ هذه الأشعار في طبقات المتعلِّمين.

٤٤٥ ـ من شعر حافظ داعياً للجديد

ملأنا طباقَ الأرضِ وجْداً ولوعةً ... بهنـدٍ ودَعْـدٍ والـرَّبـابِ ويـوزعِ
ومَلَّـتْ بنـاتُ الشعـرِ منـا مـواقفـاً ... بِسقـطِ اللّـوَى والـرقمتيـن ولعلـعِ
وأقوامُنا في الشرقِ قد طالَ نومهم ... ومـا كـان نـومُ الشعـرِ بـالمتـوقَّـعِ
فنحـنُ كمـا غَنّـى الأوائـلُ لـم نـزلْ ... نغنّـي بـأرمـاحٍ وبيـضٍ وأدْرُعِ
عرفنا مدى الشيءِ القديم، فهل مدًى ... لشـيءٍ جديد، حاضرِ النفعِ، ممتعِ؟

* * *

نوادر تاريخية

٤٤٦ ـ عن سيف الدولة

قدم الشاعر الناشئ على سيف الدولة الحمداني فمدحه بقصيدةٍ من غرر قصائده، فتباطأ عن جائزته، وقال له: إذا حُمِلَ المالُ إلينا أرضيناك، ونُحسنُ إليك، فخرج الناشئ مُكتئباً، فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تُذبح لها السخال لتأكلَ لحومها، فقال هذين البيتين مخاطباً الأمير:

رأيتُ ببابِ دارِكم كلاباً تُغذّيها، وتُطعِمها السخالا
وما في الأرضِ أدبر من أديبٍ يكونُ الكلبُ أحسنُ منه حالا

ثم اتّفق أن حُمل إلى سيف الدولة مالٌ كثيرٌ على بغالٍ فضاع منها بغلٌ بما عليه، وقدرهُ عشرة آلاف دينار، وشرد البغل حتى وقف عند باب الشاعر الناشئ، فسمع حِسَّه، فظنَّه لصّاً، وخرج إليه بالسلاح، فوجده بغلاً موقراً بالمال، فأخذ ما عليه من الدنانير وأطلقه، ثم قدم بعد حين إلى حلب فمدحه بقصيدة قال فيها:

ومَنْ ظنَّ أنَّ الرزقَ يأتي بحيلةٍ فقد كذّبته نفسُه وهو آثمُ
يفوتُ الغنى مَنْ لا ينامُ على السُّرَى وآخرُ يأتي رزقُه وهو نائمُ

فقال له سيف الدولة: بحياتي، أوَصلَ إليكَ المالُ الذي حمله البغل؟ قال: نعم، قال: خُذه جائزتك مباركاً لك فيه، فقيل لسيف الدولة: وكيف عرفتَ ذلك؟ قال: عرفته من قوله:

وآخر يأتي رزقه وهو نائم

بعد أن قال: يكون الكلب أحسن منه حالا.

٤٤٧ ـ نادرة مشابهة

حكى يحيى بن عروة بن أُذينة، وكان عروة شاعراً غَزِلاً من شعراء المدينة، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين، روى عنه نفر من كبار العلماء منهم مالك بن أنس رضي الله عنه؛ قال يحيى عن أبيه، إنه سافر من المدينة إلى الشام مع جماعة من الشعراء، فقابل هشام بن عبد الملك أميرَ المؤمنين، فلمَّا عرفه هشام، وكان يضيق بشعراء المدينة وعلمائها قال له: أنتَ القائلُ:

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلقي ... أن الذي هو رزقي سوفَ يأتيني
أسعى له فيعنّيني تطلّبُه ... ولو قعدتُ أتاني لا يُعنّيني
وأن حظَّ امرئٍ غيري سيطلبُه ... لابدَّ لابدَّ أن يحتازَه دوني
كمْ من فقيرٍ غنّي النفسِ تعرفُه ... ومِن غنيّ فقير النفس مسكين

فقال عروة: نعم أنا القائل ياأمير المومنين، فقال له: أفلا قعدتَ في بيتك إذن حتى يأتيك رزقُك؟ وتغافل عنه، فخرج عروة من وقته، فركبَ راحلتَه مُنصرفاً إلى المدينة، وافتقده هشام فلم يجده، فراجعَ نفسه، وأتبعه بجائزة، وقال لرسوله إليه: قل لعروة أردتَ أن تكذِّبنا وتصدّق نفسك، فلحقهُ الرسولُ، وقد نزل على ماءٍ يتغدّى عليه، فأبلغه قولَ هشام، وقدَّم إليه الجائزة، فقال عروة: قلْ لأمير المؤمنين قد صدّقني ربّي.

٤٤٨ ـ من غزل عروة

كان عروة بن أذينة نازلاً عند صديقه عروة بن عبيد الله بالعقيق، فأنشده من غزله الرقيق:

إنَّ التي زعمتْ فؤادَك ملَّها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاءُ باكرها النعيمُ فصاغَها ... بلباقةٍ، فأدقَّها، وأجلَّها
منعت تحيَّتها فقلتُ لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلّها
فدنا وقال: لعلَّها معذورة ... في بعض رقبتها، فقلت: لعلّها

وإذا وجـدت لهـا وسـاوس سلـوة شفـع الفـؤاد إلـى الضمير فسلّهـا

قال عروةُ صديق الشاعر: فما لبثتُ أن جاءني أبو السائب المخزومي ـ أحدُ ظرفاء المدينة ـ فقلت له بعد أن رحّبتُ به: هل لك من حاجة؟ قال: نعم، أبيات غزلية عرفتُ أن عروةَ بن أذينة قد أسمعها لك، فقلتُ لـه: وأيّ أبيـاتٍ؟ فقال أبـو السائب: وهل يخفى القمر؟ قوله: (إن التي زعمت فؤادك ملّها) فأنشدتُه إياها، فطرب أبو السائب طرباً شديداً، وجعل يردد:

فـدنـا وقـال: لعلّهـا معـذورة فـي بعـض رقبتهـا، فقلـت: لعلّهـا

ثم قال: أحسنَ والله عروة، هذا هـو الدائم الصادق العهـد، الشـريف الصبابة، لا الذي يقول:

إن كـان أهلـك يمنعـونـك رغبـةً عنـي فـأهلـي بـي أضـنُّ وأرغـبُ

لا صحبهُ الله ولا وسَّع عليه، لقد عدا هذا الأعرابيُّ طورَه، وإني لأرجو أن يغفر الله لعروة بن أذينة لحسن ظنّه بصاحبته، وطلبه العذر لها.

قال عروةُ صاحب المنزل، فعرضتُ على أبي السائب الطعامَ، فقال: لا والله ما كنتُ لأخلطَ بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل.

٤٤٩ ـ طرفتان عن أبي السائب

ولأبي السائب المخزوميِّ طُرَفٌ كثيرة، تمتلئ بها كتبُ الأدب، وحبَّذا أن ينهضَ أحدُ الفضلاء لجمعها في كتاب واحد، فتكون ثروةً ذوقيةً رائعةً، وأرشِّحُ لذلك الدكتور (إسلام الصادي) فهو كَلِفٌ بأبي السائب:

فأولى الطرفتين اللتين أذكرهما، ما حكاه ابن عبد ربّه إذ قال في (العقد): خرجَ أبو السائب المخزومي مع ابن أبي عتيق يتنزَّهان في بعض نواحي مكة، فمال أبو السـائب لأمرٍ، وعلى رأسه طويلته، ثم رجع بدونها، فقال له ابن أبي عتيق: ما فعلتْ طويلتك؟ فقال أبو السائب: تذكرتُ قول كُثَيِّر:

أرى الإزارَ علــى ليلــى فــأحســده إن الإزارَ علــى مــا ضــمَّ محســود

فتصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه، فأخذ ابن أبي عتيق طويلته، ورمى بها، وظلَّ عاري الرأس، فقال له أبو السائب: ولماذا تقلّدني في أمرٍ أعرفُ معناه دونك، فقال ابن أبي عتيق: أتسبقني إلى برّ شياطين الشعراء!.

أما الطرفة الثانية فقد رواها صاحب الأغاني في ترجمة الشاعر العَرْجي عن بعض أصحاب أبي السائب، قال:

أتاني أبو السائب المخزومي ليلةً بعد ما رقد السامِرُ، فأشرفتُ عليه، فقال: سهرتُ وذكرتُ أخاً أستمتعُ بحديثه فلم أجد سواك، فلو مضينا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا، فزلتُ إليه، وصحبته إلى حيث يريد، وأنشدته قول العَرْجي:

بــاتــا بــأنعــمِ ليلــةٍ حتــى بَــدَا صُبْــحٌ تلــوَّح كــالأغــرِّ الأشقــرِ
فتــلازمــا عنــدَ الفــراقِ صبــابــةً أخْـذ الغـريـمِ بفضـلِ ثـوبِ المُعْسِـرِ

فقال أبو السائب: أعْدهُ عليَّ؛ فأعدته، فقال: أحسنَ والله، امرأتي طالق إن نطقتُ بحرف غيره حتى أرجعَ إلى بيتي، قال: فلقينا عبد الله بن حسن بن حسن، فلما صرنا إليه وقف بنا، وهو منصرف إلى المدينة، فسلَّم، ثم قال: كيفَ أنتَ ياأبا السائب، فقال له:

فتــلازمــا عنــدَ الفــراقِ صبــابــةً أخْـذ الغـريـمِ بفضـلِ ثـوبِ المُعْسِـرِ

فالتفت عبد الله إليَّ، وقال: متى أنكرت صاحبك؟ فقلتُ: منذ الليلـة، فقال: إنا لله، أيُّ كهلٍ أُصيبت منه قريش؟ ثم مضينا، فلقيتُ محمد بن عمـران التيمي قاضي المدينة، ومعه غلامٌ على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة، فسلَّم، وقال: كيف أنتَ ياأبا السائب؟ فقال:

فتــلازمــا عنــدَ الفــراقِ صبــابــةً أخْـذ الغـريـمِ بفضـلِ ثـوبِ المُعْسِـرِ

فالتفت إليَّ، وقال: متى أنكرتَ صاحبك؟ قلت: آنفاً، فلما أراد المضيّ

قلت: أفندعه هكذا؟ والله ما آمن عليه أن يسقط في بعض آبار العقيق، قال: صدقت، ثم صاح القاضي بغلامه ياغلام! هاتِ قيد البغلة، فأخذَ القيدَ ووضعه في رجل أبي السائب وهو يقول:

فتلازما عندَ الفراقِ صبابةً أخْذ الغريمِ بفضلِ ثوبِ المُعْسِرِ

ثم يشير إلى القاضي بيده، ليعلمه أنه عاقل، لكنه حلف ألا ينطق بغير هذا البيت، ولكن القاضي لم يفهم، فقال لغلامه: احمله على البغلة، وألحقه بأهله، حتى نطمئنَّ عليه، ثم علم القاضي بحقيقة الأمر من بعد، فقال لصاحب أبي السائب: قبَّحك الله ماجناً، لقد فضحت رجلاً من قريش، وخدعتني!.

٤٥٠ ـ تصحيح خطأ

للأستاذ الكبير (محمود مصطفى) سبقٌ في التأليف العلمي، وتبريزٌ في التحقيق الأدبي، ومؤلفاته ومقالاته أكبر شاهد على فضله رحمه الله رحمة واسعة، وقد حقَّق كتاب (هبة الأيام فيما يتعلَّق بأبي تمَّام) للشيخ يوسف البديعي قاضي الموصل، فصدر عن علم جمٍّ، ونقدٍ بصيرٍ، حتى أصبحت الهوامش التي كتبها في تعليقاته أكثر فائدة من أصل الكتاب. وقد ذكر البديعي قصيدةً للقاضي ابن شدَّاد جواباً لقصيدة قالها أبو الفتح ابن التعاويذي، وفيها يقول القاضي:

يا أبا الفتح الذي أضحى لأهلِ الدين قُدوهْ
والذي حلَّ من العليا ءِ في أسمَقِ ذِروهْ
وهو في الشعر وفي العلمِ كحسّانٍ وعُروهْ

فقال الأستاذ (محمود مصطفى) في هوامشه الدقيقة تعليقاً على البيت الأخير ما نصّه:

حسان بن ثابت الأنصاري، هو شاعر رسول الله ﷺ وأمرُه مشهور، وعروة من شعراء العرب كثيرون فمنهم عروة بن حزام العُذري، ومن شعره قولُه في (عفراء):

متى تكشِفا عني القميصَ تبيّنا   بي الضرَّ من عفراء يافتيانِ
إذنْ تريا لحماً قليلاً وأعظماً   بليْنَ، وقلباً دائم الخفقانِ
جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حكمَهُ   وعرّافِ نجدٍ إنْ هما شفياني
فما تركا مِنْ حيلةٍ يعرفانها   ولا شربة إلا وقد سقياني
ورشَّا على وجهي من الماءِ ساعةً   وقاما مع العوّادِ يبتدراني
وقالا: شفاك الله، والله ما لنا   بما ضمنت منك الضلوعِ يدانِ

ومنهم (عروة بن الورد) الذي يُسمَّى عروة الصعاليك، لأنه كان الرئيس عليهم، يجمعهم، ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم، ويعُولهم إذا لم يكن لهم معاشٌ، ومن شعره الدال على مذهبه قوله في قصيدة:

وإني امرؤٌ عافي إنائي شركةٌ   وأنتَ امرؤ عافي إنائك واحدُ
أتهزأ مني أن سمنتَ وأن ترى   بجسمي شحوبَ الحقِّ، والحقُّ جاهِدُ
أفرِّقُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ   وأحسو قَراحَ الماءِ، والماءُ باردُ

هذا ما قاله الأستاذ محمود مصطفى، وقد نقلتُه على طوله النسبيّ لما يحمل من هدف كريم، ويضمُّ من شعر صادق مؤثِّر، ولكن قول الأستاذ: إن عروة من شعراء العرب كثيرون منهم عروة بن حزام، وعروة بن الورد في حاجةٍ إلى تصحيح لأن الشاعر يقول:

وهو في الشعر وفي العلم كحسانٍ وعروة

فعيَّن الشعر والعلم معاً، وعروةُ بن حزام وعروةُ بن الورد شاعران وليسا بعالمين، وقد ذكر (حسان) في مقابل قوله (في الشعر) فلابدَّ أن يكون (عروة) عالماً ليأتي مقابلاً لقوله (وفي العلم).

وإذن فالمراد إما عروة بن الزبير محدّث المدينة وفقيهها، وإما عروة بن أذينة الذي تحدثنا عنه من قبل، وهو كما عرفنا شاعر لم يكتف بالشاعرية، بل أضاف إليها العلم الغزير حتى عُدَّ من كبار الفقهاء، وهو أستاذ مالك بن أنس،

ولعلَّه من يعنيه ابن شدَّاد في قصيدته، وهي تحفةٌ بارعةٌ ذكرها البديعيُّ في (هبة الأيام) ومطلعُها:

بـــأبــــي معتــــدل القــــامــــةِ ... فــــي عطفيْــــه نشــــوه
حــــاكــــمٌ فــــي مُهَــــجِ العُشَّــــا ... قِ لا يقبَــــلُ رشــــوه

ومطلع قصيدة ابن التعاويذيّ:

بــــأبــــي مــــن ذُبــــتُ فــــي ... الحــــبِّ لــــهُ شــــوقــــاً وصبــــوهْ
كلَّمــــا زادَ جفــــاءً ... زادَ مــــن قلبــــي حَظْــــوَهْ

فهل مَنْ يُوازن بين القصيدتين ليمضي حديثهما طريفاً بين الأدباء؟ أو أن عصر الموازنات قد فات!!.

* * *

الفهرس

* * *

اقـرأ

للمؤلف من منشورات دار القلم ـ دمشق

- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (١ ـ ٥) تجليد فني .
- مصطفى صادق الرافعي (ضمن سلسلة أعلام المسلمين) .
- صلاح الدين الأيوبي (ضمن سلسلة أعلام المسلمين) .
- هارون الرشيد (ضمن سلسلة أعلام المسلمين) .
- مع الأبطال (غلاف) .